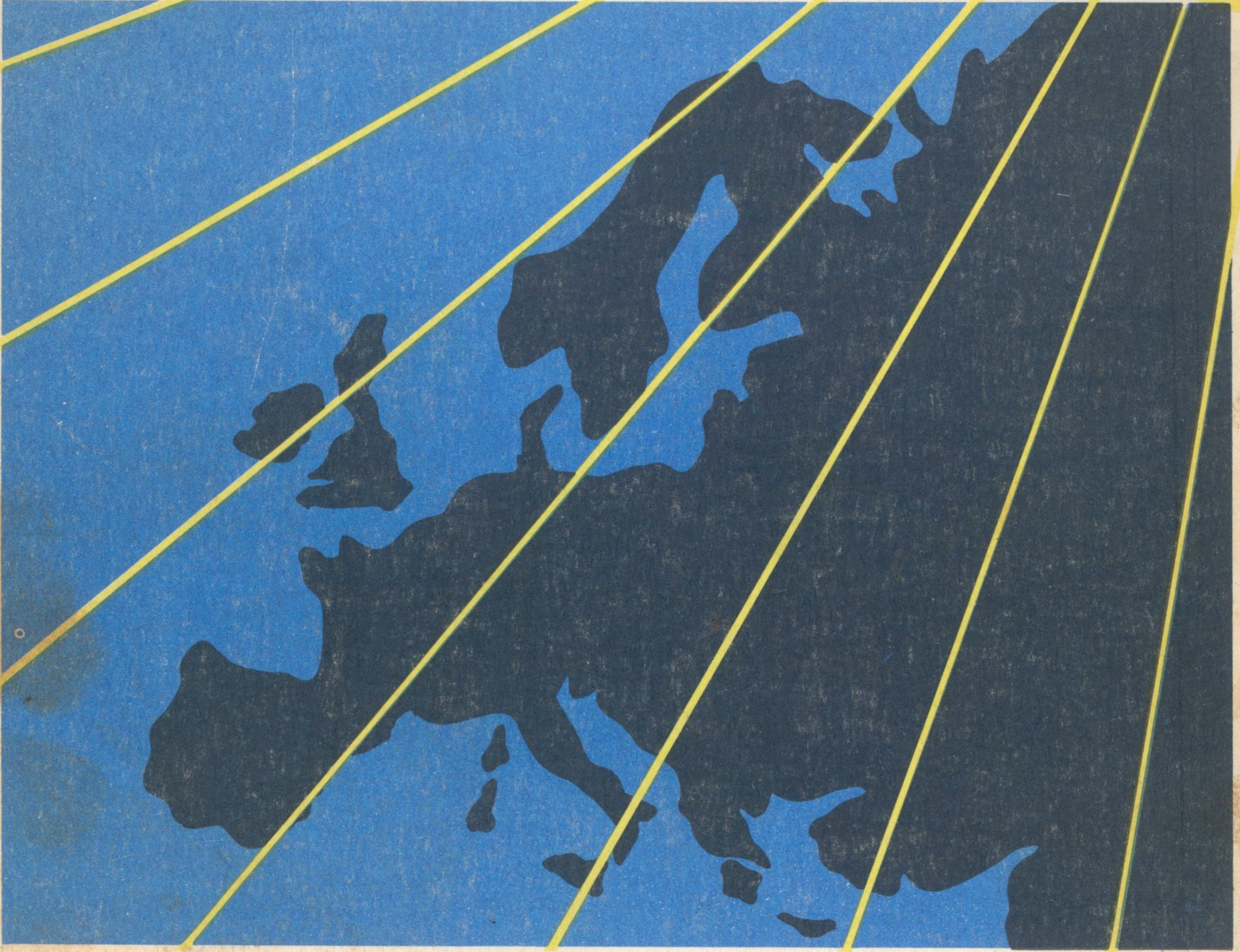


شمس اللہ علی الغرب



فضل العرب علی اوروبا

تألیف: زیجرید ہونکے

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شمس اللہ علی الغرب

فضل العرب علی اوريا

شمس الله على الغرب

فضل العرب على أوربا

تأليف
الدكتورة سيجريد هونكه

ترجمه وحققه وعلق عليه
الدكتور فؤاد حنين على

دار المعارف بمصر

مقدمة الطبعة الثانية

للأستاذ الدكتور فؤاد حسنين على

شمس الله

هذا هو الاسم الذى أطلقه مريدو « سيجريد هونكه » عليها بعد أن تقدمت الصفوف وحملت لواء العروبة عالياً خفاقاً فى كل مكان . إن كتابها « فضل العرب على أوربا » أو « شمس الله على الغرب » قد انطلق كاللارد عبر القارات والمحيطات متحدياً أعداء العروبة وخصومها : ففتحت له الجامعات أبوابها وحفلت مكاتبها ومكتبات المعاهد والمدارس بالعدد الوفير منه . كما ازدهت به قصور الملوك ورؤساء الدول ومشايخ الإسلام ورجال الإفتاء ، وفاضت الصحافة العالمية فى مختلف لغاتها وأوطانها بالحديث عن العرب وفضلهم ، وعن حبيبة العرب وعلمها الغزير . ولم يكتف الكتاب بعرض الكتاب ومحتوياته ، بل عنوا بتقديم الصور الناطقة لشمس الله فى قاعة بحثها . والى هى عبارة عن متحف عربى يضم الكثير من آثار العروبة وتراثها ، وعلى كل قطعة من هذا التراث إهداء عظيم من عظماء العرب ورجالاتهم . وتقع هذه الدار التى أصبحت مزاراً لكثير من رجال السياسة والقلم فى شارع « ناهيه فيج رقم ٢ Nahe Weg 2 » فى العاصمة المؤقتة لألمانيا . ومن الصور الطريفة أيضاً لشمس الله وهى بين أفراد أسرتها وتضم غير زوجها ابناً وابنتين ، أو وهى تعزف على رباب عربى قديم . وقد أهداها إليها حاكم « زاجورا » ببلاد المغرب أو غيرها من الآلات الموسيقية العربية المختلفة ، أو وهى فى المطبخ حيث تعد « الكسكسى » أو « المصقعة » . وشهرة شمس الله لا تقل أهمية عن رؤساء الجمهورية الألمانية فهى أنى تحل موضع الحفاوة والتكريم . ويدهش « سيجريد هونكه » انتشار كتابها فى العالم العربى وذلك لأنها تعتقد أنها لم تضعه للعرب بل للأوربيين ، وذلك لأنها كما تقول فى صراحة ألمانية : « إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدى موقف عدائى بعيد البعد كله عن الإنصاف والعدالة ، والتاريخ وقتذاك كان يملئ ويصنع ولم يكن المملئ هو الضمير بل التعصب

الأعمى ... » وتزداد إعجاباً من كثرة اللغات التي ترجم إليها ، فإلى جانب العربية نجده في الفرنسية والإيطالية والتركية والإندونيسية ولغات أخرى كثيرة . والواقع أن كتاب شمس الله من أهم العوامل التي تساعد على بلورة الشخصية العربية وبعثها حياً خلافاً ، وقد تنبه زعماء العروبة للمؤلفة فأولوها عنايتهم واهتمامهم فدعوها لزيارة بلادهم سواء في شرق العالم العربي أو غربه .

وإذا ذكرنا « شمس الله » يجب ألا تفوتنا الإشارة إلى زوجها الفاضل الكريم « بيتر شولتز Peter Schulze » أو كما يطلق عليه سكان شمال أفريقيا « الشيخ محمد الطويل » فقد عشق العروبة والعربية في مختلف لهجاتها ، وتطوع مشكوراً لتلقي بعض أبناء المسلمين القرآن الكريم في بلاد المغرب ، وقد كان وقتذاك من كبار موظفي القنصلية الألمانية العامة في الرباط . حيث تعرف إلى شريكة حياته فالتقى قلبان ينبضان حباً للعروبة وأبنائها . وهو اليوم ممثل العروبة في إدارة الإعلام الألمانية . وتهوى « شمس الله » إلى جانب التأليف والرحلات في البلاد العربية وبواديها ، التصوير السينمائي والإخراج وما سجلته للعرب في كتابها كلاماً مقروءاً أخرجته فيلماً مصوراً ناطقاً يعرف باسم « على هدى العرب Aufden Spuren der Araber » ولها غير هذا الفيلم أفلام أخرى لكثير من البلاد العربية وهي تعرضها فخورة بما آثر العرب وأياديهم البيضاء على الإنسانية ، وحريصة على نعتة « تراثنا العربي » تعنى ما ورثته أوروبا عن العرب .

وصديقة العروبة في السراء مخلصه لها وفيه في الضراء ، فهي لم تكد تعلم بالنكسة التي حلت بنا حتى سارعت وضاعفت من نشاطها فشجذت همم الألمان لناصرتنا ومد يد المساعدة لخلاصنا من كبوتنا ، فخطبت وكتبت وأذاعت وحشدت خيرة القوم من أصدقاء العروبة من الألمان ، وساهمت في إقامة معرض شعاره « الأرض المقدسة العدالة للأردن » يصور حالة اللاجئين العرب ، وقد أقيم المعرض في قاعة بيتهوفن الموسيقار الخالد ، وكان ذلك في شهر يونيو ١٩٦٨ ، وأشرفت على تنظيمه جمعية الصداقة الألمانية الأردنية بالتعاون مع مكتب الإعلام والسياحة الأردني في مدينة فرنكفورت .

وشاهد الزائر فيها شاهد صوراً للحرم الشريف في القدس والكنائس في بيت لحم ، وألقت « سيجريد هونكه » خطاباً جامعاً استعرضت فيه بطولات العرب وحسن سجايهم إذ ضربوا المثل الأعلى في المروءة والتسامح ، وسأقت لذلك مثلاً موقف العرب

عند فتح مصر والاستيلاء على الإسكندرية عام ٦٤٢ م فقد منعوا التخريب أو التدمير وقدموا لرعاياهم الضمان الأكيد لحرية العقيدة وعهداً نصه :

« هذا عهد أمان يشمل جميع المسيحيين والقسيسين والرهبان والراهبات جميعاً وهو يضمن لهم شرفهم ويضمن لهم حمايتهم أينما كانوا ويضمن حماية كنائسهم ومزاراتهم وكذلك زوار هذه المناطق من الجيورجيين والأحباش واليعقوبيين والنساطرة وجميع الطوائف التي تؤمن بالنبي عيسى وجميع هؤلاء يستحقون الرعاية ذلك لأنه سبق للنبي محمد أن أمنهم بعهد عليه خاتمه وأوصانا فيه بأن نكون رحماء بهم وأن نكفل لهم الأمان » .

وأشارت الخطيبة أيضاً إلى الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في أسبانيا على يد المسيحيين قبل مجيء العرب الذين حرروهم ومكنوهم من الحياة الإنسانية الكريمة ، وبعد ضياع الأندلس . وهذا التسامح ما زال حتى يومنا هذا من أخص سجايا العرب . ثم انتقلت إلى القدس العربية فذكرت تاريخها وما تمتعت به من سلام واستقرار هذا إلى توطيد علاقات الود والمحبة بين العرب والقيصر الألماني فريدريش الثاني الذي عشق العروبة والعربية فنظم فيها الشعر وسال قلمه بالنثر العربي الفنى . ونظم خطابها بمقابلة بين الوضع الحالى للأراضى المقدسة ووضعها إبان السيادة العربية .

وفى عام ١٩٦٤ نشرت «شمس الله» بحثاً طريفاً حول الآداب الشرقية ، وقابلت بينها وبين الآداب الأوربية ، وذلك ضمن معجم الناشر فيشر^(١) أضافت فيه الشيء الكثير إلى معرفتنا عن العرب وآدابهم .

وأرجو صادقاً لمنصفة العرب وزوجها الكريم حياة علمية طويلة زاخرة بالبحوث الطلية إنصافاً للحق ونصرة للإنسانية . إن شمس الله خير من هذه الجمعية التي تصمم آذاننا ولا نرى طحناً .

مقدمة المؤلف

من خطئ الرأي أن ننظر إلى أوربا على أنها هي وهي فقط العالم الحديث ، ومن الحماسة أن نقول إن تاريخ أوربا هو تاريخ هذا العالم ، وذلك لأنه مما لا شك فيه أن سائر القارات التي يتكون منها عالمنا هذا ساهمت وتساهم في تكييف الأحداث العالمية التي تخضع لها شعوب المعمورة . ويكفي أن ننظر إلى خريطة عالمنا هذا في العصور الوسطى لنرى كيف يحاصر البحر المتوسط جنوب القارة الأوربية ، ويخضعها للسلطان الثقافي لأثينا وروما . أما اليوم فقد شاء الله أن تزول هذه الغشاوة عن أعيننا وأن يتسع صدرنا للحقيقة فلا نغمت الشعوب الأخرى التي ساهمت في إيقاظ الوعي الإنساني وبعث ثقافة إنسانية رفيعة أثرت وتؤثر حتى يومنا هذا لا في أوربا فقط بل في مختلف أرجاء العالم المتحضر . وشاء الله أن يظهر من الأوربيين من يجرؤ وينادي بهذه الحقيقة فلا نغمت العرب حقهم في أنهم حملوا رسالة عالمية ، وأدوا خدمة إنسانية للثقافة البشرية قديماً وحديثاً . إن هذا النفر من الأوربيين المنصفين لا يأبه لتحدي أولئك المتعصبين الذين أعماهم تعصبهم الديني فحاولوا جهد طاقتهم طمس معالم هذه الحضارة العربية أو التقليل من شأنها .

إن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وإن الدين الذي في عتق أوربا وسائر القارات الأخرى للعرب كبير جداً . وكان يجب على أوربا أن تعترف بهذا الصنيع منذ زمن بعيد . لكن التعصب الديني واختلاف العقائد أعمى عيوننا وترك عليها غشاوة حتى إننا نقرأ ثمانية وتسعين كتاباً من مائة فلا نجد فيها إشارة لفضل العرب وما أسدوه إلينا من علم ومعرفة ، اللهم إلا هذه الإشارة العابرة إلى أن دور العرب لا يتعدى دور ساعي البريد الذي نقل إليهم التراث اليوناني . أما العربي فلم يأت بجديد ولم يحتمق رسالة . إن النهضة العلمية الحديثة كشفت الغطاء عن حضارات الشرق القديم ، وبخاصة مصر وبابل وأشور ، ولم يعد سراً أن مصر هي الوطن الذي بزغ فيه فجر الضمير ، وأن هذا الشرق العربي القديم هو وطن الوحي

ومبعث الفنون والعلوم والآداب . وإذا ما انتقل الباحث إلى بيزنطة ليقفز منها إلى المسيحية في العصور الوسطى ، فالعصور الحديثة ، ازداد شكه في اليونان وروما وأيقن أن أوربا بأثينا وروما لا تستحق كل هذه العناية ، وأن ما يحاول المغرضون خلعه عليها ما هو إلا سراب لا يقوى على البقاء أمام شمس الشرق العربي إذا ما سطعت وبلدت ضباب الغرب وسحابه ومطره وثلوجه . إنها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوربيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل ، وأن هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان أو الرومان ولا يقررون هذا . إن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالا يشعون على العالم علماً وفناً وأدباً وحضارة ، كما أخذوا بيد أوربا وأخرجوها من الظلمات إلى النور ، ونشروا لواء المدنية أنى ذهبوا في أقاصى البلاد ودانها سواء في آسيا أو إفريقيا أو أوربا ثم تنكر أوربا على العرب الاعتراف بهذا الفضل . إن المذاهب الإنسانية الحديثة أصبحت غير مذاهب العصور الوسطى ، وشعار الأوربي اليوم محاولة فهم عدو الأمس وتحويله إلى صديق ، وذلك بالاعتراف له بمكانته العالمية وما أسداه للأوربيين وغيرهم من معرفة وألا يسعى الأوربي جاهداً إلى طمس هذه المكانة وإخفاء معالمها .

إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدى موقف عدائى بعيد كل البعد عن الإنصاف والعدالة ، والتاريخ وقتذاك كان يملئ ويصنع ، والمملئ لم يكن الضمير بل التعصب الأعمى . إن مثل هذا الوضع كان مفهوماً في عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوربيين عقائدياً ، ومما يؤسف له حقاً أن هذه النظرة القديمة التى كان مبعثها الظن في أن الاعتراف للعربي بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية . ما زالت قائمة حتى اليوم والتعصب الدينى ما زال جاداً في إقامة الحواجز بين الأوربيين والشعوب الأخرى إذ ينظر الغربي إليهم كما لو أنهم مجرمون وثنيون وسحرة . ومن آثار هذه النظرة أيضاً هذا النزاع الذى نشب ، في عصرنا هذا ، حول نشأة الغزل الغنائى . فالمتعصبون من الأوربيين يشق عليهم الاعتراف بالفضل لصاحبه وأن يقولوا إن هذا الفن عربي الأصل . أليس من العجيب حقاً أن تظهر هذه النعرة في القرن العشرين ؟

إن هذه النظرة الأوربية دليل على ضيق أفق الغربيين وخشيتهم قول الحق

والاعتراف للعرب بفضلهم وبخاصة أنهم غيروا وجه العالم الذي نعيش فيه .
 إن هذا الكتاب يتحدث عن « العرب » و « الثقافة العربية » لا عن الإسلام .
 وذلك لأن نقرأ من غير المسلمين قد ساهموا في هذه الثقافة إلا أن هؤلاء كانوا عرباً ،
 وقد وضعوا كتباً عارضوا فيها المتزمتين من المسلمين . كما أن كثيراً من صفات الحياة
 العقلية العربية يحمل طابع العصر الجاهلي .

ثم لا يفوتنا أن نذكر أن هؤلاء العرب الذين ذكرهم هيرودوت والذين بسطوا
 سلطانهم على شعوب كثيرة . مهدوا للمغلوبين الطريق للاندماج في المجتمع العربي
 لغة وأدباً وعلماً وديناً ، وأصبح الخلق العربي والطبيعة العربية والثقافة العربية والعقيدة
 الإسلامية مثالا يحتذى .

إن هذا الكتاب يتحدث عن الثقافة العربية كما نتحدث الآن عن الثقافة
 الأمريكية . ولا يطلق على عالم مثل الرازي أو ابن سينا أنهما من أبناء الفرس ؛ وذلك
 لأنهما انحدرتا من أسر عاشت أجيالاً متعاقبة في المجتمع العربي وتثقفوا ثقافة عربية
 إسلامية . ومثل هذا النوع من الرجال مثل « دويت د . إيزنهاور » إنه أمريكي
 ولا يمكن أن يقال عنه إنه ألماني .

إن هذا الكتاب يهدف أيضاً إلى تقديم شكر كان يجب أن يقدم إلى العرب
 منذ عصور قديمة ، فالألمان يدينون للعرب بالشئ الكثير ، وليست اللغة الألمانية
 بمستثناة . هذا . مع الإشارة إلى أننا لا ننكر آثار الشعوب الأخرى كاليونان
 والرومان والصينيين والهنود .

إن الأيدي التي نسجت هذا النسيج كثيرة تستحق الشكر .

مقدمة المترجم

ما فتى كثيرون من الأوربيين الذين يعنون بنشأة الثقافات يزيفون التاريخ ؛ فيجملون القبيح ويشوهون الحقائق مدفوعين بعامل الهوس القومى والحنون الوطنى والتعصب الدينى ، وجارى الغربيين بعض أذناهم من الشرقيين فأنكروا على العرب فضلهم ونسبوا كل ما بلغه العالم من حضارة ورقى إلى اليونان وذهب هؤلاء الحانقون على العرب بعيداً فافترضوا باطلاً وقالوا زوراً وافتروا بهتاناً وادعوا أن العرب من التفاهة والغباء بحيث إن الفضل فى تجويدهم للعربية شعراً ونثراً يرجع إلى اليهود . وقد تغاضت السيدة الدكتور « سيجريد هونكه » مؤلفة هذا الكتاب عما صدر عن هؤلاء الشرقيين من أخطاء أو وقعوا فيه من هفوات ، وشغلت نفسها بأبناء جنسها من الأوربيين ، وذلك لأنها كما تقول فى مقدمة كتابها :

« إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدى موقف عدائى بعيد البعد كله عن الإنصاف والعدالة . والتاريخ وقتذاك كان يعلى ويصنع ، ولم يكن المولى هو الضمير بل التعصب الأعمى . إن مثل هذا الوضع كان مفهوماً فى عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوربيين عقائدياً ، وما يؤسف له حقاً أن هذه النظرة القديمة التى كان مبعثها الظن فى أن الاعتراف للعربى بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية ، وما زالت قائمة إلى اليوم ، والتعصب الدينى ما زال جاداً فى إقامة الحواجز بين الأوربيين والشعوب الأخرى . لذلك ينظر الغربى إليهم وكأنهم مجرمون وثنيون وسحرة إن هذا الكتاب يهدف أيضاً إلى تقديم شكر كان يجب أن يقدم إلى العرب منذ عصور قديمة ، فالألمان يدينون للعرب بالشىء الكثير وليست اللغة الألمانية بمستثناة . . . »

فإذا كانت العربية لم تكن على بعض العلماء الأحرار فى ألمانيا فأبناء العروبة أسبق إلى رد حق العرب المسلوب إليهم ولا سيما أن نفرأ من الحانقين من الأوربيين ضلوا وحاولوا أن يضلوا الآخرين . فمثلاً يحلو للدكتور طه حسين أن يتحدث عن

اليهود واليهودية إذا ما عرض للغة العربية وأدبها. ويحلوه الحديث عن اليونان إذا ما تعرض للحضارة العربية الإسلامية ، وقد تكررت منه هذه النغمة وذكرها أكثر من مرة ولم يسكت إلا بعد أن تغيرت الأوضاع في العالم العربي . ففي الجامعة المصرية كان يحلو له التشدد بهذا الرأي فيما يليق به على مستمعيه من محاضرات وقد سجلت له صحيفة الجامعة المصرية في عددها الأول من سنتها الثالثة عام ١٩٢٥ محاضرة هي حلقة من سلسلة محاضراته تحدث فيها عن اليهود وما لهم من أثر فعال لافي الحياة العربية فقط بل في الحياة الأدبية أيضاً ، ويستطرد فيقول « وبعد ذلك كله يمكننا أن نخلص إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود :

١ - أن اليهود أثروا في الأدب العربي أثراً كبيراً جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

٢ - أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب وقد أضلعه مؤلفو العرب .

٣ - أن اليهود انتحلوا شعراً لإثبات سابقهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب .

وانتقلت الجامعة الأهلية إلى الدولة وانتقل معها الدكتور طه فأخذ يكرر نفس الآراء ويدعو لها وأبى إلا أن يذيع دعواه خارج الجامعة فأصدر « في الشعر الجاهلي » ، ولما صادرت الدولة عام ١٩٢٦ أعاد نشره مهذباً بعض التهذيب تحت عنوان « في الأدب الجاهلي » عام ١٩٢٧ .

وفي تلك الفترة أعد الصهيوني إسرائيل ولفنسون (المشرف على البعوث الإسرائيلية إلى إفريقيا الآن) رسالة تحت إشراف الدكتور طه موضوعها « تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام » قدم لها الأستاذ المشرف بمقدمة جاء فيها : « والموضوع في نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جداً في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمة العربية فليس من شك في أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيراً قوياً في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز ، وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود

وفى أنها قد استحال من المحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية .

وهذه الرسالة التي نال بها إسرائيل ولفنسون لقب الدكتوراه من الجامعة المصرية والتي استحق صاحبها من المشرف عليها أن ينعتة بقوله : « فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق إلى الخير في هذا الكتاب الذي قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه ، والذي أقدمه أنا الآن إلى القراء سعيداً مغتبطاً فتوفيقه مضاعف ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، ووفق بعبارة موجزة إلى أن يبسط تاريخ اليهود في البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً في كتاب كانت اللغة العربية في حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة » .

وإني أوافق السيد المشرف في أنه ظفر بهذا البحث اللذيذ؛ لكن أحب أن أقول له إن هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التي كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيوني بإشراف (مارتن بوبر) تدعو إلى نشرها ، وما نقله إسرائيل ولفنسون في رسالته من آراء كان القصد منه إطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء في المصادر الأجنبية التي يجهلها القارئ العام في الشرق. ثم أى شيء من اللذة ومن الدقة في البحث ما يذكره الباحث . ويقره المشرف . في رسالته ص ١٢ :

« لم يظهر شيء من النبوغ والعبقرية في يهود بلاد العرب مطلقاً ولم تشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكرى . وإن كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب إلى المدنية من بقية العرب ، هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخي العرب وعلماء الإفرنج » .

ليس الأمر كما يعتقد المشرف أو يريد أن يعتقد فهذه الرسالة التي أشرف عليها مشحونة بالأخطاء التي لن تصدر عن طالب مبتدئ في البحث وهي صدى لهذه الآراء التي كثيراً ما ردها في الجامعة فضلاً عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة. والسيد المشرف لا يعرف العبرية وأخذ بالنتائج التي ينسبها الباحث إلى هذه المراجع العبرية دون التحقق منها ودون الاستئارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات ، والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا .

إن البحث العلمى يجب ألا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة ، كما لا يتخذ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادى الرخيص ، ويجب أن يسمو عن كل هذا وينظر إليه كقضية عالمية .

والحقيقة التى يجب أن يؤمن بها الجميع أن الباحث لن يخلط بين المثل العليا التى ينشدها وبين الحقيقة ، وبخاصة إذا علمنا أن ما جاءنا عن اليونان أو ما يعرفه أولئك الأوروبيون أو أتباعهم عن اليونانية لا يكاد يتعدى المسائل السطحية بخلاف الحال مع الشرق العربى وحضاراته وما انحدر لنا منها . فالشرق العربى هو مركز الموجات الثقافية العارمة التى أدت إلى هذه الأحداث التاريخية العالمية ، والتى غيرت وجه الوجود فنقلته من البدائية إلى الإنسانية ومن الأنانية إلى الإيثار . ففى مصر بزغ فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا^(١) ، وفى بابل وأشور شريعة حمورابى وفيها الشىء الكثير من هذا التراث الذى نقله واضعوسفر التثنية . ولما عاد اليهود من السبي نقلوا معهم عن العرب البابليين الشىء الكثير مما نجده فى كتابهم المقدس^(٢) ، وعند المعينين السبثيين العمارة وهندسة الرى والتجارة . وقصة ملكة سبأ والدور الذى تلعبه فى تاريخ الإسرائيليين وحياتهم الاقتصادية لا يخفى على أحد^(٣) . ومن هذه الأقطار العربية مجتمعة خرجت فكرة الدين التوحيدي فظهر « إخناتون » وتلاه سائر الأنبياء الذين دعوا إلى اليهودية والمسيحية والإسلام ، واستتبع ظهور هذه الديانات تفتق العقل البشرى فأنج أدياً وشعراً ونثراً وقصصاً وفلسفة وحكماً وأمثالا والتراتيم الدينية . وطوف الخيال العربى وجاءنا بالأساطير الخالدة وكان من نتائج هذه الثورات العربية العقلية والروحية أن رمت العروبة ببعض أبنائها شعوب العالم القديم من شرقيين وغربيين فحطموا مخلفاتهم العفنة البالية وأقاموا على أنقاضها هذه الدول الفتية التى جاءت بالمعجزات . فالعرب لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود

(١) من الأدب العبرى للدكتور فؤاد حسين على ، ١٩٦٣ ، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية .

(٢) التوراة . عرض وتحليل للدكتور فؤاد حسين على . القاهرة ١٩٤٦ .

(٣) التاريخ العربى القديم . تأليف ديتلف نيلسون . فرتز هول . ل . رودوكافاكيس وأدولف جرومان . ترجمه واستكله الدكتور فؤاد حسين على . القاهرة ١٩٥٨ .

إلى حياة أفضل مكنته من التحكم في مصائر الكون فأطلق العربى الأفكار من عقالها وحررها من جمود رجال المعبد اليهودى والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر أولئك التلمود وتعاليمه ، كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البخور . وقد مهد هذا التطور بدوره إلى ظهور حركة الإصلاح الدينى وبعث النهضة العلمية .

ومما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الإنسانية التى أزالَت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملاً من عوامل التفرقة والتمييز العنصرى والحط من القيم الإنسانية .

إن العرب يؤمنون سواء فى الجاهلية أو الإسلام بالحقوق الإنسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشرى . فالدين الإسلامى الذى ثبت أسس هذه المبادئ يقرر فى صراحة ووضوح : « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ، و « إن الله لا ينظر إلى وجوهكم بل إلى أعمالكم » لذلك نجح العربى فى تحقيق ما عجز عنه اليونانى والفلسفة اليونانية أعنى مذهب « الإنسانية » Humanism .

إن هذا المذهب لم يقو ولم ينتصر إلا بفضل العرب ، ولم تعرفه أوروبا إلا فى العصور الوسطى وعلى يد العرب . وبعد أن تتلمذت أوروبا على العرب فى العصر الإسلامى حيث بلغ العرب مكانة اجتماعية لم تدانهم فيها الشعوب الأخرى . كما شرع الإسلام لمعتنقيه وغيرهم تشريعات أخرجتهم من الظلمات إلى النور .

إن الحانقين على العرب والإسلام والناسيين التراث العربى إلى اليونان واليهود يضللون أنفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح . العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود . ولست أنا فقط الذى يقرر هذا بل يشاركنى نفر من الأوربيين المنصفين مسيحيين كانوا أو يهوداً هذا رأى . فالتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم فى فلسطين أو فرعاً من اضطهاد اليونان والرومان . فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلاً وسهلاً . فهذه القبائل اليهودية التى كانت تنزل يثرب وخيبر ووادى القرى ، وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التى مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجويداتها حتى أصبح من المؤلف لدى اليهود أن

يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية ، فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر ، فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة أن العربي معجب بلغته معنى بها نثراً وشعراً حريصاً على المحافظة عليها فصيحة نقية .

أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير ، فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربي ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم وإباء ، يقولون الشعر في مختلف فنونه ويعبرون عن خواطرهم في لغة هي لغة أهل الحجاز . نزل أولئك اليهود في أوطانهم الجديدة فأثروا في أبناء ملتهم تأثيراً قوياً ، ولم يمض نصف قرن من الزمن على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح في استطاعتهم التحرير في اللغة العربية .

ولم يقف أثر العرب والعربية في اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية الأدبية إلى عربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله ، وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد في عصورهم القديمة حتى في فلسطين ، وإبان قيام دولتهم وحياة لغتهم العبرية المقدسة ، وقد حببت هذه الظاهرة إلى اليهود اقتفاء أثر العرب ومجاراتهم في طريقة دراسة القرآن الكريم ، وحاول اليهود الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقاً صحيحاً ، فدفعهم هذا إلى التفكير في إعجام أسفارهم وإعرابها مقلدين العرب وناقلين عنهم .

وتأثر اليهود بالعرب أيضاً فأوجدوا ما يعرف في الأدب العبري بالشعر العبري الحديث أو (البيوتيم) فهذا الفن صورة من الشعر العربي وزناً وقافية .

ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه إلى النثر فبينما نجد يهوذا بن قريش (آخر القرن التاسع وأوائل العاشر م) يستشهد كثيراً في مؤلفاته بالشعر العربي إذ بابن جناح القرطبي وأمثاله ينسجون على منوال نحوي العربية ولغويها^(١) كما ترجم العالم اليهودي الحريزي مقامات الحريري إلى العبرية وقلدها فأدخل فناً جديداً في الأدب العبري لم يكن معروفاً من قبل . كذلك الأمثال العربية وجدت طريقها مع الببان والبديع

(١) التوطئة في اللغة العربية للدكتور فؤاد حسنين على . القاهرة ١٩٤٠ .

إلى اليهود ولغتهم فقد وضع يهوذا بن تبون مثلاً كتابه المشهور « حكم العرب » وترجمت أسرة تبون وغيرها كثيراً من أمهات الكتب العربية سواء في الفلسفة أو الطب أو الرياضيات أو القصص الشعبية إلى العبرية، وليس هذا بمستبعد فالعرب ليسوا هم أصحاب فكرة المعزل (جيتو) فقد فتحوا أمام اليهود دور العلم على مصراعها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء إذ انسابوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم^(١).

ويحدثنا التاريخ اليهودي أن الإسلام أحسن معاملة اليهود حتى أولئك الذين اضطرتهم النبي والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام وأتباعه، أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والإمام علي كرم الله وجهه الأراضي الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودي الشهير « جريتر » إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم في كتابه « تاريخ اليهود »^(٢) فقال :

« إن تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابق للنبوة المحمدية وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة في التاريخ اليهودي » .

وذكر في موضع آخر :

« لقد وزع عمر أراضى اليهود على المسلمين المحاربين ، وعوض اليهود المطرودين - وهذه هي العدالة - أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالي ٦٤٠ م . حقاً رب ضارة نافعة . إن سيادة الإسلام نهضت باليهودية من كبوتها »^(٣) .

وإذا تركنا الحلال العربية الاجتماعية جانباً . هذه الحلال التي بأت العرب هذه المكانة الممتازة والتي جعلتهم أهلاً ليكونوا رسل حضارة وثقافة للناس كافة ، وقابلنا بين الإسلام وتعاليمه وبين اليهودية ، أدركنا الفرق الشاسع اجتماعياً وعقائدياً

(١) من الأدب العبري لنفس المؤلف .

(٢) H. Graetz : Volkstumliche Geschichte der Juden I. III Bände.

(٣) نفس المرجع السابق .

بين الملتين ، لذلك سرعان ما وجدنا المرأة اليهودية مثلاً تفضل الالتجاء إلى المحاكم الشرعية الإسلامية للفصل في قضايا الأحوال الشخصية . وقد هدد هذا الوضع الحديد المجتمع اليهودى بالزوال فقرر علماء التلمود تغيير بعض أحكامه مجازاة للشرعية الإسلامية لكن تغيير بعض الأحكام التلمودية لم يقف عند هذا بل زعزع العقيدة في قدسيته وصحة ما جاء فيه وبخاصة تلك الأحكام التى لا تستند على نص قوى فى الكتاب المقدس .

وكانت النتيجة المحتومة لهذه الحركة الإصلاحية أن ظهرت فى سوريا جماعة من اليهود النازحين من الحجاز ، والذين اعتادوا حياة أفضل من تلك التى يحيونها تحت ظلال التلمود ، فرفضوا العمل بتعاليمه وبذلك مهدوا لظهور فرقة القرائين .

هذه هى بعض حسنات العرب على اليهود ، فالعرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطاً لا شرقياً ولا غربياً ولا سامياً ولا هنديةً أورياً ، والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوى ، ورفعوا مستواهم الأدبى فكنوهم من خلق ملكة أدبية .

وثالثاً وليس أخيراً احتذى اليهود حذو المسلمين مع القرآن الكريم فعنوا بدراسة كتابهم وشرعوا فى وضع نحو للغتهم صيانة لها من اللحن والضياع . هذه هى الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور إسرائيل ولفنسون .

والآن بعد أن استكملت ما تركته السيدة المؤلفة فى هذا الموضوع بالذات أنتقل إلى الحديث عنها وعن مؤلفها الذى نقلته إلى العربية . السيدة المؤرخة الدكتورة « سيجريد هونكه » كريمة تاجر كتب مشهور ، وقد ولدت فى « كيل » ودرست فى جامعات « كيل » و « فريبورج » و « برلين » الفلسفة ونفسية الشعوب والتاريخ ، وبعد دراسة دامت ست سنوات حصلت على إجازة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة برلين ، وقد عالجت فى رسالتها الأثر العربى فى الشعر الغنائى الأوروبى ، ثم مضت المؤلفة عامين مع زوجها الذى تذكر عنه أنه يجيد العربية فى مراكش كما قامت بعدة رحلات فى الشرق تعرفت فيها على شعوبه وطبيعة بلاده وثقافته . وفى عام ١٩٥٥ ظهر أول كتاب لها فى تاريخ الثقافة عنوانه : « فى البدء كان

رجل وامرأة» وقد عرضت فيه المؤلفة أيضاً للثقافة العربية ، ثم نشرت كثيراً من المقالات حول العلاقة بين العرب والأوربيين في الصحف والمجلات والبرامج العربية الإذاعية الألمانية . أما كتابها « شمس الله على الغرب » أو « فضل العرب على أوربا » فهو نتيجة عمل شاق استنفد من حياة المؤلفة سنوات كثيرة فطلع على القراء وهو يمثل خير كتاب ظهر في هذا الموضوع ، فتلقفته أرقى اللغات الأجنبية ونقلته ، كما قرظته الصحف والمجلات العلمية في ألمانيا وخارجها .

وقد عالجت المؤلفة مختلف نواحي النشاط العقلي العربي في ست وسبعين وثلاثمائة صفحة فضلاً عن كثير من الصور واللوحات . ونقل هذا التراث إلى العربية ليس بالأمر السهل ، فهناك مفردات عربية الأصل بعدت الشقة بينها وبين صيغها في اللغات الأوربية حتى أصبح الرجوع بها إلى أصولها العربية يتطلب بحثاً وجهداً ، فضلاً عن أن معاجمنا اللغوية العربية لا تسعفنا في مثل هذه الحالات ، فهي ليست معاجم تاريخية . كما أن هذه المفردات غالباً ما دخلت أوربا عن طريق إسبانيا فهي عربية أندلسية لم تعرها معاجمنا التي بأيدينا أهمية خاصة .

وإذا علمنا أن الكتاب كتب للغرب لا للشرق العربي أدركنا السر في عدم ذكر المراجع العربية والتي لا بد من الرجوع إليها عند نقل الكتاب إلى العربية ، وبعض هذه المراجع تحت يدي والبعض الآخر ينقص المكتبة العامة ، كما أنني اضطررت أحياناً إلى الاستعانة بالمخطوطات وبخبرة الكيميائي الشاب السيد حسنين فؤاد بجامعة توبنجن بألمانية في فهم المصطلحات الرياضية والفيزيائية والكيميائية فإليه أقدم خالص الشكر على الجهد الذي بذله معي في إنجاز هذا الكتاب .

ولا يفوتني أن أذكر هنا أن هذا الكتاب ليس هو الأول من نوعه في اللغة الألمانية إلا أنه أشملها وأوفاهها ، فقد سبقها المستشرق الراحل جورج يعقوب Georg Jacob وعني منذ صغره بالدراسات الشرقية على جمهرة من مشاهير المستشرقين الألمان في ذلك العصر أمثال « رويس » و « نولدكه » و « فليشر » و « ألورد » . وكانت الفكرة السائدة في ذلك الوقت عن الشرق العربي لا تتفق وماضينا السعيد وعصورنا الذهبية ، فالجامعات الأوربية كانت تمهد أو تخدم الرغبات الاستعمارية ، وجرفها تيار السياسة فغفلت أو تغافلت عن البحث العلمي

الصحيح المجرد من الغايات ، اللهم إلا هذا النفر القليل من بعض المستشرقين الألمان الذين تتلمذ عليهم « جورج يعقوب » وتأثر بأرائهم . فقد أدرك أولئك العلماء أن الشرق وإن دبت فيه عوامل الضعف والانحلال ، وأصبح نهياً بين الدول الأوروبية الاستعمارية إلا أنه كان في العصور الوسطى معلم أوروبا وإليه يرجع الفضل في النهضة الأخيرة . لذلك نجد « جورج يعقوب » يأخذ على عاتقه العمل على دراسة هذا الموضوع ، وإيفاء كل ذي حق حقه . وقد لاقى خصومات شديدة من المستعمرين أولاً وأنصار الدراسات القديمة الذين كانوا يهدفون قبل كل شيء إلى تحرير اليونان من السيادة التركية ثانياً ، وتكتلت أوروبا في سبيل الوقوف في وجه الشرق والشرقيين فكان ما كان من الأحداث التي تعرضت لها مصر في القرن التاسع عشر وخلق المسألة الشرقية .

وافتح « جورج يعقوب » حملته فنشر كتابه « التجارة العربية في العصور الوسطى » وقد نقلته إلى العربية ونشرته لجنة البيان العربي عام ١٩٤٦ . ثم واصل حملته فنشر الكثير من المؤلفات القيمة .

وغير « جورج يعقوب » أو الشيخ جورج يعقوب ، كما عرف إبان حياته نجد أمثال « أنوليتان » و « ر . ر . باريت » و « أوتو شبيث » وغيرهم من كبار المستشرقين الألمان ومؤرخي الحضارة أمثال « فيديمان » ، فردوا للعروبة اعتبارها ، وأنصفوا الإسلام والمسلمين .

الكتاب الأول

البهار السيومي

« حيث يخطو الإنسان على السجاد
قرتمن وقرنفل وجوز طيب مكسرة
تحت أقدامهم معطرة للهواء »
فولفرام فون أشينباخ برسيغال^(١)

أسماء عربية لمنح عربية

أسمحين لي أيتها السيدة الفاضلة أن أدعوك إلى هذه القهوة^(٢) ؟ إنك ميتة^(٣) ؟
اخلعي من فضلك الشك^(٤) ونحذي مكاناً هناك على الصفة^(٥) ذات المطرح^(٦)
الأحمر القرمزي^(٧) . إن القناد^(٨) بالمستقة^(٩) الجامدة وقطنيته^(١٠) البيضاء سيحضر
سريعاً طاساً^(١١) من قهوة البن^(١٢) وبها قطعتان من السكر^(١٣) أو أتفضلين
غرافة^(١٤) من عصير الليمون^(١٥) المثلج ما لم تستحسني الكحول^(١٦) ؟ لا ؟ وإلى
جانب ذلك ترغيبين في كعكة من الفواكه محلاة بالبرقوق^(١٧) والبنان^(١٨) .

بدهي يا صديقي أنك الآن ضيفي لتناول الطعام . والآن اسمح لي أن أقدم
لك شربات^(١٩) النارج (البرتقال)^(٢٠) والخرشوف^(٢١) المحشو سيعجبك لأنه منبه
للطعام ، وما رأيك في ديك محمر في برد^(٢٢) ومعه أرز^(٢٣) مبهر وقليل من السبانخ^(٢٤) ؟
وبعد ذلك أنصحك وألح في النصيح أن تأكل لقماً بالقرفة^(٢٥) مغموسة في شراب
العرق^(٢٦) وأخيراً طاساً (من قهوة) مخا^(٢٧) واسترح على الديوان^(٢٨) .

إنك تشعر الآن أنك في المنزل فكل ما يحيط بك وكل الذي أقدمه لك أصبح
منذ زمن بعيد من مقومات حياتنا ولو أننا استعزنا من عالم أجنبي . من العرب .

فالقهوة التي تنعشنا يومياً والبن الذي نطحنه جيداً ، وحتى الطاس التي نتناول منها هذا الشراب الأسود ، والسكر الذي لن نستطيع بدونه صنع أى نوع من الطعام ، والليمون . والغرافة ، والقطنية ، والشك ، والمستقة ، والمطرح ؛ قد عرفناها جميعها عن طريق العرب ، وليست هذه فقط بل أسماؤها المستخدمة في أوروبا وفي جميع أنحاء العالم عربية . والقند الذي يصنع منه القناد في مصنع القند التسفتشجين^(٢٩) والبيج ارمودى^(٣٠) والناونخ المقند .

نعم إنكم تدعونها فواكه الجنوب لأنها مستوردة من الجنوب شأنها شأن الكثير من المشروبات والمأكولات فلماذا ؟ أليست من الشرق ، أليست محفوظة في غلاثلها الشرقية ؟

وإذا أعياك التعب رغبت في الاستراحة على الصفة أو الديوان^(٣١) أو العثماني^(٣٢) أو في القبة^(٣٣) إن كل طفل يستطيع أن يتبين أن هذه المفردات دخيلة على لغته . أولاً تعلم أنك مضطر إلى استخدام تعبير عربي إذا ما رغبت في لعبة الشاه^(٣٤) (الشطرنج) لقد أهدى العرب هذه اللعبة إلى أوروبا أيام شارلمان الأكبر وعلى يد رسل هرون الرشيد . وكلمة - شاه - أى (ملك) ولفظ - مات - في التعبير المستخدم في هذه اللعبة (شاه مات) تعبير عربي . أولاً تعلم أيها الأوربي أنك تضحك حتى اليوم أو تغضب من استخدام لفظ (شيكيش)^(٣٥) وهو مركب من لفظ (شاه) وقد أضيفت إليه علامة النسبة في اللغة الألمانية أى متلون تلون لوحة الشطرنج .

أولاً تعلم أن القفة^(٣٦) الموجودة في واجهة الخانات إلى جانب الكيس المصنوع من جلد صفي^(٣٧) والحقيبة المجهزة من جلد مراكشي^(٣٨) وكذلك زوج الجدامس^(٣٩) وغيرها من الأشياء التي تنتظر المشترين تحمل طابع العرب المولعين بالأسفار والتنقل . أما الجدامس فنسبة إلى الجلد المجهز في مدينة جدامس بطرابلس الغرب بالقرب من حدود الجزائر ؟

ثم تأمل وسائل الجلاء^(٤٠) في واجهة هذا المحل الذي تزينه الأقمشة الجميلة أليست آية في الفن ؟ فغير قماش البركان^(٤١) الجميل والقطني^(٤٢) الرقيق والموصلي^(٤٣) والموخير^(٤٤) الصوفي السميك ، ولك أن تختار بين الشف^(٤٥) الرقيق والزيتوني^(٤٦)

والتفت^(٤٧) كساء الوجهاء والموخير والأطلس^(٤٨) والدمشقي^(٤٩) العظيم صناعة دمشق التي منحت ألمانيا لفظ - زفتشكة - ^(٥٠) كما نجد تشكيلة من الألوان من الأصفر الزعفراني^(٥١) إلى الأرج^(٥٢) إلى القرمزي^(٥٣) حتى لليل^(٥٤) وعندما نتمتع بارتداء هذه الأقمشة الجميلة التحضير الزاهية الألوان يجب ألا ننسى العرب وفضلهم علينا .

وهل تعلم أنك إذا قصدت هناك صيدلية وهنا حانوت ترياق^(٥٥) إنما تطلب اختراعات عربية ؟ وتجارة الترياق كما نتيبها في القوارير والعلب هي : جوز الطيب^(٥٦) والقرفة والجنزبيل والكمون^(٥٧) والطرخون والزعفران^(٥٨) والكافور^(٥٩) والبنزين^(٦٠) والقلي^(٦١) والنطرون^(٦٢) والصبداع^(٦٣) والبورق^(٦٤) والسكرين^(٦٥) والعنبر^(٦٦) وأنواع أخرى كثيرة من الترياق العربي يستخدمها الإنسان في حياته اليومية . وهل تعلم أيضاً أن الملك^(٦٧) الذي يستخدمه العالم اليوم لتلميع أفريز أرض الغرفة أو أظافر الأصابع وكذلك ألوان النيل^(٦٨) والقز^(٦٩) والطلق^(٧٠) والبطن^(٧١) ما زالت تعرف حتى اليوم بأسمائها العربية ؟

مفردات عربية منتشرة في كل ناحية من نواحي اللغات الأوروبية فهي أسماء كثير من عناصر الحضارة والمدنية التي يستعملها الأوروبيون في حياتهم اليومية وقد جاءتهم عن العرب وقد جملت هذه الأشياء الدخيلة . الحياة الأوروبية اليومية ، كما أضفت عليها جميع مظاهر البهجة والأبهة والحياة الرفيعة الراقية التي يحياها العالم المتمدين اليوم . وإذا كان العالم الحديث يتمتع بقسط وافر من النظافة والقواعد الصحية فالفضل في ذلك يرجع إلى العرب وما أعاروه لأوربا .

أوربا تقاسى الحرمان لموقفها السلبى من التجارة العالمية

وفى عام ٩٧٣ م اتجهت سفينة مقابل الساحل الغربى الفرنسى حيث رأس « جرى نيه » شمالاً شرقياً إلى بوردو وروين وأوتريشت وشليزفيج حيث أفرغت حمولتها الثمينة ، زيتاً أندلسياً وشباً قسطينياً للدباغة وتيناً ونبيداً مالقياً وفلفلًا وحبال سفن . وعلى ظهر هذه السفينة بعثة الخليفة الحكم الثانى وقد أقبلت من قرطبة تحت رئاسة سيدى إبراهيم بن أحمد الطرطوشى قاصدة بلاط الملك الرومانى الشهير « هوتو » فى سكسونيا . ومن ثم إلى « كويدلنبرج » فى الهارز حيث قيصر الدولة الرومانية المقدسة « أوتو » الأول ، والذي عاد أخيراً من روما بعد حفلة زفاف ابنه إلى ابنة القيصر اليونانى « تيوفانو » وعقب حفلة تتويجه الشاقة . فالقيصر أوتو الأول هو المنتصر فى « ليشفلده » وباعث القيصريّة الغربيّة ، وهو الذى أقبل عليه صولجان القوة والسطوة فقصدته وفود الدول تخطب وده . فنجد سفراء الدنمارك وبولندة وبلاد الصقالبة وبوهمن ومندوبين عن اليونان والبلغار والمجر والإيطاليين حيث اصطفوا جميعهم فى ميدان القيصر فى « كويدلنبرج » لكى يقدموا أجل فروض التكريم لأكبر حاكم للغرب .

وفى أول أبريل قرر القيصر نقل مكان اجتماع بلاطه إلى « مرسبرج » حيث وصل وفد أمير المؤمنين تحت رئاسة إبراهيم بن أحمد الطرطوشى قادماً من أسبانيا لتحية أمير أمراء المسيحيين ، فاستقبل القيصر « أوتو » الأول الضيوف العرب وأحسن وفادتهم كما تقبل الهدايا الثمينة التى لم ير مثلها من قبل شاكراً ، ولم تمض بضعة أيام حتى فارق قيصر سكسونيا العظيم الحياة فى « ميملين » فكان استقباله للبعثة العربية هو آخر عمل سياسى قام به .

أدى الوفد العربى الرسالة التى كلف بها وعاد برّاً إلى إسبانيا أما الطرطوشى فقد سلك طريقاً مر فيه بمدن « سوست » و « بادربورن » و « فولدا » ، ولما دخل مدينة

« ميتز » شاهد شيئاً ذكره بوطنه ، ففي هذه المدينة الواقعة في أرض الإفرنج (فرنكن) وعلى نهر الرين قدم له أحد تجارها بعض الدراهم العربية فقرأ الطرطوشى مستغرباً الكتابة الكوفية واسم من صكت باسمه النقود وتاريخ ضربها (٣٠١ و ٣٠٢ هـ) ، وأيقن الطرطوشى أن قطع العملة الذهبية التي بيده من سمرقند ، وقد ضربت منذ ستين عاماً ، ورجع أنها من النقود التي تحمل اسم نصر بن أحمد الساماني . ومما أدهشه أيضاً أنه عثر هناك على توابل لا توجد إلا في الشرق الأقصى بينما تقع « ميتز » في أقصى الغرب ، ومن هذه التوابل الفلفل والجوزبيل والقرنفل والزبدن والبلسم والخلنجان .

هذا قليل من كثير من التوابل الشرقية التي فرضت نفسها على أوربا فرضاً ، فهناك قائمة محتويات مخزن دير « كوربي » الواقع على نهر « سوم » ، أي بالقرب من نهاية أطراف المعمورة ، فهذه القائمة التي يحتفظ بها الراهب مدير المخزن تحتوي على التوابل الضرورية جداً لمطبخه الكائن في مدينة « كبراى » مدينة الأسقف والواقعة على بعد سبعين كيلومتراً . إن هذه القائمة لو اطلع عليها الطرطوشى لاستولت عليه الدهشة ففيها يقرأ :

٦٠٠ رطل شمع	١٠ أرتال خلنجان
١٢٠ « فلفل	١٠ « راوند
١٢٠ « كون	١٠ « إسفنج
٧٠ « جتربيل	٥ « خيار شمير
١٠ أرتال قرنفل	٣ « لبان
١٥ رطل قرقة	٣ « ورنيش
١٠ أرتال نردين	١٠ « أوراق شجرة سليفا
١٠ « بخور	٣ « نيلة
١٠ « مستكة	٢ « سقر
٣ « مر	١٠ « مبة
١٠ « بلسم	

وحتى المراهم والكثرة المطلقة من التوابل والعقاقير والنباتات الطبية والبخور التي كانت تملأ مخزن الدير حملها التجار من الشرق الأقصى وقطعوا آلاف الأميال

حتى جاءوا بها إلى أقصى الغرب . إن هذه البضائع كانت ضرورية للاستعمال اليومي فهي ضرورية للطعام ضرورية للشراب ضرورية للعلاج ، وللكنائس أيضاً وحتى رهبان الأديرة ، فقد رق ذوقهم وطاب مذاقهم وصفت نفوسهم حتى أصبح من العسير عليهم الحياة بدونها .

أما قائمة دير « كوربي » هذه فقديمة جداً أقدم من رحلة الطرطوشي بنحو ثلاثة قرون وهي ترجع إلى عصر ملوك المرنجيين^(٧٥) ومنذ حكم أولئك الملوك حتى رحلة الطرطوشي تعرض العالم لكثير من الأحداث التي كانت ذات أثر فعال في تطويره ، فحوضا الرين والسوم تعرضا في تلك الفترة لكثير من الهزات التي لم يريا مثلها في القرون السابقة ؛ فالجرمان أقبلوا بحافلهم من الشمال وقضوا على الدولة الرومانية ، لكن زوال الإمبراطورية العالمية لم يغير كثيراً من الأوضاع العالمية وبخاصة في ذلك الجزء من العالم ، وذلك لأن الحياة في تلك العصور كان يقررها البحر الأبيض المتوسط ؛ فالشعوب الشمالية لم تستطع تقويض الأنظمة العتيقة وتفتيت وحدة الثقافة القديمة ؛ فالذي حدث أن الجرمان اندمجوا في شعوب جنوب أوربا واختلطوا بهم وأصبحوا عنصراً من عناصرها فهدوا في أجملها . فقد ظل الدين كما كان بالرغم من زوال الإمبراطورية الرومانية وقيام الشرقية . وما يقال عن الدين يقال أيضاً عن الحياة الاقتصادية حول البحر الأبيض المتوسط .

فإذا تركنا الغرب واتجهنا إلى الشرق وجدنا النقيض من هذا . فتجارة الشرق التي كانت تأتي عن طريق « أوستيا » إلى المدينة العالمية روما ، وتنتهي في ميناء مرسيليا . هذه التجارة ازدادت ازدهاراً وشقت طرقاً أخرى جديدة لم تعرفها من قبل ، فعبرت الألب واخترقت بلاد الغال حتى « كمبراي » ومن ثم أخذت تتغلغل حتى بلغت أواسط ألمانيا . نعم لم تصبح روما هي السيدة بل بيزنطة . ومما هو جدير بالذكر أن العالم القديم كان وقتذاك قد تصدعت جوانبه وانتابته العلل وإن بدا في مظهره صحيحاً قوياً .

ولعل أهم عامل من عوامل تقويض أوربا ظهور النبي العربي ، والروح الجديدة التي بعثها الإسلام في العرب ، فلم تمض أعوام قلائل إلا وكانت القبائل العربية تتدافع في موجات متلاحقة غامرة شواطئ البحر الأبيض المتوسط ، ولا تقف ،

عندها بل تواصل زحفها حتى تبلغ شواطئ المحيط الأطلسي . وهكذا نجد العرب ينتزعون شرق وجنوب وغرب العالم القديم من هذه الحالة الجامدة الراكدة ويهيئون السكان لحياة أفضل بعد أن ظلوا قرابة ألف عام يتيهون في بوادي الجهالة والجمود . فانتصار الإسلام قسم العالم إلى شرق وغرب . شرق وثاب وغرب قابع ، شرق حر طليق وغرب مكبل بالأغلال ، أسدل على نفسه ستاراً كثيفاً واكتفى بحياة النسل والزهد والعزلة . أما الدولة العربية العالمية الجديدة فقد ثبتت أقدامها في الأقاليم المفتوحة . وللمرة الأولى في تاريخ العرب يظهرون على مسرح التاريخ كشرق يغلب الغرب على أمره فيختفى ويتوارى منظوياً على نفسه .

لقد نجح الإسلام فيما فشلت فيه الغزوات والهجرات الجرمانية . لقد فتت هذا الجمود الذي فرضه البحر الأبيض المتوسط قروناً عديدة على هذا القسم من العالم وهذا هو الحدث الهام في التاريخ الأوربي منذ الحروب البونية إذ أغلق صفحة تاريخ العالم القديم وفتح الصفحة الجديدة صفحة العصور الوسطى في الوقت الذي كانت تتحول فيه أوروبا إلى بيزنطة^(٦٨) .

ومما زاد الطين بلة على أوروبا وأسدل عليها الحجب الكثيفة التي حالت دونها ودون رؤية النور المنبثق من الشرق هذه الأوامر التي كانت تصدرها روما والقسطنطينية محذرة المسيحيين الأوربيين من زيارة مصر وسوريا . لكن من حسن الحظ أن نفراً من الحجاج الأوربيين لم تشهم هذه التحذيرات وقصدوا الشرق العربي المسلم وحجوا إلى الأماكن المسيحية المقدسة فلم يتعرضوا لخطر ما . فقد حدث في ذلك العصر أن الخليفة هارون الرشيد الذي كان يقدر شارلمان ويحمله أرسل إليه عن طريق بطريرك القدس الذي كان يباشر وظيفته ويقوم بطقوسه الدينية دون تدخل من الحاكم وفي حرية كاملة مفتاح المدينة المقدسة ومنحه حق السيادة عليها . وقد وقع هذا في الوقت الذي كان فيه غير المؤمنين يواصلون تخريب وتدنيس المدينة المقدسة إثارة للخوف وإدخالاً للفرع في نفوس أبناء ملتهم من الحجاج والسياح . وبينما نجد هذه القيود تفرض على المسيحيين الأوربيين إذ بنا في الشرق العربي نجد سياسة أخرى حكيمة رشيدة فلا تحديد إقامة ولا عقبات وحواجز تحول دون السعي في مناكب الأرض وتبادل المنافع فالتاجر العربي كان يتنقل حراً طليقاً في

أرجاء الشرق قاصيها ودانيها فهو يتاجر مع الهند والصين وسائر الأقاليم وليس في حاجة لأن يصدر إلى أوربا التي ضربت على أهلها الذلة والتقصيف فسادت الفرقة بين الغرب الأوربي والشرق العربي بخيراته وأضوائه وأصبحت شواطئ البحر الأبيض المتوسط المسيحية مزاراً لا للتجار بل للقراصنة ومهربى البضائع . فالموانئ خربة خالية بعد أن كانت تعج بخيرات الشرق وكنوزه والمخازن خاوية خالية وحتى دير « كوربي » فقد تعرض للتقشف والحرمان وكانت الشربة التي تقدم لتزلائه عبارة عن طبق من الكرنب لا طعم ولا نكهة لها تشرب ولا تذاق فلا بهار ولا فلفل ولا زنجبيل ولا مختلف أنواع التوابل التي أصبحت عنصراً هاماً من عناصر مطبخ الدير . وحتى النبيذ أصبح خبياً بعد عين وكذلك الحرير . وترتب على اختفاء هذه الأصناف أن أغلقت المحال التي كانت تتجر فيها وعبست الحياة بعد أن ابتسمت زمناً طويلاً وعادت التجارة إلى حالتها البدائية الأولى وحلت المبادلة محل البيع والشراء .

وحتى الكنائس أصابها الحرمان فخلت من البخور والحمور والزيوت لإضاءة المشاعل والثريات مما اضطرها إلى الاستعاضة عن الزيوت بالشمع المستخرج من عسل نحل الغابات وقنع صاحب الخان بما يصله من الأصدقاء في روما من هدايا قليلة فرة يصله قليل من البخور وأخرى بعض القرفة أو قطعة من البلسم التي قد يحضرها تاجر يهودى من الشرق العربى لبيعها في العاصمة المسيحية . وذلك لأن اليهودى فقط هو الذى كان همزة الوصل بين الشرق المسلم والغرب المسيحى وكان تاجر الحملة ورسول الكارولينيين . فأين المكان على سطح الأرض الذى لا يوجد فيه اليهودى الذى يسارع إلى مساعدة ابن ملته ؟

ويحدثنا ابن خرداذبة في كتاب المسالك والممالك عن مسلك التجار اليهود الراذانية حوالى عام ٩٠٠ م « الذين يتكلمون العربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برّاً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخنزير والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجة في البحر الغربى فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقى

من القلزم إلى البحر وجدة ثم يمشون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملون إلى الفرما . . . » (٦٩) .

فهذه الأشياء لا تصل أوروبا الآن إلا بقدر وقدر ضئيل جداً ولا يستطيع الرجل العادي أن يشتريها من السوق السوداء لارتفاع أسعارها فلا عجب إذا رأينا الطرطوشي يبدى استغرابه عند رؤيتها في مدينة « ماينتز » الغربية . والواقع أن البلاد المسيحية كانت وقتذاك متخلفة جداً في التجارة الشرقية التي كانت تمر ببحر الخزر ومن ثم تسير على امتداد نهر الفولجا ثم شمالاً حيث الشعوب الوثنية .

لذلك لا عجب إذا رأينا أنوار الحضارة الشرقية تضيء البلاد الشمالية وسائر الجزر المنتشرة في البحر الشرقي كما نتبين هذا من آلاف آلاف القطع من النقود العربية التي ترجع إلى الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى الحادي عشر الميلاديين ، وإن دلت هذه النقود على شيء آخر عدا نقل الثقافة العربية إلى تلك الأصقاع النائية فهذا الشيء هو تحرر التجارة العربية من التعصب الديني وقد تجاوب مع العرب في تأدية هذه الرسالة وإنجاحها كثير من الشعوب الجرمانية الشمالية أعني الفيكينج أو النورمانيين الذين نزحوا من النرويج وإيسلندة والسويد والدنمارك وواصلوا أسفارهم حتى بلغوا شرق أوروبا وقد نجحت هذه الشعوب الشمالية في إقامة دول على طول الطريق التجاري الذي كانوا يقطعونه ذهاباً وجيئة ومن بين هذه الدول التي أسسوها تلك التي أقاموها في البلاد المعروفة باسم روسيا فهذه الدولة ما زالت محتفظة حتى الأيام الأخيرة باسم مؤسسها وهم « هروس » أو « روس » وهو اسم الوطن الأصلي في بلاد السويد . وقد اضطر أولئك التجار المحاربون إلى تأسيس محطات تجارية على طول الطرق التي يقطعونها فشيّدوا مثلاً « نوفوجورود » و « كيف » كما تاجروا في الأقمشة واللباد والحلى الفضية والأصداف الكورية والأسلحة وسهام الصيد ومختلف أنواع العطارة من مختلف البلاد العربية حتى مدينة تولية القاصية وكانوا يعودون من أقصى البلاد العربية محملين بالكهرمان وأسنان الحيتان وغراء السمك وخشب الصنوبر والبلوط والصقور الحية للصيد وطواقي من فراء الثعلب الأسود للعرب وكثير من مختلف أنواع الفراء لا سيما السمور الأسود والهرملين والثعالب التي

يحكى لون فرائها لون الياقوت فيضيء ما حوله وكأنه الشمس تبدد غياهب الظلمات .
لكن بين دولة الروس والدولتين العربية والرومانية الشرقية كانت تقوم دولة الخزر
وهي بمثابة الإسفين في كيان هذه الدول فمنذ عدة قرون كانت بلاد الخزر تفتح
ذراعيها لليهود الهائمين على وجوههم والفارين من مختلف بلاد العالم وبخاصة من
الشرق الأدنى ، والسرى في هذا أن سكان هذه البلاد الخزرية كانوا خليطاً من اليهود
والمسيحيين والمسلمين والوثنيين ويحكمهم ملك يهودى وكانت حياتهم الاقتصادية
تعتمد على تجارة المرور بسبب موقع بلادهم التجارى فعاصمتهم « إيتيل » كانت
مشرقة على مصب نهر الفولجا في بحر الخزر .

ومما غير مجرى الحوادث في التاريخ الاقتصادى للقارة الأوربية وشق للتجارة
الشرقية طرقاً جديدة امتدت حتى وصلت شمال أوربا نجاح القيصر « أوتو » الأول
فى تطهير القارة من العصابات المجرية التى كانت تعيش على السلب والنهب وقطع
الطرق مما حال دون وصول التجارة العربية إلى شمال أوربا ، أما الآن وقد عادت
الطرق واختفت عصابات النهب والسلب فقد تغيرت الأوضاع وواصلت القوافل
التجارية سيرها مخترقة بلاد الخزر والروس النورمانيين حتى أقصى الشمال مزودة على
طول الطريق مدن أواسط أوربا والأديرة ، بواسطة الدرب التجارى المؤدى إلى « براج »
كما يحدثنا اليهودى إبراهيم بن يعقوب الذى جاء من رحلة قام بها فى بلاد الصقالبة
ولما وصل « ميرزبرج » حظى بمقابلة ملك سكسونيا الملك « هوتو » واتفق أن وصوله
وافق مجئ سفراء الحكم الثانى . ومدينة براج هذه كانت مقصد كثيرين من
التجار ، فالروس كانوا يفدون إليها من مدينة « كراكاو » ، وغير الروس كان يفد إليها
الصقالبة أيضاً ، كما أقبل عليها من البلاد التركية المسلمون واليهود وغيرهم يحملون مختلف
أنواع البضائع مثل الرقيق والقصدير والفراء والنقود .

وقد يكون أولئك الروس أو أهالى براج هم الذين زودوا « مينز » بمختلف
أنواع التوابل والعطارة والنقود العربية التى رحبت بمقدم الطرطوشى وزيارته
عام ٩٧٣ م .

البندقية تحطم الحصار

وفى تلك الفترة ظهرت فى ناحية أخرى من اليابسة مدينة لم يشعر بها أحد من قبل ، وسرعان ما أصبحت ذات سيادة ، وحصدت خيراً كثيراً . وهى تدين فى كل ما بلغته إلى موقعها وطبيعتها فهى مجموعة ألسته يابسة ممتدة فى البحر الأدرياتيكي كادت تأتى عليها الحروب الداخلية وتجرفها أمواج البحر . هذه المدينة القابعة على جزر رياتو والى نعرفها تحت اسم البندقية . كانت تعيش فى حماية قديس سرقة من مصر وهو القديس مرقس الذى أعيد جثمانه أخيراً إلى القاهرة . وقد فرضت عليها جغرافيتها أن تعيش على التجارة . والتجارة البحرية بصفة خاصة فبدأت بالملح والسلك ومن ثم أخذت تتطور حتى علا شأنها واتسع أفقها وخرجت من محيطها الضيق واتصلت بالشرق العربى وشعوبه فلم يمض زمن طويل حتى أثرت من وراء صلاتها التجارية مع العرب ثراء عظيماً حسدها عليه الغرب شعوباً وحكومات .

فالبندقية كانت القنطرة بين الشرق والغرب وكانت تنعم بخيرات الشرق وكنوزه وحاصلاته التى حرمت منها أوربا زمناً طويلاً بسبب تعصبها الدينى وأوامر الكنيسة التى تحذر الاتجار مع المسلمين . لكن البندقية بما أوتيت من مهارة تجارية وسعة فى التفكير بفضل اتصالاتها بالعرب استطاعت أن تتغلب على دسائس خصومها ، فسياسياً كانت تابعة لبيزنطة . وظلت هذه السيادة قائمة طالما كانت بيزنطة حرة قوية متسلطة على البحر . طريقها الوحيد إلى البندقية . ومن ثم ظهر لبيزنطة فى تلك المياه النائية منافس جبار وهو قيصر دولة الإفرنج وطمع القيصر فى البندقية وحاول الاستيلاء عليها وعلى ثرواتها الكثيرة ، وأدركت البندقية الخطر الذى تتعرض له ، فراوغت خصمها المتنازعين المتنافسين ونجحت فى الإيقاع بينهما وتحريض كل منهما على الآخر بينما أخذ أميرها (الدوج) يظهر بغته على المسرح العالمى ويخاطب حكام العالم مخاطبة الأنداد .

وبعد أن تحققت للبندقية أمنيته ونجت من مخالب أعدائها وتحررت من

بيزنطة أخذت تفكر جادة في الاستعمار تأميناً لأسطولها التجارى وأسواقها الخارجية وتحدثت الكنيسة وتاجرت مع المسلمين ووثقت علاقاتها التجارية مع العرب . ولم تكن البندقية هي الوحيدة في إيطاليا التي وقفت من العرب هذا الموقف الودى ولم تردد في مساعدة العرب عند غزوهم صقلية ، ألم تعقد « بيزا » مع المسلمين معاهدات واتفاقيات ضد جنوه ؟ كما وقفت نابولى إلى جانب المسلمين ضد منافستها « أمالتى » وانضمت سفن « أمالتى » إلى الأسطول العربى عند مهاجمته الشواطئ الرومانية بالرغم من تهديد الكنيسة لسكان « أمالتى » بالحرمان وإعلان البابا هذا التهديد . ولعل السر الذى دفع هذه المدن الإيطالية إلى مخالفة المسلمين ومعاونتهم متحدين بموقفهم هذا البابا وكنيسته ، الرغبة الصادقة في المحافظة على حرية التجارة وسلامتها ولا صلة في الواقع بين التجارة والعقيدة ثم ما شأن البندقية هذه الدولة البحرية الناشئة وذلك الكهل القابع على ضفاف البوسفور ؟

ثم هل كان من السهل على أهالى البندقية الرضوخ لقرار القيصر « يوحنا تريميسكيس » القاضى بتشكيل لجنة تتخذ من جزيرة « رياتو » مقراً لها لتفتيش سائر السفن باحثه عن الأسلحة والخشب ؟ لا شك في أن القيصر كان في حالة يرثى لها عندما قرر الانتقام من أهالى البندقية وذلك لكثرة الهجمات العنيفة التى شنها عليه الخلفاء الفاطميون ، وعاونهم سكان البندقية بالأسلحة والخشب اللازم لبناء السفن الحربية ، وغالى القيصر في تهديداته فقرر حرق جميع السفن التى تضبط عليها مواد محرمة بمن فيها فغضب أهالى البندقية لمثل هذا القرار ورغبوا عنه وعن تنفيذ رغبات القيصر لأن الرضوخ لمثل هذا القرار معناه الرجوع بالحياة الرغدة السعيدة إلى الوراء فاضطر القيصر إلى الإسراع في إصدار قرارات أخرى تعاقب بالموت ذلك الذى يضبط متلبساً ببيع أسلحة إلى المسلمين . وفيما يتعلق بتجارة الخشب فقد أباح بيعه على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام ونصف القدم كذلك أجاز بيع الخشب المعد لصناعة الطشوت أو الأطباق أو الملاعق ، إلا أن « دوج » البندقية رفض الإذعان لمثل هذه الإجراءات وأصبحت هذه القوانين معطلة وخاطب أمير البندقية أعضاء اللجنة قائلاً : ألم تكن تجارة الخشب من الأهمية بمكان لأهالى البندقية ؟ ألم يفكر القيصر في أنها مساعدة نافعة ضرورية للخليفة ! والذى حدث

أنه قبل وصول اللجنة لمباشرة عملها أفلعت ثلاث سفن محملة بالخشب اثنتان وجهتهما « مهدية » في تونس والثالثة إلى طرابلس الغرب ، وقد صرح الدوج بشحن هذه السفن رحمة بعمال الشحن المسيحيين الفقراء . أما دول شرق البحر الأبيض المتوسط من آسيا الصغرى حتى مصر فلن يصلها شيء من هذا الخشب ، ويذكر الكتاب العرب في القرن العاشر الميلادي كثيراً حول تجارة البندقية وأملفيس وبالرمو ومسينا مع عرب شمال إفريقيا فالسفن العربية كانت تصل محملة بالستائر الحريرية الثمينة وأغطية المذابح والأقمشة السوداء الجميلة والملابس ذات اللون الأزرق السماوي وجميعها ترد إلى أوروبا من القيروان وسوسا وجابس . كما وجدت الأقمشة العربية النادرة طريقها إلى « مونت كاسينو » والأديرة والكنائس الموجودة في شبه جزيرة إبنين ، ومن المستطاع مشاهدتها حتى يومنا هذا .

والشيء الجدير بالذكر أن هذه التجارة العربية ظلت زمناً طويلاً محصورة في البلاد الواقعة جنوب جبال الألب ولم تستطع عبورها إلا بعد أن وقعت أحداث تاريخية هامة كانت بعيدة الأثر في الحياة الاقتصادية الشرقية الغربية ومن هذه الأحداث أن بيزنطة استطاعت عام ٩٦١ م الاستيلاء على جزيرة كريت من العرب فأصبح الطريق إلى الشرق العربي مفتوحاً وعجزت القوة القيصرية أو البابوية عن الحيلولة دون قيام علاقات تجارية مع العرب في الشرق والاستفادة من تجارة العرب العالمية وراثهم المتدفق . أما الحادث الثاني فكان عام ٩٩١ م عندما أرسل دوج البندقية وهو بطرس الثاني أوريولو سفراء إلى جميع الأمراء العرب محبباً إليهم البندقية وداعياً إلى إقامة علاقات تجارية بينهم وبين بلاده ، ولم يمض زمن طويل حتى أصبحنا نجد السفن التجارية تقلع من ليدو وجنوه بانتظام إلى سوريا ومصر مما دفع الخليفة الفاطمي المستنصر الذي اشتهر بصداقته للمسيحيين إلى تعيين قسم خاص من القدس لإقامة الحجاج والتجار المسيحيين .

وكانت قوافل السفن تقلع عادة من موانئها الأصلية في أوائل سبتمبر وتصل إلى الشرق بعد أربعة أو خمسة أسابيع ، وفي الربيع تعود إلى موانئها الأصلية ثانية . أما الشتاء فكان التجار يقضونه في الشرق متنقلين بين فلسطين وسوريا وبغداد والخليج الفارسي أو يذهبون مباشرة إلى القاهرة والإسكندرية حيث توجد التوابل الجيدة

التي ترد عن طريق البحر من الهند ومدغشقر وتدر على التجار الأرباح الطائلة
 لرخص النقل وقلة التكلفة وهذا مما دفع الصليبيين فيما بعد إلى غزو فلسطين في مصر.
 أما التجار الذين كانوا غير مقبدين بالعودة على ظهر السفينة التي أقلتهم إلى
 الشرق فكانوا ينتهزون فرصة وجودهم في البلاد العربية ذات الحضارة العالية والثقافة
 الرفيعة، وعند عودة التاجر يحمل معه كثيراً من الأقمشة القطنية السورية والكتانية
 إنتاج مصانع أنطاكية، وبضائع زجاجية وأخرى من القيشاني صناعة مدينة صور،
 ومختلف أنواع السكر في حقائب من صنع طرابلس الشام. هذا بالإضافة إلى
 الفلفل وجوز الطيب والكافور والكباب والبخور والمر والنيلة والعود وخشب الصندل
 والخشب البرازيلي وغيرها من الأصناف التي كانت تزدهم بها الأسواق المصرية.

فالتجارة بين الشرق والغرب أعادت الصلات بين العالمين سيرتها الأولى،
 وبخاصة عندما قضت معركة انجر عام ٩٥٥ م في « ليشفيلد » على قبائل النورمان التي
 كثيراً ما كانت تغير على القوافل التجارية وتعمل فيها سلباً ونهباً وتقتيلاً. أما الآن،
 بعد أن استتب الأمن، فقد أخذت التجارة تتدفق عبر الألب وشجع على
 ازدهارها القيصر الذي منح السوق والنقود حقوقاً وامتيازات في جميع الأماكن الواقعة
 قبل الألب حول « بوديتزيه » وأسافل حوض الرين، كما أصبح الطريق مفتوحاً
 لتصريف البضائع المخزنة في البندقية في شمال أوروبا. لكن بينما كان الإيطاليون
 يحملون هذه البضائع إلى « بورجوند » وفرنسا والأراضي المنخفضة إذ يصبح من
 النادر رؤية أحدهم في ألمانيا كما أخذ اليهود في الاختفاء تدريجياً كتجار جملة
 واكتفوا بتجارة التجزئة مهتمين بالتوزيع والصيرفة والربا والحيول والماشية والبضائع
 والملابس المستهلكة أو المستعملة، كما أخذ التاجر الألماني في الظهور عابراً
 سان برنارد الكبير إلى سهل نهر ألبيوم تاجراً في البضائع الشرقية. لذلك كانت قبله
 التجار الألمان جمهورية القديس مرقس (البندقية) وكانو يصلون إليها قادمين من
 « كرنستنس » و « شافهوزن » و « رافيتزبرج » و « ريجينزبرج » و « نيرنبرج »
 و « أوجبرج » ثم « أولم » ومن « كولونيا » للتجار في أثمن المنتجات الشرقية.

وقد بلغ عدد التجار الألمان من الكثرة بحيث إن حكومة البندقية أعدت لأولئك
 التجار القادمين عبر جبال الألب مكاناً خاصاً للتجار والإقامة أسوة بما فعله من

قبل السلطان المصرى للتجار المسيحيين فى الإسكندرية حيث أوجد لهم الفنادق الخاصة . وقد أخذت البندقية عن العرب والعربية هذا اللفظ وأطلقت على الأبنية المشابهة فنجد الفندق الذى كان مخصصاً فى البندقية للتجار الألمان يسمى « فندق دى تيديشى » وهو يحتوى على ستة وخمسين سكناً بالأسرة عدا أماكن الراحة والاستقبال والأماكن الأخرى للمواشى . وكان فى هذا الفندق فرن خاص لصناعة الخبز وحوانيت للصناعات الضرورية المختلفة كما زود بمخازن للبضائع وأماكن للبيع خاصة بهذه الحالة الصغيرة المستقلة .

ولا غرابة فى هذا فالبندقية كانت المحطة النهائية التى يبلغها هذا القطار التجارى . وهنا فقط استطاع التاجر « كونراد إيسفوجل » وهو أحد أبناء مدينة « نيرنبرج » الإقامة حيث يبيع بضائعه النحاسية والحديدية واثقراء والأقمشة البرابنتية . وفى البندقية كان يدفع الضرائب المستحقة — وقد أخذ هذا النظام عن العرب وكان يشرف على جميع هذه الإجراءات الموظف المعروف باسم السمسار^(٧٠) وهو الخبير فى تسمين البضاعة وتحديد سعرها . وفى حضور هذا المثلث الرسمى كان التاجر الألماني يدفع الثمن المتحصل فى بضائع أخرى . وبخاصة التوابل . والعقاقير المختلفة . والأقمشة . والثياب المزخرفة بالحريروالحبوط الذهبية .

فالاتجار مع البندقية كان يتطلب نظاماً خاصاً . فالتاجر « كونراد إيسفوجل » كان له الحق فى أن يأخذ معه وإلى « نيرنبرج » بضائع لكن لا يسمح له بالخروج بنقود من البندقية وكان له الحق فى مشاهدة قلاع السفن القادمة من صور والإسكندرية والمهدية وكويتا من شرفات فندقه ولا يسمح له بالاقتراب من السفن أو الحصول على قليل جداً من القفل أو تبادل العبارات مع ركبائها وملاحيها . كذلك الحال مع تجار « بوجوند » أو « بيمن » أو « ميلانو » أو « فاورنسا » فكان محرمات عليهم الاقتراب من السفن مسافة سمع الأذن . ومقابل هذه الاحتياطات تتعهد البندقية ألا تشترى بضائع ألمانية خارج الألسنة الأرضية الممتدة فى البحر ولا تعرض للبيع بضائعها فى الأراضي الألمانية . واستطاعت البندقية عن طريق جزرها الكثيرة المنتشرة فى البحر الأدرياتيكي احتكار التبادل التجارى بين الشرق والغرب وكان الأجانب مطالبين باحترام هذه القوانين وتنفيذها ،

وهذا سر قوة البندقية .

أما جنوه فقد كان موقفها من التجارة يغير موقف للبندقية فجنوه من أنصار حرية التجارة لذلك نجد هنا تجارة الشرق ليست حكراً للدولة بل حرة في متناول جميع التجار فكانت جنوه سوقاً رائجة للمصادر والوارد ومقصداً للتجار الذين يصرون إلى أسبانيا وشمال إفريقيا والشرق .

والآن يبدو لنا أن خيرات العرب كانت أساس الإثراء والرخاء لا في الشرق فقط بل في الغرب أيضاً ، كما أن هذه التجارة العربية هي القوة الاقتصادية ذات الأثر الفعال في أوروبا وأن رفع المستوى الاجتماعي في الغرب إنما مرجعه القفص العربية الملأى بالفلل ، لذلك كان حرمان الأسواق الأوروبية من هذه القفص سبباً رئيسياً في القضاء على التجارة الداخلية أولاً ، وإفلاس التجار ثانياً ، وصهر الذهب المتداول ثالثاً . في اللحظة التي قطعت فيها الاتصالات بين الشرق والغرب تحولت أوروبا إلى بلاد زراعية فرجعت القهقري وانحط مستواها الاجتماعي وحرم الأوروبيون من فلل الشرق وجوز طيبه وسكره واضطروا إلى أكل الكرنب دون بهار وغصت أسواق أوروبا المحلية لا بالتجار بل بالفلاحين يعرضون حبوبهم والأواني الفخارية المصنوعة في منازلهم والسراويل المجهزة من القماش المنسوج في بيوتهم ، واستمر الحال كذلك حتى استؤنفت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب بعد أن خفت حدة التعصب الديني ، هذا التعصب الذي كان يحول دون الاتجار مع المسلمين . أما وقد عادت المياه إلى مجاريها وأخذت تجارة الشرق تتدفق على أوروبا فإن صورة الحياة التجارية سرعان ما تغيرت وفتحت الحوانيت أبوابها وامتلأت بأقمشة الشرق وبهاراته وسائر خيراته وحاصلاته كما حرص التجار على إجابة مطالب الطبقة الراقية فأحضروا كثيراً من كماليات الشرق ومقومات الأناقة والذوق الرفيع ، وترتب على هذا التطور أن خطت المدن الأوروبية بخطرات واسعة نحو حياة أفضل ، وظهرت في أوروبا ثورة اجتماعية بيضاء .

وتدين البندقية في تطورها ورفقها وراثتها إلى الاتجار مع العرب ، فلولا القرقة والكمون ومختلف أنواع الصباغات بما فيها النيلة ، وكذلك التوابل والبهارات ، ما استطاعت البندقية أن تتزعم النهضة الاقتصادية الأوروبية التي ساعدت على

ازدهار الغرب ونقدمه . ولم يكن مجهود البندقية مقصوراً على الاتجار فقط بل ساهمت حتى في نقل القوات الصليبية إلى الشرق فبدأت في رأى الغرب وكأنها تساهم في تحرير الأراضي المقدسة .

ثم ولت أيام المستنصر وعهده الذى اتصف بالتسامح وكرم الأخلاق وحسن معاملة المسيحيين وابتلى الله الشرق العربى بقبيلة تركية اتصفت بالقسوة والجفوة والتعصب الشعبى ، وهذه القبيلة هى التى تعرف في تاريخنا الإسلامى باسم الأتراك السلاجقة ، ونجحوا في الاستيلاء على القدس وهددوا بيزنطة بالغزو فكانت هذه الأحداث إنذاراً بهجوم أوروبا المسيحية على الشرق الإسلامى وسرعان ما ساءت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بعد أن عاش المسلمون والمسيحيون متآخين متحابين في فلسطين حتى أيام المماليك الحاكم بأمر الله ، أما الآن فقد تحول البحر الأبيض المتوسط فجأة إلى معارك متصلة بين أصحاب العقيدتين وقد دامت هذه الحروب عدة قرون .

واستتبع حالة الحرب إصدار القرارات البابوية التى تحرم على المسيحيين التعامل مع المسلمين أو الاتجار معهم كما نصت هذه القرارات على توقيع عقوبة الحرق على كل من يصدر أو ينقل خشباً أو أسلحة إلى المسلمين ، لكن جميع هذه القرارات ذهبت أدراج الرياح ولم تكن الجمهوريات البحرية الإيطالية عن تثبيت صلاتها التجارية وتدعيمها مع المسلمين . وذهبت هذه الجمهوريات بعيداً في صداقتها مع المسلمين فتولى بعض بحارتها قيادة السفن الحربية الإسلامية . كما أن سلطان مراکش طلب مرة معونة جمهورية جنوة فأمدته بأسطول يتكون من ثمان عشرة سفينة حربية مساعدة لأدمير المؤمنين للقضاء على أعمال القرصنة التى كان يقوم بها الصليبيون .

ولماذا لا يسلك أهل جنوة هذا المسلك ؟ أليسوا تجاراً وصفة التاجر الماهر أن يستفيد من جميع الفرص السانحة له . لقد تاجر البندقى في كل شيء حتى في نقل ما بين عشرين وأربعين ألف محارب صليبي في جيش الرب وقد تجمعوا في ميدان القديس مرقس ينتظرون ترحيلهم إلى عكا ودمياط ، فكسب أهالى البندقية من عملية النقل مادياً وروحياً إذ ساهموا مساهمة طيبة في نصرة القضية المسيحية .

وانتصرت البندقية عام ١٢٠٣ على بيزنطة انتصاراً فاصلاً إذ توجهت حملة صليبية تحت قيادة البندقية فنكلت ببيزنطة تنكيلاً لم يصبها على يد المسلمين من قبل ، فقد وصف كاتب مسيحي هذه الحملة الصليبية والجرائم التي اقترفتها في بيزنطة المسيحية وصفاً لا عهد للإنسانية به من قبل ، فقد سلب أفرادها ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم ، فقد سرقوا الكنوز القديمة ودنسوا المقدسات فحطموها وخرّبوها وأحرقوا الكتب ومزقوها فكان انتصار هذه الحملة على بيزنطة انتصاراً للبندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية لتهديدات بيزنطة المتواصلة لها ، فكانت هذه الجمهوريات هي الوحيدة التي انتصرت على بيزنطة أولاً وعلى سائر الدول المنافسة لها وبخاصة المسيحية عن طريق هزيمة وفشل الحملات الصليبية ثانياً .

فقد استنفدت الدول المسيحية كل قواها دون تحقيق أهدافها : فالصليبيون كما يذكر الفرنسيكاني الأسباني « رامون ليل » لم يحققوا طيلة القرون التي قضوها في الحروب شيئاً ، فلم يصلوا إلى قبر المسيح ، ولم يقضوا على الوثنية (الإسلام) !! أو يحولوا الوثنيين (المسلمين) إلى مسيحيين ولم يفلحوا في الاستيلاء على الأراضي المقدسة .

أما البندقية الحكيمة فقد خرجت من جميع هذه المشاكل سليمة قوية ، وبفضل اتجارها مع العرب ازدادت ثراء وقوة حتى إن خبراً راج في أوروبا فحواه أن أهالي البندقية لم يحزنوا لهذه النهاية السيئة للصليبيين فقد كان الأهالي على استعداد لاعتناق الإسلام لو اقتضى الأمر هذا ، فهم الذين اتخذوا من هزيمة الملك القديس لويس ملك فرنسا عيداً للمسخرة .

في مدرسة العرب

إن انتصار البندقية كان ، لحد ما ، انتصاراً لأوروبا ، فالبندقية هي همزة الوصل بين الشرق والغرب اقتصادياً وعلمياً وأدبياً ، وإليها يرجع الفضل في هذه النهضة الإيطالية الشرقية . ومن ثم أخذت بيد الألمانية فالفرنسية . فتجارة الأراضي المنخفضة ، ونجحت البندقية فربطت بينها جميعها وكونت شبكة قوية شملت المدن والشوارع ومختلف الطرق حتى بلغت إنجلترا والبلاد الإسكندنافية الشمالية فهضمت هذه الدول نهضة غير متوقعة .

ثم نجد التجارة العربية تتخطى جبال الألب وكما كان الحال قديماً في إيطاليا كذلك هنا عبر الألب حيث نجد خامات الأقمشة العربية وعليها انطرز العربية وقد صنعت صناعة حديثة فمثلا القطن الذي أدخل العرب زراعته إلى أسبانيا وصقلية هو الذي يصنع منه هذا القماش الناعم الرقيق وتصدره سوريا وخراسان إلى مختلف الأسواق العالمية . فحوالي عام ١٢٠٠ م نجد الفاتنات الغانيات اللواتي تشيد بهن أغاني « نيثارت فون رويتال » يلبسن البركان^(٧١) المجلوب إلى أسواق شمال ألمانيا من ميلان . وبعد ذلك بقرن نجد صناعة البركان تنتشر وبسرعة في « كونستنس » و « بازل » و « أولم » و « أوجسبورج » في جميع إقام « سوابيا » .

وبعد ذلك بقرن أيضاً هاجر نساجان لقماش البركان من قرية « ليشفيلد » إلى « أوجسبورج » وأكبرهما سنّاً كان « أولريش » الذي قتله مبيضو القماش . أما الأخ الآخر « منز » فلم يقنع بعملية النسيج وتولى هو بيع بضاعته الجيدة كما نجد باللات القطن السوري والقبرصي تصل إلى مصنع أبنائه وتخرج منه البركان الحديث لصناعة القطنية^(١٠) والشك^(٤) والجبنة^(٧٢) .

لكن تنبه الأبناء إلى أن انتشار التوابل والكسب الكثير الذي تدره على أصحابها أجدى لهم من النسيج ، فأقبلوا على الاتجار في باللات القطن العربي وقفف الفلفل العربي فلم يمض زمن طويل حتى أثرى أولئك العمال وأصبحوا قوة خطيرة يحسب

لهم حساب في عالم المال وعرفوا باسم « فوجر » فعن طريق البهارات والقطن والحرير وما يصنع منهما من أقمشة وضع مؤسسو أسرة « فوجر فون دير ليلي Fugger Von der Lilie » ، كما سمي هذا الفرع الناجح من الأسرة نفسه ، الأساس لهذه الثروة الطائلة التي دخلوا عن طريقها التاريخ ، فقد بلغوا من السلطان والجاه أنهم كانوا يولون القياصرة والملوك ويمدون البابوات بالأموال كما ساعدوا الفقراء والمعوزين والذين غلبهم الحياء وهم في أشد الحاجة إلى المعونة . ويدين الإخوة « أولريش » و « مكس » و « يورج » و « يعقوب فوجر » بترائهم إلى زهرة الليلك التي اننسبوا إليها وتبرعوا بالإتفاق على زواج ابن قيصر « هبسبورج » وهو مكسيمليان بوريثه « بوجوند » وهي « ماري » . وعن طريق هذا الزواج تمكن الملك الفرنسي من الحصول على بلاد وزوج لابنه الذي لم يتجاوز السابعة من عمره .

وتدين هذه الأسرة لهذا الاسم أيضاً بما أوحى إليها من ثقافة عربية ، وحضارة عربية ، وتقاليد عربية وذلك لأنها اتخذت منه شعاراً لها ورنكاً يميزها . وقد أعجب الصليبيون بهذه الفكرة ونشروها عام ١١٥٠ في فرنسا وعام ١١٧٠ م في ألمانيا . فعن الفرسان العرب نشأت العادة الجرمانية ، وهي اتخاذ صور الحيوانات إشارات للقوات والحروب ومن ثم استخدمها الأوربيون أوسمة شرف للفرسان ومن ثم تطورت إلى رنوك مدنية لها فنونها الخاصة ولغتها التي تتميز بها .

وكذلك الرنك الذي أهدها القيصر فريدرش الثالث والد مكسيميليان لأسرة الفوجر اعترافاً بفضلها وأيادها البيضاء كان عبارة عن زهرة الليلك الزرقاء والذهبية . والليلك هي الزهرة المحبوبة عند العرب وبخاصة في شرق البحر الأبيض المتوسط وقد انتقلت فيما بعد إلى الرنك الفرنسي حيث نشاهد زهرة الليلك الحميلة .

وأخذت أوروبا عن العرب عارية أخرى هامة جداً وهي التي اتخذتها القيصرية الألمانية والملكية النمساوية المجرية والقيصرية الروسية شعاراً لها وأعني بذلك « النسرين » فهذه الشارة شرقية قديمة نجدها في الآثار السومارية والحيشية كما نجدها فيما بعد على النقود العربية . وفي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي اتخذها سلاطين السلاجقة شعاراً لهم على رنوكهم وبغته يظهر النسران في القرن الرابع عشر في الرنك الخاص بقيصر ألمانيا .

وكان الشرق يذخر بالآيات الباهرة ثقافياً وصناعياً وكان كل ما فيه يوحى لدعاة الإصلاح بإدخال الشيء الكثير إلى أوروبا رغبة في الأخذ بيدها وتقديمها. ففي القرن الثاني عشر مثلاً عاد نفر من الحجاج المسيحيين من زيارة قاموا بها لقبر الرسول « يعقوب » في « ستياجو ده كومبستيللا » في أقصى شمال غربي أسبانيا . عاد هؤلاء الحجاج ومعهم أول ورقة إلى أوروبا جاءوا بها من الأندلس العربية ، وذكر أوثنك الحجاج أن العرب يستخدمون الورق للكتابة الجميلة وتدوين الكتب المقدسة ويدرس هناك كل كاتب الخط الجميل فهو الخط الوحيد الذي يستخدم للكتابة على الورق الجيد هذا الورق الذي كان يوجد بكثرة بحيث يسمح لاستخدامه في الأغراض التجارية كلف البضائع مثلاً .

وحدث في ذلك الوقت أن غزت أوروبا توابل ممتازة وروائح عطرية قوية وثياب أنيقة من القطيفة والحرير ، وسرعان ما غمرت هذه البضائع أسواق الغرب وقلوب الغربيين لأن مثلها قوى الرغبة في حياة الأبهة والترف ودفعها إلى الأمام بخطوات واسعة سبقت الإقبال على العلم والحرص على تحصيله . ولعل السر في هذا الانصراف عن الاهتمام بالعلم ندرة وسائل الكتابة منذ وقف الاتجار من قبل مع العرب . ففي عصر المارونجيين كان الكتبة في المحال التجارية والخبراء والأديرة يستخدمون ورق البردى . ففي مارسيليا كانت تفرغ السفن بليون انقطاع شحناتها من ورق البردى المصري إلا أن تحريم الاتجار مع الشرق استنفذ جميع هذه الكميات فاضطر الناس إلى الاقتصاد في استخدام ما تحت أيديهم ، وكثيراً ما كانوا يحون ما على الورق القديم لإعادة استخدامه ثانية . واستتبع اختفاء الورق ندرة الكتاب الذين يجيدون الخط وظل الحال كذلك عدة قرون حتى أحضر بعض الحجاج من أسبانيا هذا النوع الجديد من ورق الكتابة والذي كان يستخدمه العرب في جميع مراسلاتهم التجارية وغيرها . وما كاد القوم في أوروبا يرون هذا الورق حتى تهافتوا على استيراده فسافرت وفود تجارية من « نورنبرج » و « راغيتز برج » و « بازل » و « كونستنس » إلى برشاونة ومنها إلى بلنسية حيث تقوم في ضواحيها أكبر وأحسن مصانع للورق ، وقد قال فيه الرحالة العربي الجغرافي الشهير بالإدريسي : إنه لا يوجد في العالم ورق يضارعه جودة .

وفي عام ١٣٨٩ نجد تاجر التوابل المشهور « أولمان شرومر » أنشط أبناء الأسرة التجارية المعروفة بهذا الاسم في « نورنبرج » والذي كان يتولى تجارة الزعفران ونقله إلى أسبانيا يقرر إدخال صناعة الورق إلى وطنه فأسس في ذلك العام بالقرب من « نورنبرج » أول مصنع للورق في ألمانيا مستعيناً ببعض العمال من إيطاليا التي كانت قد سبقت وأسست أول مصنع ورق في أوروبا عام ١٣٤٠ م .

لكن ألم تدون قبل قرنين ونصف قرن أول وثيقة على الورق في دولة مسيحية أوربية وكان ذلك عام ١٠٩٠ ؟ أو أن المؤرخ لا يعتبر جزيرة صقلية التي انتزعت حديثاً من العرب وسكانها المسلمين ، وآلت إلى النورمان جزءاً من أوروبا ؟

ففي عام ١١١٥ تأكد تجديد أحقية روجر الثاني في عرش صقلية بناء على وثيقة من والده الجراف الأكبر روجر عام ١٠٩٠ بحجة أن هذه الوثيقة مدونة على ورق بالرغم أنه من هذا النوع الرقيق المصنوع من القطن في القيروان والذي كان من الصعب الاحتفاظ به في حالة جيدة ، وجرت العادة أن تدون الوثائق على الورق القوي . والسبب في هذه الصعوبة التي اعترضت أحقية روجر الثاني في العرش تمزيق هذه الوثيقة وتشويهها مما أشكل على القارئ قراءتها مع وجود بعض التغير فيها ، لذلك ظل الملك روجر الثاني طيلة مدة حكمه مشغولاً بفحص وثائق آباءه ووثائقه وإعادة كتابتها . ومن بين هذه الوثائق التي أعاد كتابتها تلك التي دونت عام ١١٠١ وفيها تهب والدته الأميرة « أديلاسيا » دير القديس « فيليبو » مصنعاً للورق شيده العرب ، والدافع إلى تغييرها عام ١١٠٢ هو كتابتها على الورق .

والشيء الجدير بالذكر هنا أن صناعة طواحين (مصانع) الورق كانت من اختصاص العرب وعندهم أخذها الغرب كما أخذت أوروبا كذلك طواحين الماء والهواء وغيرها . وصناعة الورق لم تظهر إلى الوجود بين عشية وضحاها فالورق قبل أن تعرفه أوروبا قطع طريقاً طويلاً مخفوفاً بالمتاعب والمشاق ولعل من أهم الدوافع التي دعت إلى اختراعه الحاجة الملحة إلى مادة للكتابة في مناول مختلف طبقات الشعب ولا سيما أن أسعار الحرير الصيني الذي ظل زمناً طويلاً مستخدماً للكتابة كانت خيالية مما اضطر المفكرين إلى إيجاد حل لهذه المشكلة ، ففي عام ١٠١٠ م وفق « تساي لون » مدير المصانع الحربية القيصريّة إلى حل هذا اللغز ، ولعل سرجاً من اللباد

أو شعر الماعز أو البقر والذي تخصص فيه الأتراك الرجل الشرقيون ، هو الذي أوحى إلى « تساي لون » فكرته الجديدة وشرع تَوَّأ في تنفيذها فاستغل قشور الشجر والحلفاء والحرق وشباك الصيادين القديمة فقطعها إرباً . فكان له هذا الورق الذي استغنى به عن الحرير الغالى الثمن .

وحدث أن أنزل العرب عام ٧٥١ م عدداً كبيراً من أسرى الحرب الصينيين في مدينة سمرقند وخيروا الأسير بين العتق والرق وجعلوا ثمن العتق مباشرة حرفة من الحرف فاتضح أن عدداً كبيراً من أولئك الأسرى الصينيين يجيد صناعة الورق فأعتقهم المسلمون وشيدوا لهم المصانع الضرورية فنشروا صناعة الورق في العالم الإسلامى ، ومع مضي الزمن تقدمت هذه الصناعة باستخدام الكتان والقطن في صناعة الورق الأبيض الناعم الجميل الذى وجد أسواقاً رائجة في مختلف أنحاء العالم الإسلامى وبخاصة في عاصمة الدولة العباسية بغداد ومن ثم اقتبست أوروبا هذه الصناعة كما اقتبست غيرها من العرب فالورق صفحة من صفحات الفخار للعروبة والعربية .

وأدرك الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م) أهمية هذا الورق وكثرة الحاجة إليه في مختلف الدواوين والمعاهد العلمية وثافت عليه العلماء والنساخ والتجار وغيرهم مما اضطر الخليفة إلى التوسع في صناعته خدمة للاقتصاد واستغناء عن البردى المصرى ، كما أصدر مرسوماً يحرم استخدام البردى في الأعمال الحكومية وطالب الموظفين وغيرهم باستخدام الورق الرخيص فقط . ولما تولى هارون الرشيد بالغ في تشجيع الورق وصناعته حتى إن الوزير البرمكى يحيى بن خالد أقام عام ٧٩٤ م أول مصنع لصناعة الورق في بغداد ، وهكذا نجد المصانع في دمشق وطرابلس الشام وفلسطين ومصر وتونس ومراكش وأسبانيا . وعن صقلية وأسبانيا أخذت أوروبا صناعة الورق الذى هو أهم ركن من أركان الثقافة الإنسانية . فالورق يختم عصراً من عصور تاريخ الحضارة كما أن انتشاره قضى على عصر احتكار العلم والمعرفة وبعد أن كانت الحكمة ملكاً لطائفة بعينها أصبحت اليوم للجميع وهى ترحب بكل من يخطبها . الورق هو العمود الفقري للمعرفة الإنسانية وهو من أهم الوسائل انشرها في مختلف الطبقات والأصقاع بالرغم من أننا نعيش في عصر الراديو

والكهرباء . واستتبع ظهور الورق اختراع الطباعة لا في أوروبا فقط بل حتى عند الصينيين والعرب . ففي الغرب نجد أمثال « كوستر » الهولندى و « جوتنبرج » الألمانى وقد ساهم كلاهما فى هذا الحدث العظيم مساهمة كبرى .

والآن نتساءل ما هى الوسائل التى استخدمها وزير الخليفة عبد الرحمن الثالث لإعداد أكثر من نسخة من الوثائق الرسمية التى كانت توزع على الدواوين الحكومية فى الأندلس ؟ هذا ما نجهله ، لكن المعروف الثابت أن العرب أوجدوا بعض وسائل الطباعة التى استخدموها فى طباعة أوراق النقود وأوراق اللعب ، وقد انتقلت أوراق اللعب هذه مع غيرها مثل الشطرنج والضامة ، والتى ما زالت تحتفظ باسمها حتى اليوم فى أوروبا من أسبانيا إلى الغرب .

* * *

وفى أوروبا فكرة سائدة تقول إن مخترع البوصلة هو « فلافيو جيوييا » وهو أحد أبناء « أمالتى » . والواقع أن فلافيو هذا ليس هو مخترعها وليس هو أول من جاء أوروبا بها فأصحاب الفضل فى إيجادها هم العرب . وحقيقة اتجاه إبرة البوصلة المغنطيسية إلى الشمال قد عرفها الصينيون فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد، ويقرر الصينيون فيما جاءنا من وثائق أن استخدامهم للبوصلة فى الملاحة أخذوه عن أجناب وكان ذلك فى القرن الحادى عشر الميلادى وهو العصر الذهبى للأسطول العربى التجارى وأسفاره وبخاصة فى المحيط الهندى ودولة الصين فيتبادر إلى أذهاننا أن هؤلاء الأجانب الذين أخذ الصينيون عنهم استخدام البوصلة فى الملاحة كانوا العرب ولا سيما أن بعض المصادر العربية التى ترجع إلى تلك العصور تؤكد استخدام العرب للبوصلة فى هذا الغرض . وعن العرب أخذها الصليبي « بطرس فون ماريكورت » وأهداها إلى أوروبا . وكان « ماريكورت » مدرساً لروجر بيكون ومن ثم توجه « ماريكورت » إلى فرنسا حيث كان قد ألم بالمغنطيسية والبوصلة وأدخلاه إلى أوروبا وكان ذلك عام ١٢٦٩ وذلك عن طريق رسالته حول المغنطيسية . وبعد ذلك بمدة تبلغ نحو ثلاث وثلاثين سنة أى حوالى عام ١٣٠٢ م بدأ هذا الإيطالى من « أمالتى » يهتم بالبوصلة . والشئ الجدير بالذكر أن « أمالتى » هى أول ثغر بحرى بجوار البندقية وكانت تقوم بدور هام فى تجارتها مع أصدقائها العرب كما

كان لهذا الثغر الإيطالي جاليات كبيرة في مختلف الموانئ العربية شرقاً وغرباً ، وبالرغم من أن عصر « أمالتي » الذهبي كان قد ولى وانتهى إلا أن سكانها حتى عصر فريدريش الثاني كانوا أذكي وأحسن تجار وملاحين في جنوب إيطاليا ، ومن أولئك الأبناء « فلافيو جيوييا » الذي نجح في الحصول على هذه المعلومات من العرب ومن الشرق . لكن الأوربيين يحرصون على نسبة اختراع البوصلة إلى هذا الإيطالي ، ولما أعجزهم الدليل وثبت للعيان أنه جاء بالبوصلة من العرب قال ذلك الثغر المتعصب من الأوربيين إن « فلافيو » هذا أدخل على هذه البوصلة بعض التعديلات وبعد ذلك قدمها لأوروبا لاستخدامها في الملاحة ولا يستغنى عنها في البحار العالية والشواطئ الجديدة .

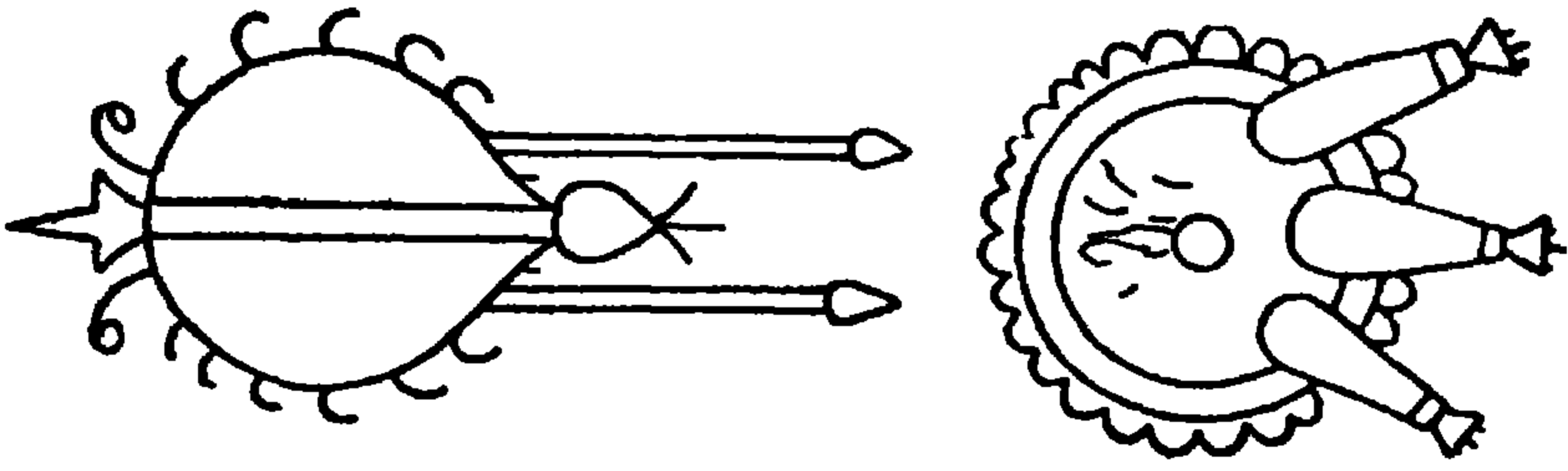
* * *

واليوم نقف حيارى لا نحير جواباً أمام هذه الصواريخ التي تنطلق في الفضاء وتجوب أرجاء الكون وتعود من حيث بدأت . فهل فكر أحد وقد أخذنا بهول وعظمة ما نشاهد فيمن يجب أن نقدم له الشكر لهذا الاختراع ؟ ثم أليس من المحتمل أن الأوربيين ليسوا هم أول من فكر في اختراعه ؟ لقد ثبت أن الفكرة الخاصة بإطلاق قنابل عن طريق قوة متفجرة من البارود هي فكرة صينية وقد نفذت عام ١٢٣٣ م في معركة نشبت حول « بين كيننج » بين الجيشين الصيني والمغولي ، وكادت تدور الدائرة على الصينيين لولا أن فاجأوا العدو بهذا الاختراع وهو عبارة عن سهام تطلق عن طريق مادة متفجرة تحتوي على ملح البارود . وحوالي عام ١٢٧٠ م استخدم المغول نفس السلاح مستعينين بقوة التفجير الناتجة عن ملح البارود ، وللمرة الأولى في تاريخ الحروب نجد هذه الصواريخ تلعب دوراً هاماً في كسب المعارك أو فك الحصار المضروب كما وقع فعلاً عند القضاء على الحصار المضروب حول مدينة « فان تشينج » . وبفضل هذه الصواريخ انتصر المغولي « كوبلاي خان » على الصينيين وقضى على مقاومتهم . لكن هل انتصر المغول على الصينيين دون تلقى مساعدة أجنبية ؟ وإن كان للمغول حليف فمن هو هذا الحليف الذي استغاث به « كوبلاي خان » وأجابه إلى رجائه وأعانه على القضاء على الصينيين ؟ يحدثنا المؤرخ رشيد الدين حديثاً يثير دهشتنا فهو يذكر في سياق كلامه عن السلطان العربي أنه

علم من حاشيته أن السلطان استجاب إلى طلب « كوبلاى خان » وأمر أن يرسل إليه المهندس الذى حضر من بعلبك ودمشق ، وأبناء هذا المهندس وهم أبوبكر وإبراهيم ومحمد بنوا بمساعدة الفنيين الذين رافقوهم سبع آلات كبيرة وتوجهوا بها إلى المدينة المحاصرة ، فهل سبق أن ساهم المهندسون العرب فى فك الحصار المضروب حول مدينة « بين كينج » عام ١٣٣٢ أيضاً ؟ وهل هذا السلاح العجيب الذى استخدم هو بعينه الذى استخدمه القائد المصرى فخر الدين ، صديق فريدريش الثانى ، عند ضرب جيش الإفرنج وملكهم لويس المقدس عام ١٢٤٩ حيث دارت رحى المعركة الصليبية للحملة الخامسة ، واستخدم فيها القائد المصرى فخر الدين نيراناً عربية جديدة ؟ وقد أثار هذا السلاح الحديد الخوف والفرع فى صفوف الصليبيين حتى إن المؤرخين الأوربيين يذكرون أن كل مرة كان يطلق فيها الصاروخ المصرى يشعر ملك فرنسا بخيبة عظيمة ويصرخ يا حبيبى يا سيد يا يسوع المسيح نجنى واحمنى ورجالى !

ورب ضارة نافعة فقد تكتلت أوروبا ضد العرب المسلمين وشن المسيحيون حرباً لا هوادة فيها مما اضطر سلاطين الإسلام إلى تجنيد العلماء العرب فى القرن الثانى عشر الميلادى وبخاصة أولئك الذين يهتمون بالدراسات الكيماوية وأرسلوهم إلى مصانع المفرقات حيث نجحوا فى إيجاد مادة مفرقة كاوية حارقة . وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر استكملوا خلق مادة مفرقة دافعة للصواريخ واستخدموها فى حروب المسلمين ضد الصليبيين . فى كتاب الحرب لحسن الرماح وبعض المؤلفات الأخرى الخاصة بالحروب فى ذلك العصر نجد ذكر كثير من المواد المفرقة والأسلحة النارية وهى : بيض يندفع تلقائياً ويحرق ، وهى تطير نافثة للهب ، وهى تحدث صوتاً مثل الرعد . . . وهكذا ، فالعرب هم أول من صنع لغماً تقذفه الصواريخ .

والآن استطعنا أن نتوصل عن طريق بعض التراجم اللاتينية على معلومات دقيقة حول هذا الخليط العربى العجيب الذى يحدث رعداً وبرقاً ، وأن هذا الخليط قد وصل إلى بعض علماء أوروبا أمثال « روجر بيكون » و« ألبرتوس مجنوس » والجراف الألمانى الواسع الاطلاع « فون بولشتدت » ، وقد يكون الأخير هو الذى اتصل أثناء



طوربيد مشحون بالمواد المفرقة يقذفه صاروخ وبه مفرج من ثلاث محركات
(عن مخطوطة لحسن الرماح ترجع إلى عام ١٢٧٥ م)

تجواله بذلك الذى يدعى أنه مخترع البارود ألا وهو الفرنسي سكانى « برتولد شفرز » فى فريبورج وأخبره عن هذا الاختراع العربى .

ثم حدث أن انتقلت النظرية إلى التجارب العملية التى هزت كيان العالم : فالعرب فى الأندلس هم أول من استخدمه فى أوربا فالعرب الأندلسيون هم صانعو القنابل من البارود فى أوربا وقد استخدموها فعلا فى كثير من حروبهم . فالتاريخ يحدثنا أن المدفعية العربية قذفت بقنابلها فى الأعوام ١٣٢٥ و ١٣٣١ و ١٣٤٢ م مدناً مثل « بازا » و « أليكتا » و « الجيكيراس » فأحدثت هذه القنابل ذعراً شديداً فى صفوف الأعداء حتى إنهم اعتقدوا أن الساعة قد اقربت وأذنت الدنيا بزوال . وفى عام ١٣٤٦ دارت معركة طاحنة هى المعروفة باسم « كريسى » فأصلت فوهة المدفعية العربية ، التى أطلق عليها الأوربيون وقتذاك فوهة الشيطان ، العدو نيراناً حامية واستولى العرب على الإنجليز الذين كانوا فى « الجزيرة » كما نكل العرب بالفرسان الفرنسيين تنكيلاً عظيماً وأحرزوا عليهم نصراً مبيناً . والنتيجة المحتومة لهذا السلاح الجديد أنه نقل فنون الحرب من مرحلة إلى أخرى إذ كان هو نقطة التحول فى الذخيرة والعتاد ، وما زال منذ الحرب العالمية الثانية يطلع علينا بالعجائب .

ثم دارت عجلة الزمن واضطر العرب أن يتركوا مكانهم لغيرهم سواء فى الثقافة أو التجارة إلا أنهم أبوا أن يتنازلوا عن مكانتهم إلا بعد أن يتركوا للعالم آثاراً ناطقة بمجدهم وعظمتهم وفضلهم على العالم . فمن هذه الآثار الاصطلاحات الخاصة بالملاحة التى ربطت بين تجارة البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط وبين بقية الدول الأوربية فنحن نجد مثلاً أسماء أنواع كثيرة من السفن مثل « داو » (٧٣)

و « دنجى »^(٧٤) و « قربة »^(٧٥) و « فلوكة »^(٧٦) « الشراع » و « الميزان »^(٧٧) و « الحبل »^(٧٨) و « دارالصناعة »^(٧٩) و « أمير البحر »^(٨٠) و « قلفاط »^(٨١) و « قلفاطى »^(٨٢) وهو الذى يساعد نجار السفن بمطرقة القلفطية التى يصلح بها الأجزاء التى أصابها عطب فى السفينة حتى لا تتعرض لعوارية^(٨٣) . ومن آثار العرب أيضاً شكل الجندول البندقى والجندول هو ذكرى حب البندقية للشرق العربى . ومن مخلفات العرب أيضاً الحمام الزاجل فهو : أسرع من البرق وأنجز من سحابة ؛ فقد كان يستخدمه العرب فى خدمة البريد ونقله وبخاصة الأخبار السرية ، ومن ثم اقتبس الصليبيون هذا النظام وأدخلوه أوربا ، وما زال الخطاب فى منقار الحمامة إلى يومنا هذا رمزاً للحب . كما تزين أوربا كعكة الأطفال برسم الحمامة عليها . ومن آثار الشرق على الغرب أيضاً الحدائق والعناية بها فالحدائق الأوربية تدين لا للعرب فقط بل للشرق قاصيه ودانيه أيضاً وذلك منذ عدة قرون فقد أخذ الأوربيون النباتات المفيدة للطعام مثل الخيار والقرع والبطيخ والشمام والخرشوف والسبانخ^(٢٤) والكبر^(٨٤) والليمون^(٨٥) والبرتقال^(٢٠) والخوخ والتسفتشجين^(٢٩) والأرز^(٢٣) والزعفران وقصب السكر^(١٣) . وأخذت أوربا أيضاً نباتات الزينة وأزهارها مثل الكستناء والبجلة وهى هذه الشجيرة ذات الأزهار البيضاء أو الحمراء والياسمين^(٨٦) والورد^(٨٧) وخيرى البر^(٨٨) والكاميليا والأسليح^(٨٩) والفورسيسيا^(٩٠) والسرسن ، وعلاوة على هذه النباتات وتلك الزهور أخذت أوربا عن العرب طرق الرى حيث كان العرب ماهرين فى هذا الفن منذ أقدم العصور . وخلف العرب وراءهم أيضاً أثراً حتى فى الكنائس مثل استخدام السبح فى الصلوات فقد جاءت السبحة من الهند واقتبسها الإسلام ومن ثم أهداها إلى الكنيسة الرومانية وأجهزة الطقوس الدينية والمباخر والبخور والمر ، كما نجد بعض الأقمشة العربية الحريرية المشاة بالخيوط الذهبية والفضية تستر المذابح ورجال الكهنوت فترك بجمالها أثراً بعيداً فى الطقوس الدينية بالكنيسة الكاثوليكية ، كذلك البلشين^(٩١) العربى الذى نشاهده حتى اليوم يزين المذابح ويشهد لبغداد بالمكانة التى بلغت فى العصور الوسطى .

ولا أدل على تغلغل الأثر العربى فى أوربا من النظر إلى الملابس التى يرتديها الأوربيون حتى يومنا هذا سواء كانت هذه الملابس شعبية قديمة متوارثة عن العصور

الوسطى أو حديثة تشكلها الحضارة وتوحى بها الأذواق . فهذه الملابس مصنوعة من أقمشة عربية الخامات عربية النسيج عربية الذوق عربية الاسم عربية الوطن ، فهامى « المستقة »^(٩) تناسب كرنرادين فى قطنيته^(١٠) الجميلة والبلوزة^(١١) التى ترتديها [ربا] تحت شكة^(١٢) الكسوة الأنيقة . وفى البيت يرتدى الوالد جبة^(١٣) ، وجبته الإنجليزية القديمة عندما يريد غسل سيارته ، ثم الجبة الصغيرة التى يرتديها الطفل ، وتلك التى ترتديها السيدة الأنيقة ، وهى قطعة من الملابس الداخلية التى أعارتنا إياها المدنية الفرنسية .

وفضل العرب على المرأة وزينتها وأناقته يتجلى لنا أيضاً فى غير ملابسها ، يتجلى فى المساحيق والعطور ، فشهرة الشرق فى البخور والعطور وإعدادها قديمة جداً . ولم تقف وسائل الزينة والتبرج على النساء بل تعدتها إلى الرجال ، فالرجل المسلم قد اقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم ويتزين بإطلاق اللحية ، ثم اتصلت أوروبا بالمسلمين فى الحروب الصليبية فاقتبسها الرجال وأصبحت حتى اليوم من العادات المستحبة عند الغربيين .

وهناك عادة هامة بالنسبة للعربى احتفظ بها الأوربى ألا وهى عادة الاستحمام وخلع الملابس . فالجرمان المخشوشون اعتادوا كما يحدثنا (تسيستوس) الاستحمام صباحاً وغالباً بالماء الساخن عقب قيامهم من النوم ، وكان الجرمانى يعتبر الاستحمام رياضة يومية ، ويذكر (قيصر) أن الجرمانى كان يستحم بالرغم من قسوة البرد فى الأنهار ، كما كان الجنسان يستحمان معاً دون خجل . ولما زار الطرطوشى بلاد الفرنج لاحظ شيئاً آخر ، فكان وهو المسلم الذى يتوضأ قبل كل فرض من فروض الصلاة الخمسة يستنكر حال القذارة التى يحياها الشعب ؛ لذلك صور هذه الحالة التى شاهدها بقوله إنه لم يشاهد فى حياته أقدر منهم لا يغتسلون إلا مرة أو مرتين كل عام وبالماء البارد . أما ملابسهم فلا يغسلونها بعد أن لبسوها لكيلا تتمزق ، والسر فى هذا التحول العظيم فى عادات الشعب الجرمانى هذه التعاليم الجديدة التى تقول إن تجريد الجسد من الملابس مدعاة لإثارة الغرائز الجنسية والفوضى الخلقية ؛ لذلك عدلوا عن الاستحمام وخلع الملابس ولجأوا إلى غرف صغيرة لتغيير ملابسهم ، فاتهمهم التعاليم الجديدة بالفسق والدعارة ، بينما القذارة مظهر من مظاهر العفاف .

ثم اندلعت نيران الحروب الصليبية وأقبل الصليبيون على الشرق فشاهدوا الحمامات في كل مكان، فنحن نعلم مثلاً أن بغداد وحدها كان فيها في القرن العاشر الميلادي آلاف الحمامات الساخنة والحمامون والمدلكون والحلاقون للرجال والنساء للعناية بالجسد لا أسبوعياً فقط بل يومياً أيضاً ، وقد لمس الصليبيون هذه الحياة العربية وأدركوا أثر الحمامات بما فيها من وسائل الراحة والنظافة والزينة فهاموا بها كما هام أولئك الغربيون الذين شاهدوها في إسبانيا وصقلية فألحوا جميعهم في إدخالها إلى أوروبا بالرغم من المعارضات الشديدة وصرخات الاستنكار التي دوت في كل مكان .

وهكذا أخذت قلاع الدفاع التي شيدتها أوروبا المسيحية في وجه العرب والإسلام والحضارة العربية تستسلم الواحدة بعد الأخرى ، وذلك بفضل القنطرة التجارية التي أقامتها الجمهوريات الإيطالية مع العرب وبفضل التجار والمسافرين والصليبيين واندفع تيار الحضارة العربية يكتسح ما أمامه من عوائق فأفاقت أوروبا من نعاسها وأدركت أثر الجهالة التي تغط فيها ونهضت بفضل العرب والعروبة والحضارة العربية .

الكتاب الثاني

الكتابة العالمية للأعداد

بها تستطيع أن ترقم صحيحاً
وتنطق جميع الأعداد وتكتبها
تعليم الحساب في العصور الوسطى .

ميراث هندي

لماذا يتعثر في ألمانيا وبصفة خاصة كل تلميذ مبتدئ عند محاولاته الحسابية الأولى . وبخاصة عندما يتدرج من الآحاد إلى العشرات ؟ فكتابة العدد (٢٣) على السبورة تتطلب من التلميذ أن يقفز خانة ليكتب في التي تليها العدد (٣) ومن ثم يعود إلى الخانة التي تركها ليكتب العدد (٢) . ولو نسي في سرعة الكتابة أن يترك خانة ويكتب الأعداد حسب ترتيبها وسمعها ونطقها لخرج من (٢٣) إلى (٣٢) وما يزيد في تعريض التلميذ للخطأ كتابة المئات ، فلو اعتاد أن يكتب (٨٥) من الحلف إلى الأمام أعنى من اليمين إلى اليسار مثل (٨٥) فإن التلميذ عند كتابة (١٢٣) يبدأ أولاً بالعدد الدال على المئات (١) ثم بغتة (٣) ثم يعود مرة أخرى إلى خانة العشرات حيث يكتب (٢) ومن ثم تجده وقد استولت عليه الحيرة عندما يجد شعوباً أخرى لا تقفز هذه الخانات ؛ فالفرنسي يكتب العدد منطقياً ومعقولا فمن المئات إلى العشرات ثم الآحاد فهو يقول للتعبير عن العدد [٢٣] [فين تروا vingt. trois] والإنجليزى [تونتي ثرى twenty. three] والرومى (دودزتى ترى dwadzatj. tri) أما الألماني فيقول دراى أوندر زوانسيج (drei. und. zwanzig) ولا يقول (زوانسيج دراى zwanzig. deri) وهنا يتفق الألماني مع العربى الذى يكتب من اليمين إلى اليسار ويلتزم اليمينية مع الأعداد من [١ - ٩٩]

وعن العرب أخذت سائر الشعوب المثقفة لا الألمان فقط هذه الأعداد وكان [كارل] الأكبر [شارلمان] يقول (زينزوج فنفسيج انتى تريو) = (مائة وخمسون وثلاثة) بينما ظل الأمر زمناً طويلاً اختلط فيه ترتيب العشرات والآحاد فألمانية المرتفعات المتوسطة فضلت قديماً استخدام الآحاد — عند إدخال استخدام الأعداد العربية ، ومن ثم مع مرور الزمن أخذ الألمان يعتادون استخدام التعبيرات العددية المطابقة للاستعمال العربى .

واستخدام الأعداد العربية ليس مقصوداً على الألمان فقط بل نجدها عند جميع الشعوب المثقفة ولولاها ما استطاع العالم إصدار التذاكر أو تدوين أثمان الأشياء ولا طبع دليل تليفون أو تقرير سوق الأوراق المالية ، ولولا هذه الأعداد العربية ما قام هذا البناء الشامخ الخاص بالرياضيات والطبيعات والفلك أو الطائرات أو السفن عابرات المحيطات كذلك الطبيعة النووية وغيرها . وتقديراً لفضل العرب على الإنسانية خلد العالم اسمهم بتسمية هذه الأعداد : الأعداد العربية .

إلا أن العرب ما زالوا يعترفون إلى اليوم بأن هذه الأعداد هندية الأصل فهم تعرف عندهم باسم الأعداد الهندية .

والآن سنستعرض قصة الأعداد العربية مبتدئين بأصلها الهندى حتى غزوها أوروبا فسائر أنحاء العالم مبينين خط سيرها والعقبات التى اعترضتها وانتصارها لأنه لا يجوز بحظنا اليوم ونحن نكتبها ونفكر فيها كما لو أننا نفكر فى لغتنا القومية ونجهل تماماً المراحل التى مرت بها هذه الأعداد والمجهودات التى بذلها الكثيرون فى سبيل تمكينها من النصر الذى أحرزته .

اختلفت الشعوب ذات الحضارات القديمة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فيما بينها فى التعبير عن العدد ؛ فقدماء المصريين استخدموا للإشارة إلى الأعداد من [١ — ٣] خطوطاً عمودية بينما الخط الأفقى يعبر عن العدد [٤] لذلك كان الخطان الأفقيان فى مصر القديمة يعبران عن العدد [٨] وقد وصلتنا مجموعات من خطوط أفقية وعمودية ونقط تربط بينها إشارات خاصة هيراطيقية للتعبير عن الأعداد [١٠] و [١٠٠] و [١٠٠٠] فالعدد فى مصر القديمة نشأ عن الهيروغليفية .

أما البابليون فقد استخدموا للتعبير عن العدد ثلاث إشارات وهى عبارة عن

أسافين أفقية وعمودية وزوايا وكانت تعبر عن مختلف الأعداد بواسطة ترتيبها ووضعها .

أما اليونان فقد استخدموا منذ عصر صولون حتى القرن السابق للميلاد أوائل حروف أسماء الأعداد ثم كانوا يرتبونها ترتيباً خاصاً صعباً ويكونون من الآحاد العشرات ثم المئات ومن هنا كان نطق العدد يختلف اختلافاً بيناً عن كتابته . وحوالى عام ٥٠٠ ق . م طرأ على العدد اليونانى نظام جديد استخدم فى أول الأمر فى الرياضيات كما استخدم حروف الأبجدية الأربعة والعشرين بعد أن أضاف إليها ثلاث إشارات سامية الأصل . والواقع أن اليونان قد أخذوا الأبجدية وترتيبها واستخدام حروفها للدلالة على الأعداد عن الساميين .

ونحنا نحو اليونان الرومان فقد استعانوا بحروف الأبجدية للتعبير عن العدد مع ملاحظة أن التقارب بين رسم الحرف ودلالته العددية جاء عفواً، فالرومانى استخدم أصلاً إشارات تشير إلى أغصان وكانت تكون خطوطاً عمودية وترتب سوية بحيث إنه إذا أراد أن يعبر عن العدد ثمانية جاء بثمانية أغصان ووضعها إلى جوار بعضها وإذا أراد التعبير عن العدد عشرة جاء بعشرة أغصان وثقها بطريقة صليبية [X] ونصفها [V] أو [٨] = [٥] وهنا تتفق الأعداد الرومانية مع الأتروسكية والأومبرية مع ملاحظة أن الرومانيين استخدموا النصف الأعلى من الإشارة الدالة على العشرة أعنى [٧] للدلالة على العدد [٥] بخلاف الأتروسكيين الذين اختاروا الجزء الأسفل [٨] للتعبير عن [٥] وهكذا عن طريق التصليب والتدوير والتنصيف تكونت بقية الأعداد حتى الألف . والشئ الجدير بالملاحظة أن هذه الإشارات الإيطالية – مع بعض الفوارق الطفيفة – ترجع إلى عصر أقدم من معرفة الإيطاليين بالأبجدية ، ومع مرور الزمن نجد الإشارات الدالة على الأغصان تأخذ شكل الحروف مثلاً [١] = [١] و [٧] = [٥] و [X] = [١٠] و [L] = [٥٠] و [C] = [١٠٠] و [D] = [٥٠٠] و [M] = [١٠٠٠] .

أما الشبه القوي بين الإشارتين الدالتين على العددين (١٠٠) و (١٠٠٠) وبين الحرف الأول من لفظ (سنتوم centum) أى مائة والحرف الأول من كلمة (میل mille) أى ألف فقد وقع بمحض الصدفة وهذا الشبه هو الذى سهل الانتقال إلى

استخدام الأبجدية التي شاع استعمالها في العصور الوسطى .

والآن نتساءل ما الفرق بين كتابة العدد وتسميته والنطق به ؟ إن كل عدد بل حتى الواحد يتكون من أجزاء كما تشتمل علبة الحساب على وحدات عددية مجتمعة وتعد فرادى كما يعد الإنسان نقوداً متساوية القيمة ، وبينما يقول الروماني : (كوادرينجنتي أوكتوجينتا سبتم أي : أربعمائة وثمانين وسبعة) إذ به يكتب « مائة . مائة . مائة .. مائة . خمسين : عشرة عشرة عشرة خمسة واحد . واحد » فالإشارات الرومانية الدالة عليها هي (cccclxxxvii) فلغة العدد واضحة منتظمة نظيفة ومتصلة من حيث النطق أما كتابتها فمضطربة وإجراء العملية الحسابية البسيطة بها يتطلب جهداً كبيراً لصعوبتها . فلهذه الكتابة العددية حدودها لأنها لا تملك من الإشارات ما يمكنها من التعبير عن كل القيم الحسابية . فالزائر للفوروم الروماني في روما يشاهد على الأعمدة السفن القرطاجنية التي استولى عليها الرومان في أول معركة بحرية انتصروا فيها عند (ميليه) على القرطاجنيين عام ٢٦٠ ق . م وللتعبير عن العدد (٢٢٠٠٠٠٠) استخدم الكاتب ما لا يقل عن (٢٢٠٠٠٠٠) إشارة وقد حفرت كل واحدة منها إلى جانب الأخرى وهذا العدد هو أقصى ما عرفه الرومان والحساب الروماني والإشارات الرومانية .

وفي نصف الكرة الغربي كان الهنود هم الشعب الوحيد الذي ارتقى عن مستوى استخدام للطرق البدائية الحسابية العددية فلا تصفيف ولا ربط بين أجزاء متفرقة . فقد قسموا كل وحدة من وحدات الآحاد التسع كما تفعل ذلك اللغة أيضاً . وأوجدوا لكل جزء من العدد الإشارة الخاصة الدالة عليه وبذلك يكون الهنود قد توصلوا إلى اختراع من أهم الاختراعات التي توصلت إليها الإنسانية فهذه الآحاد الثابتة غير المتغيرة اكتسبت داخل حدود العدد قيمتها كآحاد وعشرات ومئات وآلاف وهلم جراً لذلك أصبح ميسراً للهنود كتابة أي عدد مهما عظمت قيمته .

أما الصينيون . فبالرغم من أنهم كانوا يستخدمون كذلك نظام الخانات أعني الآحاد ، العشرات ، المئات ، الآلاف و . . . إلا أنهم كانوا يكتبون إلى جانب العدد الخانة التي يدل عليها مثلاً العدد (٣٩٥٢) كانوا يكتبونه هكذا (٢ أحاد ٥ عشرات ٩ مئات ٣ آلاف) .

كذلك نجد الرومانيين يكتبون الأعداد حسب خاناتها أعني (١) = (١) و (x) = (١٠) و (c) = (١٠٠) و (M) = (١٠٠٠) ثم نجد أنصافها (V) = (٥) و (L) = (٥٠) و (D) = (٥٠٠) وهي تلتزم ترتيب العملة أعني الترتيب التنازلي فالعدد (٣٩٥٢) يكتبه الروماني هكذا : MMMDCCCCLII فمن هذا العرض يتبين لنا أن الصينى كان يكتب إلى جوار العدد قيمته العددية أى أنه من الآحاد أو العشرات أو المئات كما رأينا سابقاً . وقد استخدمت هذه الطريقة أوربا قبل أن تتمكن من الأعداد الهندية إذ نجد الهندى بخلاف الصينى والروماني يكتب بالخانات فقط وهي تنطق بالقيمة العددية وقد شارك الهنود في هذه الطريقة شعب « مايا » .

وهذا العمل الجبار لم ينهض به فرد بعينه لأن بلوغ هذه المرحلة يتطلب ولا شك تطوراً خطيراً يقطعه الشعب تطوراً في الرياضيات حتى يصل بها إلى هذه المنزلة العالمية، ولا شك أن هذه الإمكانيات قد توافرت للشعب الهندى بعد أن أتت عليه مئات السنين وليس معنى هذا أن الهند لم تمر بالمراحل الأولى مراحل الاستعانة بالعصى وجمعها ومن ثم أخذت حوالى عام ٣٠٠ ق .م. تحول هذه الإشارات إلى أعداد وإن ظلت زمناً طويلاً ملتزمة نوعاً بعينه من كتابة الخانات شأن الهند في ذلك شأن الصين . وحوالى القرن السادس الميلادى احتفظت الهند فقط بالأعداد الدالة على ١ - ٩ كما أوجدت نظام الخانات .

وتحدثنا المصادر التى بأيدينا أن هذه الأعداد الهندية قد شقت طريقها خارج حدود وطنها فى عام ٦٦٢ م نجد الراهب السريانى « سيفيروس سيفوخت » الذى كان رئيساً لأحد الأديرة وناظراً على مدرسة عالية على الفرات يذكر فى صدد الحديث عن الأعداد الهندية : أن أهم شىء فى الحساب الهندى والذى يميزه على ما عداه فى العالم الإشارات التسع : وهذا هو أول مدح قيل فى الهند ؛ فبواسطة هذه الإشارات الجديدة استطاع « سيفيروس » أن يؤدى عملياته الحسابية بطريقة جديدة . وهي استخدام صفوف من الإشارات تعبر عن أعداد لا نهاية لها إلا أنه كانت تنقصها إشارة خاصة للتعبير عن عدد بعينه فهذه الإشارات تدل على أعداد خاصة فقط ؛ فمثلاً العدد [٣٩٥٢] نجد فيه العدد (٢) يعبر عن [اثنين] بينما العدد [٥]

يعبر عن [خمسين] والعدد [٩] هو [تسعمائة] والعدد [٣] يساوى [ثلاثة آلاف] ولكن عند كتابة العدد [أربعمائة وثمانية] يجب أن توجد إشارة تبين خانة العشرات حتى لا يختلط العدد بالعدد [٤٨] وهنا أظهر الهنود ، لسد هذه الخانة أو الإشارة إليها ، عبقرية جبارة أثبتت كمال الأعداد الهندية . لقد أوجد الهندي ما يسمى بالدارة أو النقطة والتي تعرف في الهندية باسم « سونيا » أو « سونيا بندا » أى الفراغ كما عبروا عن هذه الإشارة في الهندية أيضاً بكلمة « كهها » ومعناها الثقب .

فهذه الدارة (٥) تدل أصلاً على النقص في نظام الخانات في الحساب الهندي ثم بعد ذلك استخدمها الهنود في حسابهم كعدد مستقل لكن الراهب السرياني « سيفيروس » ، يعرف الدارة في هذا الاستعمال ، ولا نعلم كيف استخدم هذا السرياني العدد الهندي بدون مساعدة الدارة .

وأول مرة شوهدت هذه الدارة في الكتابات الهندية كان عام ٤٠٠ م وقد ذكر الفلكي الهندي الشهير « براهما جوبتا » والذي ولد عام ٥٩٨ م في رسالته المشهورة « سدهنتا » والتي وضعها وهو ابن ثلاثين عاماً وقد عالج فيها النظام الفلكي فتحدث فيها تحدث عنه عن بعض قواعد الحساب والإشارات الخاصة بالأعداد التسعة ثم ذكر الصفر كعدد خاص .

وفي عام ٧٧٣ م وفد على الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٧٥ م) في بغداد فلكي هندي آخر يدعى « كنهاه » .

ثم نجد الفلكي العربي المشهور بابن الآدمي يضع جدولاً يعرف باسم « عقد الآلى » وقد خدم شعبه خدمة جليلة . وقد ذكر أنه في عام ١٥٦ هـ حضر إلى المنصور رجل من الهند متضلّع في نوع الحساب الذي كان سائداً في الهند وقتذاك ويعرف باسم « سند هند » وهو يتصل بحركات النجوم ومأخوذ عن كتاب « كارداجاز » والذي يحمل اسم الملك « فيجار » فأمر الخليفة المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى العربية واعتماداً عليه يجب أن يؤلف آخر يعرف العرب حركات الكواكب ، وأسند هذه المهمة إلى العالم محمد بن إبراهيم الفزارى الذي اعتمد على الكتاب الهندي اعتماداً كبيراً . أما كتاب « سند هند » فعناه في اللغة الهندية « البقاء الخالد » وكان

هذا الكتاب مرجعاً هاماً لسائر علماء ذلك العصر حتى زمن الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣ م) .

وقد أعيد تأليف هذا الكتاب من جديد على يد محمد بن موسى الخوارزمي وقد استعان عند وضعه بالجدول المختلفة التي كانت متداولة في العالم الإسلامي وقد قدر الفلكيون الذين استخدموا طريقة كتاب «سند هند» هذا الكتاب حق قدره ونشروه في أوسع الآفاق .

أما الكتاب الذي أحضره العالم الهندي إلى بغداد وأثار به إعجاب الخليفة، فهو «براهما جوبتاز سيدهنتا» وقد نقل إلى العربية تحت اسم «سند هند» وانصرف العلماء إلى دراسته بنشاط وهمة كما لقي رواجاً عظيماً بين القراء وأوحى بقيام دراسات فلكية مستقلة مبتكرة شجعها الخلفاء وناصروها .

وبفضل هذا الكتاب تعرف العرب إلى الأعداد الهندية . ففي عام ٧٠٦ م تجد الخليفة الوليد الأول . وقد امتد سلطان العرب في عصره حتى بلغ أسبانيا يصدر أمراً بتحريم اليونانية في الدواوين وبخاصة في المالية . وقرر استخدام العربية مستثنياً الأعداد فقط لعدم وجود ما يفضلها ويحل محلها إذ كان العرب قد درجوا وقتذاك على استخدام الأيجدية اليونانية للتعبير عن الأعداد . والذي حدث أن الأعداد الهندية أخذت في ذلك الوقت في الظهور فشقت طريقها إلى المجالات العلمية والحكومية والاقتصادية .

ولم يكن استبدال نظام بآخر من الأمور السهلة الميسرة فإدراك قيم الخانات والصفر في الحساب من الأمور الهامة التي تتطلب كثيراً من الجهد والعناية وبخاصة إذا كان النظام الجديد قد خلقتة عقلية أجنبية لها تفكيرها الرياضي الخاص . ولكي ندرك مدى العناية الذي قاسته أوربا مثلاً يكفي أن نرجع إلى تاريخ دخول هذه الأعداد أوربا .

في الشرق العربي نجد عالماً من خيرة العلماء يتولى تبسيط هذا الحساب الجديد إلى قراء العربية وبخاصة موظفي المصارف والتجار والمساحين ، وهذا العالم هو الخوارزمي الذي تناول كتاب «سند هند» وصاغه صياغة جديدة مبسطة جعلته في متناول القارئ. كما اهتم بمسألة الميراث في القرآن الكريم وعالجها علاجاً سهلاً

مفهوماً كما ضرب كثيراً من الأمثلة والقواعد شارحاً المواريث وعتق الرقيق .

ولا شك في أن الخوارزمي من أشهر العلماء الذين عرفهم العالم الإسلامي في تلك الفترة من الزمن وقد وقع عليه اختيار نصير العلم والعلماء الخليفة المأمون فقربه إليه وحنا عليه فوضع له كتباً كثيرة في الجغرافيا والفلك ، وقد ترجمها إلى اللاتينية بعد مضي ثلاثة قرون على تأليفها للإنجليزي « أتيلهرت فون بات » فيسر بترجمته هذه لعلماء أوروبا الاطلاع عليها والاستفادة منها . لكن المؤلفات التي خلدت ذكرى الخوارزمي كتاباه في الرياضيات أحدهما وهو « الجبر والمقابلة » ويعالج المسائل المتصلة بحياتنا اليومية . وقد ترجم في العصور الوسطى إلى اللاتينية إلا أن المترجم اختصر اسمه العربي واكتفى بلفظ « الجبر » ، وما زالت هذه الترجمة معروفة حتى اليوم باسم « الجبر » .

أما الكتاب الثاني الذي يخلد ذكرى الخوارزمي فهو كتاب صغير في الحساب الهندي وهو يشرح فيه الأعداد والحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة وكذلك الكسور والتنصيف والتضعيف .

وقد وجد هذا الكتاب طريقه إلى أسبانيا حيث ترجم في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي إلى اللاتينية ، وفي نفس القرن ظهرت الطبعة الأولى للترجمة اللاتينية لهذا الكتاب في ألمانيا ، وأقدم مخطوطة توجد في مكتبة فينا وهي ترجع إلى عام ١١٤٣ كما توجد نسخة أخرى في دير « سالم » محفوظة تحت اسم « ليبر الجوريزمي » أي كتاب الخوارزمي ، وهو اليوم في « هيدلبرج » .

ثم نجد لفظ « الجوريتمي » يصبح علماً على رجل يسمى « الجوريسموس » ، كما ازدادت الدعوة إلى استخدام الأعداد الهندية والحساب الهندي ، وقد تفنن القوم في الدعوة إلى هذا حتى صاغوا في ذلك شعراً لاتينياً ، فقد وصلتنا قصيدة تعرف باسم « كرمين ده الجوريسمو » أي قصيدة اللوغاريتم ، وهي للمؤلف « ألكسندر ده فيلا داي » وهو من أبناء القرن الثالث عشر الميلادي .

إن الخوارزمي لم يتكلم فقط ، فاسم هذا العالم العربي الذي علم أوروبا الأعداد الجديدة وطريقة الحساب أصبح علماً على الطريقة الحسابية الجديدة « تكرار الخمسة الأعداد » وعلى العلم المعروف اليوم باسم « اللوغريتمات » . وقد وجد لهذا العلم

الأنصار الذين كافحوا من أجل استخدام طريقته في الحساب في أسبانيا وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وتغلبوا على خصومهم الذين كانوا يناصرون الطريقة القديمة حتى اشتهروا باسم « الأبيجديين » (الباسيتين) كما عرف أنصار الخوارزمي الذين بشروا طريقته الحسابية واستخدام نظام الخانات والصفر باسم « اللوجريتميين » .

لكن الشيء الذي يؤسف له أن التاريخ سريع النسيان ، ففي القرن الثالث عشر نتبين في القصيدة اللاتينية « كارمن ده الجوريسمو » أن أصل ومدلول كلمة « الجوريسموس » قد ضاع . وليس هذا فقط بل حتى أولئك الذين يعنون بالبحث عن أصول المفردات ومدلولاتها وبخاصة تلك التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالحضارة الإنسانية يتجاهلون العرب ودورهم الخطير في الحضارة الإنسانية ؛ لذلك لا يهتمون بالرجوع إلى العربية إذا ما أرادوا معرفة أصل الكلمة ومعناها . فمن الأوربيين من ذهب إلى أن لفظ « الجوريسموس » يتركب من كلمة « اليوس » أي « أجنبي » أو « دخيل » ولفظ « جوروس » أي « إدراك » أو « معرفة » اعتقاداً بأن هذه الكلمة تشير إلى أنها ملاحظة أجنبية دخيلة . وآخر يصر على الاعتقاد بأن في الكلمة لفظ « أرجيس » وهو لفظ يوناني ولفظ « موس » أي عادة ؛ فاللفظ يدل على عادة يونانية . ونجد ثالثاً تردى في الخطأ أيضاً فقال إن الكلمة مشتقة من « أريس » أي « قوة » و « ريتموس » أي « عدد » وجاء رابع بفكرة أخرى تقول بأن في لفظ « الجوريسموس » نجد الكلمة اليونانية « الجوس » ومعناها الرمل الأبيض وكلمة « ريتموس » أي عدد فكلمة « الجوريتموس » معناها الحساب على لوح مغطى برمل أبيض كما جرت العادة قديماً ؛ ونجد خامساً يفسر هذه الكلمة التي كثر حولها الجدل بأنها من « الجوس » أي « فن » و « رادوس » أعني « عدداً » فمدلول الكلمة « فن العدد » . أما القصيدة « كارمن ده الجوريسموس » فقد قالت برأى آخر وهو أن خالق هذا الفن هو الملك « الجوروس » من الهند . ونسبه آخرون إلى ملك مسيحي خرافي يدعى « الجور » وكان ملكاً على كستيليا . ورأى آخر يدعى أنه فيلسوف . وفي رحلة طويلة حول هذا اللفظ ومدلوله ظهر أخيراً رأى جديد أقرب من كل ما سبق إلى الحقيقة ، فقد اعتمد صاحب هذه الفكرة الجديدة على ما ورد مرة في كتاب منسوب إلى بطليموس وهو مكون من ثلاثة عشر جزءاً وقد نقل إلى

العربية مع تعريف اسمه تعريفاً عربياً فأطلق على المترجم لفظ «الماجست» وهذه تسمية مركبة تركيباً مزجياً ، وقياساً على هذا لماذا لا يكون لفظ «الجوريسموس» أيضاً من العربية «أل» والكلمة اليونانية «أريسوموس» أى العدد؟ أما الحرف «ج» فهو مقحم على الكلمة ولا يستحق التفكير . ففي الترجمة من اليونانية إلى العربية أو من العربية إلى اللاتينية كثيراً ما يتعرض المترجم لمثل هذه الأخطاء وتلك الاحتمالات ؛ وظل الحال كذلك حتى جاء القرن التاسع عشر واهتدى الفرنسي «ريناند» عام ١٨٤٥ إلى وجود اسم الخوارزمي في لفظ «الجوريسموس» .

ومن حسن الحظ أن دليلاً قوياً يقوم على أن الأعداد العربية وجدت طريقها إلى أوروبا عن طريق كتاب الخوارزمي الأول الذي عالج فيه الأعداد الجديدة التي أولاها العرب كل اهتمامهم وشرعوا في كتابتها كعادتهم في لغتهم من اليمين إلى الشمال مبتدئين بالآحاد فالعشرات كما نتبين هذه الظاهرة من كتاب الخوارزمي وحيث يبسط لنا الصفر واستخدامه في الجمع والطرح فقد ورد :

$$\begin{array}{r} ٣٨ \\ - ١٨ \\ \hline ٢٠ \end{array}$$

فإذا كان الباقي لا شيء فيقرر الخوارزمي كما جاء في الترجمة اللاتينية : وجوب وضع دارة حتى لا تظل الخانة خالية ، ومكان الدارة هو هذه الخانة وبذلك يتجنب الوقوع في الخطأ واعتبار خانة العشرات كما لو أنها خانة آحاد ولا يتأثر الإنسان بخلو الخانة ويعتبر العدد (٢) أنه في الآحاد مع ملاحظة أن كتابة العدد تبدأ من اليمين إلى اليسار : ومن العبارة الأخيرة يفهم أن الصفر يوضع على يمين العدد ووضعه على يساره (٠٢) لا يغير قيمته .

وبالاطلاع على المصادر الأخرى يتبين لنا أن مترجمي المراجع العربية قد راعوا الحرفية عند نقلها إلى اللاتينية كما اقتبسوا مع هذه الترجمة الطريقة العربية في الكتابة أعني من اليمين إلى اليسار فالأعداد العربية ، قد نقلوها مكتوبة على الطريقة العربية .

أما الخوارزمي فلم يكن أول من عرف أوروبا بالأعداد العربية فقد سبقه بنحو قرن ونصف قرن أعنى في القرن العاشر الميلادي أوربي نقلها عن العرب إلى أوروبا وحاول جهده التوفيق في كسب أنصارها فلم يوفق . وقد نشأ هذا الأوربي في أسرة متواضعة ومن ثم أخذ يكد ويتعب حتى أصبح محور الحركة العقلية في بيئته فاكسب صداقة ثلاثة من قياصرة ألمانيا كما أن المسيحية اختارته بابا .

وقبل ظهور هذا العالم لم تكن لأوروبا دراية ما بالعلوم الرياضية وحتى اليونانية الهلينية قد ذبلت وأصبحت في خبر كان ، والسر في هذه النكسة التي أصابت العلوم اليونانية الهلينية في أوروبا ظهور المسيحية وموقف رجال الكنيسة منها فقد شك أولئك اللاهوتيون في كل ما هو وثني وحاربوه ، ولم ينجح في الوصول إلى الأديرة إلا علم الحساب لضعف صلته بالعلوم اليونانية . وقد كتب علم الحساب العالم « بوتيوس » أحد الرومانيين المتأخرين ، وكان موضع ثقة الملك « ثيوديريش » ثم اتهم بالخيانة فأعدم ومن ثم جاءت العصور الوسطى فأعلنته قديساً . وقد بلغت ندرة الكتب التي وضعها بعض المؤلفين الرومانيين حداً أن الرهبان في الأديرة كانوا يقيدونها بسلاسل حتى لا تفقد . وكان جل اهتمام الأديرة بالتدريس ينصرف إلى الحساب الابتدائي بواسطة الطريقة الرومانية القديمة التي كانت مستخدمة قبل معرفة الأعداد التسعة والإشارة الدالة على الصفر ، وكانت هذه الطريقة الرومانية المعروفة باسم « أباكوس » عبارة عن إطار تمتد فيه أسلاك تجري فيها كرات تشبه هذه الطريقة المتبعة إلى اليوم لتعليم المبتدئين . كما درس الرهبان أيضاً الألغاز العددية الفيشاغورية واهتموا بتحديد مواعيد عيد الفصح واتجاه فريق مغنى الكنيسة تجاه الشرق . أما أمثال « إيزيدور » و « بيدا » و « الكوين » و « هرابانوس موريوس » و « فالافريد سترابو » فلم يخطوا بالعلوم خطوة تذكر .

وإذا كان الحال كما صورنا فهل من المستغرب أن تتخلف أوروبا وتعجز عن إشباع الرغبة العلمية لأبنائها ؟ لقد ظهر فيها نفر تواق إلى التحصيل والمعرفة أمثال « جربرت فون أوريلاك » الذي كان حريصاً على طلب العلم أنى وجد كما شغف بالاتصال بالعلماء مهما اختلفت عقائدهم وأوطانهم راغياً في الاستفادة والإفادة ، لذلك التف حوله الطلاب فحرص على تشويقهم إلى الرياضيات فنجح في خلق

بيئة علمية أنخلصت للعلم والنسخ والترجمة فكان كالربيع الذي غمر الأرض بعد شتاء طويل .

البابا يمارس الحساب العربي

وحدث عام ٩٤٥ م أن عثر رهبان دير في « أوفرنى » أمام باب الدير على طفل حديث الولادة ملفوف في قطعة من القماش ولا يعرف أحد والديه ؛ فأخذ الرهبان وتولوه بعنايتهم وأسموه « جربرت » فنشأ تحت رعاية الدير حتى كبر وترعرع في الدير المسمى « أوريلاك » وحدث لما بلغ العشرين أن زار الدير المارك جراف « بوريل » البرشلونى فلفت نظره ذكاء جربرت وصرح رئيس الدير له بمرافقة الجراف إلى بلده الواقع على الجانب الآخر من جبال البرنات .

والجدير بالذكر أن هذا المارك جراف الأسباني كان كغيره من أمراء الأسبان قد غامر أكثر من مرة في حرب ضد أمراء العرب وخرج منها جميعها مهزوماً مدحوراً وانتهى أمره كما انتهى أمر سائر الأمراء المسيحيين الذين سلكوا مسلكه أمثال أمراء « كستيليا » و « ليونز » و « نافاراس » واضطر الجراف كما اضطر أولئك إلى إرسال رسل إلى أمراء المسلمين في قرطبة طالباً الصلح .

وشارك الأمراء المسيحيين سوء العاقبة الأسقف « هتو » معلم « جربرت » ؛ فقد أصابه ما أصاب غيره من ويلات الحروب فاضطر أن يخنق ذليلاً حقيراً أمام « الحكم » الثانى واضطر نيابة عن سيده أن يرجو الخليفة هدم جميع الحصون والقلاع القائمة على الحدود الأندلسية ، وبهر « هتو » ما شاهده من أبهة وعظمة القصر الملكى الذى يكاد يشبه قصور القصص لذلك طالما ألح « جربرت » على « هتو » أن يقص عليه من أخبار المسلمين وحياة هذا الأمير المسلم الذى لم يكن عالماً فحسب بل كان أيضاً محارباً جباراً ومؤرخاً عظيماً . ولم يبخل هذا الكهنوتى على « جربرت » بمعلوماته التى جمعها عن الحياة الإسلامية والعلماء المسلمين والشعراء وغيرهم الذين كانوا كالسوار حول معصم الحكم . كما حدثه أيضاً عن أعيان

المسيحيين الذين كانوا يقطنون قرطبة ، هذه المدينة العظيمة وكيف أن المسيحيين هناك كانوا يتمتعون بكيانهم التشريعي ، فلهم رئيسهم الديني وقاضى القضاة ، وكانوا جميعهم يتزبون ويتكلمون مثل العرب ويتمتعون بكل الحقوق التى يمارسها العربى كما فتحت أمامهم دور العلم فاغترفوا منها ماشاءوا من رياضيات وطبيعات وكان حظهم من هذه الثقافة لا يقل عن حظ أساتذة الجامعات الإسلامية .

وهكذا نجد « جربرت » يقبل على الأسقف « هتو » ويروى ظمأه العلمى مما اغترفه هذا الأسقف من ينابيع المعرفة العربية الإسلامية فحصل على يديه الكثير وبخاصة الرياضيات والفلك ومعلومات أخرى لا يعرفها أحد فى بلده . أعنى الأعداد العربية .

وفى عام ٩٧١ م رافق « جلمبرت » المارك جراف الأسقف إلى روما حيث تمت هناك المقابلة التى تعرف فيها على أسرة القيصر الألمانى « أوتو » العظيم وحرره القيصرية « أدلهيد » وابنها وكذلك الحفيد . فاتخذ أوتو الثالث من هذا المعلم العجيب أستاذاً له ومستشاره الخاص فى القصر القيصرى كما جعله كبير أساقفة « رافينا » . وفى عام ٩٩٩ م عينه تحت اسم « سيلفستر » الثانى خلفاً لبطرس فكان هذا الرقى المفاجى معجزة العصر ولغزاً للأحداث التى وقعت وقت ذاك .

فشخصية الرجل ومعرفته أثارت إعجاب معاصريه ، فقد استعان بالعلوم الإسلامية الشيطانية « كذا » للتدخل فى علم الله ومخلوقاته ، لذلك بدا هذا العالم أمام هؤلاء القوم سرّاً غامضاً وساحراً كبيراً فقد بلغ ما بلغ من علوم ومعرفة عن طريق العرب فقط ومن سوى العرب كان يهيم على هذه العلوم وتلك المعارف غير المسيحية ؟ فقد كان « جربرت » يشرق الزمن ليهرب من الدير خفية إلى أسبانيا — هكذا تحدثنا القصة — راغباً فى دراسة الفلك وغيره من العلوم على يد العلماء المسلمين . فهناك تعلم السحر وإحضار الجان الأسود من جهنم وغيرها وكذلك سائر الكائنات الضارة والنافعة ، وفى أسبانيا أيضاً حصل عن طريق حيلة من الحيل من ساحر عجوز على كتاب فى السحر كان الشيخ يحافظ عليه ويعنى به كثيراً ، فما كان من « جربرت » إلا أن وهب نفسه للشيطان حتى لا يستطيع الساحر

العجوز أن يصيبه بأذى انتقاماً منه ، واعتقد « جربرت » بحصوله على هذا الكتاب أنه ربح شيئاً كبيراً من أعداء المسيحية .

و « جربرت » هو أول أوربي استخدم الإشارات التسع التي تعلمها على الحدود الأسبانية . وفيما يتعلق بطريقة الحساب اليونانية والرومانية وهي الطريقة الابتدائية المعروفة باسم « أباكوس » والتي هي عبارة عن لوح خاص للحساب فقد ترك « جربرت » القوم وشأنهم يفعلون ما يشاءون . وإطار الحساب هذا كان مقسماً بخطوط عمودية تقسم الإطار إلى خانات للآحاد والعشرات والمئات وهلم جرا . وفي هذه الخانات كانت توجد علامات للحساب من الحجر والزجاج أو المعدن حسب عدد الآحاد والعشرات والمئات وعن طريقها يستطيع الإنسان الجمع والطرح . والشخص الماهر في الجمع يستطيع عن طريقها الضرب أيضاً . وذلك أنه عن طريق تكرار عمليات الجمع يصل إلى العدد النهائي . لكن الشخص الذي كان يستصعب هذه الطريقة في استطاعته أن يقرأ واحداً وواحداً وواحداً في واحد في الجداول الجاهزة .

لكن ما الداعي إلى كثرة أكوام الأحجار هذه والتي يجب أن تحصى أحجار كل كومة على حدة علاوة على ما في هذه الطريقة من تعب ؟ أما إذا رسم الإنسان في خانات الحساب الأعداد الجديدة فيكنى أن ينظر إلى خانات الآحاد ليجد (٥) وفي خانة العشرات (٦) فيقرأ في يسر (٦٥) .

وطلب « جربرت » إلى أحد صانعي التروس أن يصنع له لوح حساب من الجلد وكلفه . كما جرت العادة . أن يعبر في الخانات الدالة على الآحاد والعشرات والمئات على الأعداد الراسية بالإشارات الرومانية الدالة على (واحد) و (عشرة) و (مائة) أعني (I و X و C) أما الإشارات الدالة على الألف فقد طلب إليه أن ينحتها من القرن ورسم عليها إشارات جميلة جداً وجديدة لم يرها أحد من قبل .

وكما أن هذه الإشارات كانت عجيبة في أشكالها كذلك كانت في أسمائها حتى إن « جربرت » نفسه لم يذكرها .

ومن حسن الحظ أن أسماء هذه الإشارات جاءتنا في مخطوطة متأخرة ترجع إلى

القرن الثاني عشر « رودولف فون إيلون » وهي كالاتي :

١ = (ايجين) و ٢ = (أندرس) و ٣ = (أورميس) و ٤ = (أربس)
و ٥ = (كويماس) و ٦ = (كلكتيس) و ٧ = (زينيس) و ٨ = (تمنياس)
و ٩ = (زيلنتيس) .

ويلاحظ أن اللفظ الدال على العدد (٤) هو العربي (أربعة) كما أن (٥) هي (خمسة) وكذلك (سبعة) و (ثمانية) .

ومجرد النظر إلى هذه الألفاظ العجيبة فعلا يطلعنا على مدى التحريف الذي طرأ على أسمائها العربية فقد شوهت حذفاً وتغييراً حتى أصبح الاهتداء إلى أصولها من الأمور العسيرة وزاد « رودولف » المسألة تعقيداً فنسب أصولها إلى أنها انحدرت عن الكلدانية مما سبب للعلماء المتأخرين كثيراً من الاضطراب وظل الأمر كذلك حتى أدرك نفر من العلماء أن كثيراً من المواد التي ترجع إلى بلاد العرب البعيدة قد نسبها القوم خطأ إلى الكلدانيين والألفاظ الدالة عليها كلدانية .

ويذهب « رودولف » بعيداً وينسب إلى الكلدانيين خطأ اختراعهم للطريقة الابتدائية للحساب والمعروف باسم « أباكوس » .

ولم يقف الأثر العربي عند الإشارات الدالة على الحساب الهندي بل أعطى أوروبا أيضاً الطريقة العربية لكتابتها أعني من اليمين إلى اليسار شأن العرب في كتابتها شأنهم في الكتابة العربية . ويذهب « رودولف » بعيداً فيذكر عند الحديث عن جدول حسابه الخطأ الذي تردى فيه المخترعون إذ هم يكتبون من اليمين إلى اليسار وأنهم لهذا السبب كثيراً ما وقعوا في أخطاء كثيرة .

وهناك تلميذ لرودولف يدعى « برنليوس » وقد نشر مخطوطة أستاذه الخاصة بالحساب وجدوله كما ألف كتاباً حول الطريقة البدائية « أباكوس » وهو يشرح كيف أن الإشارات التسع الجديدة للأعداد لم تنتشر خارج محيط العلماء ولم تجد طريقها إلى الشعب . فالإنسان لا يستطيع استخدامها لا في الكتابة ولا في الحساب . وقد نسخ « برنليوس » الأعداد العربية الموضوعة على الخانات الحسابية فوق « أباكوس » إلا أنه في الأمثلة الحسابية التي ذكرها في كتابه وجد من الضروري استخدام الأعداد الرومانية وعلة هذا أن « جربرت » لم يعرف « الصفر » ، ففي جدول الحساب عند

كتابة العدد (١٠٠٢) تظل خانات العشرات والمئات خالية وعندما تنقصها أحجار الحساب لا يقع الإنسان في الخطأ حسب الطريقة الرومانية وبقراءتها (١٠٠٢) لكن ترك خانات العشرات والمئات بدون صفر يجعل كتابته مستحيلة . وبدون معرفة الصفر ما كان في استطاعة « جربرت » وتلاميذه فهم الطريقة الجديدة لكتابة الحساب ، وكانت هذه هي الصعوبة الأولى التي اعترضته ووقفت حجراً في طريقه وفي تطور هذه الكتابة واستخدامها . فما أشبه هذه التمثيلية القصيرة وهي على مسرح الحساب الروماني بفرقة أجنبية تفرض عليها تمثيلية بعينها أجنبية عليها فهي لابد فاشلة في أدائها .

والشيء الجدير بالذكر أن « جربرت » والذين تخرجوا عليه أخذوا يقومون بدعاية قوية للتفكير الرياضي محاولين نشر حساب العمدة فوق الأباكوس الروماني ؛ لذلك عرفوا باسم « أباكوسيين » . أما الأعداد الأجنبية التي حاول « جربرت » نشرها فلم تعد دائرة العلماء فقط . لذلك ظلت سيادة الأعداد الرومانية قائمة ، وبعد قرن من ذلك التاريخ نشبت معركة بين الأباكوسيين أي العموديين والحوارزميين الذين كانوا في تلك الفترة قد تدربوا على طريقة الحساب الجديدة وهي (٢ في ٥) وقد انتهت هذه المعركة بفشل العموديين .

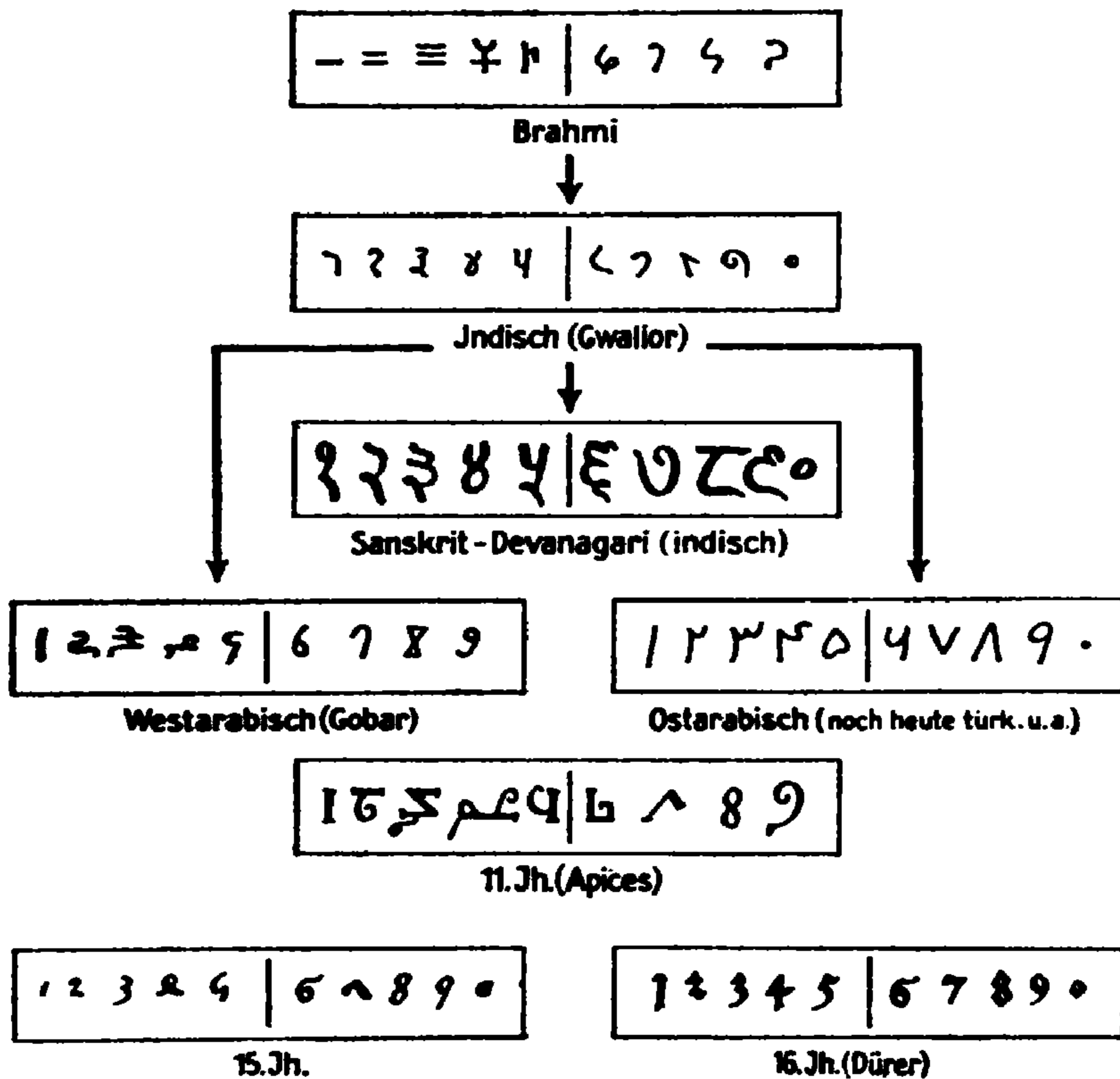
لكن كيف فات « جربرت » عند دراسته على الحدود الأسبانية إدراك الإشارة العددية العاشرة أعني « صفر » ؟

والواقع أن الصفر لم يكن في عصره معروفاً في غرب العالم الإسلامي فالأندلسيون كانوا يكتبون أعداداً مركبة من أكثر من أحاد وذلك بوضع نقطة أو أكثر على العدد للدال على الأحاد أو العشرات أو المئات وهلم جرا . وبهذه الطريقة فقط كانوا يتغلبون على الصفر . وعندما تعلموا عن العرب الشرقيين طريقة الخانات أضافوا إليها الصفر . أعني أضافوه إلى طريقته القديمة التي كانوا يستخدمونها .

أما كتابتهم الصفرية فإننا نعلم أن الإشارات العددية التي أخذها « جربرت » عن العرب الغربيين فقد كانت أقدم من الإشارة العاشرة التي جاء بها الخوارزمي وتختلف جزئياً من ناحية الشكل عن تلك التي كانت مستعملة في شرق العالم الإسلامي وقبل مجيء الفلكي الهندي « كنيكا » إلى بغداد حيث أحضر الأعداد الهندية العشرة

كانت الإشارات التسع والتي كانت تعرف باسم أعداد جوبار ، قد جاء بها غالباً تجار من الهند إلى الإسكندرية ومنها انتقلت إلى غرب البحر الأبيض المتوسط .

والآن نتساءل متى حدث هذا ولماذا تنقص هذه الإشارات العددية تلك الإشارة الدالة على الصفر ؟ هل جاء بها العرب إلى أسبانيا وبصورتها الأصلية ، هذه الصورة التي عرفها بها « سيفيروس سابوكيت » ؟ أو أن الصفر لم يدرك قيمته ووظيفته أولئك الأجانب الذين أخذوا الإشارات العددية لذلك ضاعت تلك



تستعمل جميع الشعوب التي تستخدم الكتابة العربية الأعداد العربية الشرقية . أما الأعداد العربية الغربية فقد أخذت تختفي بعد أن أهداها العرب إلى أوروبا وما زالت إلى اليوم تعرف باسم : الأعداد العربية

الإشارة الدالة على الصفر وضاع معها مدلولها ؟ إن سر عدم وجود الصفر ما زال إلى اليوم غامضاً .

واختلاف هذه الإشارات العددية لم يكن مقصوراً على العالم العربي فقط ، فالهند وطن هذه الإشارات لم توحيدها ، فهناك خلاف في أشكال الحروف الكتابية كما نجد فروقاً بين الإشارات الدالة على الأعداد حسب الزمان والمكان ، وهذه الحقيقة نعرفها عن الرياضي العربي البيروني (٩٧٣ - ١٠٤٨ م) وقد كان معاصراً لـ « جربرت » . والبيروني كما نعلم من تاريخ حياته كان هاوياً للأسفار وخاصة إلى الهند لذلك ألم بلغاتها وعلومها وهو يذكر أن العرب أخذوا عن الهند الأعداد التي توافقهم فقط غير مكترئين بأشكالها طالما يدرك الإنسان القيمة الذاتية للإشارة العددية .

ويذكر الخوارزمي أيضاً بهذه المناسبة أن العرب كانوا يستخدمون نوعين من الإشارات العددية الهندية فالإشارات الدالة على الأعداد (٥) و (٦) و (٧) و (٨) تختلف في كتابة عن أخرى ثم يضيف قائلاً : ولا توجد فيها صعوبات .

وحتى يومنا هذا تجد كتابة الأعداد في شرق العالم العربي تختلف عنها في سائر الأقطار العربية الأخرى . أما الطريقة المتبعة في غرب العالم العربي فقد اندثرت بعد أن قدمت لأوروبا النماذج المعروفة التي تستخدمها اليوم في : الأعداد العربية .

و « جربرت » صاحب فضل عظيم على الأوروبيين فهو أول من هداهم إلى الأعداد العربية ولو أن شهرته أخذت تتوارى تدريجياً مدة تبلغ نحو ثمانية قرون وذلك بسبب كتاب « الهندسة المنسوب إلى بوتيوس » وكان مثار إشكالات عديدة حتى إنه لو صدر اليوم لكان موضوع قضية أمام المحاكم . ومن حسن الحظ أن « ألكسندر فون هومبولدت » هو العالم الذي يرجع إليه الفضل في تقدير هذا الكتاب من الناحية العلمية . وينسب للمؤلف « بوتيوس » كتاب في الحساب مقتبس من كتاب « نيكوماخوس » وقد كان كتاب « بوتيوس » في الحساب هو السبب في الغضب من منزلة « جربرت » وفضله العلمي في إدخال الإشارات التسع الدالة على الأعداد الهندية بينما يعتقد العلماء أن « بوتيوس » في كتابه قد استخدم نفس الإشارات مما يفيد أن أوروبا عرفت هذه الإشارات إبان حياة

« بوتوريوس » أعنى فى القرن الخامس الميلادى إبان حكم « ثيودريش » لإيطاليا ، والنتيجة الثانية لانتشار هذا الرأى الخاطئ أن أوربا المسيحية عرفت الأعداد الهندية قبل العرب بزمان بعيد ثم حدث أن نسيها أوربا حتى أعادها العرب إلى الأوربيين فى القرن الحادى عشر . والواقع أن هذا الرأى الثورى القائل بأن « بوتوريوس » كان محيطاً بالأعداد الهندية قد فسرهما « هومبولدت » فى « كوزموس ج ٢ ص ٢٦٣ » تفسيراً آخر وهو احتمال ظهور نظام الأعداد الهندية فى موضعين فى العالم ، وفى كل موضع مستقل عن الآخر أعنى ظهر فى الشرق وفى الغرب . لكن جميع هذه الاحتمالات قد ذهبت أدراج الرياح فالكتاب المعروف باسم هندسة بوتوريوس ثبت أنه مزور وليس صحيحاً إذ أنه يرجع فى الواقع إلى القرن الحادى عشر الميلادى وليس إلى الخامس وكان يظهر كما لو أنه من تأليف عالم روماني وأن المؤلف أغفل ذكر مراجعه وأن هذه المراجع ترجع إلى عصور متفاوتة فى التقدم ومن بينها مؤلفات « جربرت » وعنه أخذ قواعد القسمة ومعلومات أخرى عن الأعداد العربية .

وتتصل معرفة العرب بالأعداد وكتابتها اتصالاً وثيقاً بثلاثة أسماء « سيفيروس سابونخت » و « براهما جوبتا » والحوارزى وقد ارتبطت بهذه الأسماء الثلاثة من أوربا وإنها لظاهرة تاريخية عجيبة حقاً أن نلاحظ أن الأعداد الهندية فى طريقها إلى غزو العالم اعتمدت على ثلاث محطات فى العالم العربى ونفس الظاهرة وقعت أيضاً فى أوربا فحتى فى هذه الظاهرة قلدت أوربا العرب .

فأول مدرسة أوربية هى تلك التى تتمثل فى « جربرت » معلم مدرسة « ريمس » والأستاذ البابوى للرياضة فهو من هذه الناحية يشبه تماماً « سيفيروس سابونخت » وهو فيما يعتقد أول من نقل إلى العرب الإشارات الحسابية الهندية التسع إذ كان إلى جانب وظيفته اللاهوتية رئيساً لمدرسة الدير الواقعة على الفرات ويتفق « جربرت » مع « سيفيروس » فى أن كلا منهما كان يجهل الإشارة الدالة على الصفر .

ويتفق الأوربيون مع العرب فى الاستعانة بكتاب فى الحساب يعنى بتعليم الأعداد الجديدة وشرحها ؛ فى عام ٧٧٦ م أى بعد « سيفيروس » بنحو ١١٤ سنة نجد فى الشرق العربى كتاب « سيد هنتا » للمؤلف الهندى « براهما جوبتا » وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية مشتملاً على الإشارات العشر كاملة وكان يسير على

نهج العلماء العرب حتى حكم الخليفة المأمون . وإذا تركنا العرب إلى أوروبا وجدنا بعد وفاة « جربرت » بنحو قرن تراجم لاتينية لكتاب الخوارزمي في الحساب وقد انتقل هذا الكتاب إلى الغرب عن طريق إسبانيا فقامت في أوروبا مدرسة علمية جديدة تهتم بدراسة علم الحساب الجديد بأعداده التسعة والصفير وتعرف هذه المدرسة باسم مدرسة الخوارزميين .

حقاً إن هذا العلم الجديد شق طريقه إلى العالم العربي وتخطى حدود الفلكيين والرياضيين لكن كانت معرفته محصورة في الأوساط العلمية وظل كذلك حتى ظهر العالم الفذ الذي نجح في نقله إلى الشعب في أسلوب سهل مبسط وفي لغة تساير الحياة اليومية وحاجات الشعب الاقتصادية وهذا العالم هو الخوارزمي الذي كان يعيش في عصر المأمون وقد كان لأوروبا « براهما جوبتا » العرب .

كذلك الحال في أوروبا فإن فن كتابة الأعداد قد جاءها من وراء جدران الدير . ومن ثم انتشر بين الأهالي ، وقد جاءتنا وثيقة مكتوبة تؤيد هذا القول وهي عبارة عن قصيدة شعرية في اللغة الألمانية القديمة لمؤلفها « توماسين فون زركلير » وهو رئيس كاتدرائية « إكويليا » الواقعة في « فينتين » وكان يحب الألمان كثيراً وقد أعجب بأخلاقهم ، فوضع لأمرائهم وفرسانهم كتاباً فلسفياً أخلاقياً في لغة الشعر الألمانية وأهدى كتابه هذا إلى الأمة الألمانية .

وقد شرع « توماسين » في وضع قصيدته عام ١٢١٥ م وكان يبلغ من العمر الثامنة والعشرين وبعد شهور من تاريخ البدء أتم قصيدته في أوائل عام ١٢١٦ م وقد بلغت اثني عشر ألف بيت . وفي نفس العام رسم له أحد أصدقائه عدداً من الصور الملونة التي زين بها مخطوطته ومن بين تلك الصور واحدة تصور الفنون الحرة السبعة وأخرى تعرض « فيثاجوراس » مع « أريسمتيكا » في ملابس ترجع إلى العصر الروماني وهما يشيران بالسبابتين إلى لوح مصغر على شكل سلم . وعلى هذا اللوح نجد الأعداد « ١ و ٣ و ٩ و ٢٧ » مكررة في الأعداد العربية وبنفس الطريقة نجد الأعداد الواقعة بينها على صورة « موسيقا » والسنة ١٢١٦ م .

ومما لا شك فيه أن الرسام البارع كان كما يتبين لنا من العوامل التي راعاها ومن بينها الأفكار الدينية التي كانت سائدة في وسط رجال الدير من غير رجال

اللاهوت ، وقد استخدم عام ١٢١٦ وتجنب الأعداد العربية مستخدماً أخرى كما لو أنها من اختراعه .

لكن استخدام الإشارات الخمس مرتين لم يكن خاصاً بالعلماء فقط بل ألم به الشعب أيضاً . ثم ظهر الرجل العظيم الذى دعا لاستخدام الأعداد العربية ووفق فى دعوته حتى إنها سادت العالم ، وهذا الرجل هو « ليوناردو فون بيزا » الذى لم يتلق علمه فى الأديرة كما أنه لم يؤلف ما ألفه للرهبان وهو يعتبر بحق أول رياضى مفكر فى أوربا ومن أشهر رياضيينها حتى القرن الثامن عشر فقد كان عالماً مجتهداً دعوباً ، وقد اكتسب أصول معرفته عن طريق أسفاره ورحلاته ومن مصادرها الأصلية ومن ثم أخذ ينشرها ويعلمها لمختلف الطبقات لاستخدامها فى حياتهم اليومية . وهكذا نجد جداول المعرفة تتدفق من إسبانيا إلى أوربا ومن ثم أخذت تتجمع حتى كونت سيلا جارفاً غمر أوربا مبتدئاً من إيطاليا من مركزها الثقافى ، من قصر الملك الأشتوفى فريدريش الثانى . لقد وجدت أوربا الخوارزمى الأوروبى .

تاجر يعلم أوربا

ولد « ليوناردو » حوالى ١١٨٠ م فى « بيزا » ، وهى وطن خليط من السكان وقد أسسها الأتروسكيون عند مصب نهر « أرنو » وتأثرت هذه المدينة فى تاريخها الطويل بالرومان والغوط واللنجوبرديين وكذلك الإفرنج . كما أننا نجد راهباً من رهبان القرن الثانى عشر يرتعد خوفاً من الوثنيين وحوش البحر وهم الأتراك والليبيون والبارثيون والكلدانيون الأقدار . هكذا كان يطيب له تسمية العرب ونعهم أولئك العرب الذين كانوا يسرون فى شوارع « بيزا » بوجوههم البغيضة القاسية !!

وقد اشتهرت « بيزا » الواقعة على نهر « أرنو » بالصيد والانتصارات التى أحرزها أبناؤها على عرب سردينيا وتمكنوا من قوة صقلية وثرواتها . ثم نجد « بيزا » تستغل فكرة الحروب الصليبية وتتوسع فى عمليات الشحن فازدهرت الملاحة وأخذت سفنها تشتغل فى نقل التجارة بين الشرق والغرب واستولت على أهم القواعد التجارية

الواقعة على الشواطئ كما شيدت فنادقها على امتداد شاطئ البحر الأبيض المتوسط من استنبول إلى صور فالإسكندرية حتى باجه وكويتا .

والشيء الجدير بالذكر أن رئيس الجالية التجارية من أبناء بيزا في باجه الواقعة على ساحل الجزائر الممتد على البحر الأبيض المتوسط كان والد « ليوناردو » ولم يصلنا شيء أكثر عن اسم أسرته وكل الذي جاءنا عنه اسمه الأول ألا وهو « بواكيو » أي « الطيب » . أما ابنه « ليوناردو » فقد ألف بعض الرسائل والكتب ومن أشهرها « كتاب أباكي Liker abaci » وقد ذكر الابن في كتابه أنه ابن « بوناكيو » فصاغ منها « ليوناردو » الاسم « ليوناردو فيبوناكي » وهو الاسم الذي اشتهر به في التاريخ ابن بيزا العظيم .

والذي حدث أن استدعى الوالد ابنه من بيزا إلى باجه وكان الوالد بحكم عمله ككاتب بيزي في الحمرك على اتصال كبير بتجار الجلود والفراء في الصحراء وبلاد المغرب مما اضطره إلى تعلم اللغة العربية والحساب العربي مثله في ذلك مثل زملائه العرب الذين يعملون في الجمارك البحرية . فانتهاز فرصة حضور ابنه الذي يمارس هذه التجارة ونجح فيها وسلمه إلى يد معلم عربي لتثقيفه وتعليمه الحساب . وأعجب الشاب « ليوناردو » بعلم الحساب هذا الذي يستخدم الأعداد الهندية التي يسرت السبيل أمام المحاسبين في حل كثير من المشكلات الحسابية .

والآن نتساءل ما قيمة الأعداد الرومانية وما هي الفائدة التي قد نحصل عليها من استخدامها ؟ يكفي للرد على هذا السؤال أن نقوم بعملية حسابية نشيطة كعمليات الطرح مثلا لتبين مدى الصعوبة التي سيعانيها المحاسب بخلاف الحال مع الأعداد الهندية والتجارب الحسابية الكثيرة التي قام بها العرب ، وقد أدرك « ليوناردو » البون الواسع بين الطريقتين فاستخدام الحساب العربي ييسر القيام بعمليات الضرب وليس فقط عن طريق الأعداد الصحيحة بل الكسور أيضاً (من العربية - كسر -) كما يطلق سيدي عمر (السيد المعلم يعبر عن الصلة بين عددين بهذه الوسيلة) . فقد شرح لتلميذه الذي كان غارقاً في التفكير كيف أن أساتذة المدارس العليا في بغداد والموصل كانوا يكسرون بين العددين المكتوب أحدهما فوق الآخر عن طريق خط بينهما فالخط مثل الكسر في الشيء . وقد تعلم « ليوناردو » كذلك حساب

الأس (٢٢ = ٢ في ٢ = ٤ فالاثنتان ١ س اثنين) وحساب الجذور مثل ٢ هي جذر ٨ أو ٤ ، وتعلم أيضاً المعادلات والتربيع والتكعيب كما وضعها أبو كامل وعمر الحيام وابن سينا والبيروني وغيرهم . وهكذا نجد « ليوناردو » يلهو بالأعداد بينما أقرانه ولداته يتسلون باللعب في الحوارى وعلى أرصفة الموانى وبين دور الصناعة والمخازن .

وقد لازم حب الأعداد والحساب « ليوناردو » حتى صار تاجراً وأسند إليه والده بعض الأعمال التجارية وكان لا يخفى شغفه بالحساب حتى في أسفاره إلى مصر وسوريا واليونان وصقلية وأسبانيا وصور وكورنسه وكويتا وتونس بل حتى في مكاتب المحاسبة إذ رأى زملاءه التجار يعدون على الأصابع . وانتهر « ليوناردو » فرصة وجوده في الشرق العربي وزار دور الكتب في دمشق والإسكندرية كما تناقش مع علماء القصر في القاهرة . وعنى بالتجارة كعلم من العلوم فدرس كل شيء يخدمها ويفيدها سواء كانت تلك المعلومات في المخطوطات أو متداولة بين المتعلمين وبخاصة المتصلحين في العلوم الرياضية ومقارنتها . ولم تفته المقابلة بين العلوم الرياضية كما عرفها الهنود واليونان والعرب .

وإذا تركنا الشرق إلى الغرب . والعرب إلى اللاتين وجدنا جهلاً تاماً بالأعداد الهندية وطرق الحساب العربية حتى أتاح الله لأوربا « ليوناردو » فوضع وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره كتاباً باللغة اللاتينية حول الطريقة الحسابية التي تعرف باسم « أباكى » وقد كان هذا الكتاب سبباً في شهرة مؤلفه وقد أدهش كثيرين من المعاصرين مثل « موريس كنتور » إذ قدر الجهد القيم الذي بذله المؤلف في وضعه مما اضطر « موريس » إلى التعليق عليه بقوله : نعرف عدداً كبيراً من الرياضيين السابقين والذين ألفوا في لغات مختلفة ، لكن أحداً منهم لن يجارى « ليوناردو » . قليلون أولئك الذين قد نعجب بهم لكن وضع كتاب مثل هذا في القرن الثالث عشر ووجود من يقدرونه حق قدره في القصر القيصري مما يثير الإعجاب حقاً .

ولا عجب في أن يستولى هذا الكتاب على لب القيصر الأشتوفى فقد كان خير الكتب التي ظهرت في ذلك العصر وقد أعجب به فريدريش الثاني وهو الضليع

في الرياضيات العربية وعلوم العرب الطبيعية، ولم تكذ تظهر الطبعة الثانية من الكتاب عام ١٢٢٨ حتى أهداها المؤلف إلى فيلسوف القصر « ميخائيل سكونوس » الذي كان متضلعا أيضاً في العلوم العربية فقويت الصلات بين « ليوناردو » والقيصر وكثيراً ما كان يحل ضيفاً عليه وتدور بينه وبين فريدريش الثاني أحاديث علمية كثيراً ما نالت رضا القيصر وإعجابه .

وفي عام ١٢٢٠ وهو عام تتويج القيصر الأشتوني ألف « ليوناردو » استجابة لرغبة فلكي القصر القيصري « دومينوس هيسبانوس » كتاباً في الهندسة أثار إعجاب القيصر ، الذي كان قد عاد من ألمانيا . لنبوغ صاحبه وعبقريته ، وقد نظم فيلسوف القصر وهو « ماجستير يوحنا فون بالرمو » استقبالا عظيماً في القصر القيصري في « بيزا » إعجاباً منه بالكتاب الذي ألفه « ليوناردو » فالفيلسوف يوحنا كان ملماً ببعض المعلومات الرياضية إلا أنه لا يرتفع إلى مستوى ابن « بيزا » . وكان بين علماء القصر عالم عربي اسمه تيودور الأنطاكي وقد درس في الموصل على يد العالم العربي الشهير كمال الدين بن يونس أشهر الكتب للرياضيين العرب كما سمع في البلاد العربية عن شهرة وعظمة إمبراطور الإفرنج ، لذلك رافق أحد رسل القيصر فريدريش الثاني وهو أحد أبناء الشرق وتبعه إلى جنوب إيطاليا . وهناك نجد العلماء مع قيصرهم يتناقشون ويتجادلون ويتجلى نبوغ هذا الشاب وعبقريته في قائمة بالأسئلة الرياضية الصعبة أعدها بنفسه .

وكان حضور « ليوناردو » هذا الاجتماع نصراً عظيماً له ولنبوغه إذ أدرك الحاضرون عبقرية ابن تاجر بيزا وكيف أجاب على المسائل الرياضية التي عرضت ولم يدركها إلا القيصر وتيودور تلميذ ابن يونس والذي درس كتب الفارابي وابن سينا وأيكليد وكتاب المايجست لبطليموس . وقد أدرك الحضور عبقرية ليوناردو وإحاطته بعلوم اليونان والعرب . وقد سجل ليوناردو هذه المقابلة مع سيده القيصر في رسالتين رياضيتين تحدث فيهما عن كل ما دار في هذا الاجتماع . لقد ذكر المسائل التي عرض لها في المجلس وشرحها كما شرح القواعد التي اعتمد عليها ، وبالرغم من هذا فإنه حتى اليوم لم يتوصل إلى حلها جميعها ، أعني هذه المسائل التي تعرض لها وأدلى فيها برأيه وهي مسائل تدهش الرياضة الحديثة .

وقد كتب المؤرخ « كنتور » عن الرسالتين ما ترجمته : وبعد أن عرضنا لرسالة ليوناردو اعتقدنا أننا عبرنا بما فيه الكفاية عن إعجابنا بالعالم ليوناردو أما الآن فإننا نعتذر إذ أننا لا نجد الكلمات التي تعبر عن تقديرنا العظيم للمؤلف ليوناردو بعد الاطلاع على رسالتيه .

في حضوركم يا صاحب الجلالة فريدريش أيها الأمير العظيم : هكذا كتب ليوناردو إلى القيصر عند أول زيارة له لقصر القيصر في بيزا، لقد تحدثت معي فيلسوفكم العالم يوحنا فون بالرمو عن الأعداد ، وقد أفرد ليوناردو الفصل الأول من كتابه « الباكي » للحديث عن الأعداد التي تعلمها على يد الأستاذ العربي الذي أخذ عنه علم الحساب العربي وطرق استخدامه في أسفاره التجارية الطويلة والإشارات التسع الدالة على الأعداد عند الهنود هي :

9 8 7 6 5 4 3 2 1

فهذه الإشارات التسع مضافاً إليها الإشارة (٥) أي « صفر » في العربية تعبر عن أي عدد من الأعداد .

أما ترتيبها فعجيب جداً فالصف يبدأ عادة بالعدد (٩) وينتهي بالعدد (١) حسب طريقة الكتابة الأوروبية أما العرب فيكتبون من اليمين إلى اليسار وحتى العدد الكامل إذا صاحبه كسر يكتب هكذا (١ -) أي واحداً ونصفاً، هكذا يذكر ليوناردو كما علمه مدرس الحساب العربي مراعيًا النظام العربي في الكتابة وقد اتبع نفس الطريقة مع الأوروبيين فعلمهم كتابة الأعداد التسعة الجديدة مع الإشارة (٥) والتي تسمى في العربية « صفرًا » .

أما تاريخ الصفر فهام جداً وهو يستحق الشيء الكثير من الاهتمام . استخدم الهنود هذه الدارة كإشارة للتعبير عن نقص شيء من الأشياء أعني « لا شيء »، ويعبر عنه في الهندية « سونيا » أي « فراغ » فلما عرف العرب هذه الإشارة ومدلولها ترجموها بلفظ « صفر » أي « خالي » أو « خلو » ثم جاء ليوناردو وتعلمد على العرب في الحساب فأخذ اللفظ العربي كما هو واستخدمه كما استخدمه العرب وإن كان قد صاغ لفظ « صفر » صياغة لاتينية فأصبح « Cephirum » وعرفه بقوله :

Cum hoc Signo O quod arabice ccphirum appellatur

ومعناها العربي : هذه الدارة (o) تعرف في العربية بلفظ « صفر » .

وإذا انتقلنا إلى إيطاليا وجدنا في آخر كتاب ليوناردو لفظ « صفرم » يكتب « زفرو zero » ثم « زيرو zero » فقد تعرضت هذه الكلمة لشيء من التغيرات الصوتية التي تعرضت لها كلمات أخرى مثل « ليفرا livrea » التي أصبحت « ليرا lira » . أما في فرنسا فقد تحولت كلمة « صفر » العربية إلى لفظ « شيفر chiffre » الذي استخدم أيضاً إلى جانب دلالة العربية للتعبير عن « إشارة سرية » ثم ذهب اللغة بعيداً فصاعت من الاسم فعلا هو « شفيرين chiffricen » في الألمانية مستخدماً في المعنيين . لذلك اضطر القوم إلى استعمال الصيغة الإيطالية « زيرو » كما نجد في إنجلترا « صيفر cipher » و « زيرو » وفي ألمانيا « تزيفر ziffer » .

والواقع أن الدارة كانت أصلاً هي الإشارة المعبرة عن الصفر إلا أن انتشار الأمية بين عامة الشعب اضطرتهم إلى تعلم أسماء الأعداد التسعة عن طريق السماع فقط ولذلك أصبح لفظ « صفر » لديهم شيئاً غامضاً إن دل على شيء في مفهومهم فعلى اللاشيئية أو الإشارة الأجنبية . ففي القرن الرابع عشر نجد الإشارات الدالة على الأعداد العشرة تسمى « أصفاراً » وهذا من باب التعميم وإن احتفظت فرنسا بلفظ « شيفر » وإنجلترا بكلمة « صيفر » واستخدمت الألمانية الكلمة الإيطالية « زيرو » للتعبير عن هذه الدارة المعروفة في العربية بلفظ « صفر » . فهذا التطور في التسمية أدى إلى شيء كثير من الاضطراب كما تعدت هذه البلبلة التسمية إلى الأعداد ذاتها وأصبح العلماء في حيرة وأخيراً استقر الرأي على استخدام الإشارة العاشرة المعروفة باسم « شيفر » الدالة على الدارة . أما سائر الإشارات الأخرى فقد أطلقوا عليها التسمية « فيجورين Figuren » أي أشكال . لهذا نجد عام ١٣٥٦ م عالماً يذكر في رسالة وضعها في هذا : هل يجب على هذا الشعب أن ينساق وراء الأميين ويستخدم لفظ « تزيفرن » للدلالة على الأعداد العشرة التي يجب أن يعبر عنها بلفظ « فيجورين » لا « تزيفرن » ؟

إن الإشارة الدالة على الصفر لا تشير بتاتاً إلى عدد ما ومن هنا أطلق العرب

عليها لفظ « صفر » أما العلماء الأوروبيون فقد اضطروا رغم أنوفهم إلى مجازاة العامة وعمموا لفظ « تزيفر » على سائر الأعداد الدالة في الواقع على قيم حسابية وميزوا الإشارة العاشرة على سواها بعبارة « نوللا فيجورا Nulla figura » ومن ثم اختصرت إلى « نوللا Nulls » وأخيراً « نل Null » .

حرب الأعداد

من إيطاليا شقت هذه الأعداد طريقها إلى أوروبا ورافقها في هذه الرحلة مسك الدفاتر الإيطالي الذي كان في ذلك الوقت المثل الأعلى للتجار فعبرت الأعداد وهذا الفن جبال الألب حيث حملها التجار والمسافرون إلى مختلف البيوتات التجارية ، لكن التجار والعملاء لم يقبلوا على الأعداد في شيء من الرضا واليقين . وذلك لأن الإنسان لا يأمن الغش مع هذه الأعداد فمن السهل مثلاً أن يحور الإنسان الدارة الدالة على صفر إلى العدد الدال على (6) أي ستة كما أنه من السهل إضافة العدد إلى آخر . ومن العسير على الإنسان أن يميز بين الصحيح والمزور ولا سيما أن وسائل الغش متوافرة والطريق إليه سهل معبد . نعم - إن هذه الأعداد مفيدة جداً للتجار وقد أبيع لهم استخدامها إلا أن احتمال الغش حرم استخدامها في العقود .

لكن لم يمض زمن طويل حتى رأينا هذه الأعداد تفرض نفسها في مختلف المناسبات وأصبحنا نجدها في الكنائس وغيرها من المباني العادية إذ استخدمها القوم في تاريخ البناء الذي كان مألوفاً لديهم وقد دون في أربعة أعداد . ومن ثم حفرت على شواهد القبور وعلى النقود وفي حسابات الدولة وبعد ذلك في الكتب حيث أخذت تحل محل الأعداد القديمة في ترقيم الصفحات . وذلك لأن كتابة العدد (٩٩٨) في هذه الصورة أوجز وأوضح من كتابته بالطريقة الرومانية :

DCCCCLXXXVIII ؛ والجدير بالذكر أن استخدام الأعداد العربية لم تتقبله أوروبا دون مقاومة ، فاحتدم النزاع بين أنصار القديم وأنصار الجديد واستمر هذا الجدل قروناً عديدة .

فالحروف الرومانية كانت هي الأعداد الحكومية الرسمية واستمر الحال كذلك زمناً طويلاً ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد فرق الاحتلال الرومانية والتجار الرومان يعلمون الجرمان استخدامهما كما وصلتنا على الآثار وعلى النقود . ثم نجد الأديرة تساهم في تعميم الأعداد العربية فتنقلها من جديد عبر الألب وتأخذ طريقها إلى الشعب حيث تحل محل الأعداد البسيطة التي اعتادها الشعب إلا أن العامة استخدموا الأعداد العربية مبسطة تبسيط أعدادهم التي اعتادوها ، وحيث يتحتم التعبير عن الأعداد كتابة بالكلمات غلبت عادة استخدام الأعداد الرومانية حتى اعتبرت وكأنها ليست أجنبية دخيلة . فكان الجرمان ينظر إلى الأعداد الرومانية وكأنها ألمانية كما تعصب لها وقاوم الأعداد العربية .

لقد كان من الصعب على القوم حفظ الإشارات العشر الأجنبية وتعلم رسمها وطرق استخدامها لذلك تفنن بعضهم في ابتداع وسيلة تعين على استدكارها فصاغوها في أبيات شعرية وخلطوا بها الأعداد الرومانية وحرصت هذه الأبيات الشعرية على عرض الأعداد الجديدة في هيئة صور :

الآحاد (١) تعطيك اللسان، والعكازان (٢) يشيران إلى الاثنين ، وذيل الخنزير (٤) يعبر عن الثلاثة واللحم المحفوظ أربعة (٤) العدد خمسة (٥) وقرن الوعل ستة (٦) وسبعة (٧) والسلسلة (٨) تشير إلى الثمانية والتسعة (٩) والدائرة (٥) زائد اللسان الصغير للدلالة على العدد عشرة وإذا لم يرسم اللسان فالدائرة تعبر عن لا شيء .

لكن أحداً لم يوجه مجهوداً لحفظها عن ظهر قلب أو كتابتها لذلك لم توفق في الانتصار على الرومانية ، ومما زاد في صعوبتها أن الذي أراد استخدام الأعداد العربية كان لابد من أن يغير طريقة تفكيره فهو مطالب هنا بمراعاة الخانات وتركيبها IVXLCDM ولم يكن تحت تصرفهم إلا الآحاد فقط وهي حسب موقعها أو موضعها قد تصير عشرة أمثالها أو مائة .

فقد جاء في مخطوطة من مخطوطات العصور الوسطى ما يفهم منه أن كتابة الأعداد الجديدة تتطلب قبل كل شيء معرفة قيمة وموضع الخانة التي يوضع فيها العدد ، والفهم الصحيح لقيمة الخانة من أصعب الأمور على الإنسان وبخاصة

المبتدئين لذلك تستخدم كتب الحساب التي توضع للشعب مختلف الوسائل لشرح الخانات وتبسيطها وبالرغم من ذلك فإن قيم هذه الأعداد وخاناتها تختلط في تفكير الإنسان كما تمتزج الأعداد القديمة مع الجديدة وتضطرب الخانات وتلتبس على الإنسان وبخاصة فنحن نعلم أن الأعداد الرومانية توضع إلى جوار بعضها بخلاف الحال في الأعداد العربية حيث تراعى قيم الخانات فالإنسان يكتب مثلاً العدد ١٤٨٢ هكذا MCCCCG 811 وتاريخ سنة ١٥١٥ يكتب هكذا 15 X 5 و ١٥٠٤ كالآتي 151111 .

وفي مخطوطة ترجع إلى عام ١٢٢٠ نجد المؤلف يشير إلى نظام قيم الخانات لأنه قد سمع عنه ويحاول إدخاله على النظام الروماني إلا أن المؤلف عجز عن التخلص من الأعداد الرومانية كلية لذلك فهو يكتب العدد ٢٨١٤ هكذا II DCCC X IIII

إن الإنسان ليعجب حقاً بنظام الخانات إلا أن الأعداد الألمانية العادية من الصعب جداً على الألماني تركها اللهم إلا أولئك الذين يجرون وراء كل جديد، هذا رأى أبداه كاتب إلى الكنيسة خجلاً عندما أراد أن يكتب العدد الدال على ١٥٠٥؛ فقد رسم الصفر الذي لا ينطق كما لم يفهم الإشارة الصغيرة الدالة على المائة Ivccv .

فالإشارة الدالة على الصفر وهي الدارة كانت بالنسبة للقوم مشكلة شاقة لفهم كتابة حساب الخانات فهماً صحيحاً . ألم يكن الصفر هو الذي يشير إلى لا شيء من ناحية وله من القوة ما يمكنه من التعبير عن العشرات والمئات والآلاف من ناحية أخرى . إن الصفر كان لغزاً حقاً .

نعم إن الصفر كان عدداً وفي نفس الوقت ليس عدداً ، مثله مثل اللمية التي تحاول أن تكون كائناً حياً نسياً أو حماراً أو أسداً، أو القردة ملكة ، هكذا سخر فرنسي في القرن الخامس عشر وقال : أراد الصفر أن يكون عدداً ! وذكر مؤلف ألماني : أن الصفر عدد خارج الأعداد التسعة ويسمى (نللا) أي دارة أو لا شيء بينما الأعداد الأخرى لها قيمها ، والصفر يظل صامتاً هادئاً كنكرة من النكرات بالرغم من ذلك يباشر قوته السحرية ولو أنه لا ينطق بتاتاً .

تنبيه الأعداد تسعة
 وجميعها تنطق بلا صعوبة
 ثم معها تنبه لما (أقول)
 الصفر لا ينطق
 دارة وتشبهه الـ (٥)
 وهو دائماً هكذا
 لو سبقه العدد واحد
 تصير قيمته عشرة
 وبهذا العدد تستطيع أن ترقم
 وجميع الأعداد تنطق وتستخدم

وكلما تكرر رسم الصفر على يمين عدد ما ارتفعت قيمة العدد عشر مرات
 حسب قابلية العدد . كذلك نجد المبتدئين في العصور الوسطى يتعلمون كتابة
 الأعداد ويكتبونها كما تكتب اللغة العربية فمثلاً عند كتابة العدد (٢٠) يكتبون
 أولاً (٠) ثم (٢) وكذلك الحال مع ٢٣ مثلاً فأولاً (٣) ثم (٢) لكي نقرأ
 (ثلاثة وعشرين) .

وهذا الصفر الذي لم يكن موجوداً من قبل والذي ظهر بغتة وأخذ يقوم بدور
 خطير هو شيء غامض حقاً لذلك كان موضع التفكه والسخرية عند الكثيرين
 وحتى في المسائل الخاصة بما وراء الطبيعة فإن دلالة الثنائية ماثار للدهشة في الترجمة
 التي عثر عليها في دير «سالم» هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الخوارزمي في علم
 الحساب التي ترجع إلى عام ١٢٠٠ م ذكر المترجم بعض آرائه الخاصة :

« كل عدد يتركب من (١) لكن الواحد يتكون من الصفر » . وهذا الرأي خطأ
 منطقي وحسابي . ثم يستطرد المترجم ويقول : « ويجب أن نعرف أن شيئاً مقدساً
 عظيماً يكمن وراء الصفر وهذا الشيء لا أول له ولا آخر وهو يعبر عن لفظ "هو"
 وكما أن الصفر لا يزيد ولا ينقص كذلك لفظ "هو" لا يقبل زيادة ولا نقصاناً .
 وكما أن سائر الأعداد قد تبلغ مرتبة العشرات كذلك الحال مع "هو" وليس هذا

فقط ، بل يبلغ الألوف والحقيقة التي أقرها أن "هو" يخلق كل شيء من العدم وهو يشتمل عليها ويدبرها .

ويلاحظ أن سائر الأعداد تلف وتدور حول الصفر فإذا أراد أن يكتب العدد (٣٠٠) عبر عنه هكذا (CC2) فيتجنب كتابة الصفر الموجود في خانة العشرات كذلك نجد « سبستيان باخ » عندما يريد أن يكتب العدد (٣٠٠) يضع العدد ثلاثة الروماني أعني (III) قبل الإشارة الدالة على المائة (C) فيكتبه هكذا (IIIC) .

وهذه الحيلة التي استخدمت للتخلص من الصفر قديمة معروفة استخدمها الصينيون الذين كانوا يجهلون .

وهذا الجمع بين كتابة الأعداد حسب رتبها وبأعداد رومانية تجنباً لاستخدام الدارة المعبرة عن الصفر انتهى إلى نظام عجيب حقاً لكتابة الأعداد فلتدوين العدد (١٥٠٢) استخدمت الطريقة الآتية (XV, C et : II) حيث اعتمد الكاتب على اللغة التي لا تعرف كلمة تعبر بها عن الصفر لذلك كتب خمس عشرة مائة واثنين .

لكن الأمر لم يقف عند هذا فنحن نجد آخرين ألفوا الصفر أسرع من غيرهم الذين ظلوا متمسكين بالأعداد القديمة بالرغم من محاولتهم التعرف إلى الأعداد الجديدة وكتابتها حسب مراتبها فاستخدموا الصفر بين الأعداد الرومانية التي مزنوا على استعمالها فوقف الروماني نفسه أمامها حائراً عاجزاً عن إدراك هذا الفن الجديد فالعدد (١٥٠٣) كان يكتب (IVOII) والعدد (١٠٨٩) = (IOVIIIIX) ولا يقف الأمر عند هذا بل نجد شخصاً آخر يستخدم طريقة مبتدعة فالعدد (١٢٠٠) = (ICCOO) لا يستخدم الأعداد الرومانية فقط والأشكال الهندية أيضاً بل نظام الرتب أو الخانات الهندي وذلك باستخدامه (١) والدارة للتعبير عن الصفر ثم نجده يستعمل الترتيب الروماني مع نظام المرتبة فيذكر (مائتين) = (CC) .

وبالرغم من جميع هذه الصعوبات وتلك العقبات انتصرت أخيراً الأعداد العربية على الألمانية ولو أن الأميين من الألمان ظلوا بمنأى عنها . فهم أعداء لكل جديد كما نتبين هذا مما جاء على لسان « مرجريت » في كتاب : در جرينه هينريش ، للمؤلف : جوتفريد كللر :

« كانت توجد في المنزل المقابل لنا قاعة مظلمة مفتوحة مشحونة بالمخلفات القديمة وفي آخر القاعة كانت تجلس طوال الوقت امرأة عجوز مترهلة في ثياب رثة وكانت تقرأ بصعوبة بعض المخطوطات وإن عجزت عن الكتابة أو الأعداد العربية . وكان كل حسابها يعتمد على (١) و (٥) و (١٠) و (١٠٠) في صورها الرومانية ، وقد تعلمت هذه الأعداد الأربعة أيام شبابها وفي مكان ما مجهول ، وقد توارثت هذه الأعداد الأجيال وكانت هذه العجوز لا تعرف مسك دفاتر كما لا تملك شيئاً مكتوباً إلا أنها كانت كلما شعرت أنها قادرة على تدوين شيء يهمها سارعت إلى قطعة من الطباشير وخطت بها على مائدة هذه الأعداد الأربعة وهي تدون من ذاكرتها جميع المبالغ التي تهتمها بهذه الصورة وإذا حققت رغبتها من هذا التدوين بليت أصبعها ماء ومحت به ما دونته ، وكانت تحصى النتائج وترسمها إلى الجانب ، وهكذا نشأت مجموعات عديدة صغيرة جديدة ولا يدرى أحد سواها دلالاتها أو أسماءها وذلك لأنها لم تستخدم إلا الأعداد الأربعة المجردة وكانت تبدو للآخرين وكأنها طلاس سحرية وثنية » .

وإذا كانت الأعداد العربية منذ بدايتها محاطة بهالة من الأسرار توحى بشيء من الرهبة فإن الأعداد الرومانية اتصفت بهذه الصفة أيضاً عندما طرأ عليها ما طرأ من تغيير وتحوير فنظر إليها القوم وكأنها وسيلة من وسائل السحر . وهكذا أخذ القوم يسخرون من أولئك العلماء الذين يستعينون بالأحجار لإجراء العمليات الحسابية ، ولما ارتقت حالتهم الاجتماعية أوجدوا لأنفسهم وجبات غذائية أحسن نوعاً من السابقة وأخذوا يغذون أنفسهم من ثمار شجر القرو .

ومع تطور المدن والتجارة ازدادت الرغبة في العلم والمعرفة وانتقلت العلوم والمعارف من الأديرة إلى المدينة . ولعل أحسن بيوت تجارية عرفتها أوربا قديماً هي تلك التي قامت في إيطاليا واتخذت منها ألمانيا مثلاً أعلى لها كما حذا حذو الألمان الهولنديون والفرنسيون والإنجليز حيث عاد أبناء تجار تلك البلاد ومعهم أخبار هذا التطور العظيم ، كما أخذت العلوم التي كانت من قبل قابعة في الأديرة تتسرب تدريجياً من الصوامع والجامعات إلى الخارج وبخاصة اختراع الطباعة . ولم يقف الأمر عند هذا بل نجد صرافي الأقاليم وموظفي مالياتها يوجهون شيئاً من العناية الخاصة في

مدارسهم إلى هذا الحساب الجديد وأعداده العربية كما سعى جاهدين إلى نشرها .
ولعل خير شاهد جاءنا إلى اليوم على انتشار الحساب العربي وصحة استخدامه هو
« آدم ريزه » الذي ولد في مدينة « بمبرج » في العام الذي انتهى فيه حكم العرب
على إسبانيا وقد تخصص في تدريس الحساب في مدينة « أرفورت » . ففي مثل
كتب الحساب هذه توجد جداول فيها الأعداد الرومانية إلى جانب الأعداد العربية
وكذلك الكلمات . والغاية من هذه الطريقة تمكين المتعلم من حفظ النوعين من
الأعداد معاً واستخدامهما في الحساب .

لقد غزت الأعداد العربية أوروبا وأخذت تؤدي دورها الهام في العلوم الطبيعية
والصناعات والاقتصاد وسائر وسائل الاتصال بين الشعوب الراقية في العالم وفي
مختلف العصور .

الكتاب الثالث

الأبناء الثلاثة لموسى الفلكي

وفي كل ليلة بعد صلاة العشاء في المسجد يمتطي فارس الأرواح حصانه الأحمر كالحناء في أواني تجميل النساء مخترقاً صحراء خراسان . أما حوافر الحصان فمغطاة بالمحارم البيضاء وحيث يخطر الفارس الذي يحاكي المومياء ويجرى بحصانه دون أن يسمع له صوت بين التلال الواطئة يخيم سكون الليل وينتشر الأمان . هناك الأسلحة والكيس المملوء بفدية البدو العائدين من الأسواق إلى خيامهم وهذه غنائمه الثابتة الحافظة .

موسى بن شاكر يتردد منذ أيام وسنين على قصر الخليفة وهو عالم وقور بين الفلكيين والمهندسين من رجالات المأمون كما أنه صديق حميم للحاكم . لكن موسى ابن شاكر هذا لا يكاد يفرغ من صلاة العشاء في المسجد الكبير حتى يتحول إلى لص . بالرغم من السلاسل الذهبية التي كانت تقيده بالقصر ، هذا القيد الذي كان في صالح الخليفة . كذلك لم ينس موسى بن شاكر أن والديه وأجداده الذين كانوا قديماً ، يعلم الله وحده . لصوصاً قد جاءوا به إلى هذا الوجود كأحد أبناء الصحراء الأحرار

لذلك كان ينتهز موسى مجيء الليل وينطلق إلى الصحراء حيث يحيا حياة البداوة بتقاليدها القديمة وعاداتها وحيث الغزو والسلب والنهب حسب تعاليم الفروسية ، والفتوة عمل مشرف يقوم به الفتى الحر الأبي . وهكذا نجد موسى يمضي ساعات الليل الطويلة فوق صهوة جواده لا يسمع له أحد صوتاً ولا صديق له إلا نجوم الليل . فهي أنيسه ودليله شأنها معه كشأنها مع شعبه وأمته منذ آلاف السنين وفي مختلف العصور والأماكن .

ولا يكاد الليل يولي حتى يعود هذا الفارس الروحي المجهول الاسم إلى حالته

الجسدية العادية التي يعرفها سكان العاصمة . وعندما تتبين العين الحيط الأبيض من الحيط الأسود من طلوع الفجر ويؤذن المؤذن للصلاة يركع موسى بن شاكر إلى جوار جاره في المسجد ساجداً لله شكراً على ما أولاه من مساعدة إذ أرسل له نفراً من الفرسان الذين هدوه سواء السبيل حيث توجد الغنائم وتكثر الأسلاب .

هل يعتقد المأمون أن الرجل الذي يحتل مكاناً مرموقاً بين علماء قصره وينزل من قلب المأمون مكاناً يحسده عليه الكثيرون هو بعينه الذي يحيا حياتين ؟ ثم كثرت حوادث النهب وأعمال السلب في الطرق وكثر عدد الذين سرقوا ونهبوا ؛ لذلك اتجهت أنظار الدولة إلى تحقيق هذه الجنايات فحاتت الشبهات حول موسى بن شاكر الفلكي ، إلا أن الجماعة الإسلامية على استعداد للشهادة على أن موسى هذا كثيراً ما يشاهد في المسجد صباحاً ومساءً ومنذ زمن بعيد يواظب على أداء فروض الله فلا يجد الخليفة مناصباً من السكوت .

لقد أثبت موسى أنه حذر ذكي ويتجلى لنا هذا الذكاء وبعد النظر في تولية الخليفة وصياً على أولاده القصر إذا ما عاجلته منيته أو تمكن خصومه منه وثأروا لأنفسهم ولأموالهم ، وقد تحقق بعد نظر موسى وتولى الخليفة الوصاية على أبنائه ونشأهم تنشئة علمية صادقة جعلت منهم علماء فلكيين يشار إليهم بالبنان في قصر الخليفة ببغداد .

هذه قصة حقيقية لا غبار عليها وقد وقعت إبان عصر القيصر كارل الأكبر في أوروبا وتمت عندما أغمض القيصر عينيه . إن قصة موسى وقعت حوادثها في واحة مرو البعيدة في وادي مرغاب حيث كان يقيم المأمون بعد أن ترك بغداد عقب وفاة والده هرون الرشيد وزوال دولته . والقصة حقيقية أيضاً من ناحية أخرى ولو من جهة الرمزية فهي تصور حياة البدو الجاهليين الليلية عندما تغيب الشمس بوهجها المحرق وتقبل موجات النسيم العليل وتتلأأل النجوم في القبة الزرقاء وعلى ضوءها يقرأون وهم يرعون الماشية أو يقومون بغزواتهم ، أما الآن وقد هداهم الله إلى دينه الحنيف وتثقفوا بتعاليمه السامية العالية فقد أقبلوا على العلوم يتدارسونها ويتأملون السماء بنجومها وأفلاكها وحركاتها .

لقد اعتمد العرب أبناء الصحراء أكثر من غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى

كال يونان والرومان والجرمان على التأمل في السماء ومراقبة الأفلاك والنجوم ، فالعرب وهم البدو الرحل كانوا يتجولون في لا نهائية الصحراء ولا يرون في حلهم وترحالهم إلا السماء ونجومها التي تحول ظلمة الليل إلى نهار وضاح ، ولا شك في أن هذه الظواهر الفلكية ترك في نفس ساكن الصحراء العربية أثراً لن يدركه سكان الأقاليم الشمالية ، وإذا أضفنا إلى السماء بسطة الصحراء وسهولتها فلا جبال تنكسر عندها أشعة الإبصار ولا تلال ولا بحار ، أدركنا أثر كل ذلك في البدوى عندما يشاهد الأفق البعيد تتخلله طبقات الهواء .

وفي وسط هذه الأبعاد المتشابهة التي تكاد تكون واحدة اللهم إلا هذه التلال المتنقلة من بحار الرمال نجد النظرة البدوية حرة طليقة لا يوجد ما يعترضها ويوجهها اتجاهاً خاصاً وهذه بدورها تؤثر في حياة البدوى زماناً ومكاناً فهو في عراك دائم مع الأنواء والرعود والبرق والمطر واختلاف درجات الحرارة وتعاقب الليل والنهار ، والآن قد يسهل علينا إدراك الاعتقاد العربي في الكواكب وسائر الأجرام السماوية وكيف أنها مظهر من مظاهر القوى الإلهية فقبيلة نسام قدست « الدبران » بنوره المائل إلى الحمرة ، وطلوعه كان مصحوباً دائماً بالغيث والخير العميم من طعام وشراب ، أما قيس فقدست الشعري أكثر النجوم ضوءاً ، وهو الذي يتخلل طريق التبان ، وقد استولى الشعري على أفئدة العرب بحمالة الممتاز . وقد ظل تقديس الكواكب حتى صدر الإسلام وبخاصة بين القبائل الوثنية كالصابئة ، وقد تخرج من بينهم نفر من خيرة العلماء العرب وبخاصة في الفلك أمثال ثابت بن قرة والبتاني الذي عرفته العصور الوسطى تحت اسم « الباتيجنيوس Alpbategnius » ، وقد اعترفت له أوربا كأستاذ من أكبر الأساتذة العرب الذين أخذت عنهم أوربا الشيء الكثير . أما خيال اليونان الشاعرى فقد صور لهم السماء وكأنها بكواكبها ونجومها وسائر أجرامها هي مصدر الأبطال ووحى الأساطير ، كما خلع هذا الخيال على النجوم صوراً قد تغاير حقيقتها في السماء . أما الطبيعة العربية وهي أقرب إلى الواقعية من غيرها فقد تصورت السماء وكأنها أنموذج لعالمهم عالم البداوة بكل ما فيها مما يحياه البدوى في صحرائه ، وذهب العربي بعيداً فجعل من كل نجم تمثيلية خاصة ففي شمال السماء يشاهد راعياً يرعى ومعه كلبه وقطيعاً من الغنم وعجلين وعنزاً وتيساً وناقة وقلواً وجمالاً

يرعى بمفرده وحول هذا القطيع ضبع وضبعتان وصغارها ، وهناك ابنا آوى يقفان خلف البعير ، وحيث يتألاً في السماء نهر المجرة يوجد عش للنعام وإلى جواره خمس نعومات وبعيداً قليلاً يجتمع ذكرا نعام وبعض صغار النعام كما يشاهد بيض نعام وقشر بيض مكسور بالقرب من العش .

تلك هي بعض مناظر الحياة لا صلة تربط بينها وبين الصور السماوية التي نجدها عند البابليين أو اليونانيين . ونحن نعلم أن اليونانيين تعلموا الفلك عن أساتذتهم البابليين واتخذ اليونانيون من بعض مجموعات النجوم ما اتخذوه منها صوراً لآلهتهم وأبطالهم كما صوروا منها حيواناً أو حيوانات تخص إلهاً أو بطلاً . كذلك رقموا النجوم حسب مواقعها مثلاً النجم (لا) على كتف والنجم (γ) على ظهر الحصان المجنح . أما العرب فلم يتصوروا النجوم في هيئة صور بل سموها بعض النجوم أسماء هامة لذلك أصبح عدد أسماء النجوم عند العرب يفوق بكثير الأسماء اليونانية .

وعندما ترجم العرب أيام الخليفة هرون الرشيد وابنه المأمون كتاب الفلك للمؤلف « هيبارش » الأكبر . وكذلك فهرس النجوم الذي وضعه نفس المؤلف ونقحه بطليموس وقدمه لنا في الماجسط . اختلطت الأسماء العربية القديمة للنجوم والكواكب مع الألفاظ اليونانية ، وبخاصة أن الأسماء العربية كانت لا تزال حية مستخدمة متواترة في أشعارهم وأغانيتهم وقصصهم . لذلك لا عجب إذا رأينا أن معظم أسماء النجوم والكواكب المستعملة حتى يومنا هذا عربية أو ترجع إلى أصل عربي . وأوربا التي درست الفلك على أساتذة مسلمين تستخدم حتى اليوم الأسماء العربية مثل « الدبران » و « الجنوب » و « الغول » و « الكرب » و « الطائر » و « الواقع » و « بيت الجوزاء » و « ذنب » و « فم الحوت » و « رجل » وغيرها .

ولا يقتصر الأمر على أسماء الكواكب والنجوم بل هناك كثير من الاصطلاحات الفلكية المتداولة على ألسنة العامة قد أخذتها أوربا عن العرب مثل « السمات » و « النظير » و « القنطرة » و « الحضيض » و « تيودوليت » .

ثم نجد العرب وقد تأثروا بالعلوم الهندية واليونانية مثل دراستهم لكتاب « سيدهنتا » للمؤلف الهندي « براهما جوبتا » والماجسط لبطليموس — ينشطون في

قصور الخلفاء المنصور وهرون الرشيد والمأمون ويهتمون اهتماماً خاصاً بالدراسات الفلكية مستعينين بخبرتهم القديمة التي توارثوها منذ زمن بعيد فأخذوا بيد هذا العلم حتى جعلوا من الفلك علماً عالمياً وأصبح العرب بفضل نشاطهم واجتهادهم أساتذة العالم وقادته .

لقد توفي موسى وترك وراءه ثلاثة أولاد في سن الطفولة ، وقد وصل المأمون ، عندما كان يقود حملة عسكرية في آسيا الصغرى ، خبر وفاة موسى فسارع وطلب إلى حاكم بغداد الاهتمام بهؤلاء الأطفال والعناية بهم ، وبلغ اهتمام الخليفة حدّاً أنه ما أرسل رسالة إلى بغداد إلا وسأل عنهم .

وكان الخليفة المأمون يتحدث ساخراً دائماً من أنه مربى أولاد موسى ثم أسلمهم إلى يحيى بن أبي منصور لتربيتهم . وكان يحيى هذا فلكي الخليفة ومدير بيت الحكمة الذي أسسه المأمون للعناية بالعلوم المختلفة كما زوده بمكتبة غنية بسائر المؤلفات ومنها كتاب الخوارزمي المختار من « سيدهنتا » وجداول بطليموس الفلكية التي نقحها الخوارزمي . وكذلك كتبه في الحساب التي ظلت المرجع الأول والأهم في أوربا حتى عصر إحياء العلوم وكذلك كتبه في الجبر ، وهنا في دار الحكمة نبغ العلوم والمعارف وحيث مختلف المراجع التي تربو على الآلاف وكذلك الأجهزة النادرة ومختلف الندوات العلمية في شتى العلوم والفنون . نشأ وترعرع أولئك الأطفال الموهوبون أنجال الفلكي ولص الصحراء موسى بن شاكر . ومن حسن حظهم أنهم بعد وفاة والدهم انتقلوا إلى رعاية خليفة المسلمين وأمير المؤمنين نور الحكمة ومصدر الإشعاع .

ومن حسن طالع أولئك الإخوة أن أكبرهم وهو محمد بن موسى أصبح أشهر الجميع علماً وسياسة ، فنال ثقة الخليفة فورث المكانة التي تولّاها أبوه من قبل وأكرم المأمون علماء الفلك فشيد لهم مرصداً عظيماً فوق أعلى مكان في بغداد عند شمسية حيث كانت ترصد الكواكب وتراقب حركاتها مراقبة علمية دقيقة ووضع المأمون هذا المرصد تحت رئاسة وإشراف يحيى وكانت تستخدم فيه مقاييس في غاية الدقة تقابلها أخرى مثلها في مرصد جنديسابور . وإمعاناً في الدقة كانت تراجع العمليات الحسابية كل ثلاثة أعوام في مرصد جبل قسيوم بالقرب من دمشق حيث كان يعمل فلكيوه معاً في وضع الجدول المسماة جداول المراجعة أو الجدول

الميمونية وهذه في الواقع عبارة عن مراجعة جديدة دقيقة للحداول بطليموس الفلكية .
 ولم يكده محمد بن موسى ينهى من دراسته على يحيى حتى أمر الخليفة أن يساهم
 هذا العالم الشاب في قياس حجم الكرة الأرضية فسافر مع جماعة من الفلكيين
 إلى « سنجار » الواقعة غرب الموصل ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن « أوتوستينيس »
 كان قد قام بأول قياس للأرض بمساعدة الزوايا الضوئية للشمس . أما فلكيو المأمون
 فقد حاولوا قياس الأرض بوسيلة أخرى فمن نقطة خاصة انتقل جماعة من الفلكيين
 نحو الشمال وانتقلت جماعة أخرى نحو الجنوب وظلت متجهة حتى بلغت مكان
 الجدى الصغير ، النجم القطبي ، فالجماعة التي اتجهت شمالا تشاهد الصعود
 بينما الجماعة الأخرى التي اتجهت جنوباً تشاهد الهبوط فالمسافة بين الجماعتين عبارة
 عن درجة من دائرة نصف النهار ، وقد تمت هذه العملية بدقة تستدعي الإعجاب
 حقاً .

لكن لا يمضى زمن طويل حتى نجد محمداً وأخويه يقومون بعملية حسابية
 عجيبة تخلد أسماءهم : فحسابهم لا يبين فقط النتيجة التي توصل إليها بطليموس بل
 تتفق أيضاً والنتيجة التي قام بها في الظل فلكي القصر المعروف باسم « موروzy »
 « وجدت » ، هكذا صرح بعد مائة وخمسين عاماً مواطن لا يقل مكانة عن البيروني :
 إن الإنسان يجب عليه أن يعتمد على حساب وملاحظات بنى موسى . وعلى الإنسان
 كذلك أن يرعاها فقد حشد بنو موسى كل قواهم العقلية في سبيل الوصول إلى
 الحقيقة . لقد كان أبناء موسى وحيدى عصرهم في إتقان الوسائل الفلكية والكمياسة
 في استخدامها وتطبيقها . وقد شهد لأبناء موسى علماء آخرون شاهدوا بعيونهم دقة
 هؤلاء في كل ما قاموا به . وحدث أن افترق أبناء موسى عن الشيخ يحيى وتركوا مرصده
 وذلك لأن محمداً كان رجلاً يؤثر الاستقلال وحرية العمل وبخاصة فقد أصبح
 في شيء من اليسر والثراء وذلك بفضل تعاون الإخوة ورغبتهم الصادقة في الكسب
 والعمل ونجحوا في إقامة مرصد خاص لهم على قنطرة نهر دجلة عند « باب التاج » ،
 وهنا نجد محمداً يكرس حياته للرصد والحساب وقد اتصف في عمله هذا بالصبر
 والجلد . هكذا شهد له معاصروه فقد ألف كتاباً فلكية تعالج الاتجاهات العمودية
 على البعد القطبي . وكانت هي الأولى من نوعها في الفلك كما اشترك مع أخويه في

وضع كتاب في المساحات الكروية وقد ترجمه إلى اللاتينية « جرهد فون كريمونا Gerhard von Cremona » وقد عرف هذا الكتاب في العصور الوسطى في أوروبا باسم كتاب الإخوة الثلاثة في الهندسة (Liber trium fratrum de geometrica) .

لكن محمد لم يكن فلكياً بارعاً ورياضياً عظيماً فحسب بل أبدى مقدرة فائقة في الفلسفة وبخاصة المنطق أيضاً فوضع كتاباً حول أصول العالم وعناصره كما غنى بعلم الأرصاد ودون ملاحظات حول الأجواء واهتم بالتركيبات الخاصة بالأجهزة والآلات وهذه هي الناحية التي كان يهواها ويولع بها أخوه أحمد الذي أضاف الشيء الكثير على ماجاءنا عن العالم القديم خاصاً بالميزان السريع .

وكان أحمد هو الفنان البارع والصانع الماهر وقد اشتهر بعبقريته في هذا المضمار فكان من بين أفراد العائلة الوحيد المشهود له بحسن تركيب الآلات وفكها . لقد توافرت له . كما يذكر مرجع عربي في هذه الصناعة . أشياء لم تتوافر لأخيه محمد أو لأحد من السابقين مثل هرون وغيره من الذين كانوا يهتمون بتركيب الآلات وتنظيمها وبخاصة الآلية منها وقد وضع في ذلك كتاباً شاملاً حير الموهوبين فنياً من العرب . وامتاز أحمد أيضاً بملكته الخالقة فقد اخترع أشياء كثيرة تدعو إلى الدهشة فقد ثابر في بناء الآلات الدقيقة المعقدة التركيب والتي هي ذات فائدة قصوى للمجتمع ولو قدر لفرد أن يحصل عليها اليوم لأعجب بها وحرص على امتلاكها . فقد عاون ربة البيت في القيام بعملها كما ساعد الفلاح على فلاحه أرضه وريها وصنع حوضاً تشرب منه الحيوانات الصغيرة فقط ولم يهمل الأطفال والكبار في صنع أدوات اللعب والتسلية التي لو ظهرت اليوم لحرص الكل على اقتنائها . وأحمد هذا هو صاحب غرافات الحمامات والخمور وتقن في صنع الأخيرة حتى إن منها ما يصب من النبيذ بقدر ما يحتاج إليه الإنسان ، وإذا ما حاول صب كمية أخرى وجب عليه أن ينتظر فترة من الزمن ، وإليه يرجع الفضل في اختراع الأجهزة التي تعين أثقال السوائل المختلفة وأخرى تمتلئ آلياً عندما تفرغ كما صنع قوارير يشرب منها الإنسان حسب رغبته إما نبيذاً صافياً أو ممزوجاً أو ماء ، وركب مصابيح يخرج فتيلها آلياً كما يتدفق فيها الزيت تلقائياً ولا يستطيع الهواء أن يطفئها ، وقد نجح في صنع جهاز لرى الأرض وهو يصفر كما يصدر أصواتاً خاصة تشير إلى أن المياه

قد بلغت الارتفاع المطلوب كما صنع مختلف أنواع النافورات وتفنن في الحيل المائية حيث يندفع الماء مكوناً مختلف الأشكال والشخوص ، وقد بلغ أحمد من المهارة بحيث استطاع صنع جهاز فلكى يخطئ بواسطة الرأى اليونانى القائل : « إن كرة تاسعة تحيط بالفضاء » .

وهل بمستغرب أن يضع ابن موسى بن شاكر خبرته وإمكانياته في خدمة العلم الذى كرس له والده حياته أعنى الفلك ؟

لقد اشترك أحمد مع محمد وركبا ساعة نحاسية ذات حجم كبير وقام محمد بعمل حساب شروق وغروب أهم الكواكب والنجوم حسب اليوم والسنة ، أما أحمد فقد قام بتنفيذ العملية الحسائية المعقدة التى وضعها أخوه . وكانت هذه الساعة قطعة فنية عجيبة ووحيدة من نوعها من حيث صناعة الآلات وتركيبها وقد أثارت إعجاب كل من شاهدها فقد رآها الطبيب ابن ربان الطبرى فى القصر الجديد للخليفة فقال : أمام مرصد سامراء رأيت آلة ركبها الأخوان محمد وأحمد ابنا موسى . والأخوان خبيران بعلم الفلك وتركيب الآلات . والآلة التى صنعها عبارة عن كرة وعليها صور الأفلاك وأجرام السماء وتتحرك هذه الآلة بفعل الماء ، فإذا اختفى نجم من نجوم السماء اختفى فى نفس الوقت النجم الذى يقابله فى الكرة عن طريق خط يمثل دوران الأفلاك وله نظيره فى السماء وعندما يعود النجم فى السماء إلى الظهور مرة أخرى يظهر هذا النجم على الكرة فوق خط الأفق .

« الأخ الثالث الحسن » كان كما تحدثنا المصادر العربية نابغة عصره فى الهندسة كما كان عبقريةً وحيداً اشتهر بالذاكرة القوية وسعة الخيال والتصوير لم يلقنه أحد ما بلغه من إعجاز فى الهندسة . وما عرضت عليه مسألة من المسائل إلا وبادر إلى حلها ، وكان هو أول من توصل إلى هذا . ويروى عنه أنه كان يجلس غارقاً فى تفكيره وجلس مرة فى مجلس من مجالس الخاصة فلم يسمع شيئاً مما دار من حديث فى ذلك المجلس ، ويروى عنه عن نفسه أنه إذا عرضت له مشكلة من المشاكل كان يرى العالم وكأنه جسم من الظلام ويشعر هو وكأنه قد خارت قواه أو فى حالة حلم .

وحدث يوماً ما أن التقى فى حضرة المأمون بفلكيه الخاص الموروزى الذى اشترك فى مراقبة الشمس فى دمشق ، وكان الموروزى قد قرأ كتاب « أويقليد »

كما درس الماجسطى دراسة دقيقة إلا أنه كثيراً ما عجز عن فهم كثير من المسائل الرياضية فتحدهاه الحسن أن يوجه إليه مسألة هندسية شريطة أن يعرض عليه الحسن سؤالاً هندسياً فأخرج هذا الاقتراح الموروزى فشكاه إلى المأمون « يا أمير المؤمنين لقد قرأ لأويقليدسته كتب فقط » .

والمأمون الذى يعتبره عالماً فى الهندسة فقط ، وقد درس كتاب أويقليد لا يستطيع أن يتقبل مثل هذا الاتهام الموجه إلى حبيبه حسن ولا يصدقه فالتفت مسروراً إلى المتهم شاكاً فى التهمة فأجابه حسن :

« والله يا أمير المؤمنين لو أردت الكذب لأثبت كذب دعواه ولا استدعيته للاختبار فهو لم يسألنى سؤالاً خاصاً بمحتويات هذه الكتب التى لم أطلع عليها ولو فعل هذا لأجبتة على الفور وذكرت له حلها ولا ضير فى ذلك على إذا كنت لم أطلع على هذه الكتب » . والمؤلم أن دراسته لجميع هذه الكتب ومساثلها حتى ما صغر منها لم تفده كثيراً أو قليلاً حتى يتمكن من حلها . وقد اقتنع المأمون بهذه العبارة إلا أنه لم يغفر لحسن تقصيره بعدم تنفيذ طلباته .

ومن بين أعماله التى قام بها مستقلاً عن أخويه كتابه الذى وضعه حول القطوع المخروطية كما أنه هو مخترع ما يعرف باسم القطع الأهليلجى .

ولم يبلغ أبناء موسى ما بلغوا من شهرة علمية عن طريق بحوثهم فقط بل عن طريق الخدمات الجلية أيضاً التى أدوها لعلم الفلك . بفضل ما أوتوا من نبوغ فى هذه الناحية وفضلاً عن هذا فقد كانوا بالرغم من أنهم كانوا فى سن الشباب من أكبر مشجعى ومناصرى العلم والعلماء فكانوا يوفدون البعث على نفقاتهم الخاصة إلى الدولة البيزنطية للبحث عن المؤلفات الفلسفية والفلكية والرياضية والطبية وكان أبناء موسى لا يترددون فى دفع الأثمان الباهظة لهذه المؤلفات اليونانية التى كانوا يزودون بها مكتبهم الخاصة بدارهم بباب التاج فى بغداد فهناك وعلى قطعة الأرض التى وهبها لهم المتوكل بالقرب من قصره فى سامراء وظف أبناء موسى العدد الكبير من المترجمين الذين استقدموهم من مختلف البلاد وكانوا بصنيعهم هذا يقتنون بأمر المؤمنين الخليفة المأمون الذى اقتنى المخطوطات وشيد المدارس لتخرج المترجمين . والآن نتساءل كيف تيسرت الأمور وأصبح أبناء موسى الوحيدين الذين جاروا

الحليفة في الأخذ بيد هذه النهضة العلمية العظيمة الأثر ؟ ألم يمضوا أيام طفولتهم في حياة إن وصفت بشيء فبالبساطة والتواضع ؟ ألم يمض موسى بن شاكر وأسرته حياة أقرب إلى الفقر من أي شيء آخر ؟

والآن نجد أبناءه يدفعون شهرياً لكل مترجم راتباً لا يقل عن خمسمائة دينار ولا شك في أن إنفاق مثل هذه الأموال في اقتناء الكتب وإيفاد البعث وترجمتها ونسخها قد كلفهم في شبابهم الكثير من الأموال ؛ فترتب المترجم أغنى مبلغ الخمسمائة دينار كان يساوي بعملتنا الحالية حوالي ثمانمائة جنيه ذهبي ولا شك في أنها مرتبات عالية كانت تكفل لأصحابها سعة في الرزق وسعة في الوقت وتفانياً في خدمة رسالتهم العلمية الرفيعة . فمن أين لأبناء موسى جميع هذه الموارد المالية التي مكنتهم من الهوض بمثل هذا العبء العظيم ؟

أين الذهب الذي جمعه موسى إبان غزواته الليلية التي كثيراً ما شنّها ؟ إن أحداً لم ير غزواته ولم يشاهد أسلابه وهل كان هدف موسى من كل مغامراته تمويل مثل هذا المشروع العلمي الجبار ؟

لقد استخدم أبناء موسى كثيرين من العلماء من بينهم حنين بن إسحق وإسحق ابن - نين ابنه وحفيده حبيش بن الحسن وقد كان هؤلاء من أكثر وأجود العلماء إنتاجاً ، ولا يفوتنا أن نذكر أن من أشهر المترجمين أيضاً الذين عملوا لأبناء موسى ثابت ابن قرّة وكان صابئياً من الذين يقدسون النجوم والأجرام السماوية . فهذا الشاب العربي الذي أصبح فيما بعد عالماً فذاً كان قد اهتدى إليه محمد بن موسى ، فقد حدث أن محمداً في رحلة من رحلاته الاستطلاعية بحثاً عن المخطوطات توجه إلى اليونان وآسيا الصغرى وعند عودته ماراً بخران التقى في « كفر توتة » بهذا الشاب الذي كان يعمل صرافاً في محل له صغير ، وكان إلى جانب إلمامه بالنقود عالماً بعدة لغات . فكان هذا الشاب هو الذي يبحث عنه محمد بن موسى فهو خبير بالحساب ومترجم قدير فأحضره معه إلى بغداد واتخذته تلميذاً له في منزله وقدمه إلى الخليفة المعتضد فأعجب الخليفة بهذا الصابئى وقدمه على سائر علمائه فترجم ثابت بن قرّة عدداً من الكتب الفلكية والرياضية والطبية إلى بنى موسى وهذه الكتب لمشاهير العلماء أمثال « أرشيميدس » و « أبولونيوس » و « تيودوسيوس » و « أويقليد » و « أرسطو »

و « أفلاطون » و « جالينوس » و « بوقراط » كما ترجم جغرافية بطليموس . ولم يقف نشاطه العلمى عند هذا بل راجع ترجمات حنين وابنه و صححها ، ثم انصرف بعد ذلك إلى تأليف الكتب فوضع ما يقرب من مائة وخمسين كتاباً عربياً وعشرة في السريانية حول الفلك والرياضة والطب ، فوضعت هذه المؤلفات وذلك الإنتاج لافى مقدمة علماء عصره فقط بل زعيماً للعلوم الإسلامية قاطبة .

لقد تحدثنا عن سيرة بنى موسى لا رغبة في الإفاضة فيها فهم أشهر مما نتصور . فمن بين خمسمائة وأربعة وثلاثين فلكياً عربياً حفظ لنا التاريخ أسماءهم وهذا عدد ينذر أن نجده بين أبناء أمة راقية أخرى في العالم ونقرر أن بنى موسى وغيرهم من أبناء جلدتهم قد ساهموا مساهمة كبرى في بعث النهضة العلمية الأوربية .

لكن حياة الإخوة الثلاثة تشع علينا إشعاعات خاصة فدراسة حياة هؤلاء الإخوة العلمية تلقى ضوءاً قوياً على كل مقومات الدراسات التى اعتمد عليها العلماء المسلمون في سبيل النهوض بعلم الفلك منذ أن خرس اليونان إلى غير رجعة . لقد نهض العلماء المسلمون بهذا العلم نهضة كانت له بعثاً جديداً ترك في أوروبا أبعد الأثر فأيقظها وسد الفراغ العلمى فيها .

إن نشاط بنى موسى في جمع المخطوطات وترجمتها أحيا من الموت تراث العالم القديم الذى طمره النسيان . والعرب هم الذين بعثوه فعادت إليه الحياة ثانية والعرب هم الذين عرفوا أوروبا به .

اشتهر العرب بعبقريتهم الفنية في صناعة الآلات واختراعها ، فقد أدركوا معنى ووظيفة الآلات التى جاءهم وصفها وطوروها وزادوا عليها فاخترعوا الحديد منها . وبذلك وضع العرب الأسس لقيام هذه النهضة العلمية الصناعية .

إن نظرهم الفنية الدقيقة للظواهر الطبيعية التى تجلت في مرآصدهم تفوقت بكثير على تلك النتائج التى توصل إليها العالم القديم وسبق العرب غيرهم فنجحوا في القيام بالبحوث العلمية الدقيقة وتجلت عبقريتهم التى لا تحد في الرياضيات والعلوم الأخرى وكان يستولى على العربى الفرح والسرور عند توفيقه في حل مسألة رياضية أو حسابية وهذا الاستعداد مكن العرب من خلق فروع جديدة في الرياضيات كما سبقوا أوروبا وأوجدوا الوسائل المختلفة للدراسات الفلكية .

الابن الأول صانع الآلات

أسس يوناني الدراسة الفلكية العلمية وكان هذا العالم أقل يونانية من سائر اليونانيين فحتى ذلك الوقت كان علم الفلك اليوناني علماً تأملياً نظرياً وقليلًا ما كان يدرك بالإبصار المنتظم ، فالعقل اليوناني يهتم بالشكل والنظام والقانون لذلك أسس مع مرور الزمن وتعاقب الأجيال مسرحاً عالمياً من الكمال فأوجد لكل العصور فكرة النظام القانوني العظيم للوجود ومن هذه الناحية يختلف اليونانيون عن غيرهم من حيث إدراكهم للكون فهو شيء ملموس معقول محسوس بخلاف علماء الفلك على نهري دجلة والفرات .

لقد اشتهر البابليون بنظرتهم الثابتة الدقيقة فقد آمنوا بجميع المظاهر السماوية وآثارها واقتنعوا بأن كل ما يجري في الكون مقدر من قبل . أما محاولة نسبة المظاهر الكونية إلى قوانين الطبيعة ومحاولة الاستفادة من هذه الصلة أو من نتائجها فلم تكن نههم أو تغنيهم .

أما الخصال التجريبية التي كثيراً ما اتصف بها البابليون فلم تتوافر لدى اليونانيين الذين اشتهروا بالأنانة عند الإدراك والحساب الدقيق فجميع هذا أثر في عقليتهم النظرية تأثيراً أقل من طبيعتهم الميلالية إلى التعليل الفلسفي . ففي حوالي عام ٥٠٠ ق.م. استطاعوا أن يتصوروا القبة السماوية المرئية وكأنها كرة هندسية جميلة تتفق والتناسق الإلهي وفي وسطها الأرض التي كانوا يتصورونها قديماً أسطوانية الشكل تحلق في الفراغ . ثم جاء القرن الثالث ق.م. فنجد « أريسترخ » أحد أبناء مدينة « ساموس » يضع الشمس مكان الأرض في قلب الكون لكن هذه الصورة بالرغم من جمالها لقيت معارضة قوية من الخاصة والعامة الذين فضلوا تصور الأرض في قلب الكون فالأرض هي التي أخرجت الإنسان وتعهدته والإنسان هو مقياس كل شيء إلا أن هذا الرأي ينقصه الدليل ولا يكفي الادعاء للأخذ به . وهكذا ظلت الأرض الوطن المقدس في الوجود وظلت هكذا أيضاً حتى عام ١٥٠ ق.م. إذ ظهر في ذلك الوقت

رجل من آسيا الصغرى بدأ بحثاً بطريقة أخرى غير يونانية إذ أخذ يقيس السماء ويفحص ويحسب في صبر وأناة ودقة لم يسبقه إليها أحد . والرجل الذي فتح هذا الفتح الجديد في دراسة النجوم ووضع أسس الدراسة العلمية الفلكية هو « هيبارش Hipparch » فكان يقرأ صفحة السماء بعينين نافذتين ويعد ويقيس بالآلات هو واضع معظمها وقد أهدى هذا العالم ما توصل إليه من معرفة وتواريخ وفهارس للنجوم لجميع الذين يعنون بالدراسات الفلكية وقد وصفه بطليموس المصرى الذى جاء بعده بنحو مائتين وخمسين سنة بأنه أدق العلماء وأخلصهم .

والشئ الجدير بالملاحظة أن بطليموس المصرى هذا اعتمد في كتابه الماجسطى على ما انتهى إليه « هيبارش » ، ولا عجب في هذا ، فجهود « هيبارش » ظل عصوراً طويلة كمثل أعلى للنتيجة التى انتهى إليها علم الفلك إذ لم يظهر عالم آخر سواء عند الرومان أو من بين الهنود استطاع أن يخطو بهذا العلم خطوة أبعد وظل الحال كذلك حتى جاء العرب فخلقوا الفلك خلقاً جديداً ، لقد ظهر بين العرب فلكيان عظيمان يسمى كل منهما « عمر » وقد جلسا يوماً من الأيام عند عمود مسجد من المساجد وأمامهما كتاب الماجسطى فعبّر عليهما جماعة من العلماء فوقفوا وسألوهما ماذا يدرسان ؟ « نحن نقرأ » أجاب أحد العمرين « تفسير قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت » (الغاشية ي ١٧ - ١٨) .

إن لعلم الفلك أثراً بعيداً ومكانة ممتازة عند كل مسلم فطلوع النجوم وشروق الشمس وظهور القمر آيات بينات ناطقة بعظمة الله وعلمه هذا الله الذى ينطق القرآن الكريم بمجده وقوته هو خالق السماء والأرض والظلام والنور ويحيط بكل شئ علماء ؛ لذلك قال أحد كبار فلكي العرب ألا وهو البتاني : إن معرفة النجوم تشبه معرفة الأشياء التى يجب على الإنسان أن يعرفها ويدركها كقوانين الدين وأوامره فعن طريقها يهتدى الإنسان إلى معرفة الأدلة التى تثبت وحدانية الله وعظمته وحكمته وقوته وكمال عمله فلعلم الفلك عند المسلم قيمة عملية عظيمة .

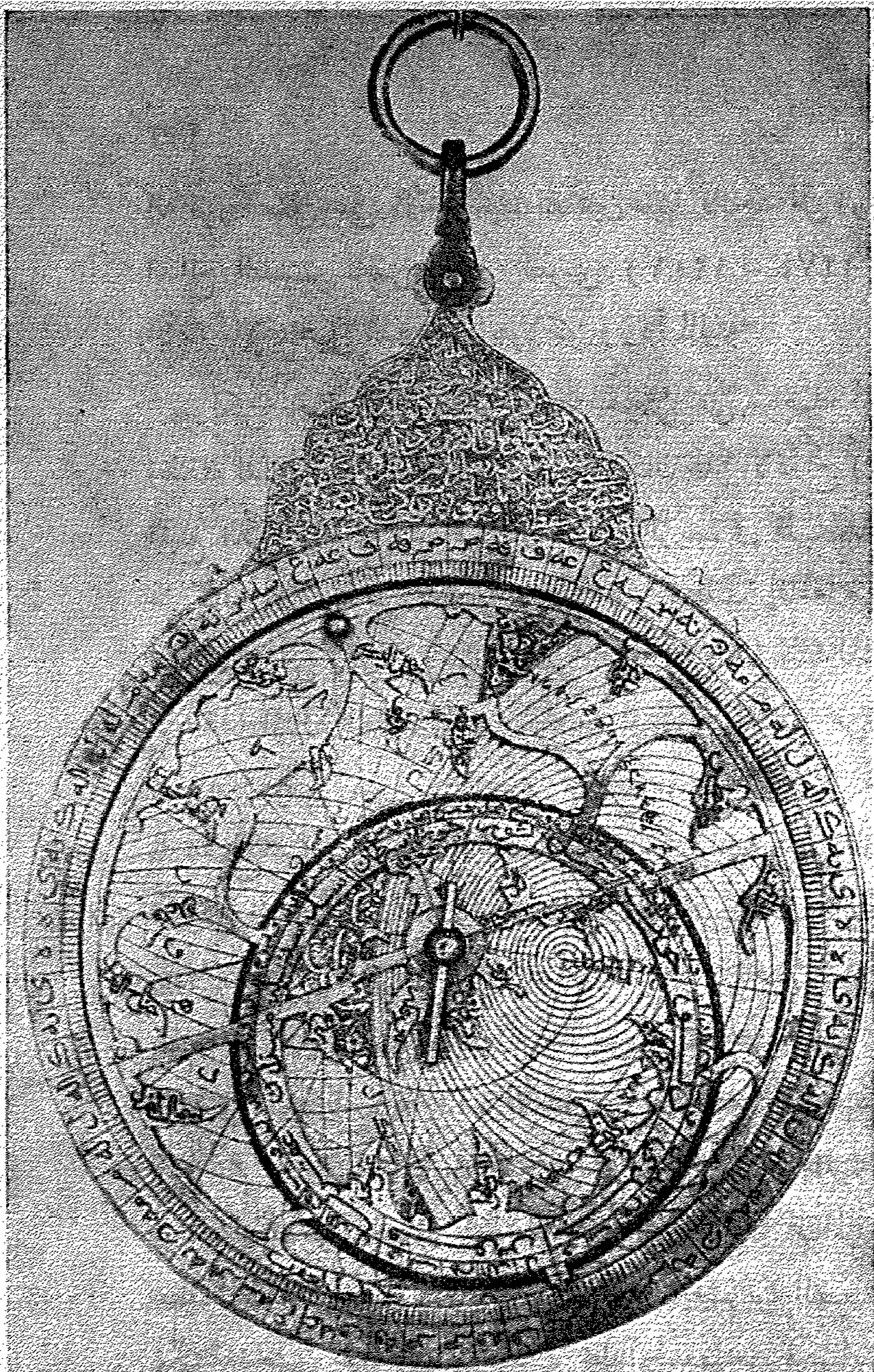
لقد توقفت حياة البدو الرحل والفلاحين منذ عصور بعيدة جداً على السماء وأحوالها الطبيعية لذلك اهتم القوم بعلم الفلك ومجاري الأفلاك ، ولما جاء الإسلام وجدت صلة قوية بين عقائده وفرائضه وبين النجوم وسائر الأجرام السماوية وبخاصة عند

قيام المسلم بفروضه اليومية ، وقد نادى القرآن الكريم بوجوب النظر إلى السماء فقطوس الإسلام الدينية والمحافظة عليها وعلى مواقيتها تحتم على المسلم العناية بمراقبة الشروق والغروب وما بينهما .

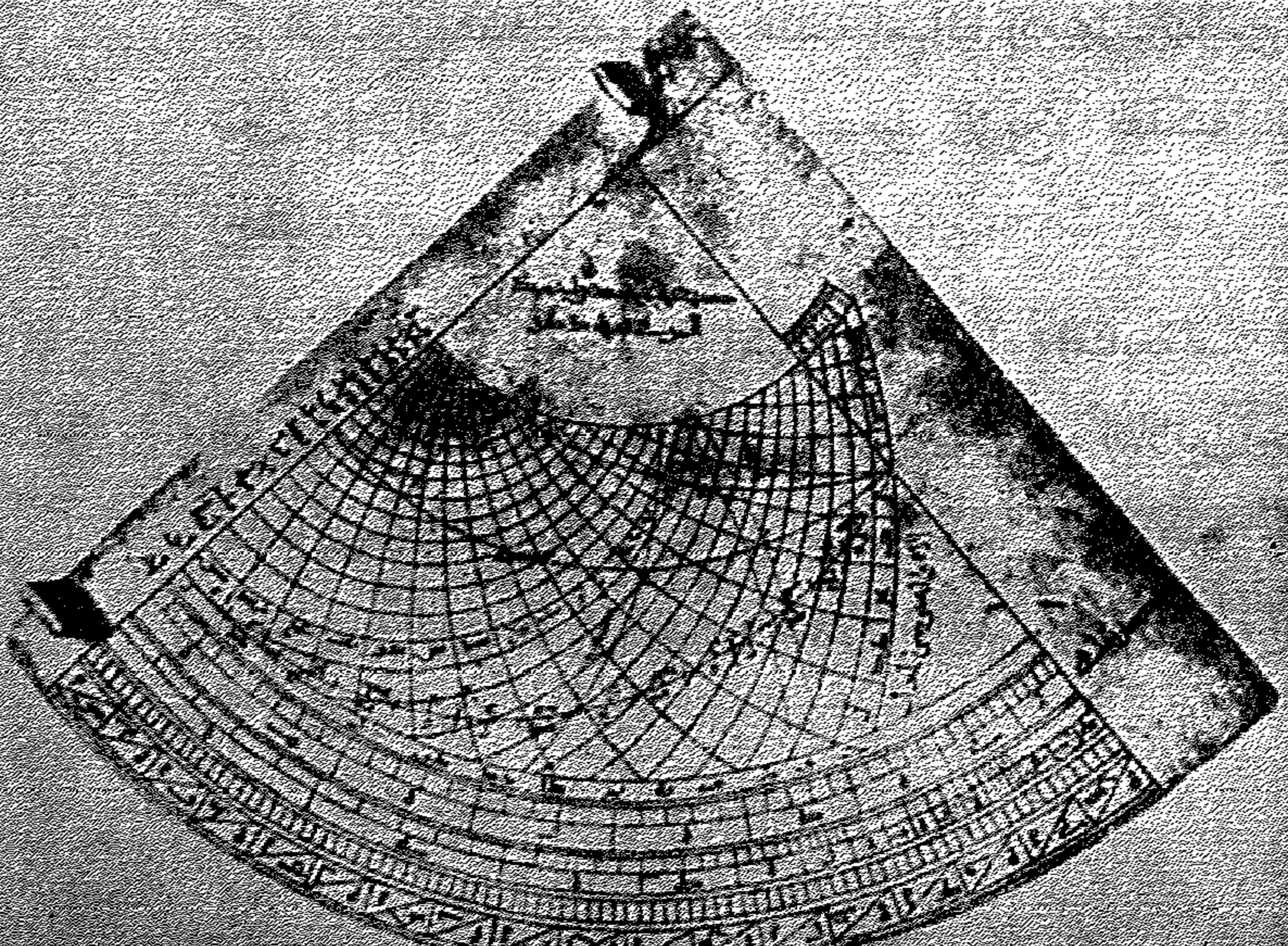
فالمؤذن في المسجد يجب أن يكون ملماً بشيء من علم الفلك ليستطيع توقيت مواعيد الصلاة ويجب أن يعرف استخدام آلة تحديد شروق الشمس وجريانها في كبد السماء ليحدد مواعيد تأدية فرائض الصلاة كذلك يجب عليه أن يعرف طلوع الهلال وغيابه في شهر رمضان شهر الصوم كما هو مطالب بمعرفة غياب الشمس وشروقها ليحدد المغرب والعشاء والسحور والإمساك والفجر والظهر والعصر . والمسلم مطالب أيضاً بمعرفة مواعيد الكسوف والخسوف فكل منهما يتطلب الفرائض الخاصة . والاتجاه إلى مكة عند الصلاة شرط لا بد منه لإقامة الصلاة فالاهتمام بالسماء وما يجري فيها أهم للمسلم من الطعام .

فلا عجب إذا رأينا المسلمين يقبلون على كل ما يتصل بالنجوم والأفلاك لذلك شجع الخلفاء هذا الاتجاه ودفعوا الشعب إليه حتى لم يمض زمن طويل إلا وأصبح الفلك علماً تأتى دراسته والعناية به في مقدمة العلوم الأخرى لذلك تخرج منهم المراقبون والمساحون والمحاسبون كما فعل العالم « هيارش » من قبل . واستتبعت دراسة الفلك إقامة المراصد ، ولعل أشهرها هو ذلك الذى شيده المأمون في بغداد أو دمشق ، ولا ننسى تلك التى شيدها الخلفاء الفاطميون أمثال العزيز والحاكم في القاهرة وعضد الدولة فيما بعد في بغداد في حديقة قصره . والمرصد الذى شيده السلجوقي ملك شاه في نيسابور في شرق فارس ، وكذلك هولاء المغولى في « مراغه » غرب فارس ، وأولوغ بك الأمير التترى في سمرقند .

ولعل هولاء كان هو الوحيد من بين جميع هؤلاء الذى لم يكن مقتنعاً تماماً بأهمية هذا العلم وفائدته ، ففي هجومه على قلب الدولة العربية استطاع حفيد جنكيز خان القضاء على صغار أمراء فارس كما قتل بحد السيف الأمراء الإسماعيليين وزعماء الحشاشين ، ولم يكتف بذلك بل خرب بغداد وأشعل فيها النيران وأزال من الوجود العباسيين إلا أن الحضارة العباسية الإسلامية أبهرت أنظار هذا البدائي حتى



لقد خدم الأسطرلاب العرب
خدمات جليلة منها استخدامه
كمساعة جيب



ربع دائرة لمحمد بن أحمد من
المدينة عام ٧٣٩ م

إنه قرر العمل على الأخذ بيد القائمين عليها فاتخذ من الرياضى العبقري والفلكي الذائع الصيت ناصر الدين الطوسي (١٢٠١ - ١٢٧٤) والذي كان في خدمة الأمير الإسماعيلي الذي قتله هولاكو وزيراً لمالتيه .

لكن ناصر الدين كان شديد الحرص على مواصلة أبحاثه العلمية إلى جانب وظيفته لذلك فهو في حاجة إلى مرصد فكان هذا الاقتراح إلى جانب المطالبة باعتماد المبلغ اللازم لإقامته مدعاة لإثارة الشك والريب في قلب هذا البدائي المتوحش لأنه ما كان يحول بخاطره أن علم الفلك هذا يتطلب إقامة مرصد وأن المرصد يكلفه هذا المبلغ من المال . فأجابه ناصر الدين أن فائدة هذا المشروع ستنبيها هولاكو من هذا المثال البسيط الذي سيقدمه له . فقد طلب من هولاكو أن يسمح له بصناعة حوض كبير من النحاس ويضع هذا الحوض على سطح القصر ، وفي المساء لما اجتمع سائر الأعيان والوجوه حول الخان أمر ناصر الدين سرّاً بدحرجة هذا الحوض فأحدث صوتاً مخيفاً أوقع الرعب في قلوب جميع الحضور عدا ناصر الدين وهولاكو وكاد الآخرون يموتون رعباً وفزعاً . فقال ناصر الدين لهولاكو تأمل أن الذي يعلم الأشياء لا يخشى وقوعها وهذا من فوائد علم الفلك ، فالذي يفهم هذا العلم لا يخشى ما قد يقع لأنه يعرف الأسباب ؛ فإذا وقعت واقعة تقبلها العالم هادئ النفس لأنه عالم بها ولا يجهلها . فاقنع الخان بكلام وزير ماليته وسارع إلى إجابة طلبه فرصد له الأموال الطائلة لبناء المرصد وتأثيثه فلما تم المرصد فرح به الخان فرحاً عظيماً وأهداه مبلغاً كبيراً من المال يقدر بعشرين ألف دوكات كما زود المرصد بمكتبة تحتوي على أربعمئة ألف مجلد جمعها من مكتبات بغداد وسوريا والعراق كما استدعى عدداً كبيراً من علماء أسبانيا ودمشق وتفليس والموصل والمراغة ليعملوا تحت إشراف ناصر الدين ويضعوا الزيج الفلكية الجديدة بتكليف من الخان .

أخذ ناصر الدين يوجه اهتمامه إلى السماء ومتابعة سير النجوم والأفلاك ومختلف الكوكبات واستنفدت هذه المراقبة من عمره زهاء الثلاثين عاماً ، وذلك لأن زحل يحتاج إلى زمن يقرب من هذا لإتمام دورته ، لكن هذا الخان البدوي غير المستقر اعتبر هذا الزمن طويلاً جداً فأصدر أمراً يقول فيه إن هذه التأملات وتلك الدراسات

يجب أن تم في زمن لا يتجاوز اثني عشر عاماً وفعلاً قد تم وضع جداول الخان في الزمن الذي حدده .

لقد حصل ناصر الدين الطوسي على مرصده وكان معهداً للأبحاث لا يوجد ما يضارعه وأصبح مشهوراً شهرة عالمية في أجهزته وأبحاث علمائه.

مهرالعرب في صناعة الآلات وتركيبها كما شاهدنا هذا من مثل أحمد بن موسى ، وبذل العرب جهداً مشكوراً في سبيل استخدام الماء والاستفادة منه ، والماء كما نعلم هو سر الحياة وعليه تتوقف فقياً يتصل برى الأراضى صنعوا أنواعاً مختلفة من الوسائل مثل السواقي والطمبات والروافع كما نجحوا في تركيب مضخات تعمل بالنار .

والشيء غير المؤكد هو مدى محاولة العرب التغلب على الهواء والتحليق فيه ، والواقع أننا نجد في حوالى عام ٨٨٠ م في أسبانيا الطبيب بن فرناس يبنى أول طائرة من قماش ورياش ، وقد نجح فعلاً في التحليق بها مدة طويلة كما حاول القيام بعمليات انسيابية فسقط ولم يتحقق حلم « إيكاروس » .

لكن هواية صناعة الآلات عند العرب ظلت محصورة تقريباً في عمل آلات الرصد ومختلف الآلات الفلكية وما جاءهم عن اليونان لم يغنهم شيئاً لتحقيق أهدافهم التي كانوا يرومون تحقيقها . فقد أدخلوا على هذه الآلات الكثير من الإصلاحات كما اخترعوا جديداً للرصد والقياس وقد بلغوا بها حد الكمال وأخذتها عنهم أوربا وظلت تستخدمها حتى اخترع المنظار البعيد .

وحدث أن ابن ناصر الدين الذي كان رئيساً لمرصد المراغة زار يوماً ما هذا المرصد فاستولت عليه الدهشة من كثرة ما عاينه ورآه من آلات الرصد . ومن بينها آلة عبارة عن كرة مشتملة على خمسة أطواق لقراءة مواقع النجوم وهذه الأطواق الخمسة مصنوعة من النحاس وأول هذه الأطواق هو دائرة نصف النهار وكان مثبتاً في الأرض والثاني خط الاستواء والثالث سمت الشمس والرابع خطوط العرض والخامس الاعتدالان وقد شاهد ابن ناصر الدين علاوة على ذلك دائرة لقياس السمات وتعيينه . ومع مرور الزمن أخذت هذه الحلقات في الكبر وهي المستخدمة في هذه الكرة ذات الحلقات الخمس النحاسية وقد صنعها العرب كما وصفها بطليموس إلا أن المقاييس العربية كانت أدق وأضبط ، وقد بلغ قطر الحلقة النحاسية ثلاثة أمتار

ونصف المتر أو أكبر .

وللإنسان أن يتساءل الآن كيف استطاع العرب صناعة مثل هذه الحلقات العظيمة وهي تحتاج ولا شك إلى شيء كثير من الدقة والإتقان، فهل كان لدى العرب أجهزة تحول الدوائر إلى كرات أغني آلات خراطة وصناعة مثل هذه الحلقات النحاسية الثقيلة والتي كان يبلغ قطر الواحدة منها نحو خمسة أمتار وصنعها ابن قرقة حوالي عام ١١٠٠ في القاهرة وتطلبت الاستعانة بوسائل أخرى تشبه ولا شك آلات الخراطة الحديثة المستخدمة اليوم في أوروبا والتي توجد بها رقائق من الصلب قوية تدور وتقطع الحلقات .

ولما انتهى ابن قرقة من إعداد حلقاته الكبرى في القاهرة اعترض عليه السلطان قائلاً : لو صنعت حلقة أصغر من هذه لوفرت على نفسك جهداً كبيراً فأجابه ابن قرقة : لو استطعت أن أصنع حلقة طرفها عند الهرم والآخر يصل إلى الجانب الآخر من النيل لصنعتها إذ كلما زادت الآلات حجماً كانت النتائج التي يصل إليها الباحث أدق إذ ما أصغر آلاتنا إذا ما قيست بعظم الكون .

ولم ينجح العرب في صناعة الآلة ذات الحلقات والبلوغ بها فنياً مرتبة الكمال فقط . بل أضافوا إليها ثلاث حلقات يستطيعون بواسطتها عمل مقاييس الأفق فاستخدموا « الحداد » وهو الذراع المتحركة للقراءة تجنباً لعدم الدقة التي قد يقع فيها الباحث من جراء الاقتصار على استخدام الجهاز المعروف باسم ذات الحلقات . وزيادة في الرغبة في الحصول على قياس دقيق جداً اخترع العرب آلات جديدة أخرى تقوم على نظريات جديدة وملاحظات جديدة وتجارب جديدة وهذا الجهاز هو المعروف باسم السميت المربع وقد كان موجوداً في مرصد « مراغه » وهو من أحسن وأدق الآلات وقد ركبه جابر بن أفلح . وهذا الجهاز هو الخطوة الأولى التي مهدت لظهور الجهاز الحديث المستخدم في قياس المساحات والمعروف باسم « ثيودوليت » . وفي عام ١٤٥٠ تمكن الألماني « يوحنا مللر » أحد أبناء « كونيغزبرج » بإقليم « فرنكين السفلى » والذي كان يطلق على نفسه « رجيومونتانوس » من تقليد جهاز جابر وصنع جهازاً يشبه تماماً وأقامه في مدينة « نورنبرج » .

وفي نفس الوقت الذي كان فيه ناصر الدين الطوسي في شرق الدولة الإسلامية

يعمل في مرصد المراغة ويراقب النجوم ، كان يعيش ملك مسيحي في مدينة «بورجوس» في شمال إسبانيا ، وكان هذا الملك قد اقتنع تماماً بمقدرة المسلمين العلمية وتفوقهم ، ولم يتردد في الاستفادة من هذه العبقرية الإسلامية . فهذا الملك المسيحي الذي كان يقدر المسلمين وعبقريتهم العلمية ، المسلمين الذين كانوا أعداءه ، هو الملك ألفونس العاشر ملك قسطنطينيا وقد عرفه التاريخ تحت اسم الحكيم ولو أنه لم يشتهر بكياسة سياسته أو إلمامه بأطراف المعرفة أو الثقافة . وكل ما كان يمتاز به هو تقديره للثقافة الإسلامية وتبجيلها . وقد أولع بها حتى إنه أحبها حباً أفلاطونياً ولعل الناحية العلمية الإسلامية التي استولت على لبه بصفة خاصة هي نبوغ المسلمين في علم الفلك . هذا العلم الذي يكشف عن مقدرات البشر . والذي ينتقل بالإنسان من الأرض إلى السماء وفي الوقت الذي يكسب فيه الإنسان السماء ينحسر الأرض ، لذلك شغف هذا الملك جداً بعلم الفلك الذي أتقنه العرب ونبغوا فيه بينما كانت أوربا حتى ذلك الوقت تجهل هذا العلم جهلاً تاماً . أما هو — كما يأمل مستشاروه اليهود — فيجب أن يكون الأول الذي يشيد مرصداً في مملكته مثله في ذلك مثل خلفاء العرب وحكامهم بل يجب أن يكون مرصده أكبر وأن يزوده بالآلات وأجهزة أحسن وأكمل لكي يصير أكمل وأحسن مرصد في العالم . لكن لتحقيق هذه الغاية يجب عليه أن يستعين بالعلماء العرب أو اليهود الذين تخرجوا على الأساتذة العرب وأخذوا عنهم الكثير . لذلك أمر هذا الملك المسيحي بترجمة سائر الكتب العربية إلى اللغة القسطنطينية الدارجة وأسوة بما فعل العرب يجب أن تتركب وتقام أكمل وأدق حلقات في العالم .

لكن أوربا لم تكن حتى ذلك الوقت تشعر بهذه الحياة العلمية التي وجدت طريقها إلى قلب ذلك الملك المسيحي . هذا الملك الذي كان يفخر أيضاً بأنه يحمل لقب الملك الألماني ولو أن قدمه لم تغطأ أرض ألمانيا . وأخذ يبذل كل جهده في سبيل خدمة العلم ونشره في بلاده دون أن يحمل بين طيات قلبه بغضاً لأعداء بلاده أو عقيدته ، وإن ظلت مجهوداته مجهولة خارج بلاده ، ولما شيد « رجيومونتانوس » في منتصف القرن الخامس عشر في مدينة « نورنبرج » جهاز الحلقات مستأنساً بمواصفات بطليموس اتضح له أن هذا الجهاز لا يداني الجهاز العربي دقة وإتقاناً .

أما جداول ألفونس فقد كان حظها أحسن فهي في الواقع من وضع الفلكي العربي « الزركلي » الذي عاش قبل ذلك بنحو مائتي عام في طليطلة ، وقد ترجم الطبيب الملكي « دون أبراهام » كتابه إلى اللغة القسطنطينية فاغترف منه جميع فلكي أوروبا في دراساتهم فنحن نعلم أن « نيقولوس كوزانوس » قد اجتمع بأولئك الفلكيين عام ١٤٣٦ باحثين اقتراحاً لتعديل التقويم إلا أنهم لم يوفقوا وذلك لأن جميع الأسس الضرورية لمثل هذا العمل لم تكن متوافرة وبالرغم من تقادم الزيج الفلكية في ذلك الوقت إلا أنها ظلت هي المعتمدة حتى أيام « كوبرنيكوس » وكانت هي الأسس لحساب التقويمات السنوية ، وفي عام ١٥٥١ فقط قام الأستاذ « رينهولد » من مدينة « فيتنبرج » بمحاولته الناقصة وهي الاستعاضة عنها بزيجه البروسية .

ومن بين الآلات والأجهزة التي كانت في مرصد الملك ألفونس والتي أخذت عن الآلات والأجهزة العربية هذا العدد الكبير من الأسطرلابات المختلفة وأحسنها هو ذلك المعروف باسم الأسطرلاب الكروي (astrolobium redondo) كما عثر في هذا المرصد على آلة صغيرة في متناول اليد وسهلة الاستعمال وهي عبارة عن أسطرلاب وكانت أكثر تداولاً بين العرب من القطوع المخروطية . أما ذات الحلقات فكانت تستخدم في المرصد فقط بينما نجد هذه الآلة الصغيرة ، بمساعدة كبسولة معدنية ، تؤدي أجل الخدمات التي تؤديها اليوم لنا ساعة الجيب فبواسطتها يستطيع المسلم تحديد أوقات النهار ، فالصلاة والقبلة . كذلك كان من المستطاع بواسطة هذا الجهاز إجراء الحسابات الفلكية فكانت هذه الآلة التي أطلق عليها اليونان اسم ماسك النجوم أحب آلة توقيت عند العرب وأكثرها تنوعاً .

وبينما لم يستخدم اليونان الأسطرلاب إلا في استعمالين أو أكثر قليلاً إذا بنا نجد في كتاب الخوارزمي حول الأسطرلابات ذكر ثلاثة وأربعين نوعاً ، وبعد ذلك بزمان قصير نجد مؤلفاً آخر يذكر ما يقرب من ألف ويصفها وصفاً دقيقاً . وقد طور العرب الأسطرلاب وهذبوه كما استعملوه في مختلف الأغراض . وهناك نوع كروي من الأسطرلابات وآخر على شكل العدسة وثالث بيضاوي ورابع على هيئة بطيخة وخامس وكأنه عصا . والشئ الجدير بالذكر أنه يندر أن نجد فلكياً مسلماً

لم يعن بنبا الأسطرلابات واستخدامها ، وأقبلت أوروبا على هذا الأسطرلاب وأخذته ، ففي القرن العاشر الميلادي أحضر بعض طلاب العلم المتجولين أولى هذه الآلات الدقيقة ذكرى لدراساتهم الطويلة في الجامعات العربية ، وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر كتب ألماني كتابين حول فوائد الأسطرلاب ، والكتابان يفيضان بالاصطلاحات والآراء العربية .

ومؤلف هذين الكتابين النادرين كان الابن التعس للجراف السويبي « فولفراڨ » وقد أصيب هذا الابن الشقي عند ولادته بشلل الأطفال فلزم المحفة منذ طفولته ، وكان هذا الشلل الذي أصابه في عموده الفقري مؤلماً جداً حتى أصبح عاجزاً عن تحريك جسده دون مساعدة آخرين . ولما بلغ السابعة من عمره نقل هذا الطفل البائس « هرمان » إلى دير « ريشناو » حيث ظل به حتى بلغ الحادية والأربعين .

لكن بالرغم من هذا الجسم المريض كانت روحه وثابة طموحة مرحة حتى جعلت من « هرمان » المشلول أو كما سمي نفسه « هرمانوس كونتراكتوس » أشهر وأعلم أستاذ في الدير . والشئ الغريب حقاً أن هذا الشخص المشلول العاجز عن الحركة والتنقل أخذ يتأثر بالحضارة العربية تأثراً عظيماً ، ولا يعرف هل كان تفاعله مع العلوم العربية جاءه عن طريق بعض خريجي الجامعات العربية الذين كانوا يقيمون في دور الضيافة في « ريشناو » ومعهم بعض الآلات العربية العجيبة والأسطرلابات في أيديهم وكانوا يتفوهون ببعض الألفاظ العربية والاصطلاحات الفنية التي ترامت إلى سمع هذا المريض المشلول أو حصل عليها من طريق آخر ؟ وفي كتب « هرمان » نجد هذه العبارات وتلك الاصطلاحات العربية ولو أنها أحياناً غامضة مشوهة إلا أنها حية وإن ظلت غريبة على المطلعين على هذه الكتب .

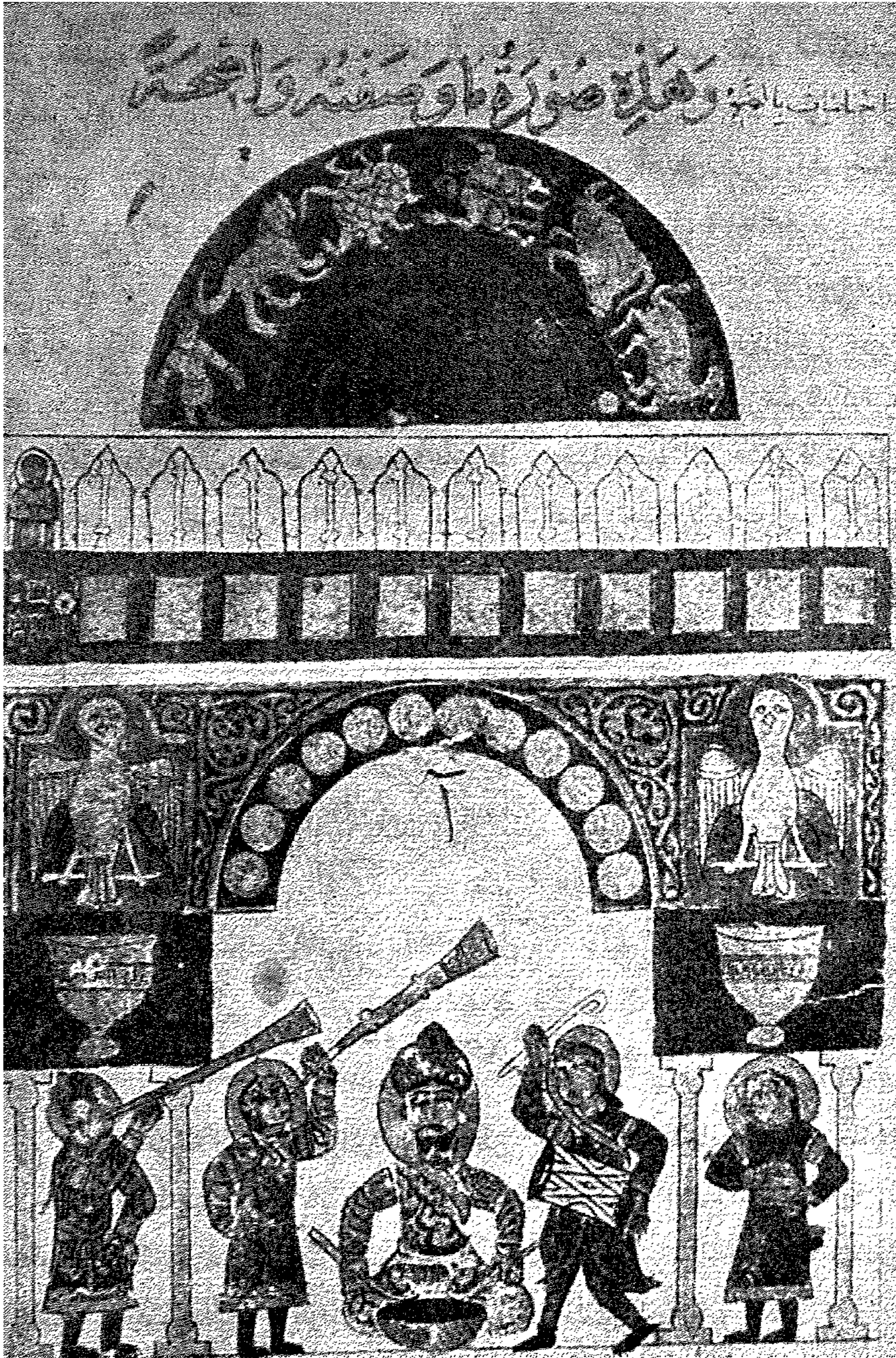
لقد وصف « هرمان » في كتبه الأسطرلاب وصفاً دقيقاً لكن أحداً لم يجرؤ ويركب آلة لقياس الزمن وإبان العصور المتتالية نجد استخدام الأجهزة الآلية إذ ظل العلماء المسلمون منهمكين في تركيب هذه الآلات وصناعتها وتصديرها إلى بعض أجزاء أوروبا المسيحية وعليها العناوين في اللغة اللاتينية . وفي القرن الرابع عشر فقط

استطاع العرب تركيب هذا الجهاز العجيب ، فالأسطرلاب لا يمتاز بتحديد الزمان والمكان فقط بل يؤدي خدمات جليلة جداً للبحارة في عرض البحار والمحيطات . وفي القرن السادس عشر ازدهرت الآداب والكتب التي اهتمت بالأسطرلاب وصناعته ، ولم يأت القرن الثامن عشر إلا وكان البحارة المسيحيون يعتمدون عليه اعتماداً كلياً في هداية السفن وتوجيهها وظل الحال كذلك حتى حلت محله أجهزة أخرى .

ولم يقف النشاط العقلي العربي عند هذا بل أقبل العرب على المزولة البسيطة لبطليموس وتفننوا فيها واخترعوا منها أجهزة أخرى جديدة مثل مزولة الحائط ومزولة السميت والمزولة الأخرى السهلة الحمل وغيرها من الآلات التي تجاوزت الثمانية عشر نوعاً . وكان البيروني يستخدم مزولة حائط قطرها سبعة أمتار ونصف المتر وهي مزولة أقل بكثير من تلك التي كانت موجودة في مرصد « أولوغ بيك » إذ يبلغ قطرها أربعين متراً . وصنع العرب نوعاً جديداً أيضاً وهو المعروف باسم ذات السدس ، وهي آلة بصرية ذات مقياس مدرج على شكل قوس دائري طوله سدس محيط الدائرة تستعمل لقياس الأبعاد « ذات الزوايا » ، كما اخترع العرب « ذات الثمن » « الثنية » . وفي أول مرصد بأوروبا وهو أورانيبرج لتشيوبراها في جزيرة « هفين باوست زيه » نجد الأجهزة العربية كذلك . وهي أول أجهزة قدمها العرب لأوروبا وذلك بفضل هرمان ابن الجراف السويبي .

وللعرب أيضاً يرجع الفضل في اختراع الساعات الشمسية التي استطاعوا بواسطتها تحديد وتعيين أوقات النهار بمساعدة النظرية الكروية للمثلث والجدول الذي كان يبين موقع الشمس . وخير ما اخترعوا في هذا الموضوع ساعة شمسية متحركة أسطوانية الشكل ، وهذه الساعة الشمسية السفرية قد وصلت أيضاً إلى دير « ريشناو » حيث يعيش « هرمانوس كونتراكتوس » واستطاع هو أن يصف تركيبها وصفاً دقيقاً ، وقد تدفقت قطع من هذه الساعات السفرية فيما بعد على أوروبا .

وعند تركيب الساعات الشمسية لعب الخيال العربي كثيراً ، وبخاصة في الساعات التي تتحرك بواسطة الماء أو الزئبق أو الشموع المتقدة أو الأثقال . فقد اخترع الساعاتية العرب ساعات شمسية بالطيار ، فهم تحدث قديماً ، حاضراً عندما



صورة وصف شخص معاصر لساعة الجزري (حوالي عام ١٢٠٠ م) وبها برج فلكي متحرك وشخص متحركة تبين الساعات وصقران يلقيان كل ساعة بحلق في كأسين بينما يقرع شخص الضاربين على الطبول طبولهم وينفخ الموسيقيون في آلاتهم

تبلغ الساعة الثانية عشرة ظهراً . والساعات المائة التي تلي عند كل ساعة كرة في حوض معدني . ثم نجد قرصاً وعليه الأفلاك وعندما يتحرك القرص تظهر الكوكبات أو عند تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً نجد في هيئة نصف دائرة شبابيك يضيء كل منها عقب الآخر بينما يمر بها هلال . وفي عام ٨٠٧ م أهدى عربي وهو رسول هرون الرشيد واسمه عبد الله القيصر شارلمان في « إكس لاشبل » ساعة من هذا النوع : الساعة كانت من المعدن : هكذا يذكر مؤرخ القيصر واسمه « إينهرد » في مذكراته « وكانت مركبة بطريقة عجيبة فنية جداً . ساعة مائة تبين اثنتي عشرة ساعة زمنية ، وعندما تبلغ الساعة الثانية عشرة تكون قد سقطت اثنتا عشرة كرة ، وعن طريق سقوطها ين مضرِب متصل بآخرها ، وفيها أيضاً اثنا عشر فارساً وفي نهاية الساعة يقفز الفرسان من اثني عشر باباً وبعد قفزهم تغلق الأبواب التي كانت مفتوحة من قبل . لكن الشيء الذي يثير العجب حقاً في هذه الساعة لا أستطيع الحديث عنه لأن الحديث عنه يتطلب زمناً طويلاً . . . »

واليوم يستولي علينا العجب عندما نقف أمام دار بلدية ونسمع دقات الساعة ونرى قرصاً يتحرك وشخصاً لا تستقر في مكان كما فكر العرب من قبل ووجدوا لذة في مثل هذه الصناعة .

الابن الثاني لموسى « الفلكي »

لم يتسلم العرب التراث اليوناني دون تفكير بل أخذوه وخلقهو خلقاً جديداً وهذا حقيقى أيضاً فيما يتصل بالآلات العلمية وكذلك مختلف العلوم الأجنبية إذ لم يكد العرب يتسلمون هذا التراث العلمى حتى أقبلوا عليه ناقدين فاحصين لا مؤمنين مستسلمين لما وصل إليه غيرهم من نتائج لينوا بعد ذلك على أساس سليم .

ويمتاز التفكير العربى بأنه لا يتقبل المسائل العلمية كحقائق مسلم بها ما لم يفحصها ويطبقها حتى مؤلفات أرسطو أو بطليموس فقد عرضوا لها ناقدين فاحصين فأصبحنا نجد مؤلفات تحمل ما معناه : حول الخطأ الذى وقع فيه « ثيون » عند

حسابه الكسوف والخسوف : أو : حول اختلاف جداول بطليموس من التجارب التي قام بها ثابت بن قرة (١) .

إن طبيعة العربي الواقعية دفعت العرب إلى إبداء ملاحظاتهم الخاصة ، فإذا كان اليونانيون ينظرون إلى كل شيء على أنه كل وينخضعونه إلى قانون ما فإن العربي ينظر إلى الشيء على أنه سؤال ويحاول الإجابة عليه لا مرة واحدة بل مرات ومرات ومئات باحثاً فاحصاً . ولما كان الشيء الذي يهم العربي هو الناحية العملية والمواظبة على تأدية الصلاة في ميعادها أو اللحظة التي يظهر فيها الهلال أعنى هلال رمضان والاتجاه في الصحراء والحياة والموت حرص العربي على الحصول على النتيجة الحقيقية الصحيحة ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لليونان الذين لا يهتمون بالدقة المطلقة كما قد يهربون من مراعاة الحساب الدقيق .

ثم إن مشاهدة السماء ودراستها ضرورة لا بد منها للمسلم لتأدية التزاماته اليومية لذلك اهتم المسلمون بعلم الفلك ومن ثم تقدموا في صناعة الآلات والأجهزة وكانت النتيجة المحتومة لكل ذلك بلوغ نتائج علمية عظيمة في إدراك كنه الشمس والقمر وسائر الأفلاك . ولم يقتنع الفلكي العربي بدراسة الزيج البطلمية بل ذهب بعيداً فنقدتها ووضع زيجه العربية وحتى هذه أعيدت دراستها ونقحت للتثبت من صحتها . وساهم الخلفاء والحكام والأمراء في تقدم علم الفلك فأجزلوا العطاء للفلكيين وأوقفوا الأموال الطائلة بل كفّلوا حياة العالم وأسرتة لا إبان حياته فحسب بل بعد وفاته أيضاً وذلك لأن مثل هذه البحوث الفلكية كانت تطلب سعة في الرزق وسعة في الزمن .

وأشهر الزيج الفلكية العربية وجدت طريقها إلى أوروبا وظلت مستعملة فيها حتى ظهور عصر « كوبرنيكوس » إذ أصبح من العسير استخدامها للقيام بالأرصاد المختلفة . أما زيج الخوارزمي والمأمون والبتاني وجداول ابن يونس المعروفة باسم الحاكمية والطيبلية للزركلي فهي التي كانت أساساً لزيج الملك ألفونس .

أما الأهمية والنتائج التي بلغها وتوصل إليها العلماء العرب في الطبيعة والفلك

(١) تقصد المؤلفة كتاب : قول في إيضاح الوجه الذي ذكر بطليموس أن به استخراج من تقدمه مسيرات القمر الدورية وهي المستوية لأبي الحسن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٢٨٨ هـ . مخطوطة بدار الكتب المصرية ١٠٤٧ سيقات (المترجم) .

فكانت مضرب الأمثال فعلماء الفلك في بغداد كما يقول الفرنسي « سديلوت » بلغوا في أواخر القرن العاشر مرتبة من العلم ليس بعدها من مزيد ، لقد أدركوا ما كان يجب على العالم إدراكه قبل العدسات والمنظار ولعل السر في عدم وصول مؤلفات كثيرة من وضع علماء العرب إلى أوروبا هو عدم ترجمة جميع مجلدات المكتبة العربية إلى اللاتينية . ومن أشهر علماء العرب الذين دفعوا الحركة العلمية في أوروبا إلى الأمام وطوروها هو العالم العربي الفرغاني وكان معاصراً لبني موسى الذين كانوا يعملون في بغداد . لقد قاس الفرغاني خطوط طول الأرض وأدرك ، وكان أول من أدرك ، أن فلك الشمس كسائر أفلاك الكواكب يتحرك مع مرور الزمن إلى الوراء ، فكتاب الفرغاني في أصول علم النجوم قد ترجم في العصور الوسطى في أوروبا إلى اللاتينية ونشره « ميلنختون » عام ١٥٣٧ م وكانت هذه المخطوطة من مخلفات « رجيومونتانوس » في « نورنبرج » .

ومن بين العلماء المشهورين الذين تلامذاً نجمهم في الفلك ثابت بن قرة تلميذ محمد بن موسى فقد حسب ثابت هذا ارتفاع الشمس وطول السنة الشمسية ، وغير ثابت بن قرة نجد البتاني (٨٨٧ - ٩١٨ م) وقد ذاع صيته في أوروبا في العصور الوسطى وإبان حركة إحياء العلوم . وقد بلغ ما بلغ من توفيق عن طريق دقته الحسابية لمعرفة التفاوت بين خطوط الطول للستين المدارية والفلكية وعاونه على بلوغ هذه النتائج قياسه دوران الأرض حول الشمس وقد استخدم لتحقيق هذه الغاية وسيلتين ولم يكتف بواحدة لقد صحح أبحاث ومحاولات الخوارزمي بواسطة تجاربه التي قام بها لفحص ظهور الهلال وكسوف الشمس وخسوف القمر والزوايا الواقعة بين خطين يكونان زوايا متقابلة أما المقدمة الفلكية لزيجه المشهورة فقد ترجمها « رجيو مونتانوس » إلى اللاتينية وزودها بشرح . وفي عام ١٥٣٧ نشرها في « نورنبرج » مع كتاب الفرغاني فعرفتها أوروبا . وفي عام ١٦٤٥ ظهرت طبعة جديدة في « بولونيا » مستقلة وعنوانها اللاتيني « كتاب محمد البتاني في الفلك مع تعليقات يوحنا رجيو مونتانوس » . وقد اهتم « كوبرنيكوس » بالعلماء العرب وحتى حوالي عام ١٨٠٠ م نجد الفرنسي « لابلاس » يستفيد من كتب ابن يونس القاهري في دراساته وأبحاثه .

وقد قام البتاني كذلك بوضع حساب دقيق لدائرة البروج واستخدم وسائل

جديدة لتحديد عرض المكان ، وجاء بعده ابن الهيثم فتوصل إلى طرق أخرى حديثة وذلك بفضل نظريته الخاصة بالأشعة وانكسارها هذه النظرية التي كانت نقطة تحول في أبحاث العالم في الطبيعة وبخاصة الضوء ^(١) .

والحسن بن الهيثم (٩٦٥ - ١٠٣٩ م) هو الذى أثر في أوروبا تأثيراً بعيداً وعرفته تحت اسم « الحسن » وكان أشهر الأساتذة العرب الذين أخذوا بيدها في هذا المضمار من البحوث ، فقد وضع نظرية حول حركات الأفلاك على أطباق غير شفافة وقد شغلت هذه النظرية العصور الوسطى كثيراً كما خلفت لنا أثراً في المكان الخاص بـ « شتم » بالقرب من مدينة « إيتزبروك » حيث توجد إلى اليوم مائدة من خشب القرو ترجع إلى عام ١٤٢٨ م وقد صنعت في « أوجسبرج » وهى تبين حركات الأفلاك الستة حسب نظريته وفي صورة نموذجية .

لكن شهرة هذا العالم العربى لم تقم على هذه النظرية فقط ففضله على الفلك يتجلى في اكتشافه أن جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها . عدا القمر الذى يستمد نوره من الشمس . وهذه النتيجة التى انتهى إليها ابن الهيثم نقلته إلى فكرة أخرى جديدة أدت إلى ثورة عارمة في علم الفلك فقد عارض ابن الهيثم العالمين الإسكندرانيين « أويقليد » و « بطليموس » فأثبت خطأ نظريتهما وبذلك نجح في فرض آرائه الجديدة .

والمستول عن هذا كله كان نهر النيل والآراء التى قال بها خاصة بالفيضان السنوى واستغلالها في سبيل خدمة وادى النيل . لقد عاش ابن الهيثم كطبيب وموظف بالقصر في البصرة على الخليج العربى عندما علم في القاهرة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بأن رجلا على استعداد لأن ينظم فيضان النيل وبذلك يحل مشكلة من أعوص المشاكل التى تشغل بال سكان الوادى فاستدعى الخليفة هذا العالم من البصرة إلى القاهرة وعند وصوله استقبله الخليفة كعادته استقبال الملوك وقدم له مختلف الوسائل لتحقيق أهدافه . فسافر ابن الهيثم ومعاونوه حتى بلغ أعالي النيل ومن ثم شرع في دراسة حالات النهر وتياراته في أسوان وغيرها من جهات النيل ، وكان ابن الهيثم أنى

(١) تقصد المؤلف كتاب : المناظر تأليف أبى الحسن بن الحسن بن الهيثم البصرى المصرى المتوفى

سنة ٤٣٠ هـ (المترجم) .

ينتقل يشاهد من الآثار المصرية الفرعونية ما أثار دهشته وتقديره ، فقد شاهد المعابد والمقابر وغيرها من الآثار التي ترجع إلى آلاف السنين فالمعابد شامخة والأهرامات قائمة فأمام هذه الأبنية الشاهقة التي تشهد بتفوق قدماء المصريين هندسياً وفنياً لم يسعه إلا أن يعترف بعظمة هذا الشعب المصرى العظيم والذي كان من المهارة الهندسية بحيث خلق هذه المعجزات . وبالرغم من ذلك لم يحاول تنظيم الفيضان فلا بد أن هذا التنظيم من الأمور المستحيلة لذلك خجل ابن الهيثم وعاد يائساً قانطاً إلى القاهرة فأثار فشله هذا سخط الحاكم وسخريته فعين ابن الهيثم في وظيفة إدارية لم تدخل إلى نفسه شيئاً من السرور وشاء سوء طالعاه أن يرتكب خطأ وخشى غضب الحاكم وتنكيله به فتظاهر بالجنون ونجحت هذه الحيلة فحدد الخليفة إقامته في داره وضربت الحراسة عليه وعلى بيته واستولت الحكومة على ممتلكاته . وحدث أن الخليفة خرج مرة ممتطياً جواده ولا يعلم بخروجه أحد وعندما بلغ أبواب القاهرة اختفى ولم يعرف له أثر فكان اختفاؤه لغزاً من الألغاز وبذلك استطاع ابن الهيثم أن يتحرر من تحديد إقامته وفرض الحراسة عليه وتأمين ممتلكاته فترك سكنه واتجه إلى

حي الأزهر حيث أقام هناك واضطر أن يكتسب قوته عن طريق النسخ ، وهكذا قضى هذا الرجل التعس حياته حتى توفي . وقد كلفه بعضهم مرة أن ينسخ له مبادئ أويقليد والماجسطى لبطليموس فنسخهما بدون خطأ وفي غاية الدقة ليستطيع أن يتغلب على متاعب الحياة ويحصل على قوته اليومي . ومن الجدير بالملاحظة أن ابن الهيثم أدرك الأخطاء التي تردى فيها هذان العالمان فعارضهما وانتقدهما وبين أخطاءهما . فقد قال كل من أويقليد وبطليموس أن العين ترسل « أشعة بشرية » على الأشياء المراد رؤيتها فأعلن ابن الهيثم خطأ هذا الرأي وقال إن العين لا ترسل شعاعاً وإن هذا الشعاع ليس هو الذى يسبب الرؤية والعكس هو الصحيح فإن الجسم المرئى هو الذى يرسل أشعة إلى العين وإن عدسة العين هي التي تحوله .

وكان هذا الرأي لابن الهيثم كشفاً جديداً قفز بالعالم العربى بنحواس قفزة بعيدة جداً وصحح الخطأ الذى وقع فيه العالم القديم وفسر لنا ابن الهيثم الضوء ومظاهره كما أوجد بذلك قانوناً جديداً أثبت صحته وأيده بتجارب كثيرة مختلفة فكان ابن الهيثم هو صاحب النظريات العلمية المعتمدة على التجارب وابن الهيثم هو

وامثاله من العلماء العرب هم مؤسسو الأبحاث التجريبية وليس « روجر بيكون Roger Bacon » أو « باكوفون فرولام Baco von Verulam » أو « ليوناردو ده فينشي Leonardo de Vinci » أو « جليلي Galilei » فالعرب سبقوهم وبلغوا بأبحاثهم التجريبية المستوى الرفيع وأصبح اسم الحسن بن الهيثم هو همزة الوصل وهو النجم الذي أضياء الطريق ومهد لقيام الأبحاث الحديثة بعد أن سبق أوربا إليها . فابن الهيثم هو الذي استغل الزمن الذي مضاه مختاراً في سجنه، كما استغل أيضاً الأعوام التي تلت خروجه وقام بأبحاثه العلمية وتجاربه الخاصة بالبصريات الهندسية فخلق بذلك علماً مستقلاً .

وكيف يقع خسوف القمر إذا كان القمر جسماً غير مضيء ؟ وأنه يستقبل ضوءه من الشمس ؟ فمثل هذا السؤال الفلكي دفع ابن الهيثم إلى خلق نظرية خاصة بتكوين الظل عن طريق أجسام نورانية ومن هنا أوجد رأيه الخاص بمصادر الضوء . وأخذ يقوم بمختلف التجارب وأوجد دراسة خاصة بطبيعة إلقاء الظل كما أطلق هو نفسه هذه التسمية على بحثه هذا . وأول تجربة قام بها هي الخاصة بجهاز يشبه تقريباً آلة التصوير وبها ثقب . وكانت هذه الآلة هي النموذج الأول لآلة التصوير وقد أثبت ابن الهيثم عن طريق هذا الجهاز استقامة خطوط الضوء . ولم يكذب يصدق عينيه عندما شاهد العالم وقد أصبح أسفله أعلاه بمجرد وضع الصورة وضعاً عكسياً . إن التجارب التي توصل بمقتضاها ابن الهيثم إلى هذا الفتح العلمي الجديد هي بعينها التي اهتدى إليها « ليوناردو ده فينشي » فيما بعد . لقد وجد ابن الهيثم تعليلاً لكسر الإشعاعات عندما تمر خلال وسيط مثل الهواء أو الماء واعتماداً على هذه الظواهر وتلك الحقائق استطاع ابن الهيثم معرفة ارتفاع الطبقة الهوائية المحيطة بالكرة الأرضية، والشئ الجدير بالذكر حقاً أن ابن الهيثم توصل إلى معرفة ارتفاع هذه الطبقة تماماً وأنها خمسة عشر كيلو متراً . ولم تقف أبحاث ابن الهيثم عند هذا، بل امتدت إلى هالة القمر والغسق وقوس قزح، ونحن نعلم أن أرسطو قد فشل عندما حاول في شرحه تحليلها التعليل العلمي . وذهب ابن الهيثم بعيداً فطبق معلوماته على أجهزة البصريات فدرس وحسب الانعكاس في قطاع المرآة الكروية أو المخروطية أعنى الإشعاعات المتوازية التي توجد في نقطة الاحتراق ، كما اهتدى أيضاً إلى قوانين

تركيب كشاف الضوء كما فحص أثر الحرق وتكبير المرئيات لا عن طريق المرآة المقعرة فقط بل عن طريق الزجاج الحارق والعدسة ، وبذلك استطاع ابن الهيثم عمل أول نظارة للقراءة .

وقد تجلت عبقريته النظرية والتجريبية في فحصه الخاص الذي قام به على سير الشعاع في داخل كرة وقد استخدم هذه التجارب ذاتها شارحه العبقرى « كمال الدين » بعد ذلك بقرنين^(١) .

أما أثر هذا العربى العبقرى على أوربا والأوربيين فعظيم جداً ؛ فنظرياته في الطبيعة البصرية ما زالت مسيطرة حتى اليوم على أوربا فعلى أبحاث ابن الهيثم الخاصة بالبصريات تعتمد جميع الأبحاث الحديثة منذ ظهور الإنجليزى « روجير بيكون » حتى البولندى « فيتليو » . ويدعى الإيطاليون أن « ليوناردو ده فينشى » هو مخترع المصورة ، والمضخة ، والمخرطة وأول طائرة ، والواقع أن جميع هذه المخترعات تعتمد على أبحاث واختراعات الحسن بن الهيثم كما تؤيد ذلك الأدلة الكثيرة الموجودة بين أيدينا . ففى ألمانيا عندما بحث « يوحنا كبلر » فى حوالى القرن السادس عشر القوانين التى اعتمد عليها « جليلى » فى عمل منظاره الذى شاهد به نجوماً لم تر من قبل ، أدرك أن خلف هذه الأبحاث يقف الحسن بن الهيثم فحتى يومنا هذا تعرف المسألة المعقدة المتصلة بالإلمام بالطبيعة والرياضة معاً والتى حلها الحسن بن الهيثم عن طريق معادلة من الدرجة الرابعة وأظهرت هذه المسألة نبوغه الرياضى فى الجبر ، إذ حسب النقطة الموجودة فى مرآة مقعرة وعلى بعد خاص منها جسم يعكس على صورة خاصة حساباً صحيحاً ، باسم مسألة الحسن .

نعم إن العرب اعتمدوا عند مشاهداتهم للقمر على العين المجردة فقط وهذا مما يثير الدهشة حقاً لكن الأعجب من كسب هذا إدراكهم ومشاهدتهم للنقط الضوئية ، فقد أحصى « هيبارش » أكثر من ألف نقطة ضوئية وعين أماكنها فى السماء وفى منتصف القرن العاشر الميلادى تجرأ فى بغداد عبد الرحمن الصوفى

(١) إن الكتاب الذى تعنيه المؤلفه هو : تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر تأليف كمال الدين بن الحسن الفارسى . من علماء القرن الثامن الهجرى . وقد اختصر فيه كتاب « المناظر » لابن الهيثم (المترجم) .

(٩٠٣ - ٩٨٦) ووضع تنقيحاً لفهرس نجومه . فالذى حدث أن السلطان عضد الدولة أمر بتشيد مرصد في حديقة قصره حيث كان فلكى القصر يراقب السماء كل ليلة ويرصد نجومها ويحسبها ويسجل خطوط طولها وخطوط عرضها في السماء . وفي إحدى الليالي بينما كان يراقب السماء تنبه إلى وجود عدد من النجوم الثابتة التي غابت عن بصر « هيبارش » لذلك اضطر الصوفى وهو يعلم أميره إلى رسم الأماكن التي حسبها من جديد كما بين أحجام النجوم الثابتة وذكر إلى جانب كل كوكب ، قدر الإمكان ، درجة الإضاءة . وبذلك وضع لنا الصوفى فهرساً للنجوم قد خلا من الأخطاء التي كانت شائعة ومتداولة منذ عهد « هيبارش » و « بطليموس » كما أضاف إلى الفهرس القديم أسماء الكواكب الجديدة التي كانت مجهولة ، كذلك أدرك الفلكيون العرب أن تغيرات كثيرة في الظواهر التي اعتقد المتقدمون ، اعتماداً على أسباب قد تكون خيالية ، أنها غير قابلة للتغير وثابتة . إلا أن العرب بفضل صبرهم وأناةهم في أبحاثهم ومشاهداتهم أدركوا أن هناك فوارق دقيقة فثلا ميل سمت الشمس أعنى زاوية مدار الشمس تجاه خط الاستواء هذه الزاوية التي حسبها العرب بدقة فائقة حتى الثانية ، تأخذ تدريجياً في التناقص . وأول من تنبه إلى هذا هو الفلكى العربى الفرغانى . والعرب أيضاً هم أول من لاحظ تحرك أقصى بعد بين الأرض والقمر أو بعد الأرض عن الشمس هذا البعد الذى يقال إن اليونان كانوا يقدرونه دائماً على خط طول واحد .

والحقيقة التي يجب الاعتراف بها أن اليونان لم يمتازوا بصبر العرب ومهارتهم ولو أن العرب تتلمذوا عليهم ، فنحن نجد الزركلى (١٠٢٨ - ١٠٨٧) يسجل في طليطلة ما لا يقل عن أربعمئة واثنين ملاحظة ، فهو يقرر أن بعد الشمس عن الأرض يتغير حسب تقدم الليل والنهار إلى الاعتدالين أو المدار الشمسى وأن هذا البعد يتوافق تماماً مع الاعتدالين . وقد نجح الزركلى كذلك في حساب زمن ودقة الاعتدالين وكان توفيقه في هذا الحساب عظيماً جداً .

أما الكتاب الفلكى الذى وضعه الزركلى فقد ترجمه إلى اللاتينية « جرهرد فون كريمونا » وقد ذكره عام ١٥٣٠ « كوبرنيكوس » مع البتانى في كتابه المشهور (Derevolutionibus orbium coelestium) ، والفلكى الطليطلى الشهير الذى

تتلذت عليه أوربا وعرفته تحت اسم « أرزاكيل Arzachel » ،
(الزركلى) فهو من بين الأساتذة العرب الذين أخذت عنهم أوربا الشيء
الكثير . ولم يشتهر الزركلى بالفلك فقط بل بتركيب الآلات أيضاً فهو الذى صنع
الجهاز الذى مدحه « رجيومونتانوس » وقال عنه ما معناه إنه أحسن جهاز وهو عبارة
عن أسطرلاب الزركلى ، وقد لاقى هذا الأسطرلاب شهرة عظيمة تتفق ومكانة
الزركلى الفلكية . فى القرن الخامس عشر نشر « رجيومونتانوس » مجموعة من
الرسائل حول هذا الأسطرلاب .

وفى عام ١٥٠٤ كتب الفلكى البافارى « يعقوب زيجلر » شرحاً لرسالة الفلكى
الطليطلى وفى عام ١٥٣٤ ظهرت ترجمة لاتينية وضعها « يوحنا شونر » فى نورنبرج
وترجمة عنوانها « النظرية التى ظهرت حديثاً حول أسطرلاب الفلكى الزركلى » .

وقد اهتم بالمسائل الطبيعية والنجوم والفلك أيضاً مواطن من مواطنى ابن الهيثم
وهو لا يقل عنه شهرة وأعنى بذلك المواطن « الكندى » وقد توفى عام ٨٧٣ م واشتهر
فى أوربا شهرة عظيمة وقد سمي فيما بعد باسم فيلسوف العرب ووضع نحواً من مائتين
 وخمسة وستين كتاباً فى مختلف أنواع العلوم ومن بينها بحث حول تقهقر الأفلاك واللغز
الأول لعلم الفلك ، وقد حاول اليونانيون معالجة هذا الموضوع فلم يهتدوا إلى نتيجة حتى
جاء العالم العربى البطروغى الأندلسى وتوصل إلى الحل كما أنه نقض نظرية بطليموس
الخاصة بانحراف الأفلاك والدوائر التى ليس لها مركز مشترك ، وبذلك مهد الطريق
للعالم « كوبرنيكوس » . أما كتاب البطروغى فى الهيئة فقد ترجمه « ميخائيل
سكوتوس » عام ١٢١٧ وهو فلكى القيصر فريدريش الثانى إلى اللاتينية .

والكندى هو أول من استخدم الفرجار لقياس الزوايا فى الهندسة كما حسب
أثقال بعض السوائل الخاصة وأجرى عدة تجارب على الجاذبية وسقوط الأثقال ،
أما كتابه حول سقوط الأجسام من أعلى فلم يحظ بمن يترجمه إلى اللاتينية ، كذلك
الحال مع نظرية الذرة التى وضعها عام ١٠٠٠ م الطبيب القاهرى على بن سليمان ،
وقد عالج فى رسالته الذرية هذه مسألة إمكانية تقسيم الجسم إلى جزيئات وهذا
التقسيم لا ينتهى وأن الإنسان لا يصل إلى نتيجة من جسم غير قابل للتجزئة . .

كذلك لم تلتفت أوربا إلى ملاحظات العرب المتعلقة بالبقع الشمسية والتى

تنهت إليها أوربا عام ١٦١٠ م فقط ، وما يقال عن البقع الشمسية يقال أيضاً عن
ذبذبة محور الكرة الأرضية ولو أن الناس لا يشعرون بها نظراً لكبر الأرض .

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن أوربا لم تلتفت إلى رأى البيرونى الذى نادى به
حوالى عام ١٠٠٠ م (٩٧٣ - ١٠٤٨ م) وهو الخاص باعتبار الشمس مركز
الكون من وجهة النظر الفلكية ، وقد توصل إلى هذا الرأى من قبل « أريستارخ »
أحد أبناء مدينة ساموس وتوصل إليه بعد ذلك بقرن « سليكوس » الكلدانى البابلى .

ولإبان عصر إحياء العلوم ظهر العبرى الألمانى (كوبرنيكوس) وقبله بنحو خمسة قرون
عرفه العالم العربى البيرونى . فليست الشمس هى سبب الليل والنهار بل الأرض نفسها
هى التى تدور حول محورها والشمس تجرى مع الأفلاك والحقيقة أن جميع الذين
تجرأوا على نقل الشمس من موضعها سيظلون مدى الحياة بمعزل عن الوجود
لا يفهمون أحداً ولن يفهمهم أحد ، لذلك ما أعجب التناقض الذى نادى به
« كوبرنيكوس » حتى اضطهدته أوربا المسيحية ونكلت به أشد التنكيل لأنه خالف
تعاليم الكنيسة ورفض كلمة الكتاب المقدس . لكن إذا استثنينا هذه المعارضة سواء
كانت علانية أو سرية فالعالم « كوبرنيكوس » لم يكن هو أو الفلكيون الآخرون
فى وضع - وهم على ما هم عليه من أجهزة رصد لا يوجد بينهما منظار مجسم - يسمح لهم
بإثبات صحة آرائهم المناقضة للدين ، لذلك كان لابد من مرور أكثر من قرن على
هذه الآراء لكى تفرض نفسها ويقبلها جمهور المفكرين . وما حدث لهؤلاء حدث
من قبل للبيرونى عندما جاء برأيه وذلك لعدم وجود الأجهزة التى تمكنه من إثبات
صحة رأيه . وهكذا ظلت الأرض ثابتة فى المكان الذى خصصه لها « هيبارش » فى
قلب الوجود ، وحتى العرب الذين جاءوا بعده والذين اشتهروا بدقتهم الفلكية فى
مشاهدة الأفلاك ورصدها وخطوا بالعلم خطوات أبعد من تلك التى قام بها
« هيبارش » عجزوا عن زعزعة الآراء الخاصة بالعالم .

وحتى القرن الثانى عشر نجد الشكوك موجودة فى آراء بطليموس الخاصة بالكون ،
لكن فى الشرق العربى وبخاصة فى إسبانيا ومراكش نقرأ كثيراً من الآراء التى
تشكك فى أقوال بطليموس وكان هؤلاء الناقدون متأثرين بآراء أرسطو . وهكذا نجد
ابن باجة من سرجوسة يبدأ ببحث فكرة الاعتماد على البراهين الطبيعية للمظاهر

السمائية . واستمر هذا النزاع بين أنصار أرسطو وأتباع بطليموس مستعراً بين أفراد مدرسة ابن باجه طيلة ثلاثة أجيال وبخاصة بزعامة أمثال ابن طفيل وابن رشد والبطروغى واستمرت الحصومة مستعرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وخلقت مناظليين أمثال « ألبرت الأكبر » و «توماس فون إكوين» و « روجر بيكون » و « جان بوريدان » و « ديتريش فون فريبورج » وكان من نتائج المعركة العلمية بعث الوعي التفكيري في أوروبا .

الابن الثالث الرياضى

أهم من خطوات التقدم التى خطاها علماء العرب بالعلوم ، وأهم من الاختراعات التى توصلوا إليها اعتماداً على رصدهم للكواكب . خلقهم لهذا الجيل العلمى الذى قدموه لأوروبا .

لقد كانوا أساتذة الرياضيات بخلاف الرومان الذين لم ينتجوا شيئاً فى هذا الحقل اللهم إلا هذا النذر القليل جداً ذا النتائج التافهة واختلاساً بينما نجد النبوغ الرياضى اليونانى يكاد يقتصر على الهندسة ونظرية المساحات حتى إنهم أسدلوا على ما يعرف فيما بعد بعلم الجبر ستاراً هندسياً . كذلك الهنود فقد مهروا فى الحساب كما عالجوا حساب المثلثات اليونانى جبرياً وحسابياً . أما العرب فقد امتازوا بالجمع بين عظم العدد وعظم المساحة وهذه هبة امتاز بها أصغر أبناء موسى ألا وهو « حسن » وبفضل هذا الاستعداد خلق العرب فروعاً جديدة من العلوم كما طوروا غيرها تطويراً تقديمياً عظيماً ففاقوا بذلك اليونان والهنود ، لذلك فالعرب وليس اليونان هم أساتذة أوروبا فى النهضة العلمية الرياضية ، وساعدتهم على النهوض بهذه الرسالة الأعداد الهندية ، فقد خدمهم الحظ إذ عرفوا فى ذلك الوقت الأعداد الهندية كما أدركوا أهمية استخدام هذه الأشكال الصغيرة التى تزين كتاب « كنهاه » إلى إعجابهم بها والحرص على الاستفادة منها بالرغم من غرابتها عليهم . ففى معاهد الإسكندرية وسوريا كانت هذه الأعداد معروفة منذ زمن طويل دون أن تنال

اهتمامهم بخلاف العرب وعقليتهم الرياضية فقد أدركوا في ذلك الوقت أين وكيف يستخدمونها أعداداً ورياضة ، وبذلك نجح العرب في الاستفادة من هذه المادة الجديدة وفي فترة قصيرة أصبحت جهازاً طبعاً للإفادة منه .

فكل تركيب حسابي وكل عملية حسابية فلكية سواء كانت معقدة أو سهلة أخذت تعتمد على الأعداد ، وأقبل العربي مسروراً على كل عملية حسابية ثم إن بعض التخطيطات الخاصة بالآلات الفلكية والتي لم تستخدم من قبل تناولها العربي إشباعاً لذته الشخصية الحسابية ، نعم إن التفاني في العناية بأجمل أنواع النظام أعنى الحساب قادهم إلى إتقان المسائل الحسابية التي حار فيها علماء العالم القديم فلم يجدوا لها حلاً .

إن مثل هذا الرأي قد يعتبر مفاجأة ، وذلك لأن لفظ « أريثماتيك Arithmentik » لفظ يوناني ومعناه لذة الاهتمام بالأعداد لكن هذه العملية والاهتمام بالأعداد بالنسبة لليوناني المتأمل عملية كمالية . فلما استيقظ الطفل وأدرك سر الأعداد والحساب . اهتم بنظريات الأعداد ورمزية الأعداد والأعداد الزوجية والفردية وغيرها لكن ليس بهذا النوع من الحساب الذي يهتم التاجر في السوق . أما الحساب التجريبي العملي والذي نعرفه اليوم كفن حساب احتسبه اليوناني فيما بعد في هذا النوع الذي يعرف باسم تعبئة الحيوش .

لقد كان هذا هو العلم المفضل عند الهنود . والهنود هم الذين خلقوه . ولكن كيف كان هذا ؟ وكيف أصبح من الممكن البدء به ؟ إن الهنود لم يدونوا فقط دينهم وفلسفتهم في الشعر وإلا لتساوت معهم في هذه الظاهرة شعوب أخرى ومنها الشعب العربي لكن تميز الهنود كذلك بالفلك والرياضة وعبروا عنهما في لغتهم المقدسة الرفيعة وفي شعر يكتنفه شيء من الغموض .

والعقلية الإسلامية الدقيقة الفاحصة جعلت من الحلية القيمة بلوراً صافياً . فالخوارزمي هو أول من جعل الحساب علماً صالحاً للحياة اليومية العملية وحذا حذوه فيما بعد العلماء العرب والفرس فعنوا بالحساب وأضافوا إليه حتى جعلوا منه الأساس الذي شيدت أوربا عليه فيما بعد علم الحساب الحالي . والفضل في كل هذا يرجع إلى أستاذ الجميع الخوارزمي .

وإذا ذكر الخوارزمي ذكر فضله على علم الجبر فهو أول من نظمته وخلق العرب منه علماً مستقلاً ، ومن علم الجبر الذي كان يعنى به في مصر أبو كامل واختصه البيروني ببعض مؤلفاته وكذلك ابن سينا والكراديسي اغترف « ليوناردو فون بيزا » معلوماته الخاصة بالمعادلات التربيعية والتكعيبية التي كان يعلمها ويدرسها من كتابه الأولى . وقد بلغ علم الجبر القمة على يد رجل نعرفه على أنه شاعر صوفي أو المفكر الحر وهو الفارسي عمر الخيام فقد خطا بهذا العلم خطوات واسعة حتى جاء ديكارت وسار به بعيداً .

لكن علم الجبر الأوربي لم يبن على علم الخيام أو من سبقوه فالعالم « ليوناردو فون بيزا » اعتمد على العلامة المصري ابن كامل ، فدرسة الخوارزمي التي تنتسب اسماً وموضوعاً إلى الخوارزمي . فالجرف فون إبيرشتين الألماني زعيم طائفة الدومينيكانيين اشتهر في القرن الثالث عشر باسم « يوردانوس نيموراريوس » (أي الذي ينتسب إلى غابات جبل أجه) علم أوربا حساب العرب وجبرهم وقد وضع رسالتين هامتين حول الموازين والمقاييس اعتمد فيهما على المؤلفات العربية كما اعتمد في كتابه في الهندسة على كتاب أبناء موسى الثلاثة في الهندسة وكتاب ثابت بن قرة الملقب بلقب أويقليد العرب .

أما أسلوب الرياضة الذي اختطته أوربا لنفسها فقد كان في الواقع أسلوباً جديداً أو خلقاً جديداً ، فالثوب الهندسي الذي أسدله عليها اليونان جردها منه العرب وكسوها ثوباً من الجبر والحساب وذلك لأن العربي يميل بطبعه إلى الأشكال الهندسية ميله إلى العلاقة بين الهندسة وبين العدد والحساب فالمسائل التي تتصل بحل المعادلات التربيعية وتقسيم الزاوية إلى ثلاثة أقسام أو تقسيم الدائرة إلى خمسة والتي يعالجها اليوناني علاجاً هندسياً مرثياً يضعها العربي في معادلة جبرية ثم يحلها حسابياً . فتحويل العرب الرياضة إلى جبر وحساب اقتبسته أوربا واستعملته وما زالت تستعمله حتى يومنا هذا .

والعرب أيضاً هم الذين أوجدوا الحساب بالكسور العشرية بعد الشولة فالفلكي الكاشي^(١) استكمل حساب الخانات وذلك بتحويل الكسر الأول إلى خانات

(١) لعل المؤلفه تعنى كتاب : مفتاح الحساب (في علم الحساب) تأليف غياث الدين جمشيد بن =

فمثلا الكسر $\frac{10}{125} = 2 \frac{8}{100} = 2,08$ وهذا مجهود لولاه ما استطاعت بائعة البيض أو بائع اللبن حل المسائل الحسابية العويصة ، وكذلك التوصل إلى حساب اللوغريتمات .

وحتى اليوم ما زال الجبر في أوربا مطبوعاً بالطابع العربي فهناك الحرف (X) للإشارة إلى المجهول وهذه الإشارة اتباعاً للترتيب الأبجدي استتبع استخدام الإشارة (Y) للمجهول الثاني و (Z) للمجهول الثالث فكل هذه الإشارات تحسست طريقها إلى أوربا عن طريق العربية ، وقد يبدو هذا القول عجيباً وذلك لأن العربية لا تعرف الإشارة (X) . لكن المتأمل إلى العربية يجدها تعبر عن المجهول بلفظ « شيء » ومن ثم اختصرت هذه الكلمة إلى الحرف (ش) ويقابل هذا الصوت في الأسبانية القديمة الصوت (X) وقد وجدت هذه الإشارة طريقها إلى المدارس الأوروبية في الفرقة السابعة إذ تستخدم للتعبير عن المجهول الإشارة الأسبانية (X) والتي هي العربية (ش) في ثوبها الجديد الأسباني .

والعرب أيضاً هم الذين اخترعوا حساب المثلثات المسطح والكروى وهو علم لم يعرفه اليونان وتنهبوا إليه فقط عن طريق نظرية الخطوط المتقاطعة للعالم « منليوس » فظهر لهم هذا التطور المفيد . أما العرب فقد استخدموا عوضاً عنه نظرية الجيب والمستوى المماس والقواعد الأساسية لحساب المثلثات . وبذلك وفق العرب في خلق علم جديد مفيد في الفلك والملاحة والمساحة .

وعن طريق ترجمة الكتاب الشهير للعالم العربي أبي عبد الله محمد بن سنان ابن جابر الحراني المعروف بالبتاني وهو كتاب الزيج الصابئ ، شقت كلمة « جيب » الواردة فيه طريقها إلى سائر العلوم الرياضية ، ولا سيما فهذا الكتاب قد لاقى شهرة عظيمة لا في الشرق فقط بل في أوربا أيضاً . وكلمة « جيب » العربية هذه ترجمت إلى اللاتينية « Sinus » ومنها إلى مختلف اللغات الأوروبية . وعوضاً عن أوتار الأقواس للمربع الكروى نجد العلماء يستخدمون الجيب من جوانب وزوايا المثلث الكروى . كما عينوا وظائف « جيب التمام » و « المستوى المماس » و « ظل التمام » وحسبوا جداول الجيب وجداول المستوى المماس . ثم نجد الفارسي أبا الوفاء يذكر

كتاب البتاني ويشيد به ونجح في الوصول إلى طرق أخرى لحساب جداول الجيب ، وهذه الطرق تسمح له أن يحسب حتى ثلاث خانات من خانة العشرات العاشرة . وقد بلغ هذا الكشف أوجه على يد فارسي آخر وهو ناصر الدين الطوسي وزير مالية هولاءكو . ولم تدرك أوروبا هذا التطور أو تخطو به خطوة إلى الأمام إلا بعد قرون . وكذلك نجد التاريخ يعيد نفسه كما رأينا في تاريخ الجبر فمجهودات الفرس التي ختمت اختراعات العرب لم تجد طريقها إلى أوروبا ولم تخرج خارج العالم العربي . لذلك فأوروبا لم تبين صرحها العلمي على مجهودات الفرس بل على المجهودات العربية ، فعن الفلكيين العرب أخذت أوروبا الحساب المعروف باسم الطريقة الستينية ، وهي النظام القائم على اتخاذ الوحدة ستين قسماً . وتقسم الدائرة إلى ستين قسماً . وقد ابتدع البابليون هذا التقسيم الستيني للدائرة إلا أنهم لم يبلغوا الحساب الستيني والذي نجده عند اليونان . وقد خلطوا بينه وبين العشري والأعداد العشرية . والعرب فقط هم الذين استكملوا الحساب الستيني ، وبذلك أصبح حساب الفلكيين . العرب أيضاً هم الذين سبقوا أوروبا بنحو سبعمائة عام قبل إنجلترا وألمانيا إلى إيجاد الحساب الخلافي ، وصاحب الفضل في إيجاده الطبيب الفيلسوف ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٨) واللاهوتي الغزالي (١٠٥٣ - ١١١١) وهما من أبناء فارس . والذي حدث أن ابن سينا تعلم وهو ابن عشر سنوات بينما كان يعمل في دكان تاجر فحم الحساب الهندي ومن ثم ظهرت عبقرية الرياضيات ونبوغه الفلكي فأضاف عن طريق بحوثه العلمية التي لم يسبقه إليها أحد الكثير من النظريات الطبيعية . كذلك عالج الانهائي الصغير في الطبيعة والرياضة ، ولاشك أن أوروبا لم تنتبه إلى مثل هذه النظريات الخاصة بالانهائي الصغير أعني الجسم الصغير صغيراً لانهائياً إلا في القرن السابع عشر الميلادي بفضل أمثال « نيوتن » و « لينيتر » .

أما الفارابي (٨٧٠ - ٩٥٠ م) فقد كان ثاني اثنين أولهما أرسطو عرفتهما الإنسانية ، لقد كان الفارابي فيلسوفاً حكيماً ورياضياً عبقرياً وموسيقياً بارعاً ، وقد اشتهر بمجادلاته العلمية مع علماء قصر الخليفة في دمشق وكان الخليفة يشاركهم الأحاديث ويحضر المجادلات . وقد ألقى الفارابي كثيراً من المحاضرات حول آلة القانون الموسيقية التي اخترعها هو واستخدمها لتهذبة أعصاب خصومه عندما كانوا

يشورون عندما يحى وطيس المجادلة ، كما كان يعد المستمعين بالعزف عليه لتقبل وتتبع المناقشات الأخرى . واهتم الفارابي كثيراً بالنظريات الموسيقية وبخاصة تلك التى تتصل بالإتلاف والفاصلة وانتهت به هذه الدراسات التى غنى بها كثيراً إلى فكرة اللوغريثمات التى نجد أصولها فى بحثه حول أصول الفنون الموسيقية . ومن غير المعقول أن دراسات الفارابي أو نظريات ابن سينا الخاصة باللاتهاى الصغر هى التى أدت إلى ظهور مثل هذه الأفكار وتلك الاتجاهات فيما بعد فى أوروبا إذ لا صلة بين الماضى والحاضر وحتى لما كاد ينخبو الإشعاع العربى فإن العبقرية العربية ظلت ترسل شعاعها إلى أوروبا التى كانت آخذة فى اليقظة من سباتها العميق ، فأوروبا عرفت تراث العالم القديم عن طريق العرب فقط فترجمة العرب للمخطوطات اليونانية والشروح التى وضعها العرب عليها والكتب التى ألفها العرب كل هذه كانت العامل القوى فى النهضة العقلية الجرمانية وفى تغذيتها ، فالعرب بأعدادهم وآلاتهم وحسابهم وجبرهم ونظرياتهم حول المثلثات الكروية وعلوم البصريات وغيرها وغيرها نهضوا بأوروبا ودفعوها إلى الحركة العلمية دفعاً ومن ثم استقلت واكتشفت واخترعت وتسلمت زعامة العلوم الطبيعية .

وينتمى إلى نفس الأسرة أيضاً علم الفلك

هدفت العصور الوسطى إلى توجيه الأوربيين وجهة خاصة بعيدة عن الاهتمام بالمظاهر الطبيعية والظواهر الفلكية فقد حولت أنظارهم إلى الله والإيمان به . والاعتقاد فى هذا المعبود كان لا يتطلب منهم إلا تحديد مواعيد أعياد الكنيسة ، هذه المواعيد التى كانت تتغير من عام إلى آخر . أما الاهتمام بالشمس والقمر والزهرة والمشتري وبعض الكواكب الأخرى وبخاصة المقدسة منها فقد حرمت الكنيسة على أتباعها اعتقاداً منها أن هذا الاهتمام قد يؤدى بالمسيحيين إلى الانزلاق إلى الوثنيين . أما الذين كانوا يكرسون حياتهم للكنيسة فاكثفوا بزيارة مدارسها التى كانت تعنى بقليل من المعرفة الضحلة التى ورثها العصور الوسطى من المدارس الرومانية المتأخرة ،

وأن شخصاً مثل « يوردانوس نيموراريوس » أزعج زملاءه الدومينيكانيين لما اعتمد على العلوم العربية التي أخذها عن بنى موسى وغيرهم من علماء العرب ، وقد اضطرت هذه الحالة إلى الحصول على إذن خاص ، وقد منح هذا الإذن له لأنه كان في الواقع رئيس الطائفة وقد منح هذا الإذن له وصدر قرار باستثنائه في الدستور الذي وضع عام ١٢٢٨ والذي حرم الاتصال بالوثنيين بالرغم من رقيهم وازدهار حضارتهم . وحرم الدستور كذلك على أعضاء الطائفة دراسة فلسفة الوثنيين والفنون الحرة ، وذهب الدستور بعيداً في التحريم فمنع الأعضاء حتى دراسة قواعد الحساب الأولية والتقويم الخاص بتحديد أعياد الكنيسة واستثنى بعض الحالات الفردية .

لكن بالرغم من امتهان الكنيسة للمسلمين الوثنيين في نظرها !! إلا أن حاجة الكنيسة وأتباعها إلى العلوم والفنون الوثنية اضطرت أولئك المسيحيين إلى الاتصال بالمسلمين ، وذلك في حالة ما إذا فات المسئولين المسيحيين رؤية البدر في فصل الربيع . فإذا وقع هذا حار القديس المكلف واضطرب ولا ينقذه من مأزقه هذا إلا إرسال بعثة إلى مسلمى أسبانيا – عبدة الشيطان – حيث يسألهم أعضاء البعثة عن تاريخ أسبوع الآلام وعن ميعاد عيد الفصح أو القيامة .

إن اهتمام أوربا المسيحية بالتأمل في السماء ونجومها وكواكبها كان ضعيفاً جداً بل كان المسيحي الأوربي إذا نظر إلى السماء كانت نظرتة مشوبة بسوء النية والشك في أولئك الذين يتأملونها فكان الأوربي يرميهم بأقبح التهم والسباب لكن هذا الموقف العدائي لم يمنع أمثال « جربرت فون أوريلاك » من تحدى أولئك الذين أعماهم التعصب وأقبل على علم الفلك دارساً وباحثاً مع احتفاظه بولائه للقيصر والدولة حتى أصبح « بابا » . والشئ الجدير بالملاحظة والإعجاب والتقدير هو ذلك الأسطراب المحفوظ إلى اليوم في فلورنسا والذي كان يستخدمه « جوبرت » عندما أصبح بابا وتسمى باسم « سلفستر الثاني » في روما ، وذلك لتعيين ارتفاع الشمس وقوس الليل والنهار ، لذلك أشيع عنه أنه تلقى هذا العلم على شيطان في قرطبة ومعنى هذه المهمة اللعنة الأبدية للبابا ولعلم الفلك .

ولكنيسة الحق في موقف الحذر الذي تقفه ، ففي الكتاب المقدس بعض

الآيات التي تشير إلى أثر الأفلاك والكواكب في الكائنات الأرضية وقد حاول رجال الدين قصر هذا الأثر على الحيوانات والنباتات إلا أنه توجد بين الأجرام السماوية أخرى أشمل وأعم مثل المذنبات ، والظلام ، وظواهر سماوية أخرى للأمراض والحروب والمصائب ويجب على الكنيسة أن ترفض رسمياً الاعتقاد في أي أثر للكواكب على الإنسان وإرجاع جميع هذه الآثار إلى الله . لكن الكنيسة لم تنجح في هذا ، إذ أن تردد أنصار الكنيسة في موقفهم من أثر السماء في الإنسان أفسح المجال للنجوم والأفلاك وتغلغل أثرها بين القوم .

لذلك ليس بعجيب أن تجد تراجم الجداول الفلكية والتقويم السنوية والكتب الفلكية التي كانت تصل أوروبا عن طريق أسبانيا رواجاً عظيماً .

أما الإسلام فلم يهتم كثيراً بتأويلات النجوم والكواكب ولا سيما أنه يرفض تقديس النجوم والأفلاك ويدعو إلى عبادة الواحد الأحد رب العالمين فاطر السموات والأرض . لذلك حرم الإسلام الاعتقاد في أثر النجوم بالنسبة لطبيعتها كما حرم الاعتقاد في الأثر المباشر للنجوم أو الصلاة لها .

لكن دراسة الفلك ضرورية فالله جل جلاله حض الإنسان على التأمل في السماء والنظر إليها فباسم الله درست حركات النجوم وباسمه تعالى يبدأ كل بحث علمي ، وهذه هي الميزة التي تحلى بها العرب وامتازوا بها على أوروبا المسيحية ، وهذا هو المستوى العلمي الرفيع الذي حفظهم من التدهور والسقوط في الصوفية لذلك كان علم الفلك أو الاعتقاد في القدر بعيداً البعد كله عن السحر والشعوذة وما إليهما من الخرافات التي تهدد حياة المسلم العربي كما نتبين ذلك من مؤلفات العرب الفلكية التي وصلت إلى أوروبا . وعلم الفلك العربي أكثر من غيره من سائر العلوم الإسلامية لم يتجه هذا الاتجاه الخاص بتأويل حركات النجوم في العالم الإسلامي إلا بتأثير الفرس فهم واضعوا أسسه .

ومعلم أبناء موسى منذ طفولتهم ، وهو يحيى بن أبي منصور ، كان فارسي المولد وكان كغيره من أبناء جنسه هاوياً دراسة الفلك كما كان منجماً . والشيء الجدير بالملاحظة أن أبناء موسى الثلاثة لم يأخذوا شيئاً عن هواية هذا المعلم ، وعلى النقيض من ذلك كانوا عمليين واقعيين وعلماء ناقدين . فالفارسي يؤمن منذ طفولته بعامل

الخير والشر الناتجين عن النجوم ، والفارسي في إيمانه متأثر بتعاليم زرادشت أما الكواكب ذات الأثر الشرير والشهب فمن خلق إله الشر « أهريمان » وعن طريق مخلوقاته يحاول هذا الإله الشرير نشر الفساد وإحداث الفوضى والاضطرابات في العالم ، فهو عن طريق الكواكب السبعة ينشر قوى الشر في الطبيعة حيث تسبب التعاسة وتجلب الشقاء لبني البشر .

والعقيدة البدائية للبابليين في أن النجوم ما هي إلا كتابة سماوية تنسجم وطبيعة آلهتهم الفلكية والعقلية اليونانية المغرمة بالهندسة وقواعدها تنظر إلى الأجرام السماوية نظرة هندسية وهكذا أخذت هذه الديانة العلمية الوثنية تختفي تدريجياً تاركة بقاياها في فارس كما اتخذت من أبنائها رسلاً .

ففي عام ٧٦٠ م نجد المنجم الفارسي المتوفى حوالي ٧٧٧ والمسمى « نوبخت » يزور ، مزوداً بهذه المعلومات الكثيرة ، قصر الخليفة العربي المنصور ، فقد حدث عندما جاء العباسيون للحكم أن انتقل مركز الثقل السياسي للدولة من دمشق ، مركز الأسرة الأموية التي جاءت من الصحراء ، إلى بغداد حيث يكثر الماء والأراضي الزراعية الحصبة الممتدة على شاطئ النهرين . وقبل الشروع في بنائها وإرساء أساسها طلب « نوبخت » إلى الخليفة أن يحسب مركز الأفلاك ويختار ساعة سعيدة لبناء المدينة فكلف الخليفة الفارسي « نوبخت » واليهودي « ما شاء الله » رصد هذه الساعة التي يجب أن تولد فيها المدينة كما طلب إليهما مراعاة مقاييس المدينة التي سميت « بغداد » أي مدينة السلام .

ومن ثم نجد « نوبخت » الفارسي يعين فلكي الخليفة ومستشاره الخاص ومستشار كثيرين ممن جاءوا بعده ولا غرو في أن يصير أستاذاً لكثيرين من مفسري الطوائع . وهكذا نجد الفرس يهتمون بجميع المصادر الفلكية القديمة سواء كانت هندية أو غير هندية كالبابلية لتويكروس وبيتين وقد ترجمت جميع هذه المصادر وحفظت في قصور الأمراء العرب وكان كبير دعاة هذه الحركة والمشجعين لإحيائها العالم « ما شاء الله » الذي ذاع صيته فيما بعد في أوروبا .

وقد بلغ علم التنجيم عند العرب شأواً بعيداً في الوقت الذي ازدهرت فيه الدراسات الفلكية وقد تخرج عليهم كثيرون من اليهود والفرس فداع صيتهم لا في

الشرق فقط بل في أوربا أيضاً فنحن نجد من أبناء فارس أبا بكر بن الحاسب وعبد العزيز القبيصى واشتهر الأول في أوربا تحت اسم « البوبائر Albumassar » والثاني « الكابيتيوس Alcabitius » كما نجد أيضاً اليهودي « سهل بن بشر » الذي عرف في أوربا باسم « سهل Zahel » وتلميذ ما شاء الله المسمى « البوهلي » واليهودي الفارسي المشهور « أبو معشر » المتوفى عام ٨٨٦ م واشتهر في أوربا باسم « البومسر Albumasser » وكان يعد من بين أعظم منجمي العرب . ويمتاز بأن أحداً لم يسبقه وأهم بمصدر ووسيلة تدريس هذه المادة اهتمامه ، فقد جمع أبو معشر جميع ما في متناوله وجعل منه خليطاً عجيباً ، كما امتدت يده دون خجل إلى مؤلفات وأعمال الآخرين مثل « سند بن علي » ونسبه إلى نفسه ، وبذلك (فقط) استطاع أن يضع كتاباً عظيماً يتفق وعمره المديد الذي بلغ امائة عام . وكتابه هذا لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية فقد بلغ شهرة لم يبلغها كتاب آخر غيره في أوربا المسيحية وإن اشتهر بالغموض . وفي حلبة السباق على علم التنجيم نجد عربياً ممتازاً

ألا وهو الفيلسوف الكندي الذي وضع كتاباً حول التنبؤ بالطقس وهذا هو الموضوع الذي اهتم به العرب أيضاً ومنذ العصر الجاهلي وبذلك اكتسب الكندي المنجم شهرة عظيمة . فهذا العربي الجنوبي والذي ينتسب إلى قبيلة كندة اليمنية الملكية وهو أحد أفراد بيت أمراء البحرين لم ينج من حسد وحقد بعض معاصريه ومن بينهم بنو موسى فقد كرهوه وحقدوا عليه حتى قامت بينهم وبينه مشادة وذلك لأن خصومه استغلوا حالة التزمت الديني التي كانت متفشية وقتذاك كما استغلوا وفاة المأمون الذي اشتهر بسعة الأفق ورحابة الصدر ، استغل بنو موسى كل هذه الظروف ووضعوا يدهم على مكتبة الكندي ونقلوها من داره . وحدث في ذلك العصر أن الخليفة المتوكل أمر محمداً وأحمد نجلي موسى بكر قناة على دجلة فكلف الأخوان المهندس الفرغانى الذي عرفناه في مصر عند بناء مقياس النيل ، وأبلى بلاء حسناً واشتهر في أوربا باسم « الفراجانوس Alfraganus » بتنفيذ هذا المشروع . لكن المقاول المطالب بالتنفيذ ارتكب خطأ شنيعاً ، فقد حفر القناة وجعلها أكثر ارتفاعاً من مصبها في دجلة حتى إنه عند انخفاض منسوب المياه لايجرى الماء وحاول ابنا موسى إصلاح الخطأ فعجزا فثار الخليفة الذي كلفه هذا المشروع

مالاً كثيراً على ابني موسى وأمر بإحضارهما ، وكلف الفلكي اليهودي والمنجم «سند بن علي» الحضور وفحص الخطأ ، فإذا ثبت أن ابني موسى هما سبب هذا الخطأ أمر الخليفة بصلبهما على شاطئ القناة ، ومما زاد الطين بلة أن هذا اليهودي الحكم كان عدواً لدوداً لابني موسى وللكندي ، والشئ الجدير بالذكر أن اليهودي سند بن علي هو بيمينه الذي سطا عليه اليهودي أبو معشر وسرق كتابه ونسبه إلى نفسه .

فلم يبق أمام ابني موسى وهما في هذا الوضع السيئ إلا أن يرجوا اليهودي إنقاذ حياتهما وأن يغفر لهما خطاياهما معه ، ولكن «سند بن علي» استغل هذه الفرصة وطلب إليهما قبل كل شئ تسليم الكندي كتبه ، وبعد ذلك يفكر في معاونتهما . وهنا نجد محمداً للمرة الثانية وهو في هذا المركز الحرج يضحى بكرامته ويقدم للكندي مكتبته ومعه مستند خطي من الكندي يثبت تسوية المسألة بينهما وبعد ذلك فقط دبر اليهودي «سند بن علي» الأمر واحتال حيلة جيدة فأخبر الأخوين أنه مسرور برد المكتبة إلى الكندي وأنه الآن على استعداد لإحاطتهما علماً برأيه في موضوع القتاة وما بها من خطأ . الواقع أن هذا الخطأ لا يمكن الاهتداء إليه ومعرفته طيلة الشهور الأربعة التالية وذلك لأن فيضان نهر دجلة وزيادة مائه يخفي هذا الخطأ . وهناك تقرير لبعض المنجمين يقرر أن أمير المؤمنين لن يعيش حتى ذلك الحين لذلك إنقاذاً لحياتكما سأخبره أن أحداً منكما لم يرتكب خطأ ، فإذا صدق المنجمون نجونا نحن الثلاثة وإذا كذبوا وعاش الخليفة وجاءت المدة التي يتناقص فيها الماء فسنموت نحن الثلاثة . وحدث أن قتل الخليفة بعد شهرين ونجا الثلاثة المتآمرون .

وكيف لا يثق سند بن علي وهو المنجم المشهور في أقوال المنجمين ؟ وفي هذه الحالة صدق المنجمون إذ تنبأوا بالخط والسعادة كما حقق القاتل نبوءتهم لكن كثيراً ما يكذبون ويستحقون سخرية العلماء ، فقد حدث أن تنبأوا بالشقاء والبؤس الذي يشير إليه التقاء الكواكب في برج الميزان عام ١١٨٦ م كما لم تقع الثورات التي قالوا بها والتي ستنج عنها الحروب والكوارث الجوية ، أما وقوع الموت المفاجئ بسبب القتل فهذه مسألة أخرى . . .

وقد سبب سوء استعمال الجهلاء للعلوم كثيراً من الأذى والامتهان والخط من قدرهم وقدر العلم ، لذلك هاجم أمثال البيروني أولئك الأفاكين بألفاظ قاسية واتهمهم بأنهم الدخلاء على علوم الفلك والتنجيم ، وبخاصة تصرفات أمثال أبي معشر الخاطئة ، كما انتقد جرأة أولئك الجهلاء الذين لا يؤثرون إلا في أمثالهم .

وهاجم الزركلي المنجمين ، بحرارة وشاركه في ذلك الشاعر « السيمري » فقد وضع كتاباً في نقض أقوال المنجمين ، وكتب يرسف الخروى في « خدع التنجيم » ، وابن سينا الذى هو صديق حميم للبيروني والفارسي الأصل والعالم الفيلسوف طالب بإلغاء ومنع تفسير سير النجوم . وكان من نتيجة هذا الهجوم أن اختفى عدد كبير من زعماء المنجمين المشعوذين الأدعياء وبخاصة عندما تشعبت علوم الفلك والتنجيم فذهب الزبد وبقي ما ينفع الناس واستطاع المنجمون العرب الوقوف على أقدامهم ولم يمض زمن طويل حتى أخذ التنجيم ينتقل من التجار فى الشوارع مقدماً لهواة الحساب الفرصة الكاملة للاهتمام بالأعداد والقيام بعملية حساب الجداول الحالية من الحساب والتقويم السريية الضرورية لعملية التنبؤات ، وعاون المنجمين على ذلك ارتفاع مستواهم فى الرياضه والحساب وبخاصة فى حساب المثلثات الكروية ومفرداتها الدقيقة التى تتطلب الدقة والمهارة الحسابية . ومن هنا نفهم سر استعانة علم الفلك العربى بجداول علم التنجيم واعتماداً عليها تفوقت على ما وصل إليه البابليون فى التنجيم وكذلك الهنود واليونان .

وهذا التفوق فى التنجيم كان الناحية الوحيدة التى انفرد بها العرب فى بلادهم العربية ، ما لم يعتقد الإنسان فى الاستفادة من البيانات الفلكية السابقة . وقد أثر العرب عن طريق الفلك والتنجيم فى أوربا أثراً بعيداً وساعدهم على هذا جهل رجال الكنيسة ورهبان المسيحية الذين كانوا يحتكرون التنجيم بالرغم من تفاهة معلوماتهم فيه وعرضاً عن مناقشتهم هذه التعاليم وتلك النظريات أخذوا ينظرون وكأنها تأويل للنجوم وطوالها ومن هذه الناحية وجد علم الفلك طريقه إلى أوربا والأوربيين ، وعاون على ذلك آلات الرصد التى أقامها الفلكى الدينياركي « تيشو براها » (١٥٤٦ - ١٦٠١) فى مرصده وعاون على هذا أياى الملك البيضاء التى

أمدت المرصد بكثير من الأجهزة النافعة رغبة منه في الحصول على التنبؤات الدقيقة الخاصة بالتقلبات السياسية التي قد تتعرض لها مملكته والعمل على تجنبها .

ولم يقف علم التنجيم عند الأمراء ومن في منزلتهم بل تعداها إلى الباباوات ، فقد أسس « ليو العاشر » كرسياً لتفسير طوابع النجوم في جامعة روما ، كما نجد منجمين باباويين يعينون ليوليوس الثاني يوم وساعة تتويج البابا له كما يحددون وقت انعقاد مجلس البابا والكرادلة لبولس الرابع . وهكذا نجد علمي الفلك والتنجيم يسيران معاً زمناً طويلاً ، فقد ترجم « ميلنشتون » رسائل التنجيم لبطليموس ، كما ألقى في « فيتنبرج » محاضرات حول تأويل مطالع النجوم وحركاتها واستهل « تيشو براهيا » سلسلة محاضراته في جامعة كوبنهاجن بالحديث عن التنجيم فكانت هذه المحاضرة اعترافاً صريحاً منه بهذا العلم . وتكسب كل من « جليلي » (١٥٦٤ - ١٦٤٢ م) و « كبلر » (١٥٧١ - ١٦٣٠ م) قوتها اليومي عن طريق التنجيم ، ولو أنهما كانا يدركان أن الذي ينتظر الإجابة منهما على أسئلته إنما هي صادرة من الكواكب فقط وبدون إرادة وأخلاق الإنسان الذي فقد ذكائه الذي منحه الله إياه ، واعتقد كلا العالمين أن الحياة تتطلب منهما شيئاً من اللباقة استرضاء للجهلاء وكسباً لعطفهم . نعم إن علم التنجيم علم جنوني كما قال « كبلر » وكما صاح « أيها الإله العظيم أين أراد علم الفلك العظيم الحياة ما لم يرزق التنجيم ؟ إن العالم أجن من المجانين وعلماء الفلك كادوا يموتون جوعاً لولا أن أرسل الله لهم هذا العلم الجنوني علم التنجيم » . وكما هاجم البيروني وابن سينا شعوزة المنجمين كذلك فعل مارتين لوثر إذ صب جام غضبه على هؤلاء الأفاكين وقال إن التنجيم ليس علماً ولا يمكن الإنسان أن يعتمد عليه . وتجريد الأرض من مكانتها الممتازة في الكون بواسطة آراء ونظريات « كوبرنيكوس » قضى على أواصر القرابة بين الفلك والتنجيم وأو أن العلوم الحديثة بعثت التنجيم من جديد وأجلسته على قارعة الطريق كما جلس من قبل عشرات القرون . أما الفلك فقد أخذ يرقى ويتبوأ مكاناً رفيعاً لم يبلغه من قبل ، وسواء علم الفلك أو علم التنجيم فإنهما لم يبلغا ما بلغا دون فضل العرب عليهما ثقافياً وعلمياً .

الكتاب الرابع

الأيادي الشافية .

لذلك كانت كتب ابن سينا والرازي
وابن رشد في منزلة كتب بوقراط
وجالينوس . فكل من يحاول أن يعالج
دون الاعتماد عليها يتلف الصحة
ويقضى عليها .
(أجريبان فون نترهيم)

الشفاء العجيب عند الإفرنج

« من عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة – قرب أفقة عند منبع نهر إبراهيم
في شمال لبنان – كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ،
فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ” ثابت “ . فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له :
ما أسرع ما داويت المرضى ، قال : « أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة ،
وامرأة قد لحقها نشاف (بله) فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت ،
وحميت المرأة ورطب مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم : هذا ما يعرف شيئاً
يداويهم . وقال للفارس : أيما أحب إليك ، أن تعيش برجل واحدة أو أن تموت
برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة . » قال : أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعة ،
فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر ، فحط ساقه على قرمة خشب ، وقال للفارس :
اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه وأنا أراه ضربة واحدة
فما انقطعت فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة
فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها فحلقوه ، وعادت
تأكل من مأكليهم الثوم والخردل ، فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل في

رأسها ، فأخذ موسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت في وقتها ، فقلت لهم : ما بقي لكم إلى حاجة ؟ فقالوا : لا ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه .

إن الأمير أسامة بن منقذ ، ابن أخى حاكم شيزر ، (١٠٩٥ - ١١٨٨ م) ، هو الذي سخر من هذه الحادثة التي شاهدها أيام شبابه وعبر عنها في كتابه الاعتبار في فصل عقده ، لها عنوانه : طبائع الإفرنج وأخلاقهم .

إن رواية أسامة بن منقذ ليست دعاية أعداء كما قد يتبادر إلى الأذهان ، وليست محاولة مقصودة للنيل من عدو محترم هو في نفس الوقت عدو للعرب ، فنحن نقرأ بعد ذلك بقرن حديثاً يرويهِ لنا مؤرخ ثقة يدور حول الماركجراف ديدو الثاني نقد كان هذا الرجل قصيراً يصعب عليه التنفس لضخامة جسمه وقد لاقى حتفه على يد « روكليتز » و « جوينز » ، وذلك لأنه كان ملازماً للقيصر هينريش السادس في رحلته إلى خطيبته في أبوليا ، فخاف من القيام برحلته هذه لكثرة شحمه أولاً ولحرارة إيطاليا ثانياً لذلك استشار طبيباً في ذلك فبقر بطنه واستخرج منه الشحم ، وهذا حادث لا يقل عن حادث الطبيب الإفرنجي في البلاد المقدسة .

فن التجارب التي تجمعت لدى الأمير أسامة بن منقذ والمعاملة القاسية التي تعرض لها الفرسان المسيحيون وذهب عدد كبير منهم ضحيتها ، أصبح لا يحمل أى احترام أو تقدير للطب الإفرنجي ، وهو على حق إذا ما اعتقد أنه لا طبيب إلا الطبيب العربي ولا دراسة طبية ناضجة تقوم على أسس علمية إلا في البلاد العربية ولا صيدلة إلا في البلاد العربية ، كما لا توجد مستشفيات تضارع تلك القائمة في مختلف البلاد العربية فهذه مستشفيات ممتازة بمعاملها وكفاية أطبائها ونظافتها ومستواها وتوفر وسائل العلاج والراحة والنقاة لنزلائها حتى كانت مضرب الأمثال ، فهل يستغرب أن يستعين الإفرنج بالأطباء العرب ؟ .

ويستطرد الأمير أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ويحدثنا : ومن عجيب طبهم ما حدثنا به « كليام دبور » (غليوم دبور) صاحب طبرية ، وكان مقدماً فيهم ، واتفق أنه رافق الأمين معين الدين رحمه الله من عكا إلى طبرية ، وأنا معه فحدثنا في الطريق قال : « كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر ففرض وأشرف

على الموت فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا وقلنا : تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً ؟ قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حط يده عليه عوفى . فلما رآه قال : أعطوني شمعاً . فأحضرنا له قليل شمع فليتنه وعمله مثل عقد الأصبع ، وعمل كل واحدة في جانب أنفه ، فمات الفارس ، فقلنا له : قد مات . قال : نعم ، كان يتعذب فسدت أنفه حتى يموت ويستريح .

وضع اليد ، طرد الشيطان ، صلاة — هذه كانت أحسن أدوية للشفاء كان يستخدمها الأطباء الأوروبيون وهم في أزياء القسيسين والرهبان لشفاء المرضى من أمراضهم الجسدية .

« هل أحد بينكم مريض ، فإن كان الأمر كذلك فليستدعِ الإنسان عجائز الحى ليصلوا من أجله بعد أن يدهنوه باسم المسيح بالزيت ، وصلاة الإيمان تكفى لشفاء المريض » ، هكذا علم يعقوب الرسول . لكن يسوع نفسه طبيب الجسد والروح شفى حواريتيه والآخرين الذين أراد شفائهم بوضع يديه وطرده الشيطان ؛ لقد شفى مرضى الأعصاب والعقول والبرص والدوستاريا والتزيف الدائم والأمراض الأخرى . والمسيح لم يشف فقط من الأمراض بل منح تلاميذه بركة الله ، لقد منحهم القوة للتغلب على الأرواح الشريرة فكانوا يطردونها ، وشفوا بذلك مختلف الأمراض ، لقد كلفهم شفاء المرضى وتطهيرهم من البرص والأورام ، كما أحيوا الموتى وطردهوا الشياطين .

ولا يحتاج الحواريون لتنفيذ مشيئة السيد المسيح إلا إلى الإيمان الكامل ، فالعقيدة هى سر الشفاء ، فالذى يؤمن يساعد ويتحقق طلباته ، هكذا تعلم الكنيسة ، وقد عرفت جيداً كيف تفرض نفسها وتدعى شفاء الجسد والروح .

أليس الاعتماد على العقاقير الدنيوية كالأعشاب والجذور يضعف الاعتماد على الله وقوته ؟ إن الشياطين والأرواح الشريرة هى التى تحاول إبعاد الإنسان عن الله والاعتماد عليه ، تحاول إبعاد الإنسان عن خالقه ، وقد نجحت الشياطين حقاً في إضلال الأغبياء وضعاف الإيمان فلجأوا إلى مثل هذه الأدوية وتلك العقاقير .

« إن جميع الأدوية ومختلف أنواع العلاج نشأت أصلاً من وسائل الشعوذة والضلال » هكذا قال أحد آباء الكنيسة ألا وهو « تتيان » وقال أيضاً : « إن جميع هذه العقاقير الطبية بأنواعها المختلفة من صنع الوثنية وحضرها في صيدلية الطبيعة » ، « وذلك لأنه عندما يشفى مريض بعقاقير مادية ويثق الإنسان في مثل هذه العقاقير

ومفعولها وقدرتها على الشفاء فإن ثقة مثل هذا الإنسان في الله وقوته يجب أن تكون أعظم ، فلماذا لا يعتمد على الله فقط ؟ ولماذا لا يتجه إلى الله القوى العظيم ؟ أو يفضل المريض أن يشفى كما يشفى الكلب عن طريق العشب ، والوعل بواسطة الأفاعى ، والخنزير بسرطان البحر ، والأسد بالقردة ؟ لماذا نقدر الأشياء الأرضية ؟ »

والكنيسة ترى أن استخدام أدوية أخرى غير تلك التى تصفها هى — أعنى أدوية الروح ، كذلك ترى أن احتراف مهنة الطب وإجراء عمليات جراحية ، عمل مشين يتنافى ومكانة رجال الدين وكرامتهم *Inhonestum magistrum in medicina manu operari*.

وقد استمرت هذه العقيدة سائدة عدة قرون بين الأطباء الدارسين فقد كانوا عرضة لكثير من الإهانات واللعنات وبخاصة إذا كان الطبيب جراحاً حتى ولو فصد فصدأ لاستخراج الدم فإن الكنيسة لن تغفر له هذا العمل المشين ، وفى شئ من الإيجاز لقد حرمت الكنيسة على رجال الدين مباشرة الجراحة ، وتركت هذه العملية الجراحية لأناس يعتبرهم المجتمع من الطبقة الدنيا التى كان ينظر إليها باحتقار. وغالباً ما كان الجراحون يتوارثون هذه المهنة عن آبائهم وأجدادهم ، فهى مهنة وراثية ولو أنهم كانوا فى نظر الشعب أطباء. ألم يكونوا هم الذين اختارهم الله للقيام بالعمليات الجراحية ويؤدون هذه المساعدات وتلك الخدمات ؟

أما موقف الكنيسة منهم فمعروف فيهم لا تثق فيهم ولا تعترف بهم ، كما لا تعترف الكنيسة بالدواء الذى لا تقرره الكنيسة أو الأطباء الذين لا تعترف بهى بهم . فالذى لا يخفف الآلام بل يزيد بها أحياناً إيلاماً يرتكب خطيئة كبرى مع المريض ، فهؤلاء الأطباء الجهلاء الذين كانوا يقومون بالعمليات الجراحية عن طريق السكاكين الحادة والإبر كانوا موضع احتقار أسقف الإفرنج « جريجور فون تور » (٥٤٠ — ٥٩٤ م) فهو يقول : « ماذا يستطيع الأطباء أن يفعلوا بالآلام ؟ إن مهنتهم تزيد الآلام ولا تخففها فهم يفتحون العين ويخرجونها ويقطعون فيها بالآلام المدببة ، وأنهم بذلك يقربون آلام الموت من المرضى دون أن يساعدوا المرضى ويمكنهم من الرؤية ، وما لم تتخذ سائر الوسائل وتراعى الترتيبات الضرورية فإن الرؤية ستختفى ، لكن إلهنا لديه آلة من الصلب واحدة وهى إرادته ولديه مرهم واحد وهو قوته على الشفاء .

ومن حسن الحظ أن هبت من إيطاليا القوطية الشرقية ريح جديدة حاولت مطاردة هذه الريح الراكدة الفاسدة المشحونة بالخرافات ، ولعل مما ساعد على هذا البعث الجديد أن إيطاليا كانت في ذلك الوقت محتفظة بعدد من الأطباء الشعبيين ثم انضمت إليهم جماعة أخرى من أطباء الجرمان عن طريق اللونجبرديين فقوت ساعدتهم وساند كل طبيب الآخر وعاونه على الحياة . ففي أيام « تيودوريش الأكبر » ومستشاره « كسيودور » ازدهرت المدارس القديمة وترعرعت وأمد كل من « أماليسفتا » و « أثالاريش » المعاهد العلمية بكثير من المساعدات التي عاونتها على النهوض بمهمتها . ففي تلك اللحظة عندما لجأ في الشرق « يوستنيان » إلى العلوم اليونانية مأواه الأخير ، أكاديمية أثينا ، أسس « بنديكت فون نورسيا » في الجبال المطلّة على نابولي البيت الأصلي للطائفة التي ينتمى إليها وهو الدير المعروف باسم « مونت كسينو » وكان يعنى بالمعجزات أكثر من عنايته بتخريج العلماء لكن « كسيودور » رئيس وزراء ملك الغوط أجهد نفسه في سبيل تأسيس المجامع العلمية في روما وجنوب إيطاليا حرصاً منه على المحافظة على البقية الباقية من العلوم الرومانية الشعبية فأدخلها الأديرة الأوربية محافظة عليها من الضياع ، وهي التي انحدرت إلينا من العالم القديم أولاً ، وتطويراً للحياة العلمية في الأديرة ثانياً .

فنهج الدراسة بالأديرة كان لا يعنى بمادة الطب بخلاف الرياضيات والعلوم الطبيعية بالرغم من ضآلة هاتين المادتين أيضاً . والواقع أن الشعب الروماني لم يخلق من الطب علماً ، وما نجده في أوربا مصدره ترجمة ضعيفة فقيرة لبعض المخطوطات اليونانية والبيزنطية هذا إلى جانب مجموعة من الوصفات الطبية وقليل منها المفيد النافع . أما هذا النوع الذي عرفته أوربا وفيه شيء من الفائدة فيرجع تاريخه إلى مائتين أو ثلثمائة سنة بعد ذلك ، وقد أخذته أوربا عن العالم القديم وعن طريق العرب الذين هضوا بهذه المادة نهضة جبارة في الوقت الذي كانت أوربا عاجزة لا عن قراءتها فقط بل عن فهمها أيضاً .

أما الشيء المهم الوحيد الذي ابتدعه الرومان وفهمه رجال الأديرة فدائرة معارف « سيلزوس Celsus » .

وهكذا نجد مادة الطب في وضع أسوأ من أوضاع المواد الأخرى ، فالطب

كغيره لم يطلب في الأديرة لذاته بل لخدمة العقيدة؛ لذلك لم تتقدم دراسته أو ثمر الثمار المرجوة، وكان يكتفى علمياً بالنسخ والجمع.

والظاهرة الغالبة في أوروبا في ذلك العصر التقشف والبعد عن الحياة الأرضية والالتجاء إلى الكنيسة وتعاليمها واحتقار الحياة الدنيا، هذه هي الغايات التي كان يصبو إليها الأوربي حينذاك.

والتاريخ يحدّثنا أن القديس « نيلوس فون روسانو » - وقد جاءه يوماً يهودى يدعى « دونولو » (٩١٠ - ١٠٠٥ م) كان قد درس الطب في جنوب إيطاليا على يد أطباء عرب عارضاً عليه خدمته وهو فخور بما حصله من علم في الطب - احتقره القديس وطرده وقال له : إن أحد اليهود ذكر : خير للإنسان أن يعتمد على الله لا على إنسان آخر ؛ ولما كنت أعتمد على الله وعلى سيدنا يسوع المسيح فلست في حاجة إلى طبك .

ثم نجد الواعظ الصليبي المشهور « برنرد فون كليرفو » (١٠٩٠ - ١١٥٣ م) وقد كان معاصراً للأمير العربي أسامة بن منقذ كثيراً ما يشفى المرضى بشيء من الإعجاز إلا أنه حرم على رهبانه الذين كثيراً ما تعرضوا لأمراض الأجواء غير المناسبة لهم - حرّم عليهم الاستعانة بالأطباء أو تناول الدواء، وقد علل هذا التحريم بقوله : ليس من المستحسن أن يشفوا أرواحهم باستخدام الوسائل الأرضية يضرهم .

ولم يكن هذا التحريم ركناً من أركان الإيمان أو العبادات بل الإيمان العميق الذي غرسته الكنيسة فيهم؛ ثم مع توالى العصور وكثرة الحوار والمجادلات حوله أصبح أرسخ قدماً من أى شيء آخر . إن المحافظة على صحة الجسد أمر بل وصية وصى بها الله ، وذلك لأن مرض الجسد يعوقه عن تأدية فروضه نحو الله ، لكن أهم من العناية بالجسد إنقاذ الروح من الوقوع في الخطيئة ، لذلك لا يجوز للمريض الذى يتلوى من الحمى أن يستعين بطبيب قبل إعلان التوبة إلى ربه ، فقد تقرر عام ٨٩٥ م في المجمع الدينى الذى عقد في « نانتيس » : « على القسيس عندما يبلغه أن أحد مسيحي طائفته قد مرض أن يتوجه إلى المريض ويرشه بماء مقدس ، ويصلى معه ثم يبعد سائر أعضاء الأسرة ويعترف المريض له ويرجوه أن يطهره دينياً وأرضياً من الخطايا ، فيدون اعتراف لا علاج » ، وهكذا أصبح هذا القرار ناموساً يحترم وينفذ .

وفي عام ١٢١٥ م نجد البابا « أينوسنس الثالث » في اجتماع عقد في قصر « لاتران » البابوي في روما يقرر وجوب احترام هذا الناموس والحرص على تنفيذ أوامره، كما يقرر منع معالجة الشخص الذي يطرد من الكنيسة لأن مثل هذا المريض المطرود لم يعترف بعد ، وسبب المرض خطيئة الروح ، كما قال بذلك يسوع المسيح إذ ذكر مرة لمريض شفاه من المرض : انظر لقد شفيت فلا ترتكب خطيئة مرة أخرى حتى لا تصيبك مصيبة أخرى (إنجيل يوحنا الإصحاح ٥ آية ١٤) . وقد فهم القديس « كريسوزتوموس » من كلمات السيد المسيح أن مصدر المرض الخطيئة التي يرتكبها الإنسان فإذا اعترف المريض شفى من المرض ، وذلك لأنه إذا ذهب السبب ضاع المسبب (cessante causa cessat effectus) ، وإذا رفض المريض الاعتراف ، ورفض الطبيب المسيحي علاجه واضطر المريض إلى اللجوء إلى طبيب آخر يهودي أو مسلم لمعالجته طرد المريض المسيحي من الكنيسة ، وذلك لأنه بمسلكه هذا يهدد سلام روحه تهديداً مباشراً . ولكي نتبين مدى انزعاج الكنيسة عند وقوع مثل هذه الحالات يكفي أن نقرأ خطاب « برنارد فون كليرفو » حيث جاء فيه : « لقد جاء إليه راهب بعد أن ثار وترك الدير وشكا رئيسه بألفاظ قاسية لأن هذا الرئيس تجراً وقرر مساعدة طيبة للمستبدين واللصوص والذين طردوا من الكنيسة المسيحية » .

نعم . هكذا كان الإفرنج ، والمسلم يعجز عن إدراكه ، فهذا ابن رضوان الذي كان نقيب أطباء القاهرة في منتصف القرن الحادي عشر ، والذي كانوا يلقبونه بلقب « تمساح الشيطان » ذكر مرة في صدى الحديث عن واجبات الطبيب « أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قتالا ولا يعلمه ، ولا دواء يسقط الأجنة . يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه » .

أما المسلمون في القدس ودمشق فقد كانوا يجهلون تماماً ما يجري في مستشفى الإفرنج ، وكانوا لا يتصورون هذا النظام الذي فرضه فرسان طائفة اليوحنانيين على ذلك المستشفى القائم في القدس فقد اشترط أولئك اليوحنانيون على الجرحى الذين يرسلون إلى المستشفى أن يعترفوا أولاً ويذكروا كل ما صدر عنهم من أعمال سيئة ، ومن ثم يتناولون لقمة من الخبز الذي يسمى « جسد المسيح » ؛ وبعد كل هذه

الإجراءات فقط يسمح بإجراء الإسعافات الأولية للجريح .

أما في الوطن فقد كانت طائفة البنديكتيين هي التي تقوم بعلاج المرضى ، وعن هؤلاء انتقلت هذه الوظيفة إلى سائر الأديرة الأوربية ، وكان الراهب مطالباً عند ممارسته هذه المهنة باتباع الحب المسيحي من حيث العناية بالنفس البشرية والعمل على تخفيف آلامها ، لذلك أسست هذه الطائفة في مختلف الجهات أماكن الضيافة للرحالة والحجاج والأطفال غير الشرعيين واليتامى والشيخوخ والفقراء والمرضى . أما البيوت المخصصة بالمرضى فلم تعرفها أوربا قبل نهاية القرن الثاني عشر الميلادي ، وفقط بعد اتصال أوربا الصليبية بالشرق العربي حيث اقتبس المسيحيون نظم المستشفيات والملاجئ ، ولو أن أوربا ظلت زمناً طويلاً تحارب الأطباء ولا تعينهم في المستشفيات اعتقاداً من المسيحيين في أن رسالة الكنيسة فيما يتعلق بالمرضى هي تخفيف الآلام لا الشفاء .

ومن أوائل المستشفيات ، حسب قول شاهد عيان ، ومن أحسن المستشفيات الأوربية ذلك المستشفى المعروف في باريس باسم « أوتيل ديه » أي « فندق الله » وهذا المستشفى كما تصفه المراجع التي وصلتنا كانت أرضه مرصوفة بالطوب المغطى بالقش وعليه يتزاحم المرضى . . . أقدام هؤلاء إلى جانب رؤوس أولئك ، والأطفال إلى جانب الشيخوخ والنساء بجوار الرجال . . وأصحاب الأمراض المعدية مع غيرهم جنباً إلى جنب ، كما نجد نساء قد جاءهن المخاض وأطفالاً من المغص يتلوون ، ومصابين بالحمى يهدون ، ومرضى بالسل يسعلون ، وآخرين بالأمراض الجلدية ينهشون . وإذا أضفنا إلى هذا قذارة المستشفى ، وكثرة الهوام والحشرات ، ونقص الضروريات ، وشكوى المرضى ألم الجوع والعري ، أدركنا السر الذي اضطّر القائمين عليه إلى فتح أبوابه ليلاً ونهاراً تمكيناً لأهل المريض ومعارفه من إطعامه هذا الطعام الذي أودى بحياة الكثيرين من نزلائه . أما تهوية المستشفى فقد كانت من الرداءة بحيث اضطرت المرضى وغيرهم إلى وضع إسفنجة مبللة بالخل على أفواههم ، وخاصة أن جثث الموتى كانت تظل في أماكنها أياماً طويلة حتى تنقل . وكان المرضى هم الذين يقاسون من هذه الحالات أشد الأهوال وأنكرها ، من رائحتها الكريهة التي تبعثها ، وتجمع الذباب حولها .

مستشفيات وأطباء لم ير العالم نظيرهم

والدى العزيز : إنك تسأل عما إذا كنت تحضر لى نقوداً عند زيارتك، والواقع أننى عندما أغادر المستشفى تصرف لى إدارته كسوة جديدة وتسلمنى خمس قطع نقود ذهبية أنفق منها عقب خروجى من المستشفى مباشرة حتى لا أضطر إلى العمل وأنا فى حاجة إلى الراحة للنقاهاة . فأنت يا والدى لست فى حاجة إلى بيع ماشية من مواشيك ، والشىء الوحيد الذى أطلبه منك سرعة المبادرة ، إذا ما أردت ، زيارتى حيث أقيم الآن فى قاعة ذوى العاهات إلى جانب حجرة العمليات ، والوصول إليها سهل يسير ، فعند دخولك من المدخل الرئيسى للمستشفى اتجه إلى القاعة الخارجية الواقعة جهة الجنوب وهى المصحة الشعبية التى نقلت إليها عقب سقوطى ، وهناك يكشف على المريض مساعدو الأطباء وبرفقتهم الطلبة . أما المريض الذى لا يحتاج إلى علاج داخلى فى المستشفى فيحصل على كشف بالدواء الذى يحتاج إليه ، ويتناوله من صيدلية المستشفى . وبعد الكشف على كُتب اسمى فى سجل المستشفى وعرضت على كبير الأطباء، وقد حملنى ممرض إلى قسم الرجال بعد أن أدخانى الحمام وألبسنى ملابس نظيفة للمرضى . وعلى يسارك أيضاً تجد المكتبة والقاعة الكبرى للمحاضرات حيث يدرس كبير الأطباء الطلاب ، وهذا المكان يقع خلفك . أما الطريق الواقع فى جهة اليسار من فناء المستشفى فيؤدى إلى قسم النساء ، لذلك يجب عليك أن تلتزم دائماً ناحية اليمين ماراً بقسم الأمراض الباطنية ، وقسم الجراحة . وعندما تسمع موسيقى أو غناء فى قاعة من القاعات فانظر إلى داخلها إذ قد أكون فى القاعة النهارية للاستجمام والترويح عن النفس حيث نجد كتباً وموسيقى للتسلية .

ولما زارنى صباح اليوم كبير الأطباء ومعه مساعدوه والممرضون وكشف ، أملى على طبيب القسم شيئاً لم أفهمه ، وقد شرح لى بعد ذلك أننى قد أغادر السرير غداً وأترك المستشفى قريباً . والواقع أننى لا أريد مغادرة المستشفى فكل شىء هنا فى غاية النظافة والجمال ، فالأسرة وثيرة وأغطيها من القماش الدمشقى الأبيض وعليها أخرى هشة ناعمة

كالقطيفة. وفي كل غرفة ماء جارٍ وبها تدفئة تستخدم شتاء . أما وجبة الطعام فغالباً ما تتكون من الطيور أو شواء الضأن لأولئك الذين تحتل صحتهم مثل هذا .

إن جارى قد تمارض نحو أسبوع طلباً في إطالة البقاء بالمستشفى ل يتمتع بلحم صدر الفراخ إلا أن كبير الأطباء تبينه وأخرجه من المستشفى البارحة بعد أن تبين جودة صحته من أنه أكل رغيفاً وفرخة كاملة . إذن احضر يا والدى قبل أن تعدلى آخر دجاجة !

فالحالة كما يصورها الخطاب نستطيع أن ننسبها إلى القرن العشرين الذى كثيراً ما نشيد به . والواقع أن هذه الرسالة تصور مستشفى من المستشفيات الكثيرة التى كانت منتشرة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى قبل ألف عام من الهيالايا إلى البرنات ؛ فى قرطبة نجد فى منتصف القرن العاشر خمسين مستشفى . أما بغداد ، وقد فاقت غيرها واشتهرت بمستشفياتها منذ عهد هرون الرشيد ، فواقع المستشفيات قد أحسن اختيارها صحياً ، كما زودت جميع غرفها ومحال الغسل بها بالمياه الجارية المأخوذة من نهر دجلة ، وكان هذا شيئاً بدهياً . فعندما شرع السلطان عضد الدولة فى بناء مستشفى جديد كلف الطبيب المشهور الرازى اختيار أنسب مكان وأصح ، وأن عضد الدولة استشاره فى الموضع الذى يجب أن يبنى فيه بیمارستان ، وأن الرازى أمر بعض غلمانه أن تعلق فى كل ناحية من جوانب بغداد شقة لحم ؛ ثم اعتبر التى لم يتغير ولم يسهك فيها اللحم بسرعة فأشار بأن يبنى فى تلك الناحية ، وهو الموضع الذى بنى فيه بیمارستان .

وفى القاهرة لما أراد صلاح الدين تحويل قصر من قصوره إلى المستشفى الناصرى اختار من بينها القصر الذى لا تكثر فى قاعاته جموع النمل .

وقد شيد أولئك الملوك الأخيار إلى جانب القصور التى زودوها بمختلف وسائل الأبهة والراحة كثيراً من دور الخير والبر حيث توفرت فيها وسائل النوم والراحة أو الإقامة حتى لكبار رجال الدولة ، كما أن المستشفيات كانت مزودة ببعض قاعات النوم والحمامات المفتوحة للجميع .

ومن أشهر المستشفيات الإسلامية المستشفى الكبير المعروف باسم المنصورى أو دار الشفاء أو مارستان قلاوون ، ولما تم بناؤه توجه السلطان فى ركب عظيم ، ولما بلغ

البیمارستان استدعى قدحاً من الشراب فشربه وقال : « قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى » ، وأوقفه السلطان على الملك والمملوك ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ، ومن مات جهزه وكفن ودفن . ورتب فيه الحكماء الطبائعية والكحالين والجراثمية والخبرين لمعالجة الرمد والمرضى والمجروحين والمكسورين من الرجال والنساء ورتب الفراشين والفراشات والقومة لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم فى الحمام ، لكل مريض فرش كامل . ولم يحصر السلطان أثابه الله هذا المكان المبارك بعده فى المرضى ، بل جعله سبيلاً لكل من يصل إليه فى سائر الأوقات من غنى وفقير . ولم يقتصر أيضاً على من يقيم به من المرضى بل رتب لمن يطلب وهو فى منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية .

ويذكر القوم عن أطباء دمشق ضاحكين عن الأمير الفارسى وشهيته فى الطعام . فقد زار مرة مستشفى نورى فشم رائحة دجاجة محمرة ؛ فقرر التمارض وأخذ يتردد على المستشفى عدة مرات ففحصه الطبيب المختص فلم يجد به أى أثر لمرض فاحتار الطبيب فسأله هذا الفارسى الجشع سؤالين كشفهما للطبيب سر تمارضه إلا أن الطبيب المهذب لم يدع الفرصة تمر دون أن يشير إلى مريضه بالتوجه إلى قسم الأمراض الباطنية ووصف له طعاماً يتناوله مرتين يومياً وهو عبارة عن فطائر محشوة بالعسل وبداخلها قلوب فراخ وفراخ سمينة وحلوى ومختلف أنواع الأطعمة الشهية اللذيذة ، وبعد ثلاثة أيام تلاشت مقاومة المريض وساءت صحته فقال له الطبيب : « ثلاثة أيام كرم عربى ؛ وقد انتهت فتوكل فى رعاية الله وحفظه والسلام عليكم » .

أما مستشفى نورى هذا فقد أسسه الرجل الإنسانى الذى كان يعنى بشئون رعيته ألا وهو السلطان نور الدين زنكى (١١٤٦ - ١١٧٤) وقد شيده من فدية حمى عليها لإفراجها عن ملك من ملوك الإفرنج كان قد أسره وسجنه . ومن هنا كانت ترسل الأدوية إلى المنصور قلاوون القائد المصرى الشاب عندما أصيب بالقرب من دمشق فى مرارته . وبعد شفائه امتطى المنصور صهوة جواده وتوجه إلى المستشفى ؛ ومنذ ذلك الوقت طارده فكرة « واحة السلام » بينما كان يخوض غمار المعارك ؛ إنه يذكر القاعة ذات الهواء العليل فى المستشفى ، ويذكر الأسرة البيضاء

ذات الفراش الوثير . فندرك الله أنه - متى اعتلى عرش الحكم - سيشيد للمرضى مستشفى كهذا . فلما جاءت السلطنة وفي بوعده ونذره ، وأنفق على بناء المستشفى مالا كثيراً وشيده في الشارع الممتد بين برجى القاهرة . هذا هو المستشفى المنصوري ، وإنه حقاً قصر عظيم مؤثث أحسن تأثيث ، وكان أحدث وأكمل مستشفى على سطح الكرة الأرضية .

وليس فقط الخلفاء والسلاطين أو الأثرياء هم الذين شيدوا المستشفيات بل كذلك الأطباء مثل سنان بن ثابت وثابت بن سنان الابن والحفيد للفلكي العظيم ثابت بن قرة ، فقد أسس هؤلاء المستشفيات والمصحات ودور الإسعاف المتنقلة ، كذلك شيدوا مستشفيات الأسرى . ففي عام ٩٢٣ م أسس الوزير ابن الفرات في بغداد من ماله الخاص مستشفى لموظفيه حيث يعالجهم الأطباء مجاناً . وفي ميافارقين صارع الموت ابنة الحاكم فوعد والدها الطبيب المعالج أنه إذا شفاها قدم له وزنها ذهباً . والطبيب هو زاهد العلماء ، وقد استطاع شفاء الفتاة إلا أنه اعتذر عن قبول الذهب ورجا الحاكم أن يشيد بالمال مستشفى ، فاستجاب والد الفتاة وهو ناصر الدين وشيد المستشفى وأوقف عليه المال الكثير والأراضي الواسعة للإنفاق عليه . وكان المرضى يعالجون فيه مجاناً سواء كانوا أغنياء أم فقراء ، كما كانوا لا يدفعون شيئاً نظير إقامتهم في المستشفى ، وحتى العلاج كان يصرف لهم مجاناً ، وعلاوة على ذلك يتناول المرضى الملابس والنقود للإنفاق على الخصوصيات لمدة شهر بعد ترك المستشفى .

فمن أين كان يدفع جميع هذا ؟

الواقع أن الإنفاق على مثل هذه المؤسسات العظيمة كان يتطلب إيراداً منتظماً ثابتاً ودقيقاً ، فالمستشفى المنصوري مثلاً كان يحتاج سنوياً إلى مليون درهم ، وكان هذا المبلغ يؤخذ من إيرادات أملاك الدولة التي يرصد دخلها للمستشفى عند الشروع في بنائه .

أما إدارة الأملاك فكانت في يد أناس مشهود لهم بالأمانة والكفاية تستطيع الدولة أن تعتمد عليهم وتراقبهم ، كما أن إدارة المستشفى كانت غالباً في يد أمير . أما السلطان فكان حريصاً على الإلمام بكل ما يجري في المستشفى عن طريق التفتيش أو الاستجواب .

وتعرض مستشفى بدر غلام المعتضد لضائقة مالية فكتب والد ثابت بن سنان رسالة إلى أبي الحسن علي بن عيسى يشكو إليه هذه الحالة ويعرفه ما يلحق المرضى من ضرر :

قال ثابت بن سنان : وكانت النفقة على البيارستان الذي لبدر العضدي بالخرم من ارتفاع وقف سجاح أم المتوكل على الله ، وكان الوقف في يد أبي الصقر وهب ابن محمد الكاذاني ، وكان قسط من ارتفاع هذا الوقف يصرف إلى بني هاشم ، وقسط إلى نفقة البيارستان ، وكان أبو الصقر يروج على بني هاشم ما لهم ويؤخر ما يصرف إلى نفقة البيارستان ويضيقه ، فكتب والدي إلى أبي الحسن علي بن عيسى يشكو إليه هذه الحال ويعرفه ما يلحق المرضى من الضرر بذلك وقصور ما يقدم لهم من الفهم والمؤن والدار وغير ذلك عن مقدار حاجتهم ، فوقع على ظهر رقعته إلى أبي الصقر توقيعاً نسخته أنت أكرمك الله تقف على ما ذكره ، وهو غليظ جداً ، والكلام فيه معك خاصة فيما يقع منك يلزمك وما أحسبك تسلم من الإثم فيه ، وقد حكيت عنى في الهاشميين قولا لست أذكره وكيف تصرفت الأحوال في زيادة المال أو نقصانه ووفوره أو قصوره ، ولا بد من تعديل الحال فيه بين أن تأخذ منه وتعجل للبيارستان قسطاً ، بل هو أحق بالتقديم على غيره لضعف من يلجأ إليه وعظيم النفع به ، فعرفني أكرمك الله ما النكته في قصور المال ونقصانه في تخلف نفقة البيارستان هذه الشهور المتابعة وفي هذا الوقت خاصة من الشتاء واشتداد البرد ، فاحتل بكل حيلة لما يطلق لهم ويعجل حتى يدفأ من في البيارستان من المرضى والمرورين بالدار والكسوة والفحم ، ويقام لهم القوت ويتصل لهم العلاج والخدمة ، وأجبنى بما يكون منك في ذلك وأنفذ لي عملاً يدلني على حاجتك واعن بأمر البيارستان فضل عناية إن شاء الله تعالى .

ومن إيراد هذه الأراضي كانت تدفع كذلك مرتبات الموظفين كما أن مدير المستشفى كان مكلفاً بإعداد سجل لجميع المصاريف اليومية ومنه نتبين ميزانية المستشفى ومراتب الأطباء وغيرهم وأثمان الأدوية والأجهزة الطبية .

وكان كبير الأطباء هو المسئول عن سائر أطباء المستشفى ، وهو يختار عادة من بين زملائه الأطباء حسب مواهبه وكفايته وقدرته . وقبل أن يختار الرازي مثلاً رئيساً

للأطباء أثبت أولاً تفوقه على مئات من الأطباء المتخصصين في مختلف الأمراض ، وكان عدد أطباء المستشفى الذى يديره يبلغ أربعة وعشرين طبيباً منهم الجراحون والكحالون والطباطميون والمجبريون ، وكان كل طبيب يشرف على قسم خاص ، كما كانوا يتناوبون الخدمة . وقد كتب ابن أبى أصيبعة الطبيب الشاعر ، والذى درس الطب في بلده دمشق كثيراً ، تقريراً لطبيب عيون قد يصلح أن يكون من إنتاج العصر الذى نعيش فيه :

« أبو المجد بن أبى الحكم هو أفضل الدولة أبو المجد بن أبى الحكم عبيد الله ابن المظفر بن عبد الله الباهلى من الحكماء المشهورين والعلماء المذكورين والأفاضل في الصناعة الطبية والأمثال في علم الهندسة والنجوم ، وكان يعرف الموسيقى ويلعب بالعود ويحيد الغناء والإيقاع والزمير وسائر الآلات ، وعمل أرغناً وبالغ في إتقانه وكان اشتغاله على والده وعلى غيره بصناعة الطب وتميز في علمها وعملها وصار من الأكابر من أهلها ، وكان في دولة السلطان الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكى رحمه الله . وكان يرى له ويحترمه ويعرف مقدار علمه وفضله ، ولما أنشأ الملك العادل نور الدين البيارستان الكبير جعل أمر الطب إليه وأطلق له جامكية (مرتباً) وجراية وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه .

وحدثني شمس الدين أبو الفضل بن أبى الكحال المعروف بالمطواع رحمه الله أنه شاهده في البيارستان ، وأن أبا المجد بن أبى الحكم كان يدور على المرضى به ، ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك . قال : وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتى ويجلس في الإيوان الكبير للبيارستان وجميعه مفروش ويحضر كتب الاشتغال . وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت في الخورستانين (المدخلين) اللذين في صدر الإيوان ، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ثم تجرى مباحث طبية ، ويقرئ التلاميذ ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره . . .

أما المستشفيات الكبرى فقد كانت في نفس الوقت هي المدارس العليا للطب فالمواد التي علمها أبقرط وجالينوس وكبار العلماء العرب كان يتلقها الأطباء الناشئون في المحاضرات العامة تحت عقود المساجد وفي المدارس الطبية الخاصة التي كان يديرها الأطباء ، وكذلك في المستشفيات والعيادات ، وبينما كان يكتفى في الأديرة الأوروبية ومدارسها بتحصيل العلوم في الكتب إذ بنا هنا في العالم العربي نجد العلوم يقوم بتدريسها علماء عمليون يمارسون الطب — بخلاف الحال عند المسيحيين الذين كانوا يلوون ألسنتهم بنظريات جامدة جافة ويتجنبون بطريقة صوفية لمس الكائن الحي .

ففي المستشفيات العربية وحول الأسرة البيضاء كان الطبيب يطبق النظرى على العمل كما كان يستطيع فحص الجسد وتشريحه وفهمه وتقريبه إلى الأذهان .

وابن أبي أصيبعة يحدثنا في طبقاته عن عهد دراساته في دمشق ، وكيف كان الطلبة يرافقون الأستاذ عند زيارته للمرضى ، وكيف كانوا يدرسون عملياً مختلف الحالات عندما يفحصها الأستاذ ويشخص المرض ويصف العلاج ، بل كثيراً ما كانوا يسمعون المناقشة التي تدور بين رئيس الأطباء وزميل له مشهور ، فكانت زيارة الطلاب للمستشفى ذات فائدة مزدوجة : الدرس أولاً ونظام المستشفى ثانياً . هكذا كان يتكون الأطباء العرب ، ومثل هذا النظام لم يعرفه العالم من قبل اللهم إلا في العصر الحديث فقط . وقد بلغ من حرص الدولة الإسلامية على المصلحة العامة أنها لم تكن تسمح لطبيب بمزاولة ما تخصص فيه من طب إلا بعد أن يؤدي امتحانا نظرياً وعملياً وتمنحه الدولة إجازة ينص فيها على مادة تخصصه . ولم يكن هذا التشريع مقصوراً على شرق العالم الإسلامي بل كان له نظيره في الأندلس .

ويذكر المؤرخون أن تاريخ تشريع الحصول على مثل هذه الشهادة يرجع إلى عام ٩٣١ م عندما علم الخليفة المقتدر أن طبيباً بغدادياً ارتكب خطأ تسبب عنه موت المريض ، لذلك أصدر الخليفة أمراً بإجراء امتحان لسائر الأطباء الذين يزاولون هذه المهنة ، ولم يستثن من هذا الامتحان إلا الأطباء الذين يعملون في مستشفيات الدولة ، لذلك أمر بتكوين مجلس للأطباء وعين سنان بن ثابت رئيساً له . ولمعرفة مدى انتشار مهنة الطب وقتذاك يكفي أن نذكر أن عدد أطباء بغداد الذين كانوا يعملون خارج الحكومة بلغ نحو تسعمائة طبيب . . . في الوقت الذي لم يكن فيه في كل

حوض نهر الرين طبيب واحد . وبعد قرنين من وفاة الطبيب سنان أى فى القرن الثانى عشر كان كبير أطباء بغداد هو « ابن التلميذ » المتوفى عام ١١٦٤ م . ومن النوادر التى كانت تقع فى الامتحانات فى ذلك الوقت ما ذكره ابن أبى أصيبعة فى طبقاته عند حديثه عن أمين الدولة « ابن التلميذ » الذى كان قد قلده الخليفة رئاسة الطب ببغداد، أنه لما اجتمع إليه سائر الأطباء ليرى ما عند كل واحد منهم من هذه الصناعة كان من جملة من حضره شيخ له هبة ووقار وعنده سكينة، فأكرمه أمين الدولة، وكانت لذلك الشيخ دربة ما بالمعالجة ، ولم يكن عنده من علم صناعة الطب إلا التظاهر بها، فلما انتهى الأمر إليه قال له أمين الدولة : ما السبب فى كون الشيخ لم يشارك الجماعة فيما يبحثون فيه حتى نعلم ما عنده من هذه الصناعة ؟ فقال : يا سيدنا وهل شىء مما تكلموا فيه إلا وأنا أعلمه ، وقد سبق إلى فهمي أضعاف ذلك مرات كثيرة . فقال له أمين الدولة : فعلى من كنت قد قرأت هذه الصناعة ؟ فقال الشيخ : يا سيدنا إذا صار الإنسان إلى هذه السن ما يبقى يليق به إلا أن يسأل : كم له من التلاميذ ، ومن هو المتميز فيهم ؟ وأما المشايخ الذين قرأت عليهم فقد ماتوا من زمن طويل ؛ فقال له أمين الدولة : يا شيخ هذا شىء قد جرت العادة به ولا يضر ذكره، ومع هذا فما علينا، أخبرنى أى شىء قد قرأته من الكتب الطبية ؟ وكان قصد أمين الدولة أن يتحقق مما عنده، فقال : سبحان الله العظيم . . صرنا إلى ما يسأل عنه الصبيان ، وأى شىء قد قرأته من الكتب . . يا سيدنا لمثل ما يقال إلا أى شىء صنفته فى صناعة الطب ، وكم لك فيها من الكتب والمقالات ؟ ولا بد أننى أعرفك بنفسى . ثم إنه نهض إلى أمين الدولة ودبنا منه وقعد عنده وقال له فيما بينهما : يا سيدى اعلم أننى قد شخت وأنا أوسم بهذه الصناعة ، وما عندى منها إلا معرفة اصطلاحات مشهورة فى المداواة، وعمرى كله أتكسب بها، وعندي عائلة، فسألتك بالله يا سيدى مشحالى ولا تفضحنى بين هؤلاء الجماعة . فقال له أمين الدولة : على شريطة، وهى أنك لا تهجم على مريض بما لا تعلمه ولا تشير بفصد ولا بدواء مسهل إلا لما قرب من الأمراض ، فقال الشيخ هذا مذهبي منذ كنت ما تعديت السكنجيين والجلاب . ثم إن أمين الدولة قال له معلناً والجماعة تسمع يا شيخ اعذرنا فإننا ما كنا نعرفك، والآن قد عرفناك استمر فيما أنت فيه فإن أحداً ما يعارضك . ثم إنه عاد بعد ذلك فيما هو فيه من الجماعة، وقال لبعضهم : على من قرأت هذه

الصناعة، وشرع في امتحانه فقال له يا سيدنا إننى من تلامذة هذا الشيخ الذى قد عرفت عليه كنت قد قرأت صناعة الطب، ففطن أمين الدولة بما أراد من التعريض بقوله وتبسم ثم امتحنه بعد ذلك . .

وحرصاً على تنفيذ اللائحة الطبية فيما يتعلق بالامتحانات وتخصص الأطباء وضع امتحان في الجراحة لجراح جاء فيه ؛ هل درس هذا الجراح تشريح وجراحة « بولوس فون إيجينا » و « على بن العباس » ؟ وهل يلم هذا الجراح بجبر العظام والالتواء ومعالجة الحصوة واللوز وإزالة سحابة العين وفتح الحراجات ؟ وهل هو ملم بالبتر أو فتح الجمجمة (تربنة) ؟ وكان إذا نجح طالب الطب في الامتحان بمنح إجازة تجيز له مهنة الطب وتخصص الجراحة الصغيرة، وهى تنص بعد البسملة على منح الطالب حق ممارسة مادة تخصصه حتى شفاء المريض كما تذكر حقه في فصد العرق وإزالة البواسير وخلع الأسنان وخياطة الجروح وختان الرضع . . كذلك تحتم عليه وجوب استشارة رؤسائه ومعلميه ذوى الخبرة والمعرفة .

أما مجالس الأطباء التى كانت تعقد لمدارسة الحالات الصعبة المعقدة فقد كانت ضماناً آخر لتجنب الوقوع فى الأخطاء الفنية وضماناً لدقة وصحة تشخيص المرض والعلاج . وأكبر المستشارين من بين الأطباء سنّاً هو الذى يرأس المجلس ويتولى أصغرهم سنّاً تسجيل المحضر .

وعند إجراء العمليات الجراحية الكبرى يساعد الطبيب زميله كما هو الحال اليوم فى أوربا ، فنجد أحد الأطباء يقوم بعملية التخدير وذلك بواسطة قطعة من الإسفنج مبللة بالحشيش أو زهرة البسلة ومن ثم يضعها أمام أنف المريض لتخديره ثم هناك طبيب ثان يراقب نبض المريض وثالث يجرى العملية وبكل عناية ودقة وحذر عندما يستخدم المبضع ، فالجرح يجب ألا يكون كبيراً جداً أو عميقاً جداً . أما المساعد فعليه أن يحجز الجلد بمجرفة صغيرة دقيقة . وإذا ما فرغ الجراح من اتخاذ جميع هذه الاستعدادات يأخذ فى إجراء العملية وليكن بنخفة ليخلص الجراح من النسيج المحيط به ، كما على الجراح ألا يتلف وعاء أو يفصل عصباً . فإذا أصاب عرقاً فعليه أن يربطه بعناية ودقة حتى لا يغطى ويغمر الدم موضع العملية فيعوقه من إجراء العملية بدقة وعناية . فإذا كشف الجراح على الجراح ليتحسس فليؤكد أنه

لا توجد بقايا صغيرة بالجسم ومن ثم يستبعد جميع البقايا بدقة ، وإذا ما أخرج الجراح وانتزعه فليسرعن ويرجع الجلك إلى موضعه الأعلى . أما الزيادة فليستأصلها ، وبعد ذلك عملية الخياطة بأعصاب قطة . هكذا كان يعلم على بن العباس .

ويذهب على بن العباس بعيداً ويقرر أن الطب قد لا يفيد في حالة السرطان فهو يطالب الجراح بانتزاعه من العضو المطب ، وذلك بإزالة كل ما حول السرطان حتى لا تبقى جذور المرض في الجسم ، ثم بعد العملية يجب وضع قطعة من القماش مبللة بالنبيذ لتجنب حدوث تلويث ولالتئام الجرح .

لذلك تجب مراعاة العناية الكاملة عند إجراء مثل هذه العملية فالعناية لا تقصر على العضو المريض بل تمتد إلى سائر أجزاء الجسم ، والطبيب مطالب عند الكشف على المريض أن يوجه إليه السؤال تلو السؤال ، وعلى الطبيب أن يسأله عن الآلام التي تؤله وكيف يعيش وما هي عاداته وما هي الأمراض التي أصيب بها من قبل وما هي الأمراض الموجودة في الأسرة؟ كل هذه المسائل يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار .

أسئلة لا تنقطع توحى إلى الإنسان كما لو أنها حديثه بنت اليوم يوجهها الطبيب إلى المريض وهو يكشف عليه كشفاً دقيقاً . على الطبيب أن يتفرس في وجهه ولون وحالة الجلد والشعر وعمق التنفس ، وهكذا يكون لنفسه صورة من المريض وحالته وطبيعته ، ومتى فرغ الطبيب من ذلك يشرع في دراسة حالته العقلية فيوجه إليه مختلف الأسئلة ليتأكد من أن إجابته معقولة وليست مشوهة مضطربة . وكذلك على الطبيب أن يأمر المريض بأن يأتي أفعالا بعينها ليتأكد من قواه العقلية ومدى طاعته وإلى أي حد سينفذ المريض نصائح الطبيب وأوامره . وبعد ذلك يحاول الطبيب أن يعرف اتجاهاته الخلقية وما هي الأشياء التي تثيره وتؤله أو تفرحه وتسعده . ثم يطلب إلى الطبيب أن يهمس إلى المريض عن دعد لمعرفة حالة السمع ، والنظر إلى الأجسام عن قرب أو بعد لاختبار قوة الأبصار كما يفحص لسان المريض وقوته الجسدية ، وذلك بأن يقدم له أثقالا مختلفة يحملها ويأمره أن يقبض على أشياء بعينها وبقوة . ويجب على الطبيب أن يراقب حركات المريض وسكناته ويتأكد من حالة قلبه ، وذلك عن طريق النبض ، ولكي يتبين حالة عضله يأمره بالاستلقاء على الأرض باسطاً



أطباء من العرب حول سرير الملك فلهم
وقبل عصر قسطنطين الإفريقي وصلت إلى أوروبا معلومات طبية وعقاقير
وتقارير علاجية من صقلية المجاورة

ذراعيه وساقيه . أما الكشف على الكبد والكلى فيتم عن طريق اللمس والبول والبراز .
وما يثير الإعجاب حقاً ما توصل إليه العرب عن طريق النبض وتحليل البول ،
فقد كانوا يعتمدون على هذا التحليل متى توافرت له شروط خاصة . وقد توصلوا
عن طريقه إلى أشياء خافية كثيرة .

ومن أشهر الأطباء الذين نبهوا في هذا ابن قرة حتى إن أبا الحسن السرى
أحد شعراء سيف الدولة بن حمدان مدحه بقصيدة لما شفاه من التهاب في الحبيب
بالقلب جاء فيها :

هل للليل سوي ابن قرة شاف بعد الإله وهل له من كاف
أحيا لنا رسم الفلاسفة الذي أودى وأوضح رسم طب عاف
فكانه عيسى بن مريم ناطقاً بهب الحياة بأيسر الألفاف
مثلت له قارورتي فرأي بها ما اكنن بين^١ جوانحي وشغافى
يبدو له الداء الخفى كما بدا للعين رضر اض الغدير الصافى

ومبالغة في الدقة والعناية نجد ابن سينا ينصح ويقول يجب ألا نعتمد كل الاعتماد على النتائج وذلك لأن ما نصل إليه من فحص البول يجب أن يتم بشروط خاصة : فالبول يجب أن يكون أول بول الصباح، ويجب ألا يمضي زمن طويل بين الحصول عليه وفحصه . وإبان الليل يجب على المريض ألا يشرب كثيراً من الماء أو يأكل شيئاً له لون خاص مثل الزعفران أو الرمان، ويجب على المريض ألا يتحرك كثيراً أو يقوم بأعمال كثيرة غير تلك العادية التي يأتى بها كل يوم مثل الصوم أو الاستيقاظ مؤخراً أو إجهاد الجسم إجهاداً فوق العادة ، وذلك لأن هذه الأعمال تسبب الجوع فينتج عنه هيجان البول كما أن الاضطجاع الجنسي يعكر البول ، وكذلك التواء .

أما النتائج التي يحصل عليها الإنسان عن طريق تحليل البول فتتوقف على اللون والقوام والوضوح أو عدمه والرواسب والكمية والرائحة والرغوة وأقل فرق بين هذا البول والبول الطبيعى ، كما أن أقل تغيير في حالته تستدعى الانتباه والاهتمام وتتخذ بعين الاعتبار ، ويجب أن تسجل جميع الملاحظات . وقد درجت المستشفيات العربية على استخدام نظام التسجيل والعناية به والاعتماد عليه سواء فيما يختص بالفحص أو التشخيص أو العوارض المختلفة ، كذلك التعليمات المتعددة وآثارها وتطور الحالة العامة ، وبالاختصار كنا نجد في المستشفيات تسجيلاً للمرض وحالاته يكاد يكون تاريخاً له .

فمن هذه التسجيلات التي تؤرخ المريض والمرض في المستشفيات الكبرى ببغداد ومدينة الرى الواقعة في قلع الجبال في الربع الأول من القرن العاشر تم وضع مؤلف



طبيب عربي يعد الدواء

لقد نجح العرب حقاً في الوصول إلى اختراعات نظرية وعملية وتركيبات كيميائية جديدة

قيم في الطب ، وقد ظل مئات السنين مستخدماً كمرجع طبي دزاسي لأطباء أوروبا .
فهو سجل للتجارب العملية ، التي يجب على الأطباء مراعاتها وعلى الطلبة دراستها ،
وقد وضع هذه المجموعة أكبر طبيب في العصور الوسطى وأحد عظماء أطباء العالم
والإنسانية في مختلف العصور .

أحد نوابغ الطب العالميين في مختلف العصور

قبل ستة قرون امتلكت كلية الطب بباريس أصغر مكتبة في العالم . وكانت محتوياتها كتاباً واحداً ، وهذا الكتاب لمؤلف عربي .

لقد كان مؤلفاً قيماً جداً حتى إن صاحب الجلالة ملك جميع المسيحيين لويس الحادى عشر أراد مرة استعارته فدفعت تأميناً اثني عشر ماركاً فضة ومائة ريال ذهباً ، وكان غرضه من استعارته تمكين أطبائه الخصوصيين من الحصول على نسخة منه للرجوع إليها إذا ما طرأ على صحة صاحب الجلالة طارئ ما .

فهذا الكتاب الذى كان يكون مكتبة كلية طب جامعة باريس يوماً ما عبارة عن موسوعة لسائر المعارف والعلوم الطبية منذ العصور اليونانية القديمة حتى عام ٩٢٥م ، ولم تضاف القرون الأربعة التى مضت على كتابته شيئاً يذكر في عالم الطب ، فكان هذا الكتاب الطبى العظيم جداً والذى وضعه عالم عربى لا تدانيه جميع هذه الرسائل التافهة التى كانت تملأ مختلف المكتبات التى عرفتها الأديرة المسيحية الأوربية .

وكان الباريسيون يقدرون حقاً قيمة هذا الكتاب الذى تتكون منه مكتبتهم الطبية ، حتى إنهم أقاموا لمؤلفه نصباً تذكاريّاً في المدرج الأكبر لكلية الطب ، واليوم ما زال طلاب مدرسة الطب يشاهدون يومياً صورته وصورة عربى آخر عندما يجتمعون في قاعة المحاضرات الكبرى في شارع « سان جرمان ده بريه Baulevard St. Germain des pres » ، وقد أطلقت أوربا على مؤلفنا العربى الرازى - واسمه الكامل أبو بكر محمد ابن زكريا - لفظ « رازيس Rhasis » .

وقد ولد الرازى في مدينة الري بخراسان الواقعة شرقاً قليلاً من طهران الحالية ، وكان ذلك في منتصف القرن التاسع الميلادى عندما استطاع حفيد شارلمان تقسيم دولة الكارولينجيين . أما سكان جبال خراسان فقد كانوا شقراء الشعر حتى إن العرب أطلقوا عليهم لفظ « ثعالب الري الحمر » .

وكان الرازى أشقر اللون عظيم الجسم . ولما كان طفلاً لم يظهر شيئاً من النبوغ ، وقد غنى وعزف على العود إلا أنه لم يمتز على زملائه واهتم مثلهم بالدراسات الفلسفية واللغوية والرياضية ولم تظهر عليه معالم النبوغ التى توحى بأنه سيصبح شخصية ممتازة

في المجتمع الإسلامي اللهم إلا في الموسيقى فقد أبدى نوعاً من التفوق . وكان يكتسب قوته اليومي بمختلف المهن والوسائل ، وهكذا ظل على هذا المنوال حتى بلغ الثلاثين من عمره ، وكان ناقماً على حياة البطالة التي يحياها ، وكان متعطشاً إلى عمل يشغله كل وقته فترك مهنة الصيرفة ومسقط رأسه وتوجه إلى بغداد شأنه في ذلك شأن كثيرين ممن سبقوه معتقداً أن الدهر الذي كثر له حيث هو قد يبتسم له في بغداد كما ابتسم لسابقه .

وما كاد يصل إلى عاصمة العباسيين حتى أقبل بحماس على دراسة الطب فبدأ أولاً بأخذ اللغات اليونانية والفارسية والهندية ومبادئ الطب على حنين بن إسحق الذي كان رئيس مترجمي أبناء موسى وكثيرين من الخلفاء . وبعد إتقانه هذه المواد وإلمامه بها الإلمام الكافي عاد إلى الري كمدير لمستشفاهها ، لكنه لم يقنع بهذا ، وبعد قليل من الزمن تقدم ليشغل وظيفة كبير أطباء المستشفى الكبير بالعاصمة التي تجاوز سكانها المليون ونصف المليون نسمة . وقد تقدم لشغل هذا المنصب نحو مائة طبيب إلا أن الاختيار وقع عليه ، ومن حسن طالعهِ أن أصبح كذلك الطبيب الخاص للخليفة ففتحت له أبواب القصر وأصبح مرموقاً من الجميع .

وهكذا أخذ نجمه يسطع وشهرته تنتشر لا كطبيب فحسب بل كأستاذ أيضاً فقصده الطلاب من مختلف أنحاء الدولة ومنهم نفر من الأطباء الذين سمعوا عن شهرته العلمية وتجاربه الطبية آملين الاغتراف من بحر علمه الزاخر فكانوا يرافقونه عند القيام بجولته اليومية في المستشفى فكانت محاضراته وعياداته تغص بطلاب المعرفة وعشاق العلم من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه وآخرين .

إن مثل هذا الإقبال على عالم لم يحدث من قبل ، فقد كان الأستاذ الرازي أكبر مرجع في الحالات العسيرة التي يصعب الفصل فيها تشخيصاً وعلاجاً وهو الأمل الأخير لمن يقاسون أشد الآلام ، حتى قصده المرضى وغيرهم من مختلف نواحي البلاد سعياً وراء الشفاء والمعرفة . هكذا يتحدث القوم عنه حتى بعد وفاته بقرنين فابن أبي أصيبعة يذكر :

« وما حكى عنه من بدائع وصفه وجودة استدلاله قال القاضي أبو علي المحسن ابن علي بن أبي جهم التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة : حدثني محمد بن علي

ابن الخلال البصرى أبو الحسين أحد أمناء القضاء ، قال : حدثني بعض أهل الطب الثقات أن غلاماً من بغداد قدم الرى وهو ينفث الدم ، وكان لحقه ذلك فى طريقه ، فاستدعى أبا بكر الرازى الطبيب المشهور بالحدق صاحب الكتب المصنفة فأراه ما ينفث ووصف ما يجد ، فأخذ الرازى مجسته ورأى قارورته واستوصف حاله منذ بدأ ذلك به ، فلم يقد له دليل على سل ولا قرحة ولم يعرف العلة فاستنظر الرجل ليتفكر فى الأمر ، فقامت على العليل القيامة وقال : هذا يأس لى من الحياة لحدق المتطبب وجهه بالعلة ، فازداد ما به ، وولد الفكر للرازى أن عاد إليه فسأله عن المياه التى شربها فى طريقه فأخبره أنه قد شرب من مستنقعات وصهاريج ، فقام فى نفس أبي بكر محمد ابن زكريا الرازى المتطبب الرأى بحدة الخاطر وجودة الذكاء أن علة كانت فى الماء فحصلت فى معدته وأن ذلك النفث للدم من فعلها . فقال له : إذا كان فى غد جثتك فعالجتك ولم أنصرف أو تبرأ ولكن بشرط أن تأمر غلمانك أن يطيعونى فىك بما أمرهم به فقال : نعم ، وأنصرف الرازى فجمع له ملء مركنين كبيرين من طحلب أخضر فأحضرهما من غد معه وأراه إياهما وقال له ابلع جميع ما فى هذين المركنين . فبلع الرجل شيئاً يسيراً ثم وقف فقال : ابلع . فقال : لا أستطيع ، فقال للغلمان : خذوه فأنيموه على قفاه ففعلوا به ذلك وطرحوه على قفاه وفتحوا فاه وأقبل الرازى يدس الطحلب فى حلقه ويكبسه كبساً شديداً ويطلبه ببلعه شاء أم أبى ويهدده بالضرب إلى أن بلعه كارهاً أحد المركنين بأسره والرجل يستغيث فلا ينفعه مع الرازى شىء إلى أن قال : الساعة أقذف ، فزاد الرازى فيها يكبسه فى حلقه فذرعه التىء قذف ، وتأمل الرازى قذفه فإذا فيه علة ، وإذا هى لما وصل إليها الطحلب قرمت إليه بالطبع وتركت موضعها والتفت على الطحلب . فلما قذف الرجل خرجت مع الطحلب ونهض الرجل معافى .

إن كفاية الرازى الطبية لا تعدلها كفاية طبيب آخر منذ عهد جالينوس فقد كان الرازى لا يمل العمل ولا يعرف الكلل فى سبيل اكتساب المعرفة والتوسع فى معلوماته الطبية ليس فقط حول أسرة المرضى الذين كانوا دائماً يحظون برعايته بل بالاطلاع وإجراء الأبحاث الكيماوية إذا ما آوى مرضاه إلى مضاجعهم ولم يقف أمره عند هذا بل كثيراً ما قام بالأسفار البعيدة وراء البحث والاطلاع فكان على اتصال

دائم بقطاع علماء عصره ، كما اشتهر ببحثه طلابه على التحلى بجميل الأخلاق وكرم الصفات فهنة الطب شريفة لا يرعاها إلا الطبيب الشريف لذلك كثيراً ما حذر تلاميذه كتابياً وشفوياً من أعمال النصب والاحتيال ؛ وهكذا أصبح الغلام الذى كان يحاول التكسب عن طريق الموسيقى والصيرفة طبيباً عالمياً مشهوراً موضع عطف الأمراء وتقديرهم . كان الرازى حبيب الشعب وصديقه ومعبود الفقراء والمحتاجين ، فقد كان يعالجهم بدون أجر ويعاونهم على الشفاء من ماله الخاص بينما يقنع هو بالقليل اليسير .

لقد توفى عام ٩٢٥ م فقيراً معدوماً فكرمه الخاتمي أوصله إلى ما يقرب من التسول ، وحسد زملائه وحقد هم عليه ودسهم له دينياً وسياسياً أقصاه من مختلف الأعمال والوظائف التى كان يعيش منها سواء فى بغداد أو الرى .

لذلك حنت عليه أخته خديجة بعد أن عضته الفاقة وأصبح من المتعذر عليه إيجاد قوته اليومى وآوته إلى بيتها . وهكذا نجد الرازى وقد غربت شمس حياته يمضى الأيام الأخيرة فى بؤس وشقاء بينما خلف وراءه أياماً كلها سعادة وهناء . الرازى الذى ساعد الآلاف فقد بصره وأصبح ضريراً بسبب السياط التى ألهب بها ظهره حاكم خراسان المستبد المنصور بن إسحق لأنه قام ببعض التجارب الكيماوية ولم ينته فيها إلى نتيجة . ولا شك فى أن هذه السياط هى التى أدت إلى فقدانه بصره .

وما هو جدير بالذكر أن كحالا زار الرازى لفحص عينيه فسأله الرازى عن عدد جلد العين فتلعثم الكحال ولم يجر جواباً ، فقال الرازى : إن الذى يجهل هذا يجب ألا يستخدم مبضعه فى عينى ، وبالرغم من كل المحاولات التى بذلت لإقناعه بإجراء العملية لصالح بصره رفض الرازى وقال : « لقد رأيت كثيراً من العالم حتى سئمه » .

وهكذا نجد الرازى وقد سبقت عقليته روحه وأبصرت عيناه الميئتان ما قدر له ودونه على الورق :

لعمري ما أدري وقد آذن البلى بعاجل ترحال إلى أين ترحالى
وأين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالى

إن الحصاد الذى جنته الإنسانية من حياة الرازى الغنية بالكفاح والجهاد فى سبيل الطب وتقدمه عظيم جداً ، فأخته خديجة تذكر أنه ترك أكثر من مائتين وثلاثين مؤلفاً ورسالة ، وهذه المؤلفات لا تعالج الطب أو الكيمياء فقط بل تناولت كذلك الدين والفلسفة والفلك والطبيعة والرياضيات ، فهناك رسالة عنوانها : بسبب أن المغنطيس يجذب الحديد ؛ وأخرى عن الفراغ ، وكتاب هيئة العالم غرضه أن يبين أن الأرض كروية وأنها فى وسط الفلك وهو ذو قطبين يدور عليها ، وأن الشمس أعظم من الأرض والقمر أصغر منهما ، وما يتبع ذلك من هذا المعنى . ومن مؤلفاته كتاب فى العلم الإلهى على رأى أفلاطون وقصيدة فى العلم الإلهى . وكتاب الخمسين فى أصول الدين .

ويؤثر عن الرازى أنه كان يعتقد أن مجلساً من خمسة عناصر إلهية يدير العالم ، وهذا يعارض تعاليم الإسلام ، كما وضع كتاباً يدعو إلى شىء من الحرية الدينية ويفصل بين الأخلاق والدين ويدعو إلى حياة جريئة لا يهددها الوعد أو الوعيد فى العالم الآخر ، وذلك لأن العقل والمعرفة يثبتان عدم وجود الحياة الأخرى بعد الموت . كذلك خلف لنا الرازى كتباً فى الطب و بعض القصائد الغزلية . وإلى جانب هذه الأكداس المكدسة من المخطوطات يوجد صندوق مزدحم بلفائف التعليقات ، وأخرجت السيدة بطاقة قرأها عبد الله بن سودة فإذا هى تعرض للحمى المتقطعة التى تعود المريض ربما كل ستة أيام وأحياناً كل يومين أو أربعة أو كل يوم ، وهذه الحالات الثلاث تصحبها قشعريرة ببرودة ويعتاد المريض كثرة التبول فأبدي رأيه وقال : « إن هذه هى عوارض الحمى المتقطعة أو تكون خراجاً فى الكلى . وبعد مدة يظهر قيح فى بول المريض ، لذلك أخبرته أن الحمى لا تعود ثانية ، وهكذا كان ، والذى عاقبى فى أول الأمر هو صعوبة تشخيص المرض والتأكد من أن سبب المرض هو وجود خراج فى الكلى لذلك رأيت بادئ ذى بدء أن هذه الحمى المتقطعة نشأت عن طريق التهاب ، وهذا تعليل معقول ومقبول ، وعلاوة على ذلك فالمرضى لم يشك أماًى من الصعوبة التى يلقاها فى الحقون عند القيام ، كما لو أن ثقلاً معلقاً فيهما ، وقد فاتنى أن أسأله عن هذه الحالة . وكثرة التبول عللتها حسبما أعتقد بسبب وجود الخراج فى الكلى ، فلو كنت أعلم أن والد المريض كان عنده ضعف فى المثانة

وكان يقاسى من هذا المرض كثيراً وأن ابنه يعانى من نفس المرض فى أيامه العادية عندما كان معافى ، فواجبنا أن نعى به عناية خاصة إن شاء الله . وعندما بال المريض القيح مع البول أمرت له باستخدام مدر للبول حتى تخلص البول من القيح وبعد ذلك وصفت له خلات الألومنيوم ونجوراً و . . . »

وهنا تنتهى الورقة ، ومن ثم أمسكت خديجة بورقة أخرى : « أبو بكر بن هلال يشكو آلاماً فى المعدة » و « محمد بن عيسى مصاب بالتهاب فى مفاصل الحقوين » فلا فائدة من الكشف عليه أو علاجه . وظل الصندوق مقفلاً زمناً طويلاً ثم حضر ابن العميد وزير السلطان إلى الرى ومن ثم توجه إلى المنزل الذى توفى فيه هذا الطبيب الشهير ، فسلم خديجة مبلغاً كبيراً من المال وأخذ الصندوق بما فيه وجمع أطباء المدينة وتلاميذ الرازى وكلفهم بالاطلاع على هذه الأوراق ومراجعتها وتنظيمها بحيث يتكون منها كتاب يصلح للنشر .

وقد تحققت هذه الرغبة ، وكان هذا السفر هو الموسوعة التى عرفت فيما بعد باسم كتاب الحاوى أو الجامع الكبير أو الجامع الخاص بصناعة الطب ، وهو يعرف فى أوربا باسم « كونتيننس Continens » وهو موسوعة تقع فى نحو ثلاثين مجلداً تعالج الموضوعات الطبية المختلفة من عهد أبقراط حتى عصر جمعه ، فما أعظم هذه المعلومات وأقيمها التى كان يعرفها الرازى ! لقد اطلع على جميع ما وقع فى يده من كتب الطب واستشهد فى الحاوى بمختارات من المراجع اليونانية والهلينية والهندية والفارسية والسريانية والعربية مع الدقة فى ذكر المراجع عند الحديث عن كل مرض من الأمراض التى عالجها أو اهتم بها ، وإلى جانب ذلك كان يذكر رأيه الخاص وتجاربه ليجعل من موسوعته كتاباً أقرب إلى الكمال ليتوج به حياته ، إلا أن العمى الذى أصابه والموت الذى اختطفه حالادون تحقيق هذه الأمنية .

أما تلاميذه فقد تناولوا هذا السفر العظيم وتقاسموه بينهم لإعداده للنشر ، لذلك ظهرت فيه بعض الخلافات نظراً لتعدد المؤلفين فنحن نجد فيه اختلافاً فى العرض والتأليف واختلافاً فى المنطق عن سائر مؤلفات الرازى الأخرى .

وهناك كتابان آخران للرازى وجدا شهرة أكبر وأعظم من الحاوى ، كما ترجما إلى مختلف اللغات ، وهما يعالجان الطب بطريقة منتظمة ، كما يتحدثان عن مختلف

الأمراض التي تنتاب الإنسان من رأسه حتى أخمص قدمه وأعراض هذه الأمراض وتطورها وعلاجها في المستشفى وطبها .

وقد أهدى المؤلف الكتاب الذي عرف باسم المنصوري إلى حاكم خراسان وهو يعرف في اللاتينية باسم *Liber medicinalis ad Almansorem* أي « كتاب الطب المنصوري » أو « الكتاب المنصوري *Liber Almansoris* » ، وللرازي أيضاً كتاب الأقطاب وكتاب الشفاء في ساعة ، وقد وضع الأخير استجابة لرغبة الوزير ابن القاسم بن عبد الله ، وذلك عقب مناقشة دارت حول المدة التي يجب أن يعالج فيها المرض فقال بعض الأطباء الحاضرين : إن علاج المرض يحتاج إلى الزمن الذي احتاجه للظهور . فقال الرازي عن هذا الاجتماع : لقد قالوا هذا حتى يسمحو لأنفسهم بزيارة المريض مرات عديدة ليحصلوا على أكبر مبلغ ممكن ، فاندesh الوزير عندما سمع مني أن بعض الأمراض قد يشفي في ساعة ورجاني أن أكتب له في هذا كتاباً ، وها هو الكتاب .

ومن كتب الرازي الكثيرة الانتشار كتابه الخاص بأولئك الذين لا يتيسر لهم استدعاء الطبيب ، وهو أول معجم طبي للاستعمال في البيت ، وهو يصف الأمراض المختلفة بدقة فائقة كما يصف علاجها بواسطة مواد متوفرة في كل مكان وبأدوية موجودة في كل مطبخ وكل بيت .

أما مؤلفه الخاص بعلاج مرض بعينه فله شهرة عظيمة ، وهذا هو الكتاب المعروف باسم « كتاب الجدرى والحصبة » فقد فتح الرازي بهذا الكتاب حقلاً جديداً لم يطرقه أحد من قبل ، والرازي في كتابه هذا يفحص الحالة في طبيعتها كما يستطيع إصدار حجه غير مقيد بآراء الآخرين التي أصبحت وكأنها قوانين يجب احترامها والأخذ بها ، أما الرازي فهو يصدر رأيه اعتماداً على تجاربه الخاصة والنتائج التي انتهى إليها .

إن مثل هذا المنهج في البحث وهو الاعتماد على تشخيص المرض كما هو حسب وضعه وأثره في المريض مستخدماً وسائله الطبية الخاصة جديد في عالم الطب . ويجب أن نذكر هنا كتاباً صغيراً وضعه الرازي وهو يعتبر حجة في مادته ، وقد طبع في أوروبا في الفترة الممتدة بين عامي ١٤٩٨ - ١٨٦٦ م أربعين مرة ، وإلى هذا

المؤلف ترجع هذه البحوث الخاصة بالنقرس والحصوة وأمراض المثانة والكلى وأمراض الأطفال .

كذلك يهتم الرازي بحالة الطقس ومختلف مواقع الأقاليم من حيث الحرارة والرطوبة والرياح والحالة الصحية للمساكن وتزويدها بالحمامات كما كان يهتم بتنقية هواء المساكن عن طريق البخور لطرد الروائح الكريهة وتهوية غرف المرضى ، كما يحرص على وجود الحرارة المعتدلة والمياه الصالحة للشرب والغسل والاستحمام .

إن جميع الأشياء التي كان يعنى بها هذا الطبيب العربى والتي تبين مدى المستوى الذى بلغته العناية الصحية فى العالم الإسلامى — كانت جميع هذه الوسائل وتلك الاتجاهات — قذى فى عيون رجال الكنيسة وخطيئة كبرى ، لذلك كانت الكنيسة قبل الحروب الصليبية لا تحارب هذه الاتجاهات فقط بل كانت تعدّ الألعاب الرياضية ومختلف أنواع النشاط [الجسمانى من كبرى] الخطايا وتتعارض مع البكارة .

ويذكر عن الرازى أنه كثيراً ما استخدم الممرضين وغيرهم لنقل المرضى إلى أصح الأماكن لأنه يعتبر الهواء العليل من أحسن الأدوية وهو لديه لا يقل أهمية عن العقاقير النباتية التي كان يفضلها الرازى على سواها وكان المريض يتناولها كما هي فى حالتها الطبيعية . وإن لم تفد هذه العقاقير المريض استعاض عنها بالكمائيات ، لذلك وضع كتاباً وأكثر فى إعداد الطعام والأغذية الحمية . كما كان كثيراً ما ينصح باستخدام طرق خاصة لإعداد الطعام الصحى المفيد فمثلاً قبل طهى البقول الجافة يجب سكب الماء الذى استخدم لتطريتها حتى لا يتسبب هذا الماء فى إحداث الغازات عند تناولها . وهو يقدم كذلك إرشادات أخرى للطهى وحفظ الهليون والباذنجان والبصل والخيار والفلفل الأسبانى فى الخل . كما يقدم الرازى أحسن النصائح لعمل المرببات وبخاصة تلك المصنوعة من البرتقال والقراصيا والورد والمشمش وغيرها . وفى الحالات التي يمكن فيها شفاء المرض عن طريق الأطعمة ينصح الرازى الطبيب المعالج ألا يستخدم العقاقير وإذا كان من الممكن استخدام الأدوية البسيطة فليتجنب المركبة .

أما إذا كان الدواء المطلوب جديداً فتجب تجربته فى الحيوانات قبل استعماله لمعرفة أثره ومفعوله الكيماوى فى أعضاء جسم الإنسان. وفيما يتصل بالزئبق فالرازى

يعتقد أنه غير ضار كثيراً ، ولو أنه استخدم خطأ فقد يسبب آلاماً مبرحة في أسفل البطن والأمعاء إلا أنه بعد ذلك لا يترك أثراً في الجسم الذي يعود إلى حالته الطبيعية كما كان من قبل ، وبخاصة إذا باشر المريض شيئاً من الحركات الرياضية . ويذكر الرازي أنه استخدمه مع شخص كان في منزله وانتهى إلى النتائج التي ذكرها ، وقد تبين أن هذا الشخص كان يتلوى ويتقلب هنا وهناك كما تصطك أسنانه ويضغط بيديه على جسمه . أما الزئبق الحلو وبخاصة الزئبق المصعد ففي غاية الخطورة وهما من السموم الحادة كما يسيان آلاماً قوية في أسفل البطن وكذلك كثيراً من المغص والبراز المختلط بالدم . أما بخار الزئبق أو الزئبق المصعد فقد يسبب أيضاً شلل الأطفال .

إن الرازي لم يكن في طليعة الأطباء فقط بل كان من أوائل الكيميائيين أيضاً ، لقد كان العالم المتواضع الذي عالج الكيمياء علاجاً علمياً حقيقياً وقضى على هذه الخرافات التي كان يتصور الأقدمون أنها جوهر الكيمياء السحري . أعنى أن وظيفة الكيمياء هي استخراج الذهب لا أكثر ولا أقل . ومن ثم أخذ الرازي ينظر إليها على أنها علم يعنى قبل كل شيء بالتجارب والتحليل لا الشعوذة . وكان الرازي أول كيميائي استخدم هذا العلم في خدمة الطب .

وقد شاع بين الشعب أن هذا العالم الفاضل توصل إلى حجر الحكماء ، وذلك لأن الرازي قد غمر شعبه بهباته وعطاياه وكرمه الحاتمي واعتقد القوم أن هذا الثراء لا بد أن يكون مصدره حجر الحكماء الذي اهتدى إليه الرازي والذي بواسطته يستطيع أن يحول سائر المعادن إلى ذهب .

واتسع الخيال أمام الشعب حتى تصور أن الرازي يطهى طعامه في آنية ذهبية وأن سائر أواني المطبخ من الذهب الخالص .

والرازي الطبيب المخلص الوفي لطبه . والذي اعتقد أن الطب خلق لدعم الفضيلة والأخلاق الفاضلة ، حرص الحرص كله على الدعاية للخلق الكريم والفضيلة وبخاصة بين الأطباء ، لذلك لم تمض على وفاته ستة أعوام حتى أدخل نظام الامتحان في مهنة الطب ، وكان هذا الامتحان نظرياً وعملياً . وإلى الرازي يرجع الفضل في محاربة الدخلاء والمشعوذين بين الأطباء وبذلك فرض العناية على تدريس الطب وتخريج الأطباء .

ألم يهتم الرازى - منذ أول عهده بالطب - بتشقيف طلابه وحثهم على وجوب العناية بتشخيص الأمراض هذا التشخيص الذى دفع اليونان منذ القدم إلى الاهتمام بتحليل البول ؟

لقد هاجم الرازى الدخلاء على مهنة الطب وكان عنيفاً فى هجومه فجاء بالحجج العلمية والنفسية التى تدحض بطلان دعوى أولئك المشعوذين فقد كانوا يدعون أنهم عن طريق فحص بول المريض يستطيعون معرفة ماضى المريض وحاضره ومستقبله . وقد بلغ من خبث هؤلاء المشعوذين أنهم كانوا يرسلون من يتلصصون على المرضى وعلى أخبارهم وأحوالهم ويحيطون أولئك الأدعياء بجميع تلك الأخبار فيستغلونها لا ابتزاز أموال أولئك المرضى ، فكان المشعوذ مثلاً يزور المريض ولا يوجه إليه أسئلة ما فيثق فيه المريض ويدرك أن تشخيص هذا الشخص الدعوى لمرضه أغناه عن توجيه الأسئلة إليه .

ويذكر الرازى متندراً أنه عندما أخذ يمارس مهنة الطب قرر ألا يوجه أسئلة لمريض إلا بعد أن يتسلم بوله ويدرسه وكان هذا المسلك مدعاة إلى التقدير والإعجاب . ولما أدرك القوم أننى أخذت أكثر من الأسئلة تضاءلت ثقتهم فى معرفتى وقالوا لى علانية اعتقدنا أنك عندما تشاهد البول تخبرنا عن كل شىء حدث لنا أو يحدث أما الآن فقد انقلبت الآية ؛ وعبثاً حاول الرازى إقناع القوم أن ما يتطلبونه منه لا يمت إلى مهنة الطب بصلة ، ووضح أن المشعوذين هم الذين أدخلوا فى روعهم أن الطبيب يجب أن يتبين كل شىء من البول ولا حاجة إلى جميع هذه الاستجابات . وإذا كان الطبيب يتعرف إلى كثير من خصائص المرض من عوارضه ، ويعرف خصائص لا يذكرها له المريض ، فإن ما يصرح به المريض أهم وأدق وبخاصة إذا ما علم القوم أن هذا المريض صاحب البول قضى ليلة البارحة مع امرأة عجوز أو نام على جانبه الأيمن وكذا ساعة بالليل وهلمّ جرأً من هذه السخافات . . . ويعتقد القوم خطأ أن مثل الطبيب مثل الساحر يجب أن يتم الشفاء على يده فى اللحظة والثانية وذلك لأن الأثر الملحوظ المفاجئ هو الذى يترك أثراً فى نفس القوم ، وقليلون هم الذين يقدرّون مجهود الطبيب ؛ إن الناس كثيراً ما يتحدثون عن شفاء كشاف المعجزات إلا أنهم ينسون أو يخفون الإخفاق الذى قد يقع بسبب عدم تحقيق هذا الإعجاز .

فهذا النظامى البارع كان كذلك إنساناً عظيماً وكان كذلك طبيباً إنسانياً ، وبالرغم من حرص العالم القديم على أن يكون الطبيب لا طبيباً فحسب بل على جانب عظيم من الخلق الكريم فإن الطبيب الشاب كان لا بد من أن يقسم قسم أبقرات وكان يؤدي هذا القسم أمام الإله « بولون » الإله الطبيب ، وأمام « إسكليبيوس » و « هيجيايا » و « باناكيا » وجميع الآلهة والآلهات . ويقسم الطبيب كذلك بأن يكون نافعاً مفيداً وحفيظاً على الأيمان والأخلاق في كل بيت يدخله به مريض كما لا يقسم بمساعدة المريض الميثوس منه . وعلى النقيض كان من واجب الطبيب عدم مساعدة المريض الذى لا يرجى شفاؤه ، فالطب كما جاء فى رسالة أبقرات هو الفن الذى يشفى المريض تماماً من مرضه وتخفيف وطأة آلام الأوجاع القاسية والابتعاد عن أولئك الذين لا يرجى شفاؤهم وذلك بسبب استفحال المرض فيهم وإزمانه . ففن الطب لا يجدى معهم .

ثم جاء الإسلام بتعاليمه الإنسانية الرفيعة فاستنكر المسلمون هذا النوع من المعاملة الذى ظل قروناً طويلة دستوراً للطب والأطباء فى كثير من بلاد أوروبا والشرق الأدنى ، ونادى مسلم بوجود تغيير تلك الأوضاع وبأن أول واجب على الطبيب هو العناية بالمريض حتى الذى لا يرجى شفاؤه ، وهذا المسلم هو الرازى ، فقد تبين أن رسالة الطبيب الحقيقية تكمن فى أن على الطبيب أن يقنع مرضاه بأن حالتهم فى تحسن ، وأن يمنحهم الأمل فى الشفاء ، ولو كان غير واثق من نتيجة علاجه ، فكما أن الجسد يخضع لتأثير الروح كذلك الطبيب يجب عليه أن يدخل أمل الشفاء إلى ذلك الجسد المريض مطارداً الموت وباعثاً الحياة .

ومن الجدير بالذكر أن أحد أبناء « كيزربرج » ألا وهو « جيلر » نادى مرة قائلاً : إن الطبيب الذى يعلم أن المريض قريب من الموت ، ولا يخبر المريض بهذا ثم يحاول شفاؤه ويدخل إلى نفسه أمل الشفاء — إن مثل هذا الطبيب يحول دون سرعة انتقال المريض إلى خالقه .

أما المسلم فعلى نقيض المسيحي يقول على الطبيب أن يفهم المريض أن مرضه قابل للشفاء وأن شفاء المريض غير ميثوس منه . هكذا يقول مواطن الرازى ألا وهو ابن سينا ، إن المريض الذى يعالجه الطبيب نفسياً وإن المريض الذى لا يرجى

شفاؤه لأنه مريض مرضاً عقلياً - مثله في رأى الرازى يجب أن يعامل معاملة كلها إنسانية ، ولم يكن هذا مذهب الرازى فقط أو ابن سينا فقط بل الأوربيين . وإن ظلت أوروبا قروناً طويلة غير مدركة لقيمة المبادئ الإسلامية السامية . ففى أوروبا نجد الشعب يجنى ثمار البذور التى غرسها اليونان وغذتها المسيحية ولا شك فى أنها كانت من أبشع الغلات فالمرضى المصاب بمرض مزمن غير قابل للشفاء وبخاصة المريض بعقله كان المجتمع الأوروبى المسيحى ينظر إليه طيلة العصور الوسطى وحتى أواخر القرن الثامن عشر على أن هذه المصيبة إنما هى عقوبة إلهية ابتلاه الله بها تكفيراً عن خطيئة ارتكبها المريض قبل أن يمرض ، أو أن هذا المريض أصبح جسداً للشيطان .

لكن أوروبا لم تهمل هذا النوع من المرض بل قررت طرد الأرواح الشريرة التى تستولى على المرضى ، والمرضى بعقله إن كان ذكراً يجب عليه أن يرتدى ثوباً مرقعاً ملوناً ويده جرس ومطرقة ، يعلن بهما المريض عن نفسه ويخبر كل طفل بذلك فى جميع الحارات التى يجتازها ، وهنا يتحول المريض إلى شخص للسخرية . لكن من الذى يقرر أكان المريض مؤذياً أم مسالماً ؟ حتى عام ١٤٩٨ نقرأ أن مجلس فرنكفورت لجأ إلى دير القديس « أنشتات » راجياً إرسال راهب لفحص مريض مصاب فى قواه العقلية ، وبه مس من الجن ، وهذا المريض يدعى « يعقوب جويش » ورجا المجلس أيضاً الدير أن ينقل هذا المريض إلى الدير والعمل على طرد هذه الروح النجسة .

أما الحالات المستعصية من الأمراض العقلية . والتى يتعذر فيها طرد الشياطين ، فإن مثل هؤلاء المرضى يغلقون بالسلاسل ويلقى بهم فى السجون أو يحجزون فى بيوت المجانين أو برج المعتوهين . أما فى ميناء همبورج فكانوا يوضعون فى صندوق المجانين . وهناك يسلم هؤلاء المرضى إلى أناس غلاظ القلوب ينهالون عليهم ضرباً ولكزاً ولكماً ، ويعرف هؤلاء الجلادون باسم « عبيد المجانين » وهم يسومون أولئك المرضى سوء العذاب حتى تفارق الروح الجسد . وهدف هذا التعذيب هو طرد الشيطان من الجسد !

ويحدثنا التاريخ أن شخصاً من سكان فرنكفورت اتهم عام ١٤٥١ بالجنون لأنه لعن القربان المقدس وعوقب كما لو أنه مالك لقواه العقلية . وفى عام ١٤٩٠

أنهم شخص بالحنون وهو يدعى « كونتس فوجل » كما أصيب أيضاً بالبرص وذلك لأنه عاب في الذات الإلهية .

أما المريض بالأمراض العصبية عند اليونان فكان يسلم لأهله وهم يحولون دون ما قد يرتكبه من أضرار كما أن أسرته هي التي توفر له أسباب الراحة .

لكن إذا انتقلنا إلى البلاد العربية وجدنا الحال غير الحال فالمريض يوضع في مستشفى خاص بالأمراض العصبية وتحت إشراف السلطان ، الذي كان يزورهم أسبوعياً ويتولى الأطباء العناية بهم ورعايتهم بخلاف الحال في أوروبا فقد ظلت حتى القرن التاسع عشر تعاملهم معاملة المجرمين . وإسبانيا فقط هي التي احتفظت بالتراث العربي فكانت تضع مثل هؤلاء المرضى في مستشفيات تعرف باسم « الأبرياء Innocentes » . أما إنجلترا فلم تقبل على الأخذ بمذهب العرب في معاملة هؤلاء المرضى إلا عام ١٧٥١ . وفي أواخر القرن الثامن عشر نجح الطبيب الفرنسي « بينيل Pinel » في فرنسا في إخراج هؤلاء المرضى المكبلين في الأغلال من الدير ووضعهم تحت الرعاية الطبية . وليس فقط مرضى الأمراض العصبية هم الذين ابتلوا بهذه المعاملة الوحشية القاسية بل شاركهم فيها مرضى آخرون وهم أولئك الذين لا يستطيع الإنسان معرفة أسباب أمراضهم . حيث نسبت جميعها إلى الشياطين . لذلك كانت وسائل التخلص من هذه الأرواح النجسة الضرب والتعذيب ؛ وظل الحال كذلك حتى القرن التاسع عشر إذ نجد الطبيب الشاعر « يوسنينوس كرنر » . أحد أبناء قرية « فينزبرج » وهو الصديق الحميم لشاعر ألمانيا الخالد « جوته » . ومع هذا الطبيب الشاعر بعض أساتذة جامعة ميونخ أمثال « شوبرت » و « بادر » و « فون رينجيس » وكذلك أستاذ جامعة توبنجن وهو « إشينماير » وأستاذ جامعة « ليبزج » المسمى « هيزروت » يحددون الكتابة في موضوع حلول الأرواح الشريرة في الناس ، ويعتقدون كذلك أن الإصابة بها تأتي بسبب الخطايا التي يرتكبها بعض الناس . أما الشفاء منها فلا يتم إلا بطرد الشياطين وذلك عن طريق الصلاة والابتهال والتوجه إلى القديسين . فهذا التزاوج الجديد بين الطب والديانة المسيحية نادى به عام ١٨٢٤م أستاذ جامعة « ليبزج » المسمى « فينديشمان » فقد قال كلماته المشهورة : « إن المرض يحل بالنفس التي ينصرف صاحبها إلى الملذات والشهوات فتتهيج الروح وتثور ، أما

الطبيب الذى يجهل طرد الأرواح الشريرة فهو لا يدرك العلاج الصحيح لمثل هذه الحالات ، لذلك فالقوم فى حاجة إلى علاج مسيحي .

وهناك مثل عربى معناه أن الذى يشغل نفسه بجمع اللآلىء يجب أن يحرص على عدم إتلافها ، كذلك الإنسان الذى يتصدى لعلاج الأجسام البشرية وهى أكرم وأشرف ما خلق على هذه الأرض ، فهذا المعالج يجب أن يكون على جانب عظيم من الحذر كما عليه أن يبدل كل ما فى وسعه من عناية .

وفى شخصية الرازى تتجلى جميع هذه الصفات وتلك المثل التى يتصف بها الطبيب العربى . إنه الطبيب الذى لا يجارى . كان يدرك رسالة الطبيب ويدرك مسئوليته تجاه الإنسانية كطبيب . إنه نصير المحتاجين ، وعون الضعفاء والمعوزين ، والأستاذ الأمين الذى يجب أن يوكل إليه تخريج أجيال الأطباء لأنه قادر على تحمل الأمانة . والرازى أيضاً مؤلف الموسوعات والطبيب الخبير بمختلف أنواع الأمراض التى درسها السابقون وتوسع هو فيها بحثاً ودرساً ونقداً ، كما كان الطبيب العلمى الماهر ، والباحث الكيميائى المستقل ، وصاحب التجارب العملية ، كما كان العالم المرتب الأفكار المنتظم فى أعماله ، وبذلك أدخل على الطب النظام والوضوح والتنسيق .

قيود الماضى

إن اضطراب الحضم الذى قاسى منه الخليفة المنصور زمناً طويلاً ، والصداع الدائم الذى أصاب بعد ذلك بشرين عاماً الخليفة هرون الرشيد دفعا إلى التفكير فى إيجاد وسيلة للشفاء ، لذلك خرجت أفراس البريد مرتين من قصر الخليفة ببغداد وقطعت نحو خمسمائة كيلومتر متجهة إلى أسافل دجلة ثم انحرفت شرقاً متحرقة البادية إلى جنديسابور بالقرب من الخليج العربى لإحضار مدير مدرسة الطب الساسانية القديمة ، وكان من الأطباء ذوى الشهرة البعيدة ، فأسرة بنختيشوع كانت من الأسر العريقة فى الدراسات الطبية حيث مارس أفرادها أجيالاً وأجيالاً هذه المهنة

كما تولوا تباعاً تطبيب الخلفاء . ومن هؤلاء الأطباء وصلت المعرفة اليونانية التي كانت سائدة ومنتشرة في جنديسابور ، ولم يقتصر الأمر على الطب اليوناني فنحن نجد الطب الهندي يشق طريقه إلى دار الخلافة أيضاً وذلك على يد الطبيب الهندي « منكاه » ومواطنه « صالح بن بهلة » الذي أعاد الحياة إلى عم الخليفة هرون الرشيد بعد أن اعتقد القوم أنه فارقه . ودخلت قصر الخليفة من هذين العالمين كتب الطب الهندية كذلك فنافست غيرها . ومع مرور الزمن أخذت تؤدي رسالتها .

وبعد قرن من الزمن نجد العرب يلمون بسائر أنواع المعارف من يونانية وهندية وسريانية وفارسية ، ولما نزع الرازي لأول مرة عام ٨٨٠م إلى بغداد وجد الطريق سهلاً معبداً أمامه ، فمختلف المراجع الطبية القديمة قد نقلت إلى العربية ونقحت واستكملت ، هذا مع الإشارة إلى المجهودات العظيمة التي بذلها العلماء العرب في الطب وقتذاك وبخاصة أمثال الكندي والكناني ويحيى بن ماسويه وأفراد أسرته ثبات بن قرة وحنين بن إسحق . وهكذا نجد الطب العربي يخطو خطوات هامة بعد أن اجتاز مرحلة البدء ، فقد ظهر الرازي وجعل الطب علماً عربياً مستقلاً قائماً بنفسه ، فكما أن أبقرات هو العالم الذي نهض بالطب اليوناني وجعله علماً قائماً بذاته كذلك الحال مع الرازي والطب العربي ، فكلاهما نهضا بالطب نهضة أبعد وأعمق مما كان عليه من قبل ، فقد أخذ الطب اليوناني تجارب وعلوم الشرق القديم ومصر ، ومن ثم استقل وشق طريقه إلى الحياة . وأبقرات هو الذي اعترف له العالم بفضله فلقبه بلقب « أبي الطب » ، وإن كان الطب اليوناني في عصره لم يكن على الأعتاب بل كان قد خطا خطوات واسعة في سبيل التقدم ، كما أن أبقرات لم يكن هو أول من ابتدع الطب في اليونان بل كان حلقة في سلسلة طويلة ، إلا أن المعرفة التي تحلى بها أبقرات لم يكتسبها عن معاصريه لأنهم لم يأتوا بجديد . أما الرسائل التي ظهرت فيما بعد في الإسكندرية حاملة اسم أبقرات فلم تشمل إلا على معلومات قديمة إلا أنها تهتم بالحديث عن الصلة بين الطبيب والمريض .

وكما رأينا العرب يتبرمون من المشعوذين والدخلاء كذلك الحال عند اليونان وقد سبق إلى ذلك أبقرات فانبرى مهاجماً أولئك الأدعياء ، وأخذ يتحدث عن الطبيب المثالي ، الطبيب الحر لا الكاهن من بين رجال الدين الخاضعين لمؤثرات أخرى

دينية، أما المبادئ الإنسانية التي نادى بها أبوقراط فهي إنسانية عامة تربط بين جميع الأطباء وفي مختلف الشعوب والأمصار ، كما تجعل منهم وحدة قوية .

ونحن نجد أبوقراط من ناحية أخرى مثالا يحتذى به وإليه تنسب طريقة معالجته الخاصة للأمراض ومعاملة المريض . وهذه الطريقة تعارض الوسيطتين اللتين كانتا مستخدمتين وسائدتين في تاريخ الطب القديم ، وباستخدام الطريقة المدرسية أصبحتا قويتين وعارضتا مدرسة « أسكليبيادن » في « كنيديوس » و « كوس » التي كان يمثلها أبوقراط .

فحكيم « كوس » استفاد بأهم خصائص الطبيعة اليونانية الخيالية الفلسفية التي تصبغ ما يشاهده اليوناني بلونها ، فهذه الطبيعة إن أفادت في الرياضيات والطبيعات فهي ضارة بالطب القائم على التجارب كما هو الحال مع الفلاسفة الطبيعيين ومعهم كثيرون من الأطباء اليونانيين . أما أبوقراط فكان يعتقد أن هذا ليس هو الطريق السوي للطب ، وذلك لأنه طريق مخفوف بالمخاطر ، فالوسيلة الوحيدة لتحقيق هدف الطبيب هو طريق التجارب والاختبارات والعمل ، وبخاصة دراسة المريض وهو على سرير المرض ، أما سائر الطرق الأخرى فجامدة تسير على وتيرة واحدة فلسفية وتنظر للأمراض وكأنها وقد صبت في قالب واحد لا تحوير فيه ولا تغيير ، والواقع أن كل مرض يحتاج إلى عناية خاصة ودراسة خاصة وذلك لأن المرض يكون حالة مستقلة متصلة بالبيئة والزمان والمكان .

وهكذا نجد أبوقراط ينساق وراء شيطانه ويؤمن بنظرية « أمبيدوكليس » الخاصة بالعناصر الأربعة الأولية ، ففي كل إنسان معاني سليم أربعة أنواع من العصير الرئيسي : الدم والمخاط والمرارة الصفراء والمرارة السوداء وخواصها المختلفة بالرغم من امتزاجها مع عناصر أخرى . فالمرض هو اضطراب في نسب الامتزاج ، فهذا الاعتراف بالحرص على تشكيل العالم وفهمه على هيئة صور أثبت أبوقراط تقديره للفلسفة اليونانية كما ترك الباب مفتوحاً أمام الخيال والأفكار المتأخرة .

ولم تترك فكرة تصور الكون على هيئة صور الفرصة لمن ينتظرها ، إذ من بين التلاميذ وتلاميذ التلاميذ من عمل على خنق نظرية التطبيق والتجربة وذلك بسبب انتشار نظرية عناصر العصير الأربعة ، ومع الفلاسفة العظام أمثال أفلاطون

وأرسطو انتصرت نظرية الاستنتاج على التجربة واستنباط الحقائق الطبية من المستشفى ، وبذلك أصبح الطب يدرس وينظر إليه على أنه علم وليس مجرد تجارب تكتسب من المستشفى ، وهكذا نجد الطب ينحدر إلى طريق وعر خطاً بسبب آراء أولئك الفلاسفة الأقدمين ، وما يؤسف له حقاً أن الطب ظل يسير في هذا الطريق قروناً عديدة . ولما جاء جالينوس (١٣٠ - ٢٠١ م) حقق الهدف السامى للطب عن طريق علمى صحيح ومنطق رياضى سليم وأقام حول علم الطب سياجاً متيناً واستخدم جميع الطرق الهندسية بحيث استطاع الاستفادة من كل مجهودات الماضى فخطا بالطب خطوات علمية موفقة وخرج به من حيزه اليونانى الضيق إلى المحيط العالمى الواسع .

فهذا البناء الخالد للطب والذى شيدته العلوم القديمة ترك أثراً فى الأجيال المتعاقبة لا يقل أهمية عن أثر علم الفلك القديم وعلم الما جسطى لبطليموس . فقد قام على نظريات فلسفية متأرجحة عوضاً عن أن يقوم على أثاث ثابت من الخبرة العملية الى تعتمد على التجارب والمستشفيات . فمن هو الشخص الذى لم يتاثر بهذه العقلية الإيحائية ؟ ومن هو الشخص الذى أصابه ضرر من دراسات وأعمال جالينوس الذى كان يؤمن أن مثل هذه المحاولات من حقه ولو أنها كثيراً ما شابها الخيال ؟ لذلك نجد القرون العديدة تحنى هاماتها احتراماً لجالينوس وتقديراً .

ولم يدم الحال قط على هذه الوتيرة فقد أخذت أعمال وفضائل جالينوس تختفى وتتضاءل تدريجياً ، وذلك عندما أخذ الطبيب الحديث يتحرر من التأملات ، ومن ثم أخذت تظهر العلوم المتحررة غير المتأثرة بمؤثرات خارجية ، وذلك فى أوائل القرن السابع عشر بسبب اكتشاف الدورة الدموية الكبرى على يد الإنجليزى « هارفى » .

والواقع أن فكرة الدورة الدموية لم تخطر على بال جالينوس . أما نظرياته الهوائية فقد شرحها كما فحصها فى الكبد بمساعدة التدفئة الدخيلة حيث يتحول الطعام إلى دم ، يسيل جزء منه فى الأوردة ويسير فى اتجاه مستقيم إلى جميع الأعضاء والأجهزة إلا أن جزءاً منه يجرى فى الوريد القلبي ومن ثم الوريد الأجوف الصاعد إلى الجيب الأيمن للقلب ، وهنا نجد الحرارة الدخيلة تسبب غليان الهواء وتنقيته حيث

نجد البقايا عبارة عن هباب يتخلص منه عن طريق أوردة الرئتين والرئة والزفير .
ومن الجيب الأيمن للقلب يجرى جزء من الدم النقي في شرايين الرئة إلى الرئة لتغذيتها .
أما البقية الباقية فتسرب عن طريق المسام الموجودة في الحائط الفاصل للقلب إلى
القلب اليسار حيث يختلط مع هراء الشهيق الذي يجرى في أوردة الرئتين ويتحول
هذا الخليط بواسطة الحرارة الدخيلة إلى مصدر الحياة ويجرى في سائر شرايين
الجسد .

هذا هو رأى جالينوس في القلب من حيث علم الأحياء ، وظل هذا الرأى
سائداً حتى جاء « وليم هارفى » عام ١٦١٦ م وقضى على أخطاء جالينوس وآرائه
الخاصة بالقلب . أما « هارفى » فقد ظهر ونادى بآرائه الجديدة هذه بعد أن مضى
نحو ثلاثة وستين عاماً على مجىء الإسباني « ميخائيل ثروت » عام ١٥٥٣ م ، وتحدث
للمرة الأولى عن دورة دموية وهى المعروفة باسم الدورة الصغرى أو دورة الرئة .
وبعده بفترة قليلة جاء الإيطاليان « كولومبو » و « كيسلينو » وأدخلوا بعض
التصحیحات على آراء جالينوس . وهكذا كان الوضع في تاريخ الطب حتى
عام ١٩٢٤ م .

ففي ذلك العام (١٩٢٤ م) تقدم شاب مصرى إلى كلية الطب بجامعة
« فريبورج » بإقليم « بريسجاو » برسالة في غاية الأهمية وفي اللغة الألمانية . ولا شك
في أنه إذا ثبتت صحة النتائج التى انتهى إليها هذا الطبيب فإن الفصل الخاص
بالتاريخ العلمى لهذا الموضوع الطبى يجب أن يكتب من جديد .

وفي ألمانيا نفر قليل من المستشرقين الذين يهتمون بالخطوط المحفوظة بمكتبة
الدولة ، ويقوم هؤلاء الأساتذة بفحصها ويقابلون بين ما يذكره الدكتور التطاوى
وما جاء في هذه المخطوطات ، وبعد دراسة فاحصة قرر أولئك المستشرقون أن الطبيب
المصرى على حق فيما ذهب إليه ، وقد ثبت أن طبيباً عربياً عاش في القرن الثالث عشر
الميلادى ، وأن هذا الطبيب العربى أدرك مدى الخطأ الذى تردى فيه جالينوس .
فالتبيب ابن النفيس هو أول من فكر في موضوع الدورة الدموية ، وكان ذلك قبل
« هارفى » بنحو أربعة قرون أو ثلاثة قرون قبل « ثروت » . وقد بلغ ابن النفيس مكانة
ممتازة بين أطباء عصره حتى إنه لما توفى رثاه أحد شعراء عصره بقوله : « إنه فريد عصره » ،

وإن العالم لم ير له مثيلاً منذ عهد ابن سينا .

ابن أبي أصيبعة (١٢٠٢ - ١٢٧٠) الطبيب ومؤرخ الطب العربى ، هو ابن طبيب عيون وحفيد مدير مستشفى العيون فى دمشق . وقد ذكر لنا سير نحو ثلثمائة وتسعين طبيباً من أشهر أطباء العرب ، لكن ما هو السبب الذى دفعه إلى تجاهل هذا الطبيب الشهير جداً والذى بلغ فى عالم الطب منزلة قد لا يدانيه فيها أحد ؟ إن هذا سر غامض حقاً ، فابن النفيس كان معاصراً لابن أبي أصيبعة ومواطناً له ، بل كان زميلاً له فى مدرسة الطب وفى نفس المستشفى الذى عمل فيه الاثنان . لقد ولد كلاهما فى دمشق وفيها ترعرعا ، وعندما ولد ابن النفيس عام ١٢١٠م كان ابن أبي أصيبعة قد أدرك السابعة ، ودرس كلاهما الطب وتعلمذ على أستاذ واحد ألا وهو ابن اللخوار .

وقد كان مديراً لمستشفى نورى ، وقد اشتهر بمحاضراته العلمية التى كان يرتادها الكثيرون فضلاً عن تدريسه العلمى فى المستشفى وثروته الخيالية ، ولما لم يترك ذرية تبرع بقصره الكبير ليكون مدرسة للطب ، وألحق بها عيادة خاصة ، كما أوقف عليها إيراد أملاكه للإتفاق عليها . وقد درس على هذا العالم الفاضل ابن أبي أصيبعة وابن النفيس كتب الرازى وابن سينا ورسائل جالينوس الذى كان يحترمه كثيراً ، وقد اعتاد ابن أبي أصيبعة إذا ما سمع شيئاً من أقوال جالينوس أن يسخر من أستاذه ويصبح : هذا هو الطبيب ! ثم لا نلبس طويلاً حتى نجد الطبيبين الشاين يلتقيان فى المستشفى الناصرى فى القاهرة . هذا المستشفى الذى أنشأه صلاح الدين ، لكن ابن أبي أصيبعة لم تطل إقامته فى مصر وتركها إلى أطراف بادية الشام حيث التحق بخدمة أمير شامى ، وهكذا نسي رفيقه وزميله .

أما ابن النفيس فقد كان أحسن حظاً إذ أصبح رئيساً للمستشفى الناصرى ، وظل هكذا مدة طويلة رئيساً لأطباء هذا المستشفى ، ويلقى محاضرات عن جالينوس وابن سينا ارتجالاً دون أن يستعد لها . ويروى الذين حضروه أنه إذا ما أراد وضع رسالة طبية تدفقت آراؤه ومعلوماته كالنهر الفيض دون ما حاجة إلى الاستعانة بمراجع أخرى . ويحكى أنه كان مرة فى حمام من حمامات القاهرة يغتسل بصابون مصنوع من زيت الزيتون فخرج من الحوض ودخل غرفة بالحمام وهناك أمر بإحضار ورق وقلم

ومداد وأخذ يكتب رسالة حول « النبض » ، وعندما فرغ منها عاد إلى الاستحمام ثانية .

وكان ابن النفيس طويل القامة نحيل القوام ورأسه رأس علماء . وإلى جانب مهنته كطبيب وعالم شغف كذلك بعلوم الشريعة والنحو والمنطق والفلسفة وكان يقرأ على الطلاب في مدرسة الشريعة المعروفة باسم المسرورية علوم الشريعة والحديث .

فهذا العالم الشاب الذي ثقف شباب الأطباء المصريين في مؤلفات كبار علماء الطب أمثال جالينوس وابن سينا ، هذه المؤلفات التي كان يجيدها ويلم بها ، اشتهر باستقلاله في تفكيره حتى إنه لم يتردد في نقدها ونقد غيرها من مؤلفات الآخرين . ويمتاز ابن النفيس على أستاذه ومعظم زملائه بالشك وقوة النقد فهو لا يتقبل آراء الآخرين سواء كان جالينوس أو غيره على أنها حق لا يأتيها باطل بل هاجمها وقلل من أهميتها . أما الآراء المتداولة والنظريات التعليمية ، فلم يعرضها على طلابه إلا بعد الدرس والتحريض مهما كانت مصادرها وتفاوتت مقادير أصحابها وتباعدت العصور التي عاشوا فيها . والجرأة التي اقتحم بها « هارفي » هيكل تقديس القديم ومزق أستاره وفضح قدسيته مكنته من فتح باب النقد والبحث العلمي على مصراعيه ، كذلك كان الحال مع الباحث العربي ابن النفيس ، فقد كان جريئاً جداً حريصاً على الاحتفاظ بحريته العلمية والمناداة بما يعتقد ؛ وهو من المنادين بأن فحص أى عضو من أعضاء الجسم يتطلب من الباحث قبل كل شيء الملاحظة الدقيقة والدراسة العلمية التزيهة ولا مراعاة لأى اعتبار آخر قد يحول دون حرية البحث أو إبداء الرأى أعنى عدم الاكتراث بمكانة صاحب الرأى سواء كان من القدامى أو المحدثين .

وليس هذا المذهب هو مذهب ابن النفيس فقط بل قد اتبعه الرازى أيضاً ونهج على نهجه « هارفي » ؛ فابن النفيس و « هارفي » اعتمدا على المشاهدة والتجارب على الطبيعة .

وهناك فروق في تكوين مختلف الحيوانات ، لذلك يجب أن نستعين بعلم تشريح مقارن ؛ هكذا نادى ابن النفيس ونادى بوجوب ملاحظة الفوارق وأخذها بعين الاعتبار . وقد أثبت التشريح للعالم الباحث الأمين ما يأتى :

١ - أن القلب يتلقى غذاءه من الدم الذى يجرى فى الأوعية (وليس كما كان

يعتقد قديماً عن طريق الحوض اليميني للقلب) التي تتخلل القلب وبذلك يكون ابن النفيس أول من تنبه إلى وجوده الدورة التاجية .

٢ - أن الدم يندفع إلى الرئة ليتشبع بالهواء وليس لتغذية الرئة (كما أشار إلى ذلك متأخراً - هارفى) .

٣ - هناك وصلات بين شرايين الرئة وأوردها وهذه وصلات تتحكم في الدورة الدموية في داخل الرئة (وهذه الحقيقة التي اهتدى إليها ابن النفيس قد أدعاها لنفسه « كولومبو » وقال إنه صاحبها .

٤ - أن أوردة الرئة ليست ممتلئة بهواء أو هباب (كما اعتقد جالينوس وأضاف على ذلك قوله إن الأوردة تجري في اتجاهات عكسية) بل بالدم .

٥ - أن جدران شرايين الرئة أسمك من جدران الأوردة ومكونة من طبقتين . هذه هي الاكتشافات العظيمة جداً التي اكتشفها ابن النفيس . وظلت زمناً طويلاً منسوبة إلى ثروت وبخاصة الآتية :

٦ - ليس للحائط الفاصل في القلب مسام ، وكل ما في الأمر أن الدم يكون دورة ، وبين هذين الحوضين الموجودين في القلب لا توجد ثغرة موصلة وذلك لأن هذا الحائط الفاصل في القلب مغلق وليست به فتحات مرئية كما يعتقد البعض أو غير مرئية كما اعتقد جالينوس ، وذلك لأنه ليست للقلب مسام ومادته في تلك الجهة سميكة ؛ ولا شك في أن هذا الدم بعد أن يصير رقيقاً يندفع إلى الرئة عن طريق شرايينها ليجوس خلالها ويمتزج بالهواء منقياً الجزء الرقيق منه ، ومن ثم يجري هذا الدم في أوردة الرئة متجهاً إلى الحوضين اليساريين للقلب بعد أن يكون قد امتزج بالهواء .

وهكذا وصفت الدورة الدموية الصغرى وصفاً دقيقاً سهلاً يكاد يكون بنفس العبارات التي استخدمها فيما بعد « ميخائيل ثروت » ، وإن اُفترق « ثروت » عن ابن النفيس في شيء فإنما في العبارة التي ساقها ويذكر فيها أن لون دم أوردة الرئة أحمر فاتح . فإذا استثنينا هذه الملاحظة التي أوردها « ثروت » الإسباني فعباراته تتفق مع عبارات ابن النفيس الطبيب المصري . وقد جاءت عبارة ابن النفيس في شرحه الذي وضعه على كتاب القانون لابن سينا والخاص بالتشريح .

فهل هذا الشبه القوي بين الإسباني وابن النفيس العربي جاء صدفة ؟ ثم هل عرف « ثروت » الإسباني ، الذي اشتهر حتى زمن قريب جداً بأنه مكتشف الدورة الدموية الصغرى وفاضت كتب تاريخ الطب في أوزبا بالحديث عنه بأنه صاحب الفضل في الاهتداء إليها ، شرح ابن النفيس على قانون ابن سينا ؟ .

أما ميخائيل ثروت أو كما يعرف في الإسبانية باسم « ميجويل ثرافيدا » فقد ولد عام ١٥٠٩م من أسرة نبيلة في « فيلا نويفا » بأرجون وكان ميلاده يصادف مضي ثمانية عشر عاماً على خروج العرب من إسبانيا ، ومعنى ذلك أنه ولد في عصر كان النزاع فيه محتدماً بين العرب وأعدائهم وانتهى بأيلولة ملكية هذه البلاد الحميلة إلى السادة الجلد واندمج العدد الباقي من المسلمين في المجتمع الجديد . لكن الشيء الجدير بالذكر أن الشبان المسيحيين في ذلك الوقت كانوا قد أقبلوا على الثقافة العربية والآداب العربية إقبالا عظيماً وذهبوا بعيداً فكانوا يفاخرون بلئامهم باللغة العربية أدباً وثقافة مما اضطر أسقف قرطبة إلى إبداء أعظم الحزن وأشد الأسف على إقبال المسيحيين على لغة العدو وأدبه . وهو يذكر أيضاً أن جميع الشبان المسيحيين كانوا لا يعنون إلا بالعربية وآداب العرب حتى إن « ميجويل » ، مواطن الطبيب « أرند » ، من « فيلا نويفا » كان يجيد اللغة العربية نطقاً وكتابة ، وقد استطاع أن يترجم في سهولة كثيراً من الكتب الطبية العربية دون مساعدة عربي أو يهودي .

ولا عجب إذن إذا قلنا إن المعاهد العليا الأوربية ظلت زهاء ثلاثة قرون تعتمد على المؤلفات العربية فقط ، ولا غرابة كذلك إذا أغرى هذا التراث العقلي العربي العدو الذي كان دون العربي عقلاً وثقافة وعلماء ، فأقبل الأوربيون على الاعتراف من حياض المعرفة العربية بالرغم من يقينهم بأن هذه الثقافة قد تكون مصدر خطر عليهم .

أما المذهب المسيحي القائل بالتثليث مثلاً فقد كان له وضع خاص مختلف ، فنحن نجد « ميجويل » ولم يتجاوز الخامسة والعشرين ينتقد التثليث انتقاداً مرّاً ويهاجمه ويسفه المؤمنين به علماً بأن معارضي أصول الإيمان المسيحي كانوا عرضة لأشد أنواع التعذيب من الكنيسة وبخاصة أن هذه الأصول الدينية كانت من وضع الكنيسة ، لذلك كان المفكرون الأحرار يؤثرون الهرب على الوقوع في قبضة رجال

الكنيسة ، لذلك نجد « ميجويل » يتنكر تحت اسم آخر ويهرب ويختفي في مطبعة في فرنسا، وهنا التقى بالرجل الذي أخذ بيده وأقحمه في المعركة الخاصة بالعروبة، كما رسم له مستقبل حياته والطريق الذي يجب على « ميجويل » السير فيه . هذا الرجل هو الطبيب والمفكر الفرنسي الحر الذي كان يعنى كثيراً بالدراسة العربية الطبية ويقابل بينها وبين ما خلفه اليونان . لذلك نجد « ميجويل ثرافيدا » أحد أبناء مدينة « فيلا نويفا » وهو الذي يعرف أيضاً باسم « ميجويل ثروت » ، يقرر دراسة الطب في فرنسا في باريس وفيينا وبادوا؛ وقد ظل « ثروت » زمناً طويلاً متنكراً تحت اسم مستعار يضعه على كتبه ، كما احترف مهنة التطبيب وعمل كطبيب خاص . وفي عام ١٥٥١ م أصدر رسالة حول بطلان التثليث فواجه بها الرأي العام صراحة فسرعان ما هاجمه القدر .

ثم نجد « كلفين » يشي بالمؤلف ويقول إنه « ثروت » ، لذلك هاجمه زبانيته وألقوا به في سجن مدينة جنيف ، فقاسى كثيراً من الأمراض وويلات التعذيب التي يخجل « ثروت » من ذكرها ، وقد افترسته البراغيث تقريباً وليس عليه قميص يستره كما كان يرتعد من شدة البرد وهو في أسناله الممزقة ، لذلك استدعى « ثروت » هذا الشخص المسمى « كلفين » وأبدى له رغبته في أن يحكم بعدل في قضيته ، لكن قضية « ثروت » هي التي كانت السبب في القضاء عليه وتعذيبه حتى فارقت روحه جسده . ففي عام ١٥٥٣ م أحرق « ثروت » حياً في جنيف ومعه كتابه الذي كان قد ظهر في ذلك الوقت حول « إحياء المسيحية » وهو الكتاب الذي يتحدث فيه أيضاً عن هذه المسألة الهامة الخاصة بالدورة الدموية الصغرى .

وقد اهتم « ثروت » كثيراً بالطب العربي فهماً ودرساً ونقداً فنجده يعرض لطبخ المشروبات عند العرب ، ويقابل بينه وبين ما ذكره جالينوس خاصاً بطبخ الأنواع الرئيسية للعصير ونظرياته حول هذا الموضوع ، فهل كان تحت يد « ثروت » شرح ابن النفيس على هذا الكتاب الطبي العظيم لابن سينا الذي توجد منه نسخة في مكتبة الإسكوريال بالقرب من مدريد ؟ وفي هذا الشرح الذي احتفظت منه الإسكوريال بنسخة نجد الكشف العربي العظيم الذي أثر أثراً مباشراً في العلوم الأوربية .

لكن « ثروت » لم يكتف بما ذهب إليه بل أخذ يوزع ضرباته وهجومه على جالينوس ، هذا الهجوم الذى لم يؤثر على أفكاره وعرضها بخلاف خليفته « كولومبو » الذى لم يعرف الكتاب المشار إليه والمنسوب إلى « ثروت » ، لذلك لم يندفع فى تيار النقد لجالينوس ومهاجمته . إلا أن « ميجويل ثروت » كان بطبعه ملحدًا وكل الأدلة تؤيد أن الصورة الكاملة التى رسمها ابن النفيس عالم التشريح العربى للدورة الدموية أغنت الإسباني عن الجرى وراءها والبحث عنها وشن حرب على جالينوس .

والشئ العجيب حقًا أن شرح ابن النفيس على قانون ابن سينا ، هذا الشرح الذى يعتبره العرب من أحسن ما كتب عن القانون ، لم يترجم إلا فى الهند . أما المخطوطات العربية لهذا الشرح فما زالت مكدسة مع مئات غيرها فى دور الكتب الغربية والشرقية لا يهتم بها عالم أوربى أو آخر عربى حتى ظهر بغتة الشخص الذى يجمع بين إجادة اللغة العربية والمعلومات الطبية الفنية وحقق أمنية ابن النفيس التى ذكرها حيث قال : « او لم أعلم أن مؤلفاتى ستعيش بعدى حوالى ألف عام ما ألفها » ، لكن المسئولية عن هذا كما يذكرها ناقل الخبر سيؤديها الشخص الذى يريده ابن النفيس .

أما تاريخ كشف العالم العربى الذى ظل مدة طويلة مغموراً مجهولاً ، والذى عاش فى القرن الثالث عشر فإنه يؤيد كيف أن المجهودات العربية العلمية وبخاصة فى الطب عظيمة جداً وأن الأحكام الارتجالية القائلة إن العرب كانوا عالة على اليونان هراء فى هراء وأن الذين يرددون مثل هذا الادعاء مثلهم مثل البيغاء ، والكشف الأخير الذى اهتدى إليه الدكتور التطاوى يثبت أن العلماء العرب أطول باعاً وأعمق بحثاً وأدق نقداً من زملائهم المسيحيين وبخاصة فى العصور الوسطى ، كما أن الدكتور التطاوى أثبت أنه لم يبال بآراء العلماء السابقين ولم يكثر بموقفهم أو موقف من جاءوا بعدهم .

يشقون طريقهم

« جالينوس - وإن كان في الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه - الحس أصدق منه » .

فهذه الحملة اعتراف صريح قاله الطبيب والعالم البغدادى الذى كان من أصدقاء صلاح الدين ألا وهو عبد اللطيف البغدادى (١١٦٢ - ١٢٣١ م) وقد تنقل في مختلف عواصم شرق العالم الإسلامى ودرس في مدارسها . وقد جاء في « كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » :
« ومن عجيب ما شاهدناه أن جماعة ممن يتأبن في الطب وصلوا إلى كتاب التشريح ، فكان يعسر إفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان ، فأخبرنا أن بالمقس تلاً عليه رمم كثيرة فخرجنا إليه فرأينا تلاً من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به تحدث ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفاً فصاعداً وهم على طبقات في قرب العهد وبعده .

فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علماً لا نستفيده من الكتب ، إما أنها سكنت عنها أو لا ينى لفظها بالدلالة عليه ، أو يكون ما شاهدناه مخالفاً لما قيل فيها ، والحس أقوى دليلاً من السمع ، فإن جالينوس - وإن كان في الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه - الحس أصدق منه » .

ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرجاً إن أمكن ، « فمن ذلك عظم الفك الأسفل ، فإن الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، وقولنا الكل إنما نعى به هاهنا جالينوس وحده فإنه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينه ، وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج إلى لسان العرب . والذى شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز أصلاً ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على أثنى جمجمة بأصناف من الاعتبارات ، فلم نجده إلا عظماً واحداً من كل وجه ،

ثم إننا استعنا بجماعة مفرقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيانه ، وكذلك في أشياء أخر غير هذه ، ولئن مكنتنا المقاذير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكى فيها ما شاهدناه وما علمناه من كتب جالينوس . ثم إنى اعتبرت هذا العظم أيضاً بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ، ومن شأن الدروز الحفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق ، وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة »

ولو اعتقد أبقراط ومن جاءوا بعده أن الطفل يتحرك تلقائياً ويخرج من الرحم فإن على بن العباس هو أول من تنبه إلى هذه الظاهرة ، وهو مكتشف وظيفة الرحم وأنه بانقباضه يطرد الجنين ؛ كما كتب على بن عباس عن أورام الرحم وعق الرحم وسرطان البطن . وابن العباس هو الذى سبق « دروين » بنحو ألف عام ونادى بالرأى القائل بنشأة الأجناس وتأقلمها ببيئتها انخبط بها .

كذلك العظام قد تصاب بالالتهاب ، هكذا يقرر ابن سينا مخالفاً آراء الأقدمين الذين يقولون « إن الأنسجة ضعيفة التماسك مثل أنسجة المخ والأنسجة القوية كتلك التى نجدها فى العظام غير قابلة للالتهاب » ، فهذا رأى خطأ ، فأولا هو يفرق بين التهاب جلد المخ ، وهو التهاب معد ، وبين الالتهابات الأخرى المعدية ، وبذلك يقدم لنا أول تشخيص خلافى لتصلب الرقبة والالتهاب الثانوى لجلد المخ ثم نجده فى عصرنا هذا . فهذه الصورة العامة التى عرف العالم القديم بعضها وفاته البعض الآخر تجعل علم الأمراض العربى فى منزلة أرقى وأبعد من هذا العلم عند اليونان وبخاصة عند جالينوس بالرغم من أنه ذكر تحليلات هامة تاهت فيها عبقريته لأنه كان حريصاً على إخضاع الحقائق لإثبات صحة نظرياته .

لقد علم الرازى العرب الفحص الحر والتفكير المستقل ، أما رسالته فى الجدرى والحصبة فهى الأولى من نوعها التى صورت هذا المرض تصويراً علمياً صحيحاً مما اضطر علماء القرن الثامن عشر الميلادى إلى الاعتراف لها بأنها خير رسالة كتبت فى هذا الموضوع لأن الرازى استطاع أن يميز بين النقرس وغيره .

أما ابن سينا فهو أول من استخدم التشخيص الخلافى مفرقاً بين الالتهاب

الذى يصيب الضلوع والالتهاب الرئوى والألم الذى يصيب الأعصاب الوريدية ،
 وخراج الكبد وحالات الالتهابات الأخرى . وابن سينا يفرق بين أعراض مغص
 المصران والمغص الذى يصيب الكلى ، كما أنه خالف مذهب اليونان عند معالجة الشلل
 وبخاصة شلل الوجه ، فقد شخصه ابن سينا وعالجه معتمداً على أسباب موضعية
 بخلاف اليونان الذين شخصوه فى حدود نظرية العناصر الأربعة وهى المرة السوداء
 والمرة الصفراء والدم والبلغم ، لذلك عالج اليونان الشلل عن طريق الوسائل الحارة ،
 وظلت هذه الوسيلة مستعملة حتى ظهر الطبيب العربى صاعد بن بشر بن عبدوس
 فخالف الأطباء اليونانيين وسفه آراءهم واستخدم طريقة ما زالت مستعملة حتى
 يومنا هذا « فإنه أخذ المرضى بالفصد والتبريد والترطيب ومنع المرضى من الغذاء
 فأنجح تديره وتقدم فى الزمان بعد أن كان قاصداً فى البيمارستان ، وانتهت الرياسة
 إليه فعول الملوك فى تديرهم عليه فرفع عن البيمارستان المعاجين الحارة والأدوية الحادة
 ونقل تدير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البرور ، فأظهر فى المداواة عجائب » .

أما ابن سينا الفيلسوف العظيم فهو أول من تعرف على الحمى الفارسية ،
 وكذلك مختلف الأمراض التى يتسبب عنها مرض الصفراء ودودة المدينة وهى هذه
 الدودة التى قد توجد تحت أنسجة الجلد . أما الطبيب الرازى فقد نهج منهج ابن سينا
 فى العناية بالطب العملى فاكتشف حشرة الجرب وكيف أنها هى السبب فى ظهور
 هذا المرض الذى اكتشف علاجه ابن زهر فى إسبانيا .

فهذا الطبيب والفيلسوف الأندلسى ، والذى يدانى الرازى علماً ومكانة ، يدين له
 الطب كثيراً إذ كان هو أول من شخص أمراض الالتهابات الجلدية فوصفها وصفاً
 دقيقاً كما عرض للالتهاب الرطب والجفاف لكيس القلب ، وهذا مرض يخالف
 سائر أمراض الرئة ، ثم ذكر أيضاً نشأة التغذية الصناعية ومختلف أنواع التغذية
 عن طريق الأنابيب ، وهو يصف هذه الحالات وصفاً دقيقاً لا يقل عن اهتمامه بعرض
 سرطان المعدة ، وقد اهتدى إليه واهتم به إبان حياته فى السجن فشاهده ودرسه فى
 سجين آخر كان معه فى نفس القاعة .

وكان السرطان الموضعى هو عبارة عن مرض بالسرطان للعضو ، فقد لاحظ
 هذا أولاً ابن سينا ، وهو أيضاً الذى لاحظ العدوى التى قد تنشأ عن السل الرئوى وعن

خطر الإشعاعات الشمسية على المصابين بالسل . والقول بأن بعض الأمراض المعدية مثل الجدري الأسود قد يمنح الجسم حصانة مدى الحياة قد نادى به الطبيب والفيلسوف العربي ابن رشد أحد أبناء قرطبة والذي اشتهر في العصور الوسطى في أوروبا باسم « أبي روز » . وبعد قرنين من عصر ابن رشد أصدر القيصر مكسيميليان الأول أمراً عالياً أعلن فيه أن مرض الجدري وسيلة من وسائل الله لتهديب البشر وعن طريق هذا المرض ندرك مدى عذاب الله ، وأولئك الذين لا يؤمنون بهذا كفار .

وفي أواخر القرن الثامن عشر نجد أوروبا تستخدم التطعيم ضد الجدري كوسيلة لتحصين الجسم ضده، وهذا التطعيم بعينه قد سبق فيه العرب الأوربيين واستخدموه في العصر الجاهلي ، وبدافع وقاية الجسم من هذا المرض أيضاً كما هو الحال في عصرنا هذا . أما وسيلة العرب إلى تحقيق هذه الغاية فتطعيم الجسم بمصل مخفف من المرض ، فبهيج هذا المصل الجسم وينبهه ، ويجعله مستعداً لمقاومة المرض ، وذلك عن طريق خلق حالة مرض مصطنعة، ويكتسب الجسم بهذه الطريقة الحصانة المطلوبة . أما طريقة العرب فتلخص في أنهم كانوا يفصدون فصداً بسيطاً في الكف بين الإبهام والمعصم ، ومن ثم يأتون بجزء من محتويات بثرة من بثور الجدري الذي يكون قد أصيب به جار أو قريب في صحة جيدة . ويضعونه على الفصد ، ومن ثم يدلكونه ، بخلاف الصينيين الذين كانوا يضعون صديد الجدري - عن طريق كيس صغير مغموس في هذا الصديد - في أنف الشخص المراد تطعيمه .

وإذا ذكرنا أطباءنا العرب يجب ألا ننسى ابن ماسويه مشخص مرض البرص في القرن التاسع الميلادي ، ولم يكن هذا المرض كما اعتقدت أوروبا المسيحية لعنة من الله ، وقد اهتم به كثيرون من الأطباء العرب ومن بينهم أحد أبناء القيروان ألا وهو ابن الجزار فقد أجاد تشخيصه وعلاجه ، وكان العرب يعزلون صرعى هذا الداء الويل في مستشفيات خاصة وتحت رعاية أطباء مختصين بخلاف الحال في أوروبا التي جردتهم من حقوقهم الإنسانية فنبذهم المجتمع وصلت عليهم الكنيسة صلاة الميت ، وذلك لأن طرد الفرد من المجتمع البشري في أوروبا كان عملاً كنسياً ، وكانت زيارة المرضى بالبرص من اختصاص رجال الدين والمدنيين ، فإذا

كان المريض تحت رعاية أحد رجال الدين فعليه أن يشعر وهو في شقائه وبؤسه أنه جثة حية . ففي فرنسا كانت الكنيسة تعتبر هذا المريض ، الحى الميت ، فتحرمه هى أيضاً من حقوقه الكنسية فينقل المريض إلى قبر مفتوح حيث يصلى عليه قسيس ويهيل عليه التراب ثلاث مرات كما يفعل مع الموتى الحقيقيين ، ومن ثم ترسله الكنيسة إلى دار خاصة أعدت لهؤلاء المعذنين الذين يمضون بها البقية من حياتهم . وقد ظلت هذه الحالة سائدة في أوروبا حتى القرن السادس عشر الميلادى كما يذكر « جيلرفون كيزربرج » فقد ورد عنه أنه قال : اليوم وفي مختلف الجهات والأملاك الكنسية نجد القساوسة وحدهم هم الذين لهم حق الفصل في مثل هذه الحالات . كذلك الوباء القاتل الميت الذى كثيراً ما كان يقضى على الأخضر واليابس كما حدث في القرن الرابع عشر حيث أهلك الكثيرين من سكان القارة ، فمثل هذا الوباء لم يفهمه العرب على أنه وقع بسبب قوى ما وراء الطبيعة أو قوى سحرية . فالحدود بين الذين يصدرون الأحكام معتمدين على المنطق والعقل وأولئك الذين يؤمنون بالخرافات — ومن الأسف أن نقرر هذه الحقيقة — كانت تماماً كالفروق القائمة بين العرب العلماء النبهاء والمسيحيين الذين كانوا دون المسلمين كثيراً . وإن الرأى الذى أعلنه أستاذ جامعة مزنبيليه عام ١٣٤٨ م . ذلك العام الذى تفشى فيه الوباء وانتشر ، قد قال فيه إن مصدر تكاثر هذا المرض هو نظرة المرضى ؛ لذلك نصح الطبيب أو القسيس أن يطالب المريض بإغماض عينيه أو تغطية وجهه بملاءة من الكتان ، وبذلك يستطيع المعالج لمس المريض وفحصه دون خوف أو وجل . وفي سويسرا وجنوب فرنسا نجد الشعب يتهم اليهود بأنهم سبب انتشار الوباء واستشرائه ، لذلك هاجم القوم اليهود وأحرقوهم . ولا شك في أن مثل هذا الحادث أشنع وأفظع من الوباء وآثاره .

وفي « ناربون » و « كركاسون » اندفعت جموع الشعب ، وهاجمت الإنجليز أعداء المملكة فقطعوهم وأشعلوا فيهم النيران . واعتقد آخرون في الوباء وظهوره بأنه أقبل دخاناً خانقاً من السماء ، واعتقد « كونرات فون ميجينبرج » أن الزلازل الأرضية التى تفجر الشرايين الأرضية هى التى تسبب الأوبئة التى تصيب الإنسانية . وقال آخرون إن سببه التقاء المشتري بزحل والمريخ في ٢٠ مارس ١٣٤٥ ظهراً وفي تمام الساعة الواحدة مساءً وتحت درجة ١٤ من الدلو . وفي مقدمة الذين

نادوا بهذا الرأي الطبيب البلجيكي « سيمون ده كوفينو » . أما الذين يقعون تحت الأفلاك ذات الأثر البعيد التي اشتهرت ببغضها للإنسان مثل زحل فهم الذين يأتيهم الموت. أما الرأي العام فقد عبر عنه « بوكاشيو » في تقريره عن وباء الطاعون الذي حل بالقوم ذلك العام ، وقد ذكر « بوكاشيو » في تعليقه « بسبب أثر الأجرام السماوية أو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان مما أغضب الله فقرر إخافة الإنسان الذي مصيره إلى فناء » ، وهو يقول أيضاً « وما زاد الطين بلة جهل الناس وعدم رغبتهم في الرجوع عن غيهم . . . » لذلك يدعو إلى إقامة صلوات التوبة مرات لا مرة واحدة ، وفي شكل جماعات كثيرة . وفي النخبات البشرية لذلك ازداد الوباء تفشياً . وفي تلك اللحظة يعود عربي بالأمن الضائع — الذي فارق الأوربيين وانطلق إلى السماء — إلى الأرض ، وذلك باتخاذ الاحتياطات الضرورية القريبة المنال .

ففي عام ١٣٤٨ م وهو عام الطاعون نجد السياسي والمؤرخ والطبيب الأندلسي الخالد الذكر ذا الرئاستين الفقيه الكاتب أبا عبد الله محمد المعروف بابن الخطيب (١٣١٣ - ١٣٧٤ م) يطلع على العالم المعذب برسائله في الطاعون وأسبابه وعلاجه والوقاية منه ووجوب الاحتياط من العدوى الناتجة عن لمس المريض أو الاختلاط به أو القرب من برازه ، فالعدوى كما أثبت ابن الخطيب قائمة تؤيدها التجارب والنتائج القاطعة ، وابن الخطيب يحذر من ويلاتها ويقول بوجوب الابتعاد عن المرضى وعن ملامستهم أو الاقتراب من ملابسهم أو استخدام أوانيهم وأدواتهم ، وزيادة في الحيلة قال إن قرط المريض قد يسبب الموت للذي يعلقه ولجميع أفراد الأسرة بل المدينة بجميع سكانها . ويدعو الطبيب العربي إلى وجوب تحصين الناس من هذا المرض الذي قد يفد إلى بلدهم عن طريق شخص أجنبي قادم من بلد أجنبي .

ولا شك في أن إدراك الأخطار التي قد تنجم عن العدوى المتنقلة يعتبر من أهم الخطوات الهامة في تقدم علم الطب ، والفضل في بلوغها يرجع ولا شك إلى العرب الذين توصلوا إليها بينما ظل العالم القديم قروناً عديدة يتخبط في ويلات الأمراض وأخطارها ، وهكذا أدى الطب العربي أجل الخدمات للإنسانية .

ويشارك ابن الخطيب الوزير الغرناطي هذا الرأي طبيب عربي آخر ، وهذا الطبيب الأندلسي هو ابن خاتمة ، أحد أبناء مدينة « الماريا » الإسبانية ، فهو يقرر :

إذا اتصل إنسان بمريض انتقل إليه نفس المرض بعوارضه، فإذا بصق المريض الأول دماً بصق الآخر كذلك، وإذا أصيب المريض الأول بخراج انتقل الخراج إلى الثاني، وكما أن الثاني قد أصابته العدوى من الأول فالمرضى الثاني قادر كذلك على نقل المرض إلى الآخرين .

وبغته أدركت أوروبا بعد ثمانين عاماً من هذا الكشف العربي أن المرض - إذا ما ظهر - هو الوباء، ويجرى الإنسان بعيداً عن المريض خوف العدوى . لكن هذا الفرار لا ينقذه من حالة الذعر التي تحل به وتستولى عليه، لذلك لجأ إلى الطلاسم عليها تقيه شر الوباء وأخطاره، كما استعان أيضاً بالبخور اعتقاداً منه أنه يطارد الهواء السام المتصاعد من باطن الأرض والمعروف باسم عفونة اليونانيين .

ثم نجد بعد انتشار الوباء الثاني العظيم في ذلك القرن، أعني عام ١٣٨٢ م، أن « شالين ده فيناريو » الأستاذ بجامعة مونبيلييه الذي كان الوسيط بين العلوم العربية وبين جنوب غرب أوروبا، وعن طريقه شقت الثقافة العربية الأندلسية طريقها إلى هذا الصقع من أوروبا - نجد هذا الأستاذ، بفضل هذه العلوم، قد استطاع أن يكتب كتابه عن الوباء، فيقرر أن شيئاً واحداً هو المسئول عن انتشار الوباء وذلك الشيء هو انتقال العدوى . لذلك نجد الحكومة تتخذ بعض الاحتياطات للوقاية من انتشار المرض، ومن أولى البلاد التي سلكت هذا المسلك إيطاليا وبخاصة البندقية، وذلك لأنها عن طريق اتصالاتها بالشرق اكتسبت خبرة عظيمة وعينت عدداً من الأطباء العرب في مستشفياتها ومصحاتها لإدخال الطب العربي واستخدام القواعد العربية الصحية في جميع دور العلاج .

ثم نجد الوزير الأندلسي الذي ألف كتاباً حول نشأة الجراثيم يحل اللغز المشكل حول العدوى وانتقالها، فهي قد لا تنتقل إلى أناس خصوصيين ملازمين للمرضى بينما ترتفع في أفراد آخرين إذا ما دنوا من مريض . لقد أثبت هذا الطبيب العربي أن انتشار المرض يتوقف على درجة استعداد جسم الإنسان الملازم للمريض، فلا بد من أن تتوافر عوامل خاصة لانتقال العدوى، وبخاصة أن العدوى قد تنتشر بسرعة ودفعة واحدة أو تدريجياً، وقد تكون قوية عنيفة عند شخص وضعيفة بسيطة عند آخر أو لا توجد بتاتاً . والاستعداد لقبول المرض هو الذي قد يودي بالمريض أو ينجيه منه

بدون صلاة أو أى أثر للكواكب والأجرام .

قد نستفيد من المسلمين الكلاب (!!) ما ينفعنا .

وقد كان ، فقد أغنى الجراح العربى الأندلسى أبو القاسم المتوفى عام ١٠١٣ م العلم بأبحاثه التى أفادت الطب كثيراً وبخاصة فيما يتصل بالأمراض التى تصيب الدم ، فقد فحصها أبو القاسم وراقبها فى أسرة بعينها ، وهكذا نجد قبل ظهور « برسيغال بوت » (١٧١٣ - ١٧٨٨ م) بنحو سبعة قرون يقوم الطبيب العربى أبو القاسم بدراسة التهابات المفاصل وسل الصلب ، هذه الأمراض التى نسبت فيما بعد إلى الإنجليزى « بوت » وسميت « سوء بوت Malum pottii » .

لقد أدخل هذا الطبيب العربى كثيراً من التجديدات لا فى الجراحة فحسب بل فى كى الجراح وتفتيت الحصوة الموجودة فى المثانة وكذلك فى التشريح الجسمى وتشريح الحيوانات لإجراء التجارب والبحوث أيضاً ، كذلك خطا بالطب اليونانى فيما يتصل بأمراض النساء خطوات واسعة إذ أدخل عليه كثيراً من الإصلاحات سواء فى التشخيص أو العلاج أو الأدوات . كما أوجد وسائل جديدة للولادة وبخاصة لتدارك الحالات التى قد يجرى عليها الجنين فى الرحم سواء من ناحية وضع بده أو ساقه أو ركبته أو وجهه . وهو أول من نادى باستخدام طريقة العصعص هذه الطريقة التى كثيراً ما أنكرها « سورانوس » وأسلافه .

أما الطريقة المعروفة اليوم باسم طريقة « فلخر » الطبيب المولد (١٨٥٦ - ١٩٣٥ م) وهو أحد أبناء مدينة « شتوتجارت » فمن اختراع الطبيب العربى كذلك ، وهو أول من نادى باستخدام طريقة رفع الوالدة عند الوضع تسهيلاً للولادة . وأبو القاسم هو صاحب فكرة وطريقة عملية استخراج الحصوة المهبلىة ، كما أنه مخترع المرأة المهبلىة وعملية توسيع المهبل عند الولادة تسهيلاً للوضع ، كما علم وعالج الشذوذ الذى قد يوجد فى الفم أو الفك واستخدم الخطاف لاستخراج الزوائد الأنفية ، وأجرى عمليات ناجحة فى القصبة الهوائية بقطع أفق لخادمه . وأبو القاسم هو الذى أجرى العملية المشهورة التى تمنع تدفق الدم من الأوعية الدموية الكبرى ، ولم تعرف أولاً هذه العملية إلا بعد وفاة أبى القاسم بستة قرون وكان أول من اشتهر بها الجراح الفرنسى « أمبرواز باريه A. pare » وكان ذلك عام ١٥٥٢ م ، ولولا أبو القاسم

وتفوقه ونجاحه في القيام بعمليات البتر ما استطاع الطب أن يخطو هذه الخطوات العظيمة .

ولأبي القاسم يرجع الفضل الأكبر في تقدم الجراحة ، وإليه يدين الجراحون بالكثير مما وصلوا إليه في عصرنا الحاضر ، فهو السباق إلى مختلف أنواع الخياطات الجراحية مثل المشكولة أو تلك التي تشبه حياكة الفراء ثم الرفو ، وبخاصة فيما يتصل بالعمليات الجراحية التي تجري في البطن . فهو يستخدم إبرتين في خيط واحد ، هذا فضلاً عن استخدام مصارين القطط والأوتار في الجراحات الخاصة بالمصارين . وهو ينصح عند خياطة الجراح وإجراء العمليات الجراحية أسفل السرة برفع الحوض والساقين . وهذا الوضع هو الذي أخذته أوربا فيما بعد وعرف باسم وضع « ترندلينبورج Terndelenburg » . وقد استخدمت أوربا هذه الطريقة في أوائل القرن العشرين بعد أن أطلقت عليها اسم الجراح الألماني الشهير « فريدريش ترندلينبورج Friedrich Trendelenburg » (١٨٤٤ - ١٩٢٤ م : وما يؤسف له حقاً ندرة ذكر اسم مخترعها الطبيب والجراح العربي أبي قاسم . وطبيبنا العربي هذا هو صاحب الطريقة المثلى في معالجة الكسور المفتوحة للعظام فهو صاحب فكرة ترك ثغرة في رباط الجبس ، وهذه الثغرة يجب أن تملأ بدقة وعناية . ومن حسن الحظ أن وصلتنا مجموعة كبيرة من الصور التخطيطية الخاصة بجراحة العيون والأسنان والعمليات الجراحية الأخرى والآلات الضرورية لإجرائها وقد استكمل الطب العربي جميع هذه الإمكانيات في الوقت الذي كان فيه أطباء أوربا لا يعرفون شيئاً عنها بالرغم من الحاجة الماسة إليها لإجراء العمليات الجراحية .

أما أهم ميزة يتميز بها العرب على اليونان من الناحية الطبية فهي طب العيون ، فقد اهتم الأطباء العرب بالعيون وأمراضها وطرق علاجها اهتماماً عظيماً حتى إن هذا الفن من الطب لقي تشجيعاً عظيماً وبخاصة بفضل المجهودات الجبارة التي بذلها علماء الطبيعة العرب ، والعبقريّة التي أبدوها في البصريات ، وهذا علم يعتبر وبحق علماً عربياً . وأول كتاب جاءنا في طب العيون عامة هو ذلك الذي وضعه حنين بن إسحق ، وبفضل حنين والمؤلفات الرفيعة جداً التي ألفها على بن عيسى وعمار الموصلي أصبحت لدينا الأسس التي شيدت عليها أوربا علم طب العيون في مدارسها ، وظل

الحال كذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر . وفي السنوات الأخيرة قدمت لنا أرض أمراض العيون الدواء الناجع الذي اكتشفته ، وكذلك القطرة المستخرجة من نبات مصرى طبي وهى مفيدة لإزالة الغشاوة التى قد تعلق بالورنية كما تفيد فى حالات الصرع أو الصداع الحزنى .

والعرب هم الذين أظهروا نبوغاً عظيماً فى تعرف نشأة العاهات الجسمانية التى تعرف الآن باسم «أورثوبيدى Orthopaedie» وعلاجها والوقاية منها ، فالطريقة المتبعة حتى يومنا هذا فى أوربا عند إرجاع عظم الكتف إلى وضعه الطبيعى تعرف باسم الطريقة العربية . وإلى جانب وسائل العلاج « تيرابى Therapie » التى كانت مستخدمة قديماً أعنى الحمامات الساخنة والحمامات الباردة ، يذكر ابن سينا كعلاج جديد الحمامات المتناوبة ، كما اخترع الحقنة الشرجية وقربة الثلج ، كما يرجع إلى الرازى الفضل فى استخدام الشعر فى خياطة العمليات الجراحية فى العصور الوسطى .

كذلك من الأشياء الأصيلة وذات الفضل العظيم على الإنسانية : طريقة العرب فى التخدير ، وهم يختلفون فيها عن الهنود واليونان والرومان الذين كانوا يسكرون المريض . أما الطريقة العربية فى تخدير المريض فهى العمل على تخديره لا لتخفيف الآلام فقط بل تسهيلاً للجراح للقيام بعملية الجراحية دون أن يشعر المريض بالألم ، أعنى استخدام طريقة التخدير الشامل لكل الجسم . ومن العجيب أن هذا التخدير قد نسبته الأوربيون أيضاً إلى طبيب إيطالى ، ومن ثم إلى أهالى الإسكندرية الذين تعلموه عن العرب . أما طريقة إجرائه فغمس قطعة من الإسفنج فى عصير من مادة الحشيش ومستخرج زهر البسلة ونبات السكران ، ثم تجفيف قطعة الإسفنج فى الشمس ، وعند استخدامها تطرى وتوضع فى أنف المريض عند إجراء العملية فيمتص المخاط السائل ، ولا يلبث المريض أن يغط فى النوم ولا يشعر بالآلام العملية القاسية . وقد أخذت أوربا هذه الطريقة عن العرب إلا أنها لم تستمر طويلاً وذلك بسبب الاهتداء حوالى عام ١٨٤٤ م إلى وسيلة أخرى تخدر المريض لا عن طريق الإسفنج وما بها من سوائل ، بل عن طريق التنفس . ولم تلبث هذه الطريقة طويلاً حتى حلت محل الطريقة القديمة .

وما أصاب التخدير العربى أصاب كثيراً من الاختراعات العربية وبخاصة

مايتصل بالجراحة وشفاء الجروح ، فثلا المطهر الذى انتقل من العرب إلى شمال إيطاليا لم يعش طويلا واختفى لمدة ستة قرون مرة أخرى .

ومن سوء الحظ أن الفكرة اليونانية القائلة بمبدأ تكوين الكون من أربعة أنواع من العصور ظلت تعمل عملها حتى اعتقد الأطباء اعتقاداً عجيباً يقول إن تقريح الجرح هو الوسيلة الطبيعية لتطهيره لذلك كان الطبيب يستعين بإحداث تقريح صناعي وتنشيطه، وقد ظلت فكرة أبقرط هذه حية يعمل بها الأطباء زهاء ألف عام، حتى جاء ابن سينا فكان أول من عارضها وحاربها ونادى بالعكس .

وكانت نتائج آراء ابن سينا قيمة جداً وجاءت بالعجب العجاب ، فقديمًا كان الجرح لا يشفى إلا بعد أن يمضى عليه زمن طويل قد يتجاوز الأسابيع المليئة بالآلام والأوجاع ، بل قد تمضى الشهور قبل أن يلتئم الجرح . أما الآن فالجرح يشفى في يومه ، فقد تجنبت نظرية ابن سينا لا إحداث التقريح فقط بل نادت بوجوب عدم إثارة الجرح سواء كانت هذه الإثارة آلية أو كيمياوية ، واكتفى الطبيب باستخدام كمادات ساخنة بالنبيذ الأحمر المعتقد لتجنب إحداث قيء ، وهذه وسيلة جبارة تقضى على الجرثومة في مهدها . وقد تنبه عام ١٩٥٩ م الأستاذ الفرنسى « مسكيلر Masquelier » من مدينة « بورجو » إلى مفعوله كمضاد حيوى تماماً وهو لا يقل مفعولا وأهمية عن البنسلين .

أما هذا العلاج وهذه الطريقة في التفكير فتتفق والتقاليد العربية القديمة والاستعداد العربى الجبار لعلاج الجروح ، ولا يستطيع أحد أن ينكر على العرب قوة الاختراع والأصالة في التفكير . فللعلاج الجروح المنتنة اخترع العرب الجاهليون وسيلة فعالة ، وهذه الوسيلة لم تعرفها أوربا إلا في القرن العشرين ، وهى المعروفة اليوم باسم المضاد الحيوى ، فمن سروج الحمير والجواميس استخرج العرب مادة متعفنة وهى التى يصنع منها البنسلين والإسبرجيلوس ، ومن هذه المادة يكونوا مرهماً وعالجوا به الجراح الملتبى فنجحوا نجاحاً باهراً . أما إذا كانت الالتهابات في الحلق فقد استخلصوا المضادات الحيوية من العفن الذى يتكون في الخبز وألقموه للمريض كما هى العادة حتى اليوم عند البدو ، فإن مثل هذه الصفات كنا ننظر إليها لو وقعت قبل خمسين سنة على أنها عمل همجى مزعج ، أما اليوم فإعجابنا لا ينقطع من

مثل هذه الصفات القديمة التي هي عبارة عن مضادات حيوية تلطف الالتهابات وتقاومها بل تقضي عليها . إن هذه المضادات الحيوية العربية كانت تقضي كذلك على هذه الجراثيم الخاصة التي ينتج عنها مثل هذا المرض ، وإن هذه الوسيلة يتمثل لنا فيها اليوم أحدث أنواع العلاج حتى يظهر شيء جديد .

حديثاً أيضاً وسيلة العرب لعلاج مرضى العقول ، فقد عالج العرب الهوس ومختلف الأمراض العقلية عن طريق النوم وبواسطة الأفيون وقد استخدمت أوروبا هذه الوسيلة حتى عصر قريب . وعلاوة على ذلك فجميع المعلومات التي وصلتنا والخاصة بعلاج الأمراض العصبية تتفق ومجهودات الطبيب المعالج الذي كان يضع نفسه موضع المريض يحاول شفاؤه بوسائل نفسية .

والعلاج النفسي يلعب عند العرب دوراً هاماً لا في الأمراض العصبية فقط بل حتى في حالة الأمراض الجسدية . وقد وضعوا كتباً كثيرة تهتم باستخدام الوسائل النفسية للعلاج ، فهناك كتاب أثر الموسيقى في الإنسان والحيوان لابن الهيثم العالم الشهير في الطبيعيات . وقد بدأ حياته العملية كطبيب . وكان ينادى بوجوب الاستعانة بالوسائل النفسية إلى جانب العقاقير الأخرى ؛ فالعلاج النفساني متم ولاشك للأدوية الأخرى . وذلك لأن العلاج النفساني يرفع القوى المضادة للمرض ويناصرهما للتغلب عليه . وقد طالب ابن سينا بذلك وألح في وجوب الاهتمام بالعلاج النفساني على أنه خير وسيلة لتغيير البيئة الكثيفة المحيطة بالمريض . وفي هذا التغيير خير ضمان للقضاء على المرض والإسراع بشفاء المريض . وكان ابن سينا يلح في وجوب استخدام الموسيقى وإحاطة المريض بأصدقائه وأحبابه .

* * *

ومن النادر أن نجد أوروبا تعرف ما تعرف من أعمال العرب الإنشائية الخالقة وتعترف بأصالتها العربية وأنها قد أخذتها عن العرب اعترافها بالأعداد العربية والجبر العربي والأسطرلاب العربي . إننا نقرأ مثل هذه الاعترافات في الوقت الذي ينسب فيه كثير من الاختراعات العربية ظلماً وخطأ إلى الإنجليز والفرنسيين .

لكن التاريخ يثبت ويؤكد أن العرب بمؤلفاتهم العظيمة هم أساتذة أوروبا وهذه الكتب قد استخدمت قديماً لتخريج أطباء بغداد وقرطبة ، وهذه الكتب أيضاً هي التي تخرج عليها عدد كبير من الأجيال سواء في العالم الإسلامي أو المسيحي

الأوربي وبخاصة في الطب ، فؤلفو هذه الكتب العربية لم يكن يخطر ببالهم أن كتبهم ستجد هذا الإقبال وذلك الرواج .

وفي أواخر القرن العاشر الميلادي نجد العلامة « جربرت فون أوريلاك Gerbert von Aurillac » يجمع قواه ويضع كتاباً نظرياً في الطب في الوقت الذي نجد فيه البلاد العربية تستخدم الطب عملياً لا نظرياً فقط في مكافحة الأمراض. فالعلاج كان عند العرب عنصراً اجتماعياً اشتراكياً والمستشفيات بلغت أوج عظمتها وكانت أحسن ما عرفت الإنسانية في تاريخها الطويل . كان العرب يتطلبون كفاية ممتازة لا في الطب فقط بل في سائر العلوم المتصلة به ، فهناك العناية بالدرس والدقة في الامتحانات والاستعداد لمزاولة المهنة في المستشفيات وتدريس الطلاب حيث توجد مواد الدراسة والتدريس متوافرة لأولئك الطلاب . لكن ماذا كان يوجد ؟

إن بعض المؤلفات اليونانية كانت ضرورية للتعليم : ولا يمكن إغفالها أو الاستغناء عنها لكن ما هو موقف الطالب الذي يريد أن يكون فكرة عامة عن الطب ؟

يذكر علي بن العباس الطبيب الخاص للسلطان عضد الدولة والذي كان معاصراً للأوربي « جربرت فون أوريلاك » أنه لم يجد في كتب المتقدمين والمحدثين من الأطباء كتاباً شاملاً يعالج جميع فروع الطب ومعرفتها معرفة لا يستغنى عنها من يريد الإلمام بالطب . فعلى بن العباس ينتقد سائر المراجع الطبية التي كانت موجودة وقتذاك . فأبقراط يوجز في الكتابة والكثير من عباراته غامض وفي حاجة إلى شرح وتفسير . وجالينوس وضع كتباً كثيرة وكل كتاب منها يعرض لقسم خاص من الطب إلا أن مؤلفاته كثيرة التكرار وتتصف بالاستفاضة فلا يوجد من بين مؤلفاته كتاب واحد يصلح للدرس والتحصيل للمبتدئين . وهكذا نجد علياً يعرض لكل كتاب شارحاً ناقداً يائساً — هذا رأيه مثلاً في مؤلفات أمثال « أوريباسيوس » و « بول فون إيجينا » ثم يقول إنها جيدة إلا أنه ينقصها المنهج وهي صعبة على الطلاب وليس من السهل تحصيلها . ثم نجد المحدثين ليسوا أحسن حالا من سابقهم فهام أولاء هرون وسرابيون وماسوريه والرازي قد وضعوا كثيراً من الكتب إلا أنها غير صالحة للدرس ،

وحتى كتاب المنصورى للرازى - بالرغم من أنه لم يترك شيئاً إلا ألم به وعرض له - ليس فى شمول الحاوى الذى هو المثل الكامل للكتاب العلمى . حقيقة أن جميع الكتب موجودة فى الحاوى وهو الكتاب المثالى لولا عدم ترتيب فصوله وانقطاع الصلة بين مادته ، وهذه صفات يجب أن تتوافر فى الكتاب ليصير كتاباً دراسياً . والرازى لم يقسم كتابه إلى فصول وأبواب كما ينتظر القارئ من عالم بالطب كالرازى الذى اشتهر بسعة الاطلاع والأسلوب القوى العلمى ، فمثل كتاب الحاوى كما وصلنا يدعو إلى العجب حقاً ، ويظن أن الذى حدث لهذا الكتاب يجب أن يكون أحد أمرين : إما أن الرازى كتب ما كتب كمذكرات لأجل الذاكرة وبخاصة عندما تتقدم به السن ، لأنه خشى أن شيئاً ما قد يصيبه أو يصيب مكتبته ، وإما أن هذه المذكرات كتبت لتعونه عند تأليف كتابه وتبويبه ، وتنسيقه ، ولما عاجلته منيته لم يستطع تحقيق هذه الأمنية ، لذلك نجد مجموعة غير مختارة تتجلى فيها الآراء المختلفة لكثيرين من الأطباء كما أنها تشتمل على كثير من الزيادات ، ولذلك تضخمت صفحات الكتاب حتى إن عدد الأغنياء الأثرياء الذين يستطيعون شراء هذا الكتاب كان قليلاً جداً لغلاء ثمنه . ويفهم من مقدمة الحاوى أن الرازى قصد من تأليفه معالجة كل ما هو ضرورى لحفظ الصحة وعلاج الأمراض والأشياء التى يجب على كل طبيب حاذق أن يعرفها .

ومن حسن الحظ أن جميع الأفكار والأمانى التى قصد إليها الرازى وحالت منيته دون تحقيقها قد أنجزها على بن العباس إنجازاً كاملاً ، فقد وضع كتاباً يعتبر خير الكتب التى ألفت لتدريس الطب ، فهو وسط بين تفصيل الحاوى وإيجاز المنصورى ، وقد أهداه إلى السلطان عضد الدولة مؤسس المستشفى الكبير فى بغداد ، وهو الملك الذى ناصر العلوم وأخذ بيد العلماء ، كما أحصى له الصوفى النجوم الثابتة ، لذلك أطلق على بن العباس على كتابه اسم : الكتاب الملكى . وإنه لكتاب ملكى حقاً إذ يستحق من القارئ حتى يومنا هذا كل إعجاب وتقدير .

وإننا نلمس فى هذا الكتاب الروح العلمية والعبقرية الجبارة والنهج العلمى القديم فقد رتب كتابه أحسن ترتيب كما بوبه أحسن تبويب ، وهو من هذه الناحية أيضاً يعتبر من أحسن المخطوطات التى وصلتنا ، كما سلك فى تأليفه مسلكاً فذاً ، فأكثر

من الجداول التي تسهل وتبسط المادة على القارئ، وصاغ كتابه على هيئة أسئلة وأجوبة عرض فيها للمادة عرضاً حديثاً ينم عن فهم المؤلف وحسن إدراكه لمادته وعمق تخصصه حتى جعل مادة الطب للمرة الأولى واضحة جلية ومثالية للطلاب « فالعرب هم الذين أدخلوا النور والنظام على المؤلفات الغامضة ، والتي جاءتنا مهلهلة مضطربة عن العالم القديم » - هكذا يذكر مؤرخ طب ويعترف بذلك : « فقد جعلوا من المقتبسات الجافة والمعلومات المجموعة والمجردة من العقل والفهم هذه المعلومات التي وضعها البيزنطيون كتباً علمية حقاً ، فقد نظموها وقسموها حسب تخصصها ، لقد أدرك العرب أن الغرض من هذه الكتب يجب أن يكون التعليم فصاغوها الصياغة التي حققت هذا الهدف ، وذلك في لغتهم العربية القومية الحية وليس في لغة ميتة فكانت كتبهم مثالا علمياً عظيماً » (نويبورجر Neuburger) .

لذلك لا عجب إذا اعترفت أوروبا بالعرب أساتذة لها ومعلمين وأخذت عنهم علومها الطبية وكتبهم التي امتازت على ذلك الخليط المشوش الذي تركه اليونان . فأياها أحسن للحفظ والتعليم؟ أليست هي هذه الكتب العربية التي وضعت في صيغة سؤال وجواب كذلك التي ألفها حنين بن إسحق وثابت بن قرة ومثبات آخرون ؟ إن إيساغوجي حنين لتعليم آراء جالينوس ، وسائر مؤلفات ابن رضوان وغيرها كانت من الكتب التي لا يمكن أن يستغنى عنها طالب طب ، كما أنه ليس هناك أنفع لطبيب من الأطباء من جداول ابن جزلة التي رتب فيها الأمراض ترتيب الأفلاك في الجداول الفلكية ، وهذه الجداول تمكنه من إلقاء نظرة عامة على الأسباب والتشخيص وطريقة العلاج للفقراء والأغنياء وقد ذكر فيها قرابة ثلثمائة واثني وخمسين مرضاً . أو هل هناك أنفع من جداول ابن بطلان حول فوائد ومضار الطقس والغذاء والحركة أو السكون والنوم أو اليقظة ووسائل التغلب على هذه الأضرار ؟

لقد كان ابن بطلان يزاول مهنته في بغداد في الوقت الذي كان يباشرها ابن رضوان في القاهرة ، فقد كان ابن رضوان أستاذاً ممتازاً ونقيب أطباء مصر ، وقد قامت بين الطبيين خصومة حادة تبادلا فيها الرسائل العنيفة ، فكانت الخصومة عبارة عن حرب رسائل بين الطبيين ، ويرجع سببها إلى ادعاء ابن رضوان أن معظم

العلوم تعود أصولها إلى اليونان، فهذه الدعوى من ابن رضوان وقوله إن دراسة الطب يجب أن تعتمد أصلاً على الكتب اليونانية آلت العلماء العرب ؛ والواقع أن دعوى ابن رضوان هذه كانت تشهيراً فقط بابن بطلان الذى نشأ فى بيئة فقيرة إذ كان ابن سقاء ، لذلك اضطر الابن إلى كسب قوته عن طريق العمل وما كان يستطيع الحصول على كتبه إلا بشق الأنفس وذلك عن طريق نبوءاته الفلكية ومن هذه الكتب التى كان يشتريها بدريهمات قليلة حصل ابن بطلان على معلوماته الطبية . ولكنهما - بالرغم من اختلاف وجهتى نظرهما - قد التقيا فى الشعر والنكات اللاذعة، وبخاصة أن ابن رضوان الذى اشتهر بالمشاكسة كان لا يترك فرصة سانحة لمهاجمة خصمه إلا انقضض عليه منتقماً منه بالرغم من بعد الشقة بينهما، فابن بطلان كان مقبلاً فى بغداد وابن رضوان فى القاهرة . ومما يذكر أن ابن رضوان وضع رسالة عنوانها : إن جهل ابن رضوان حكمة بالنسبة لابن بطلان ! فقد سخر فيها من ابن بطلان وقال إن ابن بطلان لا يستطيع قراءة رسائله ؛ كما وضع ابن رضوان رسالة أخرى فيه : رسالة إلى أطباء القاهرة خاصة بأحدث الأشياء عن ابن بطلان ؛ وهكذا دواليك . وأراد الخصم أعنى ابن بطلان الانتقام من ابن رضوان فلجأ إلى الشعر مخاطباً ابن رضوان الذى كان يلقبه ابن بطلان بلقب « تمساح الجن » :

فلما تبدى للقوابل وجهه نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تستراً ألا ليتنا كنا تركناه فى الرحم

ومع مضى الزمن نجد التجارب العملية للحياة الطبية تستدعى وضع كتاب قيم وجد إقبالا عظيماً من القراء ألا وهو كتاب الرحلة المعروف باسم زاد المسافر للفقراء وهو كتاب يتحدث فى شىء من الدقة والإيجاز وفى أسلوب سهل مفهوم عن أسباب الأمراض وتشخيصها وعلاجها وبخاصة هذه الأمراض التى قد تنزل بالإنسان إبان أسفاره، ومؤلف هذا الكتاب طبيب واسع الخبرة فيما تعرض له، فهو طبيب أسفار ورحلات، فى كل عام كان يركب البحر صيفاً مغادراً تونس مرافقاً السفن فى حملاتها وأسفارها وحروبها ضد الكفار فى البحر ، وهذا الطبيب هو ابن الجزار فقد كان يغلق عيادته الخاصة فى القيروان إبان شهور القيظ ويبصر كطبيب للسفن فى أسطول

المسلمين إلى شواطئ وسط إيطاليا وشمالها وجنوب فرنسا أو شمال إسبانيا وربما مرة إلى نهر التiber شمالاً حتى روما والقديس بطرس . وقد سجل ابن الجزار جميع تجاربه التي جمعها في رحلاته هذه وأضاف إليها ما جمعه من رحلته حاجاً وضمها كتابه المفيد جداً والذي ترجم قديماً إلى اللاتينية والعبرية واليونانية ويرجح أن النسخة العربية التي وصلتنا هي ترجمة عن الترجمة اليونانية .

والواقع أن هذا الكتاب المهم جداً كان هدف المؤلف وغايته فهو شامل لجميع أمراض الشعوب فشرحها ووصف لها الدواء ، وهو كتاب لا يستغنى عنه إنسان .

ثم نجد الطبيب علي بن العباس يهدي الطب كتابه المشهور « الكتاب الملكي » فهو ثاني كتاب بعد المؤلف الذي تصدر عالم التأليف عمراً طويلاً فالعالم القديم لم يعرف لمثل هذا الكتاب مثيلاً . والآن لا نعدم ظهور المنافسين .

ففي الغرب كتب أبو القاسم (٩٣٦ - ١٠١٣ م) نجم الجراحة العربية في قصر الحكم الثاني في قرطبة كتابه الشهير الذي ضمنه تجاربه ، وهو المعروف باسم : التصريف ؛ والجزء الثالث من هذا الكتاب هو أساس الجراحة الأوروبية ، الذي رفع من قيمة هذا الفن الشافي الذي كان محتقراً في أوربا ، وهو يعتمد على علم التشريح الذي هو فرع من الطب وله نفس الأهمية التي للفروع الأخرى .

كذلك ظهر في الأندلس ابن زهر (١٠٩١ - ١٠٦٢ م) وهو من أسرة أشبيلية ، وقد اشتهرت هذه الأسرة بالطب وهي ترجع أصلاً إلى الوطن العربي أغنى إلى الجزيرة العربية . وأشهر كتبه : التيسير ؛ وهو كتاب لا يستغنى عنه الطب ، فهو كتاب جيب الطبيب كما أنه يشير إلى أن مؤلفه من أحسن علماء التشريح ومن أكثرهم خبرة بتاريخ الأمراض ومن أبرع الأطباء الذين خدموا المستشفيات . فاسمه لا يقل لمعاناً في تاريخ الطب العربي عن الرازي كما أنه لا يقل شهرة عن أبقراط حيث يتفق معه في السمو بالطب وتخليصه من الفلسفة والدين مع التواضع والاستقلال في المشاهدات والتفكير .

وأهم كتبه هو ذلك الكتاب الذي أهده إلى تلميذه النابه وصديقه الشهير « ابن رشد » (١١٢٦ - ١١٩٨ م) وقد أجابه على حسن صنيعه معه بكتابه « الكليات » .

لكن جميع وأجود كتب الطب التي وضعها الأطباء العرب بما فيها الكتاب الملكي وسائر مؤلفات اليونان وعلماء الإسكندرية تتضاءل أمام : قانون ابن سينا ؛ فقد ترك هذا الكتاب الذي وضعه أمير الأطباء أثراً بعيداً ظل قوياً فعالاً عدة قرون لا في الشرق فقط بل في الغرب أيضاً ، وهو في تاريخ الطب لا يعدله كتاب آخر .

فقد ضم هذا الكتاب بين دفتيه سائر فروع الطب نظرياً وعملياً مع تنوع مواضيعها وتمكن المؤلف منها فأجاد عرضها وأحسن تأليفها وأبدع تنظيمها وتبويبها ، وخرج الكتاب في صورة قلما نجد كتاباً آخر يدانيه فيها . فقد ذكر مؤرخ الطب « سيد هوف » حول هذا الكتاب ما معناه : « إنه إنتاج شامل كأنه صب في بوتقة وهو وحيد في نوعه بين سائر المؤلفات الطبية في مختلف العصور » .

ومما يؤسف له حقاً أن مجموعة من ملاحظات وأبحاث ابن سينا التي أراد أن يلحقها بقانونه قد ضاعت من قبل نشرها ففقدت الإنسانية بفقدانها ثروة علمية طائلة ، وذلك لأن العبقرية الجبارة لابن سينا قد أثرت عن طريق هذا الإنتاج العلمي تأثيراً عظيماً حتى إن الخلف عجز عن هضم آثاره أو الاستفادة منها الاستفادة الكاملة والإنسانية تمجد ابن سينا تمجيد العالم القديم جالينوس وبخاصة أنها تشعر أن تعاليم ابن سينا جاءت مكملة لتعاليم جالينوس .

ولهذا التقدير لابن سينا أسبابه التي نلمسها في ترتيب وتنظيم وإيضاح وعمق معلوماته ومؤلفاته التي امتازت على سفسطة واضطراب جالينوس فضلاً عن عدم صحة ما جاء في مؤلفاته من معلومات سطحية مشحونة بالأخطاء وبخاصة عند حديثه عن السوائل كما ذكر ذلك « فون فيلامو فيتس موليندورف V. Wilamowitz . Moellendorff » .

إن ابن سينا هو العالم الذي استطاع - وبحق - القضاء على شهرة جالينوس وسائر اليونانيين ، وابن سينا هو الذي حطم هذا التمجيد وذلك التقديس لعلماء اليونان قروناً عديدة . وابن سينا هو العربي الثاني الذي يطل إلى جانب الرازي من قاعة محاضرات كلية طب باريس ، وابن سينا هو أكبر أساتذة الطب ومعلم أوربا فترة لا تقل عن سبعة قرون .

يقظة أوربا

كل يعرف أن شهرة « سالرنو » قد خلدتها، فهي التي شفت المرضى في جميع أصقاع العالم . وهي تستحق أيضاً الشهرة التي نالتها « إني أعترف بفضل العلم الذي حصلته في جامعة " سالرنو " » — هكذا قرر الابن الشاعر ابن الفارس الألماني عام ١١٦٢ م في كولونيا لمستشار الدولة « رينالد فون دسل Reinald von Dassel » وكان عمر هذا الشاعر لم يتجاوز الثالثة والعشرين عندما كان سعيداً جداً بدراسته الطبية في مدرسة أطباء « سالرنو » الواقعة على خليج « بستوم » بالرغم من أنه اعتل جسدياً ومالياً عندما عاد إلى الأمير الذي كان يرعاه ويعطف عليه .

لقد عقد هينريش الفقير أمله الأخير على « هرتمان فون آو » وأطباء « سالرنو » في القرن الثاني عشر . وبخاصة بعد أن حاول عبثاً الشفاء في « مونيليه » . وسالرنو كانت قبلة قاصدي العلاج في أوربا وغيرها، لذلك قصدها ولیم الفاتح الذي صاد فيها بعد ملكاً على إنجلترا طلباً لعلاج نفسه من جرح أصابه في حرب . كما قصد أطباء سالرنو الذين طبقت شهرتهم الآفاق ابنه الجراف روبرت النورماندي استشفاء من الجرح الذي أصابه عند القدس عقب عودته من الحملة الصليبية الأولى عام ١١٠١ م . وصاحب الجراف النورماندي إلى سالرنو زملاؤه الفرسان الذين عادوا من الأراضي المقدسة .

إن المرضى من مسيحي أوربا لم يكن أمامهم للاستشفاء إلا سالرنو، فهي الواحة المنبئة الوحيدة وسط ذلك العالم القحط . كما أن جامعة سالرنو كانت هي الجامعة الوحيدة في العالم . عدا الدولة الإسلامية ، التي يدرس فيها الطب دراسة عملية وكان أساتذتها يتمتعون بثقافة طبية طيبة ولو أنها لا تقارن بتلك التي نعرفها في العالم الإسلامي وبخاصة في دمشق أو قرطبة . لكن بالرغم مما في جامعة سالرنو من نقص إذا ما قورنت بالجامعات الإسلامية — كانت مع ذلك أحسن جامعة مسيحية . والسبب في ذلك هو أن جامعة سالرنو الطبية جامعة علمانية خالصة وهي

الوحيدة وسط هذه البيئة التي عرفت بممارستها الطب اللاهوتي . فديرو وأساتذة سالرنو متزوجون، وإلى جانب الذكور من الأساتذة نجد الإناث أيضاً ، وكانت أبوابها مفتوحة أمام الطلاب من مختلف الجنسيات والعقائد .

أما متى نشأت جامعة سالرنو وكيف ظهرت فهذا موضوع القصص والأساطير . وقصة سالرنو كغيرها من القصص والأساطير ، ولا بد أن تحتوى على شيء من الحقيقة . فهناك خبر يذكر أن الذين أسسوها أربعة يوناني ولاتيني ويهودي والعربي « أدلا » وهو ولا شك العربي « عبد الله » إلا أن هذه التسمية العربية قد أسىء فهمها ففهمت على أنها « أدلا » واشترك عربي في تأسيس مدرسة سالرنو الشهيرة شيء بدهي وبخاصة أن سالرنو تقع في جنوب إيطاليا والجنوب كما يحدثنا التاريخ كان طيلة القرن التاسع الميلادي منطقة احتلال عربية ، ولم يقتصر الأمر على احتلال العرب لهذا الإقليم بل لقد قامت فيه أيضاً سلطنة عربية ، وهذا ليس بعجيب وبخاصة إذا أدركنا موقع صقلية العربية وتقارب الأوضاع بين صقلية وجنوب إيطاليا . ولعل أجمل صورة تصور لنا العلاقات في ذلك الوقت بين صقلية وجنوب إيطاليا ومدى الأثر العربي الإسلامي في تلك المنطقة ما يروى عن اليهودي الصغير « دونولو » فقد تعلم العربية في مدينة بالرمو عندما كان أسيراً ، ولما أخلى سبيله درس الطب العربي في جنوب إيطاليا وعلى يد طبيب قدم إلى جنوب إيطاليا من بغداد . وهناك أدلة أخرى ملموسة لمساهمة العرب في تأسيس جامعة سالرنو .

ومن المؤكد أنه قبل انصرام القرن التاسع الميلادي أثار أطباء سالرنو إعجاب الأوربيين الذين لم يعتادوا مثل هذا التقدم العلمي الطبي من قبل ، ومن الثابت أن العلم والمعرفة والتجربة التي تدفقت في السبعين ، بل الثمانين ، سنة التي انصرمت من القرن الحادي عشر وفي سالرنو- هي التي أكسبت هذه الجامعة هذه الشهرة الخالدة التي عم فضلها فشمع جميع أنحاء المعمورة؛ وبديهي أن هذا العلم وما إليه وتلك المعرفة لم تكن معرفة رومانية أو أخرى قديمة بل حكمة عربية إسلامية . وقبل أن يدخل « ليوناردو فون بيزا » الحساب العربي إلى أوربا بنحو قرن ونصف قرن ، كان قنسطنطين القرطاجني الأفريقي يتزعم نشر الثقافة والعلوم الطبية العربية في سالرنو ، وبذلك وعن هذا الطريق أخذت العلوم الطبية العربية تتسرب

إلى مختلف الأنحاء الأوروبية . وقد نجح قنسطنطين فسجل لنفسه في صفحات الثقافة الأوروبية اسماً خالداً وشهرة عظيمة فاقت تلك التي نالها « ليوناردو فون بيزا » والسر في هذا لا يرجع إلى عبقريته ونبوغه فإن استعداده العلمى أقل كثيراً من استعداد « ليوناردو » لكن قنسطنطين كان أمهر منه في التأثير على عصره .

وهذا هو تاريخه كما نستخلصه من الأساطير والقصص التي وضعها مؤرخوه :

في العام الذي ولد فيه الراهب « هيلدا برند » الذي أصبح فيما بعد البابا جريجور السابع ، أعنى عام ١٠٢٠ م ولد قنسطنطين في قرطاجنة ، ولا نعلم شيئاً عما إذا كان مسلماً أو مسيحياً . حرّاً أو عبداً أو عتيقاً اعتنق المسيحية فيما بعد . كما لانعرف شيئاً عن اسمه الأصلي وهو مثل « ليوناردو » نما وترعرع في البحر الأبيض المتوسط وفي محيط التجارة الشرقية وتجارة البحر الأبيض المتوسط ؛ وقنسطنطين مثل ليوناردو قام برحلات كثيرة في الشرق طالباً العلم والمعرفة والمغامرات ، وقد قضى نحو نصف سنى حياته في التحصيل والتجوال حيث كان يبيع العقاقير والأدوية ، ولذلك كان على اتصال بالأطباء العرب . وكان هذا الاتصال وثيقاً ، وحدث في تلك الفترة أن توفى ابن سينا وابن الهيثم . وفي بغداد ثم في حلب وأنطاكية وشيزر التقى بابن بطلان الذي كان في ذلك الوقت قد التحق بخدمة أمير شيزر وهو جد أسامة بن منقذ . وفي القاهرة كان ابن رضوان يقوم بالتدريس واتسعت شهرته .

ولما بلغ قنسطنطين الأربعين زار كتاجر للعقاقير والأدوية صقلية العربية وسالرنو المجاورة لها وبذلك دخل وللمرة الأولى أرض الإفرنج ، وفي حديث بينه وبين أخى أمير سالرنو وكان طبيباً قام بدور الترجمة بينهما بعض موظفى القصر من العرب تبين منه الضيف الشرقى البون الشاسع جداً بين الطب العربى والطب الأوروبى كما أدرك الفرق الكبير ، لذلك وعد أطباء سالرنو بأنه سيمدهم بكثير من الأدوية والعقاقير الطبية العربية بل ببعض ثمرات العقل العربى .

ثم عاد قنسطنطين إلى القاهرة ، وكان في إبان شبابه يلتقط هنا وهناك بعض المعلومات الطبية ، ثم درس عندما بلغ سن الرجولة الطب في المدارس الشرقية دراسة منتظمة . وزار سالرنو مرة أخرى متأبطاً عدداً كبيراً من كتب ، وكانت سالرنو في ذلك الوقت وكل جنوب إيطاليا تحت حكم الهرزوج النورمانى « روبرت جويسكارد » ،

وبعد أن تعرف قنسطنطين على البلاد ولغتها أخذ يعمل جاهداً فألف الكتاب تلو الكتاب، وكل كتاب يثير إعجاب القراء . إن مثل هذا الرجل يجب أن يكون عظيماً جداً فثله لم تعرفه سالرنو من قبل، لكن قنسطنطين قرر لكى يؤلف وينتج أن يعتزل الناس، وأنه أحوج ما يكون إلى الهدوء؛ لذلك انتقل إلى جبل كسينو، الذى ألفت فيه أشهر كتبه الطبية وساعده الراهبان « أتو » و « يوحنا » فى تقويم لغته اللاتينية الركيكة .

وحدث أن أقبلت يوماً ما فرقة من الفرسان الشقر الفيكنج ومعهم أبناء الصحراء الذين لوحهم الشمس فبددت هذه الفرقة الهدوء الذى كان يعيش فيه قنسطنطين ، وقد جاء ملك النورمان نفسه وهو « روبرت جويسكارد » يحيط به نفر من النورمان الممشوقى القوام والمسلمين المخلصين له ، وإلى جانبه سار شيخ فى مسوح الرهبان، والملك يرشد الشيخ . ويلوح أن السن والأمراض قد تجمعت وبقسوة شديدة على هذا الكهل، وبدأت معالمها واضحة على وجهه المحروم من الحنان والعطف، وهذه القسوة وتلك الشيخوخة لم تقوسا ظهر هذا الشيخ فقد سار فى رفقة الملك . تزن الخطا لا يلتفت بمنة أو يسرة ويدب على الأرض المرصوفة كما لو أنه من حديد لا يعبأ بالتقاليد التى لم يضعها هو نفسه

ثم تختفى الضوضاء التى أحدثها الفرسان، كما اختفى معها الفرسان والهرزوج، وظل الشيخ وحيداً ، وعاد الهدوء إلى جبل كاسينو ، وهو هدوء لا يختلف كثيراً عن هدوء القبور . لقد استقبل قنسطنطين المؤلف والكاتب مريضاً قد حطمت السنون والعلل، لذلك حمل إلى سفح الجبل حيث الدفء والطقس المعتدل وكبار الأطباء فى جامعة سالرنو . وفى مايو عام ١٠٨٥ لفظ هذا الكهل نفسه الأخير وقد حرمه البابا من الكنيسة وطارده حساده وأعداؤه الرومانيون، ومن القيص لم يبق إلا الشقاء والاضطهاد لأنه كان عدوه اللدود . وهكذا انهار الرجل حزيناً وحيداً . إنه ابن الفلاح التوسكاني الذى سمي لوقت قصير جريجور السابع ولقبه أحد أتباعه بقلب : « الشيطان المقدس » .

وقد عاش قنسطنطين بعد جريجور عامين فقط ، وبينما كان يهوى نجم هذا ظهر نجم آخر سطع وتلألأ ، وذلك نجم هذا المؤلف الذى وضع كثيراً من الكتب إبان إقامته فى جبل كاسينو ، وكانت هذه الكتب تنحدر إلى الوادى فرسل ضوءها ساطعاً إلى سكان مدينة سالرنو .

نعم إن هذه الكتب دوت في لغة لاتينية ركيكة إلا أن محتوياتها كانت قيمة جداً، فهي تعالج أمراض العيون والجراحة والكيمياء والغذاء وأمراض البول والحمى . وما أعظم المهارة التي أبدتها عندما دون الكتاب الأصلي زاد المسافر « فياتيكم Viaticum » ، وكتابه الهام الرئيسي الذي يحوى جميع فنون الطب والمسمى « ليبر بتيجنى Liber pantegni » فما أعظم العبقريّة !
إن هذه الشهرة دامت أربعين عاماً كاملاً .

ومن ثم قد فضح أمر هذا الرجل الذي ولد في قرطاجنة وثبت أنه لم يكن عالماً بل تاجراً خبيراً ، فقد استطاع أن يستغل خبرته التجارية هذه استغلالاً عظيماً فأقبل على البضاعة القديمة ولفها في ورق جديد مضللاً المشترين . فالذى حدث أن الحروب الصليبية عرفت بعض الأوربيين بالشرق ثقافة ولغة وتجارة . كما أن المواد التي تخصص فيها قنسطنطين لم تعد غير قابلة للمنافسة فقد ظهر في الشرق منافسون له . ففي اللحظة التي قرر فيها الطبيب اللومباردى إسطفان أحد أبناء مدينة بيزا إنقاذه ما يمكن إنقاذه في أنطاكية من كتب العلوم الطبية وتقديم هذه الكتب إلى أوربا المسيحية أخذت شهرة قنسطنطين في أوربا تتوارى وتخبو .

وبينما نجد في عام ١١٢٧ إسطفان يترجم إلى اللاتينية الكتاب الكامل في الطب والمعروف باسم الكتاب الملكي الذي ألفه على بن عباس تبين إسطفان حقيقة هذه المادة التي سطا عليها قنسطنطين ونسبها إلى نفسه . لقد درس إسطفان الطب في سالرنو الواقعة على خليج « بستوم » وظل يدرس العلوم الطبية نحو ثلاث سنوات أعجب فيها إعجاباً منقطع النظير بمؤلفات قنسطنطين . أما الآن وقد تبين في الشرق ما تبين فقد استطاع في سهولة ويسر كشف القناع وإمالة اللثام عن هذا الشخص الدعى الذي نسب إلى نفسه الكتاب الملكي . وكان هذا هو البدء فقط .

ففي صقلية اهتدى المترجم « ديمتريوس » إلى أن كتاب قنسطنطين الموسوم باسم « ده أوكوليس De oculis » ما هو إلا كتاب حنين في شفاء العيون ، والكتاب المعروف باسم « فياتيكم Viticum » ما هو إلا كتاب ابن الجزار المعروف باسم زاد المسافر . أما كتاب الغذاء وكتابا البول والحمى فما هي إلا ترجمة من كتب « إسحق يوداكوس » . أما كتاب قنسطنطين في التشريح فهو من تأليف على

ابن عباس ، وتبين العالم اليوم أن كتابه في الكيمياء مأخوذ عن الرازي .
 أم ابعض مؤلفات أبقراط وجالينوس فقد تعرف عليها قنسطنطين عن طريق
 الترجمة العربية التي قام بها حنين بن إسحق وحفيده حبيش ، فقد أحضرها
 قنسطنطين معه إلى إيطاليا، لذلك لم يستطع سرقتها ونسبتها إلى نفسه لوجود النسخ
 اليونانية الأصلية . أما أسماء العلماء العرب فلم تكن معروفة في إيطاليا، وقد تجاهلها
 قنسطنطين متعمداً ولم يقف عند ذلك بل محا من عليها أسماء مؤلفيها ووضع اسمه هو
 معللاً هذا بقوله حتى لا يأتي آخر ويسرق مجهوداته . إنه لص مجرم ينادي ويصبح
 اقبضوا على السارق بينما يسرق هو الأشياء ويضعها في حقيبته، وإذا استثنينا بعض
 الحالات الفردية فإن القوم لم يستنكروا عليه سرقاته ، وظلت كتبه تحمل اسمه، وذلك
 لأن الناس لم يحترموا حق التأليف والملكية كثيراً أو لم يراعوا حرمة هذا الحق .
 ولا غرابة في هذا فحامى قنسطنطين وهو كبير أساقفة سالرنو واسمه « الفانوس » قد
 سبقه إلى هذه السرقات ، فترجم كتاباً عن اليونانية إلى اللاتينية ونسبه إلى نفسه !

والمؤرخ الفرنسي العظيم للطب وهو « دارمبيرج » قد هاجم قنسطنطين
 الإفريقي مستخدماً أقسى ألفاظ السب والقذف، ولو أنه أوجد له بعض العذر
 لسرقاته العقلية، إذ نجد « دارمبيرج » نفسه يتحمس ويقترح رسمياً وجوب إقامة
 نصب تذكاري على مرتفعات سالرنو ليشاهده الجميع وذلك تقديراً لترجمته الكثير
 من الكتب العربية الطبية وتعريف أوروبا بها فساهم في بعث الأوربيين من الموت
 إلى الحياة .

رجلان ساعدا قنسطنطين في ترجمته من العربية إلى اللاتينية تلميذه المحبوب
 الشاب العربي يحيى بن أفلح الذي انتشله قنسطنطين من الفقر والفاقة واعتنى به
 وأدخله في الديانة المسيحية وأسماه « يوحنا أفلاتيوس » أو أيضاً « يوحنا سراكينوس -
 الشرقى » . وقد عظم شأنه بعد وفاة معلمه وأصبح طبيباً مشهوراً في سالرنو كما أشرف
 على مخلفات قنسطنطين .

أما تلميذه الآخر فقد سمي « أتو » وأصبح ماهراً في الطب كذلك حتى اختارته
 القيصرية « أجنيس » طبيباً خاصاً لها كما كان قسيسها أيضاً . وقد نقل إلى سيدته
 الأشياء التي ترجمها أستاذه في شعر روماني .

وتلميذ ثالث لقنسطنطين هو « بارتوليموس » وقد نسج على منوال أستاذه فاهتم

بالعلوم العربية ، وقد نقل كتابه « بركتيكا practica » إلى الألمانية سواء تلك الخاصة بالمرتفعات والجبال أو لغة سكان الوديان والسهول كما ترجم أيضاً إلى الدنياركية ، وعن طريق هذه التراجم انتقلت العلوم الطبية العربية إلى أوروبا في القرن الثالث عشر. وفي عام ١٢٥٠ نجد « برتولد فون رجينزبرج » يستخدم بعض الألفاظ العربية في عظاته ، وهذه الأسماء كان قد ذكرها قنسطنطين وتلميذه « بارتوليموس » . فجميع هذه الظواهر كانت قطراً مبشراً بقرب الغيث ، ولو أن هذا القطر قد تساقط على أرض صخرية .

أما أثر هذا القطر في إخصاب الأرض وإيناعها فقد كان عظيماً جداً ، فلا طبيب في سالرنو إلا استفاد من المراجع العربية استفادة عظيمة . كما لا يوجد كتاب خاص بالطب إلا اعتمد على المراجع العربية اعتماداً قوياً ، وإن امتزجت بالتقاليد القديمة التي كانت سائدة في سالرنو .

ويجب ألا نعتقد أن هذا الأثر العربي الطبي قد أثر في الدراسات الأوربية عن طريق الكتب فقط بل جاء أوروبا عن طريق الطبيب نفسه الذي لم تكن على عينه غشاوة ورأى أن يرى ما هو كائن .

أما مسرح كل هذا فقد كان الشرق : كانت مصر ، التي كانت ميداناً للحملة الصليبية الخامسة .

ففي عام ١٢١٨ التقى في الأراضي المقدسة من الصليبيين الإيطاليين طبيب عظيم من مدينة بولونيا وقد فرضت وظيفته الطبيب « هوجو » عليه بالرغم من أنه كان في سن السبعين ومن نسل أشراف اللونجوبرديين البورجونونيين والذين كانوا يقيمون في « لوكا » والذي كان يتقاضى مرتباً قدره ستمائة ليرة لمدة الحياة . أن يمضي فقط ثمانية شهور سنوياً فقط في بولونيا مزاولة مهنته كطبيب شرعى . أما بقية العام فيجب أن يرافق فيه المحاربين البولونيين في حروبهم .

وحصل أن الحصار الطويل الذي ضرب على دمياط الواقعة في نهاية دلتا النيل سبب كثيراً من الأهوال من مجاعة وبرد وأمراض مما فرض على الطبيب كثيراً من الأعمال والخدمات ، هذا إلى جانب الخسائر الفادحة والمعارك الحاسرة التي بذلت في سبيل الاستيلاء على الحصن . . وقد انتهت جميعها بإلحاق الهزيمة بالمسيحيين وانتصر جيش

السلطان الذى كان فى وضع بين اليأس والأمل ، لذلك انصرف الطبيب هوجو إلى علاج أولئك البولونيين من أمراضهم وجروحهم وكسر عظامهم .

وحدث عند ذاك أن هوجو أدرك أن كثيرين من الأعيان أخذوا يفضلون عليه زملاءه الآخرين بالرغم من أن رجال الدين المسيحي والمجالس المسيحية كانوا يقررون دائماً خروج الأطباء الآخرين على الكنيسة ؛ لكن ماذا يجدى موقف رجال الدين هذا ؟ هم يحرمون ، ينهون ويحذرون ويهددون ويتوعدون بالعاقبة السيئة التى تنتظرهم .

وغالى رجال الكنيسة فى تنفير القوم من الاستعانة بالأطباء والتشهير بهم فاتهمهم بأنهم تحت ستار طبهم ومعالجة المرضى كانوا يتربصون بالمسيحيين الذين يقصدونهم ويوقعون بهم أشد الأضرار كما قد يقتلونهم خنقاً بالحبال . لكن بالرغم من كل هذه الشائعات الكاذبة والتهديدات بالطرد من الكنيسة لم يتردد المرضى فى زيارة الأطباء سعياً وراء الشفاء على يد أولئك الأطباء الأعداء . ولم يكن هذا الوضع مشرفاً للطبيب الشيخ الذى كان يداوى الجروح ويتقلد منصباً رسمياً . فى هذه السنوات الثلاث وجد « هوجو » الفرص السانحة لمشاهدة ومعايشة الجراحين المسلمين الذين كانوا موضع المدح والتقدير من الجميع ولو أنهم كانوا أيضاً موضع اللعنة . وكان « هوجو » إذا ما اضطر إلى الذهاب إلى مستشفياتهم الحربية وجدها معدة أحسن إعداد ومزودة بأحدث الآلات وكانت حمولة ثلاثين أو أربعين جملاً .

وقد شاهد « هوجو » هذا ، فى المستشفيات الإسلامية علاج الجروح فأدرك أن ما تعلمه هو كان خطأ شنيعاً . لقد تبين (هوجو) أن المهنة التى كان يمارسها زهاء خمسين عاماً والتى أخذها عن كتب الطب منذ عهد أبقرات حتى عالم سالرنو المسمى « روجر » والتى كان يعتقد فيها من قبل إنها الحكمة كل الحكمة – باطلة وما حصله كان لغواً وقبض ربح . لقد علمت تلك المراجع : أن الصيديد هو البلسم الشافى ، وظهوره ضرورة لا بد منها لشفاء الجرح ، ولتكوين هذا الصيديد كان لا بد من دهن الجرح ببياض البيض وزيت الورد ، وكثيراً ما أدت هذه الطريقة إلى أوجم العواقب .

أما الأطباء المصريون المختصون فى علاج الجروح ، فكانوا يستخدمون الأربطة المغموسة فى النبيذ المعتق الساخن وحول الجرح الرباط العادى ، ومن ثم يتركون هذا الرباط على الجرح خمسة أو ستة أيام ، وتكون النتيجة سرعة الشفاء دون أن

يتسبب هذا العلاج في ظهور حالة خطيرة ، هذا إلى جانب أن هذه الوسيلة تقفل الجرح بواسطة طبقة جلدية رقيقة ناعمة دون تجعد ، وهذه الوسيلة كانت تستخدم أيضاً في علاج الجروح التي تطرأ على الأعصاب أو الأوعية . ولعلاج الكسور كان المصريون لا يستخدمون هذه الآلات القاتلة كما هو متبع في وطن « هوجو » ، كما أن ما علمه هو في أوروبا سماعاً يشاهده الآن بعيني رأسه . وشاهد « هوجو » كذلك الأطباء المصريين وكيف كانوا يعالجون مشوهي الأجسام ، فإذا أصيب شخص بجرح بليغ يستدعى بتر ذراعه أناموه أولاً ، ومن ثم خدروه عن طريق الحشيش والسكران ونبات اللقاح ، وذلك بغمس قطعة من الإسفنج في خليط من سائل هذه المواد وبذلك لا يشعر المريض البتة بهذه الآلام المبرحة .

ولما عاد « هوجو » إلى وطنه عام ١٢٢١ استغل تجاربه ومعلوماته التي حصلها إبان حياته في غمار الحروب الصليبية معالجاً المرضى البولونيين مدة ثلاثين عاماً قضاها في وظيفته ، وكان توفيقه في عمله عظيماً جداً ، وما تعلمه عن العرب أخذ يلقيه لأبنائه وأحفاده قائلاً : في حالة الجروح يجب تجنب الالتهاب أو القيح . كما أخذ يدرس أبسط الطرق لعلاج الكسور والتخدير عند إجراء العمليات وذلك عن طريق عقاقير مخدرة . ولما توفي وقد بلغ مائة عام ترك في بولونيا مدرسة للجراحة ظلت تعمل بتعاليمه زمناً طويلاً ، وقد خلفه عليها ابنه « تيودريش فون بورجومي Thioderich von Borgonomi » ، ولما كان ابنه هذا من رجال الدين كان لا بد له من الحصول على إذن خاص لممارسة مهنة الطب والجراحة ، وذلك لأن الطب كان في ذلك العصر مهنة مشينة في نظر الكنيسة ، كما أراد تجنب عبارات اللوم والتقريع التي قد توجه إليه إذا ما أخفق في عملية أو أكثر من العمليات الجراحية التي قد يجريها . لكن من حسن حظ « تيودريش » أنه لم يعرف إخفاقاً في مهنته وذلك بفضل الطرق والتعاليم الجديدة التي لقنه إياها والده ، لذلك أحب مهنته كطبيب حباً شديداً كما ازداد إقبال الزوار على عيادته في بولونيا حتى إنه لم ينصرف عن إجراء عملياته الجراحية بالرغم من تعيينه أسقفاً بالقرب من « رافينا » .

لكن هذه الفترة الجديدة التي بدأت بداية تبعث على الأمل قضى عليها بالإخفاق . فالكتاب الخاص بالجراحة الذي وضعه « فلهلم فوق ساليكيتو » الذي

عاش مدة في بولونيا درس بها الطب ، فكانت حياته امتداداً لنشاط الشيخ « هوجو » ثم نشاط ابنه - هذا الكتاب الجديد لم يذكر شيئاً عنهما ، بل تجاهل حتى اسميهما . فماسب هذا الموقف الغامض من مؤلف هذا الكتاب ؟ هل هو الحسد والحقد على الزملاء ؟ إن مؤلف هذا الكتاب لم يسجل كلمة واحدة حول علاج الجروح عن طريق النييد أو التخدير عن طريق الإسفنجة المبللة ، وتبعه في هذا التجاهل تلميذه « لانفرنكو » . أما « هينريش فون موندفيل » الذى أخذ الجراحة عن « تيودريش » فهو الوحيد الذى ذكر - وبإعجاب - طرق علاجه العظيمة والنتائج الهامة الناجحة التى انتهت به أن وصفه لأستاذه عبارة عن قصيدة مدح وثناء على الجرح الذى يبرأ بسرعة دون حدوث صديد ، وهكذا مضت ستة قرون دون تقدم فى علاج الجروح بالرغم من كل المجهودات القيمة التى بذلت ، لذلك كانت الضحايا تذهب الواحدة بعد الأخرى .

أما فيما يتصل بالتخدير فقد خطا خطوات تقدمية . فى مجموعة الوصفات الطبية كمجموعة ترياقات نيقولا (Antidotarium Nicola) نقرأ ما يستفاد منه أن التخدير قد استخدم فأنقذ حالات كثيرة من خطر الموت المحقق ، كما أن المبالغة فى إعطائه للمريض كانت سبباً فى القضاء عليه ، كما أن الكنيسة حاربت التخدير اعتقاداً منها أن المادة المستخدمة فى إعدادها هى مادة شيطانية ، وهكذا نجد التخدير يؤدي خدمة جليلة فى خدمة المريض فلا يشعر بالآلام المبرحة التى يتعرض لها .

والشئ الذى تعلمه « هوجو » اللوكى كان ضئيلاً جداً ، لكن من كتاب الجراحة المنسوب لابنه نعلم كيف أن السيد « هوجو » كان يستخدم مادة التخدير . كما كان يخدر تخديراً موضعياً وذلك بربط الجرح بمادة مكونة من النييد وبقايا الكتان ثم يلفه بقطعة قماش ناعمة . كما أنه انتقد طريقة جالينوس عند علاج الجروح الحديثة لكن توفيقه كان عظيماً جداً عندما استخدم طريقة ابن سينا .

ثم نجد تياراً عربياً ثقافياً ثانياً يغمر أوروبا . فظهر ابن سينا ، كما نجد فريدریش الأول برباروسا يهتم بالفلك . وقد حاول الاستفادة من كل ما هو جديد عند الآخرين فأرسل « جريرد » اللونجباردى من بلده الحبيب « كريمونا » إلى إسبانيا . وفى ذلك الوقت ظهر فى كولونيا على الرين طالب الطب الشاب

الألماني الملقب « أركيبويتا Archipoeta » وأخذ يشيد بمجد مدرسة سالرنو التي ازدهرت وأينعت بفضل الثقافة العربية والحضارة العربية الإسلامية .

وقد كلف القيصر رسوله « جريرد فون كريمونا » بالتوجه إلى طليطلة لإحضار الماجسطى لبطليموس ، فحدث أن استولت عليه الدهشة من عظمة العلوم العقلية العربية والثقافة الإسلامية فأثر البقاء على العودة فأقام هناك عشرين عاماً ، ولم يقتصر على ترجمة الماجسطى من العربية إلى لغة علماء أوروبا بل ترجم أكثر من ثمانين كتاباً ، أحضرها معه إلى بلده ، قبل أن يتوفى في كريمونا عام ١١٨٧ م أعني بعد مائة عام من انتقال قنسطنطين إلى الدار الآخرة .

إن ما ترجمه « جريرد » وأحضره إلى وطنه كان من خير الكتب وأحسنها ، ومن بينها الكتاب الملكي وبعض المصادر العربية الطبية التي تأتي في المرتبة الثانية وكان قد أحضرها سابقاً . أما كتب الطب العربي التي ترجمها « جريرد » وجاء بها إلى بلده فكانت خليطاً من شتى الكتب ولكثيرين من المؤلفين أمثال أبوقراط وجالينوس والتي نقلها حنين بن إسحق إلى العربية ، إلى جانب الشروح العربية التي كتبت عليها كتلك التي وضعها ابن رضوان . أما المؤلفات الأخرى فكانت أمهات الكتب العربية في شتى العلوم والآداب العربية ومن بينها كتاب المنصوري للرازي ، وكتاب الجراحة لأبي القاسم والقانون لابن سينا .

ومن ثم أخذ سيل التراجم والترجمة يتدفق من إسبانيا وصقلية وشمال إيطاليا . ومن مدينة « بادوا » جاء كتاب الكليات لابن رشد وهو يعرف اليوم في اللاتينية باسم (Colliget) كذلك كتاب التيسير لابن زهر وقد ترجم مرتين . وفي عام ١٢٧٩ جاء من صقلية كتاب الحاوي وهو الكتاب العظيم للرازي ويسمى (Continens Rhasis) وقد قام بترجمته اليهودي الذي تربى في سالرنو واسمه فرج بن سليم وقد صرف فيه نصف حياته مترجماً أعني حتى القرن السادس عشر . ثم جاء شيء جديد لم يكن معروفاً من قبل ، وهو قديم قدم قانون ابن سينا ومشهور شهرته ، أعني كتاب زاد المسافر، كما أن مؤلفات الرازي وابن رشد ترجمت أكثر من مرة .

وهكذا بعثت في أوروبا نهضة عقلية ومن ثم أخذت تتطور وأصبحت ضرورة لا بد منها لجميع المشتغلين بالعلوم :

قال ابن سينا

كما يتشبع الإسفنج الظمآن بالماء والأرض الجافة الخالية بالغيث ، كذلك كانت ظروف العالم عندما جاءت سحب العلوم والمعرفة والثقافة العربية الإسلامية ، فقد هطلت عليه كتباً امتازت بحسن التأليف ودقة التبويب وبراعة العرض وأخرى مترجمة قد اتسمت ببركاكة الأسلوب وضعف العبارة . وما كاد المجتمع الإسلامي وغيره من المجتمعات التي اتصلت بالمسلمين ثقافياً أو حريباً أو تجارياً يتسلم هذه الهبة العقلية حتى تفتحت العقول فأزهرت وأينعت وجاءت إلى الإنسانية بالخير العميم . وإذا تركنا الشرق إلى الغرب واتجهنا إلى سالرنو وجدناها - وقد استقبلت الموجة الثقافية الإسلامية الأولى - نهض وتتطور وتتبوأ مكاناً سامياً جعلها ذات شهرة عالمية ، ثم لم تكد تهضم ما تناولته حتى جاءت موجة ثانية لكن هذه المرة من خلف الحصون الإسبانية حيث تدفقت ينابيع الحضارة العربية على مونبيلييه فبعثت فيها وفي سائر الأنحاء الأوربية حياة جديدة فنية نلمس آثارها العلمية الطبية لا في مونبيلييه فقط بل في بولونيا وبادوا وباريس وأكسفورد أيضاً .

ومن أكبر مظاهر إقبال أوربا على تحصيل العلوم العربية هذا الشغف العظيم باقتناء الكتب التي ظهرت في تلك العصور ، والتي كانت عربية التأليف إنسانية الغايات ، وحتى ما ألفته أوربا وقتذاك إنما كان صورة من المؤلفات العربية ، وما أقبلت أوربا على ما أقبلت عليه إلا سدّاً للفراغ العلمي الذي كان مخجماً عليها ومحاوله للحاق بالعرب في مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب . والكتب الأوربية التي ظهرت - وإن افتقدت أحياناً الاصطلاحات العربية - قد استمدت مضمونها ودلالاتها . ولعل أكثر الكتب دراسة واستشهاداً مؤلفات أمثال ابن سينا وأبي القاسم والرازي وابن زهر وحنين بن إسحق وإسحق يهودا . وكما طرق العرب قديماً أبواب الثقافة اليونانية كذلك الحال عند أوربا الظمأى فإنها أقبلت واعتمدت في نهضتها على المراجع اليونانية العربية ، وكانت هذه الكتب هي كل شيء في الطب ،

إلا أن الأزهار الأجنبية لم تتأصل جنورها في الأرض ولم تزدهر وتورق بل نمت في حدود ضيقة جداً لذلك بدت وكأنها أزهار ذابلة .

وكانت النتيجة أنه لم يظهر طب أوربي كما ظهر في الشرق طب عربي منذ عصر الرازي ، وأصبح عند العرب طب عربي خالص وظل الأوربي عريباً طيلة عصر الإنسانيين Humanismus بالرغم من وجود أمثال « باراسيلسوس paracelsus » بل امتدت فترة قيام الطب الأوربي المعرب حتى أوائل العصر الحديث .

والسبب في تأخر ظهور الطب كعلم أوربي هو طبيعة العصر وطبيعة نظرة الأوربيين للحياة واهتمامهم بالإنسان فقط ، وكل شيء خالق يتجمد ويكتفي فيه بالتفكير فقط ، فنحن نجد الكنيسة تتطلب من المسيحيين الاستسلام بدون قيد أو شرط لها ولتعاليمها والخضوع لسلطانها ، بينما أولئك الذين يدرسون ويدرسون يتمتعون في الواقع إلى الطائفة المستقلة التي تفكر كيفما طاب لها التفكير . ونجد الأطباء العرب يحبون في معترك الحياة في الوقت الذي نجد فيه جميع معاهد الدروس — إذا ما استثنينا سالرنو والجامعة الحكومية في صقلية وفي نابولي — تخضع خضوعاً تاماً للكنيسة وتعاليمها .

فالفرد المسيحي يجب عليه أن ياتمر بأوامر الكنيسة ويؤمن بها إيماناً أعمى ولا يجوز له مناقشة ما تفرضه عليه ، فالمسيحيون هم خدام الكنيسة ، وهذه العادات وتلك الصفات أصبحت طبيعة ثانية للمسيحيين . فإذا حاد المسيحي عن هذا الطريق وأخذ يهتم بما يجده أو يراه حتى بجسده أو بالمرضى سعيّاً وراء جمع المعلومات والتجارب ، ضل الطريق القويم فطريق العقل يؤدي إلى الغرض والهدف ، وتحديثنا المصادر التي جاءتنا أن الوعي قد استيقظ في ذلك الوقت مسترشداً ببعث التشريع الروماني في مدرسة الحقوق بمدينة بولونيا وأخذت طريقة التفسير والتعريف والمناقشة مع استخدام المنطق ومراعاة الأصول المختلفة تنتشر منذ عهد « أنسلم فون كنتبري Anselm von Canterburu » ، ومنذ التعرف على أرسطو بفضل العرب . فإذا تم هذا مع التشريع والتقنين فلماذا لا يحدث مع اللاهوت أو الطب ؟ فما هو حلال للقانون (Corpus inris) حلال للاهوت فيما يتعلق بالعقائد الكنسية وحلال للطب

ولتعاليم العرب وجالينوس وأرسطو ، فهذه العلوم العربية هي أهم شيء بالنسبة لهم ، هي معجزتهم هي قانونهم هي إنجيلهم ، قانون ابن سينا .

وأين ينشأ الطب إذا لم يجد في هذه القلعة التي عطرها القانون والتشريع والحقوق تربة خصبة له ؟ في بولونيا نجد « تاديو الديروتي Taddeo Alderotti » يهتم بالقانون وشرحه ، وقد نجح في تعاليمه التي أصبحت عقيدة لتلاميذه أجيالا متتابعة ومن بينهم أولئك الذين كرسوا حياتهم للطب فكانوا رسله وإن تزيوا بأزياء عربية . لقد قدس أولئك الرسل العلماء العرب والعلم العربي وبخاصة ابن سينا والرازي ، وظل هذا التقدير قائماً حتى القرن السابع عشر ، وأصبحت عبارة « روح ابن سينا Anima Avicenna » من أكبر الألقاب التي يتشرف بحملها الطبيب الأوربي أو الطب عامة . أما درجة الامتياز التي كان لا يناها إلا فطاحل الأطباء الأوربيين فهي « شعار ابن سينا Avicennista insignis » ؛ وفي القرن السادس عشر أطلق لفظ « ابن سيني Avicennist » على جميع أتباع ابن سينا .

أما المؤلفات التي ظهرت في ذلك العصر فكانت تحمل الصورة الصادقة لتعاليم ابن سينا وطريقته في التأليف والبحث ، كما أننا نجد أخرى احتذى مؤلفوها غير ابن سينا من العلماء العرب .

وغير « ناديو » نجد « بيرو » من « أبانو » وهو ابن رجل قانوني لنجوباردى وكان مغرماً بابن سينا وابن رشد وكانت له عقلية منطقية تستطيع إدراك الحقائق الطبيعية ، التي قد تنشأ عنها حقائق تتعارض والتجارب ، وعن طريق الفلسفة توصل إلى نتائج لا تقبل الشك خاصة بشراب الشعير الذي لا يسبب حمى وذلك لأن عصير الشعير عبارة عن خلاصة بينا الحمى شيء طارئ ، وعن طريق المنطق استطاع أن يثبت دون صعوبة أن النار ليست جسماً بارداً بل ساخناً ، وعن طريق هذه المعادلة المنطقية ضرب مثلاً كيف أن الإنسان يستطيع أن يحصل على آخر نقطة من الدم دون أن يجهد حواسه أو عقله .

والواقع أن التأملات الفلسفية قد خلقت الناحية التجريبية أو العملية أو التطبيقية ، وأن استبداد النظرية التي أصبحت غريبة على الحقيقة خاصة بالتجارب الطبية قد سخرت منها العقيدة الشعبية في هذا الشعر :

جالينوس والعلامة أبقرط
علماني أنه
حيث يوجد ماء يوجد بلل
وإن لم يمت فستحسن صحته !

ثم إن الكتب التي التزمت المنطق وبراعة الأسلوب مثل كتاب القانون نالت إعجاب أولئك الذين يقدرّون فصاحة اللغة وبلاغتها . لكن علماء الطب من الأوربيين فهموا هذه الكتب فهماً خاطئاً فخرجوا منها بنتائج لا تتصل بالعلوم العربية بصلة ما وهي منها بريئة .

فالعلوم العربية يجب ألا تنتهي إلى عقلية هؤلاء العلماء الأوربيين ، وقد راعت جامعة سالرنو الدقة العلمية بفضل العقلية الناضجة التي امتازت بها فخرجت طبياً حقيقياً . وهذا يؤيد هذا التسامح العقائدي الذي دفع إلى السير في طريق الجامعات العربية في الدراسات الطبية . كما نلاحظ هذا في جامعة مونبيلييه التي تأثرت بمختلف التيارات والأهواء . وبالرغم من ذلك تمسكت بتقاليدها السليمة وفتحت صدرها منذ البدء للثقافة العربية التي أقبلت عليها من مختلف الجهات وتأثرت بها مونبيلييه حتى النهاية دون التأثير بالظروف المدرسية الأوربية .

ولا أدل على أهمية العرب والعربية والدور الهام الذي قام به العرب في ميادين الثقافة والحضارة . من أن الباحث كان مضطراً إذا ما أقبل على عمل بحث من البحوث إلى دراسة اللغة العربية دراسة دقيقة . كما نشاهد هذا الظاهرة مع الإسباني الشهير . الذي انحدر من أسرة غوطية غربية واسمه « أرندل » وهو أحد أبناء مدينة « فيلانوفيا » (١٢٣٥ - ١٣١١) فنحن نعلم أن « أرندل » هذا فعل في بلده ما فعله من قبل « ميجويل ثرافيدا » . فهو لم يكتف بدراسة اللغة العربية وإتقانها بل أقبل على العقلية العربية وتعمق في إدراكها ودراسة الكتب العربية الطبية كما اتصل بالأطباء العرب فحصل على علم ومعرفة تميز بهما على سائر مواطنيه وانفرد من بينهم بعدم اكترائه بعلوم وآراء مفكرى أوربا . فأقبل على العلوم العربية فجنى منها بعض ثرائها . كما أبدى تجاهلاً لأولئك العلماء الذي كانوا سبباً في نشر الغباوة والجهل

بين الأطباء اللاتين ، وكرس حبه وتقديره لأمثال علي بن عباس وابن زهر ، والرازي الذي سلط عليهما نوره وعلمه . فالرازي هو الرجل الذي اشتهر بالبحث والتعمق والإنتاج والتقدم والقيام بالتجارب الخاصة . والسبب الذي من أجله قدر « أرندل » الرازي فاحتل من نفسه مكانة رفيعة هو بعينه الذي رفع من منزلة « أرندل » . وصفات الرازي كذلك هي التي احتذتها جامعة مونبيليه فآلت أن تفكر التفكير الحر أسوة بالرازي وأن تذود عن حرية الرأي والبحث العلمي كما فعل الرازي أيضاً .

وهناك فرع آخر من فروع الطب يقوم دليلاً على بعد العرب عن الانحرافات والالتواءات الأوربية الطبية ، وهذا الفن هو الجراحة . فالجراحة تدين للعروبة في تطورها وتقدمها السريع بعد أن كانت مهنة من المهن الحقيرة ، وسرعان ما بلغ الجراح منزلة قاضي الجنایات .

ففي عام ١١٦٣م صدر قرار من المجلس الأعلى يمنع تدريس الجراحة في مدارس الطب ، كما أن الجراحة اعتبرت مهنة مشينة تدنس شرف وكرامة الطبيب الذي يمارسها ، بخلاف العرب الذين أقبلوا عليها وأولوها عنايتهم فأصبحت علماً من أجل العلوم وأشرفها بل أصبحت الفن الطبي الوحيد الذي يتطلب اليقظة والانتباه وسرعة الإدراك وسلامة الطبيب وقواه لأنه هو الفن الطبي الذي يأتي بنتائج إيجابية . وقد أخذت الجراحة تتبوأ مكاناً رفيعاً في أوروبا على يد « روجر فون سالرنو » اللنجوباردي وتلميذه « رولند » و « هوجوفون بورجونوني » وابنه « تيودريش » ثم قدر للجراحة أن تخطو خطوة أبعد بفضل « فلهلم فون ساليست » اللنجوباردي وتلميذه الذي تفوق عليه وهو « لانفرنكو » ثم الفرنسي « جوى ده شولياك Guy de Chauliac » .

والشيء الجدير بالملاحظة حقاً ، هذه الحقيقة التي تدحض الافتراءات التي افترت على الجراحة والجراحين أعني هذا التقدم الذي أحرزته الجراحة على يد أمثال أبي القاسم وابن سينا . وبفضل الأخير خاصة انتقلت إلى أوروبا واشتركت اشتراكاً كلياً مع علم التشريح ومن ثم انتهى بها المطاف إلى هذا التقدم العظيم الذي أحرزته الجراحة في الطب الحديث .

ومرة أخرى نجد العرب يتقدمون لإنقاذ هذا العلم من خطر جديد أحرق به

وفي أوقات حرجة جداً ، وليس هذا الموقف بجديد على العرب فقد سبق لهم أن سارعوا إلى إنقاذ الطب من سيطرة اللاهوت واستعباده وإقفال الطريق أمامه . لقد دنت ساعة الامتحان للطب والأطباء عندما انتشر وباء عام ١٣٨٢ و حار الطب وأخفق الأطباء ؛ في ذلك الوقت كان الطب العربي يتحدث عن الوباء وعن العدوى التي قد تصيب الإنسان من جرائه وهذا بدوره قد ينقل جراثيم المرض إلى كثيرين ممن قد يتصلون بالمريض . وحدث أيضاً أن انتشر الوباء مرة أخرى وكانت أوروبا مستعدة لمكافحته وتجنب ويلاته فمنعت السفن التي يشتبه في وجود المرض بها من الاقتراب من الموانئ الإيطالية ، ثم تقرر التبليغ عن جميع حالات المرض . وقام أول بناء للعزل ومنعت الاجتماعات وأحرقت جميع الأشياء الملوثة بجراثيم المرض ، فكل هذه الاحتياطات تقوم دليلاً على أن أوروبا أخذت بالرأى العربي الخاص بطرق مقاومة المرض والحد من انتشار العدوى ، وقد ظلت هذه الوسائل متبعة حتى يومنا هذا .

وبدهى أن هذه الاحتياطات التي أتت بأحسن النتائج في سبيل مقاومة الوباء والقضاء عليه لم تتعارض وتعاليم الكنيسة فالعبارات الواردة في العهد القديم والخاصة بالعقوبات والعذاب الذي قد يلحقه الله بالمذنبين على يد ملائكته شاهدة على عدم انحراف المسيحيين عن تعاليم دينهم ، إذا ما فهمت على أنها لا تحمل إلا معنى رمزياً . إن الإيمان بالآيات الواردة في الكتاب المقدس حالت لمدة عدة قرون دون تقدم البحوث الخاصة بالعدوى فإلى جانب سرير المريض كان يقف الطبيب العظيم والعالم المشهود له بالكفاية العلمية لكنه لا يستطيع أن يقدم للمريض أدنى مساعدة وذلك لأن العلوم الطبية قاست الكثير من التخمة التي أصابت الأوربيين الذين عجزوا عن فهم العلوم الأجنبية . كما أن العلوم الأوربية لم تتقدم قط حتى في الوقت الذي كان يصرح فيه لخريج الطب الحديث وتحت إشراف طبيب آخر بمعالجة المريض ، إذ أن سائر معلوماته كانت في الواقع مستقاة من الكتب والصور المأخوذة عن رسومات خيالية خاطئة . أما الدراسة العملية في المستشفيات كما هو الحال عند العرب فلم تكن مستعملة في أوروبا ، فمدرسة الطب كانت مقطوعة الصلة بالمستشفى ، فلما عاد الصليبيون وشاهدوا ما شاهدوا عند العرب ، وفي مدارس الطب العربية طالبوا بإدخال هذه النظم في أوروبا ، وأخذ البابا إينوسنس الثالث يطالب جمعية

روح القدس ببناء المستشفيات وجمع المرضى فيها كما أشرفوا هم على رعاية أولئك المرضى في المستشفيات التي كانت خالية من الأطباء . فقط في عام ١٥٠٠ م عين لأول مرة في مستشفى ستراسبورج طبيب دائم مقيم ، وكان هذا بعد ثمانية قرون من تشييد الخليفة الأموي الوليد للمستشفى العربي ، الذي عين له عدداً كبيراً من الأطباء المختصين في مختلف الأمراض . وبعد ستراسبورج نجد في مستشفى ليزرغ عام ١٥١٧ ثم « أوتيل ديه Hotel Dieu » في باريس عام ١٥٣١ م .

وفي منتصف القرن السادس عشر حدث أن طبيباً من « فيرونا » أخذ يدرس شرح ابن سينا في مستشفى « بادوا » مع دراسة عملية ، فأثار هذا التجديد العجب . فقد قصد « بادوا » طلبة من مختلف البلاد ليشاهدوا العرض الجديد لنصوص ابن سينا وجالينوس مطبقاً على المرضى ويشترك الطلاب مع أستاذهم . كذلك نسج على نفس المنوال طبيب آخر كان يعمل في مدينة « إينجولستات » إلا أن هاتين الحالتين كانتا وحيدتين ، وفي القرن الثامن عشر فقط نجد الطبيب الشهير الذي كان يعمل في مستشفى « هرمان بيرهافا » ولو أنه من مدينة ليدن يطبق العلم على العمل في المستشفى بالرغم من الحالة البدائية التي كانت عليها المستشفيات الأوربية عامة في ذلك الوقت ، فقد كانت تستحق السخرية حقاً فضلاً عن عدم ملاءمتها للقواعد الصحية . وبالرغم من ذلك فقد خطا هذا النطاسى البارع بالدراسة الطبية خطوة واسعة .

ولما انبثقت حركة إحياء العلوم والاهتمام بالعلوم اليونانية كان من المتوقع أن تؤثر في مكانة الطب العربي ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث . وعلى العكس . بخلاف ما وقع مع الفنون وسائر العلوم العقلية وبخاصة الفلسفة . أما العلوم القائمة على التجارب والخبرة فلم تستفد شيئاً من العلوم اليونانية .

وفيما يتصل بالطب وسائر العلوم التجريبية أو التطبيقية التي أخذها العرب عن اليونان وقدموها لأوروبا . فقد كانت أيسر قبولا وأكثر رواجاً من تلك التي عرفت في بيزنطة بل امتازت عليها بحسن التنسيق وجمال العرض ودقة الملاحظة ولم تقتصر هذه المفاضلة على البيزنطية فقط بل امتدت إلى اليونانية أيضاً .

أما كتب أمثال علي بن العباس وابن سينا فقد كانت مثلاً لامعاً في التأليف

وترويض هذه المواد الجامحة ، فقد تناولت هذه الكتب ما جاءها ونخلقته خلقاً جديداً فأضافت إليه الشيء الكثير فاستعاض القارئ عن سفسطة جالينوس علماً غزيراً جديداً لا يستغنى عنه باحث أو طالب معرفة ومعنى هذا استعباد جديد وتبعية جديدة وحيلولة دون خلق جديد في عالم التأليف .

وعلاوة على ذلك فقد كانت التراجم الجديدة المباشرة للكتب اليونانية تتصف بالفوضى والاضطراب وضعف الفائدة بخلاف تلك التراجم التي اعتمدت على العربية . وقد كشف الإنسان عن مؤلفات أمثال « روفوس » و « بولوس » و « سيلسوس » ونقلها إلى لغة العصر إلا أن تقادم عهدها جعلها لا تصلح للعصر الذي ترجمت فيه بخلاف الحال مع المؤلفات العربية التي ترجمت في نفس الوقت إلى اللاتينية مثل القانون لابن سينا الذي ترجم مرة في دمشق وأخرى أحسن وأدق في إيطاليا .

لكن هناك شيئاً هاماً أثر بواسطته الإنسان في الأطباء ولو أن هذا الشيء لا يمت إلى الطب بصلة فهو إنتاج لغوى نبه القوم إلى وجوب الاهتمام بفحص النصوص وتحليلها وإن كان هذا الاتجاه قد صرف القوم عن فهم المعنى إلى الأسلوب بما فيه من فصاحة وبلاغة ، لكن حتى هذا لم يصرف الأوربيين عن الاهتمام بأساتذتهم العرب وذلك لأنهم قد تبينوا مدى تفوق العرب على اليونان ، فمن بين الأطباء المشهورين الذين زينوا جبين القرن الخامس عشر والذين طارت شهرتهم إلى كل مكان : ابن سينا والرازي وابن زهر وعلى بن عباس وأبي القاسم ، وقد كانوا المثل الأعلى في الطب ، كما أنهم هم أساتذة الذين خلفوهم وبخاصة في الطب العملى .

وقد انصرف نفر من العلماء إلى دراسة التراثين العربى واليونانى والمقابلة بينهما وبخاصة فيما يتصل بالطب ومعرفة مدى أثر اليونانيين على الأطباء العرب الذين خلقوا الطب العملى التجريبي ، وقد قدم أولئك العلماء إحصائية عن هذا الأثر . ومن أهم الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع كتاب الجراف « فرارى دا جرادو Ferrari de Grado » أستاذ جامعة بافيا الذى وضع شرحاً وتفسيراً للكتاب التاسع من كتاب المنصور للرازي ، وهو أول كتاب طبي طبع عام ١٤٦٩ . فى مؤلفات

« فرارى » جاءت إحصائية تبين أن ابن سينا ذكر أكثر من ثلاثة آلاف مرة والرازى وجالينوس ألف مرة وأبقراط مائة وأربعين مرة .

والجدير بالملاحظة إلقاء نظرة على الطبقات القديمة للكتب الطبية وأولها ولا شك قانون ابن سينا فقد ظهر هذا الكتاب فى فبراير ١٤٧٣ فى ميلانو ، وبعد عامين ظهرت الطبعة الثانية ، بينما ظهر فى نفس الوقت شرح ابن سينا ، وقد نشره ذلك الإيطالى وهو الكتاب المعروف باسم « روح ابن سينا Scele des Ibn Sina » وظهرت طبعة ثالثة للقانون قبل طبع أول رسالة لجالينوس ؛ ومن ثم أخذت تتوالى الطبقات ، فظهرت الطبقات الأولى لكتاب المنصور والحاوى للرازى ، ثم الكليات لابن رشد وإيساغوجى حنين بن إسحق والذى يعرف الآن برسم « يوحنتيوس » .

ثم كتاب الأفعمة لإسحق يهوذا والكتاب الملكى لعلى بن عباس ، وهكذا حتى عام ١٥٠٠ ظهرت الطبعة السادسة عشرة لكتاب القانون بينما لم تظهر لجالينوس إلا طبعة أولى فى مجلدين . وفى القرن السادس عشر بلغت الطبقات للقانون العشرين ، ومن ثم أخذت تتوالى حتى منتصف القرن السادس عشر ، وهكذا نجد قانون ابن سينا هو أكثر الكتب الطبية دراسة وانتشاراً فى عالم الطب ، أما طبقات شرحه فلا تحصى .

وفى القرن السادس عشر فقط ، أخذ الطب الأوروبى يشعر بالحجل من الطب العربى ، وذلك لأنه ظل زمناً طويلاً ينقل ويقتبس ويأخذ عن العربى حتى إنه كان صورة مشوهة منه ، ولا يوجد مثل أصدق يصور لنا الحالة التى كان عليها للطب الأوروبى من هذه العبارات الخاوية التى تدل على لا شىء والتى قالها « باراسيلسوس » فى ميدان السوق بمدينة « بازل » عندما أحرق علانية كتب جالينوس وابن سينا مما أثار غضب الشعب .

لكن يجب ألا يتبادر إلى أذهاننا أن هذه العملية التى قام بها « باراسيلسوس » جاءت بنتيجة ما فالعلم العربى ظل قائماً يزين رءوس العلماء المفكرين ، ودور الكتب الأوربية لم تتوان فى اقتناء هذه الكتب العربية والتنافس فى هذا الاقتناء والمفاخرة به بل حتى حقائب الأطباء كانت غاصة بهذه المؤلفات العربية الطبية . نعم إن ميخائيل ثروت هاجم وانتقد الشراب العربى الذى اعتمد على مبدأ العصير

اليوناني لكنه في نفس الوقت نشر الاختراع العربي للدورة الدموية الصغرى دون أن يذكر المراجع العربية التي أخذ عنها .

أما أستاذه في التشريح « سيلفيوس » فقد كتب عام ١٥٤٥ شرحاً على الرازي هو نفسه أبو التشريح وأبو الطب الأوربي عامة ؛ كذلك نعلم أن الألماني « أندرياس فيزاليوس » قد تعلم اللغة العربية أيضاً وأجهد نفسه في سبيل إعادة نشر الكتاب التاسع من الكتاب المنصوري لمؤلفه الرازي وفي لاتينية أسلم وأقوم . كما ظهر من الكتاب العربي العظيم الموسوم باسم كتاب الحاوي في الفترة الممتدة بين عامي ١٤٨٦ و ١٥٤٢ خمس طبعات كاملة . كذلك عدة طبعات من بعض فصوله . أما كتابه عن الجدرى والحصبة فقد طبع بين عامي ١٤٩٨ و ١٨٦٦ أكثر من أربعين مرة ، وقد ظلت هذه الرسالة الصغيرة موضع اهتمام وتقدير العالم المتحمدين زهاء ألف عام وما زالت حتى يومنا هذا المرجع الهام الذي لا يستغنى عنه والمثال الذي يحتذى .

ومن المؤلفات القيمة التي لها مكانة لا تقل عن معاجم الجيب ، تلك الجداول التي وضعها ابن جزلة وابن بطلان ، فقد ترجمت هذه الجداول أكثر من مرة إلى اللاتينية وعليها اسم المؤلف في صيغة لاتينية غامضة جداً ، وقد ترجمت إلى الألمانية وظهرت في مجلد واحد تحت اسم مفاده « جداول الشطرنج الصحية Schachtafeln der Gesundheit » .

أما الكتاب الملكي لعلی بن العباس فقد شاعت الأقدار أن ينال حظوة عظيمة وذلك عن طريق عالمن من العلماء الإنسانيين تجمع بينهما صلات القرابة في مدينة نورنبرج . ففي حوالي عيد ميلاد عام ١٤٩٣ م تسلم العالم النورنبرجي الطبيب الشهير « هارتمان شيدل » رسالة من بادوا حيث كان يدرس صديقه الشاب « هيرونيموس هولزشوهر » أبلغه فيها عظيم فرحه لشراثة الكتاب الطبي العربي الشهير جداً ، الذي ظهر حديثاً في ترجمته اللاتينية في مدينة البندقية . أما مترجمه فهو « إسطفان فون بيزا » فما كان من « شيدل » إلا أن أطلع زميله الطبيب « هيرونيموس ميتزر » طبيب مدينة نورنبرج على هذه الرسالة ، وقد كان « ميتزر » هذا إلى جانب طبه هاوياً القيام بالرحلات ودراسة الجغرافيا ، وهو الذي أرسل إلى ملك البرتغال رسالة

تحته على وجوب الاهتمام بتمكين « كولومبوس » من القيام برحلته إلى الهند مجتازاً الطريق البحري الغربي . وكان هذان الطبيبان يهويان اقتناء الكتب المطبوعة الحديثة لذلك فرح « مينزر » كثيراً عندما أطلع على مضمون هذه الرسالة وحصول « هيرونيموس هولز شوهر » على هذا الكتاب القيم ، كما أعجبه تقديره واهتمامه بالعلم هذا التقدير الذى دفعه إلى شراء هذا الكتاب ؛ لذلك قرر « مينزر » إهداء « هولز شوهر » كريمته الوحيدة كزوج له . فقد كان كتاب على بن العباس هو الدافع إلى هذا الزواج الذى تم بين « هيرونيموس هولز شوهر » و « دورثيا مينزر » وهكذا أصبحنا نجد « هولز شوهر » يصير عضو مجلس المدينة وعمدة نورنبرج و « هولز شوهر » هذا هو الذى رسمه الفنان الخالد « ديرر » .

كذلك من الكتب التى لقيت رواجاً عظيماً وأقبل عليها المترجمون كتاب « دليل المسافرين » أو « الرحلة » ، وقد نبه إلى عظيم فائدته قنسطنطين الأفرىقى . ففى باريس وكولونيا وجامعات أخرى كان يدرس هذا الكتاب كمادة إجبارية على الطلاب ، وظل الحال كذلك مئات السنين . وهو يعتبر إلى جانب إيساغوجى حنين ابن إسحق والمنصورى للرازى والتيسير لابن زهر والكليات لابن رشد والقانون لابن سينا من أهم الكتب الرئيسية فى برامج الدراسة الطبية فى مختلف الجامعات حتى القرن السادس عشر فى أوربا . وفى جامعتى « توبنجن » و « فرنكفورت » الواقعة على الأودر كانت برامج كليات الطب تعتمد حتى القرن السادس عشر على مؤلفات ابن سينا والرازى .

وبالرغم من أن الغرب تنكر للعرب إلا أن المؤلفات العربية وبخاصة ما يختص منها بأمراض العيون ظلت متداولة حتى القرن الثامن عشر ، وقد دخل كثير من اختراعات العرب وتجاربههم القيمة الطب الدولى بالرغم من إخفاء الأسماء العربية والتغاضى عن ذكر فضل العرب .

لكن من هم الذين لا يزالون يعرفونهم اليوم ؟ ومن يعرف المؤثرات الطبية العربية التى أخذت تلعب دورها فى أوربا منذ عهد قنسطنطين الأفرىقى ؟ ومن يعرف حتى اليوم عظمة وخطورة الدور الذى قام به العرب فى سبيل تطور ونشأة الطب فى أوربا ؟

إن « أجريبا فون نتسهم » هو الشخص الوحيد بين الإنسانين الذى قاسى منه كثيرون ، وهو شاب من كولونيا وكان يسمى « هنريش كورنيليس » ، وكان يغنى أغنية هامة فى أثر العرب فى الطب . فالعرب كما يقول : مشهورون ، حتى إن الإنسان يعتبرهم خالقى هذا العلم ، وكان من السهل إصدار مثل هذا الحكم إذا لم يستخدم العرب كثيراً من الألفاظ اللاتينية واليونانية ، وبذلك كشفوا النقاب عن حقيقتهم ، فكتب ابن سينا والرازى وابن رشد لا تقل أهمية عن كتب أبقراط وجالينوس . وقد بلغت الكتب العربية مكانة هامة فى العلوم حتى إن استخدامها كان ضرورة لا بد منها للوصول إلى الشفاء . أما الطبيب الذى لا يستخدمها فى العلاج فقد يتسبب فى موت المريض الذى يعالجه .

أليست هذه نبوءة أن القديسين من الأطباء المسيحيين والصيادلة والذين اختصهم البابا فيلكس الرابع فى أوائل القرن السادس الميلادى بكتدرائية قديمة فى الفوروم رومانوم كانوا حسب صلاة القديسين عرباً ؟

أنساب العبقرية العربية

قديسو الأطباء والصيادلة . . .

من الخطأ أن نذكر « كوزماس » على أنه الطبيب ، ودميان هو الصيدلى .
حوالى عام ٣٠٠ حينما عاش الأخوان العريان ، فيما يقال ، لم تكن المهنتان الشافيتان قد انفصلتا بعد ، كذلك الحال فى العصر اليونانى . فالطبيب كان عادة هو الصيدلى وإن كان له مساعدون يحضرون له الدواء ويعدونه ، فهم الذين كانوا يجمعون له البذور ومختلف أصناف العطارة ، وكان هناك تجار يبيعون الأدوية والعقاقير والعطور والأصبغ الضرورية لحياتنا اليومية . لكن الطبيب كان هو الشخص الذى يناول المريض الدواء بيده . وذلك لأن تقسيم العمل والفصل بين المهن والحرف يصبح ضرورة عندما تتزايد هذه العقاقير وتتكاثر الأدوية ، ثم كثر المخترعون وتزايد عدد المخترعات فتطلب هذا إعداداً خاصاً لأنها أصبحت فى الواقع أدوية جديدة .

فجميع هذه الحالات حدثت وبكثرة فى الطب الإسلامى العربى . إن الدولة العربية لم تكن دولة ثقافة وعلوم فقط بل كانت أيضاً مركزاً للتجارة العالمية . ففى البلاد العربية كانت تلتقى الطرق التجارية العالمية التى كانت تجتاز البحار والقارات القريب منها والبعيد . . . إنها كانت الشرايين التى تغذى الشرق والغرب والشمال والجنوب بمختلف أنواع السلع مستعينة بالسفن التى اشتهرت باسم « جنك » أو الجمال والبغال حاملة كنوز مختلف البلاد والعقاقير والأعشاب وغيرها من الأدوية الحيوانية التى لم يعرفها الأطباء الأقدمون ولم يحفظوها فى الجرار الفخارية ، وقد جلبها العرب من الصين والهند وإفريقيا وسيلان (سرنديب) وملقا وسومطرة ومن شواطئ البلاد والجزر الأخرى .

ولم يكن هذا بالشئ الجديد فطرق القوافل قديمة قدم العصر الحجري أما وقد تطورت الظروف فقد أصبح التجار أكثر خبرة ودراية بالتصدير والاستيراد وبخاصة فيما يتعلق بالأدوية التى حصلوا عليها كذلك عن طريق الرحلات الاستطلاعية

الكشفية . وامتازت المستشفيات العربية الإسلامية بأن كل طبيب فيها كان يستطيع الحصول على أدوية جديدة ويجرى تجاربه عليها وأن يسجل هذه النتائج في سجلات خاصة أعدت لهذا الغرض ، ولم يكتف بالتسجيل فقط بل كانت هذه النتائج تنشر بين مختلف الأطباء والمستشفيات على أنها أدوية مجربة ، وبذلك تقدم كهدية للطب للاستفادة منها . لذلك نجد عدداً كبيراً من الأدوية التي كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة مثل القهوة والكافور والكبابة والمن والأرجان ، واللبان ، وجوز الطيب والعنبر والأسطراغالس وأخرى كثيرة جداً ، ومن ثم انتقلت بواسطة العرب إلى أوروبا ، كذلك تلك العقاقير التي لم يولها الإنسان من قبل اهتمامه ، فقد أصبحت عقاقير طبية لا يستغنى عنها الطب والصيدلة وأغراض أخرى .

وهكذا نجد الأطباء العرب يصفون القهوة لعلاج القلب كما يستخدمونها مسحوقة لعلاج التهاب اللوز والإسهال والجروح العسيرة الشفاء ، والكافور لتنبية القلب والكبابة لمكافحة الديدان . واستعاضوا عن الدواء القوى المألوف الذي ظل مستخدماً عدة قرون وكثيراً ما كان يتسبب في إحداث القيء أو الإسهال والذي ورثه القوم عن اليونان بأوراق السنا والتمر الهندي والخيار الشبر والعود والروند المهدئة المليئة المقيئة . وقد نادى باستخدامها ودعا إليها مختلف مؤلفات ماسويه والرازي كما نجد محمداً التميمي وهو أحد أبناء القدس يخترع مادة عالمية ضد التسمم ، وقد خلدت هذه المادة اسمه وبحق إذ أطلق على المادة المسهلة التي اخترعها والتي تساعد على الهضم اسم مفتاح الفرع ومنعش الروح ، وهناك أدوية أخرى يونانية كانت مستخدمة بالرغم من الأضرار الجسيمة التي قد تنشأ عنها فلما تناولها العرب خفضوها عن طريق عصير الليمون أو البرتقال أو إضافات أخرى . أما الأدوية التي كان يركبها جالينوس من خليط خاص فقد استعاض عنها ابن سينا بآخر أبسط لا ضرر منه . وفي كتاب القانون لابن سينا نجده يذكر ما لا يقل عن سبعمئة وستين دواء ، وقد انتقلت جميعها إلى النباتات والصيدلة الأوروبية . وبعض هذه الأدوية ما زالت محتفظة بأسمائها العربية حتى اليوم مثل عنبر ، دار صيني ، زعفران ، خشب الصندل ، السن ، الكافور ، تمر هندي ، عود ، حشيش ، خلنجان ، جوز الطيب .

وفي الشرق عرفت مؤلفات أبقرط وجالينوس ، كما جمع « ديوسكوريديس » كل ما يتصل بطب العالم القديم وقد وصل هذا الكتاب إلى أوروبا عن طريق بعثة دبلوماسية ، فالقيصر البيزنطي قنسطنطين السابق الذي عرف كيف يؤثر على الحكام العرب ، أرسل عام ٩٤٨ م بعثة خاصة مزودة بكتاب غني بالرسوم إلى حاكم الأندلس ، وكان القيصر يطمع عن طريق هذه الهدية القيمة في النجاح في عقد محالفة مع عبد الرحمن الثالث ضد خليفة بغداد . ولما لم يوجد في الأندلس من يستطيع فهم يونانية هذا الكتاب فهماً جيداً لتقدير قيمة هذه الهدية الثينة طلب عبد الرحمن من بلاط القسطنطينية إرسال مترجم إليه . وفي عام ٩٥١ م وصل إلى قرطبة الراهب نيقولا ، وكان يستطيع التفاهم مع الأطباء هناك باللغة اللاتينية ، وهكذا تعاون معهم وترجموا هدية القيصر إلى العربية .

لكن عرب الأندلس لم يكونوا متخلفين في علم النبات والعقاقير فالطبيب الخاص للخليفة وهو ابن جلعج ألف كتاباً عن مآخذ ديوسكوريديس ، ومن ملاحظاته الخاصة وتجاربه الكثيرة جمعت لديه المادة لوصف أكثر من ألف وأربعمائة عقار نباتي ومواد أخرى قد يستعاض بها . وعقاقير ابن البيطار (١١٩٧ - ١٢٤٨) أعنى ابن الطبيب البيطري ، وهو أكبر عالم نباتي عربي جمعها جميعها عدا المواد الحيوانية والمعدنية .

فالكتاب يحتوي على جميع مواد الصيدلة في عصره . وقد كان كتاباً عظيماً جداً علمياً وفنياً ، فابن البيطار لم يقنع بدراسة مؤلفات نحو مائة وخمسين عالماً سبقوه في البحث والدرس وذكرهم جميعهم ودرس كتبهم دراسة فاحصة ناقدة بل قام هو بتجاربه الخاصة عليها فقد رحل من مالقا مسقط رأسه وزار جميع بلاد إسبانيا ومراكش وشمال إفريقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى ، وقد شاهد بعينه ، واقتنع ، أكثر من ألف وأربعمائة مرة بكل ما دونه . ومن الجدير بالبحث حقاً العناية بابن البيطار عند درسه وتأليفه لنذكر كيف كان التأليف في أوروبا وكذلك كيف استفاد قنسطنطين الإفريقي والعلماء الأوروبيون من هذه المصادر العربية الفنية .

فابن البيطار يذكر في مقدمة كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ما يأتي :

« الحمد لله الذى خلق بلطيف حكمته بنى الإنسان واختصه بما علمه من بديع البيان وسخر له ما فى الأرض من جماد ونبات وحيوان وجعلها له أسباباً لحفظ الصحة وإمالة الداء يستعملها بتصرفه فى حالتى عافيته ومرضه بين الدواء والغذاء .
نحمده حمد الشاكرين ونصلى على أنبيائه أجمعين » وبعد « فإنه لما رسم بالأوامر المطاعة العالية المولوية السلطانية الأعظمية الملكية الصالحة النجمية لا زالت نافذة فى المغرب والمشرق وأرزاقها شاملة لكافة الخلائق وبواترها ماضية فى قمم الأعداء والمفارق بوضع كتاب فى الأدوية المفردة نذكر فيه ماهياتها وقواها ومنافعها ومضارها وإصلاح ضررها والمقدار المستعمل من جرمها أو عصارتها أو طبيخها . والبدل منها عند عدمها قابل عبد عتباتها وغذى نعمتها هذه الأوامر العالية بالامتثال وسارع إلى الانتهاء إليها فى الحال ووضع هذا الكتاب مشتملاً على ما رسم به وعرف بسببه ، وأودع فيه من ذلك أغراضاً يتميز بها عما سواه ويفضل على غيره بما اشتمل عليه وحواه .

(الغرض الأول) بهذا الكتاب استيعاب القول فى الأدوية المفردة والأغذية المستعملة على الدوام والاستمرار عند الاحتياج إليها فى ليل كان أو نهار مضافاً إلى ذلك ذكر ما ينتفع به الناس من شعار ودثار . واستوعبت فيه جميع ما فى الخمس مقالات من كتاب الأفضل « ديوسكوريديس » بنصه . وكذا فعلت أيضاً بجميع ما أورده الفاضل جالينوس فى الست مقالات من مفرداته بفصه ثم ألحقت بقولهما من أقوال المحدثين فى الأدوية النباتية والمعدنية والحيوانية ما لم يذكره ووصفت فيه عن ثقات المحدثين وعلماء النباتيين ما لم يصفاه وأسندت فى جميع ذلك الأقوال إلى قائلها وعرفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها واختصصت بما تم لى به الاستبداد وصح لى القول فيه ووضح عندى عليه الاعتماد .

(الغرض الثانى) صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين فما صح عندى بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبر لا الخبر ادخرته كتر أثرياً وعددت نفسى عن الاستعانة بغيرى فيه سوى الله غنياً ، وما كان مخالفاً فى القوى والكيفية والمشاهدة الحسية فى المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدلاً فيه عن سواء الطريق نبذته ظهرياً وهجرته ملياً وقلت لناقله أو قائله لقد جئت

شيئاً فريئاً . ولم أحاب في ذلك قديماً لسبقه ولا محدثاً اعتمد غيرى على صدقه .
(الغرض الثالث) ترك التكرار حسب الإمكان إلا فيما تمس الحاجة إليه لزيادة معنى وتبيان .

(الغرض الرابع) تقريب مأخذه بحسب ترتيبه على حروف المعجم مقفى ليسهل على الطالب ما طلب من غير مشقة ولا عناء ولا تعب .
(الغرض الخامس) التنبيه على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدم أو متأخر لاعتماد أكثرهم على الصحف والنقل واعتمادى على التجربة والمشاهدة حسب ما ذكرت من قبل .

(الغرض السادس) في أسماء الأدوية بسائر اللغات المتباينة في السمات مع أنى لم أذكر فيه ترجمة دواء إلا وفيه منفعة مذكورة أو تجربة مشهورة .
وذكرت كثيراً منها بما يعرف به في الأماكن التي تنبت فيها الأدوية المسطورة كالألفاظ البربرية واللاتينية وهى أعجمية الأندلس إذ كانت مشهورة عندنا وجارية في معظم كتبنا ، وقيدت ما يجب تقييده منها بالضبط وبالشكل والنقط تقييداً يؤمن معه من التصحيف ويسلم قارئه من التبديل والتحريف إذ كان أكثر الوهم والغلط الداخلى على الناظرين فى الصحف إنما هو من تصحيفهم لما يقرأونه أو سهو الوارقين فيما يكتبونه « وسميته » بالجامع لكونه جمع بين الدواء والغذاء واحتوى على الغرض المقصود مع الإيجاز والاستقصاء وهذا حين أبتدى وبالله أستعين وأهتدى فأقول . . .

فهذه العبارة ليست ألفاظاً جوفاء أراد بها المؤلف التهويل والتضليل ، فلدينا من الأدلة ما يثبت كيف كان هذا العالم دقيقاً ومفكراً عميقاً ، فابن أبى أصيبعة زميل ابن النفيس فى دراسة الطب على الدخوار كان تلميذاً أيضاً لابن البيطار ، فقد ذكر أن أول مقابلة له معه كانت فى دمشق وفى عام ٦٣٣ هـ ، ١٢٣٥ م وقد درس عليه ورافقه فى بعض رحلاته النباتية . وكانت عادته أن يذكر ما قاله ديوسكوريدس فى كتابه وفى لغة يونانية صحيحة كما درسها إبان مدة دراسته فى بلاد الروم (آسيا الصغرى) . وابن البيطار يذكر « ديوسكوريدس » كلما أراد أن يعرض لوصف وخواص دواء من الأدوية ومن ثم يتبع هذا رأى بأقوال جالينوس . وفى النهاية

يذكر آراء الأطباء المعاصرين سواء اتفقوا أم اختلفوا ثم يبين موضع الخطأ . ويذكر ابن أبي أصيبعة كذلك أنه كان عندما يعود إلى منزله فاحصاً ملاحظات ابن البيطار في مختلف مراجعها يجده صادقاَ عالماً بكل شيء . وأغرب شيء فيه أنه اعتاد أن يذكر الفصل والمناسبة الخاصة سواء عند ديوسكوريديس أو جالينوس أو الآخرين . وقد جاءت الأدوية العربية مساعدات أخرى عظيمة الفائدة جداً وهذه المساعدات مدهشة من حيث الكثرة والاختراعات الحديثة وهي أصلاً عبارة عن مخلفات أشياء ومواد أخرى لم تحقق غايتها العلمية .

إن العثور على حجر الحكمة الذي بواسطته يمكن تحويل المعادن غير الثمينة إلى ذهب أعنى المادة المؤثرة أو « الإكسير » الذي يمنح الإنسان صحة جيدة وعمراً طويلاً . فبلوغ هذه الغاية كان أمل الإنسانية وحلمها منذ عصور طويلة وكانت تسعى جاهدة في سبيل تحقيقه . فقد استولى على الإنسان العجب عندما حاول صهر المعادن وأدرك بالمشاهدة تحولها فبلوغ هذا الهدف لم يحققه مصر أو اليونان أو فارس أو العرب كما عجز عن تحقيقه أيضاً الكيمائيون الأوروبيون .

لكن هذه الآمال التي اختلطت بعناصر روحية غير مرئية تناولها العرب وعالجوها بوسائلهم العلمية المنتظمة . وذلك لأن العقيدة الإسلامية والإيمان بالله الواحد الأحد . الملك القوى . عدو لهذه الخرافات وتلك الخزعبلات التي تتعارض والإيمان بالله العلي العظيم . كذلك نجد إلى جانب الإسلام وتعاليمه عاملاً آخر وهو الكيمياء . وقد تسربت بصورتها الصوفية وطرقها الإعجازية إلى الجماعات الساذجة أو المشعوذين المهرة وهم كما يقول ابن اللطيف ساخراً هناك ثلثائة وسيلة لجعل الناس أغبياء . تحويل المعادن . وعزل المواد المؤثرة وقد دفع هذا الوضع المسلمين المتعلمين إلى القيام ببحوث منتظمة وتحليل العناصر والتفرقة والتعريف في معاملهم للوصول إلى شيء لم يصل إليه أحد من قبل « التجربة الكيماوية » .

فقد حاول اليوناني المفكر شرح وتعليل المعرفة عن طريق الفلسفة فباشركيمياء نظرية وفلسفة طبيعية حيث نلاحظ هذه الحقيقة في الهلينية الشرقية العملية المدركة للتجارب التي جمعت ونظمت وهذا هو نشأة العلوم الطبيعية . أما العرب فهم أول من ابتدع طريقة الملاحظة والملاحظة الدقيقة المنتظمة وتحت شروط صناعية تتكرر

فى كل وقت وتتغير وتراقب ، وكان العرب هم سادة هذا الموقف . لقد خلق العرب الكيمياء التطبيقية التجريبية بمعناها العلمى المعروف لنا ومن ثم طوروها ، كما يعترف بذلك المؤرخ الإنجليزى « كستوم Custom » ، حتى بلغت مكانة عالية رفيعة دفعت إلى اكتشاف الكيمياء العضوية وغير العضوية العصرية ، وذلك بغية الوصول بها إلى المكانة التى بلغتها على يد العرب .

فعوضاً عن تحقيق الأمنية القديمة الخاصة بالحصول على الذهب بلغ العرب بالكيمياء مرحلة أخرى مكنهم بفضل التجارب العملية التى قاموا بها من تحقيق تراكيب كىماوية جديدة ، كما توصلوا إلى طرق كىماوية حديثة . فى أواخر القرن التاسع نجد الكيمياء العربية تأخذ فى الصعود فتبهى أنظار العالم بنورها الوضاء ولمعائها الباهر ، وذلك بفضل شخصية عرفت باسم تنكرى . وهذا الشخص الذى ندين له بالشىء الكثير جداً يجب أن يكون سياسياً من كبار زعماء وشيوخ الطائفة الإسماعيلية ، هذه الطائفة المتحررة المسلمة المتطرفة وقد عرف هذا العالم باسم « جابر » وكتب كىساسى كثيراً من المؤلفات السياسية مسترة بأثواب الفلسفة والعلوم ، وكان « جابر » هذا شخصية مستقلة استقلالاً عجيباً جباراً حقاً « لقد كان عالماً مشهوراً ولو أنه عربى » قال هذه العبارة رجل ممن اشتهروا بعداوتهم للعرب .

فعوضاً عن صهر المعادن التى كانت معروفة فى عصره اخترع « جابر » وسيلة أخرى للصهر والتحليل وذلك عن طريق حامض ملح البارود أو حامض الملح وخليط من حامض الملح وملح البارود ، و « جابر » هو صاحب جميع هذه الأحماض ومحضرها . وهكذا استطاع « جابر » ومن جاءوا بعده الحصول على مركبات عديدة من بينها أكسيد الزئبق والزنجر ، والزرنيخ ، والنوشادر ، ونترات الفضة ، والشب ، وأملاح النحاس ، والقلى الكاوى ، ماء القلى ، وأخرى كثيرة . ويفرق العلماء بين الحامض والقلى كما لاحظوا زيادة وزن المعادن عند الأكسدة والكبرته وأدركوا أولاً أن النار تخمد عند انعدام الهواء . وإلى العرب يرجع الفضل فى خلق العمليات الكىماوية الأساسية مثل التبخير والتبلور والكلسنة والترشيح والتقطير حيث فرقوا بين التقطير المباشر وذلك الذى ينتج عن طريق الرمل أو الماء .

وقد استخدم الكىماويون العرب فى عملياتهم هذه وتحاليلهم المنتجات الزجاجية

العظيمة للعمال المصريين أو السوريين وبخاصة منتجات مصانع حلب حيث كانت مصنوعاتهم الزجاجية من أهم مواد التصدير العربية إلى الخارج وبخاصة سائر الأجهزة الكيماوية الزجاجية التي يحتاج إليها في سبيل إجراء التجارب وأنايب الاختبار التي لا يستغنى عنها معمل ، وفي المدن السورية نجد الجهاز الذي اخترعه العرب للتقطير ألا وهو « الإنبيق » وكذلك « الأثال » . وهذان اللفظان يطلقان حتى اليوم على جزئى جهاز التقطير أعنى العلوى والسفلى . وقد استخدم أبو القاسم عند التقطير جهازاً آخر ، وهو عبارة عن فرن يشتعل فيه الوقود آلياً وكان يغلق الأواني الزجاجية المتداخلة في بعضها عن طريق لفها بقطعة من قماش الكتان .

وقد استخدم العرب الإنبيق لتنظيف الخل وعمل النبيذ والعرق من البلح عدا تطهير الماء غير النقى ، وهكذا أصبح من الميسور تطهير الماء كيماوياً وإعداده للتجارة واستخدامه للدواء . وبهذه الطريقة كان الرازى أول ما استحضر هو حامض الكبريتيك ، ومن السوائل الحامضة المحتوية على مواد نشوية أو سكرية استخرج الكحول (الكحل) ومعنى اللفظ الحرفى « الأكثر رقة » . والكحل هو فى الأصل مسحوق الأنتيمون الناعم وكان يستخدمه الكحالون (أطباء العيون) لذلك نجد طبيب العيون المشهور على بن عيسى يلقب بلقب الكحال . وكان العرب يقطرون مختلف أنواع الزيوت فى أوانٍ فخارية مزججة .

ومن أكبر الأدلة التي تؤيد مدى نشاط العرب فى الحقل الكيماوى هذه الاصطلاحات الفنية التي لا تحصى والتي ما زالت إلى اليوم مستخدمة بالرغم من عروبته . وقد وجدت طريقها إلى مختلف اللغات العالمية ، ولا يقتصر استخدامها على الكيماوى فقط بل حتى ربات البيوت أيضاً . ومن هذه الألفاظ كيميا . الكيميا ، الإنبيق ، الشب ، العصارة ، والحنظل . والعصارة القلى ، الكحل . الأثال . الملغم . النيل . الإثمد ، العرق ، لازورد ، بدوار بتزين ، لبان جاوى ، بازهر = بتزهير . بورق ، ترياق ، درياق ، (مكان) الدرياق ، إكسير قلى . قلقثار . لك . نظرون ، رهج الغار . صداع ، طلق ، وما هو جدير بالذكر أن الكيماوى كان عند إجراء تجاربه قد تبنى لديه بقايا تصلح للعلاج فكان الرازى أول من استخدم الكيمياء لخدمة الطب ، وهذا ما لجأ

إليه فيما بعد « باراسيلسوس » .

لقد تنبه الرازى إلى أنه عن طريق تحسين وتشكيل المواد الأولية الطبيعية يحصل على أدوية جديدة لا توجد في الطبيعة ، وبذلك رفع من شأن الكيمياء الطبية وساوى بينها وبين الأدوية المستخرجة من النباتات . لكن قبل استخدامها كان الرازى يجرب هذه العقاقير الناتجة عن تركيبات صناعية وبطرق صناعية في الحيوان . هكذا نجد التركيبات الزئبقية التي تطورت واستخدمت في العلاج ، كما استطاع عن طريق التجارب التي أجراها على الحيوان استكمال استخدام الأفيون والحشيش من الناحية العلاجية وبخاصة في التخدير . ومن المواد العلاجية والأدوية التي أوجدها الرازى هذا الصنف الذى ما زال يحمل اسمه في فرنسا ويعرف باسم « بلانك رازى Blanc Rhasis » وقد تطورت هذه التسمية في فم الشعب وأصبحت « بلانك ريزين blanc Raisin » أى العنب الأبيض .

ويدين الطب أيضاً للكيمياء العربية للوصول إلى عدد كبير جداً من الأدوية مثل الشراب المستخرج من تقطير بعض الأعشاب والمن أو السكر . وهذا النوع من الأدوية يلعب دوراً خطيراً في شفاء كثير من الأمراض ، وذلك لأن شراب الجلاب وهو هذا الشراب الحلو المرطب أكثر رقة عند طبخه وإعداده من الشراب العادى . كذلك الفواكه المقندة في عسل أو سكر أو أجزاء أخرى من النباتات ، لقد عرفها أوربا عن طريق العرب فافظ (قند هو لفظ عربى بمعنى سكر) .

كذلك يطلق الرازى على نوع من أدوية علاج العيون « سيف » وهو يتعاطى في شكل ملبس . وقد تمكن الرازى من تحويل شراب الرب وهو هذا العصير النباتى إلى حبوب ، وذلك عن طريق طبخ العصير وبذلك جعله سهل التناول في الطريق وأثناء السفر .

وأدرك الرازى بعض المتاعب التي يقاسيها المرضى من جراء تجرع الدواء المعروف باسم « رب » فقد كان ردىء الطعم لذلك لما حوله إلى حبوب كساه بطبقة حلوة من السكر أى جعله ملبساً كما هو الحال اليوم من هذا النوع المعروف في أوربا باسم « دراجا Dragees » وإلى الرازى يرجع الفضل في استخدام عصير الفواكه وطبخه وإضافة العسل أو السكر إليه ومواد أخرى ، وصنع منه ملبساً ،

وذلك بصب هذا الخليط بعد طبخه على رخام وتشكيله حسب المطلوب .
 أما العادة السائدة اليوم والخاصة بتذهيب أو تفضيض الحبوب (البلوعات) فترجع
 في الواقع إلى ابن سينا وذلك لأنه كان يعتبر الذهب والفضة من المواد المنبهة للقلب أو
 الدورة الدموية ، لذلك استخدم الذهب والفضة لكساء أو طلاء الحبوب التي تبلع .
 وقد أظهر العرب براعة فائقة في إعداد الأربطة واللبخ والمعاجين والمساحيق ،
 هذا عدا علاج الالتهابات التي تحدث تحت الجلد أو الخراجات ومختلف أنواع
 الأمراض الجلدية وسائر الجروح ووقف الأوجاع ومنع تقطيع الجروح حيث أوجد
 العرب المضادات الحيوية على أساس البنسيلين والإسبرجيلوس وغيرهما من المواد
 التي لم نعرفها إلا منذ عهد قريب ، كذلك استخدام النيذ وهو لا يقل فائدة عن
 غيره ، والبن المطحون ، وقد أحضر هذه الطريقة إلى أوروبا كهاوى ألماني وأطلق
 عليها « فحم البن » . وقد ذكر أن العرب أنقذوا منذ ثلاثين عاماً حياته بالبن ومن
 ثم استخدم البن في ألمانيا في شفاء الالتهابات المزمنة وقد جاء بنتائج عظيمة .
 وقد حضر العرب أيضاً معاجين تجفف الجروح تماماً مثلها مثل اللبخة أو
 الرباط اللاصق . ومن الواضح أن مثل هذا الدواء الذي يشفى مختلف الأمراض
 كان يحضر بنفس الطريقة التي تستخدم اليوم في المعامل الحديثة ، إن هذا الدواء
 فوق ما يتصوره الإنسان وهو يتطلب معرفة خاصة ونشاطاً خاصاً ومهارة خاصة من
 الشخص الذي يقوم بتحضيره .

وفرق العرب كذلك بين الذين يعدون الدواء وأولئك الذين يأمرهم بإعداده ،
 وبتعبير أدق لقد أوجد العرب الصيدلى ومهنة الصيدلة . فالصيدلى بدراسته والمسئولية
 التي يتحملها يمتاز على تاجر الأدوية العادى في العصور الأولى . لذلك كانت
 منزلة الصيدلى منزلة عالية رفيعة .

وقد أسس العرب أول صيدلية عامة في القرن الثامن الميلادى وكان ذلك أيام
 حكم الخليفة المنصور ، فكان كل مستشفى يحتوى على صيدلية كاملة شاملة ،
 وكانت أخرى في جنديسابور . وأوجد العرب أيضاً صيدليات محمولة ترافق
 المستشفيات المحمولة . وكانت الصيدليات وما إليها من مستشفيات محمولة
 عسكرية خاضعة منذ عهد الخليفة المأمون في القرن التاسع الميلادى للاقابة

الحكومية ، وكما كان يوجد أيضاً نقيب للأطباء ، كذلك الحال مع الصيادلة إذ كانت توجد في كل مدينة نقابة للصيادلة لها نقيب ، كان يختبر الصيادلة ويمنحهم الشهادات التي تخول لهم حق ممارسة المهنة ، وقد كان ابن البيطار نقيباً للصيادلة زمناً طويلاً في القاهرة وخلفه « الكوهين العطار » ، وهو مؤلف كتاب ما زال إلى اليوم مشهوراً موجوداً في الشرق مستخدماً في الصيدلة .

وكانت الصيدليات خاضعة لتفتيش حكومي دقيق فقد كان يراقبها موظفون من مصلحة الصحة ، كما كانت تخضع في نفس الوقت لرقابة التموين وهي الرقابة التي كانت تشرف أيضاً على الطحانين والحبازين وتجار البن ومحلات المواد الغذائية مطالبة بمراعاة النظافة : نظافة المحال والأواني ، وجودة البضاعة ودقة الموازين والمكاييل واللحوم في المذابح الواقعة خارج المدن والجزارة تجنباً لوقوع تسمم في الأغذية أو انتشار وباء . وعند تحضير الأدوية يجب على الصيدلي أن ينفذ التعليمات المطلوبة بكل دقة . فهو مقيد بقوانين رسمية تتصل بالتحضير والمواصفات الطبية لأمثال ماسويه وسابور بن سهل والعنترى وابن التلميذ وآخرين .

إن مراعاة القواعد الصحية والصحة العامة صورة مثالية احتذتها أوربا في الشرق نجد التعليمات الخاصة بتأسيس المستشفيات وتنظيمها والعناية بها خيراً ألف مرة من مثيلاتها في أوربا ، والتي أمر البابا جماعة روح القدس بتشيدها . أما موضوع تنظيم جماعة الأطباء والصيادلة فقد وضع في أيدي رجال يقظين حريصين مدركين لحاجة المرضى ، كما أدركوا مباشرة الفوائد والمنافع الجلية للتقدم العربي ، ولم تحل العقائد الدينية دون إدراك هذا كما أن هذه العقائد لم تغلق عقولهم . وحصل اللقاء في صقلية التي خضعت لحكم العرب مدة لا تقل عن ٢٥٠ سنة ، لذلك أدخل العرب إلى البلاد الأنظمة والقوانين واستقرت في البلاد ، ولما جاء الملك النورمانى روجر الثانى دعم وثبت ما وجدته . ففي عام ١٤٠ أصدر قانونه الخاص باعتبار الأطباء ، كما فعل من قبل الخليفة المقتدر في بغداد لكيلا تتعرض حياة الرعية للخطر لجهل الأطباء أو قلة خبرتهم .

(١) تعنى المؤلف كتاب الدستور في العلاج البرئ ، ويعرف بالدستور البيمارستانى لأبي الفضل داود بن أبي نصر ، أو البيان لكوهين المطار المتوفى حوالى عام ٦٣٤ هـ .

وفي عامي ١٢٣١ و ١٢٤٠ قيل عن القيصر فريدريش الثاني بعد أن استقر له الأمر إنه يفهم كل داء وكل دواء ، لذلك كان في نشرياته الطبية يرمى إلى إقرار جميع القوانين والأنظمة التي كانت سائدة بين الأطباء والصيادلة العرب المستوطنين في مملكته في صقلية .

وهذه المنشورات هي غالباً تكرار لقوانين روجر الخاصة بامتحان الطبيب على يد مجلس من المدرسين في سالرنو ، ومبالغة في جودة التحصيل زادت مدة الدراسة وأصبحت ثمانية أعوام ، كما أن السماح للطبيب بمزاولة مهنة الطب كان يمنح عن طريق مندوب للقيصر وفي حضوره الشخصي . وهنا أيضاً كما هو الحال في الدولة العربية نجد الحرص على الفصل بين الطبيب والصيدلي ، كما نجد عناية كبرى توجه للإشراف على الصيدليات ، وتحضير الأدوية والتعاليم الخاصة التي تحتم وجوب اتباع كتاب صيدلة رسمي والعمل بما جاء به . فهذا الكتاب كان يستخدم كمرشد لإعداد الأدوية ، ووجوده يؤيد قيام هيئة للصيادلة والصيدليات عامة . وهذا ما يفترض القانون وجوده .

وفي الجهات الأوربية الأخرى كانت مثل هذه التعليمات موضع الاستنكار والعجب ، إذ أن الدولة وليست الكنيسة هي التي تولت الإشراف على الحالة الصحية العامة ، كما أننا نجد القيصر هنا سلك مسلك الخليفة والسلطان في الشرق وهو الذي يشعر كذلك بالمسئولية ووجوب النهوض بها للفائدة العامة من الناحية الصحية للرعية ، وكان يدقق في وجوب مراقبة السماح للأطباء بمزاولة المهنة ويشترط في الطبيب الشرف والضمير والمهارة الكافية . ويجب أن يقسم الطبيب والصيدلي قسماً أمامه كما راقبت الحكومة الصيدليات . وفقدت الطائفة الدينية كل سلطان خاص وكان هذا تحدياً صريحاً للكنيسة كما أدرك هذا البابا جريجور التاسع ولم يسعه إلا أن يلتزم الصمت أمام القيصر وتحديه وبعض المساوئ التي يقترفها .

ثم أصبحت قوانين فريدريش الثاني هي الأساس الذي اعتمدت عليه القوانين الطبية فيما بعد ، وهكذا نجد الخطوات الأولى تتخذ في أوروبا ، وفي العصور الوسطى المظلمة في سبيل الدخول في عصر جديد ، وبفضل هذه القوانين وتلك الخطوات فقط نستطيع أن نقول إننا الآن حديثون متقدمون ، كما أن الواقع أن القنطرة التي

عبرتها أوروبا لبلوغ هذه المرحلة شيدها العرب في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين . فتأسيس الصيدليات عامة وافتتاحها وإيجاد جماعة الصيادلة ومهنة الصيدلة بالمعنى العربى والمعنى الحديث فى هذا المعنى العربى ظل فترة ما قائماً فى شمال الألب . فى الوثائق القديمة نجد لفظ « أبوتيكا Apotheca » يستخدم للدلالة على حانوت العطارة وفيما بعد استخدمت هذه الكلمة للتعبير عن الصيدليات فى معناها الحديث .

وتحدثنا المصادر العربية أيضاً أن فكرة تركيب الدواء اعتمدت قبل كل شىء على مجموعة الوصفات الرسمية وهى المعروفة اليوم باسم « فرما كوپين pharmakopin » وهى التى يتحتم على الصيدلى مراعاتها والعمل بها وقد ظلت متبعة حتى القرن السابع عشر إذ كان الصيدلى يجهز الدواء حسب هذه المجموعة . وعن طريق التجارة وبخاصة مع البندقية انتقلت العقاقير والأدوية العربية إلى أوروبا .

وساعد على نشر الصيدلة فى أوروبا قرب صقلية العربية من أوروبا أولاً وترجمة قنسطنطين الأفرىقى للكثير من كتب الطب العربية ثانياً، ولم يقف أثر هذه النهضة على صقلية وجنوب إيطاليا بل بلغ وادى الرين كما هو ثابت من مؤلفات « هيلدجارد فون رينجن Hildegard von Ringen »، وبعد وفاة قنسطنطين بزمن قصير نجد عميد مدرسة سالرنو وهو « نيكولوس بريبوزيتوس Nicolaus praepositus » يضع كتاباً فى المواصفات العلاجية على غرار الكتب العربية . وظل هذا الكتاب مستعملاً لأجيال كثيرة من الصيادلة الذين ظهروا فيما بعد كما أصبح مثل كتاب « سركا إنستنس circa instans » الذى كان يستخدم كثيراً . وهو يشتمل على المواد المضادة لعالم آخر من علماء سالرنو . ولم يقف الأثر العربى عند هذا الطريق بل شق طريقه إلى أوروبا أيضاً عن طريق بيزنطة وذلك بفضل مؤلفات (شمعون زيت سيمون Seths Simeon) و « نيكولائوس ميريسوس Nikolaos Myrepsos » التى كانت متأثرة تأثيراً قوياً بالمؤلفات العربية . وقد رحلت هذه الكتب البيزنطية إلى دور كتب الصيدلة فى أوروبا ومن هذا الطريق أيضاً أثرت الثقافة العربية فى الصيدلة . ومن الجدير بالذكر أن الثقافة العربية فى ذلك العصر كانت قد بلغت شهرة عظيمة جداً فى أوروبا حتى إن الأطباء فى شمال إيطاليا إذا ما أرادوا رفع

قيمة مؤلفاتهم نسبوها إلى العربي ماسويه الصغير من بغداد وأنه هو مؤلفها وهو فيما يقال تلميذ ابن سينا الشهير العظيم فنسبوا كتابهم الخاص بالمضادات إلى المؤلف الذى صاغوا اسمه صياغة لاتينية ألا وهو « جرابادين ماسويه الصغير Grabadin Mesues des jungeren » . وهكذا ضمنوا الشهرة لكتابهم ، وهذا دليل من الأدلة الكثيرة على محاولة تقليد الاستفادة من الصيدلة العربية .

ثم نجد العلوم العربية تخطو خطوات واسعة تكاد تكون خيالية والفضل فى ذلك يرجع إلى كياوى مجهول عاش فى القرن الثالث عشر ومن إنتاجه العلمى نتبين إلمامه التام بجميع المراجع العربية . وقد استهر هذا الكياوى العربى باسم « أبقرط الكيميا » وهو « جابر » وفى اللاتينية « جيبير Geber » وقد فطنت إلى مكانته العلمية سائر الهيئات حتى الأوربية منها وصار اسمه فى العربية ضماناً علمياً رفيعاً لكل بحث من البحوث وأن البحث بعيد عن التهويش والسفسطة .

لكن شهرة كل من الرازى وابن سينا الشعبية العامة كان يجب استغلالها ليحظى بالوصول إلى الهيئات العلمية العليا ومختلف الدوائر العلمية العربية التى كانت تقدر الرازى وابن سينا . فالمعروف أن ابن سينا كان خصماً عنيداً للكيمياء . والذى حدث أن أية محاولة لكسب أصدقاء وأنصار للمؤلفات الكيمائية التى تحمل اسمه كانت محاولة رابحة .

ولعل أول كتاب فى الصيدلة بالمعنى الحديث هو ذلك الذى صدر لمؤلف تسمى باسم عربى . وهو طبيب إيطالى كان يدرس الصيدلة فى القرن الخامس عشر فى مدرسة سالرنو . فقد تسمى هذا الإيطالى باسم « صلاح الدين » وكان يحترم ويقدر أولئك الذين كانوا يشجعون العلم والعلماء والذين كان هو فى خدمتهم . فاقترح الاستفادة من تلك الكتب التى لا يستغنى عن اقتنائها صيدلى ، وكان ثلثا عدد هذه الكتب التى يجب أن تتكون منها المكتبة الصيدلية عربياً .

ولا عجب فى هذا فالخمسة المشهورون فى العلوم الطبيعية فى أوربا فى العصور الوسطى كانوا يقومون على أكتاف العرب . وهؤلاء الخمسة هم الفرنسى « فنسنت ده بوفيه » Vincent de Beauvais « وقد توفى عام ١٢٦٤ ، والأسبانيان « ريموندوس نلوس Raimundus Lulls » (١٢٣٢ - ١٣١٦) و« أرندل » أحد أبناء « فيلا نويفا » (١٢٣٥ - ١٣١٢) ثم الجراف الألمانى « ألبرت فون بولشتيدت Albert von Bollstadt »

(١١٩٣ - ١٢٨٠) ، وهو يسمى « ألبرتوس مجنوس Albertus Magnus » ،
والإنجليزى « روجير بيكون Roger Bacon » (١٢١٤ - ١٢٩٢) وكانوا جميعهم
يدرسون فى باريس مؤلفات كبار العلماء العرب .

وقد أقبل جميعهم على دراسة الكيمياء ، وقد أعتمدت فكرة البحث عن حجر
الحكمة الذى يحول المعادن ذهباً ، وكذلك أثره فى إطالة العمر . وكان العرب هم
المرجع الوحيد لهؤلاء الباحثين عن حجر الحكمة ، وكان هذا بدهياً ، لذلك كان
هؤلاء الكيميائيون فى حالة تصوف ويقظة مثل « ريمون ليل » أو « ألبرت » الذى كان
يتظاهر بالسعى وراء العلم والحقيقة العلمية فقط . ولم يهتد أولئك العلماء إلى نتائج
جديدة أو مستقلة ، وقد انتهت جميع محاولاتهم إلى تأييد ما توصل إليه العلماء العرب ،
وكان الأوربيون عبارة عن مترجمين فقط .

اثنان من بين هؤلاء العلماء حرصا على الاستقلال العلمى وحرية البحث ، وهذان
الاثنان نظرا إلى الصيدلة العربية والكيمياء العربية على أنهما مادة حية وهذه المادة
يجب أن تخضع للبحث والتجارب وبذلك فقط يستطيع إنقاذ الصيدلة والكيمياء
والعلوم العربية من الضياع . فهذان العالمان المتحرران اللذان سارا فى نفس الطريق
الذى سبقهما إليه الرازى ، هما « روجير بيكون » و « أرنلد » المنتسب إلى مدينة
« فيلانويفا » . لكن من الناحية العلمية لم يتفوق « بيكون » على زملائه المعاصرين
ففكرة التجربة أخذها عن العرب لكن أخذها نظرياً أكثر منها عملياً ، وهذا هو
المرشد الذى هدى اللاحقين من العلماء إلى الاتجاه إلى الكيمياء التجريبية .

لذلك كان كل من « روجير بيكون » و « أرنلد » فى عصرهما كالنجمين
الساطعين اللذين خرجا من العصور الوسطى المظلمة إلى النور ، فهنا نجد هذه الروح
التي انبعشت من حكمة الوزير العربى الطبيب الشاعر ابن الخطيب الغرناطى حيث
قال فى صدد الحديث عن العلم : « ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرب فى
طرق النظر وتصحيح الأدلة ، وهذه هى الغاية القصوى فى الملة . . »

إن الأثر المباشر للعرب على أوروبا فى الصيدلة ظل طيلة عصرى الإنسانية
والنهضة ، بل ظل تأثيره قائماً حتى القرن التاسع عشر . فى عام ١٧٥٨ أعيد نشر
أجزاء من مفردات ابن البيطار . وفى عام ١٨٣٠ استخدمت مراجع عربية كمصادر

أساسية للصيدلة والوصفات العلاجية الأوربية . وفي عام ١٨٣٢ أعيد نشر كتاب
عربي فارسي يرجع إلى القرن الثاني عشر وقد جمع هذه المخطوطة الأرمني « مخيثار
Mechithar » .

ثم تنقطع الصلة الأدبية .

لكن حتى اليوم فكل مستشفى بنظامه وكل معمل كيميائي وكل صيدلية وكل
مخزن أدوية إنما هو نصب تذكاري للعبقريّة العربية . وكل حبة مسكرة أو مفضضة
إنما هي تذكّار صغير مرثى من الطبيّيين العربيين العظميين وأستاذي أوربا ألا وهما
الرازي وابن سينا .

الكتاب الخامس

سيف العقل

إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب
العلم رضى بما يطلب ، ولداد ما
جرت به أقلام العلماء خير من دماء
فى سبيل الله .

(حديث شريف)

المعجزة العربية

العام ألف . . .

والآن ينشر تاجر الكتب البغدادى ابن النديم فهرسه الذى يقع فى عشرة
مجلدات تشتمل على أسماء جميع الكتب التى ظهرت حتى ذلك الحين فى اللغة
العربية سواء فى الفلسفة أو الفلك أو الرياضيات أو الطبيعة أو الكيمياء والطب .

وكذلك نجد طلاب العلم من الشرق والغرب بل من أوربا يقصدون المدارس
العليا بقرطبة التى ذاع صيتها فى العالم قاطبة وفيها المكتبة التى تضم نحو خمسمائة ألف
كتاب لأحسن علماء العصر ، وقد جمعها الخليفة الحكم الثانى قبل وفاته بنحو أربع
وعشرين سنة ، وذلك عن طريق التجار والرسل الذين أوفدهم إلى مختلف الحواضر
العربية لاقتنائها ، وما هو جدير بالذكر أن الخليفة قد علق على هوامش الكثير
من هذه الكتب .

وفى القاهرة نجد مئات أمناء دارى الكتب التابعتين للخليفة وبهما نحو ألف
ألف ومثنا مجلد أعنى بهما عشرون مثلاً مما كان فى مكتبة الإسكندرية .
« والحقيقة التى يمكن الجهر بها أنه لم يوجد فى روما شخص له مثل هذه

الثقافة التي تمكنه من أن يقف حارساً ، فكيف يستطيع أن يعلم ذلك الشخص الذي لم يتعلم هو نفسه» ، هكذا شكّا هذا الرجل الخبير ألا وهو « جربيرت فون أوريلاك Gerbert von Aurillac » وهو الذي جلس عام ٩٩٩ م على كرسي روما ، على كرسي القديس بطرس .

في ذلك العام ألف أبو القاسم كتابه الخالد في الجراحة ، هذا الكتاب الذي ظل قروناً عديدة أهم مرجع بل المرجع الوحيد في هذا الفن ، كما عالج البيروني - أرسطو العرب - دوران الأرض حول الشمس ، واكتشف ابن الهيثم قوانين الإبصار كما أجرى تجاربه على آلة تصوير مظلمة مستخدماً مرايا وعدسات منحروطة وأسطوانية وكروية . في ذلك العام وهو عام التحول في العالم العربي إذ آذنت شمسهُ بأفول كانت أوربا ترتجف خائفة هلعاً تخشى وقوع نهاية العالم فكانت تصرخ مولولة :

« الآن سيأتي المسيح وينظم الكون بقوة النار » وحج القيصصر الشاب أوتو الثالث وهو ابن عشرين عاماً تكفيراً عن خطاياها التي اقترفها واستجابة لأوامر القديس « رومولادوس » وكان القيصصر في حجه عارى القدمين وقد قطع المسافة بين روما وجبل « جرجانوس » .

وفي نفس العام كان الشاب ابن سينا قد بلغ العشرين من عمره وقد أخذت شهرته تغزو العالم .

إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء ومن العدم من أعجب النهضة العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري . فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة ، هذه المعجزة العربية التي لا نظير لها والتي يحار الإنسان في تعليلها وتكييفها .

إذ كيف كان من المستطاع أن شعباً لم يسبق له أن يلعب دوراً سياسياً أو ثقافياً من قبل يظهر بغتة إلى الوجود ويسمع العالم صوته ويملى عليه إرادته ويفرض عليه تعاليمه ، وفي زمن قصير أصبح ندّاً لليونان . إن هذه المنزلة التي بلغها العرب أبناء الصحراء لم تبلغها شعوب أخرى كانت أحسن حالا وأرفع مكانة .

إن بيزنطة الوريثة الغنية لا للشرق القديم فحسب بل للثقافة اليونانية أيضاً لم تنتج

شيئاً وظلت حتى اليوم عاقراً . والسريان وهم تلاميذ اليونان الحقيقيون وصلتهم الثقافة اليونانية كما وصلت العرب فترجم السريان كثيراً من المؤلفات اليونانية إلى لغتهم السريانية إلا أن السريان لم ينهضوا بما ترجموا ولم تفتق هذه الترجمات وتلك العلوم عندهم عن حركة علمية أو نهضة ثقافية عالمية .

كما أن هذه النهضة العلمية لم تنبعث أيضاً في إيران التي كانت ملتقى الثقافات الصينية والهندية واليونانية ، فقد استقبلت إيران كل هذه الثقافات ولم تطورها بالرغم من أن بيئتها الطبيعية وحالتها الاقتصادية ومستواها الثقافي تساعد على هذا التطور . لكن الملاحظ أن العقلية الإيرانية لم تنتج ولم تتطور ولم تنهض إلا عندما وجدت في بيئة أخرى وخضعت لمؤثرات ثقافية خاصة .

ليست بيزنطة وليست بلاد السريان وليست إيران التي كانت القنطرة التي تصل بين الثقافتين الشرقية والغربية – ليست جميع هذه البلاد هي التي ظهرت على المسرح الثقافي العالمي كحاملة لمشعل الثقافة القديمة ومكملة لها . أما الشعب الذي خلف الثقافة القديمة وحمل لواء النهضة العلمية الفكرية في العالم فهو شعب صحراوي خرج من الصحراء وبسرعة البرق قبض على صولجان السيادة الثقافية في العالم ، وظل أبناء الصحراء حاملين لهذا الصولجان دون منازع مدة لا تقل عن ثمانية قرون ، كما أن هذه الثقافة العربية قد تفتقت وازدهرت وأينعت أكثر من الثقافة اليونانية كما كان العرب أخصب وأقوى من اليونانيين .

فما هي خصائص العرب التي أهلهم إلى هذا ؟ ما هي صفاتهم وما هي مميزاتهم التاريخية والاجتماعية والعقلية والنفسية التي تجمعت معاً فجاءت العالم بالمعجزة العربية ؟

وشن العرب حرباً خاطفة ساقط العالم في زمن قصير إليهم أسيراً كسيراً . والعرب هم آخر موجة من موجات هجرات الشعوب التي حدثت في فترات متفاوتة منذ أبعد الأجيال والعصور متخطية حدود الصحراء إلى الأراضي الحصينة ، فكسر سد مأرب عام ٥٤٢ هـ ضياع وسائل الري في بلاد العرب الجنوبية دفع القبائل إلى الرحيل وساعدهم على ذلك موقعهم بين شقي الرعي وتعرضهم للحروب الطاحنة التي كثيراً ما شنت في بلادهم بين فارس وبيزنطة فاضطرت هذه الحروب القبائل العربية

إلى الهجرة وترك القارة .

وقد صور بعض المؤرخين المغرضين هذه القبائل على أنها عصابات من اللصوص وقطاع الطرق لكن الحقيقة غير هذا وما دفع هؤلاء المؤرخين إلى هذا الافتراء إلا الاختلاف العقائدى .

ولم يمحض على هذه القبائل المتخاصمة المتحاربة زمن طويل حتى أصبحت وحدة قوية نجحت فى تكوين أمة يخشى بأسها ، وذلك بفضل الدين الإسلامى الحنيف الذى أشعل فى نفوسهم الحماس والشعور بالأخوة بعد أن سادت بينهم الفرقة والخزازات القبلية زمناً طويلاً ؛ أما الإسلام فقد آخى بين معتنقيه وخلق منهم الأخوة الإسلامية التى رجعت بتاريخهم إلى عصور بعيدة ، هذا إلى جانب الدعوة الإسلامية الخلقية والفرائض الدينية القوية التى آخت بين المسلمين وجمعت شملهم ووحدت صفوفهم مما دفع المسلمين إلى التفانى والاستشهاد فى سبيل نصره هذه العقيدة والذود عنها ، فقد وعدت هذه العقيدة الجديدة المتقين بالجنة . فهذه القوة الخلقية الفتية إلى جانب القيادة الحكيمة القوية وهؤلاء الصحابة الذين اصطفاهم الرسول كونوا النواة الصالحة لحكومة مركزية حكيمة رشيدة مسئولة عن الكيان الجديد للأمة العربية الإسلامية ، وكان الجيش الإسلامى بالرغم من نقص عتاده مظهرًا فى حروبه وفتوحاته فأحرز النصر تلو النصر .

ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ٦٣٢ م إلى الرفيق الأعلى كانت بلاد العرب وحدة سياسية . فى عام ٦٣٥ م تشتت شمل جيش بيزنطة . وبعد ذلك بعامين أعنى سنة ٦٣٧ ولى جيش فارس الأدبار ، وفى عام ٦٣٨ سقطت فلسطين فى يد العرب ، وعام ٦٤٢ سقطت مصر . ولما اختار الله عمر بن الخطاب إلى جواره حلت فترة ركود ، لكن فى أواخر القرن السابع الميلادى كانت السيادة العربية قد بلغت شمال أفريقيا وامتدت حتى المحيط الأطلسى . وفى عام ٧١١ م بينما كان العلم الإسلامى ينتشر شرقاً مرفرفاً حتى الهند ، انقض الحاربون المسلمون على دولة الغوط الغربية فى إسبانيا واستولوا عليها بالرغم من قلة عدد المسلمين وعددهم بالنسبة لأعدائهم . وعاون على ذلك عدم الإخلاص لروذريق وبغض رجال الدين له لاستبداده ، وهكذا فتحت الأبواب للمسلمين وبدون معركة هامة استولى المسلمون

عام ٧٢٠ على «ناربون» وعام ٧٢٥ على «كركاسون» و «نيمس» واستمر المسلمون في زحفهم وتغلغلهم في اتجاه نهر الرون حتى يوردو .

وفي عام ٧٣٢ فقط استطاع كارل مارتيل أن يقف أمام هذه الجحافل المتدفقة ودارت عند «تور» و «بواتيه» معركة، وأثناء الليل عاد المسلمون أدراجهم ومعهم جثة قائدهم عبد الرحمن الذي سقط قتيلًا وتحصنوا عند «ناربون» حتى اضطر كارل مارتيل بعد اثني عشر عاماً أن يشتبك مع المسلمين عند «أفينيوس» و «نيميس» دون أن ينجح في إجلائهم عن دولته، وذلك لأنه كان في إقليم «بروفينس» وغرب الألب وإقليم أكويتانيا . أى في البلاد التي نجد فيها فيما بعد حقلاً خصيباً للثقافة العربية ولمدة قرن من الزمان . وحتى في منتصف القرن العاشر نجد المسلمين يستجيبون لنداء الملك هوجو ملك اللومبارد . ويتقدمون في البلاد فيبلغون «أنجادين» حيث نجد «بونتر يزينا» و «بونس ساراسينا pons saracena» أى قنطرة المسلمين التي ما زالت إلى اليوم قائمة تحمل ذكرى أولئك الأجانب العظام .

ثم نجد العرب يتغلغلون في إيطاليا ولمدة قرنين وبقوة ونجاح . وقد بدا وكأن روما الأم لا بد أن تشاطر أسبانيا الهزيمة والضياع . فمن صقلية اندفع العرب حتى استولوا على إقليم «أبوليا» و «كالبريا» واستطاعوا تهديد روما والبندقية المنيعه وكان هذا الزحف العربي استجابة لرغبة نابولي والجراف فون بنيفينت .

وقد ظل العرب حتى عام ٩١٥ يتناوبون السيادة على جنوب إيطاليا وجميع الجزر الواقعة في غرب البحر الأبيض المتوسط . هذا البحر الذي أصبح بحراً عربياً اللهم إلا الجزء الشرقى الذي كان خاضعاً لبيزنطة . نعم لقد ظل جذع الدولة الرومانية الشرقية قائماً إلا أن أهم أغصانها أعنى مصر وسوريا قد قلمت... إن بيزنطة أصبحت رجلاً مريضاً لا يقوى على الحركة .

لكن هذه الفتوحات العربية كانت غريبة في نوعها حقاً ، وإذا ما استثنينا الملك الفارسي كيروش ، فالفتوحات الإسلامية كانت فتوحات لم يقصد المنتصرون من ورائها إلا القيام بأعمال النهب والسلب أو العنف والتخريب وكل ما يذكر عن تعصبهم الأعمى أو قسوة قلوبهم وخشونة طباعهم وبربرية أعمالهم كذب واقتراء

وهو يدخل في باب الأساطير التي تؤلف لإلقاء الرعب في نفوس الناس ، وأنها دعاية من صنع أعداء العرب وخصومهم . ولا أدل على بطلان هذه الشائعات وتلك الأضاليل من هذه الصفات التي اتصف بها العرب الفاتحون من إنسانية رفيعة وتسامح تضرب به الأمثال ، فهذه الإنسانية وذلك التسامح أثبتنا للمهزومين كذب هذه الدعاية المغرضة وسوء نوايا مروجيها ضد العرب .

كم هذه الشعوب التي عرفها التاريخ وقفت من المغلوبين المهزومين الذين يدينون بدين أو أكثر يخالف دين المنتصرين موقف العرب المتسم بالإنسانية والتسامح؟ وإذا أضفنا إلى هذا الموقف الكريم الذي وقفه العرب والإسلام من الشعوب التي انضوت تحت رايته هذه المثابرة على نشر الثقافة العربية الإسلامية وهي ثقافة تختلف في جوهرها عن هذا الطلاء الهليني أو القشور الرومانية ازددنا تقديراً وإعجاباً بالعرب. نعم إن الدولة العربية الفسيحة المترامية الأطراف قد تفككت إلى دويلات لكن حتى هذا التفكك كان إعجازاً عربياً أيضاً . فكل دويلة من هذه الدول قد نمت حيث قامت رغماً من اختلاف التربة والبيئة والشعب أو الشعوب من حيث التاريخ والثقافة والعقيدة ، كما هو الحال مثلاً في إسبانيا ومصر والعراق ، فقد نجح العرب في خلق ثقافة متحدة قوية الأواصر وثيقة الوشائج .

إن الشعوب صاحبة الثقافات القديمة قد هرمت وتجمدت مياه الحياة في شرايينها حتى أصبح من الضروري فناؤها. ففي القرنين الثالث والرابع الميلاديين أخذت تلفظ أنفاسها الأخيرة وتتلاشى من على مسرح الحياة تدريجياً ، وإذا أضفنا إلى جميع هذه العوامل موقف الكهنوت المسيحي من الحكمة اليونانية وإصرار هذه المسيحية على القضاء عليها وإعدامها ، أدركنا الوضع الذي كانت عليه تلك البلاد أولاً ومدى الخطر المحدق بالتراث اليوناني القديم ثانياً والموت المحقق لهذه العلوم ثالثاً ، ولكني كأني بالعناية الإلهية قد أرادت لهذا التراث الإنساني الحياة فبعثت أبناء الصحراء وقد عمرت قلوبهم بإيمان الإسلام ودعوته الجديدة فسارعوا إلى تلك الحضارات العقلية فأنقذوها مما يهددها وبعثوها بعثاً جديداً فتياً ، ولولا هذا الفتح الجديد لظلت الثقافة القديمة دفينة ميتة يحيم عليها سكون القبر ووحشته إلى حين .

أوروبا تائهة في دياجير الظلام

لقد قضى على الثقافة اليونانية واختفت منذ عهد « حنيعل = هنيال » إلا أن قيام الإمبراطورية ساعد على المحافظة على بقائها شكلا وإن كانت الثقافة الهلينية بدت في هذه الدولة التي آذنت بزوال وكأنها ثوب قفصاؤ لا يلائمها، فنجد التنافر والتشاحن بين هذه الثقافة وبين مختلف الأجهزة القائمة، ثم جاء الغزو الألماني فلم يقض إلا على ما يتصل بالأخلاق وكان آيلا للسقوط حقاً . ثم إن الطبقات الراقية العالية أصبحت لا تشعر بحاجة إلى العلم والثروة العلمية . كما أن الهدف الجديد الذي طمعت المسيحية في تلقيه للفكر البشري وتحقيقه قضى على القيم العلمية والثقافية ومختلف أنواع البحوث، ولو أنها جميعها لم تجد في روما موثلاً حقيقياً لها، لذلك انهارت الطبقات المثقفة وتلاشت العلوم والمعارف . كذلك أصبحت ثقافات البحر الأبيض المتوسط مهددة بضربة قاصمة ومصير لا يختلف عن مصير حضارات ألانكا والمايا، ما لم تجد الشعوب الموهوبة القدرة الكافية على الخلق والإنشاء فتبعث هذه الثقافات بعثاً جديداً .

وقبل العرب بقرنين سنحت لأوروبا الفرصة للبناء على أنقاض هذه الثقافات البائدة ، وبالرغم من ذلك ذهبت عشرة قرون حتى استطاعت أوروبا التخلص من قائمة الشعوب المتخلفة وبلوغ مرحلة التحرر في الخلق والإنشاء بالرغم من أنها بدأت بخطوات تبعث على الأمل .

فللمرة الأولى إبان الثلاثة والثلاثين عاماً التي حكم فيها ثيودريش الأكبر الذي اتصف بالعدل والحكمة تطورت المسائل التي كانت مهددة بالزوال إلى النجاح والتقدم، فبغثة ارتفعت أسهم القيم الإنسانية والقيم الثقافية وعادت الكرامة إلى العلماء وشجعهم الدولة وحث عليهم، فمدارس القصر الإمبراطوري التي قد عفى عليها الزمن عادت إليها الحياة ثانية وكبرت واتسعت . ففي المحاضرات العامة كانت تدرس كتب أبوقراط وجالينوس، كما ظهر أطباء من الغوط المتعلمين ومارسوا دراسة الطبيعة والفلك . واستمرت هذه النهضة العلمية حتى بعد وفاة الملك . « إن إنفاق المال على

العلماء أجدى من إنفاقه على الممثلين « — هذه هي العبارة التي قررها حفيد الملك المسمى « أثا لاريش Athalarich » عندما أظهر استعداداه لتشجيع العلم والعلماء ، فقد كان هناك عصر نقاهة ونمو ييشر بمستقبل مزدهر ، لكن الذي حدث أن هذه الزهرة قطفت وما زالت برعومة ، ومن عجائب القدر أن الذين قطفوها كانوا رجالاً يونانيين أرسلتهم بيزنطة للقيام بهذه المهمة المشينة . قطفت الزهرة ولم تخلف إلا نبتاً هز يلاً استطاع أن يقاوم عوامل الفناء زمناً ، فقد تناوله رئيس الوزراء « كسيودور » وقد كان مستشاراً للملك ومن ثم سلم « كسيودور » النبت إلى جماعة البنديكت للعناية به في الأديرة ، فلم يجد النبت في هذه الأرض الرطبة ما يساعده على النمو والازدهار .

إن العصر الذهبي للملك « ثيوديريش » كان بصيص النور والأمل الذي خلف قروناً عديدة من البؤس والشقاء ، ولم يكن هو الوحيد . فالفندال إلى جانب الرومان اهتموا أيضاً بالدراسة في مدارس الخطابة والنحو . فالجراف الفندالي « سيجستويس » كان نصيراً للشعر والشعراء وذلك لأنه هو نفسه كان يقرض الشعر ، وكذلك ملك الإفرنج « شيليريش » الذي ألف شعراً في اللغة اللاتينية كما قرأ فرجيل وشيشرون للملوك الكتاب ملوك الغوط الغربيين وهم « ومبا » و « سيسيبوت » و « شينديسوينث » و « شينتهيل » . وفي كل مكان نجد الجرمان قد بدأوا يقبلون على الثقافة الأدبية . وكان بين الغوط الغربيين ، كما هو الحال عند الإفرنج ، نفر من المثقفين في مختلف الدوائر الحكومية والإدارية بل حتى في الأوساط التجارية ، وهؤلاء المثقفون كانوا يلمون بالكتابة والقراءة والحساب وبعض المواضيع القانونية . كذلك جاءنا أنه ظهرت حركات تقدمية علمية أيام حكم اللومبارديين الذين كانوا فيما بعد أول من تخلص من ضغط رجال الدين وساهموا في الأدوار الأولى لظهور الحركة الأدبية بنصيب وافر .

ففي كل جزء من أجزاء الإمبراطورية الرومانية كان يحاول الأمراء الجرمان وفي مقدمتهم « ثيودريش » بعث الروح الوثنية القديمة وإعادتها إلى الحياة وقد حدا حذوهم فيما بعد الخلفاء العرب حفظاً على نقاوة الجنس العربي . لكن الإمبراطورية الرومانية تحولت إلى إمبراطورية مسيحية ، فقد أعلن أوجسطين تعيين الرئيس المطلق للقوة

الروحية ، كما أرسلت روما الكهنوتية توجيهات إلى مختلف الجهات التي سبق لها أن أوفدت مبشريها . ففي بلاد الغال وبريطانيا أخذت الثقافة الهلينية تختفي بمجرد وصول رسل روما، وتوارت مع الثقافة الهلينية اللغة اليونانية ، وذهبت روما الكهنوتية بعيداً فعملت جاهدة على القضاء على العناصر الثقافية الهلينية القديمة وحتى تلك التي تأصلت فيها من قبل . فالقديس « هيرونيموس » اعتبر مجرد التفكير اليوناني لعنة حلت بالإنسانية ، كما ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية ليقضى على الفولجانا وأمثال هوميروس وفرجيل ويطهر العقول من آثارهما ، وهكذا نجد الثقافة المسيحية تتجه اتجاهات خطيرة معادياً للثقافة الهلينية ومقوضاً لها .

فالعقل البشري ليس هو الذي يضيء السبيل أمام النفس البشرية بل الوحي الإلهي . وكانت العقيدة السائدة في العالم المسيحي أن استخدام القوى العقلية ودراسة الظواهر الطبيعية ومعجزاتها عوضاً عن الانصراف إلى دراسة تعاليم الديانات السماوية مفسدة لهذه القوى العقلية . وذلك لأنه إذا كانت الفرصة مواتية لمعرفة الحقيقة عن طريق هذه الدراسات فلا بد أن توجد ، « هكذا نادى المعلم الديني ” لكتانيوس Lacctantius “ لكن لما كان هذا الاستعداد غير موجود فلن يجدي ضياع الزمان والمجهود في سبيل الهداية وبلوغ الحكمة » .

وكما أن الإنسان استغل أنقاض المباني القديمة لتشييد الكنائس ، كذلك الحال مع بقايا الفلسفة والعلوم القديمة ، فقد استغلت لخدمة المسيحية وأهدافها ، فإلى جانب الصراط المستقيم الذي يبلغ الروح الله وجد طريق ضلال إذ من الممكن الوصول إلى الحقيقة من غير طريق الوحي ، وذلك عن طريق أشياء موجودة في الطبيعة ، هكذا أعلن « ترتليان Tertullian » : « وليست رسالتنا هي البحث عن يسوع المسيح فهذا معناه حب الاستطلاع ، وذلك لأن الأناجيل بشرت به » .

ولن نجد هذه الظاهرة أكثر وضوحاً وجلاء من أعمدة الدخان ولهب النيران التي غطت الإسكندرية ، هذه المدينة التي ظلت قروناً عديدة ملجأ الثقافة اليونانية وقلعتها الحصينة فقد تحولت الآن إلى روما ، المركز الرئيسي للكنيسة المسيحية . إن سماء الإسكندرية لم تعد هذه السماء الزرقاء الصافية بل عكست عليها

لهب النيران المندلعة في مراكزها العلمية الرئيسية التي كانت مركز الإشعاع في دلنا النيل لوناً أحمر قانياً ، وذلك لأن دواوين الشعر اليوناني التي لا تعوض والتراث الأدبي والفلسفي وتاريخ العلوم الهلنستية تحولت بين عشية وضحاها إلى أكوام من الرماد بفعل المسيحيين المتعصبين الذين شقوا غليلهم وأرضوا شهواتهم فحرقوا وأبادوا ودمروا كل ما وصلت إليه أيديهم من تراث علمي يوناني اعتقاداً منهم أنه قد يتعارض والتعاليم المسيحية .

ففي عام ٤٨ ق . م . عندما حاصر يوليوس قيصر الإسكندرية التهمت ألسنة النيران جزءاً كبيراً من المكتبة الشهيرة الكائنة في « موسيون Museion » ، فما كان من كليوبطرة إلا أنها عوضت هذه الخسارة ببعض الكتب التي كانت موجودة في « برجامون pergamon » . لكن في القرن الثالث الميلادي نجد عمليات التخريب والإتلاف تواصل عملها دون انقطاع ، فنجد بطريركاً مسيحياً يغلق الموسيون ويطرده علماءه ، وفي عهد القيصر « فالين Valen » تحولت عام ٣١٦ م جامعة « كيزاريوم Caesareum » إلى كنيسة ، كما خربت مكتبتها وأحرقت محتوياتها واضطهد فلاسفتها بتهمة السحر والشعوذة . وفي عام ٣٩١ م حصل البطريرك « ثيوفيلوس » من القيصر « ثيودوسيوس » على إذن بتخريب أكبر مزار في العالم القديم وهو آخر وأكبر أكاديمية علمية . أعني « سراييون Serapion » كما حرق مكتبته القديمة ، ولعمري إنها أكبر كارثة أصابت الإنسانية إذ كانت أكبر ضربة وجهت إلى العلوم العقلية الإنسانية . وإن مصيبة العالم فيها لا تعوض فهي ولا شك مأساة المآسى .

ولم تقف أعمال التخريب والحرق والتدمير التي قام بها متعصبو المسيحية عند هذا ، بل نجد حتى أشباه الأقوياء يهيمون باقتراف أعمال الاضطهاد والتعذيب ويتخذون من ذلك لا هوية فحسب بل وسيلة للتفاني في المسيحية فنحن نعلم أن صديق البطريرك الأنطاكي وهو « سيفيروس Severus » يعترف دون خجل كيف أنه وصديقه كثيراً ما اقتربا ، أيام شبابهما في القرن الخامس الميلادي وفي الإسكندرية حيث كانا منضمين إلى هيئة مسيحية ، كثيراً من الآثام والجرائم الخلقية ضد العلماء الوثنيين وضد دور عبادتهم ، فقد كسرا أنصاب آلهتهم وخربا

معابدهم ، وهكذا نجد مراكز الثقافة الهلينية يختفي الواحد بعد الآخر. ففي عام ٥٢٩م أقفلت آخر مدرسة للفلسفة في أثينا ، وفي عام ٦٠٠ م احترقت في روما المكتبة التي أسسها « أغسطس » كما حرم تدريس أدبيات الأقدمين* وعلومهم وبخاصة الرياضيات ، وهدمت حتى بقايا المباني القديمة . ولما تقدم العرب نحو الإسكندرية ودخلوها عام ٦٤٢ م لم تكن بها منذ زمن بعيد دور للكتب سواء كانت هذه الدور كبيرة أو صغيرة . والهمة التي ألحقت بعد خمسة قرون بالقائد العربي عمرو بن العاص بأنه هو الذي أحرق مكتبة الإسكندرية الكبرى محض كذب! وافتراء وقد اخترعت هذه الفرية لتساق كمثل من أمثلة الأعمال البربرية والوحشية العربية ، وقد ثبت اليوم بالأدلة التي لا تقبل شكاً أنها أكذوبة الأكاذيب .

فهذا الفاتح العربي ، الذي فتحت له الإسكندرية أبوابها ، قد جاء في طريقه بكثير من الأعمال التي تدل على التسامح العربي الأصيل ، فقد منع تخريب البلاد وتدميرها ، كما سلك مسلكاً غريباً حقاً على الشرقيين الأقدمين والمسيحيين . « لقد منح سكان البلاد الحرية الدينية في هذا العهد الذي هو مثال عربي حي للعهد والمواثيق العربية التي تعني بالسلام ، فقد شملت تلك العهود جميع الرعايا المسيحيين والقسيسين والرهبان والراهبات . لقد منح الإسلام الشعوب المغلوبة الأمان والحماية حينما دعت الحالة إلى ذلك ، كما انصرف عهد الأمان هذا إلى كنائسهم ومساكنهم ومزاراتهم والذين يقصدونها مثل الجيورجيين والأحباش واليعقوبيين والنساطرة وجميع الذين يؤمنون بالنبي عيسى فجميع هؤلاء يستحقون العناية ، وذلك لأنه سبق للنبي محمد أن آمنهم بعهد عليه خاتمه ، كما حذرنا من ألا نكون رحماء معهم ونؤمنهم على حياتهم وممتلكاتهم . إن هذه ليست وعوداً جوفاء » .

شعار المتتصر

« لا إكراه في الدين » هكذا يقول القرآن الكريم . فلن يحول في خاطر العرب أن يكرهوا الشعوب الخاضعة لهم على اعتناق الإسلام ، فالمسيحيون والصابئون

والبارس واليهود الذين عاشوا قبل الإسلام بمائة عام تحت حكم ملكهم يوسف ضربوا أقصى الأمثلة وأبشعها فيما يتعلق بموقفهم من أصحاب العقائد الأخرى وجميع هؤلاء قد منحهم الإسلام حق ممارسة عباداتهم .

لقد احتفظوا بدور عباداتهم وأديرتهم وأساقفتهم وربانيّتهم . هذا عجيب حقاً ، إن مثل هذا لم يقع من قبل . من هو الإنسان الذى لا يستنشق نسيم الحرية بعد الحكم البيزنطى الجائر القاسى . وبعد هذه الاضطهادات الشنيعة التى جرت فى إسبانيا والاضطهادات المتواصلة التى قاسى اليهود الكثير من أهوالها ؟ إن المسلمين السادة الجدد حماة البلاد وحكامها لم يتدخلوا فى مسائل رعاياهم الداخلية ؛ إنهم عادلون — هكذا كتب بطريك القدس فى القرن التاسع إلى بطريك استنبول : والمسلمون لا يظلموننا أو يضطهدوننا . إنهم يمنحون مختلف أفراد رعاياهم من أصحاب العقائد الأخرى كل حرية فى تأدية فرائضهم الدينية أو حقوقهم المدنية متى دفعوا الجزية وأطاعوا أولى الأمر . فالمسلمون جاءوا ليحكموا لا ليبشروا لكى نخرجوهم من عقائدهم الأصيلة . إن المنتصرين قد شكوا من كثرة دخول غير المسلمين فى الإسلام وذلك بسبب الجزية ونقصانها . هذه الجزية التى كان يدفعها غير المسلمين فقط .

لكن هؤلاء أرادوا أن يتساووا بالمسلمين اقتصادياً واجتماعياً . لذلك سارعوا إلى الدخول فى دين الله أفواجاً . وهكذا بدون استخدام قوة أو ضغط أخذ ينجنى المسيحيون اختفاء الجليل فى الشمس . وفى العصور الإسلامية المتأخرة حيث كان المسلمون مزيجاً غريباً من مختلف الشعوب أخذت تظهر بعض النعرات الدينية التعصبية . أما العرب الخالص فقد كانوا بعيدين عن الخوض فى مثل هذه الحصومات .

وهنا نجد التسامح الإسلامى العربى الذى هو مضرب الأمثال يتجلى لنا فى صورة تخالف كل المخالفة هذه الصورة التى يتجلى لنا فيها تعدد الآلهة عند الرومان المتأخرين الذين وجدوا مكاناً فى مجمع آلهتهم لكل إله مهما كان أصله ونوعه . إن صبر العربى واحتماله وموقفه النبيل من خصومه ديناً وعقيدة له أصوله وجذوره البعيدة التى تتجلى لنا فى الفتى العربى القديم . الفتى العربى الجاهلى . تضحية حتى

الموت ، تضحية لا تعرف حداً أو تردداً ، وكانت هذه المعاملة الكريمة يتمتع بها الضيف كما يتمتع بها أقرب المقربين إليهم . فنحن نعلم أنه إذا ما أقبل الضيف الأجنبي والذي قد يكون عدواً للقبيلة فإنه سرعان ما تحتضنه القبيلة وكأنه عضو منها تسرى عليه عهودها ووعودها التي تكون القبيلة قد قطعها على نفسها تعمل بمقتضاها وتحترم نصوصها . وقد يكون هذا الضيف ألد أعدائها .

ولما جاء الإسلام أعنى القبيلة من التزامتها لأفرادها وحل هو محلها أعنى محل القبيلة . كذلك هذه المعاملة التي كان يلقاها الضيف من أفراد القبيلة لأسباب بدهية تولاهما الآن الإسلام والجماعة الإسلامية ومن ثم نجد الإسلام ينتهى إلى إنسانية لا حدود لها . لقد أصبحت الفتوة التي يعامل بها حتى الأعداء .

إن هذه الفتوة العربية قد تجاوبت مع الفروسية الجرمانية وأثرت فيها أثراً بعيداً فهؤلاء الوثنيون (!!) النبلاء « كان النبيل منهم يتجاوز عن النصر الذي يحوزه بحد السيف » . هذا النصر الذي جاهد في سبيله . ويلقى السيف جانباً ويقدم يده مصافحاً خصمه متجاوزاً عن العوائق القومية والدينية التي قد تكون قائمة ، لذلك ليس بالعجيب أن نجد الفارس الجرمانى « فولفرام فون أشينباخ Wolfram von Eschenbach » يشيد بفتوتنا العربية . وقيم لها نصباً عالياً مخلصاً به جوهرها وعرضها فقال . أولاً « الوثنى فيرفيز » هو الذى علم بطله « برسيغال » آخر مرحلة من مراحل الفتوة الحقيقية .

فهذه الإنسانية الصريحة وسماحة الفتوة والفروسية العربية في مظهرها البسيط الرقيق قد نظرت إليها الشعوب المختلفة والديانات المتعددة نظرة إعجاب وتقدير . لذلك سرعان ما أخذت تنتشر انتشار النار في الهشيم . فالفرق المسيحية النسطورية والمونوفيزيتية مثلاً والتي كانت الكنيسة الرسمية أعنى كنيسة الدولة تحرص على أخذ أفرادها بالصرامة . أخذ أولئك الأفراد يتحررون تدريجياً من استعبادين : استعباد الدولة واستعباد الكنيسة ، كما بدأوا يتطورون ويتصرفون أحراراً غير مقيدين ، وكما أن الزهرة تتجه نحو الضوء الذى ينمىها ويغذيها ويبعث فيها الحياة . كذلك أصبح المغلوبون على أمرهم يعملون للانسجام مع حكام البلاد الجدد محتفظين مخلصين لعاداتهم وعقائدهم .

فقد أخذوا اللغة وسموا أبناءهم أسماء عربية . ومع مرور الزمن أخذوا يقتبسون

مسلك وملابس وعادات العرب وطباعهم حتى إن الطبيب في بعلبك والتاجر في الموصل والمشرع في غرناطة كانوا يلتقون جميعهم في أسواق القاهرة وحوانيها كما لو أنهم جميعهم أبناء شعب واحد .

ولم يحدث ما حدث نتيجة لضغط أو تنفيذاً لأوامر بل هي الرغبة الملحة في الاندماج في عالم المنتصرين . إن حمل الاسم العربي إلى جانب الاسم الأول المتصل بالعقيدة كان فخر المسيحي أو اليهودي أو المجوسي وليكن الاسم عبد الله أو محمداً .

وقد كانت هذه العادة متبعة منذ القرن العاشر ، ولو أن المسلم لم يفرح في الواقع لاستخدام غير المسلمين لهذه الأسماء العربية الإسلامية المقدسة في استخدامهم لها تجريد لها من قدسيتها .

ولو أن الشعوب المغلوبة على أمرها — عدا البربر والإسبان — كان أبنائها أصحاب ثقافة ومدنية أرفع وأبعد من ثقافة العرب ومدنيّتهم ، فإن العربي المنتصر كان في أعين الأغلبية الساحقة — مع استثناء الفرس المثقفين والمدرّكين لمزلتهم — ليس الشخص الذي لا أصالة ولا مكانة له . فقبل العربي وتهذيبه الطبيعي ووجاهته التي تثير الإعجاب وجميع هذه الصفات التي يتحلى بها أثارت إعجاب هذه الشعوب كما أثرت فيها تأثيراً بليغاً . ثم إن شعوره بكرامته هذه الكرامة التي ارتبطت بسيادته التي ولد بها كانت كافية لأن تجبر هذه الشعوب على اتخاذه مثالا يحتذى حتى إن كل فرد كان يبذل قصارى جهده للتشبه به أو اللحاق به وبلوغ مكانته الاجتماعية لكي يقال عن هذا الشخص إنه عربي أو مسلم . وهذا الطموح كان دعاية كبرى للعقيدة الإسلامية وهي دعاية لم تقم بها أو تدعو إليها حركة تبشيرية ، فأقبل على الإسلام خلق كثير .

والذي يؤمن بالإسلام يجب أن يقرأ كلام الله ويرتله في اللغة التي نزل بها الوحي ، يجب أن يكتب ويتكلم ويقرأ لغة القرآن الكريم ، لغة الشعراء الأقدمين ، لغة المنتصر . وبالإضافة إلى جميع ذلك يجب أن نذكر الحقيقة الآتية التي قد يغفلها الإنسان ، إن المنتصر صاحب هذه اللغة ، أصبح ومنذ زمن بعيد ليس هو الذي ينتمي إلى هذه الطبقة الصغيرة الفاتحة فقط ، ففي كل هذه القرون الطويلة نجد العرب يرحلون من الصحراء سائرين في طرق الفتوحات ولا يقفون عند مرحلة من المراحل بل

أصبحوا كالموج تدفع الموجة الأخرى وهكذا أصبح العالم وهو يواجه موجات البدو تندفق غير منقطعة وتتبع كل موجة وجهة الجميع شمال إفريقيا وصقلية وإسبانيا . وهنا نجد العرب يستخدمون سكان تلك البلاد الأصليين في مختلف الحرف والمهن فعملوا كفلاحين وصناع وتجار وموظفين ومعلمين وعلماء بعد أن تعربوا وتطبعوا بالطابع العربي .

ثم ظاهرة أخرى ألا وهي أن لغة الدواوين أصبحت عربية ، وكذلك لغة التقاضي والسياسة والتخاطب والتجارة والمواصلات والمجتمعات . فمن ذا الذي يستطيع أن يخرج عن هذه الحالة ؟ من ذا الذي لا يبهره جمال اللغة وجرسها ونغمتها الحلوة ؟ حتى الجيران قد سحرتهم العربية كما هو الحال مع الأساقفة الإسبان الذين كثيراً ما شكوا من هذا الوضع مر الشكوى وحتى غير المسلمين كانوا أطوع إلى تعلم العربية ودراستها والعناية بها من غيرهم كعناية هذه الدولة العربية . وماتت اللغة القبطية ، والآرامية لغة يسوع المسيح أخذت تفسح الطريق أمام لغة محمد ، كما اضطرت الباباوات إلى إصدار القرارات والمراسيم الدينية إلى الأقليات المسيحية في الأندلس في القرن التاسع مترجمة إلى اللغة العربية وذلك لجهلهم اللاتينية . وحتى بعد استرداد إسبانيا وجدت الكنيسة نفسها مضطرة إلى ترجمة العهد الجديد إلى العربية اللغة التي يفهمها المسيحيون بعد تحررهم .

فلغة القبيلة أصبحت في غضون قرن من الزمان لغة عالمية . لكن اللغة شيء آخر غير أن تكون مجرد وسيلة من وسائل التفاهم ، لقد اكتسبت صيغتها وكيانها عن طريق الجماعة وهي بدورها تؤثر وتعمل في تكوينها وتكوينها فقد عرفت كيف تكون أفكارها وتعبيراتها وصيغها ، وبالاختصار عرفت اللغة كيف تكون العقول وتكيفها . إن اللغة العربية تعبر عن الحياتين المادية والروحية وتطبع كلا منهما بطابعها الخاص كما أنها جانست بين سكان القارات الثلاث وخلقت منهم خلقاً متجانساً ذا طابع واحد خاص ، وحتى الأجانب مثل الترك والسلاجقة والمماليك والتتار عندما آل إليهم السلطان خضعوا جميعهم لحماً ودماً للثقافة الإسلامية واللغة العربية وللحياة الإسلامية جسدياً وروحياً . إن القوة الخالقة لهذه الحياة الروحية قوة جبارة حقاً فلا يوجد شاعر عربي استطاع أن يلبس العربي والشعور بالحب العربي الثوب اللائق

استطاعة ابن حزم الفيلسوف العربي وصاحب النظريات العنيفة في الغزل العربي . وابن حزم كما نعلم ينحدر من أصل غوطي غربي وتجرى في عروقه دماء غوطية غربية ، نعم إن ابن حزم كان عربياً أصيلاً في شعره قرض شعراً عربياً كأحسن ما يقرضه شاعر عربي وكتب نثراً عربياً كأفصح ما يكتبه كاتب عربي . إن العبقرية الشاعرية والملكة النثرية والسيطرة على اللغة العربية لم تكن مقصورة على العربي فهي موجودة في هذه الآثار الأدبية التي خلفها لنا الأدباء الذين انحدروا من أصل فارسي مثلاً ، فقد أغنوا اللغة العربية بالكثير من المصنفات الأدبية الرفيعة .

وقد كانت هذه الثقافة قوية خصبة منتجة فإبان الحكم المسيحي كانت الأديرة السريانية مقفرة مجدبة وكان رهبانها يحيون حياة من يعيش ليأكل ، لكن لما أظلمها الإسلام بثقافته وحضارته أُنعت وازدهرت ، وإبان الدولة الإسلامية لم تكن الثقافة الفارسية هي التي جاءت إلى العالم بأمثال الرازي وابن سينا لكنها الثقافة العربية هي التي أَرْضَعَتْ هؤلاء من لبانها وهي التي نشأتهم النشأة العلمية بالرغم من أنهم انحدروا من أصل فارسي .

والآن نجد العلماء من مختلف العقائد يعملون معاً وبينون متساندين متعاونين الحضارة العربية والثقافة العربية والعلوم العربية . فكما نجد كتباً وضعها مسلمون ومسيحيون ويهود وصابئون معاً وغزوا بها دور الكتب العربية . نجد تسامحاً عربياً . كذلك لم يحقر من شأن المسيحيين كعلمين ودخل هذا التسامح إلى مدارس الوثنيين للاغتراف من ينابيع المعرفتين اليونانية والهندية .

وهذا يتفق تماماً والحديث النبوي الشريف « طلب العلم عبادة » .

« العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » هكذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة دينية « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » و « طلب العلم عبادة » — هكذا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يحرص دائماً على توجيه المسلمين إلى العلم فطلب العلم أجره أجر الصوم وتعليم العلم يقابل الصلاة ، والنظر إلى الوجود وعظمته يقوى إيمان العربي وخشوعه فالعلم يهدي إلى الإيمان « ولو في الصين » ، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إخراج المسلمين والإسلام من الحدود الجغرافية الشعبية الضيقة إلى الكون فالعلم وطلبه عبادة فجميع المعارف

مصدرها الله وإليه تعود لذلك قيل « اطلبوا العلم من أى نبع » . فى سبيل الله اطلب العلم ولو من شفاه غير المؤمنين . ألم يقل الله إن علم الدنيا غباء ؟ ويتساءل بولس الرسول على التقيض قائلاً : يوجد مكتوب أريد إن أهدم حكمة الحكماء وأحطم عقل العقلاء : « إن الغباء الموجود فى الوجود اختاره الله وهذا يسى إلى الحكماء » .

رأيان . عالمان يفترقان افتراق الماء والنار وهما يعينان الطريقتين المتضادتين للحياة العقلية فى الشرق والغرب لذلك يتسع أخيراً الفرق بين الثقافة العربية الرفيعة والمستوى المدنى المعاصر فى أوربا المسيحية . فإذا تفيدته جميع حكمة الوجود أمام حكمة الله . إن المثل الأعلى الذى يتطلبه بولس هو مثل آخر ليس أقل إلا أنه يهدف إلى غاية أخرى إلى حقيقة أخرى . « إني أحترم معرفة الله والروح » هكذا حدد « أوجسطين » قطب المعرفة وإن النظر إلى الحقيقة نظر إلى الله ، وهى ليست فى حاجة إلى مساعدة خارجية ؛ وإن المصدر الإلهى الوحيد عند المسيحيين هو الوحي ، فقصة الخلق ذكرت كل المعلومات الضرورية حول السماء والأرض والجنس البشرى . ووجود أشياء معارضة لهذا أو لا تتفق وهذه المعلومات لا يمكن أن توجد كما قرر « أوجسطين » وذلك لأن الكتاب المقدس لم يذكر بين أبناء آدم جنساً من هذا الصنف .

لذلك يجب أن تحل اللعنة على الفكرة القائلة بكروية الأرض : « هل هذا ممكن » هكذا سأل معلم الكنيسة « لانتانتوس Lactantius » وقال : « كيف تبلغ البلاهة بالناس حدًا كهذا ويعتقدون فى مثل هذه الخرافة ؟ كيف يعتقدون أن دولا وأشجاراً تتدلى من الجانب الآخر للأرض » ، وإن سيقان الناس أعلى من رؤسهم ؟ فقد اعتقد بعضهم أن الأرض عبارة عن تل تدور حوله الشمس بين الصباح والمساء . ويعتقد « هربانوس موروس Hrabanus Maurus » أن الأرض عبارة عن فلكة مستديرة كالعجلة يلطمها المحيط . وهكذا نجد التقدم الذى بلغته الإنسانية منذ قرون عديدة يختفى ويتلاشى وتعود عصور السذاجة إلى الظهور من حيث النظر إلى الوجود نظرة تحيطها الخرافات وعوامل السحر والشعوذة .

كذلك حلت اللعنة أيضاً واللعنة القوية على كل من يفكر فى قانون السببية لتعليل الظواهر الطبيعية ، وليست اللعنة فقط بل الكفر بالله ، كذلك كافر كل من يربط بين ظهور النجم أو الفيضان أو ولادة غير طبيعية أو شفاء كسر فى الساق

وبين الأسباب الطبيعية ، وتعليل حدوث هذه بتلك حتى ولو كان هذا من صنع الله كعقوبة أو قصاص أو من عمل الشياطين أو أن هذا الحدث معجزة من المعجزات . هل القوى العقلية وقد استولت عليها الرغبة القوية في سبيل معرفة الله تتيه في هذا البحر الإلهي؟ أو هل تستطيع أن تشيد أبنية شامخة من الفلسفة والتعاليم الفلسفية تحت سماء اللاهوت وقد شملت هذه السماء كل شيء وأصبحت تعلو شامخة وكأنها قبة زرقاء؟ لذلك كانت الكنيسة في ظلال هذه الأبنية التي تناطح السحاب سبباً في انحطاط المستوى العقلي فيما يتصل بالعلوم المتعلقة بالأرض وكل ما هو أرضي . فبعد أن كان العقل البشري يعيش في الكلمة « اللوجوس Logos » اليونانية الواضحة الوضاعة انحط العقل إلى جو ملبد بالغيوم والضباب وعدد لا يحصى من الخرافات والشعوذة وقد أعمت هذه الخرافات أبصارنا فغطت عيوننا غشاوة حجبت عنا إدراك كنه الوجود . وقد استولى هذا الوضع الجديد لا على تفكيرنا الداخلي الباطني فقط بل أهمل إهمالاً كلياً العناية العقلية بالسواد الأعظم للبشرية . فقد اكتفى ذلك العصر وتلك الحالة بالسياحة في مجالات الخيال المستمدة من اللاتينية البربرية المأخوذة عن القصص اليوناني والأساطير الشرقية القديمة المتصلة بأخبار القديسين وسيرهم وبهذا قويت العقيدة والإيمان بالحوارق على حساب التفكير العقلي السليم .

إن الكنيسة والرهبنة تؤثران في المجال الروحي ، لكن فيما يتصل بالمجال الدنيوي لم تنقذا الثقافة بل غالباً ما عطلتها وعوقتها . لقد كانت لدى الكنيسة والرهبنة نفس الوسائل ، بل أفضل من تلك التي كانت لدى العرب فقد كان تحت تصرفهما هذا التراث العظيم فلو استغلته وطورته لعاد عليهما وعلى الإنسانية بالنفع العظيم . فالنصوص والكتب القديمة متوفرة بكثرة هائلة بخلاف الحال عند العرب ، فحتى القرن السادس الميلادي كان في أوروبا عدد كاف من الرجال الذين كانوا يجيدون اليونانية ، فالعلوم العقلية التي وجدت طريقها إلى أوروبا في القرون الأولى عن المثقفين الرومانيين كانت جديرة بالترجمة والتحقيق ، وكان في أوروبا من يقدر على النهوض بهذه الرسالة ، ولم يكن هؤلاء المترجمون أقل من أولئك الذين نهضوا بهذا العبء إبان خلافة بغداد أو دونهم .

لكن العقلية اليونانية كانت غريبة على عقليتهم ، ليس بسبب جهلهم الأشياء

التي هي ذات فائدة لهم ؛ فقد أخذ أسقف قيصرية حوالي عام ٣٠٠ م مدرس الدين « أوزيربيوس Eusebius » والعلماء الطبائعيين من الإسكندرية وبرجامون الذين أضاعوا وقتهم سدى ، وهو لا يرى قيمة لمجهودهم لذلك يدعو إلى التوجيه لما هو أهم وأنفع ؛ وهذه الفكرة هي بعينها التي نجدتها في القرن الثالث عشر ونادى بها « توماس فون أكوين Thomas von Aquin » فقال : « إن أقل حظ من المعرفة المتصلة بالأشياء العليا يحصل عليه الإنسان أهم وأنفع من المعرفة والعلوم المتصلة بالأشياء الوضيعة الدنيئة » ، فالتفكير اليوناني قد بدأ لدى المسيحيين وكأنه جدير بكل لعنة لذلك لم يكتف المسيحيون بالابتعاد عنه بل أخذوا على عاتقهم تخليص الإنسانية منه بالقضاء عليه وإبادته . لذلك اضطرت أوروبا أن تبدأ من الأول بالثقافتين القديمة والهلينية وقد بلغت درجة الكمال . والذي وصل إلى الأديرة منسوخاً أو مجموعاً كان في حالة سيئة بحيث أصبح كافياً فقط لأولئك الذين يرضون بهذه القلة الضئيلة . أما الآداب الشعبية فلم تستفد من هذا التراث شيئاً ولا سيما أنه امتداد أو مستمد من تلك العقلية التي انتهت إلى أولئك المعجبين . وبالرغم من هذا بدا للرؤساء حرمان رجال الدين والرهبان من قراءة هذه النصوص المتصلة بالأمور الوضيعة . وفي عام ١٢٠٩ ذكر المجمع المقدس في باريس أن الرهبان يرتكبون أمهات الخطايا إذا ما قرأوا كتباً تتصل بالعلوم الطبيعية . فهذه الأغلال التي ضربت حول العقول قضت على كل تفكير عقلي في مهده كما أنكرت على العقول القيام بأي نشاط مستقل ، لذلك عوقته كما كذبت أي نشاط عقلي يتعارض وتعاليم الكنيسة .

والآن نستطيع أن نفهم ونذكر كيف غطت أوروبا قرابة ألف عام في نوم عميق ، ثم مضت فترة أخرى حتى أفاقت من غفلتها وبدأت تنفض غبار النوم عنها ، هذا مع ملاحظة أن العرب المسلمين سبقوا أوروبا إلى هذه النهضة بنحو قرنين أو ثلاثة فتموها وهذبوها وطوروها وأن عبارة « هيجل » الخاصة بيوم ميترفا التي تطير فقط عندما يحل الظلام تنطبق حقاً وتصديق على العلوم اليونانية إبان عصر التدهور اليوناني ، وذلك في العصر الهليني كما ينطبق هذا القول أيضاً على الألف عام التي قضتها أوروبا في غياهب الجهالة . لكن فيما يتصل بالهضة العربية فمثل عبارة « هيجل » لا تصدق حيث نجد ، وبصفة استثنائية ، العلوم ليست فاكهة متخلفة

حملتها الشجرة بعد أوان الطرح .

لقد ظهرت هذه النهضة العلمية بغته . وذلك بمجرد انقضاء القرن الأول الإسلامي، قرن الفتوحات وانتشار الدين الإسلامي وكتاب الله ، القرآن الكريم ، في تلك اللحظة انبثقت العلوم والمعارف وتفتحت البراعم بعد جفاف فصل الشتاء وظهرت العلوم العربية . وبعد فترة وجيزة من الزمن عمت العالم وأصبحت ثقافة عالمية. ثم سرعان ما نجد الإسلام الفتي يندفع في كل اتجاه غير منحرف أو ضعيف أو يصطدم مع العقائد الأخرى . في مكان ما نجد ممثلي العقائد المحافظة ينبرون للدفاع عن عقائدهم . وفي مكان آخر تنقسم الجماعات شيعاً وأحزاباً حتى المحافظين . وتأهبت كل جماعة للقضاء على الأخرى . ونجد الإسلام الفتي لا يقف من هذه الخصومات وتلك الخلافات الدينية مكتوف اليدين بل يقتحم المعركة وينازعها فلسفتها وعقائدها الدينية ويخوض هذه المعارك الكلامية والعقائدية والفلسفية . وقد أفاد هذا النشاط الإسلام فائدة كبرى وذلك لأنه . لفائدته أو لضرره . كان في وضع يغاير وضع المسيحية المعاصرة له . فالإسلام لا يعرف لدى الله وسيطاً . ولذلك لا كهنوت أو كهنوتية منظمة قائمة ثابتة لها سلطانها القوي . وبخاصة في الظروف الحرجة . وعامة المسائل قد تكون موضوع خلاف كبير جداً . لكن مجال الزندقة أضيق وأقل حتى في الحالات التي نجد فيها الخليفة محافظاً جداً متمسكاً أو متساهلاً كخلفاء العباسيين من المنصور حتى المأمون . وحيث الاتجاه المحافظ يهيمن ويسيطر على التسامح الديني تتجمد العلوم سريعاً . ولما قضى المغول على الزعماء الدينيين ؛ كما قضى عليهم الإسبان كانت المهمة الموجهة إلى رجال الدين الذين بلغوا مرحلة الاحتضار القضاء على الثقافة ومختلف الآداب والعلوم .

وقد أدت هذه الخصومات والمجادلات الدينية إلى إحداث يقظة عقلية دينية حية حالت دون تجميد الإسلام . كما اضطرت إلى الاستعانة بمختلف العلوم والمعارف التي أدت بدورها إلى خلق قوى عقلية ما كانت بمنظرة . فنجد الفرائض الدينية وما يتطلبه تنفيذها والعمل بها وبخاصة ما يتصل بالحياة اليومية : ضرورة علاج وشفاء ومنع انتشار الأوبئة في المدن الغاصة بملايين السكان . كذلك العمل على إيجاد وتجربة أدوية جديدة ، لذلك اقتحم العلماء العرب مملكتي الحيوان

والنبات يروون الأرض ويمسحونها ويحصون مواقع النجوم ومنازلها ووسائل معرفة الطرق والأسفار وتحديد الأزمنة والأمكنة وبالاختصار الاهتمام بمختلف المواضيع درساً وبحثاً وتعمقاً حيثما كان وكيفما اتفق .

ونجد العرب يقبلون غير هيايين على ما ورثوه ، فما يفيدهم منه علماً وتحصيلاً تمسكوا به وحافظوا عليه ، فنجدهم يلتقون بثقافات مختلفة إلى جانب الهندية والفارسية والصينية ، وكذلك اليونانية والإسكندرانية .

لكن ما وجده العرب لم يكن كافياً لسد حاجياتهم وإشباع رغباتهم وإرضاء مطامعهم وطموحهم . فالعرب يحرصون على الحصول على كل ما يمكن الحصول عليه وتحصيله . وهكذا اندفعوا يبحثون وينقبون ويستعينون بالبعوث المختلفة من علمية وسياسية .

عملية إنقاذات قيمة تاريخية

الكتاب وسيلة لخدمة السياسة . العلم سفير للسلام . أين ومتى وجدت هذه المعاني وتلك الوسائل من قبل أو من بعد ؟ وبهذه الكثرة ؟

وكم كان شغف العرب بالكتب عظيماً ، وبخاصة هذه الكتب المتصلة ببعض المواضيع الجامدة الجافة مثل الهندسة أو علم القوى المحركة والطب والفلك والفلسفة .

وبينما نجد الدولة المنتصرة تتطلب من الدولة المهزومة تسليمها الأسلحة والذخيرة والسفن الحربية كشرط أساسي لعقد معاهدة الصلح إذ بنا نجد هرون الرشيد بعد انتصاراته في عموريا وأنقرة يطالب بتسليمه المخطوطات اليونانية .

وبينما نجد اليوم الدولة المنتصرة تطالب المهزومة بالمناجم والصناعات الحربية الهامة وكل ما يتصل بوسائل الهدم والتدمير والإبادة ووضع اليد على مختلف المخترعات إذ بنا نجد المأمون يطالب عقب انتصاره على البيزنطى ميخائيل الثالث بتسليمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة ولم تترجم إلى العربية بعد كتعويض لخسارة الحرب لأنها كما يقول الأسلحة العقلية التي يتسلح بها في سبيل السلام وتدعيمه .

والواقع أن الأمراء العرب كانوا كأنهم مجانين في سبيل الحصول على بردية أو مخطوطة مكتوبة على الرق . فما من شيء يكسب صداقتهم مثل الحصول على بعض المخطوطات القديمة ، وعن طريق هذه المخطوطات يستطيع مرسلها أن يتخذهم حلفاءه في حروبه ضد خصومه . ويكفي أن نتذكر ما حدث على البوسفور حيث أرسل إلى عبد الرحمن الثالث في الأندلس صندوق مملوء بالمخطوطات القديمة من بينها رسالة ديسكوريدس في الطب .

وقد أدى بيع التراث العقلي الوثني وإقبال العرب على شرائه إلى رفع ثمنه ، فكانت البعوث الخاصة المزودة بكافة الصلاحيات والتفويض والحقائب المملأة بالنقود ترك بغداد إلى بيزنطة والهند حيث نجد علماء تلك البلاد يقومون بدور السماسرة مثل البيزنطي « فوتيوس photius » الذي اجتذبه الحياة العقلية الرفيعة في البلاط العباسي حتى إنه فضل الإقامة في بغداد على العودة إلى بيزنطة .

كذلك كان الأمراء مشغوفين بالحصول على المترجمين الذين يترجمون لهم هذه المخطوطات ، كما سار في ركب الأمراء كذلك الوزراء والأثرياء . وكانوا يدفعون الأموال الطائلة لأولئك الذين يتجولون لهم من العلماء والوسطاء في بلاد اليونان والأناضول وحيث نزل الهلينيون للحصول على بقايا التراث العقلي ، هذه البقايا التي نجت من التدمير .

وكان القوم ينقبون عن هذه المخطوطات تنقيباً ، فكانوا يعثرون عليها في أماكن غريبة مهجورة مظلمة تأوي إليها الفئران والعناكب ، وتلك هي القاعات السفلى في منازل الإسكندرية حيث قد يعثر الباحث على مخطوطة خاصة بآلات القتال محفوظة بين حجرين مطبقين عليها وأكوام من الأحجار ، كما قد يعثر المنقب على مخطوط آخر محفوظ في علبة مخبأة في جدار معبد سرياني . وفي الأناضول وعلى بعد مسيرة ثلاثة أيام من بيزنطة اكتشف محمد بن إسحاق مكتبة عظيمة في معبد كبير قديم له باب لم ير مثله حجماً ، وهو يتركب من صفقين (درفتين) من الحديد ، وقد شيده اليونانيون في الأزمنة الغابرة عندما كانوا يعبدون الأفلاك والأوثان ، كما كانوا يقدمون في هذا المعبد القرابين . ويذكر محمد الذي كان سفيراً عربياً في القصر البيزنطي أنه كافع كفاحاً شديداً في سبيل الحصول على هذا الكثر العظيم ، فقد رجا حاكم دولة الروم الشرقية

أن يفتح له المعبد إلا أنه رفض إجابة هذا الرجاء ، وذلك لأن أبوابه قد أغلقت منذ أن اعتنق البيزنطيون المسيحية ، لكن محمداً لم يتحول عن رغبته وبخاصة أنه قد قدم لحاكم الدولة كثيراً من الخدمات فرجاه محمد تحريرياً وشفوياً عندما اشترك مرة في مجلس من مجالسه ، وأخيراً وأمام هذا الإلحاح أمر الحاكم بفتح الباب لمحمد فكان هذا المعبد مشيداً من الرخام وعلى جدرانها كتابات وشخص ملونة ولم ير محمد مثل هذه الأشياء من حيث وفرة الجمال والفن . أما فيما يتصل بالمخطوطات فقد وجد به ما تنوء بحمله الجمال ، وقد ذكر القوم أن عدد هذه المخطوطات قد يبلغ الألف ولو أن جزءاً منها كان ممزقاً والبعض الآخر قد أتلفته القرصنة .

إن إنقاذ هذه المكتبة كانت له فائدة عالمية جسيمة فإنقاذها إنقاذ لحضارة وثقافة ماتت وانقرضت بل كادت تنسى ويعفى عليها الزمن ، وبخاصة بعد أن انصرفت عنها عيون خالقها السابقين واتجهت الآن إلى هدف آخر لا يمت إلى الدنيا بسبب .

أما البقية الباقية التي وصلتنا من هذه الثقافة فالفضل في هذا يرجع ولا شك إلى العرب وجريهم وراء المعرفة . ولم يصلنا من هذه الثقافة عن غير طريق العرب إلا النادر القليل الحديث ومن بيزنطة . وحتى هذا الذي جاءنا من بيزنطة عبارة عن نصب ناقص كتمثال بدون رأس « تورسو Torso » ، كما أننا لا نعلم تماماً مدى أهمية هذا التراث القديم وكم ضاع منه . إننا نستطيع الاهتداء إليه عن طريق الموسوعات العلمية فقط .

الترجمة مجهود ثقافي

إن المخطوطات وغيرها التي أنقذها العرب لم تخزن في المتاحف والخزانات وحيل بينها وبين الهواء ، بل بعثت بعثاً جديداً ، وانتقلت من حال النسيان والإهمال إلى الحياة ثانياً فنية قوية ، لقد عادت إلى الحياة لتكون في متناول يد كل فرد ، وبالاختصار ترجمت .

لم تترجم هذه الكتب في لغة بعيدة عن تلك المألوفة عند الشعب ، لم تترجم إلى لغة لا يعرفها إلا الكتاب والشعراء وغيرهم من اللغويين والفقهاء ، أو بتعبير آخر إلى لغة قريبة من اللاتينية في القرن الثامن في أوروبا ، بل نقلت إلى لغة حية مستعملة ألا وهي لغة القرآن الكريم ، وهذه هي الجذور الثابتة للثقافة العربية وهي التي عاوت على نموها وازدهارها . فكل مسلم يجب عليه أن يقرأ القرآن الكريم في اللغة العربية ، كل مسلم يتعلم العربية ويتعرف إليها كما أن لكل مواطن من مواطني الدولة الحق في الاعتراف من ينابيع الحكمة والمعرفة ولا يعيش في عزلة عن المجتمع أو الشعب .

وحوالي عام ٦٨٧م أيام العصر الأموي بدأت هذه الحركة أعنى حركة الترجمة ، وقد عاصرها في أوروبا « بين فون هريستال *pepin von Heristal* » وهو والد « كارل مارتل *karl Martell* » الذي قفز من وظيفة مدير لقصر الملك إلى حاكم حقيقي لفرنسا .

وحدث في ذلك الوقت أن الأمير الأموي خالد بن يزيد اضطر إلى التنازل عن العرش في دمشق فأصيب بصدمة نفسية ألجأته إلى احتضان العلوم ، لكنه نجح أن يتصل بأصدقائه الكتب في لسان أعجمي ، وخالد بن يزيد كفرد من أسرة امتازت بمناصرة العلم والأخذ بيد العلماء وجد لزاماً عليه أن يستدعي علماء من اليونانيين والعرب من الإسكندرية ويكلفهم ترجمة أمهات الكتب الموجودة في اليونان أو مصر إلى لغة الدولة ، وبذلك يستطيع الحديث في لغته مع ضيوفه من العلماء .

فهذه الخطوة التي بدأها هذا الأمير في دمشق تسلية وعزاء أتمها بعده الخلفاء العباسيون في بغداد خدمة للإسلام والمسلمين . فقد أمر المنصور كما جاء في كتاب عقد اللآلئ فيما يتعلق بالكتاب الهندي « سيدهنتا » أن يترجم إلى العربية ويؤلف كتاب على نمطه في العربية ليتعلم العرب منه حركات النجوم ، والواقع أن ما طلب حكام العرب تنفيذه اقتناعاً منهم بفائدته قد نفذ كاملاً غير منقوص .

فعملية الترجمة كانت تؤدي بعناية ودقة وحماس لا يقل عن هذا الاهتمام الذي وجه إلى جميع الكتب التي جمعت من مختلف مصادرها ، فقد استدعى هرون الرشيد مختلف العلماء الذين يجيدون مختلف اللغات وكون منهم هيئة علمية تحت إشراف يحيى بن ماسويه مهمتها تقدير التعويضات التي يجب أن تدفعها

الشعوب المهزومة ، وهذه التعويضات يجب أن تكون كتباً . ثم جاء المأمون وكون مجمعا علمياً حقيقياً للقيام بأعمال الترجمة . وقد نسج على منواله الذين جاءوا بعده وحاولوا منافسته ، فأبناء موسى بن شاكر الفلكي الثلاثة أنفقوا كثيراً من الأموال في سبيل جمع الكتب وترجمتها ، فكانوا بذلك مثالا حياً للآخرين مثل الطبيب البعلبكي « قسطا بن لوقا » .

ومن الأمثلة الأخرى الشهيرة للنشاط العظيم الذي بذل لإحياء التراث القديم هو ذلك الذي أداه ابن الصيدلى حنين بن إسحق وهو أحد أبناء القبيلة العربية التي كانت قد اعتنقت المسيحية واشتهرت باسم « العبادى » وكانت تقيم حول الحيرة العاصمة التجارية القديمة على الفرات . وكانت في عصرها المقر الملكى للخميين العرب ، وكانت تمر بها القوافل التجارية العربية مجتازة ما بين النهرين .

وتاريخ حنين يبدو كأنه مثال يحتذى ، إنه تاريخ وإن كان في الواقع تاريخ إذلال وانتقام . إذلال من جهة الاستعلاء الفارسي على الشعب العربي المنتصر ، وهذا الاستعلاء وذلك الإذلال أصابا حنيناً سليل قبيلة العبادى ، وهذه المعاملة بالذات هي التي دفعته إلى بلوغ صولجان القوة العربية العلمية للعروبة الفتية .

والمسافة بين الحيرة وبغداد تبلغ أكثر من تسعين كيلومتراً . ولبلوغ عاصمة العباسيين ما على الإنسان إلا أن يمتطى أمواج الفرات متجهاً شمالاً ليلبغ مدينة أحلامه الرابضة على دجلة . هكذا أجاب الإنسان حنيناً عندما وجه مائة سؤال إلى رجال القوافل وتلقى حنين مائة إجابة . لقد ولد حنين عام ٨٠٩ م وهو العام الذي توفي فيه هرون الرشيد ، وقد أثارت الأواني والأجهزة التي كانت موجودة في معمل والده انتباهه واسترعت نظره . لكن هذا الطفل النجيب النحيف لم يعجب بهذه الأجهزة الإعجاب الذي جعله يتجه إلى مهنة والده بل أثر التجارة عليها محتدياً حذو أنداده .

وفي يوم من الأيام نجد صديقه القديم « حبشاً » دليل القافلة يبدى رغبته لحنين ابن الصيدلى إسحق في أنه مستعد لنقله معه إلى عاصمة الدولة العباسية مقابل إعطائه مرهماً من الكافور لعلاج دمل . وفي ذلك الوقت كان بيت الطبيب ورئيس الترجمة

أيام هرون الرشيد والمأمون، وهو الفارسي جنساً، ومن جنديسابور مولداً، واسمه يحيى بن ماسويه - ملتنى كبار علماء بغداد، وأراد حنين أن يصبح طبيباً فأقبل وهو في سن الخامسة عشرة على العلم يرتشفه ارتشافاً مقبلاً على أساتذته إلا أنه لم يكن طالباً غيباً فالأسئلة التي كان يوجهها إلى أساتذته كانت كالحناجر التي تمزق محاضراتهم . وكان ماسويه مشهوراً بنكاته التي ذاع صيتها في المدينة ، كما اشتهر كذلك بلسانه السلط ، فأهاجته مرة من المرات أسئلة حنين فصاح فيه قائلاً : « عد من حيث أتيت ، ومن جهتي احترفن حرفة الصيارفة التي يحترفها أهالي الحيرة ، واترك دراسة الطب فهذه ليست مهنة العبادى » .

فتأثر حنين من مثل هذه الإجابة وبكى بكاء مرّاً ، وترك الدار بعد أن آلمه هذا الاحتقار الذى بدا من ماسويه . فقد كانت عباراته كالسياط التي ألهمتته ، فقرر أن يصل إلى هدفه ويحقق رغبته في دراسة الطب وأنه لن يرى وجه رجل مثل ماسويه الذى أهانه واحتقره . فسافر إلى بلاد الروم . وفي الأناضول درس اللغة اليونانية حتى أتقنها ليستطيع قراءة كتب كبار الأطباء اليونان ، وفي البصرة على الخليج الفارسي درس على أحسن معلم اللغة العربية وأتقنها كما اهتم كذلك باللغة الفارسية وهو يتكلم الآرامية منذ سن الطفولة .

ومضى عامان على الفتى العربى الحيرى منذ أن خرج من أبواب بغداد الذهبية ، وفي إحدى الليالى زار خليل بن عبد الله أحد زملائه في الدراسة ، وهو من تلاميذ ماسويه الذين كانوا أقدم منه ، صديقاً له فإذا برجل أجنبى ذى لحية سوداء يحبو دون أن يراه أحد وقد جلس القرفصاء على فراء حمل . ولم يسبق لخليل أن رأى هذا الرجل في شوارع بغداد . فانصرف عنه خليل ولم يعبا به ، وأخذ يتحدث مع صديقه حنين .

وبغثة ارتفع صوت يغنى أشعاراً يونانية لهوميروس وأوديسيوس، وهذا الصوت يكشف القناع عن صاحبه وخليل يعرف صاحبه جيداً، أما ذو اللحية فقد جلس ورأسه إلى الحائط المبيض ، والمغنى يغنى أوديسيوس العظيم وهو وصديقه وزميله القديم حنين بن إسحق . فإذا بالشخص الذى أصابه الفزع يرجو ألا يبوح بسرّه؛ إن رسالتى لم تنته بعد

وبعد ذلك بزمان قليل التقى خليل بصديقه العجيب للمرة الثانية ، وهذه المرة في منزل جبريل بن بختيشوع نقيب أطباء بغداد ، وكان وجوده مدعاة إلى التعجب ، فالشيخ الوقور الذي انحدر من أسرة اشتهرت بالطب والأطباء في جنديسابور يعامل هذا الشاب ابن السابعة عشرة ألا وهو حنين معاملة ممتازة ، يعامل بها عادة الوقورين المحترمين ، فكان يخاطبه بعبارة : المعلم حنين ؛ وأكرمه في بيته كما يكرم أكبر وأعز ضيف .

إنه يدعوك معلم ! سأله خليل عندما تركا البيت . إن هذا عجيب وأود أن أعرف السبب . فأخبره حنين أن نقيب الأطباء كلفه بترجمة فأداها أحسن أداء . والآن شعر أن ساعة الحساب قد جاءت : خذ الأوراق وتوجه بها إلى يحيى بن ماسويه الذي طردني سابقاً من درسه . وأخبره ما رأيته وسمعته من معاملة جبريل ابن بختيشوع لي في منزله .

إن مثل هذه الترجمة ما كان إنسان بمستطيع القيام بها . ولعل روح القدس قد حل بك وأوحى بها إليك ؛ وأجابه ماسويه عند تصفح الأوراق : قل لي : حنين بن إسحق . يسعدني جداً أن أكون صديقك . وشرع حنين في إلقاء محاضرات في الطب في بغداد ، وحتى العالم ببختيشوع لم ينجل من حضورها والاستماع إلى صديقه الشاب ، وأحياناً كان يشاهد الإنسان أستاذ حنين من بين مستمعيه . لكن هذا الشاب العربي اكتسب شهرة أوسع عن طريق مهارته في الترجمة ، فقد امتاز فيها على ماسويه . كما أعجب به أبناء موسى ، حيث امتازت ترجمة حنين بحسن الأسلوب ودقة الترجمة ، فترجمته لم تكن حرفية أي كان يكتفي بإحلال كلمة أو جملة مكان أخرى إنما قصد في الترجمة المعنى ومن ثم صبه في قالب عربي سليم . أما إعجاب محمد بن موسى بحنين فقد فاق الوصف ، فقد أخذه إلى داره وعين له مرتباً عالياً لترجمة الكتب اليونانية التي جمعها هو وأخواه إلى العربية .

وسرعان ما شعر حنين بالحاجة إلى مساعدين فعين عدداً كبيراً منهم لكن لم يخرج كتاب من معهده دون مراجعته وتنقيحه . فكل نص يقع في يديه ينظمه هو ولأول مرة ومن ثم يقسمه إلى أبواب وفصول وبخاصة كتب أمثال جالينوس ، وبذلك كان حنين يؤدي خدمات جليلة إلى أولئك المؤلفين أنفسهم .

وهنا نجد مدى الفضل الذى قد يتفضل به المترجم على المؤلف ، وهذا الفضل يتوقف على ميل المترجم وشغفه بالكتاب وفهمه وإدراك كنهه وحسن اختياره . فترجمته هى التى تفرض الكتاب على المجتمع وتمهد له الطريق إلى الأوساط العلمية والثقافية . فحب حنين لجالينوس هو الذى جعله يتوجه ملكاً على عرش الطب العربى ، وبذلك أصبح فيما بعد زعيم الطب الأوروبى .

لكن النشاط الجهم لهذا الطبيب والمترجم العربى جعله لا يقصر همته على الطب فقط ، فحنين لم يقتصر على الترجمة لجالينوس وأبقراط وأوريبازيوس ، وديوسقوريدس وبول فون أجينا بل عرج على أرسطو وأفلاطون والترجمة اليونانية للعهد القديم ، الترجمة السبعينية التى نقلها إلى العربية . إن ابن إسحق قد كرس حياته للمؤلفات الفلسفية والرياضية وما بعد الطبيعة أى الميتافيزيقا . وحنين بن إسحق على نقىض المترجمين اللاتين المتأخرين ، فعالمنا العربى كان ملماً بمختلف أنواع العلوم بقدر . فقد كان يجيد المادة التى يترجم منها حتى إنه كان يسمح لنفسه أن يشرح ويبسط العبارات العويصة التى يذكرها المؤلف ، كما كان يقدم لكل كتاب يترجمه بمقدمة العالم الخبير ويعلق عليه ببعض الشروح والتفسيرات . وقد اشتهر حنين بدقته حتى إنه كان كما يذكر هو نفسه ، لا يقدم على الترجمة إلا بعد الحصول على ثلاث مخطوطات على الأقل من الكتاب المراد ترجمته فيقابل بينها ويقوم نصها ويصححه إذا ما دعت الحاجة إلى هذا .

فأين هذه الدقة العلمية فى العالمين القديم والوسيط عدا عند العرب حيث نجد الناشر يشعر بمسئوليته تجاه المؤلف ومدى احترامه وتقديره لثروة المؤلف العقلية ؟ هكذا هو موقف العربى وهو الموقف الذى يمتدحه الإنسان اليوم ويصفه كما لو أنه موقف حديث .

وكان حنين إذا ما افتقد نسخة من مخطوطة خاصة بجالينوس ، وأن هذه المخطوطة كانت فى عصره من المخطوطات النادرة لا يكتفى بهذا بل يقوم هو بالبحث عنها . إنى فى حاجة شديدة إليها ، وسأسافر باحثاً عنها فى بلاد ما بين النهرين والشام وفلسطين ومصر حتى أصل إلى الإسكندرية ، لكنى لم أوفق فى الحصول عليها إلا هذا الجزء الذى قد يكون نصف المخطوطة وقد عثرت عليه فى دمشق :

وإذا عاد حنين ومعه هذا الجزء من المخطوطة النادرة التي ضاع أصلها اليوم أحضر معه كذلك عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة إلى بغداد . وفي تلك الفترة عينه المتوكل الذي خلف المأمون طبيبه الخاص ومديراً لمدرسة الترجمة الجديدة التي أنشأها الخليفة .

وهكذا نجد العلماء العرب يحفظون للعالم عن طريق ترجماتهم الكثير من الكتب من الضياع والضياع النهائي ، وهي مؤلفات كان العالم يجهلها جهلاً تاماً لولا أن جاءت عن طريق الترجمة العربية مثل كتب التشريح لجالينوس وكتب القوى المحركة والرياضيات للمؤلفين « هيرون » و « فيلون » و « مينيلوس » ثم بصريات بطليموس ، والموازنة للمؤلف أويقليد ، وأخرى حول الساعة المائية ، والأجسام الطافية لأرشميدس . ثم هناك ثلاثة كتب حول قطاع الجلة للمؤلف « أبولونيوس » والذي أنقذها هو ثابت بن قرة الرياضي البارع والنطاسي العظيم الذي كان يزامل ابن إسحق بن حنين وحفيده الذي عالج الترجمة ونبغ فيها بعد أن مارسها زهاء عشرات السنين وامتاز على سائر تلاميذه الذين جاوز عددهم التسعين . ولم يكد حنين يفارق الحياة حتى كان قد ترجم معظم مؤلفات الأقدمين ، ومن ثم بدأ النشر .

ولع بالكتب

في أعقاب الحرب العالمية الثانية انتشرت انتشار الوباء الرغبة الملحة في الحصول على سيارة وثلاجة وتلفزيون ، هذا بينما كان العالم العربي قديماً شديد الولع باقتناء الكتب ، فأقبل على شرائها كل من استطاع إلى هذا سبيلاً كما انتشرت الرغبة في الشراء انتشار العدوى في جميع البلاد العربية وكانت هذه الرغبة لا تفوقها رغبة أخرى اللهم إلا رغبة العالم الحديث .

وكما أن المستوى الاقتصادي والعقلي والاجتماعي للإنسان في عصرنا الحالي يتطلب امتلاك السيارة والتلفزيون ، فإن المستوى العربي فيما بين القرنين التاسع والثالث عشر كان يقاس بالمكتبة الخاصة .

ولا شك في أن الخليفة عندما أشار عليه وزيره البرمكي ، الدالاي لاما ، الوحيد من آسيا ، بتأسيس مكتبة في دار الحكمة ببغداد ، استجاب لتوه إلى هذه

المشورة وشعر بالحاجة الماسة إليها . فدور الكتب تنمو وتزدهر بسرعة . فقد حدثنا رحالة عام ٨٩١ م أن ببغداد المطلة على دجلة مائة مكتبة عامة يستعين بها كل طالب علم سواء كان مستعيراً أم مطلعاً بداخلها ، وبكل مكتبة المترجمون والنساخ في قاعاتهم الخاصة ، كما توجد بكل مكتبة قاعة كبرى عامة للندوات والمناقشات وهي شبيهة بالأندية الإنجليزية اليوم .

ومدينة صغيرة مثل النجف كانت في القرن العاشر الميلادي فخورة لامتلاكها أربعين ألف مجلد في الوقت الذي كانت فيه الأديرة الأوربية تقيد هذا العدد القليل من الكتب الذي قد لا يتجاوز العشرة في السلاسل نظراً لندرتها وخوفاً عليها من الضياع . أما مكتبة مدينة الري فقد سجلت أسماء كتبها في فهرس يقع في عشرة مجلدات كبيرة وكان في كل مسجد مكتبة ، وكل مستشفى يستقبل زواره في قاعته الكبرى الغنية بالكتب ، ويحرص على شراء جميع ما يظهر من الكتب الطبية إشباعاً لحاجة الطلاب والباحثين . وفي مرصد « مراغة » يدون ناصر الدين الطوسي أربعمئة ألف مخطوطة ، وما ينهض به خليفة بغداد يجوز أيضاً لأصغر الأمراء وفي أقصى أطراف الدولة ، فنجد في جنوب بلاد العرب أميراً عالماً يملك مكتبة بها مائة ألف مجلد ؛ ثم نجد ابن سينا ولما يبلغ الثامنة عشرة يزور سلطان بخارى المريض واسمه محمد المنصور استجابة لرغبة طبيبه الخاص لمساعدته طبيياً ، فتقديراً لجهوده أذن له السلطان في أن يختار من مكتبة القصر ما يحتاج إليه من كتب للدراسة ، وهذه المكتبة منظمة تنظيمًا موضوعياً كما تشغل غرفاً كثيرة من غرف القصر ؛ وقد شاهد ابن سينا فيها كتباً لا يعرف الكثيرون أسماءها ، كتباً لم يرها ابن سينا من قبل ولا من بعد .

وبعد أن ترك ابن سينا القصر السلطاني بزم قصير شبت النيران في القصر فأتت على المكتبة وكان هذا الحادث من الأسباب التي دفعت جماعة من حساده وأعدائه إلى اتهامه بأنه هو الذي أحرقها ، حتى يحتكروها ما بها وينسبه إلى نفسه .

لكن أحداً—حتى خليفة قرطبة الذي كان يوفد المبعوثين والعملاء لاقتناء أهم الكتب وأشهرها لمكتبته الخاصة استكمالاً لها وتيسيراً للعلم لطلابها— لا يقارن بالخليفة العزيز في القاهرة . فمكتبة الفاطميين كان بها زهاء مليون وستمائة ألف مجلد وفي حالة جيدة كاملة ومن بينها ستة آلاف وخمسمائة كتاب في الرياضيات وثمانية عشر ألفاً

في الفلسفة . وهذه المكتبة لم تكن ابنه عندما تولى الحكم عن تأسيس مكتبة أخرى إلى جوار الأولى وكانت تشغل ثمانى عشرة قاعة .

وقد شجع هذا الاستعداد لدى الخلفاء والسلاطين الوزراء وغيرهم من رجال القصر على النسخ على منوالهم ، فنجد الوزير المهلبى يترك عندما توفى عام ٩٦٣ م نحو مائة وسبعة عشر ألف مجلد ، وهذا العدد لم يكن نادراً . كما نجد زميله ابن عباد يقتنى مكتبة من مئتين وستة آلاف مجلد كما خلف أحد القضاة مليوناً وخمسين ألف مجلد ، ولو أن هذه الأرقام مبالغ فيها ، وأن لفظ مجلد قد يطلق على فصل مستقل ، إلا أن المبالغة في ذكر هذه الأعداد تشير إلى مدى المفاخرة باقتناء الكتب والأهمية التي كان يعلقها القوم على اقتنائها ؛ وهذا الغرام باقتناء الكتب حقيقة لامراء فيها بدليل هذا الخبر الذي يروى عن أحد الوزراء ، أنه لم يقيم يوماً من الأيام برحلة ما دون أن ترافقه مكتبته وكانت حمولة ثلاثين جملاً . وقد قلد القيصر فريدريش الثانى العرب في هواية الكتب وتشجيع العلم والعلماء ، ولا غرابة في هذا فالقيصر فريدريش الثانى هو تلميذ العرب في كل شيء فحتى في تنقلاته كان يحمل معه مكتبته على ظهور الإبل . ولدينا الآن سؤال آخر ؟

أين اليوم المكتبات الخاصة التي تشتمل كل واحدة منها على ما يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف مجلد ، كما جمعها من قبل أمثال طبيب صلاح الدين الخاوص المسمى ابن المطران ثم الصيدلى الشهير ابن التلميذ وكذلك ابن القفطى المؤرخ ؟ ولا يفوتنا أن نذكر أن الكتب لم تكن تطبع في ذلك الحين بل كانت تنسخ والنسخ قد يستغرق الأشهر أو السنوات ، فهي لم تكن رخيصة بل غالية ، فابن الهيثم مؤسس علم البصريات تناول خمسة وسبعين درهماً أجراً لنسخ جزء من أويقليد ، وقد عاش ابن الهيثم عاماً كاملاً ينفق من نصف هذا المبلغ . وابن الجزار الطبيب الرحالة المرح ، أحد أبناء القيروان ، خلف مائتين وخمسين قنطاراً من الرق الذي كتبه بيده ، وهذا الرق هو جلد غزال . ويحكى عن طبيب آخر خبر لا يقبل شكاً من أحد من معاصريه ، أن سلطان بخارى دعاه إلى قصره فرفض الدعوة لأن انتقاله إلى بخارى يضطره إلى الحصول على أربع مائة جمل لنقل مكتبته التي تزن حوالى عشرة آلاف كيلوجرام . كذلك يحكى عن عالم آخر توفى عن سبائة صندوق كتب في

مختلف العلوم والفنون ، ويقال إن حمل كل صندوق كان يتطلب عدد كبيراً من الرجال . نعم إن الإنسان قد يجد عدداً قليلاً من العلماء الذين يحتاجون إلى مراجع علمية خاصة ، فهؤلاء كانوا يوجدون في مختلف العصور ، ولو أنهم كانوا أحياناً قلة . لكن الأمر عند العرب كان على عكس ذلك ، فهواة الكتب كانوا كثرة وكانوا يوجدون بين سائر الطبقات وليس فقط بين العلماء . فكل متعلم من السياسى إلى تاجر الفحم ، ومن قاضى المدينة إلى المؤذن خبير بالكتب وتجارها فالمكتبة المتوسطة الخاصة في القرن العاشر كانت تحتوى على كتب تفوق بكثير محتويات جميع مكتبات أوروبا وقتذاك .

فالثراء لا يتم لشخص دون ملكيته لمكتبة غنية بالكتب النادرة القيمة ، فقد ذكر مؤرخ عربى أنه لما كان في قرطبة وقعت له حادثة في سوق تجارة الكتب أغضبه ، وذلك لأنه اعتاد أن يكثر من التردد على السوق لمشاهدة الكتب الحديثة وشراء ما قد يحتاج إليه فوجد مرة كتاباً أعجبه فعرض ثمناً وعرض آخر ثمناً أعلى ، فقلت لمنافسى : أرجو الله أن يحافظ على سيدنا الطالب المجتهد ، إذا كان لديك سبب قوى يحتم عليك شراء هذا الكتاب أتركه لك ، وذلك لأن الثمن المعروض تخطى الحدود . فأجابه الرجل : لست طالباً ولا أعرف محتويات الكتاب إلا أنى قد أسست حديثاً مكتبة رفعاً لمرتبتى بين مواطنى ، ووجدت أن مكاناً خالياً في المكتبة ، وهذا الكتاب يملؤه . وعلاوة على هذا فخط هذا الكتاب جميل جداً وهو يسرنى كثيراً كما أنه مجلد تجليداً فاخراً ، لذلك لا يهمنى الثمن الذى أدفعه فيه . فأجبتة : إن الناس الذين هم مثلك لديهم الوسيلة لتحقيق رغباتهم « الجوز للذى لا أسنان له » !

نعم إن الذين لا أسنان لهم كثيرون ، لذلك ستستمر هذه الحالة لا عشرات السنوات بل المئات ، وهذا عنصر هام من عناصر الحياة الاقتصادية العربية ، فقد كانت تجارة الكتب تكلف المجتمع العربى ملايين الملايين سنوياً ، فالمكتبة النظامية بجامعة بغداد مثلاً كانت ميزانيتها السنوية مليونين ونصف مليون فرنك ذهبى لشراء الكتب والمخطوطات ، لذلك كانت الكتب مصدراً من أهم مصادر الرزق لمئات الآلاف من البشر .

فالنساخ والخطاطون كانوا فنانيين في مهنتهم فكل مكتبة وكل تاجر كتب

يوظف لديه عدداً من هؤلاء الموظفين ومعظمهم من الطلبة الذين يريدون أن يكسبوا قوتهم اليومي أو من فقراء المتعلمين ، ثم نجد صناع الورق في سمرقند وبغداد ودمشق وطرابلس الشام وطبرية بفلسطين و«ياتيفا» الشهيرة بالقرب من بلنسية في الأندلس ، ثم نجد مجلدي الكتب يطبقون الورق على الطريقة الصينية مثني ورباع وثمان وسداس عشر في الحجم المعروف باسم المنصوري أو كما يعرف الآن باسم « فوليو Folio » والبغدادى وهو المعروف الآن باسم « كوارت Quart » .

وكما نجد نحن اليوم الكتب كذلك الحال مع عمال الجلد فهم الذين كانوا يزخرفون جلد الكتاب . وكم رزمة ورق وكم لتر مداد من الكحل والصمغ العربى تستهلك سنوياً ؟ وكم رق غزال أو ما عزيستخدم والرق الحميل والسختيان وغيرها . فتجارة الكتب والصيدلة مهنتان من اختراع العرب . فتاجر الكتب رسول من رسل الثقافة كما أن مكان بيعها مركز ثقافى هام فى المدينة . فهذه التجارة وجدت أولاً ولزمن طويل فقط عند العرب .

فى سوق الوراقين—هكذا كان يسمى الحى الواقع عند باب البصرة حيث كان يوجد أكثر من مائة وراق فى محالهم—كان يلتقى علماء بغداد ، وعلماء العالم الإسلامى . هنا يلتقى الفيلسوف مع الشاعر والفلكى حول الكتب الجديدة ، وهنا التقى الطبيب مع المؤرخ وجامع الكتب النادرة ، وهنا كانت تعقد حلقات المحاورات العلمية والندوات الأدبية ، فهنا مركز الثقافة العربية ، هنا يتبادل العلماء الآراء . لذلك لا عجب إذا ظهر عام ١٠٠٠ م « كتاب تبادل الآراء » . وهو يشتمل على مائة حديث وستة جرت بين العلماء فى بيت فيلسوف حيناً وفى سوق الوراقين أحياناً . وفى ذلك العصر ظهر فهرس ابن النديم ، وهو من أشهر تجار الكتب كما كان من كبار العلماء ، وفى هذا الفهرس ذكر سائر الكتب العربية الأصيلة أو المنقولة إليها من اللغات الأجنبية . وقد عرف كل مؤلف أو كل كتاب بمقدمة شخصية يعرف فيها القارئ بصاحب الكتاب . وقد قدم ابن النديم لهذا الكتاب بمقدمة تحدث فيها عن حيل الوراقين والأعيهم .

وابن النديم كزملائه الوراقين على جانب عظيم من العلم والمعرفة ، فقد حضر محاضرات مشاهير فلاسفة عصره كما تزاور معهم وكان على صلة قوية بهم وبمختلف

الهيئات العلمية التي لعبت دوراً هاماً في الحياة العقلية العربية في القرن العاشر الميلادي ، لقد كان ابن النديم صديقاً حميماً لعلی بن عيسى أكبر طبيب عيون في العصور الوسطى ، كما كان صديقاً لكثيرين من العلماء الآخرين البارزين ، وكان يمضي الليل معهم في محاورات ومسابقات وندوات علمية ؛ وهذا العالم الفاضل الواسع الاطلاع لم يكن نادراً في ذلك العصر وفي تلك البيئة بين زملائه المنتشرين في مختلف مراكز الثقافة العربية والذين كانوا يأتونه بإنتاج العصور المختلفة في مختلف فنون العلوم والمعارف . ومن بين هذه الكتب التي كانوا يحضرونها إليه القديمة النادرة وهي مصادر هامة لعلم فهرسة الكتب ومعرفتها ولا يبحث عنها الناشر بل الوراق الذي كان يتنقل بين مختلف المدن باحثاً عن كنوز علمية جديدة تملأ خزائنه . وما يذكر نقلاً عن ابن أبي أصيبعة في ترجمته لحياة الطبيب « أفرام بن الزفان » ما نصه :

« هو أبو كثير أفرام بن الحسن بن إسحق . . . وهو من الأطباء المشهورين بديار مصر ، وخدم الخلفاء الذين كان في زمانهم ، وحصل من جهتهم من الأموال والنعم شيئاً كثيراً جداً . وكان قد قرأ صناعة الطب على أبي الحسن علي بن رضوان وهو من أجل تلامذته ، وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب ، وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان أبدأً عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفائتهم منه . ومن جملتهم محمد بن سعيد بن هشام الحجري وهو المعروف بابن ماساقة ، ووجدت بخط هذا عدة كتب قد كتبها لأفرام وعليها خط أفرام . وحدثني أبي أن رجلاً من العراق كان قد أتى إلى الديار المصرية ليشتري كتباً ويتوجه بها وأنه اجتمع مع أفرام واتفق الحال فيما بينهما أن باعه أفرام من الكتب التي عنده عشرة آلاف مجلد وكان ذلك في أيام ولاية الأفضل بن أمير الجيوش . فلما سمع بذلك أراد أن تبقى تلك الكتب في الديار المصرية ولا تنتقل إلى موضع آخر فبعث إلى أفرام من عنده بجملة المال الذي قد اتفق تسمينه بين أفرام والعراقي ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل وكتبت عليها ألقابه ، ولهذا فإني قد وجدت كتباً كثيرة من الكتب الطبية وغيرها وعليها اسم أفرام وألقاب الفاضل أيضاً . وخلف أفرام من الكتب ما يزيد على عشرين ألف مجلد ومن الأموال والنعم شيئاً كثيراً . »

واهتمام سياسى خطير مثل الأفضل بالعلوم والفنون والفلك والحصومة الشعرية التى نشبت بينه وبين أخيه—شئ طبعى، فالولع بالعلوم والآداب من خصائص العرب فى ذلك العصر كاهتمام جيل اليوم بكرة القدم، فالعناية بالعلوم كانت من مقومات الحضارة والمدنية والمفاخرة فى ذلك العصر .

فنحن نجد رجلاً مثل أسامة بن منقذ الذى ذكر ما ذكر من أخبار تقشعر لها الأبدان خاصة بالطب والجراحة عند الإفرنج ، وحدث أن غرقت يوماً ما سفينة له وسلب الصليبيون كل ما فيها وأذاقوا عشيرته من العذاب ألواناً وفى ذلك يقول أسامة :

إلى الله أشكو فرقة دميت لها جفونى وأذكت بالهموم ضميرى
تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى وطارت بها الأشواق كل مطير
فلما قضى الله اللقاء تعرضت مساء دهرى فى طريق سرورى

إن هذه المعانى لم تصدر عن عالم شاعر بل عبارات محارب وسياسى كان كغيره من أبناء جلدته قد تلقن القراءة والكتابة منذ الطفولة .

شعب يدرس

ولا يفوتنا أن نذكر أن وسط أوروبا كان فيما بين القرنين التاسع والثانى عشر الميلاديين مسرحاً للأمية التى بلغت نسبتها خمسة وتسعين بالمائة .

وبينما حاول كارل الأكبر (شارلمان) وهو فى سن متقدمة تعلم الهجاء، وحتى هذه التوطئة قد أعيته. وبعده بعدة قرون نجد الأشراف الأوربيين يتحابلون على التهرب من تعلم القراءة والكتابة هذا الفن العسير ، وفى الأديرة كان قليلاً جداً عدد الرهبان الذين يستطيعون القراءة والكتابة ، بل فى دير القديس جالين لم يوجد فى عصر من العصور راهب واحد يقرأ ويكتب وقد كان ذلك عام ١٢٩١م—إذ بنا فى نفس العصر نجد فى قرى ومدن البلاد العربية آلاف الآلاف من المدارس التى تضيق بالصبية من الجنسين وهم فى سن السادسة والحادية عشرة وكانوا يتعلمون القراءة والكتابة ، قراءة القرآن الكريم وكتابته، إذ كانوا يستخدمون لهذه الغاية ألواحاً خشبية

ومداداً أسود بنيّاً ، ومن ثم يتلون القرآن سورة سورة بعد أن يحفظوها ، ومن ثم يتقدمون في الدراسة تدريجياً ويتلقنون النحو والصرف . وكان السر في تأسيس هذه المدارس الرغبة الصادقة في إبداء حسن إسلام أولئك الذين يعتنقونه . فقد نشأت هذه المدارس حرة وهبة وليست قسوة وجبراً ، وإن إتقان القرآن قراءة وكتابة كان من مقومات الثقة في الدين وفهم كتاب الله عز وجل . وهنا نجد البون شاسعاً بين الشرق والغرب وموقف الشرقيين والغربيين من الكتب المقدسة . فكتاب المسيحيين المقدس كان حكراً على رجال الدين فقط أما المسيحي العادي فكان يجهله جهلاً تاماً ، فرجل الدين فقط هو الذي يقرأ ويفهم لغة الوحي . ومنذ عام ٨٠٠ م يعظ الواعظ المسيحي في لغة لاتينية لا يفهمها الشعب ، لذلك قرر المجمع المقدس الذي انعقد في « تور » أن تكون لغة الواعظ هي لغته القروية الدارجة الساذجة ، ومن هنا نتبين أنه حتى بين رجال الدين لم تتطلب الكنيسة الثقافة الدينية العميقة وكانت تكتفي من رجال الدين بهذه الثقافة اللاتينية الضحلة والتي بعثتها النهضة العلمية الكارولينية . أما الشعب المسيحي وقتذاك فلم يكن في حاجة إلى دراسة اللاتينية . وذلك لأن تثقيف الشعب لم يكن من الأمور المرغوب فيها في ذلك العصر .

أما في العالم الإسلامي فقد كان الحال غير الحال فكان من مصلحة الدولة العربية نشر الثقافة والمعرفة بين رعاياها ، فالأطفال من جميع الطبقات كانوا يقصدون المدارس الأولية نظير نفقات ضئيلة جداً ، وعندما شرعت الدولة في تعيين المدرسين منحت المجانية الكاملة لغير القادرين ، هذا وفي جهات أخرى كان التعليم مجانياً لسائر الطبقات حتى في إسبانيا . ففي قرطبة كانت توجد ثمانون مدرسة عامة ، وفي عام ٩٦٥ م أسس الحكم الثاني سبعة وعشرين مدرسة أخرى لأولاد الفقراء ، وفي القاهرة أسس المنصور قلاوون مدرسة متصلة بالمستشفى المنصوري خاصة بالأيتام كما قرر لكل طفل يومياً رطل خبز وجلباًباً للشتاء وثانياً للصيف . وكان كذلك للبدو مدرسون متنقلون . إن ثغرة واحدة لم توجد في العالم الإسلامي وكان يجب سدها . فضلاً عن أن التعليم عند العرب لم يبق في حدوده الأولية الضيقة وذلك لأسباب سياسية فالخصومة بين المعارضة وأحزاب الحكومة ومنافسة كل في كسب جموع

الشعب إلى صفوفه أدت إلى العمل على رفع مستوى الشعب علمياً بغض النظر عن اختلاف الطبقات ، وقد دفعت هذه الفكرة إلى التنفيذ في القرن العاشر الميلادي الأحزاب اليسارية لكي تتمكن من القيام بحركة دعاية واسعة ضد المحافظين الذين اهتمت برامجهم السياسية بالمطالبة بتعميم تعليم مختلف الطبقات ، وأسسوا المدارس العالية وجعلوا التعليم فيها مجانياً . فلم يسع الحكومة إلا أن سارعت وافتتحت مدارس أخرى لتقاوم دعاية خصومها . وهكذا انتشرت المدارس العالية في مختلف المدن الإسلامية وكان الطلاب يقطنون في المدارس ويتناولون شهرياً مرتبات لسد حاجاتهم ونفقاتهم الخاصة . وكانت الطوابق الأرضية في المدارس معدة للمطابخ وإعداد الطعام وتناوله ، كما أنشئت بهذه الطوابق أيضاً الحمامات ، أما حجر الدرس فكانت في الطابق الأول ، وكانت تحيط بالغرف الدهاليز والمكتبة وكلها تقع حول النافورة الموجودة في الردهة الداخلية . وهنا كان يتعلم الشبان العرب الطموحون ، القرآن الكريم . والحديث الشريف والنحو والصرف ، وفقه اللغة والفصاحة والبلاغة والآداب ، والتاريخ . وعلم الشعوب ، والجغرافية والمنطق ، والرياضيات ، وعلم الفلك . فكان المنهج الدراسي منهجاً غنياً ، كما كانت طريقة التدريس تعتمد على المناقشات التي كانت تثار بين الطلاب وأساتذتهم . وإلى جانب ذلك كان هناك مساعدون من الخريجين أو المتقدمين لمعاونة الطلاب على فهم المشاكل وتحصيل المواد ، فكان طنين المذاكرة والتحصيل كطنين النحل إذ كان الطلاب يجنون شهد المعرفة من ألف زهرة من أزهار الحكمة .

ومن هؤلاء الطلاب كانت تتكون طبقة القادة سواء في الدين أو السياسة . ويذكر أن أحد الأساتذة عاد يوماً من جولة من جولاته الاستطلاعية فذكر أنه لم يتوجه إلى مدينة أو مكان ما إلا وجد تلميذاً من تلاميذه قد تقلد منصباً هاماً .

وكان بعض الفلاحين يسلمون أولادهم إلى مدرسين خصوصيين لتعليمهم مقابل مكافأة تدفع نقداً أو حبوباً ، ويتولى المدرس تدريس الطلاب في بيته الخاص على أن يثقفهم الثقافة التي تؤهلهم لتقلد وظائف خاصة في الدولة ، كأن يصير الطالب قاضياً أو موظفاً من موظفي القصر . ولا تقتصر مهمة المدرس الخاص على تلقين الطالب العلوم نظرياً ، بل كان يتولى أيضاً تدريبه عملياً كأن يرافقه في

الأسواق ويشاركه في شراء الأشياء أو زيارة الحمامات أو دخول المسجد . كذلك قد نقرأ أحياناً كيف أن أستاذاً يشكر تلميذه الذي عني به أثناء مرضه ، فباع الطالب حماره الوحيد ليشتري بثمانه دواء لأستاذه ، أو كيف أنه كان يحمل أستاذه المريض على كتفه إلى الحمام الساخن . وجرت عادة بعض الآباء أنهم كانوا يحضرون مربين خصوصيين لتربية أبنائهم في منازلهم . وإن طفلاً نابغاً مثل ابن سينا الذي حفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات ، كما حفظ كثيراً من الكتب اللغوية عن ظهر قلب قد تخطى حدود المدرسة وضافت هي به . فقد بدأ حياته الدراسية بالشرعية وكان ذلك على يد مدرس خاص كما تعلم الحساب على يد تاجر فحم ، ثم نجد والده يستدعي أبا عبد الله النشبي إلى منزله وكان يدعى معرفة الفلسفة وأخذ يدرس الطفل النابه إيساجوجي فورفور يوس . لكن سرعان ما فاق الطالب المدرس وأجاب عن الأسئلة أحسن منه ثم شرع يدرس المنطق فأدرك ابن سينا أن أستاذه لا يفقه شيئاً من هذا ، فشرع ابن سينا يدرس المنطق بمفرده مستعيناً بتفسير خاص كما استعان بالمدرس لفهم أو تقليد ، فقرأ عليه خمس أو ست صفحات وواصل هو بمفرده دراسة الباقي . ثم أقبل على الماجسطي ، وما كاد ينتهي من المقدمة حتى أقبل على الهندسة ، وقال النشبي : في استطاعتك أن تقرأ هذا الكتاب مستقلاً ومن ثم تشرحه لي لأصحح لك أخطاءك . ولم يدم هذا الحال طويلاً إذ غادر النشبي بخارى فأقبل ابن سينا باشتياق على دراسة الطبيعة وما بعد الطبيعة كما شرع في دراسة الطب على عيسى بن يحيى المصححي فقرأ أصعب الكتب ثم قال فيما بعد إن الطب ليس صعباً ، وقد ألم به في زمن قصير ، إذ كان عمره وقتذاك ست عشرة سنة . وصرف نحو عام ونصف عام في التوسع في دراسات علمية أخرى وبخاصة المنطق والفروع الأخرى للفلسفة ومراجعتها . وفي ذلك الوقت شفى ابن سينا السلطان الذي اختاره عملاً بنصيحة أطبائه المسنين . وقد استكمل دراساته في مكتبة القصر وفي المستشفيات ؛ ولما بلغ الثامنة عشرة كان قد أتم دراسته . وكأني بالفوز العظيم والتوفيق الكبير في تحصيل العلوم من خصائص هذا العبقري .

أما الطريق العادي لكل طالب فهو التوجه إلى المسجد ، إذ أن المساجد ليست دور عبادة فقط بل دور علم وتعليم أيضاً ، والعلم كما يقول الرسول فوق العبادة العمياء .

ألم يقل النبي هذا الحديث « مداد أقلام العلماء خير من دماء الشهداء » ! ولا شك في أن روما تدخل صاحب مثل هذا القول في زمرة الزنادقة .

ففي المساجد يجلس إلى جوار الأعمدة الدقيقة الجميلة الأساتذة وحلقة الدرس من الطلاب . وهم يلقون محاضراتهم والأبواب مفتوحة والحضور مباح للجميع ، لكل رجل وكل امرأة ، ولكل فرد الحق في توجيه الأسئلة إلى الأستاذ وهذا مما يضطره إلى الدقة في التحضير والاستعداد للمحاضرة ، ولكل فرد الحق في أن يحاضر إذا ما شعر بأنه متمكن في مادته لكن أسئلة الطلاب تحول دون وصول الأدعياء إلى مكان الأستاذية .

ففي صحن المساجد كان للطالب الحق في أن يستمع إلى من يشاء من الأساتذة ولا سيما المشهورين منهم والذين يفدون من مختلف أرجاء العالم العربي . فالعلماء الذين هم في طريقهم إلى الحج ينتهزون فرصة مرورهم بمركز شهير من مراكز البحث والدرس فيلقون دروسهم ، فنجد هؤلاء ومنهم المؤرخ والجغرافي والنباتي والمحدث والأديب وهم من بين أبناء البلاد العربية الممتدة من المحيط الأطلسي إلى بحر الخزر ، فكان هؤلاء العلماء يقصدون أساتذة دمشق أو بغداد وقد يكونون هم أيضاً من أساتذة الأزهر في القاهرة أو القيروان أو فاس أو الزيتونة في تونس ، فهؤلاء الحجاج كانوا ينقلون في الوقت نفسه نقل الصحافة فهم ينقلون ما يجري في طليطلة أو الري وهكذا من البصرة حتى فاس وقرطبة .

وما أسهل السرقات الأدبية والعلمية في مثل هذه الرحلات وتلك الأسفار إذ تنتقل الآراء العلمية الجديدة والنظرية الخطيرة من فم إلى فم ، ويذكر يحيى بن عيسى في شيء من البساطة أنه سمع عن أبي بكر البغدادي كيف أن الشيخ سعيد ابن ياقوت أعلن هذا الرأي في مجلس عام .

إن العربي لن يلوك لسانه أفكار الآخرين ، فكل من يريد استخدام كتاب لمؤلف آخر في الدرس . عليه أن يحصل قبل كل شيء على موافقة كتابية من المؤلف ، فليس من المسموح به أن أحداً يستشهد في محاضراته ولو شفويًا بأقوال أستاذه دون أن يكون قد حصل على تصريح مكتوب ، كما لا يجوز لأحد أن يستشهد أو ينشد أشعار شاعر دون رضا الشاعر عن هذا ، كما هو الحال في

الجاهلية حيث كان للراوى الحق فقط فى رواية ونشر شعر شاعره . هكذا كان احترام حقوق المؤلفين أو الشعراء أو آراء الآخرين . فلكل مؤلف حق حماية مؤلفاته طيلة حياته ، وبعد وفاته ينتقل هذا الحق إلى ورثته . كما أن له الحق فى أن يوصى بأن يرثه أبناؤه أو أحد تلاميذه .

فيروى عن أستاذ أنه كان سخيًّا فى منح الإجازات الدراسية لتلاميذه حتى قال فيه تلاميذه : إنه يغطى الأرض بالشهادات خاصًّا بما يسمع وإجازات للتدريس كذلك .

والتصريح بنشر ما يقرأ أو يسمع يعتبر دليلا على كفاية الطالب ، والذي يحصل على الإجازة يحصل فى نفس الوقت على حق التدريس علانية أى إجازة التدريس « ليستيا دوكندى licentia docendi » ، وهكذا نجد حق التأليف أو الاختراع العربى الذى كان يلزم إنشاء المدارس العليا العربية ينتقل إلى الجامعات الأوربية ، وهذا هو أصل الدرجة العلمية الجامعية المعروفة باسم « ليستياتين Lizentiaten » والى ما زلنا نجد لها حتى اليوم فى الدرجة اللاهوتية ليسانس اللاهوت (lic.theol) وربما أيضاً « البكالوريا Baccalaureat » ، وهى تقابل فى العربية « الحق فى تفويض آخر بالتدريس » أعنى « بحق الرواية » .

وما لا شك فيه أن الجامعات العربية التى أُنعت وازدهرت منذ القرن التاسع الميلادى ، ومنذ عصر « جربرت » تغرى وتجذب بعض المتعطشين الأوربيين إلى العلوم والمعارف ، فكانوا يتسللون سرًّا عبر جبال البرنات ، ولا غرابة فى هذا فالجامعات العربية كانت قد بلغت مرتبة رفيعة جداً ، وما كانت هناك فى مختلف أنحاء العالم جامعة تنافسها . لذلك نظر إليها الأوربيون على أنها الصورة المثالية للجامعات عامة وبخاصة الأوربية ، فلا غرابة إذا رأينا الأوربيين يقلدوننا فيقتبسون عن الجامعة العربية الإجازات العلمية ونظام الكليات وطرق التدريس . جميع هذه الهبات وهبها العرب للأوربيين .

لم يقدم العرب لأوربا البناء فقط بل محتوياته أيضاً أعنى العلوم والمعارف . فقد أهدوا لأوربا مواد هذه الدراسة اليونانية ، فالعرب قد اعترفوا بأهميتها وضرورة تدريسها لذلك أعطى العرب أوربا العلوم اليونانية والفلسفة اليونانية .

فهذا المدح القيم الذى يتجاهل ويتعامى عن الإنتاج العربى العلمى ، هذا الإنتاج العربى الذى هو الدعامة التى تقوم عليها المعرفة الأوربية والذى يتفوه به الأوربيون جريمة وإثم لا تجاه العرب فقط بل تجاه الحقيقة ذاتها .

وسيطاً كان أيضاً اليونانيون والهنود فالعالم اليونانى ، «تاليس Thales» وكذلك « فيثاغورس Pythagoras » يدينان بالفضل فى معرفتهما الرياضىة وما حصلاه لمصر ، وفى الفلك لبابل . فهذان العالمان اليونانيان أخذوا عن مصر وبابل هذه الأصول وتلك القواعد فاليونان ورثة ، فقد ورثوا الشرق القديم ، واليونان هم الوسطاء الذين نقلوا عن الشرق القديم علومه . ومن ثم قدموها إلى الشعوب الأخرى . كما هو الحال مع العرب فهم وسطاء اليونان والشرق القديم ومن شعوبه انحدروا ، وأوروبا هى وريثة العرب والعالم القديم .

وكل عصر يكيف العلم القائم ويشكله كما يريد أبناء العصر ، فإن كان هؤلاء من الرجال الأفذاذ تناولوا هذا العلم وأبدعوا فيه فنحن نجد «تاليس» يدرك فى القواعد الهندسية المصرية الأصول العلمية العامة ، وهكذا نجد العقلية اليونانية تتجلى فى المادة التى كانت خاصة وتجعلها شيئاً عاماً وتخرج من حقل التجارب الواقعية إلى العملية المجردة ، وهذه خاصية امتازت بها العقلية اليونانية . والواقع أن كل ثقافة سواء المصرية القديمة أو البابلية تكون وحدة مستقلة مثلها مثل الثقافة العربية ، أو الأوربية حيث نميز فى شىء من الوضوح بين حالتى الثقافتين . ومن الخطأ أن يستخدم شخص ما ، إذا ما أراد دراسة ثقافة بعينها ، نفس المقاييس لكل الثقافات التى يعرض لها .

كان العنصر الهام فى العقلية اليونانية يهتم بإثبات جوهر الشىء ، حتى إذا ما تعب من السير فى طريق التجارب واحتقر العمل اليدوى فى الحقل مثلاً واعتبر أن مثل هذا العمل هو من شأن العبيد لا الأحرار ، فإن هذا اليونانى يطير إلى جبل أوليمب باحثاً عن القوانين العامة والأفكار التى مكنته من بلوغ منتهاه وإدراك الخلود ، لكن تنقصه القدرة على المقابلة عن طريق الملاحظة فالتجربة الواقعية . بدهى أن يونانيين لاحظوا وجربوا وقابلوا بين ما قاموا به هنا وهناك من تجارب ، بدهى أن أرسطو أجهد نفسه فى سبيل دراسة الفرد ، لكن هيكल العلوم اليونانية لم

يتغير بسبب مسلك أرسطو فالطب اليونانى والطبيعة اليونانية والكيمياء والحيوان والنبات ظلت بل بقيت فلسفة ، وبذلك فهي يونانية . لكن العقلية الهلينية اشتقت طريقاً آخر بخلاف الأوربيين ، كما سلكت كذلك طريقاً يخالف طريق العرب .

من الخطأ أيضاً ، كما حدث حتى اليوم ، أن نقابل بين العرب واليونان ، وأن نتهم العرب بنقص فى فهم العالم وتفسيره تفسيراً فلسفياً . كذلك ليس من العدل أن نصف العلوم العربية بأنها تقليد أعمى للعلوم الهلينية ، وأن العربية عبارة عن أخذ ورد للعلوم اليونانية أو الهندية ، كما أن إنتاج أمثال «تاليس» و « فيثاغورس» هو نقل عن المصريين والبابليين . إن العرب عندما أخذوا من اليونانيين أخذوا عن اليونانيين أنفسهم التجريبية وتوسعوا فيما أخذوا عن اليونانيين . نعم إن العرب هم مخترعو العلوم التطبيقية والوسائل التجريبية بكل ما تدل عليه هذه العبارة .

والعرب هم المخترعون الحقيقيون للأبحاث التجريبية .

ومما هو جدير بالذكر أن العلماء الهلنيين وجلهم ليسوا من أصل يونانى بل من أصل شرقى امتازوا بالاستعداد للملاحظة ومختلف الوسائل التجريبية ولو اضطر هذا العالم الهلنى إلى إخضاع العمل للنظرى أحياناً . فكل بحث عند العرب يجب أن يبدأ ويعتمد على حقائق مستقلة . والعرب هم أول من نادى بهذا ، ومن ثم تطور البحث ، فبعد أن كان يعنى بالحقائق الجزئية أصبح يهتم بالكليات التى تقوم على الحقائق الثابتة . وعن طريق المثابرة فى البحث والمقاييس استطاع العرب حصر الحقائق والإحاطة بها ، وبعد تجارب مضمينة كثيرة أجريت على النظريات قرر العرب قبولها والاعتراف بصحتها أو رفضها . هذا إلى جانب حرية البحث والتفكير . وقد سبق العرب الأوربيين فى هذا النوع من الأبحاث الحرة بنحو ثمانية قرون وشعارهم « الشك أول شروط المعرفة » .

واعتماداً على هذا رأى ظهر العلماء الطبائعيون العرب . وكانوا أول من فتح الطريق فى العالم فصار فى طريقهم الأوربيون وظهر أمثال « روجير بيكون » و « ألبرتوس مجنوس » و « فيتيليو » و « ليوناردودا فنشى » و « جليلى » .

وهناك حقيقة يجب أن نقرها مرة ومرات ، وهي أن العرب لم ينقذوا الثروة

العقلية اليونانية فقط ، ولولا هم لضاعت وقبرت ، بل العرب هم الذين نظموا فبوبوها ورتبوها ، ومن ثم قدموها لأوربا في ثوب علمي قشيب . العرب هم مؤسسو الكيمياء التجريبية وكذلك الطبيعة العملية والجبر والحساب بمعناه الحديث ، وحساب المثلثات الكروى ، وعلم طبقات الأرض ، والاجتماع وغير ذلك من الاختراعات الكثيرة الأخرى في مختلف العلوم والمعرفة ، وغالباً ما سطا عليها اللصوص ونسبوها إلى أنفسهم . فالعرب هم الذين قدموا للعالم أغلى وأثمن هدية ، فهم أصحاب البحوث المنتظمة في الطبيعيات ، هذه البحوث التي كانت العامل القوي في بعث العلوم الطبيعية في أوربا .

ولعل أول وأعظم أوربي تأثر بالعقل العربي والعلوم العربية ولم ينحس التعاون مع العرب هو القيصر العظيم ، القيصر الأشتوفي الصقلي فريدريش الثاني .

الكتاب السادس

موحد الشرق والغرب

فرح وسرور للسيد الذي أتم عمله
بالمعجزة أكثر من الشجاعة، وأن أحداً
من جبابرة العالم لم يستطع إنجازه منذ
عصور القدس ١٢٢٨ .
تصريح فريدرش الثاني

دولة النورمان دولة بين عالمين

أضاف القيصر الأشتوني هينريش السادس بعض القطع الثمينة عند عودته من
إيطاليا إلى المجموعة النادرة التي هي ملك للدولة المقدسة . وهذه القطع القيمة عبارة
عن المعاطف التي توج فيها كثيرون من قياصرة أوروبا وملوكها . ومن بينهم ابنه
الأكبر فريدرش الثاني حيث توجوا جميعهم في روما . وأثنى وأجمل هذه التحف
النادرة الموجودة في الدولة الرومانية المقدسة كان ولا شك معطف القيصر .

فعلى القماش الأحمر الأزرق توجد نخلة تحمل ثماراً تبرق كالذهب ، وعلى
كل طرف من طرفي ناحيتي المعطف رسم أسد قوي يبطش بجمل . أما ميدان
القتال فهو من لونين : الأحمر والذهبي يحيط به زنار أسمر قائم وصفان من اللؤلؤ
يبرزان الزخرفة ، والحافة عبارة عن شريط عليه كتابة جاء فيها اسم الشخص الذي
زخرفها بالذهب ووطنه وزمن إنجاز العمل « صنع في المصنع الملكي ، وفيه السعادة
والحظ والشرف والتمام . . » هكذا نص شعار المصنع « في مدينة صقلية عام
٥٣٨ هـ » .

فهل يرجع هذا المعطف إلى أيام « تيوديريش » ؟ كلا . فالكتابة التي على

حافة معطف القيصر الألماني مكتوبة بحروف عربية ، وقد اعتاد الطراز العربي استخدام الشهور القمرية والسنة الهجرية ، كما كانت النقود التي تضرب في صقلية تحمل التقويم العربي الهجري . فلمن صنع هذا المعطف الأزرق الثمين جداً وعليه الأسد والجمل حيوانا الصحراء ؟ .

إن العام الهجري ٥٢٨ يقابل الميلادى ١١٣٣ ، فى عاصمة صقلية : بالرمو ، هذه المدينة العظيمة التى أصبحت وكأنها مدينة القصص والخيال ، عاصمة لملك اشتهر بإعجابه بعظمة الشرق وأبهته . وهذا هو « روجير » الثانى ، وهو ابن فاتح الجزيرة وقاهرها الأمير النورمانى « روجير » الأول الذى انتزع هذه الجزيرة من العرب بعد أن حكموها زهاء ثلاثة قرون ، ثم نجد أرملة الأميرة « أديلاسيا Adelasia » هذه السيدة الذكية التى جعلت من بالرمو العاصمة العربية عاصمة للدولة النورمانية ، وبذلك وضعت مركز ثقل الدولة الفتية بعيداً عن المركز الشمالى الواقع حول مسينا ، وهو يونانى بيزنطى ، بينما بالرمو تقع فى المركز العربى والبيئة العربية ، وبذلك مكنها « أديلاسيا » من التوسع والازدهار . وبعد أن تمكن ابنها من ضم جنوب إيطاليا إلى مملكته استطاع مطالبة سيد روما بالتاج .

ولهذا الملك روجير الثانى ملك الصقليتين صنع أحد أفراد رعيته وهو عبد الله الطراز العربى الرمز العظيم للقوة الملكية : الأسدان اللذان يركان على الجمل فى التراب « رنك » البيت المالك النورمانى . وإذا سأله سائل ما الدليل على هذا الطغيان ، حار جواباً . . .

فقبل قرنين كان أجداده من جهة القيروان فى تونس العاصمة القديمة منذ أيام سيدى عقبة فاتح شمال إفريقيا قد أقبلوا إلى صقلية فأدخلوا فيها النواير التى جعلت من أرضها الجرداء حدائق غناء ، فقد جاءوا ومعهم من وطنهم الأول النخيل والسنى ، كما غرسوا البرتقال والفسق وشجيرات المر إلى البنان (الموز) والزعفران . لقد أغنى العرب تلك الأراضى الفقيرة بحقول القطن وقصب السكر كما توجهوا البلاد بتاج من القلاع الحصينة والقصور الشامخة والمساجد التى تعتبر آية فى الفن والجمال . فابن حوقل الجغرافى يخصى بها حوالى عام ٩٧٠ م نحو ثلثمائة مسجد فى بالرمو فقط ، هذا إلى جانب القصور التى كانت موضوع شعر الشعراء والمغنين .

كما كان بها الفلاسفة والأطباء والطبائعيون والرياضيون يتعاونون جميعهم في نشر العلم والثقافة ورفع مستوى الشعب . هنا ألف المؤلفون كتبهم ودونوها على ورق أبيض ناعم ، وهذا هو أول ورق جاء إلى أوروبا قبل أن تعرفه من قبل عن طريق إسبانيا بزمان بعيد . هنا قال الشعراء شعرهم في عروض لم يعرفه اليونان أو الرومان أو الجرمان . وهذا العروض الشعرى غزا شعر سائر الشعوب الراقية .

وهكذا نجد جزيرة صقلية تصبح للعرب وطناً . ولما انقضى عليهم الأسد النورمانى اعتقد كثيرون « أن نير العبودية المسيحية » لن يرضى به العرب وأن حنينهم إلى وطنهم الأول سيقتلهم . لقد حن العرب إلى ذلك الوطن البعيد حيث تشرق الشمس وترسل أشعتها دفئاً وحيوية وقوة وعطراً للإنسان والحيوان والنبات بما فيها العطرية وتلف أنواع البخور التى كانت تعطر أرجاء الجو فيتنفس الإنسان الهواء العليل الذى يطارد الهموم والأحزان .

وقد ألم العهد الجديد الذى حل بالجزيرة كثيرين من الشعراء أمثال عبد الجبار ابن أبى بكر بن محمد بن حمديس الصقلى السرقوسى ، فقد هاله ما جلب العهد الجديد على الجزيرة فرحل إلى أشبيلية ومن شعره فى ذلك :

ديار تمشت إليها الخطوب كما تمشى الذئاب الضراء

وقد جاء فى هذه القصيدة التى مطلعها :

نفى هم شيبى سرور الشباب لقد أظلم الشيب لما أضاء

ويستطرد ابن حمديس فى قصيدته ويقول :

وراءك يا بحر لى جنة لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحاً تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقاً إلى أن أعانق فيها ذكاء

ولا تقف شكوى ابن حمديس ولا حنينه عند هذه الأبيات فديوانه يفيض بالحسرة والألم والحنين ، لكن بالرغم من ذلك يرغب فى العودة إلى الوطن الذى يحتله الأجانب .

إن جروح ودموع أولئك الذين بقوا في الجزيرة قد نضبت وبخاصة بعد أن أصبح المنتصرون عبيداً للمغلوبين وتعلموا عليهم وأقبلوا على تحصيل الثقافة والعلوم على أيديهم .

حقاً إن النورمانيين قد وجدوا أنفسهم في بيئة دينية جديدة ما كانت تجول بخاطرهم فكانوا أنى أداروا وجوههم لا يشاهدون إلا الجمال والأبهة وحياة أخرى أرفع وأرق من تلك التى كانوا يحيونها ، إنها حياة لا عهد لهم بها من قبل ، هذا إلى جانب فن معمارى أقرب إلى القصص منه إلى أى شىء آخر ، هذا إلى لغة وشعر بلغا منزلة فنية عليا إلى جانب علم رفيع ، لذلك لا عجب إذا وجدنا النورمانيين يؤخذون بهذه البيئة الجديدة ويقعون أسراها عن طيب خاطر .

ولماذا لا تؤثر البيئة الإسلامية في غير المسلمين ، مهما اختلفت عقائدهم وأجناسهم متى سنحت فرص الاتصال بهم ؟ ألم يحدث أن الفرسان المسيحيين ، لما كانوا في البلاد المقدسة وبخاصة ملكهم « بلدوين » الأول ، رفضوا الانصياع للعقلية الصليبية ولم تحل إنذارات البابا دون اقتباس عادات وتقاليد المسلمين أعدائهم في العقيدة ، وبلغت درجة تأثير أولئك الفرسان المسيحيين وعلى رأسهم بلدوين بالمسلمين والإسلام أنهم حرموا على أنفسهم أكل لحم الخنزير كما التزموا أكل الطعام العربى ومراعاة كل ما هو عربى حتى العملة العربية والمحلة بالآيات القرآنية الكريمة . لقد جاء الصليبيون « لمقاتلة أعداء الله » فحدث أنهم قلدوا المسلمين في كل شىء حتى إن المراسلين الذين كانوا في القدس والذين كان يسرهم أن ينشروا عنهم أنهم يحاربون في سبيل الله ، قال أولئك المراسلون : « نحن الذين كنا أوريين أصبحنا الآن شرقيين » .

أما حكام صقلية الجدد فقد كانوا أسبق من غيرهم إلى اقتباس العادات والتقاليد والثقافة الإسلامية رغماً من الاتفاقية المبرمة بينهم وبين البابا . وقد أسرف هؤلاء الحكام وغيرهم من سكان صقلية المسيحيين في التحلل من التقاليد المسيحية حتى الطقوس الكنسية وشعروا بالسعادة عندما ساروا في طريق الأمراء العرب . لقد أقام أولئك الحكام المسيحيون في هذه القلاع العربية ، فقصورهم تحيط بها الحدائق الغناء حيث تندفق فيها الينابيع الصناعية ، كما زخرفوا هذه القصور بالزخارف

العربية والمياه المتحجرة في أعلى الكهوف والأقواس المدبية ، ولم يترددوا في تسميتها بأسماء عربية وأن يدشنوها باسم الله الرحمن الرحيم :

بسم الله الرحمن الرحيم

قف ساكناً وتأمل

عملاً عظيماً شامخاً

إنه ملك خير ملوك الأرض فلهلم الثاني .

إن الزاهد هو الذى ينصرف عن الثوب الحريرى المبهف إلى اللباس الصوفى الحشن الذى يؤلم الجسد بما يحدثه من حكة . وهذا الزاهد لن يقره أو يجاريه الأمراء والأميرات من البيت النورمانى فضلاً عن رغبة النورمانيين الملحة فى الاندماج فى هذه الحياة الناعمة الراقية التى تفيض على الحياة متعة ولذة وسعادة .

وهكذا أصبحنا ندرك أنه ليس من البدهى أن يخوض أولئك الأوربيون غمار حرب ضد أعداء عقيدتهم . ليس من البدهى أن يضحي الصليبيون بأرواحهم فى القدس ودمياط . إن مثل هذه الحرب لا يمكن الاقتناع بوجوبها . وهكذا نجد للمرة الأولى فى تاريخ العالم المسيحى النورمانيين يقابلون التسامح العربى بتسامح آخر وفتوة سمحاء . وهذه الصفات رفعت من قدر النورمانيين وميزتهم على سائر الفاتحين المسيحيين ، كما أن هذه الأخلاق وتلك المعاملة هى التى جعلت من دولتهم دولة ممتازة . كما أنه لم تزدهر فى أوربا دولة أخرى ازدهار الدولة النورمانية .

فهل الأسباب التى دفعت النورمانيين إلى عدم تخريب وتدمير وتقتيل هؤلاء الوثنيين (!!) الذين خضعوا هى أسباب سياسية ؟ أو هل اضطرت الظروف النورمانيين إلى معاملة العرب الذين كانوا يفوقونهم عدداً هذه المعاملة المعتدلة ، والنورمان لم يعرفوا ولم يشاهدوا الفتوحات العربية والرعب الذى أدخلوه فى قلوب الأوربيين ؟ أو أن أسباب هذه المعاملة الحسنة للعرب سببها الفروسية التى اكتسبوها عن طريق الفتوة العربية التى اتخذها النورمانيون شعاراً لهم ومثالاً يحتذى ، هذه الفتوة التى قابلوها بكل احترام وتقدير ؟

وكذلك الجرمان سرت فيهم الرغبة الملحة فى معاملة الآخرين معاملة حسنة ، ولتحقيق هذه الرغبة يجب أن يتحلوا بالشرف وكرم الأخلاق فأقبلوا

على العرب وعاملوهم معاملة الند ونظروا إليهم على أنهم خصوم شرفاء، وقد ظلت هذه المعاملة الحسنة مجهولة لدى سائر الشعوب المسيحية الأوربية أو الصليبيين أو متطرفي الأسباب الذين استردوا بلادهم ثانية واعتبروا فيما بعد مثل هذه المعاملة على أنها من الغرائب. وإن الإنسان ليذكر عبارات عمرو بن العاص قبل الاستيلاء على الإسكندرية ومسلكه عندما يقرأ ما قاله وصنعه الأمير « روبرت جويسكارد » عند أبواب بالرمو حيث أباح للمسلمين المحاصرين حرية العبادة وتأمين حياتهم وممتلكاتهم ، وقد وفى بوعده حتى بعد الاستسلام . ويعجب الإنسان أيضاً من الجرأة التي اتصف بها أخو « روبرت جويسكارد » ألا وهو الأمير « روجير » الذي بلغت ثقته بالعرب حداً جعله يكل إليهم حكم البلاد وإدارتها ، وقد أعاد التاريخ نفسه بعد قرن من الزمان فحيث كنا نجد العرب المنتصرين يؤمنون خصومهم المهزومين ، والذين لا يدينون بدينهم على أموالهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم ، كذلك صنع روجر الأول فقد أمن المسلمين من رعاياه على أراضيهم وأرواحهم وممتلكاتهم وعقائدهم ، ولو أن فارقاً وقع بين العصرين . أعنى عصر انتصارات العرب وعصر انتصارات النورمان ، وهذا الفارق هو أن المهزومين الآن لا يحاولون تقليد المنتصرين في حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، بل العكس هو الصحيح ، فالآن نجد المنتصرين المسيحيين هم الذين يقلدون المسلمين ويحاولون الاندماج فيهم واثلافهم ، إن المسيحيين هنا يقلدون المسلمين فالمسلمون انتصروا أو انهزموا هم المثل الأعلى الذي يحتذى .

وإنه لمن أثر التعاليم الإسلامية هذا الذي يتفق وعقلية الملك الجرمانى الملحد « ثيودوريش » ، فقد كان يؤمن بالمذهب الإسلامى القائل : « لا إكراه في الدين » فحرم الجراف الألمانى استخدام القوة لإجبار المسلمين من رعاياه على تغيير عقائدهم ، لذلك نجد الأسقف الإنجليزى « أنسلم » يذكر أنه لما دخل الخيام العربية المقامة أمام أسوار « كبوا » غضب الأمير النورمانى غضباً شديداً ، لما شعر أن هذا الأسقف الإنجليزى أخذ يبشر بالمسيحية بين جنوده المسلمين . وقد كتب مؤرخ الأسقف الإنجليزى يقول : « لماذا لم يرغب ورفض الجراف روجير أمير صقلية أن مسلماً واحداً من مسلمى صقلية يعتنق المسيحية ، هذا ما لا أريد الاهتمام به وسيعاقبه الله » .

لكن « عبد الله » مزخرف ملابس وأقمشة الملك روجير الثانى علم منذ زمن بعيد أن ضغط الأسد النورمانى ليس ثقيلًا على مواطنيه وأبناء ملته فقد كانوا يتلقون علومهم فى مدارسهم العربية ، ومساجدهم وحماماتهم وأسواقهم كانت قائمة يقصدها المسلمون لإقامة شعائرهم وقضاء مصالحهم ، كما منحهم الملك ثقته فاختر من بينهم أحسنهم دربة على الأعمال الإدارية لإدارة بلاده ، كما شكل من بينهم فرقة عسكرية دائمة عاملة للضرب على أيدي المتمردين من أمراء « أبوليا » ، كما أن الملك كان فى حاجة ماسة إلى المسلمين لتنظيم وتدعيم وتثبيت دولته الفتية ، وما كان فى استطاعته النهوض بهذا العبء دون مساعدة العربى الذى كان الباب مفتوحاً أمامه لبلوغ أعلى مراتب الدولة سواء فى الوظائف المدنية أو العسكرية أو فى الحاشية ، كما ذكر مؤرخ عربى أن ملك النورمانيين قد تخلق بعادات وخلق ملوك المسلمين ، فأوجد فى حاشيته وظائف جديدة . وبذلك أخذ يتخلص تدريجياً من عادات الإفرنج وتقاليدهم وبخاصة أنهم لم تكن لديهم مثل هذه الوظائف التى خلقها كوظيفة أمير البحر مثلاً .

وتعين أمير للبحر كان أمراً ضرورياً إذ بعد الاستيلاء على الجزيرة أصبحت الحاجة ماسة إلى إنشاء أسطول دائم للدفاع عنها كما كان حالها عندما كانت تحت سيطرة العرب ، ولما كانت بالرمو هى عاصمة هذه الجزيرة ، فقد أخذت تحتل مكاناً رفيعاً هاماً . كما أصبحت هى مركز القوة البحرية الرئيسية ، وأصبح أمير بالرمو هو أمير الأسطول « أمير الرحل » أعنى أمير البحر (أدميرال) .

وفى أيام حكم روجير الثانى كانت وظيفة أمير البحر هى أعلى وظيفة فى الدولة كما أن شاغلها كان موضع ثقة الملك ، وأول من تقلد وظيفة الأدميرالية ، هذه الوظيفة التى هى أصلاً وظيفة عربية ، لم يكن أحد رجال البحر الأقدمين الذين خدموا فى الأسطول النورمانى بل إن أول أمير بحر للأسطول المسيحى كان عربياً ، وهو عبد الرحمن النصرانى ، واسمه اليونانى « الكاثوليكي » هو « كريسودولوس » . وكان حتى أيام روجير قائد القوات البحرية والبرية . لكن روجير الثانى رفع من شأن هذا الرجل الثقة وعينه أيضاً قاضى القضاة ، ومن ثم وصل إلى درجة « كبير الأشراف protonobilissimus » وخلف هذا الأدميرال أمير بحر آخر للدولة الملكية

النورمانية ، والأميرال الثانى هو العربى العبقرى إدارياً واقتصادياً واسمه «جورج» الأنطاكى . وبالرغم من عقيدته المسيحية تقلد رئاسة وزارة الزيريين وكان فى سن مبكرة جداً ، وذلك فى مدينة المهديّة بالقرب من تونس . ثم نجد هذا المغامر يتقدم بعد وفاة سيده إلى القصر الملكى النورمانى عارضاً خدماته هرباً من النية السيئة لسيده الحديد ، وقد وجد روجير فيه الرجل الصالح المطلوب . وبينما كان القصر وسكان المهديّة مشغولين بتأدية صلاة الجمعة فى المسجد الكبير صعد وزير المالية متنكراً فى ثياب بحار ومعه رفقاؤه سرّاً إلى سفينة البريد النورمانية ، هذه السفينة التى تظاهرت كما لو أنها جاءت ومعها رسالة خاصة من بالرمو إلى أمير المهديّة . فهذا التوفيق الذى أحرزه «جورج» الأنطاكى المغامر لازمه وما زال شاباً ، والذى حدث أن أمير البحر « كريستودولوس » وهو أقوى شخصية فى الدولة عين هذا الاقتصادى العبقرى الشاب موظفاً فى مصلحة الضرائب ، إلا أن استعداده السياسى التجارى مكنه من القيام بمهمة إلى سلطان مصر كان قد كلفه بها « روجير » فعينه قبطاناً فى البحرية وتخطى كعاداته الكثيرين الذين كانوا يشغلون مناصب أعلى منه فأصبح رئيساً حتى على أميرى البحر « أويجين » و « يوحنا » أى الوالد والابن وهما أيضاً من العرب ومن بين الأمراء العرب الذين كانوا يعملون سواء فى الأسطول أو الجيش . وقد استطاع جورج الأنطاكى بعد أن صار أميراً للبحر أن يرقى إلى أمير أمراء البحر ، وبفضل عبقريته الإدارية التخطيطية رفع من شأن أسطول صقلية ونشأه تنشئة جديدة على النظام المتبع فى الأسطول العربى ، فأصبح هذا السلاح البحرى سلاحاً قوياً استطاع بعد زمن قصير السيطرة على شمال إفريقيا .

فهذا العربى العظيم الذى قدم لدولة النورمانيين أهم وأعظم خدمة كان مقرباً جداً إلى الملك لا لخدمته فقط بل لأخلاقه ونبله فقد قضى جورج الأنطاكى هذا العربى العظيم نحو أربعين عاماً فى خدمة الملك « روجير » ، وكانت حياته الوظيفية تتسم بالوفاء والإخلاص والتفانى فى العمل ، هذا إلى جانب حسن المعاملة ونبيل الأخلاق مما جعل الملك روجير يحترمه ويقدره تقديرًا عظيمًا لم يحظ به موظف آخر من قبل . فهناك وثيقة ترجع إلى عام ١١٣٢ م يتحدث فيها الملك عن أمير أمراء البحر جورج الأنطاكى وقد جاء فيها ما معناه « أنه الرجل الأول فى دولته » ؛

فهذا الرجل الذى أدى للملك أجل الخدمات ، كان الشخصية التى لا يستغنى الملك عنها والرجل الذين يدين له الملك بالشىء الكثير ، حتى إن أحد أعدائه اعترف له بالعظمة والفضل ، عندما توفى جورج الأنطاكى بعد هذه الوثيقة بنحو عشرين عاماً ، فذكر « لن يستطيع ملك صقلية تعويضه » .

ثم إن صداقة مثل هؤلاء الأفاضل تدفع الحاكم ولا شك لا إلى تقدير صديقه فقط بل لإجلال أبناء جنسه أيضاً ، ولذلك نجد الملك يتصل بالعرب ويتبادل معهم الرأى ويشاورهم فى مختلف أموره وأمور دولته ، ويذهب الملك بعيداً فيرجو العرب أن يعلموه ما يجهل ، فاحتفظ بعدد كبير من شعرائهم وعلمائهم فى قصره وكلف عدداً منهم بترجمة المراجع العربية واليونانية إلى لغته ، وقد شارك فى هذه الترجمة أمير البحر « أويجنوس » ، كما ساهم مع النورمان فى المجادلات التى كانت كثيراً ما تقع بين المسيحيين والمسلمين ، وتعصب الملك للإسلام والمسلمين . والذى حمل الملك على هذا الموقف اعتقاده ، كما يروى ابن الأثير ، أن المسلمين جديرون بالاحترام والتقدير ، لذلك صادقهم وحماهم من الإفرنج ، فأحبوه . وقد أشاد به العرب فى أشعارهم كما شاركوه أحزانه عند وفاة ابنه البكر الذى امتاز بالحسن والنشاط والذكاء ، فرثاه الشعراء العرب ، كما نجد سيدات عربيات من كرائم الأسر يندبنه ويبكيه ، كما ارتدين ثياب الحزن وتركز شعورهن ووقفن أمام القصر يولولون ويندبن ويلطمن الحدود . ولم يقف الأمر عند الحرائر بل حتى الخادومات كن يجرين فى الشوارع نائحات مولولات نادبات قارعات الرق . وعرب أيضاً هم الذين خلدوه بمؤلفاتهم ، وقد ذكروه على أنه الحاكم المثالى الذى عرفتة العصور الوسطى ، وهو مؤسس الدولة والمشرع والسياسى ، كما اهتم بالرياضيات والفلك والجغرافية وعلم الطبيعة والفنون .

ويدين روجير الثانى للعرب الذين مكنوا له فى الأرض وهو أصغر ملوك أوروبا وصيروه أغنى الجميع . فالعرب هم المهرة فى زراعة الأرض وفى النشاط الصناعى ، ونظامهم مثالى فى الاقتصاد والضرائب ، وقد أخذ عنهم كما أخذ عنهم الإدارة والتشريع . وهناك مصدر آخر من مصادر ثرائه الخيالى هو الضرائب التى كان يدفعها العرب المقيمون على شواطئ شمال إفريقيا ، وهم خالقو أسطوله . وأمير أمراء البحر جورج الأنطاكى هو الذى استطاع بمهارته إخضاع شمال إفريقيا لسيادة

صقلية ، ثم تركه روجير تسامحاً منه للحكام العرب . والواقع أن روجير يدين كثيراً لهذا العربي الإفريقي الذي جعله ملك « صقلية وإيطاليا وإفريقيا » .

أليس من الواجب عليه أن يلم بالبلاد التي يحكمها ؟ هذه فكرة تقوم في الشرق فقط ، إذ لا يوجد عالم غير عربي هو الذي يستطيع وضع خريطة تبين هذه البلاد ومواقعها ، وهذه الخريطة يجب أن تكون من النوع الذي قام سبعون جغرافياً بإعداده بأمر من الخليفة المأمون في بغداد . لذلك نجد ملك صقلية وإيطاليا وإفريقيا يقوم بدعوة أشهر جغرافي العرب في عصره ألا وهو الإدريسي ، من « كويتا » ، الذي يكتب :

« فمن بعض معارفه السنية ونزعاته الشريفة العلوية أنه لما اتسعت أعمال مملكته وتزايدت همم أهل دولته وأطاعته البلاد الرومية ودخل أهلها تحت طاعته وسلطانه أحب أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة ويقتلها يقيناً وخبرة ويعلم حدودها ومسالكتها برّاً وبحراً ، ففي أي إقليم هي وما يخصها من البحار والخلجان الكائنة بها ومعرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة التي اتفق عليها المتكلمون وأثبتها في الدفاتر الناقلون والمؤلفون ، وما لكل إقليم منها من قسم بلاد يحتوى عليه ويرجع إليه . . . فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه وأخذ معهم فيه فلم يجد عندهم علماً أكثر مما في الكتب المذكورة ، فلما رأهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجولين فيها فسألهم عنها بواسطة جمعاً وأفراداً فما اتفق فيه قولهم ووضح في جمعه نقلهم أثبتته وأبقاه ، وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه . . . وأن يؤلفوا كتاباً . . . بوصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبقاعها وأما كتبها وصورها وبحارها وجبالها وأنهارها وموانئها ومزروعاتها وغلاتها وأجناس أبنائها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تروج بها . والتجارات التي تجلب إليها وتحمل منها والعجائب التي تذكر عنها وتنسب إليها . . . من ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم وخلقهم ومذاهبهم وزيهم وملابسهم ولغاتهم » .

لقد درس الإدريسي في قرطبة وقام برحلات طويلة بين آسيا والشواطئ الغربية لإنجلترا ثم تحول جنوباً حتى بلغ جنوب إفريقيا وقضى خمسة عشر عاماً في بالرمو بعد أرقامه وخرائطه وملاحظاته العديدة ، وقد شارك الملك المتعطش إلى العلوم والمعرفة

والجغرافيا الإدريسي في ولعه بالعلوم والمعارف وبخاصة أن الملك لم يترك أجنبيًا سواء أكان ضيفاً أم دبلوماسياً أم تاجراً يفد إلى مملكته إلا استجوبه عن وطنه وخصائصه وعقائده ورحلاته وتجاربه . كما أصدر الملك أمراً إلى موظفيه العرب ذوي الخبرة الواسعة في قياس مختلف المدن والأنهار والمرتفعات بإنجاز كل ما يتصل بأعمال المساحة.

وفي أوائل عام ١١٤٥ م كمل هذا المؤلف العلمي العظيم ، وقد خلف لنا بطليموس العرب سبعين خريطة، وقد سلمها قبيل وفاته إلى الذي كلفه وضعها وإنجازها . وهذه الخرائط تمتاز على الخريطة الشهيرة التي وضعها الجغرافي المصري العظيم دقة وحجماً ، هذا فضلاً عن بعض المآخذ الواردة فيها . لكن أحسن وأشهر خريطة وصلتنا هي تلك التي تركها لنا الإدريسي أعني الخريطة الكبرى للعالم وهي محفورة على كرة من الفضة قطرها متران وتزن ثقل رجلين مكتملين ، أما شرحها فعباره عن هذا الكتاب القيم الموسوم باسم « كتاب الرجنى » نسبة إلى الملك « رجار » = « روجير » .

والإدريسي بالرغم من نبوغه وعبقريته كان واحداً من كثيرين .

ولا شك في أن الجغرافيا العربية — منذ أسفار التاجر سليمان إلى الصين . وأسفار رحالة آخرين في جنوب وجنوب شرق آسيا ، والتي تمت قبل أن يقوم ماركو بولو برحلاته بنحو أربعة قرون — كانت قد بلغت أوجها في تلك الفترة ، كما أثبتت أن العرب شعب مغرم بالرحلات والأسفار ، فالتوسع للدولة وتراعى أطرافها ، إلى كثرة اللغات وتنوع الثقافات ، بالإضافة إلى الكرم العربي المشهور اضطر العلماء ألا يثوبوا من سفر إلا وقد أزعجهم سفر إلى مكان آخر حيث يجمعون مختلف العلوم والسير والأخبار ، هذا إلى جانب زيارتهم مشاهير العلماء ، فالعرب رحالة في مختلف الأقاليم وبذلك أصبحوا ذوي شهرة عالمية .

كذلك قد ترك لنا الرحالة العرب وصفاً دقيقاً لمختلف أنحاء وأطراف العالم الإسلامي ، وشاركهم هذا الفضل الحجاج والتجار سواء وفدوا عن طريق البر أو البحر . فضلاً عن الأسفار التي قصد من ورائها إشباع رغبة خاصة أو إرضاء هواية التنقل والرحيل . إذكاء للخيال أو المعرفة من الجولان في مختلف بلاد العالم . أما الجغرافية التي كانت تدرس بين جدران الأديرة في أوروبا والتي كانت تعتمد على المراجع

القديمة ، وعلى الأحكام النظرية فلا تستحق الوقوف عندها والأخذ منها . أما عند العرب ، وفي العالم الإسلامي ، فإننا نجد بحاثاً مثل المقدسي يقرر أنه خاض معترك الحياة وعاش مع الأحداث اليومية ، فقد كتب في القرن العاشر الميلادي ما نصه :

« وما تم لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي القضاة ودرسي على الفقهاء ، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضوري مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة في كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها ، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودوراني على التخوم حتى حررتها ، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها ، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها ، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبها ، وتدبري في الكور حتى فصلتها . وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها . . . فقد تفقّهت وتأديت وتزهدت وتعبدت وفقّهت وأديت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأمتت المساجد وذكرت في الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت في المحافل وتكلمت في المجالس وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين الثرائد ومع النواتي العصائد وطردت في الليالي من المساجد وسحت في البراري ونهت في الصحاري وصدقت في الورع زماناً وأكلت الحرام عياناً وصحبت عباد جبل لبنان وخالطت حيناً السلطان وملككت العبيد وحملت على رأسي بالزنبيل وأشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق وخدمت القضاة والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت في الطرق الفساق وبعث البضائع في الأسواق وسجنت في الحبوس وأخذت على أني جاسوس وعايّنت حرب الروم في الشواني وضرب النواقيس في الليالي . . . »

ومن مشاهير الرحالة العرب الذين اكتسبوا شهرة عالمية ابن بطوطة الذي ترك بلده طنجة وأخذ يتجول في العالم مدة لا تقل عن أربعة وعشرين عاماً قام فيها بمختلف المغامرات ، كذلك العالم البحّاث المسعودي أحد أبناء بغداد فقد كان كثيراً ما يهتم بالمواضيع الجغرافية العويصة كاتصال بحر الخزر بالبحر أو ما يتعلق بالكرة الأرضية من بحر آرال حتى زنجيبار ومن الصين إلى أسبانيا واهتمامه أيضاً بدراسة كل هذه الممالك يشير إلى أهمية المعلومات التي حصلنا عليها حول الكرة الأرضية

والتي صححت الأخطاء القديمة التي كانت سائدة من قبل .

وإلى جانب الجغرافية الوصفية نجد الأخرى الفلكية حيث ظهر الفلكي الشهير البتاني وكذلك ابن يونس والبيروني وابن سعيد والإدريسي وياقوت ، وقد خطوا جميعهم بنا خطوات واسعة جداً في علم الجغرافية تفوق تلك التي عرفها العالم القديم ، كما نجحوا في قياس أطوال وأعراض كثير من المدن قياساً غاية في الدقة ، وقد أقبل العرب المغرمون بالحساب على هذه المقاييس وأتموا هذه الجداول الجغرافية . وإن أخطأت مقاييس بطليموس في تقدير الدرجات فإن العرب لم يختلفوا إلا في دقة أو اثنتين . أما الإدريسي فقد جمع بين القياسين الوصفي والفلكي الرياضي .

وهناك نوع آخر من الجغرافية أعنى الجغرافية الطبيعية أو جغرافية علم طبقات الأرض ، وقد نبغ في هذا النوع ابن سينا والبيروني وتوصلا إلى نتائج علمية هامة ، وخاصة ما يتصل بنشأة الجبال وطبقات الصخور . فابن سينا يعرف حوالى عام ١٠٠٠ م الجبال فيقول :

« وأما الارتفاع فقد يقع لذلك بسبب بالذات وقد يقع بسبب بالعرض . أما السبب بالذات فكما يتفق عند كثير من الزلازل القوية أن ترفع الريح الفاعلة للزلزلة طائفة من الأرض وتحدث رابية من الروابي دفعة . وأما الذى بالعرض كأن يعرض لبعض الأجزاء من الأرض انحدار دون بعض بأن تكون رياح نسافة أو مياه حفارة تتفق لها حركة على جزء من الأرض دون جزء فيتحفر ما يسيل عليه ويبقى ما لا يسيل عليه رابياً ثم لا تزال السيول تغوص في الحفر الأول إلى أن يغور غوراً شديداً ويبقى ما انحرف عنه شاهقاً وهذا كالمحقق من أمور الجبال وما بينها من الحفور والمسالك وربما كان الماء والريح منطقة متفقة الفيضان ، إلا أن أجزاء الأرض تكون مختلفة فيكون بعضها ليناً وبعضها جريباً فينحفر بالتوالى اللين ويبقى الحجري مرتفعاً ثم لا يزال ذلك المسيل ينحفر ويبقى على الأيام ويتسع النتوء وكلما انحفر عنه الأرض كان سموه أكثر فهذه هي الأسباب الأكثرية لهذه الأحوال الثلاثة ، فالجبال تكونها من أحد أسباب تكون الحجارة والغالب أن تكونها من طين لزج جف على طول الزمان وتحجر في مدد لا تضبط فليشبه أن تكون هذه المعمورة قد كانت في سالف الأيام غير معمورة بل معمورة في البحار فتحجرت . إما بعد الانكشاف قليلا

قليلاً في مدد لا ينفى التاريخ بحفظ أطواقها . وإما تحت المياه لشدة الحر ...
ولهذا ما يوجد في كثير من الأحجار إذا كسرت أجزاء الحيوانات المائية كالأصداف
وغيرها . . . »

وعلم طبقات الأرض عند ابن سينا مثل الخاصيتين من خصائص المعرفة العربية
سواء في القرن العاشر أو الرابع عشر، وسواء في شرق العالم العربي أو غربه وسواء
في أصفهان أو في الأندلس، أعني خاصيتي عدم الاتساق والديناميكية ، فالمعرفة
العربية تنظر إلى العالم وأحداث الحياة على أنها في خلق دائم وأنها نهر خالد يتجلى
فيه خلق الله، لذلك تدعو المعرفة العربية إلى الطموح في إجراء التجارب الشخصية
والبحث وشرح الحقيقة والرجوع بالأشياء إلى أصولها ، كما أنها تعتمد على أدلة
لا تقبل شكاً فهي ثابتة تهتم علاوة على ذلك بالشهود العيان . وحدث مرة أن هوى
نيزك وكان شاهده محامياً ، وقد كان هذا في عصر كان فيه الغرب بعيداً كل البعد
عن هذا التقدم وذلك الرقى . وكان عاجزاً عن إدراك كنه الظواهر الطبيعية كما كان
عاجزاً عن تحليلها . ثم يذكر ابن سينا :

« وإنما تتكون الحجارة في الأكثر على وجهين من التكون أحدهما على سبيل
التفخير والثاني على سبيل الحمد فإن كثيراً من الأحجار يتكون من الجوهر
الغالب فيه الأرضية وكثيراً منها يتكون من الجوهر الغالب فيه المائية . فكثير من
الطين ينحف ويستحيل أولاً شيئاً بين الحجر والطين وهو حجر رخو يستحيل حجراً
وأولى الطينيات بذلك ما كان لزجاً فإن لم يكن لزجاً فإنه يتفتت في أكثر الأمر قبل
أن يتحجر . وقد شاهدنا في طفولتنا مواضع كان فيها الطين الذي يغسل به الرأس
وذلك في شط جيحون ثم شاهدناه قد تحجر تحجراً رخواً والمدة قريبة من ثلاث
وعشرين سنة . . . »

لكن مترجمي العصور الوسطى لا يهتمون كثيراً بهذه الملاحظات التي أبدتها
ابن سينا كما لا يهتمون بسعة اطلاعه وهذه ملاحظات مع أخرى كثيرة جداً نتبين
منها مدى دقة الباحث وتعقبه. وبينما نجد هذه العبارات وتلك الأمثال في النسخة
العربية لابن سينا، إذا بنا نجد اللاتيني يعالج الفصل بشيء من عدم الاكتراث
ويذكر أنه يتحدث ، وهو يعني ابن سينا ، عن ذكريات الطفولة وغسل الرأس

« Sumus quoque quod in teira illa » .

ففي أوربا ظل القوم زمناً طويلاً لا علم لهم بالجغرافيا وبخاصة كعلم يقوم على مثل هذه الأسس وتلك القواعد وخرائط الإدريسي التي رسم عليها الأرض على هيئة كرة بالرغم من أنه لم يكن من المستطاع حسب التجارب الشخصية أو غير الشخصية أو الحسابات الرياضية تدعيم هذا الرأي القائل بكروية الأرض . فالذي كان معروفاً في كثير من الأديرة حسب رواية الكتاب المقدس أن خريطة العالم عبارة عن قطعة من الأرض تحيط بها المياه وفي وسطها تقع الجنة . وليس بطليموس بل جغرافيو العرب في القصر الملكي في صقلية . هم أولئك العرب الذين علموا أوربا . وخريطة الإدريسي تختم ثلاثة قرون كانت خالية مظلمة، وخريطته هي أول مجهود علمي شخصي ، كما أن كتاب ابن سينا عن المعادن هو المرجع الأول لأوربا ودراساتها لعلم طبقات الأرض، وقد ظلت معتمدة على ابن سينا حتى القرن الثامن عشر .

ويذكر الإدريسي عن البلد الذي وضع فيه مؤلفه :

« إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن ووحيدة البلدان طيباً ومساكن وقديماً دخلها المتجولون من سائر الأقطار والمترددون بين المدن والأمصار وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها وأعجبوا بزاهر حسنها ونطقوا بفضائل ما بها وما جمعته من مفترق المحاسن وضمته من خيرات سائر المواطن . فأما صقلية المقدم ذكرها فأقدارها خطيرة وأعمالها كبيرة وبلادها كثيرة ومحاسنها جمة ومناقبها ضخمة فإن نحن حاولنا إحصاء فضائلها عدداً وذكرنا أحوالها بلداً بلداً عز في ذلك المطلب وضاق فيه المسلك لكننا نورد منها جملاً يستدل بها ويحصل على الغرض المقصود منها إن شاء الله تعالى . . . »

« مدينة بلرم وهي المدينة السنية العظمى والمحلة البهية الكبرى والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا ، وإليها في المفاخرة النهاية القصوى ذات المحاسن الشرائف ودار الملك في الزمان المؤتلف والسالف ومنها كانت الأساطيل والجيوش تغدو للغزو وتروح كما هي الآن عليه من ذلك ، وهي على ساحل البحر في الجانب الغربي والجبال الشواهد العظام محدقة بها وساحلها بهج شرقي فرج ولها حسن المباني التي سارت

الركبان بنشر محاسنها في بناءاتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها . وهي على قسمين قصر وربض . فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره في كل بلد وإقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة ، فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة ومنازل شاذخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار ، والسماطان الباقيان فيهما أيضاً قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الفنادق والحمامات كثير وبه الجامع الأعظم الذي كان بيعة في الزمن القديم وأعيد في هذه المدة على حالته في سالف الزمان ، ووصفته الآن تغرب عن الأذهان لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المقتعلة والمنتخبة والمخترعة من أصناف التصاوير وأجناس التزاويق والكتابات . فأما الربض فمدينة أخرى تحدد بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالحالصة التي بها كان سكنى السلطان والخاصة في أيام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التي هي للإنشاء والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة وعبونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومنتزهاتها جنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهي بالحملة فتنة للناظرين »

ومن بين الرحالة الذين سحرتهم بالرمو الرحالة العربي الغرناطي ابن جبير الذي زارها عام ١١٨٥ م فبهرته ، وقد ترك لنا في رحلته وصفاً دقيقاً في صقلية وبالرمو والقصر الملكي . وقد أطنب في وصف عاصمة النورمانيين والملك النورمانى . وقد سبقه إلى هذا الوصف وذلك المديح الإدريسي بنحو ثلاثين عاماً . وحدث أن توفي في تلك الفترة الملك رجار الثاني وفي نفس العام الذي أتم فيه الإدريسي كتابه وأغدق عليه الملك الكثير من الهدايا وبعد أن خلفه ابنه فلهم الأول الذي لم يحكم طويلاً توفي وخلفه ابنه وحفيد روجير الثاني وهو فلهم الثاني .

وقد ظل الأسد النورمانى يحكم صقلية زهاء قرن من الزمان ، والشىء الجدير بالانتباه هذه الصلة القوية بين الحاكم ورعاياه العرب ، وهذه الصلة هي التي لفتت نظر رحالة غرناطة وكان يعتقد أنه سيزور بلداً يحكمه الإفرنج إلا أنه سرعان ما تبين مقدار الثقة العظيمة التي أولاها الملك المسلمين « وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتیان المناجيب وكلهم أو أكثرهم كاتم لهمساته متمسك بشريعة الإسلام ، وهو كثير الثقة بالمسلمين وسكن إليهم في أحواله والمهم

من أشغاله حتى إن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرسمون عاصمته وعليهم يلوح رونق ملكه لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ، وما منهم إلا من له الحاشية والحول والأتباع ، ولهذا الملك القصور المشيدة والبساتين الأنيقة ولا سيما بحاضرة ملكه المدينة المذكورة

ويستطرد ابن جبير في وصف رحلته فيصف العاصمة قاعدة ملك الجزيرة : «والمسلمون يعرفونها بالمدينة والنصارى يعرفونها ببلارمة . . . الجامعة بين الحسين غصارة ونضارة فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عنيقة أنيقة مشرقة مؤنقة تتطلع بمرأى فتان وتتخايل بين ساحات وبساتين كلها بستان فسيحة السكك والشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع عجيبة الشأن قرطبة البنيان مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكردان يشقها نهر معين ويطرد في جنباتها أربع عيون قد زخرفت فيها لملكها دنياه واتخذها حضرة ملكه الإفرنجى أباده الله تنتظم بلبها قصور انتظام العقود في نحور الكواعب ويتقلب من بساتينها وميادينها بين نزهة وملاعب فكم له فيها ، لا عمرت به . من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع . . . وكنائس قد صيغ من الذهب والفضة صلبانها . . .

وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرن أكثر مساجدهم وقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكنائهم عن النصارى والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة ، دعاؤهم فيها للعباسي ، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه . . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم

ويذكر ابن جبير في وصف الملك : «... وليس في ملوك النصارى أشرف في الملك ولا أنعم ولا أرق منه وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينتته بملوك المسلمين ، وملكه عظيم جداً وله الأطباء والمنجمون ، وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم

حتى إنه متى ذكر له أن طبيباً أو منجماً اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه . . ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه . وأما جواريه وحظاياه في قصره فسلمات كلهن ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور وهو يحيى بن فنيان الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله ، وهن في فعل الخير أمور عجيبة ، وأعلمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مرجفة دعر لها هذا المشرك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا ذكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته فكان يقول لهم : ”ليذكر كل أحد منكم معبوده ومن يدين به تسكيناً لهم“ ، وأما فتياه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكه فهم مسلمون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً وتأجراً ويتصدق تقرباً إلى الله وتزلفاً ويفك الأسرى ويربي الأصاغر منهم ويزوجهم ويحسن إليهم ويفعل الخير ما استطاع وهذا كله صنع من الله عز وجل لمسلمي هذه الجزيرة .

ويعرض ابن جبير للمسيحيين وكنائسهم وتشبه نسائهم بالمسلمات فيذكر . . . « كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي أبصرناها يوم الميلاد وهو يوم عيد لهم عظيم وقد احتفلوا له رجالاً ونساء فأعجبنا من بنيانها . وزى النصرانيات في هذه المدينة زى نساء المسلمين فصيححات الألسن ملتحفات متنقيات خرجن في هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحف الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين . . »

وفي صقلية هذه بقصورها العامرة وحدائقها الغناء وفي شوارع بالرمو الواسعة الغنية بمحوائيتها وحواريها المنسابة في الأحياء العربية نشأ وترعرع حفيد الملك روجير الثاني يتيماً مهملاً . وهذا الحفيد هو في نفس الوقت حفيد القيصر فريدریش برباروسا ، وهو « فريدریش روجير » . وقد جلس على عرش مملكة صقلية بعد ابن عمه النورمانى الملك فلهم الثاني والقيصر هينريش السادس ، والده الألماني ،

ومن ثم اشتهر باسم فريدريش الثانى قيصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكانت المسئولية الملقاة على عاتقه شاقة جداً ، إذ كان العالم الذى يعيش فيه مضطرباً متخاصماً متحارباً ، إلا أن فريدريش أخذ يشق طريقه إلى المجد زعيماً لعصر جديد .

كانوا أعداء فألف بينهم

إن الهمس فى المعسكر بالقرب من يافا لا ينتهى ، كما انتشرت الشائعات حتى بلغت إيطاليا ، فالهمس يدور حول اتصالات بين القيصر والمسلمين وذلك منذ شهر سبتمبر عندما وطئت قدم القيصر المطرود من الكنيسة الأراضى المقدسة وظل طيلة هذا الوقت مسلماً لا يسل سيفاً . ولم يقع حادث يعكر صفو السلام فى الأراضى المقدسة ، وحتى لا يشعر جنوده من الألمان وبعض الإنجليز ونفر من أهالى بيزا وجنوة ، وجميعهم قد أخلصوا له . بالسأم والضجر كلفهم بالقيام ببعض الأعمال اليدوية مثل قلب الأرض وعزقها حتى لا يملوا العمل فى تشييد الحصون . وفى الوقت نفسه كانت الرسل تروح وتغدو بين يافا ومعسكر السلطان الكامل الذى لم يكن يبعد كثيراً عن حدود مصر . وفى تلك الفترة يجلس زعيم المسيحية فى خيمته ومعه عربى فى غاية الأناقة يتحدثان فى اللغة العربية حديثاً طويلاً لا يعرف نهاية . وهو حديث سرى ، لذلك ظلت هذه المفاوضات سرّاً غامضاً على الآخرين . وقد أصبح من العسير على الإنسان أن يتكهن بماذا تأتى الأيام وراء هذه الجبهة العريضة للقيصر الأكبر صاحب السلطان القوى فى معسكره وعلى جيشه ، ولو أن خصمه فى روما أخذ يبذل كل ما فى جهده من دعاية وتشنيع وأعلن البابا زوراً وبهتاناً خبر وفاة القيصر وبذلك أباح لشعبه التحلل من يمين الولاء والطاعة له كما انقض جنود البابا على مملكته . وهنا فى الشرق نجد رجال الدين السوريين والبارونات يعلنون معارضة القيصر ، كما وجد فى معسكره بعض الخونة الذين أخذوا يتربصون به كما وقع فى حيرة من جراء إطعام هذا الجيش الجائع وبخاصة بعد أن افتقد سائر مصادر التموين « إلا أننا

أخفينا آلامنا المبرحة وراء ابتساماتنا المرحية « وقد ذكر فيما بعد « حتى لا يتنصر أعداؤنا » .

وإذا ذكرنا المخلصين للقيصر وحفظة سره جاء رئيس طائفة الألمان وهو « هرمان فون سلزا Harman von Salza » والجراف اللنجوباردى « توماس فون أكوين Thomas V. Aquin » والرجل العربى الشريف « فخر الدين » الذى سبق له بصفته السفير المصرى لسلطان مصر لدى القيصر أن عرض عليه فى قصره المعروف باسم « فوجيا Foggia » بإقليم أبوليا إبرام معاهدة صلح تسلم بمقتضاها القدس إلى القيصر ، واستطاع هذا السفير العربى المصرى برقته ولباقته وحسن سياسته إقناع القيصر بوجهة نظره واكتساب ثقته وصداقته مما اضطر القيصر فريدريش إلى الاطمئنان إليه وإطلاعه على جميع أسراره .

لكن حدث فى تلك الفترة أن تغير الوضع الذى دفع السلطان إلى التقدم بهذا العرض إذ أصبح السلطان الكامل ليس فى حاجة ماسة إلى مساعدة القيصر فريدريش الثانى ، فلماذا إذن هذا التساهل من جانبه إلى فريدريش ؟ وعلاوة على ذلك فقد حصل هو على القدس دون حرب أو مساعدة .

ثم نجد القيصر ، قيصر أوروبا ، يجيب سلطان العرب عن طريق كبير أمنائه : « لم نعبّر البحر لفتح بلادكم فإننا نملك من البلاد أكثر من أى ملك على ظهر البسيطة ، بل لتحقيق اتفاقنا الخاص بالأماكن المقدسة إجلالا للسلام والوثام ، ولا داعى للتزاع مع المسيحيين ولا ضرورة لإراقة دماء رعاياكم » . فاستقبل السلطان كبير الأمناء استقبالا عظيماً وأكرم وفادته إلا أن السلطان أهمله بطريقة مهذبة ، وكان تبادل زيارات الرسل بين العاهلين مقصوراً على تبادل الهدايا وإبداء علامات الود والصدقة ، فقد أهدى السلطان الكامل للقيصر هدايا عظيمة جداً من بينها جمال للسباق فجياد عربية وفيلة وقردة وصقور للصيد وأحجار كريمة نادرة ، وأقمشة حريرية مقصبة ، وفريدريش الثانى يدرك تمام الإدراك المستوى العقلى الرفيع للسلطان الكامل وحاشيته والمتصلين به ، فأرسل إليه عدداً من الأسئلة العلمية العويصة الخاصة بالرياضيات والفلسفة والعلوم الطبيعية ، وعن طريق هذه الأسئلة أظهر القيصر له كل احترام وتقدير ولم يدر حديث ما عن المعاهدة والاتفاقية .

والواقع أن تنفيذ الاتفاقية والاستيلاء على القدس يحل العقدة المستحكمة ، وهذا كان رأى فريدريش والمخلصين له من حوله ، وتخليصه من الحرمان من الكنيسة ، فقد ذهبت العداوة المستحكمة بين البابا والقيصر فريدريش الثانى حداً بعيداً ، واستولت على البابا فكرة تافهة وهى وجوب العمل لإحباط محاولة القيصر فى سبيل الحصول على القدس ، هذه المهمة التى انتقل من أجلها من روما . وكان كل أمل البابا أن يعود فريدريش بنحى حنين ذليلاً لا يتردد فى تقديم فروض الولاء والطاعة البابا . والشئ الجدير بالذكر أنه ضبقت خطابات موجهة من البابا إلى السلطان العربى حاكم الوثنيين (!) يرجوه فيها عدم التنازل عن الأراضى المقدسة لفريدريش الثانى .

أما لعبة السؤال والجواب فقد جاءت علاوة على اللذة العقلية للحاكمين بأحسن النتائج ، فقد كان الأمير فخر الدين هو الذى يجىء إلى السلطان بقائمة تحتوى على إجابات علمية هامة جداً ، وهو الذى كان يتوجه إلى القيصر فى معسكره ، فقد كان فريدريش الثانى يقاسمه الحيمة والأفكار . إن فخر الدين كان صديقه العربى الحميم .

لماذا تنشب حرب وهى بغیضة لدى الطرفين : القيصر فريدريش الثانى والسلطان الكامل ؟ لماذا يتحارب الاثنان وهما على مستوى رفيع جداً من الثقافة ؟ إن الفرصة سانحة وبخاصة بعد أن أريقت دماء كثيرة من الجانبين لإحلال السلام والصفاء بين الشرق والغرب ؟

وأمام حسن النية التى أبداهها القيصر لم يسع فخر الدين إلا أن يقر القيصر على رأيه وحبه للسلام ، وهكذا استطاع فخر الدين أن يحل العقدة الأولى . وعوضاً عن كبير الأماناء القيصرى الأرعن والذى أثار غضب السلطان يجب أن يسند القيصر المفاوضات إلى الجراف « فون أكوين » عوضاً عن ذلك الأرعن ، وهذا الجراف قد تعلم العربية فى صقلية كما أتقن الطريقة الإسلامية فى المخاطبة وحسن معاملة الناس .

حقاً إن المشورة كانت موفقة كما أحسن اختيار الزمن . فقد عرف فريدريش السلطان عن طريق رسوله الفتوة ومراعاتها وتقدير مركزه ومكانته فى أوروبا . كما أدرك

السلطان جميع التفاصيل والأمور التي تمت بين القيصر فريدريش و « خليفة روما » وكان على علم تام بكل ما يجري وجرى هناك في أوروبا . لذلك ما كاد فخر الدين يخبر سيده السلطان الكامل بأفكار الإمبراطور، وأنه يذكره بوعده الذي قطعه على نفسه وأعلن استعداداه لعقد اتفاقية جديدة وبخاصة أن مركزه في سوريا لم يكن على ما يرام ، حتى وافق السلطان الكامل على عقد الصلح مع القيصر فريدريش الثاني . وفي ١٨ فبراير ١٢٢٩ م تصافح الشرق والغرب وحل السلام محل الحصار .

وقد حضر مراسم توقيع المعاهدة السادة « هرمان فون سلزا » رئيس الطائفة الألمانية وتوماس فون أكوين والحراف فون أكيرا ، وأقسم أمير المؤمنين السلطان الكامل يمين العهد والمواثيق واحترام اليمين ، كما أعلن في نفس الساعة احترامه لهذه الاتفاقية الرئيس المدني للمسيحيين وكان ذلك في المعسكر الكائن بالقرب من يافا . ألا وهو القيصر فريدريش الثاني فقد أقسم يمين الوفاء أمام الأمير فخر الدين .

عقد السلام « بدون حرب وبدون استخدام أسلحة » وعن طريق المفاوضات ، وهذه المعاملة وهذه الأخلاق هي التي قربت وأخت بين ابن عم فريدريش الصقلي وهو الملك فلهم الثاني الذي عرف المسلمين في مملكته واحترمهم وأحبهم من قلبه . وإن لم يكن في درجة حب واحترام فريدريش الثاني لهم .

وقد نجح فريدريش الثاني في كسب ما هو أهم وأعظم ، كسب شيئاً لم ينجح فيه أحد قبله ، ومن ثم طلب إلى هرمان فون سلزا أن يعلن عالياً شكر الله في الأعلى وذلك بين مختلف وحدات الجيش . فقد أعلن القيصر هذا الخبر بين عدد قليل من رجاله . وقد علمت الشعوب بهذا الخبر واستغربت كيف استطاع القيصر فريدريش أن يوفق وينجح في جمع شمل أبناء الشعوب المختلفة والمؤاخاة بينهم . إن فريدريش قد نجح بفضل إرادته لا بقوته ، لقد حقق فريدريش الثاني ما عجز عن تحقيقه سابقه وبمختلف الوسائل . . .

« لقد تحقق هدف الحرب الصليبية وبدون إراقة دماء » . لقد تحررت الأماكن المقدسة : القدس ، بيت لحم ، الناصرة ، وكذلك الطريق المستخدم في الحج من الشاطئ متحرراً الجبل بقلاعه وصيدا وقيصرية ويافا وعكا .

أما القدس التي تضم أيضاً كثيراً من الأماكن الإسلامية المقدسة فقد أعلنت مدينة مقدسة للطرفين فهي مقدسة للمسلمين أيضاً . وهكذا شرح صلاح الدين لقلب الأسد ريتشارد : أن القدس أكثر قداسة بالنسبة لنا منكم ، فن هناك بدأت قصة الإسراء وتجمعت الملائكة لذلك نجد مسجد قبة الصخرة ، والمسجد الأقصى في الحرم الشريف والمعبد الذي يحتفظ به المسلمون ، كما أبيح للمسيحيين إقامة صلواتهم به ، كما هو الحال مع المسلمين في بيت لحم . إن الحجاج من المسلمين والمسيحيين يجب أن يسود بينهم الحب والاحترام كما يجب أن يحترم كل فريق حقوق الفريق الآخر وكل يعبد الله حسب طريقته .

إن مثل هذه الفكرة بديهية وطبيعية عند العرب ، لكن من وجهة النظر الأوروبية عبارة عن نقطة تحول في التفكير العالمي . فقد أخذت تتلوها آراء جديدة أخرى كما ظهر منادون يدعون إلى السلام وحل المشكلات المتنازع حولها عن طريق المفاوضات لا القوة وبخاصة فيما يتصل بمسألة العقائد واستنكار الوسائل المتبعة ضد الوثنيين في نظر الكنيسة المسيحية ، والعمل على إيقاف عملية اضطهادهم واستئصالهم . وكان من زعماء المنادين بهذه المبادئ « فولفرام فون أشينباخ » والسير « روجير بيكون » والملك ألفونس العاشر صديق العرب ، وكذلك « فرنسيسكوس فون أسيسى » وهو الذي كان ينادى في قصر السلطان الكامل مبشراً بكلمة الله ولو أنه لم يحرز نجاحاً كبيراً . واستجابة لسياسة القيصر وتأيداً لها نجد هذا النداء الذي نادى به التروبادور الفرسان ووصفوه بأنه طبيب أوربا الماهر .

فالسلام الذي حل بين أصحاب الديانات المختلفة ونشر السعادة في حياة المسلمين والمسيحيين جعلهم يسخرون من الحروب الصليبية وعقلية الصليبيين ، هذه العقلية البغيضة التي فرضتها الكنيسة على أتباعها . وقد تجلت هذه الروح الجديدة في القضية التي أقامها البابا على سفير القيصر في مدينة ليون حيث أجاب السفير : إنه في القدس وعلى مشهد من العالم أثبتت سياسة فريدريش البعيدة « أن صداقته من الأمراء العرب وفرت كثيراً من إراقة الدماء المسيحية » .

إن المفاوضة مع الوثنيين (!!) — ونسى أن « جوتفريد فون بويليون Gottfried von Bouillon » والمنسوبة البابوي « بيلاجيوس pelagius » قد تفاوضا مع

الوثنيين - فقط هي التي انتهت إلى السماح للوثنيين بإقامة الصلاة في القدس ، وهذا هو السبب الذي من أجله اعتبرت الكنيسة القيصر فريدريش الثاني خائناً ومسيئاً للدين وأنه ابن شيطان ويعمل ضد المسيح وفي مقدمة الأشرار الذين سيصلون النار .

كما أن نجاح وتوفيق القيصر الذي حرّمته الكنيسة ، هذا النجاح الذي لم تحرزه سائر جيوش الصليبيين آلم خصومه إيلاماً شديداً كما حط من قدرهم وكرامتهم حتى إنه يقال إن جريجور التاسع حرض رؤساء جماعة الداودية والهوسبيتالر على إرسال مندوب سرى إلى الكامل يبلغه أنهم علموا أن القيصر سيحج في صحبة نفر قليل في ساعة معلومة فينتقل من القدس إلى موضع المعمودية على الشاطئ الغربي لنهر الأردن . والفرصة سانحة للسلطان ليقبض على القيصر ويقتله ، فتألم السلطان من هذه الخيانة ألماً شديداً ولا سيما أنها صادرة من فارس الخليفة الروماني ، فما كان من السلطان إلا أن أرسل هذه الرسالة الممهورة بتوقيع رئيس طائفة الداودية ، وقد كتب السلطان الكامل إلى القيصر قائلاً : « إن هذا الوثني مثله مثل عمه صلاح الدين ينجعل أشد الحجل مما تقرّفه هذه العصبة التي يدعى أفرادها أنهم المسيحيون الحقيقيون والذين يؤمنون بالحب المسيحي أن مثل هذه الجريمة تجرح فتوته » .

وهكذا ظلت الكنيسة لآخر لحظة تحارب فريدريش الثاني وتحاول إحباط كل خطواته أو إقامة العراقيل في طريقه وإفساد كل أعماله ، ولما تسلم عند باب يافا في القدس مفتاح المدينة من يد مندوب السلطان وسار في الطريق مع الألمان الذين كانوا معه وقد أخلى المسلمون الشوارع من المارة ، حرم أسقف قيصرية دخول المدينة على المسيحيين كما حرم عليهم إقامة الشعائر الدينية في الكنائس كما رفض رجال الدين قبول القرابين ، وأخذ رجال الدين المسيحيون يحرضون رجال الجيش على الثورة ويطالبونهم إلى جانب ذلك بوجوب القيام بأعمال السلب والنهب ، وبلغت الحصومة منتهىها عندما ألقى رجال الدين الغائط على القيصر وفرسانه لما صعدوا على ظهر السفينة .

لقد نجح فريدريش في إحلال السلام بين الشرق العربي والغرب المسيحي ولو لفترة قصيرة ، هذا السلام القائم على الاحترام والتعايش السلمي ، هذا السلام الذي

أخذت تحاربه الكنيسة بمختلف الوسائل والطرق أما السلطان الكامل فلم يلق من مختلف أنحاء العالم الإسلامى إلا قذفه بتهمة الخيانة الكبرى فالعالم الإسلامى ما زال يذكر حمامات الدماء التى أراقها الصليبيون فى القدس والعالم الإسلامى لذلك يأبى أن يضافى الأيدى المسيحية المملوطة بالدماء .

وهكذا أصبحت رسالة القيصر التى كان من الصعب تحقيقها سياسياً وواقعياً وسيلة للتوحيد بين الدولة والدين وبذلك شق لأوروبا طريقاً جديداً فى مضمار مستقبل أحسن .

سلطان لوكيرا

« أول رجل حديث على العرش » . . .

هكذا وصف « يعقوب بورخردت » القيصر فريدريش الثانى على أنه مثال الرجل الحر الموجود فى المجال التاريخى العالمى . « عقلية متحررة » من القيود والتقاليد وهو الرجل الذى يأتى فى طليعة قادة النهضة الإصلاحية وحركة إحياء العلوم . وهذا الحكم جدير بالاعتبار والاهتمام ، فالقيصر فريدريش كان أكثر أمراء الإصلاح شجراً بالحكام العرب ، مثله مثل المأمون أو الكامل . وإن الصلة بينه عقلاً وخلقاً وبين سلطان مصر تكاد تشبه الصلة بين أوراق الشجرة الواحدة فالمبول واحدة والعادات متشابهة وطرق الحياة والنظرة إليها والسلوك والاتصالات بالناس تكاد تكون عند القيصر فريدريش صورة لتلك التى يتصف بها سلطان مصر ، كما أن كلا منهما يتصف بنظرته التحررية التى يتطلع بها إلى هذا العالم كعالم وحاكم ومصلح وبخاصة فيما يتصل بالمسائل الاقتصادية . وفريدريش كذلك مؤسس مدرسة عليا وليس أقل من الكامل بغضاً لإراقة الدماء .

وفى أعقاب حركة النهضة ، نجد القوى التى شحنها فريدريش الثانى تتدخل فى التاريخ وتؤثر فيه وتغير وجه أوروبا من أساسه . وبالرغم من كل هذا لم يكن يعتقد أنه « إنسان عصرى » ، ولم يكن الشخص الذى يشعر أنه متحرر وأنه قد يقال

عنه إنه مفكر حر أو زنديق ، بل كان بالرغم من كل ذلك مسيحياً مؤمناً بالمسيحية ، وكان في مسيحيته أفضل من أولئك الذين يجلسون على كرسي بطرس أعنى الباباوات : هؤلاء الذئاب في ثياب الحملان ، أولئك الذين يخلقون الفرقة بين الناس ويحرصون على ألا يسود السلام العالم ، أولئك الذين يطردون المؤمنين من الكنيسة إشباعاً لميوهم كما يصبون جام غضبهم على خصومهم دون وازع من ضميرهم ويذهبون بعيداً فيستبيحون لأنفسهم تجريد المؤمنين من أموالهم ظلماً وعدواناً ، أما هم فيتمرغون في الثراء حتى تقضى ثروتهم عليهم .

لقد كان فريدریش الثانی أسيراً للعصور الوسطى بالرغم من أنه نشأ وتربى في بيئة متعلمة متحررة عن تلك التربية الأوربية التي كانت سائدة في ذلك العصر ، وهذه الحالة التي كان عليها فريدریش بالرغم من صلته القوية بالعصور الوسطى تجعلنا لا نتردد في الحكم عليه بأنه إنسان عصرى ، ومعنى ذلك أنه اقتبس المثل العربية وأثرت فيه وتأثر بها كما أضاف إليها أفكاراً عربية أخرى مكنتها من عروبته وجعلتها أكثر أصالة من غيرها .

وليس معنى هذا أن هذه الشخصية الجبارة يجب أن ننظر إليها ونحكم عليها من هذه الزاوية فقط ، فالشئ الذي يجب الاعتراف به أنه ما كان يبلغ ما بلغه دون القواعد والأسس العربية التي قامت عليها دولة النورمانين فضلاً عن الثقافة العربية التي كانت سائدة في صقلية وطنه . وقد أيد هذا الرأي كثيرون من علماء العرب ومن بينهم المؤرخ أبو الفدا الذي تحدث عن كرم الإمبراطور وغرامه بالدراسات الفلسفية والمنطق والطب كما اشتهر بعطفه على المسلمين وذلك لأنه نشأ وتربى في جزيرة صقلية حيث كان أغلبية سكانها من المسلمين .

ولولا أن عمه فيليب سارع وترك إيطاليا الثائرة وعمل بوصية والد فريدریش الثانی ونقل الطفل ابن الثلاث سنوات من إيطاليا إلى وطنه الأصلي ألمانيا لحصل فريدریش الطفل على تربية علمية أفضل وأعمق ، فالطفل كحاكم البلاد المستقبل كان سيحصل ولا شك على كاهن متعلم يقوم على تربيته بصفته ابناً للملك ، وهذا الكاهن سيعلمه القراءة والكتابة والحساب وكذلك اللغة اللاتينية . ومن المرجح أن فريدریش وتفكيره الحر ، كان سينسجم وهذه التربية ، إلا أن هناك عوامل أخرى قد انتهجها

وتأثر بها . إن فريدريش لو قدر له أن يربي في قلعة ألمانية لحظى بتربية ملكية رقيقة ووقتذاك ما كان لأحد من أعدائه أن يتهمه وهو ابن الثالثة عشرة بأنه سيء الخلق والسيرة لأنه يكون قد تربي التربية التي تتفق وبیشهم .

وهل من المستطاع أن يرجو الإنسان شيئاً آخر من شاب هو أقرب إلى الطفولة وانطباعاتها منه إلى الرجولة وجدتها وبخاصة لم يهتم أحد به منذ طفولته فكان يتجول طليقاً حراً بدون رقيب في مختلف الحواري والأزقة وأحياء الميناء إشباعاً لرغبته في المعرفة . فذهب إلى المساجد والأسواق وأرصفت الميناء . كما اختلط بشعب بالرمو الخليط . وكان في وحدته القاتلة يصادق الحيوان والطير والإنسان غير مكترث بنوعه أو جنسه أو ثقافته . فالوالد الذي أراد أن يصحبه معه إلى ألمانيا قد توفي ، لذلك شب الطفل وترعرع . شب هذا الملك الطفل بين الآثار العربية الإسلامية الجميلة وأحجار الفسيفساء البراقة والقلاع العربية الشائخة المتناهية في العظمة وهي إن كانت ملكاً للملك روجير فإن العمال والمهندسين المعماريين الذين شيدها كانوا عرباً جنساً وفناً ومعماراً . كما أن الذين كانوا يقومون على العناية بها عرب . لقد نشأ الملك الشاب في وسط لا تقع عينه فيه إلا على صور عربية وخلق عربي وحياة عربية إنها بيئة العروبة ولوحها الخالدة التي لن ينساها من يشاهدها . وقد ظلت هذه الصور ملازمة له بالرغم من السنوات العديدة التي مرت عليها . لقد سمع الملك الطفل أغاني المغنين العرب مختلطة بصوت مياه النافورة بين مقاصيرها الملكية ، وحولها الأعمدة وكل هذه الأشياء تراءى له وكأنها حلم . أما أذان المؤذنين من أعلى المآذن فكان يعين ويحدد له نظام يومه .

وحدث أن أمه « كونسترا » النورمانية . ابنة الملك روجير الثاني قد فارقت الحياة عقب وفاة زوجها بزمان قصير . وحينذاك بدأ النزاع حول الطفل وقامت المشاكل وتعمدت الأمور . ففسوء إدارة الأوصياء أصاب المزرعة الملكية ما أصاب الدولة ، ودب الفقر وساءت الحالة مما اضطر هذا الملك الشاب وهو ما زال في السادسة من عمره ، إلى الالتجاء سائلاً مستعطفاً مواطنيه العرب فمدوا له يد المساعدة فكانوا يعولونه ويطعمونه مناوبة هذا لمدة أسبوع وذلك لمدة شهر وهلمّ جرّاً حتى بلغ الطفل السابعة .

وهكذا نجد الحياة ذاتها تتولى تربية الملك الطفل وتعهده منذ سن مبكرة جداً .
 ففي ميادين بالرمو في المساجد والكنائس والمعابد اليهودية ، في الخوانيت والسوق وفي
 الشوارع كان يتلقى الملك الشاب دروسه اليومية في اللغات التي كانت متداولة حية
 بين أفراد الشعب المختلط الأجناس ، كما تعلم أيضاً عاداتهم ودياناتهم . إن فريدريش
 كان يتكلم طفلاً تسع لغات ، أما العربية فقد كانت كأنها لسانه القوي ، كان يعرف
 كذلك الحساب العربي وشارك في مجادلات التجار العرب والأثمة من رجال الدين
 فأجاد فريدريش المحاولات والمجادلات حول الله والعالم ، ومن الجدير بالذكر
 أن القاضي الشرعي للمسلمين المقيمين في بالرمو كان يتولى تعليم هذا الشاب
 المتعطش إلى العلم والمعرفة والفلسفة العربية ، ويمده بالكتب العربية إرضاء لرغبته
 الجامعة إلى العلم وتحصيله ، ويتنفس عبيرها الباسم ، كما ذكر فريدريش ذلك
 في أسلوب عربي رائع .

فهذه المعرفة التي اكتسبها هذا الملك الشاب النابه بشتى الطرق جعلته يختلف
 عن والده في كثير من خصائصه وصفاته ، فوالده كان يقدر له أنه يكفيه أن يتعلم
 المبادئ الأولية على يد المعلم فلهم فرنسيسكوس . أما الآن فالذي يكتب تاريخ هذا
 الشاب ابن الثلاث عشرة سنة يستولى عليه الإعجاب . نعم إنه يرفض الوصاية عليه
 مهما كان لونها ونوعها ، هذه الوصاية التي تحدد إقامته وتحصى عليه تحركاته .
 إنه يأبى إلا أن يتنقل حراً طليقاً في الحياة العامة . لكن هذا المشرب من الحياة
 هو الذي يرجع إليه الفضل في إبراز خصائصه الخلقية وقدرته العقلية مما جعله يبدو
 وكأنه أكبر سنّاً مما هو عليه ، فهو بالرغم من طفولته كان كثير المعرفة والاطلاع
 وذا عقل يضعه فوق سنه لذلك لا يحكم على فريدريش حسب سنه ، وإن كان
 إدراك المرء مرتبطاً بسن معينة فقد تبين أنه من حيث نضج التفكير وصحة الحكم
 على الأمور رجل مكتمل القوى العقلية ، وأنه من حيث العظمة ملك .

ولو حدث مرة وبدت عليه علامات الطفولة فإنما مرجع ذلك حداثة سنه ، إلا أن
 حياته الملكية التي كان يحياها وجهته التوجيه الصحيح ، وهذا الاتجاه هو أيضاً من
 آثار الدماء النورمانية التي تجري في عروقه . هنا دولة اتسع صدرها لمختلف الثقافات

الموجودة بها ، ومكتتها من التطور . كما أن احترام هذه الدولة لمختلف العقائد والعادات والتقاليد — إلا الزنادقة الذين كانوا في نظره مخربين للنظام القائم — يجعلنا نفهم ميله ووجهه للروح الشرقية والثقافة الشرقية ، وهذه الثقافة هي الأساس الذي اعتمدت عليه ثقافته وتكوينه العلمي ، والثقافة العربية هي التي أفاضت عليه الألوان الثقافية المختلفة التي رفعت من منزلة فريدريش الثاني بين معاصريه ، وهذه الثقافة أيضاً هي التي مكنته من تفهم العقلية العربية والحياة فيها والتفكير بها ووجهه الشديد لكل ما هو عربي شعباً وثقافة وحضارة .

بدهى أن هذا الحب لم يكن صافياً كله عند غزو النورمانيين . ثم اضطهادهم للعرب بعد الغزو مما اضطّر الآخرين إلى المقاومة والاعتصام بالجهات الجبلية في قلب الجزيرة الصقلية ، وذلك إباء من العرب وشم من الخضوع للسيطرة الأجنبية . وهكذا نجد العرب من وقت لآخر يثيرون الاضطرابات ويهددون أمن الجزيرة . فهذا الموقف العدائي ودوافع التحرر والرغبة الصادقة في التخلص من أعدائهم كل هذه العوامل مجتمعة سببت للملك الشاب كثيراً من المتاعب ، لذلك كان لا بد له للقضاء على الثائرين من خوض غمار حروب طويلة الأمد استمرت عدة سنوات ، والجوع فقط هو الذي هزم العرب واضطّروا إلى التسليم وقد وطنوا أنفسهم لأسوأ الاحتمالات فقد قدروا وعددهم خمسة وعشرون ألف عربي أنهم سيساقون إلى الإعدام ، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، ففريدريش لم ينتقم حتى من المحرضين بل سلك مسلكاً يدل على أنه السياسي الحكيم حقاً .

إن فريدريش الثاني يعرف العرب جيداً ، وقد أدرك أيضاً أن إصدار حكم الموت على أميرهم إبان المعركة كان تصرفاً غير حكيم وأيقن أنه عند إحراز أي نصر فالشخص المتعطش إلى الانتقام لن يستطيع الاستفادة من هذا النصر لأن الانتقام يزيد من اضطهاد المهزوم وإيلامه ودفعه إلى الرغبة في الثأر والانتقام متى سنحت له الفرصة . فالمنتصر الحقيقي هو ذلك المتسامح لا المنتقم ، إن فريدريش أدرك أن الاضطهاد قد يضطر العرب إلى الخنوع والذل ، أما العفو ، أما حسن المعاملة ، أما كرم الأخلاق فسيضطرهم إلى الإخلاص له والوفاء والتفاني في سبيل نصرته والعمل لمصلحته ، وقد وقع هذا فعلاً . فبالقرب من مكانه المحبب إليه هذا المستقر الملكي المعروف باسم

« فوجيا » فى إقليم « أبوليا » أنزل فريدريش الأشتوفى خصومه القدامى ومنحهم حرية العبادة والإخلاص للعقيدة، وهكذا أقام فى هذه المنطقة الاستراتيجية الحساسة فى شمال مملكته المستعمرات الإسلامية الحربية . لقد أنزل فريدريش العرب فى « جيروفلكو Girofolco » و « لوكيرا Lucira » وهما من أكثر المدن الإيطالية ازدهاراً بالسكان، وهناك كان يعيش نحو ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف أسرة عربية . وكان العرب بعيدين عن غيرهم ولهم أميرهم الخاص وحكومتهم الخاصة وكانوا يتمتعون بحريتهم كاملة ، فلهم مساجدهم التى يدعو فيها المؤذن إلى إقامة الصلوات الخمس يومياً وللعرب مستشفياتهم ومدارسهم ومكاتبهم وحماماتهم كما وهبهم القيصر حديقة للحيوان . فسلك فريدريش من العرب يدل حقاً على خبرة القيصر بالناس وحسن معاملتهم فضلاً عن بعد نظره السياسى . وهو إذا أقبل على هذا العمل فقد رجا أن يؤتى أكله مئات المرات .

والاعتراف بالجميل ، الذى اتصف به العرب ، يتجلى لنا فى مقابلتهم هذا الصنيع الكريم للقيصر وعفوه عنهم بالشكر والولاء . وأدرك فريدريش حسن طوية العرب وإخلاصهم له فاتخذ من شباب عرب « لوكيرا » حرسه الخاص فهم أبناء حرب وقاتل وشباب امتلأت نفوسهم حباً للقيصر فلا تهمهم تهديدات البابا أو وعيده كما أنهم لا يحترمون إلا القيصر ولا يأتزمون إلا بأمره فطاعتهم له عمياء وإخلاصهم لعرشه لا يعرف نهاية، وإن فرقة عربية تتألف من ثلاثين ألف مقاتل لن يتردد جنودها من خوض غمار الحروب دفاعاً عن قيصرهم وذوداً عن عرشه . وهؤلاء الجنود العرب يقفون رهن إشارة القيصر لاستخلاص النصر من بين أنياب الموت . ولم يتجمل إخلاص القيصر عند تجنيدهم فقط . بل وكل إلى عرب « لوكيرا » حراسة خزانة الدولة وممتلكاتها التى لم تكن تدر حتى ذلك الوقت إلا الدخل القليل . لذلك وكل القيصر إلى العرب الإشراف على القاعات الملكية وإدارة جميع أملاكه وضياعه الخاصة وأملاك الدولة والمصانع التى كانت تنجز جميع الأعمال التى يحتاج إليها القصر الملكى ، وكذلك المصانع العربية التى كانت تنتج السهام والأقواس والدروع والمجنات ومختلف أنواع المجانيق وكذلك اللجم وسرج الخيل ورجل الجمال والخيام والسجاجيد والستائر وغطاء الحيطان والوسائد المطرزة بالذهب والمطارح الحريرية.

ففي القاعات الملكية في « لوكيرا » و « مسينا » والأماكن الأخرى كان يطرز المطرزون الملابس الملكية بالحرير والذهب كذلك المفارش الفاخرة والسرج والأغطية المختلفة للخيول والإبل الموجودة في الإسطبلات القيصريّة . إن أعمال التطريز هذه كانت تقوم بها هذه الأنامل الرقيقة الجميلة الماهرة للآنسات اللواتي اشتهرن أيضاً بغزل الحرير والصوف والقطن ونسجه وحيآكته تحت إشراف الأغاوات . إن أولئك الآنسات كن سبباً في إساءة سمعة القيصر .

وكان فريدريش الثاني عندما يخرج بالشارات القيصريّة التي كانت غاية في الأبهة والعظمة ممتطياً صهوة جواده الذي أهدها إليه العرب—كانت تسير خلفه النوق والإبل سيرها الوثيد دون إحداث صوت أو جلبة وقد حمل بعضها بجزء من مكتبته ، ثم الفيلة المطهمة والبغال والقردة والنمر ، والعرب في ثيابهم الملونة والحباش السمر يحرسونه ، ثم نرى المسلمين رماة الحدق والخدم والخادّات المحجبات والأجنبيات فكان جميع هذا مادة طيبة للخيال . لذلك كان العجب يستولى على النظارة ويعتقد القوم أن للقيصر حريماً ، وهذا المنظر يؤيد الشائعة التي انتشرت مروجة أن للقيصر حريماً مما دفع البابا أن يشكوه باكياً إلى المجلس المقدس : « من عدا القيصر يستطيع أن يثبت هذه التهمة ؟ »

وكان كل طفل مسلم نابّه في بلاط صقلية يحمل مفتاحاً يخلو له الدخول مباشرة على القيصر ، وكان جميع الناس مع اختلاف ألوانهم وأجناسهم وعقائدهم وألسنتهم والذين يحملون الألقاب الرفيعة ، سواء عند القيصر . وإذا أظهر خادماً من خدمه نبوغاً واستعداداً لتحصيل العلم تعهده القيصر ويسر له السبيل ، وقد حدث أن المعلم يواقيم علم خادماً القصر عبد الله اللغة العربيّة قراءة وكتابة فأمر القيصر بصرف مبلغ من المال له . كما نجد الطفلين الزنجيين « مرسوخ Marsuch » و « موسكا Musca » يتلقيان علم النفخ في الأبواق الفضية التي صنعت خصيصاً لهما تنفيذاً لرغبة عالية .

كذلك نجد الطفل العربيّ العريض الجبين المتألق العينين والذي تبدو على محياه دلائل الفطنة والذكاء ينال رضا القيصر عندما شاهده واقفاً بين الخدم ، وهو ابن جارية مسلمة ووالد مسلم من البربر القاطنين في جبال مراکش فيسر له السبيل وفتح الطريق أمامه حتى بلغ أرقى مناصب الدولة . وكان هذا الطفل يسمى

« جيوفنى Giovanni » ويلقب « آل مورو » أى المسلم . وورد فى المذكرات تحت اسم « يوحنيس موريوس yohannes Morus » وهو الذى اشتهر بإتقانه عدة لغات مما حدا بالقصر إلى ترقيةه بسرعة فبعد أن كان أمين القصر رقاؤه إلى وظيفة كاتب أسرار المجلس الاستشارى القيصرى . ومثل هذا « المسلم » مثل « جورج الأنطاكى » العربى الذى حاز ثقة الملك روجير الثانى فرقاؤه إلى أعلى مناصب الدولة ثم أقطعه عدداً من الضياع .

ولم يكن حظ « المسلم » أيام القيصر فريدرىش الثانى أقل من حظه أيام الملك كونراد ، فى عهده تولى علاوة على أمانة القصر محافظة مدينة « لوكيرا » مسقط رأسه ، ومن ثم رقاؤه إلى وظيفة كبير أمناء المملكة الصقلية . فهذا التدرج فى الرقى الذى يشبه إطلاق الصواريخ والذى بلغه هذا العربى الفقير الأصل تلاشى فى أقل من وميض البصر ، وذلك لأنه سقط مرة وأفشى سر الأسرة الأشتوفية ممثلة فى الملك منفرد صديق العرب وحبيبهم للبابا ، فما كان من العرب أنفسهم إلا أن اقتصوا من هذا الحائن الوضع وقتلوه انتقاماً لكرامتهم التى أهدرت وإخلاصهم الذى لطمحه هذا الوضع بالعار .

أما وظيفته فقد تولاهها عربى آخر صقلى يحمل اسماً جرمانياً ألا وهو « ريتشارد » وكان على نصيب عظيم من العلم . وهو فى الأصل من رجال القانون فكان يعمل قاضياً ، ثم أصبح فى الدولة المسيحية كبير الأمناء ، ثم تدرج فى الرقى حتى عينه الملك مستشاره الخاص وظل فى منصبه دماً زهاء عشرين عاماً . وفى عام ١٢٢١م نجد هذا العربى الذكى المخلص الأمين يقف إلى جانب الملك البالغ من العمر الثامنة عشرة والذى كان يحاول الحصول على تراث والده ، فرافق « ريتشارد » الملك الشاب إلى المانيا ومنذ ذلك الحين أصبح رفيقه فى الحل والترحال ، فى الحرب والسلام . وقد تجلى إخلاص هذا العربى أيضاً عند موقفه من فريدرىش وأصبح هذا الإخلاص مضرب الأمثال ، وذلك لأنه حدث عام ١٢١٦ أن البابا « هونوريوس » الثالث لما أراد اختيار وصى لابنه الحبيب فريدرىش كتب إلى العربى « ريتشارد » الرجل الذى اشتهر فى روما بأنه موضع الثقة الوحيد لدى الأسرة الأشتوفية ، أعنى فريدرىش . ثم خلت وظيفة المستشار منذ أن فضل « فاليرفون فيلجيارا Waltir Von Baqliare »

— هذا الرجل الأناني والوصي المتقلب منذ عهد شباب فريدريش — الإقامة في الخارج . فبعد عودة القيصر من ألمانيا عام ١٢٢٠ م تولى العربى ريتشارد كبير أمناء مملكة صقلية إلى جانب عمله وزارة المالية والخزانة وكذلك الإدارة العامة للرأى . ومنحه سيده كثيراً من الأملاك فى صقلية وقد ظل هذا العربى قائماً بهذه الوظائف الخطيرة فى الدولة حتى وفاته عام ١٢٣٦ م وظهور هذا التغير الجوهري الخطير فى التشريعات القانونية فى مدارس الحقوق فى شمال إيطاليا ، وذلك بسبب وجود القاضيين « بطرس فون فينيا » و « ثاديوس فون سويس » فى البلاط الملكى . فقد انتقلت إليهما إدارة مصلحة الرأى بينما انتقل « يوجينيس موروس » إلى مصلحة الأمانة .

لقد بلغ وفاء ريتشارد للقيصر فريدريش حدّاً دفعه إلى مرافقته حتى فى حملته الصليبية ، ولم يكن هو المسلم الوحيد فى حاشية القيصر ، لذلك كان ريتشارد المسلم قذى فى عيون وعاظ الحملة الصليبية فاتهموه أنه نجس قدس الأقداس . أما القول بأن ابن الجوزى أستاذ القيصر فريدريش فى المنطق قد قام بدور الترجمة فى هذه الحملة بين القيصر والطرف الآخر فبعيد عن الصواب . وذلك لأن القيصر كان يجيد العربية إجادة تامة . وما يقال عن ابن الجوزى يقال أيضاً عن اشتراك حملة عربية إسلامية من أبناء « لوكيرا » فى هذه الحملة الصليبية . إذ أنه من المستبعد جداً أن يقاتل مسلمو صقلية مسلمى سلطان مصر وبخاصة أن القيصر فريدريش بما عرف عنه من صداقته للإسلام والمسلمين أحصف من أن يحاول هذه المحاولة وأن يزعج بالمسلمين من رعيته فى حرب ضد المسلمين فى الشرق وفى عكا . والآن نتساءل لماذا تظاهر فريدريش وكأنه المسلم المؤمن الحقيقى ؟ إنها حيلة دبلوماسية عظيمة أن يتقدم للمفاوضات فى الشرق وهو فى زى شرقى وتحيط به حاشية شرقية . إنها خدمة عظيمة لأن يفاوض السلطان كسلطان وبتقاليد سلطانية .

والرحلة التى سبق أن وعد القيصر فى « إكس لاشبل » بالقيام بها نفذها لكن ليس لسبب دينى ، إنها رحلة كما وصفها لأصدقائه العرب فى غير حياء أو خجل ذات فائدة سياسية هامة له وكان يتمنى أن يزور الشرق العربى ، هذا الشرق الذى كان يؤمن بعظمته ورقبه وتفوقه ، كما كان يحترم العرب ويعجب بهم كثيراً ويشعر

بفضلهم العظيم عليه وكم هو مدين لهم ، دين العالم لهم أيضاً ، فرحلته إلى العالم العربي ستمكنه من الاجتماع بأنداده .

لذلك لم تكن الدبلوماسية فقط هي التي دفعته إلى تبادل الهدايا والدخول في محاورات ومساجلات في الفروسية من العرب ؛ إنما كان يريد أن يثبت أنه ليس أقل من العرب شأنًا ؛ والواقع أن هذه النوايا قد ظهرت واضحة وتجلت عندما حرص سلطان مصر على المحافظة على الشعور الديني للقيصر ، فأمر المؤذن في القدس أن يتوقف عن الأذان طيلة إقامة القيصر ؛ كما نجد السلطان يعين القاضي شمس الدين مرافقًا للإمبراطور وملازمًا له طيلة مدة ضيافته وإقامته في القدس ؛ فدار حديث بين القيصر والقاضي : « أيها القاضي لماذا لا يؤذن المؤذنون للصلاة ؟ » فأجابه القاضي : « يا ملك الملوك إننا نعرف كيف نقدر زيارتكم » فتألم القيصر وقال له : « إنكم تأتون ظلماً في بلدكم ووطنكم من أجل ذلك بتغييركم عاداتكم وتقاليدهم ؛ إنكم لستم في حاجة إلى هذه المخالفات لو كنتم في بلادى ؛ وعلاوة على ذلك فقد سرنى جداً سماع المؤذن ليلاً » .

إن الرحلة إلى بلاد العجائب كانت للتسلية بالنسبة للآخرين لكن القيصر كان ينظر إليها وكأنها عودة إلى مصدر ووطن عقليته وثقافته التي تثقف بها ؛ فرحلته هذه تفتح الآن له عينيه وبصيرته وعند عودته إلى مملكته سيراعى تجاربه التي جمعها ويحاول تطبيقها .

لقد أقام في القدس يومين إلا أنه بالرغم من ذلك شاهد قبة الصخرة المقدسة وهي الثانية بعد الكعبة ، والإمبراطور يشبه جده روجير الثاني الذي اهتم اهتماماً كثيراً بمشاهدة كنيسة أو قلعة أو مستودع أسلحة فكان يتفقد هذه الأماكن تفقد الحبير « لقد شاهد كل شيء بعناية ودقة عظيمتين » هكذا ذكر الذي كان يرافق الإمبراطور كعضو بعثة شرف « أولاً شاهد المسجد من بعيد وأبدى إعجابه بجماله ومعماره والأثر الذي يتركه في النفس ثم فحص الحائط القائم على الصخرة وأبدى إعجابه ببنائه وبناء المنبر . ولكي يشاهد كل شيء تسلق حتى بلغ القبة وتأبطني عندما خرجنا » .

وفي القاعدة المشمسة الأضلاع والتي تعتبر من أكبر الآثار التي شيدها في حكمه

« كاستيل ديل مونتيه Castel del Monte » أغنى قلعة الجبل – نجد تخليداً
لذكرى القيصر لزيارته لقبة الصخرة ومسجدها .

إن الذكريات التي جمعها فريدريش من رحلته إلى الشرق ظلت ملازمة له
طيلة حياته كما أثرت فيه ووجهته التوجيه الذي امتاز به : ثقافة روحية نورمانية .
وشباب فريدريش الثاني الذي مضاه في صقلية .

على الأسس العربية

إلى جانب الثقافة المختلفة التي لعبت دوراً هاماً في حياة فريدريش الثاني وأعماله ،
هذه الحياة الغنية بكل شيء ، وهذه الثقافات المتعددة الأصل والجوهر كاليونانية
البيزنطية والرومانية القديمة والمسيحية الأوربية – كانت الثقافة العربية أبعد جميع
الثقافات الأخرى مجتمعة أثراً في حياة القيصر الأشتوني ، فالثالث الذي تجمع في
فريدريش وهو الوراثة النورمانية وانطباعات الشباب وتجارب الشرق . هذا الثالث
كان العامل القوي الذي تتجلى لنا آثاره في حياة فريدريش وأعماله .

والأدلة على ذلك المباني التي شيدها فريدريش الثاني وما أكثرها ، ففي مملكته
خلف أكثر من مائتي قلعة عدا الحصون والمباني الأخرى الجديدة أو المجددة . إن
هذه المباني هي خير ما يعبر عن تلك القوى وهذه الدعائم التي تقوم عليها دولة
فريدريش الثاني ، فهي مزيج وكأنها في مزيجها هذا إرادة قوية موحدة . في هذه
المباني نجد الأبواب التي ترجع إلى العصور القديمة والجمالونات والزخارف
والفسيفساء البيزنطية والقباب ذات الأضلاع القوطية ويتسلل إليها النور عن طريق
كوات على شكل ورود قوطية ونوافذ .

لكن الأسس التي قامت عليها هذه الحصون والقاعدة المعمارية التي روعيت
عند بنائها كمواقع للدفاع خالدة شامخة لا شك في أنها عربية .

ففي العالم الهندي الجرمانى نجد الحصون المستديرة وفي وسطها السكن ، كما أنها
تختلف نوعاً ما في الأبراج الإقليمية أو تلك المشيدة على الحصون حيث نجدها

متأثرة بالشىء المقدس القائم فى وسطها . كذلك نجد نفس هذه الفكرة فى المعسكرات فى العصور الوسطى حيث سلاح الفرسان .

أما الآن فقد تحولت إلى أبراج للسكن والإقامة للفارس وأسرته . وفى أعلى التلال وقم الجبال نجد أبراج الحراسة وحول البرج المقام نجد البرج الرئيسى الذى هو مركز الارتكاز وحوله دوائر مملوءة خشبية وخنادق وأسوار .

أما البرج العربى فشىء آخر ، فى أوائل العصر الميلادى نجد بلاد العرب الجنوبية تنهض به نهضة عظيمة متمشية مع سلاح فرسانها العظيم . فحصونها القوية المشيدة من الصخور قد جمعت إلى بعضها عن طريق معدن مصهور ، وقد ظلت هذه الحصون قائمة قروناً عديدة وهى ليست مستديرة الشكل بل مربعة وذات زوايا قائمة ، فقد انتزع سادة اليمن وحضرموت صخوراً من الحيطان مربعة الشكل يبلغ سمك الصخرة نحو خمسة أمتار ، كما أن ارتفاع البرج لا يقل عن ارتفاع عشرين طابقاً وقد أقاموها فى رمال الصحراء . أما الأركان الأربعة فكانت تحميها وتدافع عنها أبراج أربعة مصقولة ملساء ، وفى جوانب الحيطان الشائخة نجد الأبواب التى تحميها أبراج صغيرة . وفى أثناء الحروب تأوى إليها القبائل بإبلها وغنمها .

وفى القرن الرابع الميلادى نجد هذه الأبراج المتناسقة المشيدة على أسس وقواعد رياضية تنتقل إلى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، ومن ثم أخذت تنتشر حتى بلغت بيزنطة . وإلى القرن الخامس الميلادى يرجع تاريخ البرج الصغير المعروف باسم « قصر الخير » الموجود فى سوريا وطوله نحو سبعين متراً وزواياه قائمة وعليها الأبراج وأربعة أبواب للأبراج والحيطان . وبجواره مباشرة بنى حوالى عام ٧٢٨ الخليفة الأموى هشام قصراً فاخراً مثله تماماً إلا أنه أعلى وأضخم . وبين أبراج الزوايا الأربع تقوم حيطان يبلغ ارتفاع الحائط منها ثمانية وعشرين متراً وطوله مائة وسبعين متراً . وفى كل باب برج يحميه . وإبان حكم هشام بنى القصر انقضت الجيوش العربية فى أقصى الغرب من جبال البرنات على فرنسا ، ومع الجيوش العربية زحفت الأبراج العربية إلى أسبانيا والبرتغال وغيرهما فقضت الحجرية على الطريقة الخشبية القديمة التى كانت سائدة فى الأبراج الأوربية .

وعن عرب أسبانيا تعلم الفرسان الأوربيون وبخاصة فى فرنسا وإنجلترا كما أخذت

أوروبا هذا الفن المعماري العربي مباشرة من فلسطين وسوريا فالأبراج المعروفة باسم أبراج الصليبيين وأشهرها هذا المعروف باسم «مارد الفرسان» أقدم من الحروب الصليبية ولم يؤخذ عن الأبراج الأوربية للفرسان ، هذه الأبراج المستديرة كما يريد أن يقتنع المؤرخون الأوروبيون .

وهكذا نجد أيضاً القيصر فريدريش الثاني مثله مثل الفرنسيين والإنجليز الذين عادوا من الشرق يتأثر بفن المعمار العربي في قلاعهم الحكومية التي أمر بتشييدها . في العام العشرين حصن في صقلية جميع مراكز الدفاع التي تصدعت أو تهدمت ، هذه المراكز الدفاعية التي ترجع إلى العصرين العربي والنورماني ، كما استخدم التصميم العربي في مبانيه الجديدة التي أمر بتشييدها في سيراكوز وكتانيا . ولم يكف يعود من القدس حتى وضع خطة جديدة للبناء تطلب إنجازها عشرات السنين كما أقام في طول البلاد وعرضها شبكة من الأبراج الضرورية للدفاع عن البلاد وإدارتها ، ومن هنا أصبحنا نجد في «باري» و«تراني» و«برنديزي» وفي مدن أخرى كثيرة جداً ما يعرف في أسبانيا باسم «كوكا Coca» وفي فرنسا «باستيل Bastille» أي قلعة أو برج أوحصن وفي إنجلترا «بوماري Beaumaris» وجميعها قد أخذت عن العرب ، فالتصميم والفن والأقواس المدببة والسهام كلها عربية ، هذا إلى جانب الحيطان المربعة الضخمة وبعض الزخرفة التي نشاهدها في مباني فريدريش تبين بوضوح تصميمها العربي وكذلك الأسماء المنحوتة عليها تؤيد هذه الأصالة العربية . ومن هذه الأبراج الأشتوية التي أقامها فريدريش الثاني في جنوب إيطاليا مرت موجة تقليدها إلى شمال إيطاليا وألمانيا حيث نجدها في أبراج الطوائف البروسية . ووجودها في بروسيا لم يكن صدفة ، فمؤسس الطوائف الألمانية ورئيسها هو «هرمان فون سلزا» وفرسان جماعته وطوائفه كانوا في الواقع من حاشية القيصر الأشتوفي . ولم تتأثر هذه الطوائف الألمانية بهذا الفن المعماري العربي فقط بل بالأفكار أيضاً التي نقلوا الكثير منها من مملكة فريدريش إلى شرق ألمانيا ولو أن فريدريش نفسه جاء بها من الخارج ، من الشرق ، من العرب .

بينما كان القيصر الأشتوفي في ألمانيا كريماً كريماً يشرف الدولة ويرفع من شأنها ، ويغمر هيئات أخرى كثيرة ببعض الحقوق والامتيازات ، فعمّ كرمه الأساقفة

والأمراء والمدن والأديرة ، إذ به في مملكته صقلية يفعل عكس هذا . لقد تجرأ وأتى بتجربة عظيمة أراد من ورائها في بروسيا دولة الطوائف أن تكون مثلاً يحتذى في كل أوربا ، فقد أزال كل الأنظمة العتيقة البالية دون تردد أو شفقة وبسط المسائل المعقدة الملتوية والإجراءات العتيقة فنبه وأيقظ الغافل وكانت النتيجة المحتومة التي رى إليها خلق دولة من الموظفين تجمعت فيها السلطات في يد الملك الذي فرض إرادته عن طريق موظفي الدولة على سائر طبقات الشعب . وهكذا نجد دولة الإقطاع تختفي وتقوم مقامها حكومة الفرد ، حكومة مركزية ، حكومة موظفين .

ولم يكن فريدریش هو الأول في التاريخ العالمی ، وليس الإنسان في حاجة إلى ضرب الأمثال ، فروما وبيزنطة خير من يقدم الأمثلة ، ولكن هل ساهم العرب هنا أيضاً في خلق مثل هذا النظام ؟

كما أننا نشاهد في الأبراج التي بناها فريدریش الثاني وفي سائر أبنيته الجديدة الأعمدة الرومانية البيزنطية كذلك الحال في كيان الدولة النورمانية فقد اقتبست التصميمات المعمارية العربية وكذلك طريقة تشييد الحيطان العربية دون إدخال أي تعديل فيها وبذلك استطاع فريدریش مواصلة البناء دون صعوبة .

وحكم شعب غير متجانس الأصول والعقائد والتقاليد متمرد على الأوضاع القائمة التي خلقها نظام منذ ثلاثين عاماً اضطر الحاكم إلى إيجاد نظام قوى حكومي من الموظفين ، هذا مع إيجاد نظام حكم مطلق اقتبسه فريدریش من نظام حكومة السلطان الكامل ، وعلاوة على ذلك كانت الأحاديث المتبادلة ليلاً في الخيمة مع صديقه فخر الدين تتناول شتى المواضيع ، فهي لم تكن بالفلسفة فقط بل عاجلت أيضاً تنظيم الدولة وإدارتها حسب الأنظمة العربية المتبعة . وقد أدرك فريدریش أن العرب قد نبغوا في دولتهم في خلق نظام إداري قوى ، فسلطين الفاطميين في مصر كانوا أيضاً سادة صقلية واشتهروا بأنظمتهم المالية . وفي الواقع أن الجراف روجير الأول قد اقتبس في دولته القائمة في الجزيرة نفس النظام الذي كان سائداً من قبل أيام حكم العرب ، فأبقى على ديوان الخزانة والحسابات والإرداة والجمرك ، وهي التي كانت تعرف قديماً باسم ديوان الأحباس وديوان النظر ، وغيرها كتلك الخاصة بالتنظيم الإداري وما إليها ، وقد احتفظ روجير بأسمائها العربية وموظفيها العرب كما حرص

حرصاً شديداً على الحسبة لتنظيم المكوس والأتاوات والمكايل والموازن وإدارة الأملاك . والذي حدا بروجير على الاحتفاظ بهذا النظام العربي إعجابه به أولاً وتجنباً لما عساه أن يحدث من اضطراب وفوضى . كذلك استخدم أيضاً فرقاً عربية بضباطها وقوادها كما حرص على الاستفادة من أمراء البحرية العرب .

وحرب فريدريش ضد الثوار ثم الحملات الصليبية وفيما بعد حروبه المتصلة ضد البابا والمدن اللومباردية - كل هذه المشاكل مجتمعة كلفته أموالاً طائلة، وديوان الأحباس وديوان النظر وغيرهما من الدواوين العربية فقط هي التي مكنته من جمع الأموال اللازمة للمحافظة على كيان الدولة داخلياً وخارجياً . كذلك استن فريدريش سنة العرب في مسح الأراضي سنوياً وتقدير الضرائب حسب مساحتها وذلك تجنباً لما عساه أن يقع من ظلم عند تقدير الضرائب ، فأدخل هذا النظام أيضاً إلى صقلية كما تكونت لجان لتقدير الأراضي وتقدير الدخل ، وتقدير الضرائب ، ومقابل الجزية في البلاد الإسلامية التي فرضت على غير المسلمين فرضها هو في مملكته على المسلمين واليهود .

كذلك نجد الضرائب غير المباشرة التي فرضها العرب على المواد التموينية والمواد الكمالية تفرض على سكان صقلية كما كانت فيها من قبل . كذلك نجد احتكار الدولة لبعض السلع الخاصة والمناجم عاد ملكاً خاصاً لرئيس الدولة الذي كانت تتبعه إدارة المكوس . كما احتكرت الحكومة أيضاً بعض البضائع مثل الحرير وغيره من الحاجيات المنزلية ، فكما أن هذه الأشياء كانت حقاً من حقوق الدولة العربية منذ أواخر القرن العاشر الميلادي كذلك الحال هنا في صقلية فقد درس فريدريش هذا النظام وبخاصة إبان إقامته في الشرق ، وعند عودته فرض احتكار الدولة للملح والمعادن والقار والكتان ، كما استولى على تجارة الحرير وصباغته وجعلها حقاً من حقوق الدولة كما وضع تجارة الحبوب تحت رقابتها أيضاً .

كذلك من الأنظمة المثالية لأوروبا نظام المكوس الفرديشي ، فقد اقتبسه النورمانيون عن رعاياهم العرب إلا أن فريدريش نظمه تنظيماً دقيقاً جداً ، فألغى المكوس الداخلية الإقليمية التي كانت كل جماعة تفرضها حسب أهوائها واكتفى فريدريش بالمكوس القائمة عند حدود المملكة فقط . وعقب عودته من الحملة

الصليبية أقام في جميع الموانى وعلى الحدود الشمالية فنادق كتلك الموجودة في البلاد العربية وعلى امتداد طرق القوافل وفي الموانى حيث تأوى مئات الألوف من التجار والمسافرين . فجميع الصادرات والواردات يجب أن تخزن في مخازن خاصة تابعة لتلك الفنادق وتحت إشراف موظفين خصوصيين ، وكانت هذه البضائع توزن بموازين حكومية وتباع وتشترى وتفرض عليها المكوس .

وكان في الفنادق الحكومية مصرف لتبادل النقود، وهي أول الفنادق الحقيقية في القارة الأوروبية . وكان من عادات العرب التي امتازوا بها الحمامات لذلك كانوا يقدمون للمسافرين في فنادقهم الحمامات ، وقد استفادت البندقية والمدن التجارية الإيطالية الأخرى من هذه التجارب العربية الشرقية، فأدخل الأوربيون نظام الحمامات التي أثارت دهشة وإعجاب سكان الجانب الآخر من جبال الألب . كما استخدم القوم هذه الإصلاحات التي أدخلها العرب في صقلية . ومن ثم انتشرت في مختلف الموانى الشمالية الإيطالية . وعن طريق التجار أو طوائف الفرسان الألمان أدخلت الفنادق العربية الأصل إلى المدن التجارية الألمانية « هنزا » .

ومع الأشياء تأتي الأسماء فنجد الأسماء العربية تشق طريقها إلى العالم التجارى الأوربي مثل « فندق Fondaco » و « مخزن Magzin » . وكذلك « دار الصناعة Arsenal » و « حوالة Aval » و « ديوان Duane » و « جبل = ملح جبلى Gabelle » و « عوار Havarie » و « جبل Kabel » و « مخاطرة Mohatara » و « رزق Risiko » و « شيك Scheck » و « سمسار Sensal » و « استار استرلنى Sterling » و « طرح Tara » و « تعريف Tarif » و « تفريق Trafik » و « سكة zechine » .

ومنذ مائة وخمسين عاماً أو أكثر انتقل حكم صقلية من العرب إلى الأوربيين وبالرغم من ذلك ما زالت المسائل المالية والإدارة المالية موكولة إليهم بالرغم من أهمية الاقتصاد في حياة البلاد ، فأولئك العرب كانوا دعامة قوية للقيصرية فنشاطهم وإنتاجهم للقيصر فريدريش الثانى وبخاصة في حروبه كان على جانب عظيم من الأهمية.

إن العرب كانوا يكونون في ذلك الوقت الطبقة الممتازة في البلاد، فكبير الأمراء « ريتشارد » كان في الوقت نفسه بمثابة وزير مالية الدولة والمستشار المالى للقيصر ، وكانت جميع أموال الضرائب تسلم إليه لينفق منها عن طريق موظفين أمناء على

رجال الدولة والجيش والتسليح وسائر ما تحتاج إليه البلاد .
وكما كان الحال في القصر الملكي هكذا كانت الوظائف المالية الكبرى في جزيرة صقلية غالباً في يد عرب ، وكانت اللغة العربية هي لغة الدواوين المالية وما زالت تسمى حتى اليوم « ديوان Diwan أو Duana » كذلك اللغة العربية هي لغة موظفي الدرجتين الثانية والثالثة ، وعليهم تقوم الدولة ويعتمد القيصر وإليهم الرجوع . وحدث عام ١٢٤٤م أن المستشار القانوني المسمى وقتذاك « فرنندو كارا كيولو » أخفق في جمع الضرائب المستحقة بالرغم من الضائقة المالية التي تعانيها البلاد فغضب عليه القيصر وطرده وأسند منصبه إلى عربي .

ومن بين كبار موظفي صقلية . ذلك الموظف المعروف باسم « أوبرت فلامونا كا » وهو في الواقع ابن عبد الرحمن . وقد ترقى بجدده وكفايته من وظيفة المدير العام لمصلحة ضرائب بالرمو إلى المدير العام لمالية صقلية وامتد سلطانه حتى القصور الملكية .. وقد استخدم القيصر هذا الموظف النابه في الأعمال الدبلوماسية أيضاً . فقد سافر إلى أسبانيا ومراكش إلى قصر أمير المؤمنين كسفير للقيصر . كما ترأس مرة أخرى بعثة اقتصادية لإجراء محادثات تجارية مع سلطان تونس وقد تسلم مكافأة لهذه المهمة تقدر بنحو ثلاث وأربعين وثلاثة أرباع أوقية ذهباً . « وكان قد أنفقها على نفسه وعلى حراس وفرسان قنصل تونس وهو "هينريش عباس" وللأبل التي أحضرها من تونس في حضوره » وفي دولة كدولة الأشتوفى كان من المستطاع أن يصر هو على ألا يوقع اتفاقية أو وثيقة إلا باللغة العربية .

ولم يكن شغل الأداة الحكومية مقتصوراً على العناية بالموظفين والجيش بل أولت النباتات العربية اهتماماً صادقاً فقد اهتمت الدولة بمثل « الحنا » و « النيلة » و « قصب السكر » كما اعتنت بالفلاحين وعملت على رفع مستواهم الاجتماعي . وكانت عيون الدولة شأنها شأن العيون العربية يقظة في مراقبة التاجر وموازينه ومكاييله ، وكذلك العناية بتخزين المواد التموينية وحالتها . وكانت الدولة تعنى بفحص مواد التموين والمذابح التي يجب أن تقوم حسب الطريقة الشرقية خارج المدن كما درجت الدولة على اختبار الصناعات وموظفي المصارف والصيارفة والطبيب والصيدلي .

وكانت الدراسة تسير حسب منهج مرسوم ومدرس من قبل « ولا كانت دراسة

الطب تتطلب قبل كل شيء الإلمام بالمنطق لذلك تقرر ألا يقبل طالب في مدرسة الطب إلا بعد أن يمضي ثلاث سنوات من قبل في دراسة المنطق « ثم ينتقل إلى الطب فيقضى على الأقل خمس سنوات وكذلك الحال في الجراحة والتشريح مع إجراء تجارب عملية في الجثث . كذلك على طالب الطب أن يجتاز امتحانين أمام الكلية وأمام القيصر أو مندوبه . وبعد أن يجتاز الطالب الامتحان يمضي خمسة أعوام في المستشفى نائباً وبعد ذلك فقط يصرح له بمباشرة مهنة الطب . أما الجراح فمستوليته أكبر ورسالته أخطر ، لذلك لا يصرح له بمباشرة عمله إلا بعد الحصول على ترخيص خاص ، وذلك بعد أن يثبت إلمامه بعلم التشريح والطب إلماماً عظيماً .

فهذه المعلومات ضرورية جداً لإجراء عملية جراحية أو إتمام العلاج ومتابعته حتى يتم الشفاء . « وزيادة في الدقة » يجب عليه استخدام إسفنجة التخدير العربية التي أدخلها « هوجو فون لوقا » .

أما عدد زوار المستشفى يومياً وقيمة أتعاب الطبيب فقد حددتها الدولة . أما الفقراء فكانوا يعالجون دون مقابل ، كذلك الصيدلي كان يخضع لنظام خاص ينظم علاقاته بالمرضى أولاً وبالدولة ثانياً ، فالصيدلي كان يخضع دائماً لرقابة موظفي الصحة ورجال شرطتها . فهنا ندرك مدى التقدم الطبي الذي فاق نظيره عند الإفرنج لذلك لا يدهشنا أن نرى القيصر يتخذ من الطب العربي مثالا يحتذى . ولم يكن فريدريش هو أول من تنبه إلى هذا في صقلية بل نجد جده روجير الثاني يسبقه إلى هذا فقد أصدر قانوناً خاصاً بالطب والأطباء . ثم جاء فريدريش ونسج على منواله فوجه جل عنايته إلى الطب العربي واقتباسه كما أصدر قانوناً خاصاً بالطب في أوروبا .

وكما كان الحال إبان حكم العرب وسيطرتهم ، وكما عرف فريدريش من الشرق أدخل هو أيضاً نظام الحسبة العربي لمراقبة سائر المهن والتجارة والاقتصاد والصحة كما حرص على وجوب السهر على مراقبة هذا النظام واحترامه . وقد ظل نظام الحسبة قائماً في مملكته قرناً طويلاً . وفي عام ١٢٣١ أصدر القيصر مرسوماً بتعميمه في أوروبا أيضاً أي خارج الجزيرة . كذلك رفع من المستوى الصحي العام وشعر بضرورة وجود الحمامات ، فأهميتها لا تقل عن أهمية المدارس والمكاتب ، لذلك أكثر منها وجعلها عامة فأصبحت مدينة « لوكيرا » أنظف وأصح مدينة في القارة

الأوربية. وبلغ من حماقة خصوم القيصر أن أطلقوا عليه لقب «سلطان لوكيرا» ، ولا أدل على اهتمام القيصر باقتباس كل ما هو عربي صالح وإدخاله إلى بلاده من أنه عمم الحمامات في كل إقليم من أقاليم بلاده وكذلك المياه الجارية التي هاجمتها الكنيسة لأنها اعتبرت تبذيراً ، فكيف يستحم الفرد يومياً ، إنها جريمة . وبخاصة الاستحمام أيام الأعياد الكنسية ، إذ كيف يتجرد الإنسان من ملابسه ، إنها جريمة كبرى . إن القيصر الذى تعلم طفلاً وشاباً من الشعب يجب أن يهتم بما يفيد الشعب ويخدمه ، وهل هذا عجيب ؟

وهكذا نجد القيصر ينشط في تأدية خدمات عظيمة للشعب ترفع من شأنه وشأن دولته وبهذه الطريقة فقط استطاع بمساعدة موظفيه تنفيذ جميع هذه الإصلاحات فجعل من دولته أول وأعظم دولة مدنية مستقلة عن الكنيسة وسلطانها . أما موظفو الدولة فكان فريدريش يتطلب منهم ثقافة خاصة . لذلك أوجد القيصر جامعة نابولي لتخريج عدد كبير من العلماء الأذكياء النابهين كما حرص على إشاعة العدل بين أفراد الرعية لأنه أدرك أن العدل أساس الملك . وإلى جانب دراسة القانون . كانت تدرس في أول جامعة مدنية في أوروبا جميع فروع العلوم الأخرى عدا الطب الذى كان يدرس في « سالرنو » .

أما الشعلة المضئية في مملكة صقلية ونجم أوروبا اللامع فهو القيصر فريدريش الثانى .

محادثات على الحدود

من بين المؤثرات العلمية التي أثرت في تكوين عقلية وشخصية القيصر طيلة حياته البالغة ستة وخمسين عاماً: اللغة العربية . فهذه اللغة كانت أقوى العوامل أثراً في حياته وتوجيهه لا لأنه نما فيها وترعرع منذ طفولته حيث كانت عقلية متفتحة لقبول المعارف والاستفادة منها بل لطبيعته واستعداده وخصائصه . فقد وجدت جميع هذه الحصال في الثقافة العربية الغذاء الصالح ، كما وجد القيصر الطفل والقيصر الشاب في هذه البيئة العربية الجو الملائم لنموها وازدهارها .

فمن أسبانيا الواقعة في غرب القارة الأوربية زحفت العروبة والعربية على كل أوربا ، ومن أجزاء القارة البيضاء من استنكر هذا الزحف ومنها من أعجب به ، لكن على كل حال وقفت أوربا من زحف الثقافة العربية موقفاً سلبياً . فمن أسبانيا وفد قبل الحملة الصليبية العالم العظيم ، على القصر الملكي في صقلية حيث فريدريش . وعن طريق القيصر . عرفت أوربا الآراء الخطرة للفيلسوف العربي ابن رشد . لقد درس « ميخائيل سكوتوس » في أسبانيا وألم باللغة العربية إلاماً جيداً لذلك ساهم في تليطة في التراجم والترجمات العربية اللاتينية . وكان هذا كافياً لأن يزكيه لدى القيصر فيحسن استقباله . لقد جاء هذا الضيف العالم ومعه معلومات كثيرة جداً في مختلف المواضيع إلا أنه وجد في صقلية أستاذة : « أيها القيصر السعيد إني أعتقد حقاً إذا استطاع شخص أن يتجنب الموت عن طريق علمه فأنت هذا الشخص » ! وترجم للقيصر كتاب الحيوان لابن سينا . وشرح ابن رشد على أرسطو . وهو الكتاب الذي ظل مدة ثلاثين عاماً يزعم المسلمون المترمين والمسيحيين كذلك .

ابن رشد قاضي قرطبة . كان كذلك طبيباً وفيلسوفاً . وتوفي وقد بلغ اثنين وسبعين عاماً في قصر خليفة مراکش . وفي نفس العام وهو العام الذي تسلّم فيه فريدريش . أربع سنوات في بالرمو . التاج الملكي . أما مؤلفاته فتكاد تتفق ومشرب القيصر الأشتوني . وعند إلقاء النظرة الأولى عليها تبدو غير متطرفة بخلاف الوصف الذي توصف به « الحركة دائمة ولكل حركة سبب سابق وبدون حركة لا يوجد زمن . ولا نستطيع أن نتصور أن للحركة أولاً أو آخراً » . وهذا الفيلسوف القرطبي يؤمن كذلك إيماناً قوياً بأرسطوفيه كل الفلسفة . هذا رأى ابن رشد . وتتوقف المسألة على شرحه . وفكرة تجسيد المعرفة بجميع فروعها منذ ألف عام قبل مجيء الرسول . وقبل أن تعلن كلمة الله . كما يعتقد المسيحيون . كل هذا لا يمنع ابن رشد الذي يقدس أرسطو من أن يهتم بشرح فلسفة أرسطو والدفاع عنها ، وكأنه أرسطو نفسه . والواقع أن هذا الفيلسوف العربي الحديث عالج المسألة في شيء عظيم من البراعة . فابن رشد يقول ما مضمونه إن الخلق من العدم عبارة عن أسطورة فالعالم في الواقع هو خلق مستمر يخلقه الله ، والله هو المدبر للكون ومنظمه وهو روح

الوجود ، فهذه الروح الإلهية تلهم الروح الإنسانية العلم والمعرفة . . .

هل هذا الفيلسوف منكر وجود الله وغير مؤمن به ؟ حقاً إن ابن رشد يؤمن بحقيقتين ، حقيقة المعرفة وحقيقة العقيدة . لكن ألم ينسب إليه أنه ينكر خلود الروح ؟ إن هذا الرأي لا بد أن يكون قد صدر عن شخص لم يقرأه . فابن رشد يقرر أن تحويل جسد الإنسان المادى هو الطارئ لكن توجد وحدة روحية فقط . والناحية السلبية من الروح جزء من الجسد ويموت بموت الجسد وذلك لأن كل شيء فردى هالك . أما الجزء الإيجابي من الروح فهو الجزء الإلهى وليست فيه فردية وهو خالد . إنه مثل الشمس التى تضيء جميع الأشياء وهى خالدة . وهذا الجزء الإيجابي هو الجزء الإلهى فينا وهذا الجزء خالد أبدي خلود العالم وأبديته .

وخصم ابن رشد ذلك الذى يدعى « أن الفلسفة العربية ليست مستقلة وليس لها أصل » ! « حقاً » هل قرأ هذا الزنديق هذه العبارة : « ليس للعالم وجود ، إنه موجود فى العقل الذى يفهمه » .

إن أفكار ابن رشد تركت أثراً بعيداً فى القيصر فريدريش : إنها هى اللغة التى يتكلم بها القيصر نفسه : كلاهما جاءا إلى الوجود وكل يملك حق الدخول المباشر إلى هذا الوجود . كذلك شخصية أخرى شبت وترعرعت فى عصر الملك فريدريش وقد تأثرت بابن رشد تأثيراً قوياً بالرغم من معارضتها له .

توماس فون أكوين . جراف فون أكيرا . سفير فريدريش الثانى فى بلاط السلطان الكامل وحاكم القدس . كان له حفيد وابن أخ يسميان بنفس الاسم . أما حفيده توماس الصغير فهو ابن المستشار « أدينولف » فى صقلية . وقد تربى مع أخيه يعقوب . وهو الشاعر الذى ظهر فيما بعد كغلام يتعلم الفروسية فى القصر ثم تزوج « مرجريت » ابنة القيصر فأصبح بذلك زوج ابنة القيصر فريدريش الثانى . وأما ابن أخيه الأكبر والمسمى أيضاً توماس فهو ابن المستشار القضائى « لندولف » فون « أكوين » . وأخوه « رينالد » الذى أصبح مثل ابن عمه شاعراً ينظم الشعر على منوال الشعراء العرب فقد تربى تربية تؤهله أن يكون نبيلاً . غير أن ميوله كانت دينية فأثر أن يكون رجل دين إلا أن أسرته كانت تعارض فيه هذا الاتجاه لذلك لجأت إلى القيصر ترجوه أن يستعمل نفوذه لإثناؤه عن عزمه . لكن « رينالد » لجأ

إلى قاضى قضاة القصر وهو « بطرس فون فينيا » راجياً مساعدته واستطاع الهرب . لكن القدر أراد شيئاً آخر ، فقد التحق توماس بجامعة نابولي وأصبح من أكبر رجال الكنيسة الرومانية إذ حصل على لقب « دكتور أنجيليكوس » .

أما المجادلات التى قامت حول أرسطو وداعيته ابن رشد فقد أثارت انتباه الكثيرين ولم يستطع توماس أن يقف منها موقفاً سليماً ، ومما أثار الدهشة أن توماس خصمه أقره ووافقه على ما ذهب إليه فى كثير من شروحه وتأويلاته ، بل لم يقف توماس عند هذا فقط بل أخذ بوجهات نظر ابن رشد التى أفادت كثيراً فيما بعد فى المجادلات التى قامت بين المسلمين والمسيحيين ، وقد أقر علماء الطائفتين ماذهب إليه ابن رشد ، ومن هنا نشأت الهزلية التى جعلت قديساً من هذا الشخص الذى كان متأثراً تأثيراً قوياً بزندقة القيصر ، وهو يعتبر كابن للقيصر ومن أخلص المخلصين للأسرة القيصرية ، هذا الشخص أعلنه الكنيسة قديساً ، وهو أحد الآباء البررة للكنيسة وللمسيحية وعن طريقه رضيت الكنيسة عن أرسطو بل عن العربى المسلم ابن رشد مفسر أرسطو وأكبر مناصريه والداعين له . وأخيراً بعد أن تبينت جامعة باريس خطر هذا الفيلسوف العربى الذى أثر فى الفكر الأوروبى أثراً كبيراً . ظهرت العلوم العملية ومهدت الطريق لظهور الفكر الأوروبى وازدهاره .

وفى قصر فريدریش قام ميخائيل سكوتوس بأعمال الترجمة التى تولى القيصر نشرها بين الجامعات الأوربية المختلفة ، فأصبحت هى التوطئة إلى الفلسفة العربية . ومن هنا أيضاً فتح الطريق إلى الرياضيات العربية والأعداد العربية حيث نجدها مذكورة فى مؤلفات أمثال « ليوناردو فون بيزا » الذى كثيراً ما حل ضيفاً على القيصر وعلى صديقه ميخائيل . وقد أضاعت هذه الكتب الطريق لأوربا كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

أما فريدریش البحاثة العبقرى الذى كان دائماً مشغولاً بالأبحاث والاطلاع كما وصفه ابنه « منفريد » فقد كان يرى فى أفكار ابن رشد المصباح الوضاء الذى ينير له سبيل الحياة ، كما كان يأنس إلى رفقة ميخائيل ويعتز بصداقته ، فإليه كان يتوجه القيصر إذا ما عن له أمر هام أو عرضت له مسائل عويصة .

ويذكر ميخائيل سكوتوس فلكى القيصر المخلص أن القيصر استدعاه مرة ووجه

أسر الأسئلة الآتية: الخاصة بالأرض وعجائبها ، فكان القيصر وكأنه جاء من عالم آخر. ذلك القيصر الذى طرده البابا من الكنيسة يود أن يعرف كل شئ عن هذا العالم الذى يعيش فيه ، يريد أن يعرف الأبعاد والمساحات والأحجام فهو يسأل : كم عدد السموات الموجودة ؟ وكم عدد الأعماق ؟ وكان القيصر يوجه أسئلته فى شئ من الحياء والحذر ، فهو يسأل مثلاً عن حجم الكرة الأرضية : سمكها وطولها والمسافة بينها وبين السماء العليا . كذلك المسافة بين الأرض وأبعد الأعماق ثم هل هناك عمق واحد أو أكثر ، وإذا وجدت أعماق متفاوتة ، فما هى المسافة بين العمق والآخر ؟ كذلك نجد رغبة القيصر القوية فى معرفة الأعداد ، وهذه خاصية عرف بها روجير الثانى أيضاً. فهو كان حريصاً على تبسيط المعلومات وتجسيدها ليسهل إدراكها وفهمها عن طريق الأعداد . وهذه الظاهرة هى التى دفعت جده أن يقوم بالليل ويقيس حيطان مدينة نابولى لأنه أراد أن يعرف مقدار المساحة التى تضمها هذه الحيطان .

كذلك موضوع الخلود، فقد شغل فريدرش الثانى كثيراً إلا أنه كان يكم هذه الرغبة ، ثم نجد القيصر الذى حرم من الكنيسة للمرة الثانية يتجه إلى العلماء العرب ، فقد أرسل أسئلته إلى مصر وسوريا والعراق والأناضول واليمن ومراكش وسلمها سلطان الموحدين إلى الفيلسوف الشاب ابن سبعين فى كويتا، وكانت الفكرة السائدة عند هذا الشاب العربى ابن العشرين أن الإفرنج فى درك علمى منحط جداً ، واعتقد أن أسئلة ترد من أمير الجهلاء المسيحيين لا تحتاج إلى كبير عناء للإجابة عنها . وتسلم القيصر هذه الإجابة التى تحمل كل معانى الاستهتار من هذا الفيلسوف الشاب المغرور . وتحمل القيصر هذه الإهانة ضاحكاً وأرسل إليه هدية أزعجته . وهذا الاستهتار من هذا الشاب كان هو الوحيد الذى حدث ، وذلك لأن سائر الأمراء والعلماء العرب أدركوا أن توجيه هذه الأسئلة من القيصر تكريماً لهم وتقديراً لمعرفتهم واحتراماً لعقليتهم العربية . لذلك بذلوا كل ما فى طاقتهم لإجابة هذا الملك المحترم ملك الإفرنج عن أسئلته الدقيقة .

فتبادل الآراء كان قوياً وكثيراً بالرغم من مشاغل القيصر السياسية والإدارية ، وذلك لأن القيصر فريدرش لم ينظر إليها كوسيلة من وسائل شغل الفراغ أو التسلية

بل كان الدافع إليها كما يرجح عربى هو اختبار علم المسلمين .

أما العلوم الأوروبية والمعرفة الأوروبية فقد عجزت عن إشباع رغباته العلمية وإرواء ظمئه إلى المعرفة والتحصيل ، فالقيصر كان يؤمن بأن كل ما يجرى وكل ما هو كائن إنما هو شئ بدهى ، وكان فريدريش يطمع فى أن يجد شريكاً له صديقاً يرى فى الوجود ما يراه القيصر كما يرى الوجود كما هو ، أى كما هو كائن فى الحقيقة والواقع .

أما العالم العربى الذى غذاه بعلمه ونشأه فقد باعد بينه وبين أنداده . ففى العالم العربى كانت المسائل واضحة جلية ، ولا توجد أحكام تحد من تفكير رجال الدين الإسلامى أو من البحث والدرس ، لذلك ظل القيصر وحيداً . ولم يجد فى عصره من الأوربيين من يفهمه ، بل كان بالنسبة لزمانه فى أوروبا لغزاً من الألغاز . لقد كان فريدريش دائم البحث وراء أصدقاء يفهمونه ، أصدقاء فى مستواه العقلى والعلمى ، لذلك أرسل أسئلته إلى يافا ليتعرف على العرب ويتبادل معهم الأفكار العلمية والأبحاث الهامة ، ويجد فيهم الأصدقاء الذين يقدرونه وينقذونه من الوحدة والعزلة .

كان القيصر يرجو من وراء هذه المراسلات أن يحظى بتقدير العرب و صداقتهم . كان حريصاً على أن يخرج من هذا العالم الذى ولد فيه وشاءت الأقدار أن تجعله أوروبياً ، وكانت هذه التبعية الأوروبية تؤله وتؤذيه . إن القيصر كان يشعر فى أواخر أيامه وكأنه الغريب الذى يحن إلى العودة إلى وطنه الأصلى . إن ضربات الغدر القاسية التى كانت توجه إليه وبواجهها فى أوروبا لم تؤله إيلام البعد الروحى والعلمى بينه وبين معاونيه من رجال الدولة حتى إنه قال : أريد أن أبقى فى الشرق إلى الأبد !

ومن الوثائق التاريخية المؤثرة حقاً هذه الرسالة التى وجهها الإمبراطور فى العربية إلى صديقه فخر الدين بعد أن افترقا وقد استهلها بالبسملة .

ولعل الشئ الذى باعد بين فريدريش وعصره هو هذا الوحي العقلى الذى كان يتلقاه بين الحين والآخر من الشرق وطنه الروحى . وهذا التراث العربى هو الذى ميزه عن سائر معاصريه ، لذلك كان فريدريش يحاول دائماً الاتصال بهؤلاء الأنداد العظام . لقد استقبل البعثة العربية التى قدمت له كهدية مرصداً ذهبياً وقبة للأجرام السماوية متحركة استقبالا حاراً جداً لا للهدية فقط ، التى أدخلت إلى نفسه كثيراً

من الفرح والسرور وهو البعثة الذي لا يمل التفكير والاطلاع ، بل لملاقاة علماء دمشق الذين طالما أسعده الاتصال بهم . وحرص فريدريش على إبقائهم في ضيافته فظلوا شهوراً وشهوراً ، وبعد لأي ما سمح لهم بالعودة إلى بلادهم بعد أن احتفل بهم وكرمهم كثيراً وبالغ في الحفاوة بهم فأولم وليمة كبرى بمناسبة الهجرة النبوية الشريفة ، وكانت هذه الوليمة شرقية أبهة وكرماً . ولم يسبق لأوروبا أن عرفت وليمة تدانها عظمة وأبهة لكن ماذا يصنع القيصر وليس في مقدوره استضافة أعضاء هذه البعثة مدة أطول .

وقد تحدث العرب أنفسهم عن هذه المعاملة . ومن المهم جداً أن نشاهد القيصر بعيون عربية ونقرأ تقديراً عريباً أوحى به أخلاق وصفات وعبقريه هذا الملك الإفرنجي ، كما ندرك من خلال هذا التقدير العربي الأهمية الكبرى التي علقها العرب على اختيار هذه البعثة التي زارته والعناية القصوى في اختيارها . وذلك لأن مثل هذه البعثة يجب ألا يكون مستوى أعضائها أقل من مستوى بعوث القيصر إلى الأمراء العرب . ومن العبارات العربية نتبين كيف أن هذه البعثة قد وفدت على عالم فاضل لا يقل علماً ومعرفة عن أكبر أستاذ علم في الموصل .

وذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمته لكمال الدين بن يونس ما نصه :

هو كمال الدين أبو عمران موسى بن يونس بن محمد بن . . . علامة زمانه وأوحد أوانه وقدوة العلماء وسيد الحكماء قد أتقن الحكمة وتميز في سائر العلوم وكان عظيماً في العلوم الشرعية والفقه وكان مدرساً في المدرسة بالموصل ويقرأ العلوم بأسرها من الفلسفة والطب والتعاليم وغير ذلك . وله مصنفات في نهاية الجودة ولم يزل بمدينة الموصل إلى أن توفي رحمه الله .

حدثني القاضي نجم الدين عمر بن محمد بن الكريدي قال :

وكان ورد إلى الموصل كتاب الإرشاد للعميدى ، وهو يشتمل على قوة من خلاف علم الجدل وهو الذي يسميه العجم «جست» أى الشطار ، فلما أحضر إلى الشيخ كمال الدين بن يونس نظر فيه وقال : علم مليح ما قصر فيه مؤلفه ، وبقي عنده يومين حتى حرر جميع معانيه ثم إنه أقرأه الفقهاء وشرح لهم فيه أشياء ما ذكرها

أحد سواه . وقيل إن كمال الدين بن يونس كان يعرف علم الكيمياء من ذلك . حدثني أيضاً القاضي نجم الدين بن الكريدى قال : حدثني القاضي جلال الدين البغدادى تلميذ كمال الدين بن يونس وكان الجلال مقيماً عند ابن يونس فى المدرسة قال : كان قد ورد إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل من عند الأنبرور (كذا بالأصل وهى الأمبرور = الإمبراطور) ملك الفرنج ، وكان متفتناً فى العلوم - رسول وييده مسائل فى علم النجوم وغير ذلك ، وقصد أن كمال الدين بن يونس يرد أجوبتها فبعث صاحب الموصل إلى ابن يونس يعرفه بذلك ويقول له أن يتجمل فى لبسه وزيه ويجعل له مجلساً بأبيه لأجل الرسول وذلك لما يعرفه عن ابن يونس أنه كان يلبس ثياباً رثة بلا تكلف وما عنده خير من أحوال الدنيا فقال نعم . حكى جلال الدين قال : فكنت عنده وقد قيل له هذا رسول الفرنج قد أتى وقرب من المدرسة فبعث من تلقاه ، فلما حضر عند الشيخ نظرنا فوجدنا الموضع فيه بسط من أحسن ما يكون من البسط الرومية الفاخرة وجماعة مماليك وقوف بين يديه وخدام وشارة حسنة . ودخل الرسول وتلقاه الشيخ وكتب الأجوبة عن تلك المسائل بأسرها . ولا راح الرسول غاب عنا جميع ما كنا نراه فقلت للشيخ : يا مولانا ، ما أعجب ما رأينا من تلك الأبهة والحشمة ! فتبسم وقال : يا بغدادى هو العلم .

وفى عصر متأخر ظهر طالب آخر من أولئك المتحمسين لأستاذ آخر فى الموصل ، كان يحسد كمال الدين للشهرة التى بلغها وكان قد علم عن هذا الحدث الذى وقع لكمال الدين عن طريق السماع فقط ، إلا أنه ما زال ذاكراً صعوبة المسائل العويصة التى تقدم بها الإمبراطور إلى العلماء العرب ، وقد أثارت هذه المسائل كثيراً من الاهتمام .

ومن أهم الأشياء التى سمعها من كمال الدين أنه أيام حكم الكامل أرسل الإفرنج إلى سوريا بعض المسائل أرادوا منه (كمال الدين) حلها وهى تتناول مختلف المواضيع من طبية وفلسفية ورياضية . وقد استطاع علماء سورية حل المسائل المتعلقة بالطب والفلسفة ، أما المسائل الرياضية فقد عجزوا عن حلها إلا أن الملك الكامل أصر على وجوب حلها ، لذلك أرسلها إلى الموصل إلى المفضل بن عمر أستاذنا وقد كان فى العلوم الهندسية بارعاً جداً وبالرغم من ذلك لم يكن من اليسير عليه حلها



أستاذة تلقى في المسجد محاضرات عامة ومن بين المستمعين نرى عدداً من المستمعات عملاً بالحديث الشريف : « العلم فرض على كل مسلم ومسلمة »

فعرض المسائل على الشيخ ابن يونس . وبعد تفكير استطاع حلها وأرسلها إلى الملك الكامل في سوريا .

وجود شخص يستطيع أن يوجه مثل هذه المسائل العويصة دليل قوى على أن السائل قد بلغ مستوى العرب علماً وثقافة وهذه حقيقة سلم بها العرب . لقد أمطر هذا الرجل العجيب الذي كان يتربع على عرش أوروبا أمراء العرب بكثير من الأسئلة وبعضها قد حفظه لنا الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي وقد كان نابغة عصره في الفقه والعلوم الطبيعية والبصريات وغيرها ، وقد اهتم بكثير من المسائل التي كانت تشغل أهل عصره كهذه المسائل الوقحة التي اهتم بها المسيحيون واليهود ، تلك الخاصة بالتمثيل المقدسة التي تبكى دموعاً ويسيل اللبن من أثدائها . فقد أجاب القرافي على مثل هذه المسائل وعالجها بالرغم من احتقار أصحابها ولو أنه كان يقدر عليهم تقديراً عظيماً نظراً لحرصه الشديد على العلم والتحصيل . وهذه الحقيقة هي التي دفعت القرافي إلى القول في مقدمة كتابه « الاستبصار فيما تدركه الأبصار » : « وقد كتب الأنبرور (الإمبراطور) ملك الفرنج بصقلية سبع مسائل من الصعبة الشوارد والكلة الأوابد في زمن الملك الكامل يمتحن بها المسلمين ، فكان ذا دهاء وعلم وذكاء وفهم فسمعت أنه أجيب عن بعضها ولم أعلم أنه أجيب عن كلها والجالب لحصول الجواب عنها وتحقيق الصواب فيها أن الناس حينئذ كثير فيهم المحصلون وعلماء الملة متظافرون ، وقد جمعت في الكتاب هذا خمسين مسألة غريبة المدرك صعبة المسلك من المشكلات الحقيقية والغوامض العقلية من جنس تلك المسائل . . . »

ومن بين هذه الأسئلة الخمسين والخاصة بالبصريات يذكر شهاب الدين ثلاثاً منها منسوبة إلى القيصر فريدرش الثاني وهذه المسائل هي :

المسألة الحادية عشرة : « لم كانت المقاذيف والرماح وجميع الأشياء المستقيمة إذا دلى في الماء الصافي بعضها ترى معوجة إلى سطح الماء مع أنها ليست معوجة ؟ » وبعد أن يجيب القرافي على هذه المسألة ويشرحها يقول « وهذه المسألة من أعظم المسائل التي سأل عنها الأنبرور . »

المسألة الخامسة والعشرون : « قال الأنبرور لم كان سهيل يرى عند طلوعه أكبر

منه عند توسطه مع أنه لا رطوبة في الجنوب كما قيل في الشمس لأن البلاد الجنوبية صحارى يابسة فلم تكن عظيمة عند الطلوع بسبب اجتفاف الرطوبة ؟ »

المسألة الثلاثون : « قال الأنبرور لم كان صاحب البخار ومبادئ الماء يرى الحيوط السود شبه البق والناموس خارج عينه مع أنه لا شيء خارج عينيه من سلامة العقل الموجب لعدم الغلط وكيف يرى شيء داخل الحدقة مع أن الأشياء القريبة من الحدقة جداً لا ترى فلا يرى أحد ما التصق من جفنه على حدقته » .

والواقع أن مثل هذه الأسئلة التي يوجهها الأمير المسيحي تدل على كفاحه في سبيل تمزيق حجب الجهالة المنتشرة في أوربا ومثل هذا الجهد قد قابله العالم العربي بكل تقدير وإعجاب وهذا يؤكد ما قاله سياسي عربي في القيصصر فريدريش الثاني : « والواقع أن العالم المسيحي لم يعرف منذ عهد الإسكندر حاكماً كهذا » .

فهذه الشهرة التي تمتع بها القيصصر جذبت إليه مسيحياناً يعقوبياً من أنطاكية وكان قد درس على كمال الدين بن يونس في الموصل الفلسفة والرياضيات والفلك ، كما درس الطب في بغداد ثم تعرف على رسول الإمبراطور في قصر حاكم أرمينية ، ومن ثم توجه إلى مقر القيصصر في « فوجيا » حيث نجده وهو المعروف باسم السيد تيودور في مناسبة استقبال القيصصر لليوناردو غون بيزا .

ثم توفي فيلسوف القصر وهو ممثل العلوم العربية الغربية الأندلسية واسمه « ميخائيل سكوتوس » وكانت وفاته إبان رحلة قام بها مع القيصصر عام ١٢٣٥ م في ألمانيا ، لذلك عين القيصصر فريدريش الثاني السيد « تيودور » ممثل العلوم العربية الشرقية خلفاً له ، وقد أبدى « تيودور » في هذه الوظيفة الجديدة أعنى كبير فلاسفة القصر نشاطاً عظيماً وظل هذا العربي متقلداً هذا المنصب حتى قبيل وفاة القيصصر بشهور قليلة . وتقول الشائعات إن هذا العالم واسع الاطلاع هو الذي كان يعد الدواء والمواد المسكرة للقيصر ، لذلك اتهم بالمسؤولية في وفاته ويقال إنها تسببت عن كثرة مسكرة أعدتها يد خائبة فكانت سبباً في نكسة القيصصر فوفاته .

وكان هذا العربي الواسع الاطلاع كثير التدخل في أعمال القيصصر إذ كان يتناقش مع القيصصر حول مسائل رياضية وفلكية ، كما وضع له تقويمياً وشارك في أعمال المجلس وكان يقوم بجمع المراسلات مع الحكام العرب ، وكثيراً ما سافر في بعثات

سياسية إلى قصور أمراء العرب ، ويعقد باسم القيصر المعاهدات التجارية . وكان كذلك بحكم وظيفته أيضاً كبير أطباء القيصر يعد بنفسه الأشرطة للقيصر. ولسائر موظفيه كما ألف للقيصر في أسلوب جيد جداً رسالة في وجبات الطعام وقد وضعها بعد تفكير عميق وفيها يرشد القيصر إلى وجبات طعامه كما وكيفاً من حيث النوع والكمية والتوابل اللازمة وجميع هذا موزع حسب الوجبات اليومية . كذلك المشروبات والأنبذة وتقلب الطقس وتغيير درجات الحرارة بالانتقال من جهة إلى أخرى والهضم والنوم والجماع . فهذه رسالة تعتبر معجزة حقاً وكانت في أوربا وقتذاك كالماصة بين الأحجار .

كذلك صدر أمر قيصرى إلى السيد تيودور بترجمة عدد من المؤلفات العربية في العلوم الطبيعية ، كما أبدى القيصر رغبته في تصحيحها بيده ، فكان يمضى وقته في مشاته أمام أبواب « فايتزا » المحاصرة مطلقاً على تقرير لتيودور حول الصيد . والمؤلف العربى لهذه الرسالة كان يعيش قريباً جداً من فريدريش وكان يعنى بصقور القيصر . وكان هذا الرجل يحب قيصره أكثر من الصقور ونشأت عن هذه العلاقة الرغبة في الصيد بواسطة الصقور .

ميلاد نظرة جديدة للعالم

تجمع بين الجرمانى والعربى النظرة القوية الفاحصة للطبيعة كما هى ، وقد فقد المثقفون الأوربيون هذه الصفة . فكل من القيصر ومدرّب صقوره وابنى القيصر « أنزيو » و « منفريد » والمشرف على خيول القيصر وهو مؤلف رسالة في علاج الخيل – هؤلاء جميعهم من بين أولئك الذين يرون بعين شبه مغلقة ، أما هم فهم المبصرون فقط وهم الذين يعرفون المسائل الطبيعية ، كما يقرر ذلك فريدريش نفسه . إنهم أساتذة في إدراك وملاحظة وفحص الحقائق المحسوسة .

لكن لم يحصل أن الأوربيين انظروا إلى الطبيعة لذاتها ، وقد رأينا العصور الوسطى تهتم بكتاب خاص وتغرم به ، وهو كتاب « فيزيولوجوس » الذى يتحدث

عن النملة والأسد وقد ولد لهما حيوان أطلق عليه اسم الأسد النملى ، وقد مات هذا الحيوان بمجرد ولادته وذلك لأنه عاجز عن إطعام نفسه أو غير قادر على ذلك فموتاً يموت . والدليل على صحة ذلك ما ورد في الكتاب المقدس حيث ذكر : أن الأسد النملة يموت جوعاً ؛ وذلك لأنه من طبيعتين فإذا دفعته طبيعة من الطبيعتين إلى أكل اللحم رفضت الطبيعة الأخرى أى طبيعة النمل التى تشهى أكل الحبوب ، ولكن النمل يريد أن يعيش على الحبوب وهذا يتعارض وطبيعة الأسد لذلك فهو محروم من اللحم والحبوب ومن أجل ذلك يموت . وهكذا أولئك الذين يريدون أن يخدموا سيدين فى وقت واحد الله والشيطان ؛ إذ بينما يدعوهم الله إلى الطهارة يحضهم الشيطان على ارتكاب الجريمة .

فبدت كلمات فريدريش وكأنها رعد أو برق فى ذلك المجتمع الساذج : إن هدفنا هو إظهار الأشياء كما هى فى حالتها الطبيعية الحقيقية .

فهذه الكلمات وهذا الصنيع الذى سبقها وهذاها كان نقطة التحول فى موقف أوروبا ونظرتها إلى العالم والتعرف إلى كنهه وحقيقته .

إن هذا القيصر المثقف العالم العظيم الذى كان مشغولاً بالاطلاع مقبلاً عليه فضلاً عن هذه المقدرة العلمية التى اكتسبها منذ طفولته ، كان — بالرغم من ذلك — لا يثق فى المكتوب بقدر ما يثق فى عينيه ، كما أن الإنسان لا يحصل على شىء حقيقى يقينى عن طريق السمع . إن حديقة الحيوان هى خير ما يقدم للإنسان البصير الحقائق ، كما يطلق عليه ذلك العرب . عن طريق النظر إلى الكائنات وطرق حياتها وعاداتها فقط ، إنه يتأمل عصافيره فى جنته التى شيدها لها ، وفى دقة وعناية وصبر لا يعرف الملل والكلل يشبه ذلك الذى يستخدمه الفلكى العربى عندما يتتبع حركات النجوم وجريانها . إنه يصف تشريح الطير وعاداته وطيرانه وصفاً دقيقاً واضحاً وطبيعياً يشبه ذلك الذى يجريه الأطباء العرب على مرضاهم وهم على سرر الموت .

وكتابه عن : « حول فن الصيد بواسطة الصقور » الذى وضعه استجابة لرغبة ابنه « منفريد » — بالرغم من كثرة الوقت والجهد اللذين يتطلبهما تأليف مثل هذا الكتاب من السنين العديدة والدقة والعناية — هذا الكتاب يحوى أكثر مما يدل

عليه عنوانه . إنه كتاب خاص بعلم الطيور ودراستها دراسة علمية دقيقة ، والشئ الجدير بالذكر أن هذا الكتاب ظهر في ثوب لم يكن يحلم به المؤلف ، وهو طليعة العلم التطبيقي الحديث .

فكل ما يذكره هذا الكتاب يعتمد على تجارب المؤلف الخاصة أو تجارب آخرين حيث لا يستطيع فريدريش الملاحظة أو إجراء التجارب . وفي تلك الحالات كان يكلف باحثين خصوصيين يعتمد عليهم ولم يكن يبخل عليهم بالمال اللازم حيث يتصل الأمر بالعلم والمعرفة ، وأحياناً كان يحصل على المعلومات التي يريدونها عن طريق اتصاله بالأمراء العرب الذين كانوا يقدرون أهمية البحوث العلمية ويغرمون بها وبخاصة في مصر أو في جهات أخرى .

لكن فريدريش لم يذكر موضوعاً من هذه الموضوعات إلا وقد فحصه ودقق فيه وتأكد من قيمة البيانات الواردة بخصوصه أو عن طريق من يوثق بهم ، وكان هذا يجري مجرى مذهب ابن البيطار النابقي العربي حيث ذكر في مقدمة كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . . « صحة النقل فيما أذكره عن الأقدمين وأحرره عن المتأخرين ، فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبر لا الخبر . . . وما كان مخالفاً في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية في المنفعة والمأهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدل فيه عن سواء الطريق نبذته ظهرياً وهجرته ملياً » .

وقد ترجم فيلسوف القصر « ميخائيل سكوتوس » علم الحيوان لأرسطو وشرح ابن سينا إلى القيصر العالم . من اللغة العربية ، كما قرأ القيصر في اللغة العربية كتباً حول الصقور والصيد بها كما قرأ الرسالة التي وضعها مدرب صقوره وهو العربي مؤمن . وقد تأثر القيصر كثيراً في هذا الاتجاه بالمراجع العربية المختلفة التي اطلع عليها وبالرغم من ذلك كان مستقلاً في رأيه وتفكيره فلم يكن من السهل عليه قبول أي رأى أو الأخذ به ما لم يقتنع هو به وبصحبته « لقد اتبعنا أرسطو حيث تقضى الضرورة بذلك لكن في كثير من الحالات التزمنا ما علمتنا إياه التجارب وبخاصة في الطبيعة . إن طيوراً خاصة أخطأ أرسطو في حكمه عليها ، وفيما قاله عنها لذلك خالفنا أمير الفلاسفة وعارضناه في كل ما ذكره ، وذلك لأن أرسطو لم يسبق له صيد العصافير أو نادراً ما مارسه ، أما نحن فقد أحببنا هذا

الصيد ومارسناه كثيراً .

إن جميع هذه المعلومات وتلك التجارب قد حصلها في أحسن مدرسة عربية حيث لا غموض ولا إبهام ، إننا لا نجد هنا ذلك الظلام الدامس فكل شيء نراه واضحاً وحرّاً ، فجميع فروع العلوم والفكر في متناول التجارب والملاحظات . هنا كل شيء منظم ويتبع طريقة واحدة ويبحث في شيء من الدقة والعناية ولا يصدر الحكم ارتجالاً ودون ترو . وهذا الموقف من البحث العلمي والدقة في إصدار الأحكام كان إشباعاً للذة التي كان يشعر بها الباحث عند إدراكه كنه هذه الظواهر الطبيعية ونشأتها ووحدتها المستقلة وقوتها التي تؤثر فيها ، وهذه الحقائق وتلك النتائج تستحق حقاً أن يتغاضى الإنسان عن المؤثرات الخارجية التي تؤثر في هذه المظاهر الطبيعية . وعوضاً عنها يهتم الإنسان بالأسباب والمسببات .

ففي المدرسة العربية نشأ فريدريش الثاني ورضع العلم منذ الطفولة حتى أصبح أستاذاً . وإبان عصر إحياء العلوم نجد هذه الفترة الزمنية تتشبه بعوامل أخرى ، إلا أن فريدريش ألقى عكازه الذي كان يعتمد عليه لأنه أصبح في غير حاجة إليه ويستطيع السير بدونه ، فهو لا يتعلم ويقتبس فقط بل أخذ يخلق ، وبذلك أصبح مؤسس العلوم الحديثة ، وهو يأتي بصفته هذه في طليعة جماعات كثيرة هو جدها الذي خلقها ، إنه صاحب الفضل في خلق هذه الجماعات العلمية وبخاصة تلك التي قامت إلى جانب المتكلمين والإنسانيين والمصلحين . فقد خلق فريدريش فوق أولئك وطار إلى أمثال «ألبرتوس مجنوس» و«روجير بيكون» و«ليوناردو ده فينسي» و«فرنسيس بيكون» و«جاليلي» ومن ثم إلى العصر الحديث . فهل القيصر هو البادئ ؟ أو أنه حلقة في السلسلة التي تمتد من الحركة العربية العقلية ، وذلك لأن «ألبرت الأكبر» و«روجير بيكون» و«ليوناردو» هم أيضاً من أولئك الذين يقومون في الواقع على أكتاف العرب .

والشيء الجدير بالذكر أن خطأ مستقيماً يبتدىء بالعلوم العربية ويسير متجهاً إلى القصر الملكي الصقلي ومن ثم إلى فريدريش الثاني ، وتحدثنا القصة أن القيصر الأشتوني زار الجراف السويبي والدومينيكاني «ألبرت فون بولشتيدت» الذي كان قريباً في تفكيره وعقليته من القيصر ، في حديقته بمدينة كولونيا . ومن المؤكد أنه

كانت هناك صلة بين فريدريش وبين معلم ألبرت ألا وهو « هينريش فون كولن » وقد أعاره مخطوطة لابن سينا ونسخته الخاصة لابن رشد لكي ينسخهما . ومن المؤكد أيضاً أنه أطلع ألبرت لا على هاتين النسختين فقط بل على نسخة للقيصر نفسه وهي « فن الصيد بالصقور » فهذه الكتب كانت موضوعاً على مكتب ألبرت ، ويبدو لنا كما لو أن صوت فريدريش أو صوت ابن البيطار العربي هو الذى يدوى عندما يقدم كتابه فى مفرداته حيث يقول : « صحة النقل فيما ذكره عن المتقدمين وأحرره عن المتأخرين ، فما صح عندى بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخبر لا الخبر ادخرته كنزاً سرياً .. وما كان مخالفاً فى القوى والكيفية والمشاهدة الحسية فى المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله عدل فيه عن سواء الطريق نبذته ظهرياً وهجرته ملياً .. ولم أحاب فى ذلك قديماً لسبقه ولا محدثاً اعتمد غيرى على صدقه .. » فمؤلفاته لم يدونها على مكتبه ، هذه المؤلفات الخاصة بالنبات والحيوان . فللمرة الأولى نجد باحثاً أوروبياً يتجول فى أوروبا بعينين مفتوحتين فى الطبيعة ، كما يفعل العرب وكما يفعل القيصر فنجد العالم الألمانى يتخذ من هذه الألفاظ ألفاظه ومن هذه العقلية مبدأ له فيقول : « إن رسالة العلوم الطبيعية ليست نقل أو تدوين ما ذكره ويذكره الآخرون بل تحليل وشرح العوامل والعناصر المؤثرة فى هذه الظواهر الطبيعية » .

وهكذا نجد ألبرت الأكبر ينسج على منوال قيصره ويصبح مجرباً فاحصاً ولو أنه هنا هاو وبخاصة إذا ما قورن بمثل « روجير بيكون » الذى كان ينادى بالتجارب . فإلى جانب الطرق العربية الشرقية التى تصل مباشرة إلى العالم الإنجليزى ، وكذلك الإنجليزين اللذين زار أحدهما الشرق فترجم المؤلفات الرياضية العربية واسمه « أثيلهارت فون باث » وأستاذه فى البصريات المسمى « جروستستا » أو عن طريق أستاذه الفرنسى المسمى « بطرس فون ماريكورت » الصليبي الذى أحضر معه من العرب البوصلة والمغناطيس ، وغير هؤلاء نجد طرقاً أخرى تصل إلى العالم الإنجليزى وهى عبارة عن قنطرة تربط بينه وبين القصر الملكى فى صقلية ومواطنه « ميخائيل سكوتوس » .

فى صقلية هذه التى ظلت قروناً عديدة نورمانية أشتوفية ، ولدت أوروبا

الحديثة ، وكانت العبقرية العربية هي المولدة ، ففي هذه الدولة التي كانت تقع بين عالمين التقى فريدريش الثاني بعقليته الجرمانية مع العبقرية العربية ، وبذلك تحققت النبوءة التي تنبأ بها « جوتفريد فون فيتر بو » لقيصره هينريش السادس قبل أن يرزق بهذا الطفل : « إن فريدريش هذا سيكون حمالة السلام بين الشرق والغرب ، ولو لفترة قصيرة في السياسة وإلى الأبد في الحياة العقلية » .

إن القنطرة التي أقامها فريدريش الثاني بين الشرق والغرب كانت السبب في ظهور جيل جديد وعقلية جديدة تنظر إلى العلوم الطبيعية نظرة فاحصة ناقدة مجربة ، فكان الأثر العقلي المتبادل هو الخالق لهذا التطور العلمي الجديد في أوروبا ، وكانت صقلية هي حاملة هذه النهضة العلمية الجديدة ، وعنها أخذت أوروبا في البناء الأوربي والموسيقى والشعر ، لا الفصاحة والبلاغة وسائر عبارات المجاز والاستعارة ، بل الأفكار البناءة القوية الثابتة ، وقد جاءت الأخيرة أوروبا عن طريق العرب من أسبانيا .

وتحت الجبة الفضفاضة البيضاء الصوفية التي يرتديها رهبان القديس برنارد تناول زعيم الملحدن الذي كان في حقيقته مسيحياً - شهادة الموت ، وفي قلعة تقع في الطريق بين قصره العزيز إليه في « فوجيا » ومدينة « لوكيرا » المسلمة حيث توفي القيصر فريدريش الثاني في ١٣ ديسمبر ١٢٥٠ ، وميتاً أقفلت الدائرة وميتاً عاد فريدريش الثاني إلى بالرمو ، إلى المدينة التي قضى فيها شبابه العجيب المليء بالمغامرات وفيها دفن مع والديه وأجداده النورمانين .

في بالرمو يضطجع فريدريش الثاني ليس في جبة رهبان القديس برنارد بل في معطفه الذي يزينه النسر ، هذا المعطف الأحمر لسيد العالم وإلى جواره سيفه في غمده العربي . وأما كفته فطرز تطريزاً جميلاً وعلى أطرافه كتابة على الشريط مذهبة طرزتها له أياد عربية ، طرزتها لصديق الإسلام والمسلمين وتلميذ المسلمين الوفي الأمين ، وعلى كفه كتب إهداء إلى السلطان .

الفنون العربية الأندلسية

وجاء الحق
الذى بلغه أيضاً محمد
فبالتوحيد
ساد العالم
(جوته الديوان الشرق الغربى)

الصور الأولى للعبارة الألمانية « السيدة المحترمة »

أرجوك أيتها السيدة الفاضلة أن تقبل عذرى واسمحي لى أن أظل دائماً عبدك
الذى يقدر كل التقدير .

رينز ماريا ريلكة

« وليس هذا خطاب حب وغرام ويجب أن أختم كما بدأت : أيتها الأنسة
الفاضلة أسمحين لى أن أقدم خالص احتراماتى » .
المطيع لك كثيراً

فريتز فرايهر فون ليليا نكرون

فسواء أكان هذا ماساً حقيقياً أم بلوراً فهذه الحلية التى تتحلّى بها ملكة القلب
أو زوج الرئيس ، والتى توضع عند قدميها هذه الحلية وتلك الباقة من الألفاظ
الرفيقة ، مستوردة من الشرق العربى ، وهذه العبارات منذ أن انتقلت إلى ألمانيا
وأوربا أخذت تنتقل من يد إلى أخرى ومن أخرى إلى أخرى وتتغير الصيغة مع مضي
العصور واختلاف البلاد فحذف منها أو هذب ، وما زالت بالرغم من جميع ذلك

محتفظة بأثرها السحري ومفعولها العجيب عندما يستخدمها المحب الوهان عند مخاطبته
حييته في القرن العشرين .

وإذا كنت غداً في خطابك المرسل إلى السيدة المحترمة وتوقعه بامضائك على
أنك خادمها ، ولو أنك لست خادمها المطيع ، فإنك على كل حال « الخاضع كثيراً
فلان . . » إنك بهذه الصيغة تمجد العروبة وتقدم لها شكرك واحترامك . وفي كل
حفلة أو مناسبة كريمة في القرن العشرين وحيث تتاح لك الفرصة لتحقيق رغبة في
تقبيل يد سيدة ، فإنك تبرهن لها على مكانتك ، وحيث تسيطر عليك مشاعرك
الحقيقية وذلك بركوعك أمام حييتك فإنك مقلد لمحب عربي .

وإذا كررت هذا الصنيع وهذه اللغة وتلك الإشارات . وأنت في موقف
الاستسلام والخنوع والخضوع أمام السيدة التي تقدسها ، فإنما تأتي بعادة ثانية
اكتسبتها أوربا من العرب ، وكانت قبل الاتصال بهم تجهلها جهلاً تاماً ، وقد تعلمتها
أوربا عن العرب ، كما تعلمت أشياء أخرى كثيرة ، وهي تمارسها بالرغم من
المتاعب والمشاق التي تتطلبها لأسباب تربوية كثيرة ، وقد يقدمها الزوج إلى زوجه
لوقوعه في خطيئة حواء وضعفه واستسلامه . هنا نجد استسلام الرجل لإرادة المرأة ،
وهناك استسلام المرأة لإرادة الرجل . وهكذا نجد نوع العلاقات الجنسية وقيامها
بين الاثنين والذي ظل في أوربا قروناً طويلة موضوع نزاع حول محاولة كل
طرف إحراز النصر على الآخر . والواقع أن العوامل التي نشأت بين الرجل
والمرأة من حيث الرغبة في السيطرة ، وأن كلا يشعر أنه هو صاحب الحق - أن
هذه العوامل في الواقع دخيلة على أوربا غريبة عن الأوربيين .

وذلك لأن استسلام الرجل للمرأة وضعفه أمام السيدة المحترمة التي رفع من
مكانتها وجعلها في مستوى الآلهة في هذا المجتمع الذي نعيش فيه عبارة عن شيء
رمزي فقط ، وقد أقبل عليه الرجل بمحض إرادته ، أو أنه شيء بغيض مكروه حقير ،
إذ كيف يقبل شخص الفناء نهائياً أمام كائن رفعه ووضعه في مصاف الآلهة وأصبح
عبارة عن مجاز شعري يقف منه موقف الخادم الدليل المطيع . إن هذه الطبيعة تغاير
تماماً طبيعة الطريقة التي سلكها الحب الجرمانى الذي يقوم على المساواة بين
الشخصين واحترام الحقوق والحرية .

فالحب الجرماني لا يعرف توزيع الأدوار الموجودة في غراميات البحر الأبيض المتوسط ، إن الحب الجرماني بعيد جداً عن المؤثرات الأجنبية ، فهو لا يعرف استسلاماً وفناء وضياح شخصية طرف من الطرفين ، بل يقوم على حب متبادل واحترام متبادل يتطلب الرضاء والإعجاب المتزايد . الحب الجرماني يتعارض مع قول الكتاب المقدس «ليكن سيدك» وهكذا نجد الكنيسة تمزق الصلات بين الرجل والمرأة ، الكنيسة هي التي تقضى على صلات المساواة كما جعلت من المرأة كائناً خاضعاً لقوة الرجل وهذه استجابة لإرادة الله الذي شاءت مشيئته أن يفرق بين الجنسين فسلح الرجل الأوربي بكل وسائل القوة التي تحت تصرفه .

لكن بالرغم من موقف الكنيسة هذا نجد العادات العربية والتقاليد العربية تنتصر وبدون قوة ، بل بالاعتراف بالحياة والأخذ بأسبابها . وهذا الموقف هو الذي كسر أغلال الكنيسة كما قاوم موقف الكنيسة العدائي من النساء والعودة بالمرأة إلى ثقافتنا ، وهذه العودة طبيعية وضرورية . وجميع أحداث ذلك العصر من مسائل عقلية وجمالية ونبل وشرف وثراء وغيرها من آيات المثل العليا التي غمرت الحياة الأوربية أصبحت جزءاً مكملًا للحياة الأوربية لا يمكنها أن تعيش بدونه . وإن شعراء أوربا وأدباءها وأجمل وأحسن تراث أوربي ظهر في ذلك العصر وكل ما يميز ذلك العصر الأدبي ، يدين في نشأته وحيويته إلى العروبة . ولولاها لانزوى واندثر . فالعروبة هي مصدر الوحي للفنانين والشعراء والمغنين . لكن كيف ؟ ألا تحيا المرأة العربية منذ زمن بعيد مكبله بأغلال الرق والاستعباد محرومة من الحرية مجردة من مباشرة حقوقها الإنسانية مضطهدة ؟ ألا يعرف الإنسان كيف يتحدث عن الحريم وحياتهن خلف القضبان وحيث يستطيع الزوج أن يقترن بأربع زوجات ويراقبهن بغيرة ؟ نساء لا يرين أزواجهن قبل الزواج ولا يؤخذ رأيهن في الأزواج ، وللرجل الحق ، حسب مزاجه ، أن يطلق من يطلق ويردها إلى أسرتها ثانية ، ويتمتع علاوة على ذلك برضاء الدين وآله ؟ ألا يتعارض مركز الفلاحة وقد أحنى الدهر ظهرها من ثقل الأحمال التي تحملها وتسير إلى السوق بينما الزوج الشامخ يسير إلى جوارها راكباً حماره – أليست هذه الحالة تتعارض والفكرة السائدة عن تكريم المرأة وعن الفروسية العربية ؟ أو لم تبدأ العربية الآن فقط في التحرر من الحريم وتبركه ؟ أو لم تبدأ الآن فقط بترك الحجاب

والتخلص من هذا الاستعباد الذى خيم عليها قروناً وأصبحت الآن فقط تتمتع بحقوقها الإنسانية ؟ أكاذيب وحقائق . كيف كانت الحقيقة ؟

« قال الحارث بن عوف بن أبي حارثة : أترانى أخطب إلى أحد فيردنى ؟ قال : نعم . قال : ومن ذاك ؟ قال : أوس بن حارثة بن لام الطائي . فقال الحارث لغلामه : ارحل بنا ، ففعل فركبا حتى أتيا أوس بن حارثة في بلاده فوجداه في منزله ، فلما رأى الحارث بن عوف قال : مرحباً بك يا حار . قال : وبك . قال : ما جاء بك يا حار ؟ قال : جئتكم خاطباً . قال : لست هناك . فانصرف ولم يكلمه . ودخل أوس على امرأته مغضباً ، وكانت من عبس فقالت : من رجل وقف عليك فلم يطل ولم تكلمه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث بن عوف بن أبي حارثة المرى . قالت : فما لك لم تستنزله ؟ قال : إنه استحمق . قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطباً . قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ قال : نعم . قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك ما كان منك . قال : بماذا ؟ قالت : تلحقه فترده . قال : وكيف وقد فرط منى ما فرط إليه ؟ قالت : تقول له : إنك لقيتني مغضباً بأمر لم تقدم فيه قولاً ، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت ، فانصرف ولك عندي كل ما أحببت ، فإنه سيفعل . فركب في أثرهما . قال خاروجة بن سنان : فوالله إنى لأسير إذ حانت منى التفاتة فرأيت فاقبلت على الحارث ، وما يكلمنى غمماً . فقلت له : هذا أوس بن حارثة في أثرنا . قال : وما نصنع به ؟ امض ، فلما رأنا لانقف عليه صاح : يا حار . أربع على ساعة . فوقفنا له فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً . فبلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة (أكبر بناته) فأتته فقال : يا بنية . هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب . قد جاءنى طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجه منك فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأنى امرأة في وجهى ردة (القبح مع شيء من الجمال) ، وفي خلقى بعض العهدة (الضعف) ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس ببارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ، فيكون علىّ في ذلك ما فيه . قال : قومى بارك الله عليك ، ادعى لى فلانة (ابنته الوسطى) ، فدعتها ، ثم قال لها مثل قوله لأختها ، فأجابته مثل جوابها ،

وقالت : إني خرقاء وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمي فيرعى حتى ، ولا جارك في بلدك فيستحييك . قال : قومي بارك الله عليك ، ادعى لي بهيسة (يعني الصغرى) ، فأتي بها فقال لها كما قال لهما .

فقالت : أنت وذاك . فقال لها : إني قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه . فقالت - ولم يذكر لها مقالتيهما - لكني والله الحميلة وجهاً ، الصنّاع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسبية أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير . فقال : بارك الله عليك . ثم خرج إلينا فقال : قد زوجتك يا حارث بهيسة بنت أوس .

قال : قد قبلت . فأمر أمها أن تهيتها وتصلح من شأنها . ثم أمر بييت فضرب له ، وأنزله إياه . فلما هيئت بعث بها إليه فلما دخلت إليه لبثت هنيهة ثم خرج إلى . فقلت : أفرغت من شأنك ؟ قال : لا والله . قلت : وكيف ذاك ؟ قال : لما مددت يدي إليها قالت : مه . أعند أبي وإخوتي هذا والله ما لا يكون . قال : فأمر بالرحلة . فارتحلنا ورحلنا بها معنا . فسرنا ما شاء الله . ثم قال لي : تقدم فتقدمت . وعدل بها عن الطريق . فما لبثت أن لحق بي . فقلت : أفرغت ؟ قال لا والله . قلت : ولم ؟ قال : قالت لي : أكما يفعل بالامة الجلية أو السبية الأخيدة . لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم . وتدعو العرب . وتعمل ما يعمل لمثلي . قلت : والله إني لأرى همة وعقلا . وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله .

فرحلنا حتى جئنا بلادنا . فأحضر الإبل والغنم . ثم دخل عليها وخرج إلى . فقلت : أفرغت ؟ قال : لا . قلت : ولم ؟ قال : دخلت عليها أريدها . وقلت لها قد أحضرنا من المال ما قد ترين . فقالت : والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك . قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرغ لنكاح النساء والعرب تقتل بعضها (وذلك في أيام حرب عبس وذبيان) . قلت : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم . ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك . فقلت : والله إني لأرى همة وعقلا ، ولقد قالت قولا . قال : فاخرج بنا . فخرجنا حتى أتينا القوم فشيننا فيما بينهم بالصالح ، فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى فيؤخذ الفضل ممن هو

عليه ، فحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنوات
فانصرفنا بأجمل الذكر .

قال محمد بن عبد العزيز : فمدحوا بذلك ، وقال فيه زهير بن أبي سلمى
قصيدته :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم . . .

فذكرهما فيها فقال :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم مغانم شتى من أفال المزمن
ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

وذكر قيامهم في ذلك فقال :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو . . .

وهي قصيدة يقول فيها :

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

وهذه لهم شرف إلى الآن . ورجع فدخل بها . فولدت له بنين وبنات .

(الأغاني . ج ١٠ ص ٢٩٤ . . . مطبعة دار الكتب المصرية) .

ثم سكت القاص ويصبح المستمعون : « ما شاء الله » . لقد أدرك ما يهمهم .
و « بهيسة » ما زالت المرأة التي تهواها قلوبهم . أربعة أو خمسة أجيال قد مضت منذ أن
جعل الإسلام آلهة الجاهلية دون الملائكة وأعلن عبادة الواحد الأحد الفرد
الصمد . لكن بالرغم من ذلك ما زال الإنسان في دمشق الفيحاء يتذاكر أخبار
الجاهلية العربية في قصر الأمويين حيث كانت العربية الأصيلة النبيلة تستولى على
قلوب الرجال ، وحيث كانت المرأة العربية الأصيلة العظيمة تدفع الرجل إلى الحرب
والكفاح والبطولة ، وكان منحها البطولة لشخص ما مفخرة الأجيال .

ها هي ذى امرأة مستقلة تاجرة تقف في الحياة العامة ومعتزتها ، هي الأرملة الغنية
« خديجة » أولى زوجات رسول الله محمد ، عاش معها أربعة وعشرين عاماً وولدت

له ستة أطفال وهى مع ذلك تمثل السيدة النبيلة الواعية الحاضرة البديهة الذكية، إنها المثل الأعلى للأرستوقراطية العربية . فقد رغب إليها النبي صلى الله عليه وسلم أن تتشقف وتتعلم مثلها مثل الرجل . وهناك علماء مشهورون يرشحون المرأة لوظيفة القضاء كما زارت المسجد وألقت المحاضرات العامة وشرعت .

ومن النساء من أصبحت مدعية عامة واشتهرت بلقب نقيبة رجال الشرع فهى « شيخة » وأستاذة وإنها لفخر النساء . هكذا كانت تكرم عالمة « شهدة » فخر النساء بنت أبى نصر أحمد . وقد تلقت العلم على مشاهير العلماء ، ثم حصلت أعلى إجازة التدريس ، وأصبحت منارة العلم . كما نجد شاعرات ينافسن الشعراء كما كان الحال قديماً . ولا تشعر شاعرة منهن بأنها تعامل معاملة شاذة . والواقع أن العربية لم تكن رهينة البيت طالما كانت الأرستوقراطية العربية هى المهيمنة على المجتمع العربى . لكن هذا الوضع قد تغير .

فى بغداد فى قصر العباسيين هبت ريح أخرى جاءت من الشمال إذ وفدت جماعات من الجوارى الفارسيات والروميات ومن بينهن من أصبحن أمهات خلفاء فأدخلن بدورهن عادات وتقاليد غريبة على المجتمع العربى والأسرة العربية ، لقد أدخلن الحجاب ونظام الحريم . وهذه تقاليد إيرانية قديمة ترجع إلى العهد الذى كان يسود فيه إيران والعقائد الإيرانية المذهب الثنائى أو الإثنينية :

١ - الحرمان من الحرية .

٢ - وضع المرأة الفارسية فى منزلة دون منزلة الرجل .

وهذه الحالات لم تعرفها العروبة ولم تقل بها الشريعة الإسلامية . فالحجاب والبعد عن الحياة الاجتماعية لم يقل بهما الإسلام . فقد خاطب المؤمنين كما خاطب المؤمنات : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن . . . » كذلك دعا القرآن الكريم النساء إلى عدم التبرج : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى . . . »

وأين يبدأ الجزء الفاتن في المرأة ، الذي يجب ستره ؟ هذا هو موضوع النزاع بين الفقهاء ، فمنهم من قصره على الثديين ، ومنهم من قال الوجه أيضاً وأجمعوا على أن اليدين فقط هما ما تظهرهما المرأة . . أما الاستقرار في البيوت جرياً وراء التقاليد الفارسية وتكليف الحصيان خدمنهن حسب العادات البيزنطية التي كانت أصلاً مظهراً من مظاهر الارستوقراطية ، فقد عممت استغلالاً لقول القرآن الكريم : « وقرن في بيوتكن » الذي كان يقصد به « أزواج النبي » ومن ثم بولغ فيه فحدد المجتمع من نشاط المرأة .

وهذه الضربة القاصمة التي أصابت المرأة جاءت من حاكم لا حول له ولا سلطان . خليفة مصاب بعقدة نفسية غبي بليد ألا وهو الخليفة القادر . ومن الأسباب التي ساعدت على قيام تعدد الزوجات . الذي كان معروفاً منذ الجاهلية . الرغبة في كثرة النسل لتعزيز القبيلة وتقوية أواصر القرابة بين الأسرات وتعويض ضحايا الثأر والانتقام والرحيل . ولما جاء الإسلام قرر فرض زعامة العرب على الشعوب المغلوبة التي فتح الإسلام بلادها والحرص على عدم الامتراج والفناء في الشعوب الأخرى . والحقيقة تقال : إن الأمويين في معركة ضد البربر خسروا ما لا يقل عن عشرة آلاف من أفراد أسرهم وأتباعهم . وفي عصر المأمون نجد البيت العباسي يضم نحو ثلاثة وثلاثين ألف نسمة . لكن الشيء الذي كان ضرورياً في العصور الأولى اتجه . بعد أن استقر السلطان العربي . اتجهاً آخر يتعارض والسيادة التي كانت تتمتع بها البيوتات العربية القديمة . فالاختلاط مع الأجانب والزواج من أجنبيات والتسامح في المثل العليا التي كان يتطلبها العربي من زوجته . كانت من أسباب الانحلال والاضحلال فيما بعد .

ففي الحريم كان تعدد الزوجات من أسباب القضاء على روح الحرية والاستقلال والشعور بالشخصية وكل مقومات المرأة العربية الأصيلة . وعوضاً عن هذه الصفات الحميدة أصبح الرجال أكثر ميلاً إلى اللواتي يجدن فن الإغراء وإيقاع الرجال في حبائلهن أغنى اللواتي كن يغشين دور اللهو والغناء في الكوفة والتي كانت تغص بتجار الرقيق الذين كانوا يبتزون أموال السادة والشباب في المدينة الذهبية بغداد . هذه هي الناحية السطحية التي يتجه إليها دائماً التفكير الأوربي . لكن كلما

تعمق الإنسان في المجتمع تبين الصورة الحقيقية واضحة المعالم . وبخاصة كلما ابتعدت هذه الصورة عن التأثير الفارسي أو بتعبير آخر عندما تصبح الصورة عربية خالصة . إن البدوية لم تستخدم أبداً الحجاب كما أنها لم تعش يوماً ما عيشة الحريم ولم تغلق دونه الأبواب . لأن مثل هذه الحياة الأرستوقراطية لم تكن تسمح بها الحياة الاقتصادية . وحياة العمل لسكان الصحارى والمروج سواء كانوا بدوياً أو فلاحين ، كما لم تسمح بحياة البذخ التي أباحها الإسلام أعنى الزواج من أربع نساء . وذلك لأن الإسلام طالب الزوج بالعدل بينهن سواء في الأكل أو الالتزامات الزوجية : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدوا فواحدة » . ألم يقرر الإسلام رغبة في احترام العدالة أن يتزوج الرجل واحدة فقط ؟ ومن غير الأغنياء يستطيع أن يعدل بين أزواجه ؟ إن المسألة ليست اقتصادية فقط . فالعربي الأصيل كما يقول مؤرخ عربي « إذا ما أحب فواحدة فقط ويخلص لها وتخلص له حتى الموت » .

وهكذا نجد صورة العربية عندما تبتعد عن المدينة وآثارها تقرب من الصورة الحقيقية للمرأة العربية الشائخة الشاعرة بوجودها وكيانها وشخصيتها ، لذلك كانت البدوية في صدر الإسلام أكثر تمتعاً بالحرية وأكثر استقلالاً وأكثر أثراً في المجتمع العربي من تلك السيدة النبيلة العظيمة المقيمة في دمشق . وهكذا نستطيع أن نفسر الرغبة الجامحة في حياة البداوة كما نتبين هذه الرغبة الملحة التي أبدتها « ميسون » وبلغت معاوية في قصيدتها التي مطالعها :

ليت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف

فما كان من معاوية السيد الحاكم المهذب إلا أن منحها حريتها . وهكذا عادت بنت الصحراء إلى حياتها الأولى غير آسفة على الخز والقصور . والأخريات اللواتي كن يتمتعن بنعيم الحياة والأبهة والعظمة التي لم تر المرأة الشرقية مثيلاً لها فيما بعد . أما إسبانيا العربية ففاقت الشرق العربي وقدمت حياة أفضل وأجمل .

إن العالم شيد لي مسجداً

إسبانيا هي الحلم ، هي الأمنية ، إنها تاج العروبة . والتقدم الذي عرفته العروبة تم في إسبانيا ، كما يقول العربي الأندلسي . وما حدث لم يكن مقصوراً على عالم المرأة بل عم كل ناحية من النواحي الثقافية العربية .

وهذه ظاهرة عجيبة حقاً تستحق التفكير أكثر من سائر الافتراضات والعجائب التي جاءت بها الثقافة العربية ، وهذا يبدو وفيه شيء من التناقض ، فأخصب البقاع حضارة وثقافة ومدنية هي تلك التي كانت فيها قليلة جداً ، وذلك لندرة وجود العنصر العربي وحيث لم تقم من قبل حضارة هامة ، إن الحضارة الطارئة التي جاء بها الغزاة لم تتأصل فيها لتزدهر وظلت ضعيفة هزيلة . بخلاف الحال في الأقطار الأخرى التي تشبه أسبانيا تماماً وذلك مثل صقلية ومصر وسوريا والعراق وإيران حيث نجد شعوباً مثقفة ثقافة رفيعة تلعب دوراً هاماً في الثقافة البشرية مثل الهلنسية والبيزنطية واليونانية والفارسية والهندية حيث تفاعلت مع الثقافة العربية .

أما في بلاد المغرب البربرية وفي أسبانيا حيث كانت الدولة الغوطية الغربية وريثة الاستقلال الروماني والاستعباد والمرض المزمن الذي أصاب البلاد من جراء الاستعمار الروماني والذي خلف طبقة من رجال الدين المتعصبين ، فهنا لا يوجد شيء وتنعدم كل مقومات الحضارة ، وعندما جاء الفاتحون أخذت الموجات العربية تغد من بلاد العرب ومن سوريا وليس حولهم شعوب قد يقتبسون منهم شيئاً ما . فهذه الثقافة الرفيعة العالية التي بلغها العرب في أسبانيا هي خير ما يدحض هذه الادعاءات القائلة بأن العرب قد أخذوا الحضارات البائدة وأعادوها ثانية وأنهم مقلدون فقط ولم يأتوا بجديد ، ففي أسبانيا لم توجد حضارات يقال إن العرب قد اقتبسوها وتعلموها وقلدوها ، والحقيقة التي يجب الاعتراف بها أن جمال الثقافة الأندلسية لم يكن فارساً أو يونانياً بل كان عربياً وعربياً فقط ، وعندما اختفى العرب من أسبانيا انحطت البلاد وتدهورت حضارتها وخيم عليها الموت ولم تنتج شيئاً .

ففي أسبانيا ظل حكم العرب ثمانية قرون كانت أزهى وأغنى العصور، ومن خير ما عرف على يد البيوت الحاكمة وهي عربية قديمة، وهي بيوت أموية حكمت في قرطبة كما حكم العباديون في أشبيلية والناصريون في غرناطة بينما لم يقم البربر والمسيحيون إلا بأعمال التخريب والتدمير، وبخاصة إذا كانوا لم يتأثروا بالثقافة العربية والعقلية العربية. وفي شرق العالم العربي بعد القضاء على الأمويين على يد العباسيين الذين في عهدهم، توغلت العناصر الأجنبية في الحكم والسيادة ولو أنهم كانوا من العوامل المؤثرة في الثقافة العربية.

وما هي فترة ثمانية قرون؟! إنها قصيرة إلا أنها غنية جداً بالأحداث التاريخية! إنها فترة تساوى تلك التي تمتد من موت البطل «ليونيداس» حتى آخر اضطهاد حل بالمسيحيين أيام القيصر «ديوقليطيان» أو إذا ما قيست بالعصر الحديث عبارة عن فترة من الزمن هي التي تبدأ بهنري الثاني حتى مجيء الملكة الياصابات الثانية ملكة إنجلترا، وعلى الدقة منذ مجيء الملك فيليب الثاني ملك فرنسا حتى الجمهورية الخامسة للجزائر دييجول. أو منذ سقوط هنري قلب الأسد أمام القيصر فريدريش الأول بارباروسا حتى مجيء عصر الدكتور كونراد أديناور، فهذه الفترة بالضبط عبارة عن ٧٨١ عاماً ازدهرت وأينعت فيها الحضارة العربية في شبه الجزيرة الأوربية.

لكن الغرب لم يعرف شيئاً عنها.

والجار الغاضب المكشور عن أنيابه الذي كان يقيم على الجانب الآخر من جبال البرناس ظل قرنين، ثلاثة، أربعة أصم أعمى، فقد غشت عينيه غشاوة بفعل الأنوار الساطعة والحنة الغناء، وفيها المعماريون والمغنون والشعراء والعلماء، وهي كذلك جنة النساء. وقد صور هذا الجار الغاضب تلك الحنة بأنها وطن السحرة وعبدات الشياطين وأنها وطن تقديم البشر قرباناً لمحمد. لماذا؟ خوفاً من هذا السحر الذي قد يأتي بالحقيقة. لكن هذا الجار فشل في سد أذنيه وإغماض عينيه تماماً وتأثر أثراً قوياً بحضارة جاره.

وبالقرب من قرطبة في حديقة قصر عبد الرحمن، هذا القصر الذي شيده حسب تصميم أجداده الذين شيّدوا قصورهم في الصحراء السورية، كان هذا الأمير العربي يزرع أول نخلة في أرض الأندلس وعنها انتقل النخيل إلى أوروبا.

إن هذا الأمير هو الشاب عبد الرحمن الذي طالما حن إلى وطنه الأصلي وسجل هذا الحنين في أشعاره وهو آخر فرد من الأسرة الأموية وهو أحد حكامهم الأقوياء الأشداء . فقد نجا وهو ابن العشرين من المذبحة التي حلت بأهله في دمشق ، وقد ظل خمسة أعوام ضالاً هائماً معرضاً لمختلف الأخطار ، في شمال أفريقيا ، حتى استطاع أخيراً هذا الفقير المعدم بفضل شجاعته وعزيمته القوية وإرادته الحديدية أن يصير حاكماً على الأندلس التي كانت تقاسى من انقسامات العرب هناك وشحناتهم .

ومع هذه الشجرة العربية التي جاء بها من وطنه أخذ الفن العربي يدخل الأندلس ومن ثم أخذ هذا الفن يزدهر وينتشر خارج الأندلس ومختلف البلاد الأوروبية حيث أصبحنا نجد فناً معمارياً عربياً وموسيقى عربية وشعراً عربياً وغزلاً عربياً .

ففي فترة حكمه التي بلغت ثلاثة وثلاثين عاماً والتي كانت مليئة بالكفاح وضع عبد الرحمن الأول الأساس للدولة العظمى التي شاهدها العصور الوسطى . وكل من جاءوا بعده من العباقرة الجبابرة أضافوا لبنة إلى هذا البناء الشاهق كما ساهموا في بناء المسجد العظيم الذي وضع أساسه عبد الرحمن الأول في قرطبة عاصمته .

أما كاتدرائية القديس « فينسينس » فقد قدر ثمنها بمائة ألف دينار وهذا مبلغ عظيم جداً في ذلك العصر مما يشير إلى أن الحالة كانت ميسرة مستقرة فلا هدم للمعابد ولا تكسير لصور مقدسة أو غيرها . نعم إنه عندما فتح طارق وبربره البلاد هدموا كثيراً من الكنائس ، لكن الكاتدرائية احتفظ بها مسيحيو قرطبة وأعدوها لتأدية طقوسهم الدينية وقد أخذوا بهذه عهداً مكتوباً . أما الفاتحون فقد اكتفوا بتشديد مساجدهم المتواضعة خارج المدينة .

ثم نجد العرب الذين قدموا من المدينة محاربين ومدافعين عن النبي ومعهم ذرائعهم وأتباعهم يستقبلون موجة أخرى من العرب السوريين فامتلات بهم قرطبة مما جعل الحاجة ماسة إلى تشييد مسجد عظيم في العاصمة في قرطبة ، وقد بلغت نفقات بناء هذا المسجد مائة ألف دينار ، وقد اشترى عبد الرحمن الكاتدرائية المسيحية من المسيحيين بهذا المبلغ ، أعني مائة ألف دينار، كما منح المسيحيين الحق في أن يجددوا بهذا المبلغ كنائسهم التي خربت .

والآن يستطيع المسلمون الانتقال إلى هذه الكنيسة التي آلت إليهم بحكم الشراء أو تحويلها التحويل الذي يتفق والشعائر الدينية الإسلامية فكان مثلهم مثل المحاربين القدماء الذين لم يعتادوا البناء فكانوا يستولون في البلاد المفتوحة على بعض دور العبادة المسيحية كما وقع في دمشق والقدس . وهكذا وهكذا صنع جد عبد الرحمن ألا وهو الخليفة عبد الملك عندما حول كنيسة العذراء مريم ، التي تنسب إلى « يوستنيان » والواقعة أمام المعبد في القدس ، إلى المسجد الأقصى ، كما حول ابنه الوليد كنيسة القديس يوحنا في دمشق إلى المسجد الكبير مع الإشارة إلى أن الكنيسة أصلاً قد شيدت من أحجار وأعمدة معبد « جيوبيتير » القديم . لكن ليس معنى هذا أن المعابد التي شيدت للآلهة الأجانب قد استغلها المسلمون واستخدموها دوراً لعبادتهم ، فالمساجد العظيمة كانت تشيدها الدولة في معسكرات جيوشها ، فقد شيدت مثلاً لجنودها المحاربين جامع ابن طولون في القاهرة وسيدى عقبة في القيروان ، فهذه المساجد كانت تشيد عادة في الفضاء الواسع كما كانت في هندستها المعمارية . إذا ما استثنينا قبة الصخرة . ومساجد القبور ، تتبع تخطيطاً بعينه أغنى نظام المسجد ذي الصحن المربع غير المسقوف وبه ميضأة للوضوء ويحاط بسور يشبه سور الحصن وحوله صفوف من الأعمدة التي تظل أولئك الذين يريدون الانصراف إلى الله في الصلاة وذلك عن طريق الصلاة في القاعة المسقوفة . وهذا الفن المعماري يرجع في الواقع إلى فن قديم قد يكون هو الفن الذي كان مستخدماً في العصر الجاهلي عند تشييد المعابد مثل معبد صرواح في بلاد العرب الجنوبية وفي نظام المصلى الذي كان موجوداً إبان حياة الرسول . وكان تخطيط المصلى معروفاً في المدينة قبل تشييد أول مسجد بزمان بعيد ، وقد استخدمه الرسول في مناسبات خاصة .

أما الحفيد الأموي في الأندلس فقد كان يدرك أنه لا يمكن الجمع بين المسجد والكنيسة فلم يحول الأخيرة إلى مسجد ، وما كان في حاجة إلى ذلك ، فقد مضى العهد الأول ، العهد الذي لازم صدر الإسلام ، لذلك نجد عبد الرحمن يدفع ثمن الكنيسة غالباً جداً ويهدمها ويشيد مكانها بناءً جديداً حيث استخدم الأعمدة القديمة أيضاً .

لكن الاعتماد على فن المعمار الأجنبي أصبح في غير موضعه ، واستخدام بعض

المواد القديمة في البناء ليس معناه استخدام نفس الفن الذي استخدمت فيه هذه المواد بل استخدمت في تشييد فن جديد وهذا الفن المعماري الذي يعبر عن روح ذلك العصر وثقافته وحضارته وعقيدته وبخاصة أنها تستخدم في تشييد مسجد الإسلام . وبالرغم من أن المنفذين لهذا الفن المعماري ، من بنائين وعمال وغيرهم قد انحدروا من عناصر مختلفة إلا أن المعمار العربي كان مستقلاً عربياً خالصاً ، وهذا الفن يستمد كيانه من خصائص وعناصر إسلامية دينية مثل المحراب والمنبر والأريكة والمئذنة . فالفن المعماري ، وفن المسجد إن كان سقفه يقوم على أعمدة كانت في الأصل في كنائس مسيحية فلا رابطة تربط بينها وبين الكنيسة بالرغم من أن الأعمدة قد أخذت من الكنيسة . والواقع أن المسجد والكنيسة معبدان يختلف كل منهما عن الآخر .

إن المسجد ليس هو بيت الله المقدس الذي يستطيع فيه المؤمن بواسطة رجل الدين التقرب إلى الله . بخلاف الحال مع الكنيسة فهي متى قدست أصبحت حقاً لا رمزاً مدينة سماوية يحكم فيها المسيح وأن القدس السماوية قد نزلت من السماء إلى الأرض ، هذا هو معنى الكنيسة عند المسيحي في مختلف العصور ، فمنذ القرن الرابع الميلادي نجد الكاتدرائية المسيحية القديمة والقدس السماوية كمدينة قديمة وفيها أقواس النصر وقاعات ذوات عقود وقصر القيصر وقاعة العرش . وفي عصور متأخرة نجد الكنيسة الرومانية هي البرج السماوي للملك الجيش والكنيسة بأبراجها وحيطانها القوية ونوافذ لإطلاق النيران وحتى أبواب المدينة ممثلة فيها . والكاتدرائية القوطية تمتاز ببساطة البناء بضئها نور سماوي وزخرف السماء وجمالها مما لا يجده الإنسان على الأرض . وهذه المدينة السماوية المضيئة تقرب بين المعاني القوية كما قال ذلك العالم « سيدلماير » . إن جميع هذه المعاني لا يشير إليها المسجد كما أن هذا المعنى الشعري يعبر عنه المسجد تعبيراً واقعياً وهذه هي ميزته :

« يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون » (العنكبوت ٥٦)
 وقال تعالى أيضاً « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » (البقرة ١٤٩) . هذه هي عقلية القدامى من البدو الذين عاشوا في الصحراء غير المتناهية فكانوا يشاهدون الكائنات غير المرئية ، لذلك نجد المسلم مثل أسلافه يصلي في كل

بقعة من الأرض ففيها يواجه الله . فلا توجد قواعد خاصة تقيد المسلم كما لم يفرض عليه الإسلام مكاناً خاصاً بالذات لتأدية فرائضه الدينية لامعبد ولا كنيسة كما أن تعبد لا يرتبط كما هو الحال في المسيحية بقسيس أو وسيلة تجمع بينه وبين الله . فلدى المسلم كل شخص يمثل الله وكل مسلم له الحق في أن يصلى بالمصلين ويكون إماماً في المسجد .

وغير الصلاة الخاصة الفردية التي يؤديها المسلم ، على المسلمين أن يجتمعوا معاً ليصلوا جماعة ، والبيت الذي يؤذن فيه لصلاة الجماعة هو « الجامع » الذي لا تقتصر مهمته على إقامة الصلاة به فقط بل هو مدرسة لتعليم التلاميذ والتفقه في المسائل الشرعية لذلك يسمى الجامع الكبير حيث تؤدي صلاة الجمعة ويؤديها المسلمون يوم الجمعة ويسمى هذا المسجد « المسجد الجامع » أو بالاختصار « جامع » . والمسجد الجامع ليس مكاناً يمتاز بقدسية خاصة . وإنما يمتاز على غيره بميزات أخرى كما تمتاز الكنيسة على الأماكن الأخرى العادية ومساكن الناس ، لذلك لم يلاحظ عند تشييد الجامع أن يؤثر بمظهره الخارجى في المصلين ، كما أن تصميمه لا يختلف عن أى شكل هندسى لبناء قائم الزوايا أو مكعب ، كما أن شكله الخارجى غير جذاب ومهمل وحيطانه ملساء عارية من الزخرفة تشبه حيطان حصن من الحصون أو مصنع أو قصر حاكم . وفى الداخل فقط نجد بعض الزخارف . أما الأعمدة الداخلية فقد يبلغ عددها خمسة عشر عموداً كما أنه يشتمل على كثير من العقود حيث يركع المسلم غير مقيد بعقد خاص أو مذهب وهذا يتفق وتعاليم الإسلام الذى لا يميز بين طبقة وطبقة . فالمحراب فى المسجد غير المذبح ، فالمحراب يبين فقط اتجاه المصلين حيث نجد العالم يقف إلى جوار السقاء والقائد إلى جوار الجندى كما نجد الإمام فى ملابسه العادية يؤم المصلين مثله مثل ماسح الأحذية وسائر الأفراد ، يركع ويسجد ويقوم بسائر الفروض الدينية .

فهذه الخصال الشعبية حقاً تتمثل فى المسجد كما تتمثل فى أى بناء آخر فالمسجد إذا ما أريد تكبيره اتسع أفقياً لا علوياً . وبقدر عدم اكتراث العربى بالبناء الخارجى ومظهره إذ به يهتم اهتماماً كبيراً بالزخرفة الداخلية .

إن المسجد لا يعنى البتة برقصات المعبد أو الأغاني أو الصور أو البخور

أو بعض المظاهر المغربية للتأثير في المسلمين لتقلهم من ملاذ الدنيا ، وعن طريقها ، إلى ملاذ الآخرة ، بينما نجد الكاتدرائية الغوطية تحول الشيء غير المحسوس محسوساً وتتفنن في هذا بخلاف الإسلام الذي يحول الماديات إلى روحانيات . إن الصحراء الجرداء التي لا شيء فيها تخلق من العربي شخصاً لا يؤمن بالماديات إيمانه بالمعنويات ، فالعربي يحول المادية إلى معنوية إلى رياضة . إن طبيعة الصحراء ذات النمط الواحد تكرر وتكرر لهذا النمط الذي يترأى في الهواء لا عمق له ، لأبعاد له ، لأن هذا النور الذي يغمر الصحراء قد يقضى على الأبعاد والانعكاسات ويقرب البعيد في الأفق وغير ذلك .

كذلك لا نجد في المسجد شيئاً مادياً أو محسوساً . ولا شيء فيه يؤثر في الإنسان بل يؤثر في غير المرئي الكائن في كل عصر ومكان . ولا يتصف بصفات الإنسان أو الكائنات الطبيعية ، إنه واحد في نفسه وليس كائناً آخر يشبهه وهو موجود في نفسه .

وليس الفن العربي (أرابيسك) شيئاً آخر ، واسمه يدلنا على أصالته العربية ، وهو خير من يعرض الخصائص الرياضية المعنوية حيث نجد دورانياً في الوسط وهذا الدوران يرجع إلى حيث بدأ . وبذلك يكمل نفسه تلقائياً ويكون شكلاً هندسياً كاملاً . إن الزخرفة العربية لا تمر سريعاً وليست حركة تتجه اتجاهين كما هو الحال في اللولب الكريني أو « ميندر » اليوناني . وهكذا نجد الفن العربي فناً حاضراً لا نهاية له فهو نظام خاص وهو أساس كل الكائنات وهو يتجلى في جميع المظاهر الطبيعية ، وهكذا نجد الفن العربي يتزايد وينمو نمواً متجانساً ذا نغم ثابت . إن الفن العربي حاضر ولا نهاية له ، إن الفن العربي لا أول له ولا آخر لا تحده حدود ، فالمساحة في الفن العربي لا تعرف حدوداً بل تمتد وتمتد في مختلف الجهات لكن بالرغم من هذا لا تنمو نمواً غير مهذب ولا تتضخم تضخماً مريضاً فكل شيء في الفن العربي قد أحكمته نظم وقواعد جبارة واضحة وضوح البلور وكأنها نغم متسق .

لقد تعمق « جوته » في الحياة العقلية الشرقية وعاش فيها ، لذلك ندرك تماماً عباراته الشعرية التي صاغها في الشعر العربي ووصفه بها ، وما يقال عن الشعر يقال أيضاً عن الفن العربي . ولماذا ؟ لأن الشخص الذي تملك شعوره وإحساساته

الطبائع والمشاعر الشرقية يتصف ولا شك بهذه العقلية العربية :

إن عدم نهايتك دليل عظمتك .
 وعدم بدايتك مقدر لك .
 إن قصيدتك تدور كالقبة الزرقاء .
 الأول هو الآخر دائماً ، دائماً لا يتغيران .
 وما يأتي به الوسط معروف .
 الذى يبقى إلى النهاية كان هو الأول .

والتأثير العربى أو التعريب يقع عندما يحاول الفن العربى الاستعانة بالنباتات الفارسية أو المصرية للزخرفة فنجد الفن العربى سرعان ما يجرد هذه الزخرفة من قيمها المحسوسة كما يجردها من جسدها .

وتتفق مع الفن العربى فى هذه الخاصية زخرفة الحيوان فى الفن الجرمانى والنورمانى فإن هذا الفن يجرد جسم الحيوان من إحساسياته حتى يحوله إلى مجرد حركات أو خطوط ويربط بينها حسب قواعد النغم ، فهذا الشبه الظاهرى يدين به الفن العربى ، وهو يتفق فى هذه الظاهرة مع الفن الجرمانى أو الأوربى عديم الصورة ، الذى يعرض إلى تجسيد وتصوير الكائنات غير الأرضية ، وقد أقبلت عليها أوربا واستخدمتها فى الزخرفة . وفى المجال الواسع للفنون الأوربية وبخاصة فى الزخرفة التى ظهرت فى عصر النهضة تشرع أوربا تلعب دورها الهام .

وقد أخذت أوربا أيضاً الزخرفة العربية للكتابة وذلك لأن الفن العربى قد امتد إلى الكتابة فاتخذها مادة للزخرفة سواء كانت خطوطاً أو آيات قرآنية حيث تعبر عن الأشياء المجردة أو المواضيع غير المجسدة كما استخدم الأفقية منها فى الزخرفة وذلك باستخدامها كخيوط ذهبية ممتدة على الحيطان والأعمدة فى القصور والمساجد . وهذا مظهر من مظاهر الرغبة فى التجرد من الحساسية وهذه خاصية من خواص العقلية الإسلامية وهى ليست جديدة فى العقلية الشرقية . لذلك لم يجد القرآن ضرورة لإصدار حكم بخصوصها .

أمّا ما يقال عن تحريم الصور ، فالقرآن لم ينص على هذا التحريم إلا فى

هذه الآية : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ، وأما فيما يتعلق بتصوير الكائنات الحية فلم يعرض له القرآن ، وفي العصور المتأخرة فقط استنكر الفقهاء التصوير لأنه تقليد لله أو تشبه بالخالق . لكن تحريماً لتصوير الأشكال لم يرد ذكره في القرآن الكريم . ففي العصور المختلفة سواء في صدر الإسلام أو بعده ، نشاهد كثيراً من الصور التي تزين الأسقف والحوائط في القصور كما تزين بها الموائد في الولائم كما نجد تماثيل السباع تحت صحنون النافورات أو تقذف المياه في الأطباق الرخامية . وفي قلعة الصخرة بالقرب من قرطبة نجد في قاعة نوم الخليفة - حيث يقع نظره عندما يستيقظ - نافورة خضراء وحولها اثنا عشر حيواناً من الذهب الخالص ترقص . فنحن نرى أسداً وغزالاً وتمساحاً وثعباناً ونسراً وفيلًا وحمامة وصقراً ودجاجة وديكاً وحدأة وبازاً . وقد قال الشاعر الصقلي ابن حمديس يصف داراً بناها المنصور بن أعلى الناس ببجاية ومطلعها :

واعمر بقصر الملك ناديك الذي أضحي بمجسك بيته معمورا

وفي القلاع العربية نجد زخرفة ورسوماً تزينها ، وليست هذه الرسوم عبارة عن نباتات وحيوانات فقط بل تعبر عن آدميين أيضاً : ملوك ونسائهم وصيادين وشعراء ونساء جميلات وفرسان وسيدات وكأنهم يطلون من الحيطان والأبواب والقاعات ، وحتى في مسجد قرطبة نجد رسوماً تصور القصص الدينية الإسلامية مثل أهل الكهف وأغربة نوح . كما نجد الأسد والنسر مستخدمين كعنصرين من عناصر الزخرفة والزينة . وقد ظلت هذه الفنون التعبيرية مستخدمة مثلها مثل الفنون الزخرفية .

وغير الفن العربي نجد زخرفة الأسقف والقباب والردهات والأعمدة وذلك بتجريدتها من ماديتها حتى إن الحائط يكاد يختفي ولا تتبينه العين وذلك باستخدام الزخارف الجصية ومختلف وسائل الزخرفة ، ولعل هذا النوع أثر من آثار الفن الفارسي مثله مثل العقود المدببة التي أكثر الفن الإسلامي من استخدامها ، كزخرفة غالباً ، أو للتغطية أو بين الأعمدة . على أن تزخرف زخرفة عربية بأوراق الأعشاب أو أعمدة على شكل مراوح . وفي الفن الإسلامي الهندي نجد أحجاراً صماء ونادراً ما تستخدم كأجزاء أساسية في البناء .

ثم انتقل الفن العربى الإسلامى إلى أوروبا المسيحية، وكان خط سيره من سمراء المقر العظيم للخليفة على نهر دجلة . وجامع ابن طولون فى القاهرة ثم إلى الفاطميين فصقلية النورمانية حيث أحرز هذا الفن نصراً مبيناً؛ وربما انتقل مباشرة إلى النورمانيين فى « إيل دفرانس »، لكن من المؤكد أنه انتقل من صقلية العربية كغنائم حرب « بيزية »، ومن ثم انتقل إلى الفن البيزى الرومانتيكى من ناحية أو من ناحية أخرى عن طريق كنيسة « ديزيدريوس » التى شيدها البابا فيكتور الثالث وهى تقع فوق جبل « كاسينو » وهى من الفن البورجندى الرومانتيكى الذى هو عبارة عن غطاء للفن الغوطى الذى نهض به رهبان « كلونى » ورئيس الدير « هوجو » : وذلك لأن رئيس دير « كلونى » لاحظ عام ١٠٨٣ ومعه مرافقوه العقود المدببة فى بناء جبل كاسينو الذى كان قد شيده رئيس الدير المسمى « ديزيدريوس » خبير صقلية والعالم بها وبغزاتها النورمانيين . وقد تم له ذلك بمساعدة معماريين عرب وعمال مصريين وهم الذين علموا رهبانه فهم المعمارى . كذلك يلاحظ أن الصلات بين صقلية وبورجندي كانت كثيرة وقوية، فالبلاد المقدسة بالنسبة لـ « كلونى » تقع جنوب البرنات وممتدة على طول الطريق المؤدى إلى قبر حوارى « سنتياجو » وهو الأسبانى الذى كان يعارض الدعوة الإسلامية. وإن الطريق الطويل للحج الذى يبدأ من باريس يمر فيه سنوياً الآلاف من الحجاج إلى أقدس المقدسات المسيحية فى أوروبا يملأون جوانب الأديرة الكبرى وكنائس « كلونى » ومعظمها مهداة من ملوك أسبانيا . كما نجد كثيرين من سكان « كلونى » الفرنسيين كانوا فى القرن الحادى عشر أول الأساقفة والقسس ورؤساء الكاتدرائيات فى الأقاليم الأندلسية التى استولت عليها المسيحية . أما الأمراء الأسبانيون المسيحيون وعلى رأسهم الملك المستعرب ألفونس السادس والذى كان أصلاً أحد السكان ثم صار فاتحاً لطليطلة العربية فقد كانوا يقدمون طاعتهم وولاءهم لرئيس دير « كلونى » وذلك عن طريق تقديم هدايا ، وأموال طائلة ليست فقط ذهباً بل غنائم حربية عربية وغيرها من الهدايا القيمة . وهذه الهدايا التى قدمها ألفونس السادس هى التى استغلها رئيس الدير المسمى « هوجو » فى سبيل تشييد الكنيسة العظيمة فى « كلونى » كما تعهد بإقامة صلاة على روح المهدي أعنى ألفونس السادس وعلى مذهب خاص .

فلو كان العقد المديب عبارة عن زخرفة فقط عند العرب ما وجدناه شاحباً في جبل « كاسينو » و « بيزا » و « كلوني » والفن البورجندي الرومانتيكي . إن الدور اهام لهذا العقد في أوربا هو الدور المعماري البنائي الأصل في الفن الغوطي وبذلك احتل دوراً هاماً في الكاتدرائيات الغوطية . وهذا الدور الذي بلغه العقد المديب لم يبلغه العقد المستدير في الفن الرومانتيكي .

لكن هذا الفن لم ينتقل بمفرده إلى الفن الغوطي بل نقل معه ورقة العشب والعقد من أسبانيا وكانت تستخدم في زخرفة النوافذ والمحاريب . ثم نجد التناقض يبدو واضحاً في العقود ذات أوراق العشب أو المديبة التي أحبها العرب لميلهم الفطري إلى الرياضة إلا أنها في الفن الغوطي تلعب دوراً هاماً ، وهذا الفن يستخدمها في زخرفة الحوائط . ومع العقد المديب جاءت أيضاً النافذة وبفضل الأثر الفني الساساني ظهرت النافذة المستديرة في الفن الغوطي .

وفي القرن التاسع الميلادي حدث تجديد في الفن العربي فنجد حزمة من الرماح تظهر في زوايا الأعمدة وهي هامة جداً في فن المعمار الغوطي وبخاصة في القباب . ومن القاهرة عن طريق إيطاليا جاءت إلى السقف الغوطي زخرفة القباب . والمآذن الإسلامية التي امتازت بقيامها على قواعد مربعة ، ثم أصبحت مشتمة ثم تطورت إلى دائرة هي التي كونت في الفن الغوطي برج الناقوس .

والآن نتساءل هل الفن الغوطي يتكون غالباً من كثير من عناصر الفن العربي؟ إن الذي يريد أن يصدر مثل هذا الحكم تفوته الحقيقة القائلة إن المواد الأولية ليست هي التي يتكون منها الفن بل الترتيب والتنظيم هما في الواقع العنصر الخالق في الفن وهو الذي يصنعه وينوب عنه . إنها الاستعارة العقلية سواء كانت عن طريق الأفكار الدينية أو الدنيوية أو سواء كانت من ناحية معمارية أو شعرية أو عامية ، ولا أدل على هذا من العقد المديب وما تستفيد منه . إن الفن والاستعارة الفنية ليست فيما يستعيره الشعب بل هي الطريقة التي يستفيد بها من العنصر الذي يستعيره وكيف يشكل هذا العنصر وطريقة استغلاله . فهذه الوسيلة هي في الواقع العامل الرئيسي الخالق . أما طريقة الخلق والتكوين فهي التي تحدد القطعة الفنية وتعينها وذلك لأن العبقرية الخالقة لا تقتبس كل شيء بل تختار من بين ما يرونها ما يساعدها على خلق نموذج في ممتاز .

والتبادل الثقافي ظاهرة موجودة عند كل الشعوب ولا يمكن الشك في أن أي شعب لن يستطيع أن يتجنب هذا التبادل . والاقتباس لا يضير الشعب أو يحط من مكانته ومكانة فنه طالما لا يفنى هذا الشعب ويذوب أو يتلاشى فنه في فن شعب آخر . وهذه الحقيقة ندركها في الفن الغوطي وفي أوربا ، لذلك ليس من العدالة أن ننكر هذه الظاهرة على العروبة والإسلام . والملاحظ أنه سواء في الفن أو العلوم يكال دائماً بكيلين فأوربا عند الاستفادة تهتم بالشكل بينما العرب بالجوهر وعند دراسة الجواهر في الفن الأوربي نجد الدارس يحاول إرجاعه إلى الثقافة القديمة فإن لم يوفق أهمله وانصرف عنه . وهذه الظاهرة ندركها في الفن الغوطي حيث نجد فيه العناصر العربية الجوهريّة ، كذلك الفن الروماني فقد صب في الواقع في قوالب شرقية قديمة من آسيا الصغرى وهكذا أيضاً الفن الجرمانى الخاص باستخدام الحيوان في الزخرفة ، فهو غالباً فن شعبي آسيوى . أما المعمار العربى الإسلامى فكثيراً ما استعار من البابلى أو الفارسى أو البيزنطى .

وفي « كلونى » يجرى تيار عربى إسلامى ويستمر هذا التيار جاريّاً حتى يبلغ إنجلترا حيث نجد العقد المدبب العربى الذى انتقل إلى « كلونى » ودخله بعض التطور وأصبح في القرن الرابع عشر على هيئة قطعة فنية تشبه اللهب . وهو يستخدم في النوافذ والمسطحات . وقد انتقل هذا الفن مباشرة من العرب إلى « كلونى » ومنها إلى إنجلترا حيث التقى بالفن المعروف باسم فن « تودور » حيث يوجد عقد تودور وكذلك عقد « كيل » (نسبة إلى مدينة كيل) ونحن نجد الفنين في الجامع الأزهر بالقاهرة حيث يوجد ما يعرف باسم « ظهر الحمار » وعقد المروحة مع القباب المعروفة والشبابيك كعنصر من عناصر الزخرفة .

ثم أخذ الفن التودورى ينتشر من الجزر البريطانية حتى بلغ الولايات المتحدة وأصبح فيها هو الفن المستعمل في الجامعات الأمريكية .

ومع مرور الزمن أخذ فن المعمار العربى يتغلغل في داخل القارة الأوربية ، وأصبحت هذه البلاد وطناً للفن العربى قروناً طويلة ، فنجد الغزاة المسيحيين للأندلس يشيدون قصورهم وكنائسهم حسب الفن المعمارى العربى الذى استولى على قلوبهم واضطروهم إلى الاستعانة بالفنيين العرب . وما زلنا إلى اليوم نشاهد هذا الفن العربى

المعماري . وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر نجد الفن المعماري العربي الأسباني يتطور وينتقل إلى الأمريكتين الجنوبية والوسطى حيث نجد الفنانين المعروفين باسم « بلاترسكين platersken » و « خورير جرسكين Churrigeresken » كما نجد الفن المعماري الذي أخذ عن أسبانيا والمعروف باسم « أزوليوس Azueyos » والذي استخدمه العرب في المباني الدينية والدنيوية وهو القيشاني الذي ما زال حتى يومنا هذا يزين كنائس المكسيك ومساكن أمريكا اللاتينية والدور الأسبانية الحديثة والمكسيكية الجديدة وكذلك في أمريكا الشمالية .

وفي صقلية نجد المعمار العربي أيام حكم النورمان والأشتوفيين يتطور تطوراً عظيماً ويتشر في مختلف جهات إيطاليا . هذا مع الإشارة إلى أن كل ميناء عظيم كان يحتفظ بعلاقاته الخاصة مع العرب والفنون العربية والثقافة العربية سواء عن طريق التجارة أو عن طريق خضوعها للعرب . وليست فقط البندقية بل أيضاً « بيزا » التي أخذت تنمو وتكبر تدريجياً حتى أصبحت سيدة البحار وملكة توسكانا ، وذلك بفضل علاقاتها مع العرب . ولما تحالف أسطول « بيزا » مع أسطول جنوة وطردا العرب من سردينيا . اتحدت بيزا مع النورمانين للاستيلاء على صقلية وانتزاعها من العرب . ففي عام ١٠٦٣ م أخذت بيزا تشيد كاتدرائيتها الشهيرة وذلك من الغنائم العربية التي غنمتها عند الاستيلاء على بالرمو كما استخدم المسيحيون بقايا مخلفات المساجد التي هدموها في بناء كنيسة « بابتيس تريوم Baptisterium » و « كامبانيل Campanila » ؛ وهكذا نجد الكاتدرائية متأثرة بالفن العربي تأثراً كبيراً وبخاصة باستخدام الرخام الأسود والأبيض في العقود عند دورانها ، وهذا الفن العربي قد استعاره البورجنديون في الفن الروماني ، ثم الخطوط الرومانية السوداء التي تزخرف الحوائط الخارجية الرخامية الأفقية والزخرفية التي على السطوح ، ثم طريقة استخدام العقود السبعة المختلفة . وعند العرب العقود العادية والعقد المدبب والتطعيم العربي المختلف الألوان ، والقاعات ذوات الأعمدة وأخرى كثيرة قد اكتسبتها أوربا من العرب المقيمين في صقلية . فالاتصال مع المدن التجارية الشرقية قوى الرغبة في اقتباس كل ما هو عربي ، وهكذا نشأ الفن الرومانتيكي الإيطالي الجميل ، وكذلك الفن البيزي الذي شمل بيزا وجميع إقليم توسكانا وعبر حدوده .

أما البندقية فقد اقتبست إلى جانب الفن البيزنطى كثيراً من مختلف الفنون العربية، فالماذن العربية أصبحت في عصر النهضة أبراج النواقيس في إيطاليا، والكومبانيلي «Companili» القائمة قد تأثرت أيضاً بالمتذنة، كما نجد المهندس المعماري الإنجليزي الشهير «ورين Wren» الذي تأثر بالفن الإسلامي يستغل هذا الأثر الإسلامي في تشييد أبراج كنائسه، وأخذ الإيطاليون يجمعون بين القباب والأبراج وجعلوا منها قطعة فنية جميلة. كذلك الحال مع المحاريب التي تشبه الأصداف والتي ظهرت في عصر النهضة والتي هي في الواقع تقليد للمساجد الإسلامية بما ذنها.

وعند تشييد الأبراج العربية من الأحجار أدخلت فيها معدات حربية كثيرة عاد بها الصليبيون من الشرق. وهذه المعدات العربية قد استخدمت في تشييد أسوار المدن الألمانية والأبراج البورجندي والقللاع الإنجليزية والحصون الفرنسية. ومن بين هذه الوسائل الحربية العربية المداخل المستديرة التي تعرقل وتعطل القوة الهجومية للعدو. وكذلك الخوارج للدفاع فثلها مثل الأبراج القائمة على الحوائط إذ هي تمكن من القيام بهجوم أو دفاع جانبي. أما الخوارج الدافقة والتي يسميها الأوربيون «ماخيكوايس Machiculis» فقد أقبل عليها الأوربيون إقبالا عظيما. فهذا النوع من الخوارج عربي أصلي جاهلي. وهو عبارة عن حوامل تبرز من الحائط وفوقها مبنى يشبه الشرفة وفي أرضه فتحة يتدفق منها على العدو الزيت الحار الساخن أو القار. ولم تمض عشرة أعوام على معرفة أوربا لها واشتهارها في ألمانيا باسم «أنف القار pechnase» حتى استخدمتها فرنسا وإنجلترا في أربعة أبراج. وعوضاً عن الخواجز الحشبية استخدمت أوربا منذ القرن الرابع عشر، لرفع الأبواب وأبراجها وبخاصة في القلاع الأسبانية والفرنسية والإنجليزية والسويسرية والألمانية. صفتاً من الخوارج المصبوبة تقوم عليها الممرات الواقية المثبتة بالحيطان. وهي تقوم مقام الخوذة من السلاح. وهكذا أصبحنا نجد من خصائص الأبراج المشيدة للدفاع، وقد انتشرت ما بين اسكتلندة والقسطنطينية، وأصبحت ضرورية لكل برج ولو كحلية زخرفية.

وقد أحضر الصليبيون معهم من الشرق علاوة على ما ذكر، عادة تغطية الأبراج بنحوذات من الحجر كما هو مشاهد في «لارن» ببلجيكا و«روديلزبرج» في ألمانيا. فنحوذات الأبراج العربية استعارها الصليبيون الألمان من «ورمس»

واستخدموها في كنيستهم المعروفة باسم كنيسة القديس بولس ، وللإشارة إلى حربهم الصليبية رسموا سفنهم الصليبية . وكما هو الحال في قبابهم الرمادية التي تعلوها سماء بلادهم المغطاة بالسحب والغيوم تقوم على سطوح مبانيهم المائلة المنحدرة والممتدة على ضفاف الرين توحى إلى الناظرين إليها بأجنيبتها ، فهي تعبر عن هذه الخوذة العربية الحجرية ، وهي التي تتدرج من مربعات إلى مشمعات ثم إلى دوائر ، وهي التي قلدها الألمان على طول نهر الرين في « ديتلزهايم Dittelsheim » و « الزهيم Alsheim » و « جونتربلوم Guntersblum » بل حتى في « شبير Speyer » و « فيتزلار Wetzlar » و « أمورباخ Amorbach » .

أما في أسبانيا ذاتها فقد اختفت آثار العصور العربية الذهبية ولم يبق بها إلا القليل جداً ، وآخر آثار الماضي الذهبي التي تحمل بعض الآثار الفنية لمشيديها السالفين : « الحمراء » وقصر السلطان العظيم في غرناطة وبقايا القلعة الصيفية وقصر طليطلة وغير ذلك وبخاصة برج أشبيلية الذي كان يستخدم قديماً مرصداً للفلكيين ، وهذا البناء لا يقوم على مصاطب مدرجة يستطيع الفارس بلوغها بل على سهل منحدر . أما واجهة البناء ذات الألوان المختلفة اللامعة فكأنها زجاج وتغطيها نوافذ مزدوجة جميلة على أشكال مدببة أو على هيئة أوراق العشب أو حدوة فرس . ومن بقايا الآثار العربية العظيمة في الأندلس وهذه الثقافة الرفيعة : هذا المسجد العظيم الذي شرع عبد الرحمن الأول في تشييده في قرطبة ، لكن مما يؤسف له حقاً أن الكنيسة التي بنيت في داخله تبين لنا عظمة هذا المكان الذي كان قديماً يشتمل على أكثر من ألف وأربعمائة عمود ، وبين العقود التي تشبه حدوة الفرس يتدلى أربعة آلاف وسبعمائة مصباح من الفضة من سقف مصنوع من خشب الأرز المزخرف . ولما جاء هشام الأول وهو الابن المتواضع المحافظ لعبد الرحمن الأول أتم البناء الذي بدأه والده وأضاف إليه المئذنة . والحكم الأول الذي كان واسع الأفق وميالا إلى المرح والسرور ترك المسجد قائماً كما هو ، لكن عبد الرحمن الثاني الذي كان هاوياً للفنون الزخرفية رغب في إيجاد عمل للأعمال العاطلين فشيّد كثيراً من المباني فقرر توسيع المسجد وشيّد فيه محراباً ثانياً . أما ابنه محمد الأول الذي كان متمزناً جداً ومتديناً فقد زخرف الحوائط والأبواب وأقام حاجزاً يفصل بين المقصورة التي يصلى

فيها الحاكم وبقية المسجد . ثم خلفه عبد الله وكان حاكماً مستبدّاً جاهلاً فشيّد طريقاً مسقوفاً من القصر الواقع غرب المسجد إلى المقصورة . وجاء بعده الحاكم الأمويان العظيمان في الأندلس وهما اللذان جعلاً من الإمارة خلافة ، وخلافة ناجحة ، وهما عبد الرحمن الثالث العظيم والحكم الثاني ، وكانا معاصرين للملك هنريش الأول والقيصر أوتو الأعظم . وقد جدد الأمويان المنارة التي هدمها زلزال ووسعا المسجد ناحية الجنوب وشيّدوا المقصورة الجديدة التي كان يجب تشييدها كما أقاموا أيضاً محراباً جديداً . ثم جاء المنصور وكان وصياً على هشام الثاني فزاد في المسجد من الجهة الشرقية وقد تطلب هذا هدم بعض المنازل فاضطر إلى تعويض أصحابها .

وهكذا نجد هذا البناء يصاحبه التقدم والرقى إبان حكم الأسرة الأموية ، ويعتبر عصرها أزهى العصور الأسبانية ، فقد اشتهر بكثرة المباني كما ارتقت في عهده الموسيقى .

الموسيقى تسائر الحياة

إن الرجل الذي ترك السفينة في الجزيرة في ديسمبر ٨٢٢ م ، وهذه السفينة التي نقلته من « كويتا » عبرت المضيق ، مضيق جبل طارق ، قد استرعى انتباه سائر ركاب السفينة ، فقد كان يرتدى قبعة مدببة القمة من الفراء الغالي تغطي شعر رأسه المستدير الذي كان يكسو وجهه ويتدلى حتى حاجبيه بعيداً عن الأذنين والرقبة ، وقد كانت له لحية مهذبة مصبوغة باللون الأحمر وله عينان لامعتان مكتحلتان تشعان ذكاء وبقظة وتفوح منه رائحة عطرية ومعه زوجه الشابة وحولهما أطفال يتصايحون . وبعد شهرين تبين أنه المغني البغدادي الشهير وقد امتطى صهوة بغل مطهم يحيط به بعض موظفي القصر في قرطبة .

ولم يكن صاحبنا في حاجة لأن يهاجر من العاصمة الشرقية ، فقد غمره هرون الرشيد بعطفه وشمله بإحسانه ، لكن الحقد والحسد والغيرة هدمت سعادة « زرياب » وقوضت عشه ، فأستأذه إسحق بن إبراهيم الموصلي ، الذي استطاع بمدرسته الموسيقية مضايقة المتتدي الموسيقى في الكوفة ، كان لا يعلم الغناء للجواري

الحسان فقط ، بل يهتم بتخريج الموسيقيين من الجنسين راجياً من وراء هذا أن ينال حظوة عند الخليفة .

فالشاب الكردي الموصلى كان يمتاز بعادات حسنة جداً ، فقد كان يجيد النكتة والحديث إلا أن زرياب إلى جانب لسانه الزلق كان له تفكيره الخاص وكان مثله مثل أستاذه عظمة واعتداداً بالنفس . ولو أنه كان ينوء تحت أعباء مسئوليات جمّة . سأله الخليفة مرة عن غنائه ، فأجاب أنه يستطيع أن يغنى كما يغنى الآخرون لكن علاوة على هذا يقدر على أداء أشياء لا يقدر عليها غيره ، إن فنه يدركه ويقدره الفنانون أو الذين لهم دراية كبرى كدراية أمير المؤمنين ، ثم استأذن الخليفة أن يسمعه بعض أغانيه التي لم يسمعها من قبل . فأعطى إسحق بن إبراهيم الموصلى تلميذه عوده ، فتفقده زرياب كما يتفقد حذاء قدراً . وقال : إذا شتم يا مولاي غنيت لكم شيئاً كالذى سيغنيه أستاذى . وسأغنى بمصاحبة عودى . وفى هذا الوقت كان إسحق الموصلى يزداد ألاماً وحقداً فطلب زرياب أن يستصحب عوده الذى صنعه هو ، وبعد استئذان الخليفة أخذ زرياب يغنى قصيدة من تلحينه يمدح فيها أمير المؤمنين .

وقد أعجب الخليفة بها إعجاباً عظيماً وقرر أن مثل هذه العبقرية يجب أن تصبح حلية يتحلى بها قصره . أما إسحق بن إبراهيم الموصلى فقد تأثر كثيراً من هذه القصيدة لأنه لم يكن يخطر بباله أن مثل هذا النجم سيتلأأ سريعاً . لذلك قال له إسحق لقد خدعتنى خداعاً عظيماً بكمثانك وخبيثك ، لقد حاولت أن تطعننى أمام الخليفة . ثم طلب إليه ألا يغنى ، وسيدفع له إسحق مالا كثيراً ، وإن لم يفعل هذا فسيستقم منه شر نعمة .

ومن ثم نرى الإشاعة تنتشر فى أن أرواحاً تتقمص زرياب وتخبره عن الألحان وتبلغ هذه الشائعة الخليفة الذى أبدى الرغبة فى مشاهدة زرياب ، كما قيل للخليفة كذباً وميناً إن زرياب مغرور وإنه قد غضب لأن الخليفة لم يمنحه المال الكافى .

ولماذا لا ينجح الشخص الذى نجح لدى هرون الرشيد ، عند الحكم الأول فى الأندلس ويجد عنده قبولا وترحيباً . لقد كتب زرياب إلى قرطبة ، وأخبر الحكم بذلك فاستولى عليه السرور وذلك لأن بلبل بغداد قد تركها ، وأنه سيغرد فى حدائق

قصره . لكن لم يكد المغنى يضع قدميه في الأندلس ، حتى علم أن مرسل الخطاب قد توفى منذ زمن قصير ، فكان هذا الخبر صدمة قوية لزياب حتى فكر في العودة إلى أفريقيا عندما حضر إليه رسول الخليفة الأموي الجديد الذي جلس على عرش البلاد واسمه عبد الرحمن الثاني ، فقد دعاه عبد الرحمن هذا إلى قصره لكي يسطع نجمه في ردهاته ، وأرسل إليه بغلا مطهماً جعل زرياب يشعر أن القوم في الأندلس يقدرون فنه .

وبعد أن مضى زرياب ثلاثة أيام في قصر ضيافة الأمير استراح فيها من وعثاء السفر دعاه عبد الرحمن للمثول بين يديه وعامله الخليفة معاملة كريمة جداً ، فقد دفع له مرتبه قبل أن يتبين صوته وفنه كما أخبره الخليفة أنه سيدفع له مرتباً شهرياً خيالياً هذا عدا الهدايا التي سيمنحها له بين الحين والحين ، وبعد أن تعينت المكافأة رجا عبد الرحمن المغنى أن يغنيه أغنية ، وبعد سماعها اتضح له أنه كان مصيباً في تقديره .

ومع تقدم الزمن نجد زرياب يكشف عن مزاياه وخلالها النبيلة التي تحببه إلى الخليفة وتقربه إليه ، فقد كان يتمتع زرياب بذاكرة جبارة كما كان يحفظ آلاف الأغاني ويحيط بألحانها وأنغامها إحاطة قوية . كذلك كان زرياب عالماً بالفلك والجغرافيا وكان يجيد الحديث عن البلاد الأجنبية وعادات شعوبها وتقاليدها أهلها . وعلاوة على ذلك قد امتاز بروحه الجذابة الفياضة ولباقته ومسلكه . فهذا الرجل الحميل الأنيق حسن البزة كان المثل الأعلى للرجل المهذب في الذوق الرفيع . وكل شيء يخترعه زرياب يقلده فيه الآخرون ، فكان زرياب مثال الأناقة في قرطبة يحتفظ بشعره طويلاً ويفرقه ثم يقصه حول رأسه ، فكان زرياب فناً أنيقاً يعرف كيف يعنى بملبسه ويجارى أحدث الأزياء التي تسير مختلف فصول السنة . فكان يرتدى الأقمشة الخفيفة ذات الألوان الزاهية الحية الجميلة في فصل الربيع والأثواب البيضاء الفضفاضة صيفاً ومعاطف الفراء والقلائس شتاء . فقد كان يرتدى آخر ما يتوصل إليه الذوق السليم في بغداد إبان الشتاء . كذلك نجد المغنى يثور على نظام مائدة الطعام فقد أوجد أطعمة جديدة وأدخل إلى المطعم الأسباني طعام الهليون ، وهكذا نجد هذا الفنان المحبب إلى الجميع ، هذا السيد الأنيق ، قد استولى بلطفه وفنه على قلب الأمير وشعبه ، حتى إن القوم كانوا يقصدونه لقضاء

حاجاتهم. وهكذا نجد عبد الرحمن الثاني، يؤسس معهداً للموسيقى لموسيقى القصر في قرطبة، وفي هذا المعهد كان يتعلم الهواة الغناء والموسيقى نظرياً وعملياً. وذلك لأن العرب كانوا منذ أقدم العصور شعباً محباً للغناء، يعشق الغناء عشقاً لا يدانيه فيه شعب آخر، فالموسيقى كانت تلازم العرب من المهد إلى اللحد، فكل عواطفهم كانوا يحولونها إلى غناء فنجد غناء العمل وفرح اللعب وفرح الحب وألمه والرغبة الشديدة في الحرب أو في الثأر والحزن على الموتى. ففي العصر الجاهلي تقوم طائفة المغنين والمغنيات، وفي عصر الاستقرار في المدن نجد المغنيات اللواتي كن يغنين بمرافقة الآلات الوترية، فكانت المغنية من مستلزمات الحياة في البيت مثلها مثل البيان في كل غرفة جميلة في القرن التاسع عشر، أو مثل المديح في كل غرفة جلوس في القرن العشرين.

ولم تكن تلك الموسيقى من هذا النوع الغريب على آذاننا اليوم والمشهور بنغمته الواحدة. فالغناء في النغمة الواحدة نشأ أولاً بعد خراب بغداد على يد المغول، وظهر ربع النغمة، وهي نغمة ليست عربية أصيلة، فعلى النقيض من ذلك نجد الأنغام العربية كانت غنية متنوعة مثلها مثل الفن العربي، كما نجد العرب يستخدمون حتى القرن الثالث عشر سلم النغم الفيثافوري؛ ويرجح أن هذا السلم النغمي الفيثافوري سلم سامي الأصل وقد أثر هذا السلم في فارس وبيزنطة، ومن ثم انتقل إلى العرب. ولو أن هذه البضاعة المستوردة من فارس أو بيزنطة لم تعوض العرب موسيقاهم القومية بل طعمت بأصل عربي.

والصفة المميزة لهذه الموسيقى «النغم» (Rhythmus) الذي لا يشترط وجوده في كل فن من فنون الموسيقى كما قد يتبادر إلى أذهاننا. أما موسيقى الغناء القديمة فمثلها مثل الشعر القديم لا تعرف نغماً، كما أن الشعر يعتمد على العروض فقط، أعني أنه يقوم على تقاطيع طويلة وقصيرة. وأقدم موسيقى كنسية ترجع إلى العصور الوسطى مثلاً لا تعرف زمناً للنغم أو عروضاً، وهي تعتمد عادة على وحدات من الأنغام متصلة إلا أنها وحدات نغمية غير موزعة، مثل تقسيم الجمل عن طريق الشولات وما إليها، توزيعاً منتظماً.

أما البناء الزمني للنغم فهو شرقي أصيل مع ملاحظة أن الزمن النغمي يساعد على

خلق القياس الزمني الموسيقى وهو يؤدي مباشرة إلى توقيع ، وقد يكون هذا هو أهم شيء موسيقى قدمه العرب لأوروبا ، أعني القياس الزمني وذلك عن طريق وحدة الزمن النغمي إلى توقيع نجده في الموسيقى ، وقد عرض لهذه الظاهرة وتلك الخاصية الفيلسوف العربي وصاحب النظريات الموسيقية في منتصف القرن التاسع الميلادي ألا وهو الكندي ، وقد انتقلت هذه الموسيقى العربية إلى أوروبا في القرن الحادي عشر عن طريق المغنين المتجولين وسبايا الحرب من النساء الأندلسيات . أما نظرية القياس الموسيقي في المؤلفات الأسبانية العربية فقد غزت القطع الموسيقية اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .

وقد ورثت أوروبا فن الموسيقى عن العرب كما ورثت أيضاً الزخرفة الموسيقية العربية التي نجدها في النغم ، كما يلاحظ في الموسيقى تمسك العرب بالمبدأ الأفقي الموسيقي . وهكذا نفهم سر غرام العربي بالموسيقى الغنائية ، كفن مصاحب للغناء أكثر منها كفن مستقل .

وتدين أوروبا للعرب كذلك في آلاتها الموسيقية ، بعد أن سبق أن أهدت بيزنطة إلى أوروبا الأرغول والقانون وربما الجثك أيضاً .
واليوم عندما يستخدم قائد الفرقة الموسيقية عصاه عند عزف قطعة موسيقية فإن الآلات الموسيقية التي أمامه ما هي إلا آلات عربية أو بتعبير أدق انحدرت عن آلات عربية كثيراً ما استعملت لعزف مجموعة فنية جميلة رقيقة من الأنغام ، وقد جاءت كثرة هذه الآلات العربية بعد اختبارها اختباراً دقيقاً عن طريق أسبانيا إلى أوروبا ، وما زالت محتفظة بأسمائها العربية فمن الآلات الوترية العود والقيثارة والطنبور والسنطير . كذلك الرباب والبوق والناي والمزمار والصاجات والنقارة وغيرها .

ثم نجد الفيلسوف الفارابي الذي كان عالماً كبيراً في النظريات الموسيقية ، يبتخرع في النصف الأول من القرن العاشر الرباب والقانون . وقد مهدت الآلتان لاختراع البيان الأوربي . وعدا المخترعات الأخرى التي سجلها لنا التاريخ العربي للموسيقى نجد أيضاً « زرياب » الذي تركناه في قرطبة يحدد فيها تجديداً عظيماً ، وهذا هو السبب الذي جعله يرفض العزف على عود إسحق بن إبراهيم الموصلي ورجا

الخليفة أن يسمح له بأن يعزف على عوده الخاص الذى زوده بوتر خامس ولحن على عوده ذى الأوتار الخمسة مقدمة له ، وقد لقي ذلك إعجاب أمير المؤمنين وحسد معلمه .

وبينا نجد الموسيقيين الأوربيين يعتمدون عند ضبط القانون وما إليه ، على الأذن إذ بنا نجد طالب الموسيقى فى مدرسة زرياب يتعلم العزف على رقبة العود ، وفى هذه الرقبة نجد ارتفاع النغم وقد قيس قياساً خاصاً عن طريق جمعها معاً وهذا من المزايا الكبرى التى تحبب الآلات الموسيقية العربية إلى الأوربيين .

وربما كانت هذه الآلات هى التى دفعت الأوربيين إلى معرفة الإيقاع وإجادته ، وهذا قد أدى بدوره إلى خلق أوربا للرباعى والخماسى والثمانى ، ولا سيما أن الأوربي ميل بطبعه إلى العمودية ، وقد دفعه هذا الاستعداد إلى خلق الموسيقى المتجانسة ، وهذه محاولة لم يشعر بها العربى نظراً لطبيعته الخاصة .

وقد أثرت الموسيقى العربية أيضاً عن طريق النغم الموسيقى العالى الموجود فى صوت الحصيان ، كما أثرت أيضاً بأنغامها وأوضاعها الموسيقية الخاصة التى كانت شائعة فى الأندلس فى الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والثانى عشر فى الموسيقى الأوربية سواء الفنية منها أو الشعبية ، وكان الأثر شديداً جداً فى الموسيقى اللاتينية كما يتضح لنا هذا واضحاً من اقتباساتها تعبيرات وخصائص موسيقية عربية ، وقد يكون العرب قد تأثروا فى هذا ببعض النظريات اليونانية إلا أنهم كرياضيين وعلماء طبيعة بالفطرة أجروا عليها كثيراً من الاختبارات والتجارب التى مكنتهم من تنقيحها ، وبالرغم من أن هذه النظرية قد جاءت عن علماء لهم شهرتهم الخاصة فإن العرب قد نقحوها وخطوا بها خطوات واسعة وسبقوا اليونان فيما وصلوا إليه أو جاءوا به . فتحن نجد عدداً كبيراً من علماء الموسيقى العرب قد شاركوا فى هذه الأبحاث ، إلا أنه مما يؤسف له حقاً أن ما وصلنا عنهم قليل جداً ، وقد ترجم بعضه . ويدين إلى العلماء العرب من الأوربيين أمثال « جونديسلفوس Gundisalvus » ، و « فنسنت دبوفيه Vincent de Beauvais » ، و « يوحنا أجيدىوس Johsannes » ، و « روبرت كيلوردباى Roberdbyt Kilwardby » ، و « رامون لل Ramon Luil » ، و « سيمون تونستيدى Simon Tunstede » ، و « روجير بيكون Roger Bacion » ،

و « آدم فون فولده Adam von Fulda » حيث تأثروا بالعرب وأخذوا عنهم كثيراً .
ويعدّ الإنجليزي « ولتر أودينجتون Walter Odinhgton » العالم العربي ابن سينا
أنه عالم موسيقى من المرتبة الأولى . ومؤلفات الفارابي الموسيقية كانت موضوع عناية
ودراسة حتى القرن السابع عشر الميلادي . وقد تعلمت أوربا عن ابن سينا والفارابي
العلاقة بين ٥,٤ = النغم الثالث الكبير و ٦,٥ = النغم الثالث الصغير ، فقد غيروا صوت
النغم الثالث وهو عدم الموافقة في الإلحان وجعلوا منه النغم المألوف إلى آذاننا اليوم
أعنى تجانس الألحان . وقد اهتم الجراف السويبي وهو « هرمانوس كونتراكتوس
Hermannus Contractus » الذي كان يقطن في « ريشناو Reichenau » كعالم
يقدر العرب وعلومهم تقديراً عظيماً . بسائر مؤلفات الكندي وبخاصة ما يتعلق منها
بالموسيقى وأخذ عنه كتابة الموسيقى العربية . أما المقاطع « دورم فا سول لا سي »
التي يقال عنها إنها من وضع الإيطالي « جويدو فون أريتزو Guido von Arezzo »
الذي يقال إنه وضعها حوالي عام ١٠٢٦ م وقد راعى فيها أوائل سطور ترنيمة يوحنا ،
فالواقع أن المقاطع الموسيقية (در . .) إنما اقتبست من المقاطع النغمية العربية
(د) تنطق قديماً (د) مضمونة ثم (ر) (م) (ص) (ل) (س) وهذه كثيراً
ما نجدتها في مقطوعات موسيقية لاتينية مشتملة على كثير من المفردات العربية وهذه
المقطوعة اللاتينية ترجع إلى القرن الحادي عشر . وقد وضعت في جبل « كاسينو »
الذي كان يقيم فيه العرب .

وقد عاش المغني العربي زرياب في قصر الحاكم الذي كان يقدره ويحله ، لذلك كان
موضع حسد الكثيرين وحقدهم ، وفي مقدمة حاسديه والحاquدين عليه لجمال صوته
وأثره البعيد يحيى بن الحكم الملقب بجمال الغزال . وكان يحيى هذا شاعراً موهوباً
لذلك عينه الحكم الأول في بلاطه . وقد حرص يحيى على الاحتفاظ بمكانته في القصر
مدافعاً عنها أمام هذا الأجنبي القادم من بغداد . وهكذا نجد هذين الفنانين
يتنافسان ، كل يحاول بفنه ومهارته الانتصار على منافسه ، وحال عبد الرحمن أن يبعد
كلاهما عن الآخر ، فأرسل الغزال سفيراً له في القسطنطينية حيث استولى هذا
الأندلسي اللبق بأحاديثه وجماله على قلوب الفاتنات وبخاصة القيصرية التي رغبت
إليه أن يقيم دائماً في القصر ، إلا أنه لم يكد يعود إلى قرطبة مغروراً بهذا التوفيق الذي

أحرزه في القسطنطينية حتى هاجم زرياب المغنى الذى كان قد خلا له الجو فازدادت مكانته ، وفي ذلك الوقت كان عبد الرحمن المحب للسلام يفكر في إحلال السلام والوثام مع النورمانيين الذين كانوا قد هاجموا أشبيلية ، ومنوا بهزيمة قاصمة ، فأرسل شاعر قصره الغزال في صحبة السفارة النورمانية إلى « كوتلند » ، وقد أنسته أغانيه الغرامية التي ظل يرددتها في حب امرأة ملك النورمان الحقد والغضب على زرياب .

لكن لما عاد الغزال تبين أن النار التي لم تخمد بعد أصبحت ضعيفة لا تقوى على إعداد الطعام ، لذلك قرر مهاجمة زرياب والسخرية منه ، فأفقد هذا الموقف الغزال مكانته ، فأقصاه عبد الرحمن من قصره ونفاه . وفي الوقت الذى كان مغنى بغداد في قرطبة تكلل هامته بأوراق الغار نجح كذلك شاعر قرطبة في بغداد في الحصول على شعارات المجد والتكريم بالرغم من أن القوم في بغداد لم ينظروا إلى الأندلسيين نظرة إعجاب وتقدير .

زخرف العالم الوضاء

إذا فكر العربى في الأندلس ، وإذا حلم بجنة الأرض ، فإنما يقصد الأندلس إبان حكم عبد الرحمن الثالث ، فإن هذا الأمير الذى أهده الله إلى الأندلس ، كان المثل الأعلى للحاكم فنجح وخلق من أمة متفككة الأوصال – عن طريق الدين والجنس – شعباً قوياً أصبح في خمسين عاماً شعباً نابغاً متسامحاً سياسياً وفي طليعة شعوب العالم المتمدين .

وبدهى أن الحياة السياسية حتى ذلك العصر كانت متقلبة ، وكذلك كان الخلاف قائماً في الداخل بين المفكرين الأحرار وبين المحافظين المترمتين ، لكن كل هذا لم يحل دون ازدهار الحضارة وتطورها .

كذلك الحالة الاقتصادية في البلاد ، فقد أُنِعت وازدهرت وذلك بفضل نشاط العرب وتجارهم في الزراعة والرى . فالعين العربية المحجرة تبينت الكنوز المطمورة في الأرض التي يجب استخراجها والاستفادة منها لرفع مستوى البلاد والنهوض بها .

فقد حفر العرب الآبار وزودوها بروافع المياه والسواقي التي يبلغ اتساعها نحو عشرين أو ثلاثين متراً وكانوا يحصلون على الماء من الجبال ويجمعونه في أحواض كبيرة يمتد الحوض منها نحو خمسة كيلو مترات ، ومن ثم كانوا يجرون المياه في قنوات كبيرة إلى الأراضي ، حيث تخزن في أحواض ثم تصرف منها في الحقول ، وهكذا نجح العرب في إرواء الأراضي الجافة الجرداء حتى التلال وأعلى الجبال وجوانبها فسطحوها ورووها وزرعوها ، كما تلقى الفلاحون دروساً في زراعة الرمان والحوخ واللوز والمشمش والبرتقال والكستناء والبنان والنخيل والبطيخ والهلين وقصب السكر والقطن ومختلف النباتات وصناعة الكعك من الفاكهة التي كانت تكون عنصراً هاماً من صادرات البلاد الأسبانية . وحتى اليوم ما زلنا نجد في اللغة الأسبانية الخاصة بالزراعة والرى كثيراً من الألفاظ والاصطلاحات العربية . ففي ذلك العصر استغل العرب كل بقعة من الأرض فكان الحقل إلى جوار الحقل كما يصف ذلك المسعودي في كتابه مروج الذهب . وبفضل العناية بالرى والزراعة وحسن استغلال الأرض إلى صفاء السماء وجودة الجو . كانت الأرض أيام عبد الرحمن الثالث تنتج ثلاثة محاصيل أو أربعة من الحبوب في العام ، واستتبع العناية بالزراعة الاهتمام بتربية الماشية وبخاصة الإبل والخيول ويكنى العرب فخراً أنهم أصحاب فكرة التلقيح الصناعي وهم أول من استخدمها ، وقد أخذ بها العالم الحديث في القرن العشرين فقط .

ثم فتحت المناجم التي ظلت أكثر من ألف عام لا تستخدم ولا تستغل ، فقد سبق أن أخرج الفينيقيون بعض محتوياتها فاستخرجوا منها سنوياً كثيراً من الحديد والنحاس والزنبق ، فقامت صناعات عظيمة فنية لا تستطيع أوروبا أن تتصورها فعم الرخاء البلاد وارتفع مستوى معيشة السكان ، حتى إن كل أندلسي كان يركب بغلاً ولا يمشي ، كما أدى انخفاض أسعار الخضر والفاكهة وسائر المواد التموينية وارتفاع أجور العمل إلى نزوح كثيرين من الفلاحين العرب والعمال العرب إلى الأندلس فبلغ عدد السكان حوالي عام ٩٥٠ م في أسبانيا العربية نحو ثلاثين مليوناً فقامت آلاف القرى حول قرطبة فازدهرت الحياة وأينعت .

ومنذ أن استقلت الأندلس أيام الأمويين عن خلافة بغداد انقطعت الضرائب

التي كانت تتدفق من الأندلس إلى شرق العالم العربي وأصبحت تنفق على أهالي الأندلس أنفسهم فساهمت هذه الأموال في رفع مستوى المعيشة ، وبفضل حكمة وحسن تدبير عبد الرحمن ، هذا الخليفة العظيم ، كان ينفق ثلث إيرادات الدولة على الشؤون الداخلية والجيش الذي كان يعتبر وقتذاك من أحسن جيوش العالم نظاماً وقوة كما يذكر ذلك سفير « أوتو الأكبر » وهو رئيس الدير « يوحنا فون جورز » والثالث الثاني كان يحتفظ به كرصيد ، والثالث الأخير كان ينفقه الخليفة في تشييد المساجد والقناطر والطرق الحربية وشقّ الترع ، وبذلك كان يخلق عملاً لسائر العمال المتعطلين فخلد وحقق أمانيه وأحلامه كما ذكر هو ذلك . وفي عصره الذهبي قامت مدينة الصخرة ، مدينة الأحلام ، بالقرب من قرطبة وهي في أبهى حلة لها فقد زخرفت مبانيها وقصورها بالذهب الخالص والرخام والبلور والأبنوس والجواهر الكريمة . كما اشتهرت أيضاً بمحادثتها الغناء . ويذكر أن جارية عبد الرحمن المحبوبة تركت عند وفاتها ثروة طائلة ليُفتدى ببعضها كثيرون من أسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضة الإفرنج . لكن جميع الأبحاث والمفاوضات التي قام بها المسلمون مع الإفرنج باءت بالفشل ، لذلك ما كان من عبد الرحمن إلا أنه ، تحقيقاً لوصية جاريته التي أوقفت ثروتها لاقتداء أسرى المسلمين ولم يوفق في هذا لتعنت الإفرنج . شيد الصخرة وأطلق عليها اسم جاريته تخليداً لها ولا سيما أنه قد استغل الثروة التي تركتها فيها .

لقد عمل في الصخرة نحو عشرة آلاف عامل وظلوا يعملون بها زهاء خمسة وعشرين عاماً بدون انقطاع فشيدوا آيات العمارة ، حتى قال شاهد عيان : لقد رأيت بها أشهر ما شيدته يد إنسان من مبان عظيمة .

وقال عربي آخر إن قصر الخليفة كان على جانب عظيم من الأبهة والجلال حتى قيل إنه الوحيد من نوعه في العالم الإسلامي . واعترف أكثر من زائر من مختلف أنحاء المعمورة أنهم لم يروا له مثيلاً في العالم كما لم يعرفوا عظمة وأبهة وفخامة كتلك .

وهذه المنشآت العظيمة لم تلبث أن تركت أثراً عظيماً ، لا في العاصمة فقط ، بل على امتداد شاطئ الوادي الكبير ، وحول المساحات الممتدة بين القرى حيث القصور الشاحنة والبيوت الخلوية الجميلة لأصحاب الجاه والسلطان والأثرياء ، وحيث دور

اللهو والمتزهات، كما قصد سكان المدن تلك الأماكن استظللاً في غابات الزيتون والكروم والنخيل والسرو .

وفي المنطقة الممتدة بين « سييرا مورينا Sierra Morena » و « سييرا نيفادا Sierra Nevada » التي يجري فيها الوادي الكبير كان يقوم اثنا عشر ألف قرية من بينها ست عواصم وثمانون مدينة كبرى وثلثمائة متوسطة .

لكن أعظم مدينة كانت لدى الأندلسي هي قرطبة وعلى جوانبها ذوات المروج الخضراء كان ثمان وعشرون ضاحية . وكانت قرطبة إبان حكم عبد الرحمن الأكبر في منتصف القرن العاشر . من حيث اتساع رقعتها ، أكبر مدينة في الغرب بما في ذلك أوروبا . فعدا مساكن الوزراء والموظفين كانت تحتوي قرطبة على نحو ١١٣٠٠٠ مسكن وستمائة مسجد وثلثمائة حمام وخمسين مستشفى وثمانين مدرسة عامة وسبعة عشر معهداً تربوياً (وكانت في القرن التاسع تضم أربعة آلاف طالب شريعة) وعشرين مكتبة عامة ، تحتوي على مئات الآلاف من الكتب ، في عصر لم يكن في أوروبا مدينة ، عدا القسطنطينية ، كانت تتسع لأكثر من ثلاثين ألف سكن . ولم تمتلك هيئة ، من الهيئات مستشفى واحداً أو مدرسة عليا . ولم توجد بها مكتبة تستحق الذكر أو حمام عمومي . هذا مع الإشارة إلى أن ذلك العصر قد عرف بقذارة الشوارع وعدم رصفها مما ساعد على انتشار الأوبئة والأمراض . والعجيب أن صحيفة كولونيا تكتب في ٢٨ مارس عام ١٨١٩ مندة بإضاءة الشوارع بمصابيح الغاز واصفة هذا الحدث بأنه مرفوض وأنه بدعة تتعارض والتعاليم الدينية ، وذلك لأن الله خلق الليل ظلاماً ويجب على البشر ألا يعارضوا ويخالفوا إرادة الله — في ذلك العصر كانت جميع شوارع قرطبة وحواليها البالغ عددها ثمانين ألفاً حوالي عام ٩٥٠ م ليست فقط مرصوفة رصفاً عظيماً وتنظف بواسطة عربات تجرها الثيران ، بل كانت تضاء ليلاً بمصابيح مثبتة في جدران المنازل . وبعد ذلك بقرنين أعنى عام ١١٨٥ قررت باريس كأول مدينة في أوروبا احتذاء حذو المدن العربية فرصفت الشوارع ، وجارتها المدن الأوربية الأخرى في منتصف القرن الثالث عشر .

إن هذا الحدث كغيره من الأحداث يشير إلى اقتباس أوروبا الشيء الكثير عن العرب ، وقد نقل الأوربيون هذه الأشياء عن طريق الرحالة عبر جبال البرانس ،

ولو أنه من العجيب حقاً أن المسيحية أو المسيحيين أقاموا مدة في بلاد السحرة حتى لا يتهموا بأنهم يقتبسون عن العرب شيئاً ! وليست الأوهام هي التي سيطرت على الراهبة العالمة الشاعرة المسماة « روزفيتا Hros witha » والتي كانت مقيمة في صومعة دير « جندرزهم Gandersheim » السكسوني عندما علمت بقصة قرطبة ووضعت فيها قصيدة تمدها فقالت عنها « إنها زينة الدنيا وبهجتها ، إنها المدينة الحديثة الجميلة الشائخة بأبنيتها ، الشهيرة بأفراحها وهي تحوى جميع الأشياء » .

وليس اليهود فقط هم الذين قاموا بدور الوسيط ونقلوا الثقافة العربية إلى أوروبا بل نجد كثيرين من المسيحيين قد سمعوا بهذه البلاد المباركة ، حيث قرطبة وطليلة ومعالمهما الشهيرة الجديرة بالرؤية والزيارة . ففي أثناء قيام حكومة الأمويين بين القرنين الثامن والحادي عشر أقبل عدد كبير من الطلبة من مختلف أنحاء العالم على أسبانيا طلباً للعلم وتحصيلاً للمعرفة حيث كانت قرطبة النبع الذي لا ينضب . نعم إن العلوم الأندلسية اعتمدت أول الأمر على العلوم اليونانية ، والعلوم التي كانت منتشرة في شرق العالم العربي ، إلا أن هذه العلوم الأندلسية لم تلبث أن وقفت على ساقيها وذلك بفضل الخليفة الحكم الثاني بن عبد الرحمن . وبعد أن اشتد ساعد المعرفة العربية الأندلسية واستقلت عن غيرها خرجت شخصيات علمية عالمية مثل ابن رشد وابن زهر وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان ، هذه القصة الفلسفية التي تعالج الإنسان الطبيعي . وهي التي أتاحت إلى « ديفو Defoe » أن يضع قصة « روبينسون كروزو Rbionson Crusoe » . كما نجد ابن باجه وأبا القاسم والبطروغي وابن البيطار وابن فرناس وابن الخطيب والعالم العظيم جداً ابن خلدون الفيلسوف والمؤرخ الأول ومؤسس علم الاجتماع . ثم نجد الصوفيين ابن عربي وابن سبعين ، ويمتاز جميع أولئك العلماء على علماء شرق العالم العربي .

وامتاز الحكم على سابقه بحبه وشغفه بالعلم ونشره بين طبقات شعبه الذي رفعه والده سياسياً واقتصادياً حتى جعله شعباً مثالياً لذلك حاول الابن منذ اليوم الأول من توليه الحكم أن يجعله في طليعة الشعوب الأخرى علمياً وثقافياً ، وامتاز بذلك على أسلافه . فقد أتبع كل مسجد مدرسة ، وكانت بكل حي من أحياء المدينة مدرسة خاصة ومئات الآلاف من الكتب التي كانت محفوظة في المكتبات العامة وكانت تحت تصرف أفراد

الشعب الذين كانوا يستطيعون قراءتها وفهمها ، وأراد الحكم شيئاً آخر ، فقد أسس في قرطبة سبعة وعشرين مدرسة أخرى خاصة بالفقراء وكان يدفع هو نفقات وأجور أعضاء هيئة التدريس .

وقد ساعدت هذا الحاكم العالم في جميع أوجه نشاط المعرفة في بلاده . وفي تحقيق رغباته العلمية— هذه الثروات الطائلة التي خلفها له والده وأحسن هو إدارتها والتصرف فيها ، فأنفق جزءاً كبيراً منها في الكتب ونشرها ومساعدة العلماء وفتح المدارس ، فكان يرسل بعوثة العلمية إلى مختلف المراكز الثقافية والعلمية لشراء أو نسخ أمهات الكتب في مختلف العلوم والفنون ، وإذا ما أدرك مبعوث الخليفة القرطبي أن عالماً في صدد وضع كتاب بادره وقدم إليه المكافأة السخية مقابل حصوله على هذا الكتاب بمجرد الفراغ منه . فقد حدث فعلاً أن كثيراً من المؤلفات التي وضعت في البصرة أو الموصل قد عرفت وانتشرت في الأندلس قبل أن تراها بغداد !

وبلغ غرام الحكم بالكتب أن حرص حرصاً شديداً على شراء الكتب الجديدة وجمعها وقراءتها قبل أن تصل إلى يد غيره لأن حبه لها لم يكن أفلاطونياً بل واقعياً . فيقال إن مكتبة قصره كانت تضم (٤٠٠٠٠٠) أربعمئة ألف مجلد قد قرأ جميع ما بها وعلق على بعضها وعلى مؤلفيها . وحقاً كان هذا الخليفة مضرب الأمثال في العلوم والآداب وسعة الاطلاع . وكان يقصده الأساتذة والعلماء عبر الصحارى والبحار حيث وجدوا عنده الكرم الحائمي والعلم الذي لا يجاريه فيه أحد ، هذا إلى جانب كونه المسامر اللبق . وكانت شخصية هذا الأمير جذابة حتى أقبلت عليه فئات عديدة من كبار العلماء في العالم الإسلامي بل حتى رجال اللاهوت المسيحي قد تهافتوا عليه . فاكسب بذلك هذا الخليفة الواسع الاطلاع والأفق ، الحليم والواسع الصدر ، العالم الأديب ، إعجاب كبار رجال الكنيسة الذين توافدوا عليه وانكبوا على دراسة اللغة العربية وآدابها . ولما كان ولياً للعهد كلف الحكم الغوطي الغربي الأسقف « جودمار فون جيرونا Godmar von Gerona » وضع كتاب باللغة العربية في تاريخ الإفرنج . كما أن أسقف قرطبة المسمى « ريكديمندوس » الذي كان قد سبق أن أرسله الخليفة عبد الرحمن الثالث عام ٩٥٥ م سفيراً إلى القيصر أوتو الأكبر هذا الأسقف الذي كان صديقاً لعلماء الطبيعيات العرب ، قد وضع كتاباً

باسم « راب بن سعيد » الأسقف وأهداه إلى الأمير المسلم الذي كان يرعاه .
وموضوع هذه الرسالة : تقسيم الأزمان وإعادة تكوين الأجسام ، وقد ترجمها
إلى اللاتينية من العربية « جيرهارد فون كريمونا » .

والحقيقة أن الحكم لم ينفرد بين حكام الأندلس بتشجيع العلم والعلماء، فنحن
نجد المظفر ملك « بادايوز » يضع موسوعة علمية شاملة لمختلف فنون المعارف في
مائة مجلد ، كذلك المقتدر ملك « سرجوسه » أظهر نبوغاً عظيماً في الفلك والرياضيات
والفلسفة كما كان يقدر العلماء تقديرًا عظيمًا . وتقدير العلم سواء عند الأمويين
أو غيرهم لم يكن شيئاً نادراً أو مستحدثاً، وعلى النقيض من ذلك فالعالم الذي كان
يعينه الأمير في وظيفة حكومية يجب أن يكون على جانب عظيم من العلم والمعرفة ولم
يوجد عالم في دولته دون وظيفة أو عمل ، فكل عالم كان علمه كفيلاً لأن يجلسه في
أعلى المناصب وأرفعها وحتى صغار الأمراء الذين جاءوا بعد سقوط الأمويين
عام ١٠٣١ وبعد ضياع الخلافة في قرطبة وأشبيلية وغرناطة والمرابا وسرجوسه كانوا
يتنافسون في تشجيع العلم والأخذ بيد العلماء وبذلك مهدوا لظهور النهضة العلمية
الثانية التي ظهرت بعد ذلك في الأندلس .

وليست العلوم فقط أو الفنون التطبيقية هي التي وجدت إقبال العلماء عليها
وتشجيع الأمراء لأصحابها بل الشعر أيضاً ، والشعر للعربي كالهواء للإنسان ،
فقد شجعه الأمراء تشجيعاً منقطع النظير ، ومن بين الأمراء من أجاد الشعر إجاداً
تامة .

شعر من شعراء

إن الذي يسير في أمسيات الصيف الحارة في مرج الفضة وقد سلط عليه القمر
أضواءه الفضية، يقع بصره على شاين مرحين، فهنا نجد السكان، سكان أشبيلية،
يبحثون عن أماكن اللهو أو يسرون في المنتزهات وقد أهداها الندى نسيماً عليلًا دلى
طول الوادي الكبير ، إلا أن أحداً لا يفكر في أن أحد الشاين الذي يرتدى ثياباً

حريرية مهفهفة هو أبو القاسم محمد ، ملك المستقبل .

فهذا الأمير المرح المحب إلى النفوس كان يجد لذة في الاختلاط بمخلف طبقات الشعب متنكراً يرافقه صديقه الذي كان يكبره بتسعة أعوام ، وهو ابن عمار . وكان ولي العهد يحب هذا الصديق حباً شديداً ، لأن ابن عمار كان يجيد الشعر لإجادة تامة ولم يكن ليتميز عليه في الأندلس في صناعة الشعر إلا ابن زيدون العظيم . وبالرغم من أن ابن عمار كان فقيراً جداً ، إلا أنه كان مغامراً . لذلك استولى بشعره على قلب الأمير الذي كان أيضاً شاعراً ، وطالما تنافسا في قرضه والمطارحة ، كان يقول أحدهما بيتاً ويقول الآخر بيتاً يتفق والأول عروضاً وقافية .

ويوماً كانا يسيران يمرحان ويتمتعان باستنشاق هذا النسيم العليل ، وقد هب على الشاطئ فحرك سطح الماء وهز الأمواج كرقائق الفضة . فقال المعتمد لصديقه الشاعر : أجز : « صنع الريح من الماء زرد » فأطال ابن عمار الفكرة . ولم يكن في نظمه للشعر ممن أوتوا البديهة الحاضرة . وكانت امرأة من الغسلات على مقربة منهما ، وسمعت ما قاله المعتمد لابن عمار . ولما عجز الأخير عن الإجابة قالت المرأة على البديهة : « أي درع لقتال لو جمد » .

فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هي حسناء فاتنة ، فأعجب بها وأخذ يجمها ، فسألها « أذات زوج هي ؟ » فقالت : « لا » ، فلما ذهبت في سبيلها قال لخدم كان يتبعه : « سل عن هذه الفتاة واعرف مكان أهلها » ، وعلم أنها جارية رميك بن حجاج وأن اسمها اعتماد ، فلما عاد إلى قصره استدعى صاحبها واشتراها منه وتزوجها ، ومن فرط حبه لها أطلق على نفسه منذ تلك اللحظة اسم « المعتمد » وبهذا الاسم اشتهر كأكبر شاعر بين جميع ملوك العرب وخلفائهم . وهكذا تجد الاثنين ينسجمان انسجام الروى في الشعر أو انسجام القافية وقد ظل حبهما حياً مدى حياتهما حتى لقي كل منهما قضاءه الحزين المحتوم .

كما أن قصيدة مطلعها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

هي التي آلفت بين المعتمد وصديقه ابن عمار . وقصائد ابن عمار هذا هي

التي حررت المعتمد من السجن، حيث نجد ملك إشبيلية وهو المعتضد الذي كان سريع الغضب يأمر بإعدام ولي العهد الذي تسبب بإهماله في ضياع معركة وهزيمة جيشه. لكن أشعار ابن عمار شفعت له لدى المعتضد الذي اشتهر بالغلظة والقسوة، إلا أنه كان شاعراً يقدر الشعر الرصين وبسببه يغفو عن كل شيء.

فالشعر الجيد قد يفك من الأغلال، وقد عرف هذه الصفة موظف من موظفي المالية في قرطبة كان قد اختلس أموالاً عامة. فقد وجه الخليفة المنصور تهمة إلى هذا الموظف مستنكراً جرأته وسرقته أموال الخليفة، فاعتذر الموظف بأن القدر أقوى من الإرادة الحسنة، والفقر يضلل الفضيلة، وهكذا استطاع هذا اللص النجاة بفضل مهارته الشعرية، وكان المنصور يستصحب معه في حروبه أربعين من خيرة شعرائه، وكتب الأدب العربي تفيض بكثير من القصص التي تبين مدى تقدير العربي للشعر وتقديره.

وقد أبهرت العقلية الشعرية للفيلسوف والطبيب ابن الخطيب، وهو ذلك الطبيب الذي هدى أوربا إلى أن وباء الطاعون معد، فقربه الأمير إليه وبخاصة أنه أعجب بأسلوبه الجميل في رسائله إلى سائر الحكام، فعلا شأنه وازدادت شهرته واختص ملك قرطبة بخدماته، كما استطاع مرتين بقصائده الرائعة الاستحواذ على قلب ملك المغرب وعطفه فبادر مرتين إلى إنقاذ تاج هذا الملك الشاب وعرشه.

والقصيدة العصماء تحتل مكانة رفيعة في شعب يجد في الشعر ضرورة من ضرورات الحياة اليومية، وأن الحاجة إليه لا تقل عن الحاجة إلى اللغة. والشعر لدى العرب أسلوب من أساليب اللغة التي تهيمن على كل عربي حتى الفلاح في حقله والعالم في مدرسته والأميرة في خدرها. والقصيدة تندفق من بين الشفاه في سهولة ودون تكلف ويستخدمها صياد السمك في الوادي الكبير والصانع في مصنعه. والعربي يقول الشعر في كل مناسبة. ويذكر أنه في إقليم (سيلفيز) كان فلاح يسير خلف الفدان ويرتجل الشعر، ويذكر أن أحد سكان هذا الإقليم من قبيلة بني الملاح ذهب لعمله مع ابنه الصغير يتمشى على ضفة النهر حيث تنفق الضفادع فأخذ الوالد يدرّب ابنه على قول الشعر؛ ففي الأندلس حيث يدرج الأطفال على صياغة الشعر ويسطرون المجالات بأسماء الشعراء يجعل من العسير الحكم على أشعر

الشعراء ، ومن هو الشاعر ، بينما من السهل الإجابة على أى الملوك وأى الوزراء وأى رجال السيف والعلماء لم يكن شاعراً .

وإذا أراد الإنسان أن يتحدث عن شعب من الشعراء يجب أن يتحدث أولاً عن العرب وبخاصة عن العرب الجاهليين ، وكذلك الحال عندما نتحدث عن عرب الأندلس إذ كان الشعر لديهم عبارة عن تطور لغوى . إن اللغة العربية تطورت إلى شعر وشعر من نوع خاص أو إلى فن من فنون الشعر الخاصة فقد تحولت اللغة إلى نغم وقافية .

والخاصية المميزة التى تميز العربية وسائر أخواتها السامية عن الأسرة الهندسية الأوربية مثلاً هو مبدأ التثليث فأصول الكلمة ثلاثة صامته تعبر عن المعنى المشترك ، والحروف الصامته هى التى تتغير فقط وهى التى تميز بين المعانى المتكافئة والصيغ الصرفية المتنوعة .

لكن استخدام الحركات يخضع لقواعد خاصة . وهذه الحركات واستخدامها سبب من أسباب خلق ألفاظ عديدة جداً تتفق جرساً وتختلف معنى ، كما نجد ألفاظاً تختلف فى حروفها المتحركة أعنى نشأة السجع .

فهذه الصفة التى تمتاز بها العربية والتى تختصها بنغم واضح جلى تتطلب ولا شك قيام شعر مقفى أو نثر مسجوع . فهذه الصفة خاصة بالعربية ، والعروض العربى لا اليونانى أو اللاتينى هو الذى أثر فى الآداب الأوربية والعالمية . وإذا كانت اللغات الجرمانية وعلى الأقل اللغة الألمانية لاتتفق والسجع ، فإن اللغة العربية الشرقية نجحت فى القضاء على منافساتها والإبقاء عليها سجيئة حتى أصبحت اليونانية وكأنها أجنبية بالنسبة للألمانية والألمان .

لماذا يستخدم الشعراء الألمان اليوم الوزن (الهكساميتر) القديم ؟ لماذا لا يقول الشاعر الألمانى غزلاً فى هذا الوزن القديم ؟ لقد ظلت الترانيم الكنسية الدينية والأشعار الدنيوية زمناً طويلاً مرتدية ثوباً لاتينياً . ولماذا لم يستخدم الشعب الألمانى عندما أخذ يقول الشعر العروض القديم لصياغة هذا الشعر ؟ ولماذا فضل عليه العروض العربى ؟ هل السبب هو الميل الشديد إلى النغم وأن الشعر المقفى الذى يكسب الروح قوة ويقظة – وإن كان غير مفيد – يتفق واستعداد الشعب ؟ أو هل كانت هى

الحاجة الملحة إلى الموسيقى وليس التقطيع اللغوي للرومانى أو الحمد الأجنبي اليونانى حيث يستعاض عنه بالنغم ؟ من المؤكد أن أغاني « جوته » و « هينه » كانت شيئاً آخر غير تلك التى جاءتنا لولم يقرر الذوق الشعبى فناً شعرياً آخر . والآن نتساءل كيف بلغ السجع والنغم هذه المكانة العالمية ؟ .

فأول عامل مؤثر جاء من صلوات اليهود فى المعابد فى القرن الأول الميلادى وذلك عن طريق بيزنطة والترانيم المسيحية القديمة والصلوات التى كانت تقام فى الكنيسة الرومانية الشرقية فى الشعر الدينى اللاتينى فى الكنيسة الرومانية الغربية التى كانت صدى للمؤثرات الشرقية . كما نجد رهباناً مصريين وسوريين وبعض البيزنطيين الذين هربوا إبان النزاع الذى قام حول الصور ، قد أقاموا سداً منيعاً ضد هذا التيار فى الأديرة الأوربية . أما الباباوات المنحدرون من أصل شرقى ومعهم أنصارهم فقد حرصوا على ترك الطرق مفتوحة ، فنجد الأوزان العربية تستخدم إلى جانب الأوزان القديمة المتأخرة زمناً طويلاً ، كذلك نجد نتيجة أخرى لذلك غير موزونة وغير منغمة . ومصدر هذه الظاهرة الشعر الدينى . وظلت القافية نحو نصف قرن وأطول غير مطردة ، لكن حوالى القرن الحادى عشر أخذت هذه الظاهرة تنتشر بفضل العوامل القوية التى دخلت عليها ودفعتها إلى الأمام . وفى إنجيل « أوتفريد » نجد السجع مستعملاً وقد كان ذلك حوالى عام ٨٦٠ م إذ يظهر للمرة الأولى فى اللغة الشعبية وينافس غيره لكن ظل زمناً طويلاً قبل أن يفرض نفسه .

أما التيار الثانى الذى أثر فى الشعر الأوربى فقد جاء عن طريق الشعر الغنائى العربى الصحراوى . وبغته وبدون تمهيد نجد أنفسنا حوالى القرن الخامس الميلادى أمام شعر كامل موزون مقفى ، وهذه الظاهرة تدعو إلى الاستغراب حقاً فكيف نجدها فى هذه الحالة عند شعب يحيا حياة البداوة والحرب ، بعيداً عن مقومات الثقافة والمدنية ، فإذا به يصل إلى خلق هذا الشعر الكامل ذى الجانب العظيم من الجمال ، إنه شعر بلغ مرحلة من الجمال الفنى لا تدانيها مرحلة ، فهو شعر يعبر عن منتهى بلوغ أكبر مرحلة من مراحل الرقى الفكرى .

حقاً إن لغة هذا الشعر تحمى العربى لفظاً ووزناً ، لكن بينما نجد القافية فى الشعر السريانى عبارة عن شيء فريد وحيد إذ بالعربى يستخدمها كعنصر أساسى

في الشعر العربي، وكما هو الحال في الفن العربي من حيث الزخرفة كذلك القافية التي بها يتم البيت ويقفل، هذا إلى جانب الكيفية التي تستخدم بها فالشاعر العربي يكيفها بعدد لا يحصى من النغم وأبيات تسير على وتيرة واحدة وترتبط معاً برباط النغم.

وهكذا نجد هذه اللغة العربية وما تخلقه من فن شعري تسرسل فيه الصور الشعرية والمشاعر الإنسانية كالأماج تدفع الموجة الأخرى إلى اللانهاية، وقد تبلغ القصيدة مائة بيت وتكون وحدة في الروي ووحدة في العروض مثل تلك التي قالها امرؤ القيس في المطر، امرؤ القيس الذي عاش قبل مجيء الرسول بنحو خمسين سنة منها.

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض يجرى وتدر

ففي هذه القصيدة وهي الصورة الشعرية القديمة حيث تتكرر بها الأنغام ويتكرر الروي أو القافية قدم العربي الصورة الصادقة حقاً للفن العربي في زخرفة المساحات. وهذا الفن الشعري يعرف حتى اليوم على أنه قديم. لكن المدارس الشعرية الحديثة كمدرسة أبي نواس في بغداد، أو مدرسة الشاعر الأعشى الذي عاش في نهاية القرن التاسع الميلادي في بلاط الأمويين في قرطبة، قد حطمت القيود القديمة للشعر العربي والقصيدة العربية وجاءتنا بفنون أخرى جديدة. فالقصيدة مقسمة إلى أدوار مستقلة في هيئة أغان مع تغيير وتنويع القافية مع الشيء الكثير من البيان والبديع. فمثل هذه الفنون الجديدة أو هذا التطور في القصيدة العربية ظهر في إيران على يد الفردوسي وعمر الخيام وآخرين، وانتشر هذا الفن بسرعة ونقله وردده العرب في العالم الإسلامي من قرطبة حتى قرى القوقاز ومن طوس ونيسابور في إيران حتى نهري النيجر والجنج. لكن هذا الفن الشعري قد استقبلته أوروبا استقبالا حسناً وحماسياً فشعراء التروبادور بزعامة الهرزوج « فلهم التاسع فون أكويتانين Wilhelm IX von Aquitanien » استخدموا هم والشعراء الغزلون نغماً عربياً وقافية عربية كما استخدموا الأدوار العربية والأوزان العربية وخصائص أخرى من خصائص الشعراء الغنائيين الأندلسيين، وكذلك مغنى الدروب أعنى المغنى المتجول. ويتجلى هذا الأثر في صورة واضحة

جلية في الأغاني الدينية للملك ألفونس الحكيم الذي تأثر بلاطه بالعرب الذين كانوا يحيون فيه أو بالعرب عامة ، كما نجد هذا الأثر العربي في مؤلفات « يوان رويز Juan Ruiz » كبير قساوسة « هيتا » الذي كان منغمساً في الحياة الإسلامية والتقاليد الإسلامية كما قال شعراً وأغاني راقصة لصديقاته بين المغنيات العربيات ، كما نجد الأثر العربي في أغاني عيد الميلاد في اللغة اللاتينية وفي الأدوار الفرنسية والقصائد .

أما في إيطاليا فالأثر العربي أشد وأقوى منه عند التروبادور ، فهنا في إيطاليا نجد الأغنية العربية تجد معجبين كثيرين وبخاصة في الحياة والتراتيم الدينية كما هو مشاهد عند القديس « فرنس فون أسيسى Franz von Assisi » والفرنسيسكاني « فرا جا كابوني دا تودي Fra Jacapone da Todi » الذي كان معاصراً لدانتي كما في « دولش ستيل نوفو Dolce stil nuovo » . وعند دانتي نفسه . وأشد ما يكون الشعر العربي أثراً في الشعر الشعبي في « أومبريان umbrian » و « توسكانا Toscana » والبندقية . فمن الأوزان العربية نشأ الفن المعروف باسم « مدريجال Madrigal » العلماني وحتى « لورينسو ده مديشي Lorenzao de Medici » و « مكيافل Machiavell » قالوا الشعر في أوزان عربية .

وعلاوة على ذلك نجد العرب في صقلية يؤثرون في الأغاني الشعبية أثراً بليغاً ما زلنا حتى اليوم نجده في إيطاليا ، كما أثر العرب في النوع المعروف باسم « سونيت Sonett » في شمال إيطاليا .

وحيث يقال الشعر في مختلف أجزاء الدولة العربية نجد اللغة العربية والأسلوب العربي كما هما عند البدو ، لذلك كان العرب يرسلون أولادهم إلى البادية ليتلقوا عليهم اللغة العربية الخالصة لغة الشعر الفصيح ولو أن أولئك العرب البدو قد خرجوا من بلادهم وانسابوا في العالم واختلطوا مع شعوب وأجناس أخرى ، فإن الشعر العربي ظل محتفظاً بخصائصه ولغته في مختلف تلك الأقطار التي انتشر فيها العرب .

والشعر العربي شعر غنائي يعبر عادة عن مشاعر شخصية وانطباعات الشاعر نفسه فالقصيدة والحالة هذه عبارة عن عقد من اللآلي ، كما أن الغناء هو الفن السائد في الشعر كما هو الحال اليوم في أوروبا وكما أن الملحمة آخذة في الزوال تدريجياً .

واللغة تؤثر تأثيراً منتجاً سواء كانت نثراً أو شعراً ، ومن هنا نجد الثروة اللغوية العربية غنية جداً ، فقد يعبر البدوي أو المحارب عن أدق المعاني الإنسانية والمشاعر عن طريقها ، بخلاف اللغة الألمانية فهي فقيرة في مفرداتها الموجودة تحت تصرف الشاعر الألماني ، وهي المفردات التي يستخدمها عند وصف شيء بعينه من زواياه المختلفة ، بينما نجد ساكن الصحراء بنظره الثاقب وقوة مشاهدته والصبر على التأمل ، فضلاً عن صفاته التي يمتاز بها . ولو أنها في عالم الماديات تجعل عالمه محدوداً – يتسع هذا العالم أمام إدراكه التنبئي الذي يتميز به وجهه ونظرته التي تتجلى لنا من عينيه . كل هذه الخصائص تترك أثراً في الرمل وصرخة في الليل وعبيراً وجرساً ، وهنا ندرك السرور عند بلوغ الهدف والتعبير عن غرضه التعبير الصادق .

ولكى نصور قوة اللغة في التعبير عن الصور تعبيراً دقيقاً نذكر لامية الشنفرى ، وهذا شاعر جاهلي ، والشنفرى هنا ثائر على الناس وعلى الله لذلك فهو يهرب إلى حيث الوحوش الضارية والذئاب والضباع فيتخذ منها أصدقاء له .

ومن فرط إعجاب الشعب بهذه اللامية ضمها إلى المعلقة هذه القصائد التي تعتبر من مفاخر الشعر الجاهلي فأجازها وأجاز قائلها . كذلك لنقرأ القرآن الكريم حيث نلمس قوة اللغة وجمال الأسلوب وفصاحته :

« والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعا » . أو قوله تعالى :

« إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلقت . علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالجنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . . . »

وما جاءنا في الشعر العربي خاصاً بالحيوانات العزيزة لديهم كثير جداً ، كهذا الوصف الجميل في الفرس ومنه :

غدونا بضفاف كالعسيب مجلل طويناه حيناً فهو شرب ملوح

ولم يقف الشعر عند هذا بل نجد الأندلسي يصف قوسه وصفاً دقيقاً حياً، كما يعرض ابن شرف لطلوع الشمس فيصورها كما صورها الشاعر الألماني «موريكه» . إن الخيال العربي لا يعرف حدوداً ، فهو عوضاً عن أن يصف الأشياء من ظاهرها يبعث فيها الحياة والحركة فكل زهرة تتفتح في الظلام وتفتح فاها باحثة عن ضرع السحابة لتشرب . ثم نجد الشاعر يتنقل من صورة إلى أخرى، فهو يقول إن يدي الربيع قد شيدتا أبراج زهرة الزنزلخت على سيقان عالية وإنها لأبراج ذوات مجار فضية . وهكذا نجد العربي يخلق فناً مختلف الألوان يأخذ بالأبصار ويبدو وكأنه أغنية من أغاني الشاعر «موريكه» ثم نجد انعكاسات شاطئ الوادي الكبير تصور وكأنها معركة تدور رحاها بين الزهور والماء .

إن الموضوعات التي يعالجها هذا الشعر تشبه النفس البشرية فجميع النغمات تعبر عن الأحزان والكآبة والشكوك التي تودي بصاحبها، كما نجد فيها البغض العنيف والحزن العميق والحب الصارخ ، هذا جميعه نجده مثلاً في قصيدة شاعر مثل ابن خفاجة كما نجد شعراً أكثر مرحاً كما هو الحال مع ابن الأبار .

ويقال إن الخليفة المعتضد لما دب إليه المرض وأحس بقرب منيته استدعى مغنياً يغنيه ليَجعل أول ما يبدأ به قالاً ، فأول ما غنى قصيدة ابن الأبار هذه وفيها :

نطوى الليالي علماً أن ستطويننا فشعشعينا بماء المزن واسقيننا

فتطير من ذلك ولم يعيش بعدها سوى خمسة أيام وقد خلفه ابنه المعتمد زوج اعتماد أو رميكة كما كانت تسمى نفسها ، وقد ظل جالساً على العرش رغماً من تلبد الجو بالغيوم السياسية زهاء اثنين وعشرين عاماً كانت كلها أيام سعادة وعزة، وقد أحبه العرب حباً لم يمنحوه إلا للقليلين من أمرائهم ، وكان المعتمد معاصراً لكل من «هينريش الرابع» و«جريجور السابع» و«وليم الفاتح» والجحراف «روجير» الأول في صقلية . وكان المعتمد كما يروي ابن خلكان أكرم وأحسن وأشجع أمير أسباني ، كما كان قصره مزار المسافرين وملقى العبقریات والكعبة التي تتجه إليها آمال القوم وأمانهم . وكان يعيش معه في قصره طيبه الخاص أبو العلاء بن زهر وهو الثالث من الأسرة الأشبيلية التي اشتهرت بالطب وهي تنتمي إلى قبيلة إباد ، هذه القبيلة العربية

القديمة . وقد اشتهر ابن زهر هذا بالطب والفلسفة واعتاد أن يكتب بطاقة وصف العلاج على جذاذات قطعها من أسطوانة سميكة أهداها إليه تاجر عراقي ولم تكن إلا قانون ابن سينا ، وكانت هذه هي النسخة الأولى التي وصلت إلى الأندلس . وطبيب المعتمد كان والد الطبيب والفيلسوف الشهير ابن زهر وجد طبيب آخر اشتهر كذلك بالشعر فخرج هذا الحفيد ابن زهر من أشبيلية إلى قصر حاكم مراکش فحدث في أحد الأيام أن بعض أشعار هذا الطبيب الخاص بالسلطان قد وقعت في يده وفي هذه الأبيات يشكو ابن زهر حنينه إلى ابنه فتأثر السلطان أثراً بليغاً واستدعى سرّاً أسرة ابن زهر من أسبانيا ورفع لابن زهر مرتبه .

وفي بلاط الأسرة العبادية بأشبيلية عاش أيضاً شاعر عظيم بل من أعظم الشعراء العرب . ألا وهو ابن زيدون حيث اتخذ من قصرهم ملجأ له ، وكان له ابن وزر للمعتمد ، خلفاً للصديق والوزير الأول ابن عمار أكثر الرجال نفوذاً في القصر ، كما أن المعتمد استمد اسمه من اسم حبيبته اعتماد . وهكذا نجد الشاعر ابن زيدون يجعل من اسم ابنه الوليد نصباً للحب . هذا الحب الذي أضناه وأشقاه طوال حياته . وقد حمل هو أثر هذا الشقاء حيث تسمى : أبا الوليد بن زيدون .

وابن زيدون من أشهر عائلات قرطبة والسيدة التي اقترن حظه بها هي الأميرة الأموية الحميلة الشاعرة الشهيرة « ولادة » التي كانت موضع تقدير سائر رجال قرطبة . وكان يحسده ويحقد عليه وزير ابن جمهور ، لذلك عكر على ابن زيدون حبه وحياته من زوجه حتى انتهت بمأساة . فقد وشى هذا الحاسد بهذا الشاعر الممتاز الذي كان قد وقع عليه الاختيار والذي كان يتبوأ مركزاً ممتازاً في الإدارة والسياسة . وشى به لدى حاكم قرطبة وشاية سياسية . فوجه ابن زيدون إلى خصمه خطاباً فيه الكثير من التورية السياسية والعبارات القوية حتى جعل خصمه سخرية الجميع كما رفع مكانته هو الأدبية . لكنه فقد عطف رئيسه فزج به في السجن . ولما لم يجد مفرّاً من رئيسه صاحب القوة والسلطان هرب ابن زيدون طالباً الخلاص وظل كذلك زمناً طويلاً . لكن حبه الشديد لولادة كان يضطره إلى المجازفة بحياته والاقتراب من قرطبة .

ففي خرائب قلعة الصخرة الأموية العظيمة التي هدمها البربر وخربوها ، وحيث

الآن ينق البوم ، كان ابن زيدون يرسل من هناك أشواقه إلى حبيبته التي أحبها كثيراً وخلد هذا الحب في كثير من قصائده . وانتهى بابن زيدون المطاف إلى قصر ملك أشبيلية حيث تمكن قبل وفاته من خدمة المعتمد عند فتح قرطبة .

وقد انضم إلى عقد أولئك الشعراء شعراء آخرون صقليون تركوا صقلية لما سقطت في يد النورمان ومنهم « أبو العرب » و « ابن حمديس » وكان النجم المتألق في هذا العقد الملك الشاعر المعتمد فقد جذبت شاعريته الكثيرين وتفوقت عليهم ، وقد اشتهر المعتمد كذلك بالشعر الغرامي الغزلي فتغزل في « رميكة » فوصف نفسه بأنه عبد الحميلات الفاتنات ، وقد أفرد كثيراً من غزلياته في وصفهن ووصف جمالهن وكان شعره كأنه قد صيغ من أحجار كريمة تضيء كالبلور والماس . وشعره يبين الروح العربية وطبيعتها الرشيقة الرقيقة ، وهذا ما جعل منه شاعراً فحلاً .

ثم جاء المسيحيون طامعين في الاستيلاء على الأندلس ، لذلك سارع الأمراء الأندلسيون واستدعوا يوسف الحاكم البربري لمراكش ليساهم تحت إمرة المعتمد في رد المسيحيين فنشبت معركة بين المسلمين والمسيحيين أبلى فيها المعتمد بلاء حسناً ، كما حارب حرب الأبطال المغاوير وهزم المسيحيين شر هزيمة .

ورجع يوسف إلى مراكش « وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد » كما يقول المراكشي ، وقال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه « كنت أظن أني قد ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحال في تحصيلها » .

ورأى أصحابه أن يشيروا عليه برأى يجعل الاستيلاء عليها ميسوراً إلى حد كبير ، وأغلب الظن أنهم كانوا مثله يطمعون في امتلاكها فسير حملة واستولى عليها . ويصف الفتح المعتمد يوم سقوط أشبيلية في يد المرابطين بقوله : « ولما انتشر الداخلون في البلد وأوهنوا القوى والجلد ، خرج والموت يتسعر في ألقاظه ، ويتصدر من ألقاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ، فلقبهم في رحبة القصر ، وقد ضاق بهم فضاؤها ، وتضعضت من رحبتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقاً ، وملأهم فرقاً ، وما زال يوالى عليهم الكر ، حتى أوردتهم النهر ، وما بهم جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاب ماله ،

وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد إلى قصره واستمسك به يومه وليلته ! مانعاً لحوزته ! ، دافعاً للذل من عزته ، وقد عزم على أفطع أمر ، وقال بيدى لا بيد عمرو ، ثم صرف تقاه ، عما كان نواه ، فنزل من القصر بالقصر ، إلى قبة الأسر ، فقيد للحين ، وحن له يوم شر ما ظن أنه يحين ، ولما قيدت قدماه ، وبعدت عنه رقبة الكبة ورحماه قال يخاطبه :

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد وثقل القيود

وبعد أن كبله يوسف نقله وأسرته في سفينة فبكاه شعبه على ضفاف الوادى الكبير ولطم النساء وجوههن ونقل المعتمد وأسرته من طنجة إلى مكناس جنوباً حتى « أغمات » ومن ثم عزل عن باقى أفراد أسرته ليمضى حياته فى السجن .

وهكذا نجد المعتمد يقضى آخر سنى حياته فى البؤس والشقاء وإن أصبح شاعراً مفلقاً بل أعظم شاعر أندلسى ، وتوفى وورى اللحد كسير النفس شقى القواد بعد أن رثى نفسه قبل وفاته بكثير من المراثى التى تعتبر من أشهر ما قيل فى هذا الفن سواء فى الجاهلية أو الإسلام . فقد ظل فى السجن خمس سنوات قاسى فيها ويلات الذل والسجن والمرض وفى عام ١٠٩٥ ترك الحياة وهو ابن خمس وخمسين سنة ودفن إلى جانب « رميكة » فى « أغمات » .

وفى أوائل القرن الثانى عشر خرج رجل من أشبيلية مخترقاً الصحراء العربية فلقى ترحيباً عظيماً من أفراد قبيلة لحم . وفى إحدى الليالى أصابه أرق فخرج من خيمته وأخذ يتطلع إلى السماء المليئة بالنجوم ورأى فى القمر الوضاء ما ذكره بسيده السابق فأخذ يردد بعض الأشعار .

وفى هذه اللحظة فتح باب الخيمة التى كان فيها وخرج منها رئيس القبيلة وسأله : لمن هذه الأشعار الواضحة كالنهر العذبة كالمرج الذى سقاه ماء المطر ؟ إنها أشعار حلوة كصوت الغانية وقد حلت عنقها بقلادة من الذهب . إنها أشعار قوية لها رنين يشبه صوت البعير . وحكم البدوى على اللغة يعتد به كمرجع من مراجع جودة اللغة والشعر وهو حكم يغاير حكم سكان المدن .

فأجاب الرجل الأشبيلي أنه لملك ملك على وطنه من العباديين ومن قبيلة اللخمين ،

قامتلاً رئيس القبيلة فخاراً وعجباً إذا اكتشف ماثرة أخرى من مآثر قبيلته فنأدى الشيخ أفراد قبيلته وأخبرهم ما يشرفهم أن شاعراً عظيماً قد ظهر منهم . وهكذا نجد الأشبيلي يقص على كل القبيلة خبر ملكه الشاعر العظيم الكريم الذى كان فارساً عظيماً لا يخاف الموت ولا يخشاه ، وأميراً كريماً لا يجارى فى كرمه ، ولما انتهى من الخبر امتطى البدو الخيل فرحين فخورين ليحتفلوا بهذا الخبر فاهتزت الأرض تحت أقدامهم تحية للملك الشاعر وهو من قبيلتهم ؛ وبعد ذلك بمائتين وخمسين عاماً رحل حاج مخترقاً مرا كش وكان وزير ملك غرناطة ، وهذا الحاج هو ابن الخطيب الطبيب ومكتشف وباء الطاعون فأدى به طريقه إلى « أغمات » إلى قبر المعتمد واعتماد ، وذلك فى سفح تل تكسوه زهرة اللوتس وعندما وقف أمام القبور المهدامة الموحشة وعيناه تذرغان الدموع ارتجل أبياتاً منها :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات رأيت ذلك من أولى المهمات

وذيل الكتاب بقوله إنه سيعود إليها « إن شاء الله ربى » أو شاء ابن عمار .

ولما علم ابن عمار بالأمر وجه إليه أبياتاً منها :

مولاي عندي لما تهوى مساعدة كما يتابع خطف البارق السارى

والمعتمد يعرف تماماً أن الصديق يدرك تمام الإدراك مدى حبه لاعتماد ، وأن هذا الحب جعل منه عبداً لاعتماد . وبالرغم من أنها لم تكن مثقفة ثقافة عالية أو تربت تربية خاصة إلا أنها سحرته وقد ملك كل ما فيها قلبه . إنها ذكية نبيلة وشاعرة موهوبة ، هذا فضلاً عن مرحها وطفولتها وما يبدو منها أحياناً من دلح ودلال . فى أحد أيام شهر فبراير شاهدتها تبكى فى أحد نوافذ القصر وهى تشاهد الثلج يتساقط من السماء فسألها المعتمد عن سبب بكائها فأجابته : « إنك طاغية جبار غشوم ، انظر إلى جمال ندف الثلوج البارقة اللينة العالقة بغصون الأشجار ، وأنت أيها الناكِر للجميل لا يخطر ببالك أن توفر لى مثل هذا المنظر الجميل كل شتاء ولا تصحبني إلى بلد يتساقط فيه الثلج فى الشتاء » فسارع المعتمد وجفف دموعها قائلاً : « لا تحزنى ولا تستسلمي لليأس يا سلوة النفس ومنية القلب فإنى أعدك وعداً صادقاً أنك ستريين هذا المنظر الذى أدخل على قلبك السرور كل شتاء ، وأمر بزرع

أشجار اللوز على جبل قرطبة حتى إذا نور زهره بدت الأشجار وكأنها محملة بقطع الثلج الناصعة البياض .

ومن مشهور أخبارها مع المعتمد القصة المعروفة في قولها: « ولا يوم الطين » ، وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين فاشتبهت المشى فيه فأمر المعتمد فسحقت أشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرايل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريتها ، وغاضبها في بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط فقال لها « ولا يوم الطين » فاستحييت واعتذرت .

وكان المعتمد متيماً باعتماد لا يتردد في الركوع أمامها واسترضائها ، لم يكن يهمه أنها كانت فتاة من الشعب وأنها ولدت في أفقر الأحياء بينما ولد هو في قصر . كذلك كان حال الحاكم الأموي « الحكم الأول » حوالي عام ٨٠٠ م حيث كان أميراً على الأندلس . فبالرغم من قسوته وجبروته كان أمام جميلات قصره ضعيفاً كالأسير الدليل ، كذلك كان في شرق العالم الإسلامي الخليفة هرون الرشيد وخليفة قرطبة سليمان حفيد عبد الرحمن الأكبر .

إن الشعب العربي شعب شعراء وغزلياته لم تكن رياء ونفاقاً بل حقيقة تعبر عن شعور حقيقي ، وإن الضعف أمام الحبيبة لم يكن أقل من الخضوع والتوسل إلى الله وإن صلة الإنسان بحبيبته لم تكن تخالف صلته بخالقه .

إن العربي في صحرائه التي لا تعرف إلا اللانهاية كان يدرك تفاهته بالنسبة للبيئة التي يعيش فيها وضعف قواه وإرادته . كما يؤمن بأن وجوده يتوقف على إرادة القوى العظيم ، لذلك وصف الله بأنه الرحمن الرحيم . وهاتان هما أهم صفاته ، ولن يستطيع إنسان بلوغ رحمة الله إلا عن طريق التواضع والاستسلام له ، لذلك كان المسلمون الحقيقيون هم « المسلمون » وعن طريق التواضع يفرق بين المؤمن وغير المؤمن . الإسلام هو الاستسلام لله وإرادته وأن يصير الإنسان عبداً لله . فهذه الصفات التي يتصف بها الحب الإلهي ، انعكست على الشعر العربي الغزلي ، وهذه الظاهرة ندركها حتى في الغزل الجاهلي . ولعل من أقدم وأنبأ أنواع الحب والغزل ذلك النوع المعروف باسم الحب العذري نسبة إلى قبيلة بني عذرة الذين يموتون عندما يحبون . وهذا النوع

قد يشبه الحب الأفلاطوني عند اليونان، وكان لهذا الحب الأفلاطوني في أوروبا الأوقات الخاصة وذلك عندما يجد عند العرب نوعاً من الحب الذى يتحكم فيه العقل ، وقد انتشر على طول حدود العالم الإسلامى حيث انتشر هذا الحب العذرى، فنجد أمثال جميل بثينة يغنى في الحب أى حب بثينة ، حيث يعتقد أنها له وأنه لها منذ أول الخليقة ، وهى فكرة تذكرنا بحب « جوته » للسيدة « فون شتين » .

إلا أن المحبين لا يتغلب كل منهما على قبيلته والموقف العدائى لكل قبيلة من الأخرى . لكن حبه يقضى على الزمان والمكان، إنه حب قوى عنيف إلا أنه بالرغم من ذلك قنوع متواضع حيث يتوسل إلى حبيبته التى لا يناها معتقداً أنها له ولا شىء أرضى حتى الموت يربطه ويتصل به أو يقضى على هذا الحب .

وهناك نوع آخر من الحب هو ذلك الذى نجده بين الحارث بن عوف شيخ قبيلة مرة وبين بهيسة، وبالرغم من قوة الحارث كان يضعف ويخضع لحبيبته التى كانت من حين لآخر تريد أن تفرض عليه إرادتها وقوتها .

وحوالى عام ٨٠٠ م نجد هذا النوع من الحب العذرى حب جميل نجده عند عباس بن الأحنف فى قصر هرون الرشيد لإحدى جواري هرون الرشيد مثلها مثل عباس بن الأحنف ذاته ، إلا أنها تتفوق عليه بلحماها وعفتها لذلك قال إذا عبد إنسان كائناً لحماه فملكى يجب أن تكون إلهاً . وبالرغم من أنها جارية عادية فإنه كان يقدسها كما لو أنها كائن سماوى رحمته أو قست عليه وكما أن المسلم عبد الله فهو عبدها المخلص الأمين . وكانت الحبيبة تسيطر على فؤاده ، واستسلامه لها هو الذى يرفعه ويسمو به .

أما « أوفيد » العرب فى الغزل فهو على بن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) ولو أنه أصلاً من أسرة غوطية عربية اعتنق الجليل الرابع منها الإسلام ، وكان يعيش عيشة عربية وتزوج عربية وتقلد أسمى المناصب فى بلاط قرطبة، ويدعى العرب أنه زور فى نسبه وأنه يقول إنه انحدر من مولى أعتقه الخلفاء الأمويون فى دمشق . ومثل هذه الأخبار ليست نادرة ، لكن النادر حقاً أن دخيلاً على العرب تتقمصه الروح العربية والعقلية العربية مثل ابن حزم ، هذا الشاعر الغزلى العذرى وإلى جانب ذلك كان فيلسوفاً وصوفياً، ففى كتابه الشهير حول الحب نظرياً وعملياً، والمعروف باسم «طوق

الحمامة » يعترف بأن الاستسلام للحبيب موقف يعجز الوصف عن تصويره ،
وتعخرس الألسنة عن التعبير عنه كما سبق أن تبينا هذا من عباراته وشعره .

فهذا الحب العذرى نجده أيضاً فى الأندلس وقد عبر عنه ابن حزم بقوله :
« ثم هجر يوجبه العتاب للذنب يقع من المحب ، وهذا فيه بعض الشدة لكن فرحة
الرجعة وسرور الرضى يعدل ما مضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة فى القلب
لا تعدلها لذة وموقفاً من الروح لا يفوقه شئ من أسباب الدنيا ، وهل شاهد مشاهد
أو رأت عين أو قام فى فكر ألد وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب وبعد عنه كل
بغىض وغاب عنه كل واش واجتمع فيه محبان قد تصارما للذنب وقع من المحب منهما
وطال ذلك قليلا وبدأ بعض المهجر ولم يكن ثم مانع من الإطالة للحديث فابتدأ
المحب فى الاعتذار والخضوع والتذلل والأدلة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال
والتذمم بما سلف فطوراً بدلى ببراءته وطوراً يرد بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذنب
ولا ذنب له ، والمحبوب فى كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفى ، وربما أدامه
فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه وذلك علامة الرضى ، ثم ينجلي مجلسهما عن قبول العذر ويقبل
القول . وامتحت ذنوب النقل وذهبت آثار السخط ووقع الجواب بنعم وذنبتك
مغفور ، ولو كان فكيف ولا ذنب وختم أمرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب
والإسعاد وتفرقا على هذا . هذا مكان تتقاصر دونه الصفات وتتلكن بتحديدته
الألسنة . ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدت محاضر الملوك فما رأيت هيئة تعدل هيئة
محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء وتحكم الوزراء وانبساط مدبرى
الدول فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب
محبوبه عنده ووثق بميله إليه وصحة مودته له . وحضرت مقام المعتذرين بين أيدي
السلطين ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين فما رأيت أذل من
موقف محب هيان بين يدي محبوب غضبان قد غمره السخط وغلب عليه الخفاء
ولقد امتحنت الأمرين وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف
لا أجيب إلى الدنية ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذل من الرداء وألين من
القطن أبادر إلى أقصى غايات التذلل لو نفع وأغتتم فرصة الخضوع لو نجع
وأتحلل بلساني فأغص على دقائق المعانى ببياني وأفن القول فنوناً وأتصدى لكل

ما يوجب الترضى » :

وأقوى من هذا ويتفق لفظاً وتصويراً عرض المرأة المثالية التي ترتفع حتى تبلغ مستوى الآلهة بين «دانتى» وابن عربى (١١٦٥ - ١٢٤٠). وليس صدفة أن هذا الصوفى الأندلسى من مرسية الذى كان معاصراً لفريدريش الثانى ، والذى عاش مائة عام سبقت الشاعر الإيطالى اللاهوتى ، قد اقتبس «دانتى» الشئ الكثير من مؤلفاته فحب «دانتى» «بياتريس» أخذ يتطور فى عقليته حتى جاء بها إلى الجنة ومن ثم أخذ ينتقل من مرحلة إلى أخرى ، فصوره مأخوذة عن ابن عربى ، بل حتى بياتريس لها سابقها وهى الجميلة «نظام» ابنة ابن رستم فى مكة فقد اتخذها مصدر وحيه الشعرى فى ديوانه ، إنها معقد آماله ومصدر تفكيره وإن كل اسم اختاره يشير إليها وكل بيت فى الرثاء لها إلا أنه كان يذكر دائماً أن الله هو مصدر الوحي والإلهام لأنه يجب على الإنسان أن يؤثر الآجلة على العاجلة ، وقد أقحم شراح ابن عربى وخصومه فى شعره الصوفى ما قاله فى نظام ويعبر حقيقة عن حبه العذرى الظاهر كما فعل «دانتى» فيما بعد .

فالرفع من مكانة المرأة العربية والسموبها إلى مكانة قريبة من الذات الإلهية دليل قوى بالرغم من انتشار نظام الحريم على مكانتها الحرة فى المجتمع . فالنساء الأندلسيات كن يتمتعن بقسط وافر من المساواة وكن يساوين الرجال كما كان لهن حظ وافر من الحرية والعمل فى المجتمعات سواء كن من السيدات أو فتيات عاديات بل حتى الجوارى كن بفضل هذه الحرية التى يتمتعن بها يتساوين مع الرجال فى الحياة العامة . فقد شاركهم الحياة العقلية فألفن كتباً علمية كما قلن الشعر وكتبن النثر وألقين الخطب وتفنن فى مختلف فنون الشعر حتى الغزل فعبرن عن حبهن وكن وحالهن هكذا يشبهن تماماً الجاهليات . وقد جاءتنا أخبار ستين سيدة اشهرن بقول الشعر ، كما وصلنا ديوان كامل لشاعرة من الشاعرات الشهيرات . والتاريخ الأندلسى يعرف أسماء شاعرات عديدات بلغن فى قولهن الشعر صيتاً بعيداً ومن بينهن هذه الجميلة التى نبغت فى إجادة الشعر والعزف على العود . وكذلك الشاعرة العظيمة حفصة التى اشتهرت بحبها للشاعر أبى جعفر وذاع صيتها وصيت هذا الحب فى جميع أنحاء الأندلس . ثم نجد الأميرة «أمر الكرام» والمغنية التى غنت أمير الأندلس

الولهان المسمى المنصور حيث أبانت عن حبها دون خجل لوزيره ، ولما أدركت غيرته عليها وغضبه انتقدت نفسها بيت شعر .

ومن بين شهيرات الشاعرات الأميرة « ولادة » وقد ذكر عنها عربي أنها كانت أول عربية سيدة في عصرها فقد كانت سافرة تحتقر الحجاب فضلا عن طبيعتها الملتهبة ، وكانت هذه خير وسيلة تظهر فيها طبيعتها وطبائعها الظاهرة والخافية فضلا عن جمال وجهها وحميد أخلاقها وصفاتها ؛ وقد كان بيتها في قرطبة ملتقى الأشراف الذين كانوا يتنافسون في إنشاد الشعر كما قصده العلماء والكتاب واشتهرت بالكرم وحسن الأخلاق وحدة الذهن .

تحت رعاية مثل هذه الأدبية الشاعرة انتشر الشعر العربي الغزلي الأندلسي فتخطى الحدود إلى أوروبا ، وإلى مثل هذه السيدة وجه الصوفي ابن الفارض غزله وشعره وقصيدته التي مطلعها :

ته دلالاً فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاك

إن أوروبا لم تعرف في تاريخها مثل هؤلاء الناس . لم يظهر في أوروبا شاعر عبر عن حبه بهذه الطريقة ، لم تعرف أوروبا محباً ركع أمام حبيبته وسجد على أعتابها راجياً رضاها . لم يسلك هذا المسلك أمثال « أنا كريون » أو « ثيوكريت » أو « سافو » أو « أفلاطون » ، فهؤلاء لم يعرفوا الخضوع والخشوع أمام هذه الحبيبة التي تتمتع بهذا الحب الإلهي . هذه الحبيبة التي تتوقف الحياة أو الموت عليها . كذلك لم يعرف « أوفيد » بالرغم من أنه كان أستاذ الشعر الغرامي هذا النوع العربي . وكذلك الحال مع الشعراء الجرمان وتقديمتهم للمرأة . فقد كان يعتمد على المساواة بين الرجل والمرأة أو احتقار ابنة حواء الخاطئة ، فكيف حدث أن ظهر في جنوب فرنسا أولاً الهرزوج فلهم التاسع هرزوج (إكويتانين وبواتيه) ومعه بغتة جيش من المغنين يغنون أغاني تدل على أنهم العبيد المخلصون والخدم الأوفياء للسيدة . وأنهم بخضوعهم وتواضعهم وطاعتهم يبلغون عطف السيدة ولو أنها في الحقيقة كائن غير ذي شخصية ؟

إن المرأة قد خضعت لقوة الرجل ربما بسبب خطيئتها ، والكنيسة تحتقر المرأة

لأن احترامها يتعارض والذات الإلهية وبخاصة الزوجة ليست هذه التي لم يصيبها العار عار اتصالها برجل بل هي عذراء فالآن أصبحت للمرة الأولى تخاطب وتعامل وكأنها كائن سماوي قريب من الله أو شبيهة به بل كناية عن الله بل يصلى لها وكأنها إله فهي تخاطب بعبارة « السيدة المحترمة » « الرحيمة » « العطوف » وهي التي تمنح الرحمة للفارس المتواضع ، وحتى الشعر الديني كان يخاطب « أم الله » على أنها الخادمة المطيعة و « خادمة السيد » . بدأت النظرة إليها تتغير فأصبحت تخاطب بعبارة « الحبيبة ، السيدة الوقور » وهي التي يجثو تحت قدميها العظماء وبعطفها يرتفع مقدارهم .

فهذه الفكرة أخذت تنتشر مثل الزوبعة أو الإعصار في المجتمعات الموجودة في الأقاليم ومنها إلى مختلف أرجاء فرنسا فإيطاليا فصقلية فالنمسا فألمانيا . إن الألفاظ أصبحت كأوراق الشجر تشبه في عروضها وقافيتها أصولها العربية ، وفي أول العهد كانت عادة إخفاء اسم الحبيبة سائدة كما هو الحال عند عباس بن الأحنف ، ويعوض عن اسمها باسم آخر مصطنع ، وقد يكون اسم ذكر كما نجد كثيراً من مميزات الشعر العربي الغنائي .

لكن يجب أن نذكر هنا أن الشيء الأصيل عند العربي أصبح هنا في أوروبا شيئاً مستحدثاً فعندما يؤكد التروبادور أنه لا يوجد شيء يسعده مثل صيرورته في قبضتها وتحت سلطانها وأن يصير عبداً لها ، تعتبر مثل هذه التعبيرات عبارة عن ألفاظ شعرية فقط ، وذلك لأن مكانة قائلها كفارس أو سيد لا تقل اجتماعياً عن زوجها فهي عبارة من عبارات الآداب التي تستخدم عادة بين الرجال والنساء في المجتمعات . أما الخضوع العربي فما هو إلا نصائح كنصائح « أوفيد » وهي عرض خدمات للنساء أو إظهار التقدير لهن بخلاف الحال في أوروبا حيث تعتبر هذه المعاملة من مقومات المجتمع بين الرجال والنساء . وقد اهتدى العالم « بورداخ » إلى أن الشعر الغزلي الغنائي الأندلسي هو أصل الأوربي وهذا الرأي ما زال إلى يومنا قائماً . ومثل هذا الفن الأدبي العربي يمثل الثروات العقلية الأخرى التي وجدت طريقها إلى أوروبا . وموقع الأندلس جغرافياً وسياسياً ساعدها على القيام بهذه الرسالة .

طرق إلى أوربا

إن مقدرة ملك قسطنطينيا وليون على لعبة الشطرنج يتبرها ابن عمار، صديق المعتمد ووزيره الأول، شيئاً بدهياً؛ وذلك بسبب كثرة الاتصالات بين الملوك المسلمين والمسيحيين وجرأة « ألفونس » السادس على اللعب قد اكتسبها من زيارته المتعددة لقصر الكافر « لعنة الله عليه » (!!) إلا أن هزيمته أمام العربي كانت شيئاً طبيعياً ، فالعربي ماهر جداً في لعبة الشطرنج العربية وهذا شيء بدهي ومؤكد حتى كان في استطاعته أن يراهن بمملكة إشبيلية؛ وقد خسر ألفونس السادس ملك قسطنطينية وليون اللعبة وهكذا أنقذت دولة المعتمد مرة أخرى ليس عن طريق السلاح بل بالعقل ، وهكذا ترك ابن عمار خيمة العدو وخلفه خدمه يحملون لوح الشطرنج عائداً إلى داره منتصراً .

فقال باحتقار : نصف عربي !

لقد اعتاد الإنسان أن يشاهد عربياً عند الجيران المسيحيين بعد أن أغلق المسيحيون دورهم في وجه العرب في القرن الأول من دخول المسلمين الأندلس ، تعصباً منهم ضد العرب والمسلمين لكن لم يمض زمن طويل حتى تغيرت الأوضاع وتلاشى التعصب المسيحي ضد المسلمين وذلك بسبب المنازعات الداخلية واحتياج كل إلى مساعدة خارجية وإلى من سيلجأ أحدهم إذا ما فقد عرشه واضطر إلى ترك بلاده ؟ .

ومن يساعد ذلك الذي فقد تاجه في سبيل استرداده ؟ لذلك اضطر المسيحيون في نهاية الأمر إلى عقد محالفات مع المسلمين . ولا ينسى اليوم الذي نجد فيه السيدة الشجاعة « توتا فون نافارا » الملكة الأم ومعها ابنها الملك « جارسيا » والملك العظيم الجسم « سنخوفون ليون » الذي فقد عرشه بسبب جسمه السمين جداً المريض - يقصدون قصر الخليفة ، هذا القصر العظيم جداً والمعروف باسم الصخرة ، وألقى هذا الملك بنفسه تحت أقدام عبد الرحمن يرجوه مساعدته عسكرياً وأن يقدم له طبيباً ،

وهذا الطبيب يجب أن يكون الوحيد في فنه وفي قرطبة .

ثم نجد كيف أن « سنخو » قد شفى وأصبح نحيفاً ونجح في طرد مغتصب عرشه وهو « أوردوجنو » الرابع وأن الأخير لجأ إلى الحكم الثاني راجياً مساعدته وقد تزيا بزى عربى حتى إن الإنسان لا يفرق بينه وبين عربى ، وحدث أن عبيد الله ابن قاسم كبير أساقفة طليطلة والوليد بن خيسران قاضى المسيحيين في قرطبة قد التقيا من قبل بالملك المخلوع « أوردوجنو » في دار الضيافة الملكية وعلماهم التقاليد العربية الملكية وكلاهما كانا يلبسان لباساً عربياً من غطاء الرأس حتى القدمين ، وكذلك كانا يتسميان بأسماء عربية وكانا يعظان من الإنجيل وفي لغة عربية ، إذ أن الإنجيل كان عبارة عن ترجمة عربية قام بها رئيس الأساقفة « يوحنا الأشبيلي » كما كان أولئك يجيدون الغناء العربى ، ولم يجد أحد من المسيحيين في هذا عيباً ، وبعد مائة عام من ذلك التاريخ نجد أسقف قرطبة المسمى « ألفارو » يشكو من أن كثيرين من أبناء عقيدته يقرأون أشعار وقصص العرب كما يدرسون كتب رجال الدين المسلمين وكذلك كتب فلاسفتهم ليس لنقدها والرد عليها بل لدراستها وحفظها ولكي يتمكنوا من الحديث في عربية فصحي . أين يوجد الآن الشخص الذى يستطيع فهم وقراءة التفاسير اللاتينية للكتاب المقدس من غير رجال الكنيسة ؟ من منهم يدرس الأناجيل والأنبياء والرسل ؟ آه إن جميع شباب المسيحيين وبخاصة الأذكاء لا يعرفونها بعكس اللغة العربية التى يجيدونها . كما يهتمون العلوم العربية وينفقون الأموال الطائلة في سبيل اقتناء هذه الكتب وتكوين المكتبات ويعلنون صراحة عظمة هذه الآداب العربية . لكن إذا ما حدثهم متحدث عن الكتب المسيحية أجابوه في سخرية واحتقار أن هذه الكتب لا تستحق الالتفات إليها . وأسفاه لقد نسى المسيحيون كل شىء مسيحى حتى لغتهم . ولا يوجد إنسان واحد بين الآلاف منهم من يستطيع كتابة خطاب لاتينى بينما نجد العدد العديد منهم يجيد العربية شعراً ونثراً بل أحياناً يبرزون العرب .

فكيف لا يستولى الإعجاب على الأسباني الذى يشاهد ويدرك مثل هذا الرقى وهذه الثقافة وتلك الحضارة والمدنية التى تشكل حياته تشكيلاً جديداً ؟ كيف يستطيع الأسباني التخلص من قوة عدوه وجبروت هذه المكانة الرفيعة التى يتمتع بها

عدوه كان لزاماً على الأسباني أن يكافح جهد حياته للمحافظة على نفسه، فقد أثرت هذه البيئة وتلك الظروف مجتمعة عليه وبدون أن يشعر سواء في مظهره الخارجي أو شعوره الداخلي . ففي عصور الكفاح بين الشعبين أي بين العرب وخصومهم سيطر الإسلام على كثير من خصائص النفسية الأسبانية وكيفها تكييفاً خاصاً . ومنذ ذلك الحين أخذت الروح الأسبانية تظهر بطبيعتها الجديدة العلمية، تؤمن بحياة جديدة ومذاهب جديدة وبخاصة أنها ظلت نحو ٧٥٠ عاماً وهي في جو مسيحي إسلامي يتنافر حيناً ويتلاءم حيناً آخر .

ثم نجد «أوردوجنو» وقد شاهد في القصر الأموي ما أبهره وأذهله يعود ثانية إلى بلده ويقرر أنه شخصياً قد وضع نفسه في خدمة أمير المؤمنين ثم نجد القلاع والمدن تستبدل سيداً بسيد وحاكماً بحاكم وثقافة بثقافة كما نجد جيوشاً مسيحية تحارب إلى جانب المسلمين ويكسبون معركة عام ١٠١٠ م لصالح الخليفة كما قتل ثلاثة أساقفة في سبيل أمير المؤمنين . وأيام المنصور وهو من أقوى الحكام الذين عرفهم الأندلس يقبل عدد كبير من الفرسان المسيحيين من جانب جبال البرنات وينضمون تحت ألويته كما نجد بعض أبناء ملوك أسبانيا الذين كانوا رهائن يبدون دهشهم من الموسيقى التي يسمعونها والرقص الذي يرونه وأغاني مغنى المنصور كما أعجبوا أيضاً بالحياة العربية في قصور الخلفاء والأمراء ، كما نجد أبناء الأمراء يأتون بعاداتهم ومعلوماتهم وأغانيهم وأشعارهم إلى القلاع القائمة في شمال أسبانيا . ومنذ زمن قصير كان ابن عمار ضيفاً على الجراف « ريموندير ينجار » الثاني حيث كانت النقود المستعملة هناك نقوداً عربية الرسم والتقليد كما أكدت زيارته الحلف الهجومي ضد أمير « مرسية » حيث قدم الجراف حفيده رهينة وحصل هو على رشيد الصغير ابن المعتمد .

ثم نجد الملك ألفونس السادس الذي كان يلاعب ابن عمار الشطرنج بحيا حياة عربية وذلك لأنه قد فقد بلاده وعرشه على يد أخيه الطموح ولجأ ألفونس هذا إلى العرب فأووه ، فأثر هذا في الملك الشاب تأثيراً بليغاً . فنجد يحيى مأمون ملك طليطلة يضم إليه هذا الفتى سنوات عديدة ويعامله كما لو كان ابنه الخاص كرماء وحسن معاملة وعطفاً ومنحه قصرًا وعين له حاشية وصيداً وجميع ما يكفل له حياة سعيدة

مستقرة لذينة ، وعندما تمكن ملك قسطنطينية بعد حرب دامت خمس سنوات من الاستيلاء على طليطلة افتخر بهذا الفتح وأطلق على نفسه إياكم أتباع الديانتين ، وكان يستولى أيضاً على أشبيلية وقد بلغ به إعجابه بما حصل عليه أن تزوج بعربية وعاد بها إلى بلده وقد حقق أمنيته عندما زوجه أكبر حكام الأندلس (المعتمد) الذى ينتمى إلى قبيلة عربية عريقة كبرى بناته البالغة من العمر عشرين عاماً واسمها « سيدة » ويعتقد الأسبان أنها كانت على جانب عظيم من الرقة والرشاقة . هكذا تصوروا الملك الذى كان فى تلك اللحظة قد توفيت زوجته وهذه الرشيقه الرفيعة ما هى إلا ابنة « رميكة » التى أصبحت الملكة الصغيرة الجديدة ، وقد جاءت معها كثير من معالم الحياة العربية الراقية فى ذلك الوقت وقدمتها للقصر الملكى فى قسطنطينية . و « سيدة » هى العربية الوحيدة بين زوجاته الست الشرقيات اللواتى قدمهن له رئيس دير « كلونى » كما قدم له زوجاته غير الشرعيات . وقد ولدت « سيدة » للملك ألفونس السادس ملك قسطنطينية ولياً للعهد . لكن « سنخو » الصغير الذى كان موضع فخر والده خر قتيلاً وهو لم يبلغ الحادية عشرة فى معركة حارب فيها ببطولة لا تتناسب وسنه ، وكانت هذه المعركة ضد البربر الذين كانوا أيضاً أعداء جده . أما بناته فقد زوجهن ألفونس بناء على توجيه رئيس الدير المسمى هوجو الأكبر رئيس دير « كلونى » إلى أمراء بورجنديين وفرنسيين . كما أن ابنته « ألفيرا » كانت أول زوجة للملك روجير الثانى ملك صقلية . وهكذا نجد العلاقة الودية القلبية واتباع سياسة الزواج ، تعتبر القنطرة التى تعبر عليها الثقافة والحضارة .

والزواج بين فرسان شمال أسبانيا والأندلس أو حتى بين طبقات الشعب كان شيئاً عادياً مألوفاً ، فقد اقترن شاعر أسباني بمغنية عربية وتوجه معها حيث أقاما فى وطنها غرناطة واعتنق الإسلام ، كما وقع كذلك فى حب أختها التى تزوجها أيضاً . وبعد ثلاثة عشر عاماً عاد إلى قسطنطينية ومعه زوجته وعدد من الأطفال الذين يتكلمون العربية ؛ هذا إلى جانب الشعر والغناء والأدب الأندلسي ، وشرع يدخل الأغاني الغزلية والدينية وغيرها إلى قسطنطينية وأدبها . وهناك عدد كبير من الطرق التى تسربت منها الآداب والعلوم والثقافة الأندلسية إلى شمال أسبانيا حيث عبرت البرنات فنحن نجد عرباً يستخدمهم ملوك مسيحيون فى تربية أبنائهم كما هو الحال

مع ملك « أرجون » وقد استعان بهم المسيحيون كأطباء وكتاب في القصور الملكية ، كما نجد موظفين عرباً في برشلونة و بوجوس ولشبونة حيث يقومون بدور إدخال واستخدام التقاليد والعادات العربية الملكية . وبعد أن تم فتح الأندلس على يد المرابطين من البربر والموحدين الذين وفدوا من أفريقيا هاجر عدد كبير من المسيحيين المستعربين الذين اشتهروا باسم « موزارابر » بالآلاف من الأندلس إلى قسطنطينية و « أرجون » حيث كان ينظر إليهم القوم كمثل أعلى للحضارة والرقى والمدنية ، وأخذوا يقلدونهم كما قلدوا المسلمين الذين كانوا قد وقعوا في الأسر أو المسيحيين الذين سبق أن أسرهم المسلمون . لكن أسبانيا المسيحية لم تتجه إلى الجنوب أيضاً بل نجد كثيراً من الطرق والوسائل سواء كانت دينية أو سياسية أو تجارية أو روابط النسب والقربى تربط بين أولئك الأسبان وبين الدول الأوروبية الشمالية المتاخمة لهم . فجبال البرنات ليست حدوداً فاصلة كما أنها لا تساعد على التبادل بين أسبانيا العربية وأوروبا .

وعندما هاجم ألفونس السادس عام ١٠٨٥ طليطلة اشترك عدد كبير من الفرسان الألمان والإيطاليين والفرنسيين في هذا الحصار كما قاموا بكثير من أعمال السلب والنهب والتخريب لثانية المدن العربية وعادوا إلى أوطانهم ومعهم هذه الذكريات . وأول أسقف لطليطلة كان قد عينه رئيس دير « كلوني » وكان رؤساء كاتدرائيته ورهبانه من الفرنسيين . كما نجد الأسقف « ريموند » يؤسس مدرسة للترجمة تحتوى على مجموعة عظيمة جداً من ثمار العقلية العربية سواء في العلوم أو الآداب ، وقد ظلت هذه المدرسة مركز الثقل عدة قرون حيث كان يقصدها الطلاب والعلماء من مختلف البلاد الأوروبية . وفي عام ١١٤٧ سقطت لشبونة ، وكان المحاصرون من الإنجليز والألمان والفرنسيين ، وإلى الألمان يرجع الفضل في إحراز النصر . وتقلد إنجليزى من « هستينجز » أول وظيفة كأسقف للشبونة . أما المدينة فقد أصبحت من نصيب الملك « ألفونسو أنريكو » لكن الأسلاب الكثيرة سلمت إلى الأجانب حسب اتفاق تم مع المسلمين . كذلك نعلم أنه اعتق الفرنسيين والألمان والبورجنديين والصقالبة الذين كانوا مستعبدين في الأندلس ، وكثرت الأقاويل حولهم وحول أقاربهم الذين كانوا يزورونهم رغبة في التحصيل والعلم في قرطبة وسرجوسة والماريا .

فقد نقل هؤلاء كثيراً من ضروب الثقافة والحضارة العربية عبر جبال البرنات كما نقلها تجار من ليون وكونستنس وجنوه ونورنبرج ، فقد كان هؤلاء التجار يقصدون سنوياً الأسواق التجارية الأندلسية . كذلك انتقلت هذه الحضارة الأندلسية إلى أوروبا عن طريق ملايين الحجاج المسيحيين الذين كانوا يفدون من جنوب أسبانيا ومن جميع الجهات الأوروبية مارين بفرنسا حيث الطريق المعروف باسم « فيا فرنسينا » في بلاد يعقوب إلى ستياجو ده كومبوستيلا ، وكان أولئك الحجاج كثيراً ما يقصدهم التجار من مختلف الجنسيات و يقيمون محطات تجارية على طول الطريق الذي يسير فيه الحجاج . ومن أشهر الجماعات التجارية جماعة من البسك والبريتونين والألمان والإنجليز والبورجنديين والنورمان والبروفنساليين واللومبارديين ، وآخرين من طولوز ، كما نجد تجاراً آخرين كثيرين من مختلف الأجناس ويرطنون مختلف اللغات . وقد وصلتنا وثيقة عثر عليها في دير . ثم نجد عدداً كبيراً من الرهبان والقسس والفرسان والتجار الذين كانوا يفدون بدون انقطاع من فرنسا وبورجوند حيث يغمرون شبه جزيرة إيبيريا ، وكما يقول المثل إذا اختصم اثنان فرح الثالث لأنه هو الذي سيكسب .

ومن رسل نقل الحضارة الأندلسية إلى أوروبا أيضاً اليهود كتجار وأطباء وعلماء في العلوم العربية فقد نقلوها بمختلف أنواعها وفروعها إلى أوروبا كما ساهموا في أعمال الترجمة في طليطلة . وكذلك عن هذا الطريق وصلت أوروبا قصص عربية كثيرة ودخلت ، بعد أن ارتدت رداءً جديداً ، في القصص الأوربي والأساطير والأشعار .

أما الدور الهام في نقل فن الغناء العربي إلى القصور الملكية المسيحية فقد قام به الجوارى اللواتي كانت تحرص القصور الملكية المسيحية على الاحتفاظ بهن للموسيقى والغناء والرقص والسمر . وليس فقط في القصور الملكية بل في قصر « جراف » في « بورجوس » حيث يذكر رحالة من « بويمن » ما ملخصه أن سيدات جميلات كن يتحلين كما تتحلى المسلمات وكن في الطعام والشراب يتبعن عادات وتقاليد إسلامية وهن يرقصن رقصاً جميلاً حسب الطريقة الإسلامية . هكذا دون كاتب سر البارون فون روتز ميتال في مذكرة سيده وجميعهن سمر البشرة سود العيون ، وكن يأكلن ويشربن قليلاً وكن يحببن سيدى في أدب جم وكن مع الألمان على جانب عظيم من التقدير . والمغنيات العربيات يتمتعن بتقدير وحب عظيمين حتى لمنهن

عند فتح البلاد كن يجلبن بكثرة .

وهكذا حدث أيضاً عام ١٠٦٤ فقد ظهر في جنوب جبال البرنات رسول البابا الإسكندر الثاني والقائد الأعلى للجيش الروماني وهو يتكون من جنود نورمانين وفرنسيين وبورجنديين. لقد ظهوروا مباشرة أمام « بارباسترو » المدينة العربية الحصينة وبعد مقاومة فاشلة استسلم المدافعون بعد تأمينهم على ترك الحصن لكن لم يكد الجنود العرب يتركون أبواب الحصن حتى قتلهم الأعداء جندياً جندياً ، ولما حاول المدنيون العرب حسب الوعد الذي وعده العدو للجنود ترك المدينة ، انقض عليهم العدو ذبحاً وقتلاً حتى أفنأهم جميعهم وكان عددهم يتجاوز ستة آلاف شخص صعدت دماؤهم إلى خالقهم تشكو غدر العدو . أما النساء فقد سبين واقتسمهن العدو المسيحي وكان عددهن كبيراً جداً . أما مندوب البابا فقد أخذ معه إلى إيطاليا وروما أكثر من ألف سبية عربية . وفي عام ١٠٦٤ نجد الدعاية الثقافية تبلغ أوجها وذلك لأن ألف سبية أخرى من العذارى العربيات والسيدات قد نقلن إلى نورمانديا وإلى بروفينس وإلى أكويتانيا . وكان أحد المنتصرين عاد تصحبه الموسيقى والأغاني والسبايا اللواتي سباهن في حربه الصليبية إلى « بارباسترو » . كان هذا المنتصر الذي عاد إلى قصره هو الهرزوج فلهم الثامن من أكويتانيا وهو جراف بواتيه ؛ وهذا النبيل الفرنسي كانت له علاوة على هذا أسرة تسرعى الالتفات فعن طريق ابنته « إينيتس » أصبح حما الملك ألفونس السادس ملك قسطنطينية الذي كان نصف عربي وكان كما نعلم بعد وفاة « إينيتس » قد تزوج « سيدة » ابنة أكبر شاعر أندلسي وشاعر غزلي ، وقد نشأت وترعرت في قصر أبيها الملكي . أما الابن فقد أصبح منذ عام ١٠٧١ خلف الهرزوج فلهم الثامن وعلاوة على ذلك صهر ألفونس وسيدة وأخيراً فهو زوج أميرة من أرجون . وهذا الصهر هو في الواقع فلهم التاسع أول شاعر تروبادور مشهور .

أما كلمة « تروبادور » كما يرى العلماء اليوم فهي الكلمة العربية « طرب » ومنها اشتق اسم الرجل وهو ينشد أغانيه في عروض عربي وقافية عربية هي عروض وقافية الأغاني العربية كما كان يغنيها وينشدها المغني العربي الشهير ابن قزمان الذي توفي عام ١٠٦٠ م وقد أصبح بعد أن كان شاعر القصر في « بادايوز »

مغنياً متنقلاً في الشوارع ومعه قرد إلا أن أزجاله في اللغة الدارجة ترجع إلى الأندلسية القديمة . وقد أصبحت فناً من فنون الشعر وانتشرت داخل البلاد وخارجها وأضحت فناً جديداً محبباً إلى الناس في قسطنطينية حيث أثرت أثراً بعيداً في فنونها الشعرية فنشأ الفن المعروف باسم « فيلنشيشو Vimllancico » . وفي عام ١٠٦٤ أحضر الهرزوج العجوز مئات الفاطمات والعائشات والحبيبات من « بارباسترو » إلى « بواتيه » وكان ذلك في الوقت الذي أصبح فيه الابن كما يصوره مؤرخ عصره « من أكبر رجال القصور في العالم ومن أعظم الذين يجرون وراء النساء فهو فارس يجيد القتال والغزل » . فإذا اهتدى باحث في غزلياته إلى بيت في اللهجة الأسبانية العربية أدرك مدى الأثر الذي تركته الثقافة العربية هناك .

وفي غرب أوروبا سواء في « أكويتانيا » أو « بروفينس » أو « بنجويدوك » كانت الأرض خصبة حقاً لنمو الحضارة العربية وازدهارها فقد انتشرت هناك وأينعت لمدة جيلين وثلاثة وأربعة طيلة امتداد الفتوحات الإسلامية في « أكويتانيا » و « بروفينس » بما في ذلك إقليم الريفيرا ، وهذه الثقافة العربية لم تنحسر عن تلك الأقاليم دون أن تترك أثراً . وأخيراً نجد اتجاهها يقول إن لقيطاً وجد على باب دير « أوريلاك » وأصبح عام ٩٩٩ باباً في روما كان ابناً عربياً . وكيفما كان الحال فإن الفترة الممتدة من ٨٩٠ حتى ٩٧٥ كانت تعيش في « بروفينس » وغرب الألب مستعمرات مسلمة ، وكثيراً ما كانت تنضم إليها أسرات جديدة قادمة من أسبانيا وأفريقيا . وكما تزوج « فلهلم فون أكويتانيا » تزوج القيصر فريدريش الثاني ، فزواج الأول كان من أميرة من « أرجون » كما أن « كونستنزا » الشقراء جاءت معها وصيفات أسبانيات وتروبادور وخمسمائة فارس . وكان هؤلاء الفرسان تحت قيادة أخيها « ألفونس فون بروفينس » وذلك عند زواجها بفريدريش الثاني . ففي ذلك الوقت كانت تتدفق الحضارة والثقافة العربية من أسبانيا والبروفينس على صقلية حيث كانت توجد أيضاً هذه الثقافة العربية ، وهنا في صقلية ندرك ظاهرة جديدة إذ بينما نجد الحب العذري في بروفينس وجنوب فرنسا عبارة عن تقاليد وعادات اجتماعية وفيه نجد المرأة النبيلة هي التي يخضع أمامها ويركع النبيل المحب الوهان إذ بنا في صقلية نجد السيدة التي يركع أمامها المحب هي تلك التي تعتقد أنها أهل لذلك . والقيصر نفسه

وأبناؤه كانوا يحبون ومعهم جماعة من الشعراء يؤلفون الغزليات ويتفننون في الغناء وكما كان الحال في بروفينس وألمانيا أخذوا هنا في صقلية يعنون بقول الشعر في اللهجة المحلية وهذه بدورها أصبحت المحلية للشعر الإيطالي القديم، وفي وقت قصير قال « بترارك »: « لقد أصبح فن قول الشعر كما ولد من جديد في صقلية فهو ينتشر تدريجياً لا في إيطاليا فقط بل خارجها أيضاً » : وقال « دانتي » : « لذلك أصبح كل شيء ألفه أجدادنا في اللغة المحلية يدعى صقلياً » .

ففي أشعار هاتين العبريتين الإيطاليتين « بترارك » و « دانتي » نجد حقائق هامة جداً وهي الاتفاق التام مع أشعار العرب، وهذا الاتفاق وقع عند بترارك تلقائياً دون عمد ويرجح في « بولونيا » والأوساط الشعرية التي كانت ملتفة حول الملك الأسير « أنزيو » بن فريدرش الثاني الذي هو من أم ألمانية . وإذا كان الأثر العربي تلقائياً عند « بترارك » فعند « دانتي » جاء عن طريق اهتمامه واطلاعه على الشعر العربي والقصص الإسلامي والصوفية الأندلسية وفلسفة ابن رشد . وبينما نجد هذا الأثر أيضاً عند « بترارك » وبخاصة في الشعر الغزلي العربي القديم . نجد الوسائل التي أعانت « دانتي » على التأثر بالثقافة العربية كثيرة جداً منها القرآن الكريم ومؤلفات ابن عربي .

وفي الوقت نفسه نجد تياراً قوياً يأتي من جنوب فرنسا إلى قلب أوروبا إلى ألمانيا ويؤثر تأثيراً قوياً في أولئك الذين يؤمنون بالحياة الثانية وأولئك الذين يفضلونها على الحياة الدنيا وبذلك كانت هذه التعاليم مصدر بعث عصر جديد . وهكذا نجد فجر عهد جديد يبرز ويدعو إلى المثالية الخلقية واستتبع هذا ظهور شعر جديد عظيم موضوعه الحب النبيل حب الفروسية . إن هذه الفكرة فكرة ثورية ويكاد الإنسان لا يصدقها في هذا الزمن إذ أن المرأة بالنسبة لأنوثتها مصدر خطيئة وتغري بارتكابها وعصيان الله .

والآن نجد المرأة المضطهدة عقلياً وجسمانياً تخرج من هذا الوضع الدنيء التعس حيث كان ينظر إليها على أنها وسيلة الشيطان للتكيد بالرجل وإبعاده عن السير في الطريق المستقيم فالمرأة أصبحت الآن ينظر إليها على أنها سيدة رفيعة بركم أمامها الرجال راجين رضائها .

وهذه الظاهرة الجديدة قد ازدهرت وانتشرت ، وإن تكن قد اختفت فإن بذورها ما زالت موجودة ، وهكذا أصبحنا نجد بين عصر وآخر عصوراً مظلمة يقوى فيها خصوم المرأة أولئك الرجال المغرورون الذين يعتقدون أن حواء هي مصدر سقوط الرجل في الخطيئة كما نجد عصرًا تقدر فيه المرأة ، وهذا العصر متأثر ولا شك بالعرب ونظرتهم إلى المرأة وقد تأثر بهذا الشعور الجرمان .

وفي ٢ يناير ١٤٩٢ رفع الكاردينال « د. بيدرو جوانزاليس ده مندوزا » الصليب على الحمراء وهي القلعة الملكية للأسرة النصرية وكان ذلك إعلاناً بانتهاء حكم العرب على أسبانيا .

فهنا في غرناطة كانت قد انتهت العروبة في الأندلس إذ كانت قد شاخت وبلغت نهايتها ، فقد قضى على قرطبة وبلنسية وأشبيلية والأقاليم الأخرى التي منيت بالهزيمة . وبضياع سيادة العرب وحكمهم انتهت هذه الحضارة العظيمة التي بسطت سلطانها على القارة الأوربية طيلة العصور الوسطى كما انتهت كذلك المدنية والحضارة التي ظهرت عظمها ومكانتها في الإدارة والتنظيم ورفع مستوى حياة الشعب إلى جانب الثراء الذي بلغته المدن ووفرة إنتاجها وتنوع صناعاتها وإصلاح أراضيها وإعدادها للزراعة ، فازدادت المحاصيل وعم الرخاء وتنوعت الفنون وازدهرت الآداب وكثر قادة الفكر .

وقد احترمت لحد ما المسيحية المنتصرة الاتفاقيات التي تمت بينها وبين المسلمين وظل هذا الاحترام قائماً مدة ثمانى سنوات وذلك بفضل كبير الأساقفة « تالافيرا » وتسامحه وإعجابه بالعرب وعظيم تقديره لهم ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : تنقص العرب عقيدة الأسبان ، وتنقص الأسبان الأعمال الطيبة التي يتصف بها العرب ، وهذه الأعمال تنقص الأسبان لتجعل منهم مسيحيين حقيقيين ، وقد وقع في ذلك الوقت ما أكد رأى كبير الأساقفة وأيده . ففي عهد خلفه كبير الأساقفة « يوان كيمينيس » وقعت أحداث قضت على المسلمين وبقايا ثقافتهم وحضارتهم . وتعرضوا لاضطهادات شنيعة ، فقد حرم عليهم الإسلام وتعاليمه وأوامره كما حرم عليهم استخدام لغتهم العربية وحتى نطق كلمة عربية أو أغنية عربية أو شعر عربي . كما حرموا عليهم أيضاً حتى العزف على الآلات الموسيقية العربية واستخدام الأسماء العربية

وارتداء لباسهم القوي وزيارة الحمامات ، وفرضت المسيحية على من يخالف هذا من المسلمين أشد العقوبات من سجن وطرده وحرقة والمسلم على قيد الحياة .

أما الذى تبقى من كنوز العرب وآثارهم بعد أعمال السلب والنهب والتخريب التى قام بها المسيحيون أو البربر - أما ما تبقى من كتب أدبية وعلمية فقد جمعه رجال الكنيسة من دور الكتب وقدموه طعاماً للنيران ، اللهم إلا بعض المؤلفات الطبية فقد استثنيت من الحرق . وهكذا انتصر كبير الأساقفة وأنصاره وأنقذوا هذه الكتب بينما أحرقت كتب يتجاوز عددها المليون والخمسة آلاف كتاب وهى ثمار حضارة وثقافة عاشت ثمانية قرون .

هذه هى آخر قصيدة قيلت وأنشدها شعب يحب الشعر . هذه آخر قصيدة قيلت على أرض أسبانيا وهذه القصيدة أرفقت بالخطاب الذى أرسل إلى الإخوة فى شمال أفريقيا طلباً للعون والمساعدة وهى للعلامة خاتمة أدباء الأندلس أبى صالح بن شريف الرندى ومطلعها :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وهكذا نجد أسبانيا التى كانت أينع وأرقى بلاد العالم تخلو من سكانها العرب وتصبح صحراء جرداء وبذلك تم النصر على العروبة وذلك عن طريق مختلف أنواع العذاب والاضطهاد من حرق وقتل وتعذيب .

الخاتمة

من يعرف نفسه ويعرف الآخرين
يجب أن يعرف هنا أن الشرق والغرب
لن يفتقرا أبداً

جوته الديوان الغربي الشرقي

تقوست ظهورهم على صهوات الجياد حتى قاربت جباههم أعراف الخيول
وقد لوحث الشمس وجوههم وبأيديهم السيوف مسلولة يكرون على البلاد التي
هجرتها أهلها . وتحت سيقان خيولهم تقوست الأرض ألماً ووجعاً ، أما الحقول فقد
تخربت والبيوت تهدمت ، والأعشاب أحرقها بصقة أبناء الصحراء .

هذه الصورة هي التي تصورها الكتب المدرسية في ألمانيا إذا لم ينجح كارل
مارتل في إيقاف الزحف العربي الذي ترتب عليه إنقاذ أوروبا المسيحية . ويتصل
بهذه العبارة أيضاً ما يقال من أن العرب هم الوسيلة إلى إهداء الأوربيين التراث
اليوناني . لكن هل حقيقة أن كارل في حربه هذه كان يعتقد أنه منقذ أوروبا؟ حقاً إنه
تملكته الحديعة عندما علم في الصباح بعد معركة غير فاصلة أن العدو انسحب تحت
جنح الظلام . إن كارل ليس المنتصر على العرب بل هو الذي سخر السكسونيين
والفريزيين والألمان ، ولذلك لقبه معاصروه بأنه البطل صاحب المطرقة كما أن معاركه
التي خاضها ضد العرب بعد ذلك عند « بواتيه » و « أفينيون » و « نيميس »
و « مارسيليا » و « ناربون » التي حاصرها دون جدوى ، كل هذه المعارك ميزته
وفضلته على جميع الذين جاءوا بعده ، وعندما أراد القيصر « لودفيج القديس »
تمجيد أعمال أسلافه اعتبر إخضاع الفريزيين عملاً من أهم أعمال جده لذلك
رسمه على جدران « فلس » و « أنجيلهم » . كذلك الكنيسة لم تر في « بواتيه » منقذاً
للمسيحية بل لعنته وقالت عنه إنه لص الكنائس فقد سرق ممتلكات الكنائس

والأديرة وكون من أملاكها وأموالها جيشاً كما منح أراضيها لفرسانه لذلك فإن قبره خال وكأنه قطعة فحم ، لأن الشيطان نقل جثمانه إلى جهنم !

وربما لا نبالغ في تصوير ما وقع عند « بواتيه » . إن مؤرخاً بلجيكيّاً يقرر أنه لم يكن هناك فيما يرجح أكثر من الحيلولة دون القيام ببعض أعمال التخريب والتدمير . فهل عام ٧٣٢ م كان حقاً هو الفاصل بين سيادة المسيحية أو الإسلام أو مسيحية طليقة حرة بعيدة عن سيطرة روما أو مسحية مرتبطة بروما ؟ في عام ٧٣٢ م كان كل شيء مائلاً غير مستقر . في هذا العام الفاصل أعني عام ٧٣٢ م أرسل جريجور الثالث وهو سوري إلى كبير الأساقفة أمراً لإخضاع سكان « هيسين » و « تورينجين » إلى روما . بينما في عام ٧٣٨ م تقدم كارل مارتل من جديد ضد العرب ، كذلك أخضع كبير الأساقفة أيضاً رجال الدين في بافاريا إلى الكرسي البابوي ، كما أدخل نظام الكنيسة الروماني إلى ألمانيا .

وماذا تكون النتيجة لو أن هذه الحادثة انتهت بنتيجة أخرى ؟ حقاً إن أوروبا كانت لا بد أن تصبح أوروبا أخرى ولا يستطيع إنسان أن يتكهن ويقول غير هذا . هل كانت ستصبح أرواً أم أحسن ، أوروبا بربرية أو إنسانية ، أوروبا أتعس أم أسعد . إن ترجيح رأى على آخر غير مجد وليس هذا موضوع كتابة التاريخ أو هدف هذا الكتاب .

وبالرغم من هذا فإن المؤرخين كثيراً ما حاولوا معالجة هذا الموضوع والإجابة عليه ، وقد أجابوا إجابة تكاد تكون حقيقة لاشك فيها ولا ترجيح . لذلك فهي من هذه الناحية تضطرننا إلى النظر إليها من زاوية جديدة . لا يوجد كتاب تاريخ لا يحاول مؤلفه إلا أن يذكر أن انتصار كارل مارتل أنقذ المسيحية أو بتعبير آخر أنقذ أوروبا أو المدينة الأوربية ، وحافظ عليها من الضياع . أما المثل الذي تقدمه أسبانيا لنا فيشير إلى أن البلاد الواقعة على هذا الجانب من البرنات ظلت محتفظة — إلى جانب الدين الوحيد الحقيقي — بعقائدها ، وقد ظلت هذه العقائد المسيحية قائمة طيلة أيام الحكم العربي ، أعني ثمانية قرون ، وأن أحداً من المسلمين الحاكمين لم يفكر في القضاء على المسيحية أو محاربتها . كما أن مثل أسبانيا يدلنا أيضاً أن بلداً فقيراً معدماً مستعبداً أصبح في غضون مائتي عام تحت حكم العرب بلداً غنياً ارتفع فيه مستوى مختلف طبقاته كما انتشر التعليم وازدهرت الثقافة بين سائر طبقات شعبه ، وبفضل هذه

الثقافة الرفيعة وتلك الحضارة المزدهرة أصبحت أسبانيا علمياً وفنياً أرقى من سائر الدول الأوروبية . فقد أصبحت مثلاً يحتذى ونبعاً يقصده طلاب العلم من كل فج ، وظلت أسبانيا حاملة لواء العلم والمعرفة زهاء خمسمائة عام حتى قضى عليها بسبب الضربات التي وجهت إليها من الخارج .

نعم إن التاريخ لا يعرف « لو » أو « إذا » إنما يعرف الحقيقة والواقع ، وفي أوروبا أو على أطرافها حيث عاش الإسلام ، ترك هذا الإسلام أحسن الآثار وأجلها . لقد خلق الإسلام وضعاً سياسياً عالمياً جديداً ، فقد حطم حوض البحر الأبيض المتوسط ، وبذلك خلق أوروبا خلقاً جديداً ونقل مركز الثقل السياسى من البحر الأبيض المتوسط إلى جرمانيا وأصبح الرين وحوضه ، وليس جنوب أوروبا ، مركزاً أو نقطة ارتكاز السياسة العالمية .

وتكوين جيوش الفرسان واستخدام نظام التملك هما الإجابة الجرمانية على التحدى العربى . ثم أوجدت ألمانيا نظام الفرسان (الفتوة) الدينى وكان يقابل نظام الرباط عند المسلمين ، والحملات الصليبية والفيكينج ضد فلسطين مشبعة بالفكرة الإسلامية « الجهاد » .

لكن انتصار الإسلام وزحفه المقدس ومكانته الرفيعة التي تمتع بها ، هدد الكنيسة وهدد رغبتها في سيادة العالم . والإسلام هو الذى أنقذ الكنيسة من الضياع . لقد اضطر الإسلام الكنيسة المسيحية إلى العناية بالعلوم الدينية والأخلاقية وكل ما من شأنه تقويتها وشد أزرها ضد خصومها . أما المقاطعة العلمية والاقتصادية التي فرضتها أوروبا ضد العالم الإسلامى فقد عادت بأوخم العواقب على أوروبا نفسها وتركت أثراً سيئاً جداً على الأوروبيين لعدة قرون ، وفي اللحظة التي قامت فيها العلاقات واستؤنفت بين الشرق والغرب أخذت تنتعش أوروبا التي لم تكد تنهل من ينابيع العلوم العربية ومن فنون العرب وعلومهم ووسائل العناية الصحية والإدارية حتى استيقظ الوعي الأوروبى بعد أن ظل جامداً قروناً عديدة ، وأخذت أوروبا تنهض وترتقى نهضة غير منتظرة سواء في دروب الحياة أو الفنون وغيرها وانتعشت انتعاشاً جميلاً .

والواقع أن التعصب الدينى وعدم التسامح كانا دائماً من أعدى أعداء الشعوب

فالعزلة عدو الحياة والنمو والتطور، ثم إن تبادل الثقافة بين الشرق والغرب إلى جانب الاحترام المتبادل إلى التعاون والتصافي أدى جميع هذا إلى تفتق العبقريات ، وإذا تغاضينا عن بعض حالات التشاحن والبغضاء التي وقعت بين العرب والأوربيين أحياناً فإن تعاون الشرق والغرب سيكون خيراً وبركة للعالم أجمع.

تعليقات المترجم

قرتمن

١ - شغل هذا اللفظ منذ القدم البيطريين العرب ، فعرض له ابن البيطار فذكر موطنه ورأى المتقدمين من عرب ويونان ، ثم وصفه وصفاً يكاد يكون صورة توضحه دون لبس . فهذا النبات يعرف بمالقة بيلاد الأندلس باسم « قرن الأيل » ويقول ديسقوريدوس إنه نبات لاحق بالصنف من الشجر المسمى « بهنش » وهو نبات طوله نحو ذراع ينبت فيما بين الصخور في سواحل البحر وورقه حسن الاجتماع غير متفرق وفيه لزوجة ولونه إلى البياض وهو شبيه بورق البقلة الحمقاء إلا أنه أكبر منه وأطول وأعرض وطعمه إلى الملوحة وله زهر أبيض وحمل شبيه بيزر النبات المسمى (لينا بوطس) وهو رخو طيب الرائحة مستدير ، إذا جف يقطع ويظهر في جوفه بزر شبيه بحب الحنطة أحمر وأبيض وله في أصله ثلاثة عروق أو أربعة أغلظها مثل غلظ أصبع طيب الرائحة والطعم . . . » ابن البيطار مادة قرتمن .

وعرض لهذا اللفظ مجمع اللغة العربية فذكر في ص ٤٦٠ من مصطلحاته « حب الهال وعند العامة حبهان » .

قرنفل

نبات يستخرج منه الزيت المعروف باسمه ويستخدم في العطور وغيرها وقد عرفته العربية منذ الجاهلية فذكره امرؤ القيس في معلقته إذ قال :

إذا قامتا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت برياً القرنفل

والجدير بالذكر أن ابن سيده ج ١١ ص ١٩٦ قد عرض لهذا اللفظ في صيغه الأخرى فذكر « أبو حنيفة » ويقال طيب مقرفل ومقرنف لم يستدل سيبويه على زيادة النون في قرنفل « بمقرفل » الذي ذكره إنما استدل على زيادة النون فيها بأنه ليس في الكلام مثل سفرجل فيكون هذا ملحاً به .

ونجد هذا اللفظ في اليونانية « كروفلون » وفي سائر اللغات الأوربية ، ففي الألمانية القديمة

« جروفيل jeroffel » والفرنسية « جيرفيل girofle » والإيطالية « جاروفولو garofolo » و « كاريوفيلو cariofillo » وغيرها .

وللفظ صيغة أخرى آرامية وهي « قرفلن » ويرجح أنها هي التي انتقلت إلى العربية .

جوز الطيب

ذكره ابن البيطار في مادة « جوزبوا » فقال « وهو جوز الطيب » . « ابن سينا » هو جوز في قدر العفص سهل الكسر رقيق القشر طيب الرائحة . . يؤتى به من بلاد الهند .

وقد أطلقت عليه اللغات الأوربية لفظاً عربياً آخر لشبهة في النكهة فهو في الألمانية مسكات muskat والإنجليزية amusk فسائر اللغات الأوربية من المادة العربية « مسك » .

برسيفال

بطل قصصى من أبطال العصور الوسطى في أوربا .

قهوة

٢ - إن الصيغة الأوربية تشير إلى أنها مأخوذة عن التركية حيث نجد « قهفه Qahvé » وفي التركية الأرمنية « كيف Kaifé » و « غيف Ghaifé » أما لفظ « قهوة » في العربية فيدل أصلاً على « الحمر » وربما يعتقد أن الشيخ الشاذلى هو الذى أدخل هذا الشراب إلى بلاد العرب الجنوبية . وما يزال اسمه متشراً هنا في مصر : « قهوة شاذلى » وفي بلاد الحبشة . ولفظ « قهوة » قد يتصل بإقليم « كفا Kaffa » في شرق أفريقيا حيث تنبت القهوة برياً ومنها انتقلت إلى بلاد العرب الجنوبية . ويطلق سكان إقليم « كفا » على هذا النبات « بن » ويرجح أنه انتقل منها إلى العربية ومن ثم إلى الألمانية « بونه Bohne » أى « حبة البن » ومن ثم نجد هذا اللفظ يكون مع كثير من المفردات الألمانية كلمات مركبة للتعبير عن « حان مشتركة مثل » كافاهوس kaffeehaus أى « دار شراب للقهوة » وغير ذلك . . .

وما وقع في الألمانية تجده أيضاً في مختلف اللغات الأوربية .

مات

٣ - انتقل هذا اللفظ مع لعبة الشطرنج حيث يقال (شاه مات) في الألمانية نجد « شخمات Schachmatt » ، ولم يقف أمر هذا اللفظ عند هذا بل نجد اللغة الألمانية تكون منه عدة صيغ مثل « ماتيهت Mattheit » و « ماتيشكيت Mattigkeit » أى الموت في معنى الضعف .

الشك

٤ - الشبكة السلاح وقيل الشبكة ما يلبس من السلاح ، ومن ثم قيل شك في سلاحه أى داخل فيه . وكل شيء أدخلته في شيء فقد شككته ، و . . . شك السلاح وقد شك فيه فهو يشك شكاً أى لبسه تماماً فلم يدع منه شيئاً . والشك الحلة التى تلبس ظهور الشيتين .

وقد انتقل هذا اللفظ من العربية إلى اللغات الأوربية فهو في الأسبانية « جاكو Jaco » ومن ثم انتقل من أسبانيا في القرن الرابع عشر إلى الفرنسية « جاك Jaque » في معنى درع ثم لباس أو لباس ضيق .

وفي القرن الخامس عشر ظهرت الصيغة المصغرة « جاكيت Jaquette » بمعنى لباس للفلاح وفي القرن التاسع عشر نجد « جاكيت Jackett » تستخدم في المعنى الحديث .

وفي الألمانية نجد اللفظ « جاكيه Jacke » وكذلك « جاكيت Jackett » وغالباً ما تنطق « شكيت Schaket » . ولا تقتصر الألمانية على استخدام هذا اللفظ مفرداً بل مركباً أيضاً ومجازياً .

وفي الإنجليزية ما زلنا نجد لفظ « جاك Jack » في معنى درع بينما لفظ « جاكيت Jacket » في المعنى الحديث .

الصفة

٥ - تحدثنا معاجمنا اللغوية في مادة « صفف » أن صفة الرجل والسرّج هى التى تضم العرقوتين والبدايين من أعلاهما وأسفلهما والجمع صفف على القياس . . . وهى للسرّج بمتلة الميثة من الرجل . فما ذكرت وجاء في المعاجم : الصفة هى الوسادة أو الحشية التى توضع في السرّج أو الرجل . ومن ثم نجد هذا اللفظ يتطور إلى مختلف المعانى التى تتصل بالجلوس ، فالصفة الظلة والصفة من البنيان شبه البهو الواسع الطويل السمك والصفة الظلة .

وعن العربية انتقل اللفظ إلى الفرنسية ومنها في القرن الثامن عشر إلى الألمانية فسائر اللغات الأوربية حيث نجد (Sofa) بمعنى الصفة أو الأريكة .

مطرح Matraize

٦ - وهذا لفظ آخر عربي الأصل من مادة « طرح » حيث نجد الشيء الطريح أى المطروح ، والمطرح هو المكان الذى يستريح فيه الإنسان أو الوسادة . وقد انتقل هذا اللفظ أولا إلى الأسرة اللغوية الرومانية حيث نجده فى الإسبانية والبرتغالية « المدركوه Almadraque » ومنها إلى الفرنسية « ماتيلاس Matilas » فالإيطالية « ماتيرتسو Materazzo » .

قرمزي

٧ - أى الأحمر القانى نسبة إلى الحشرة المعروفة فى اللغات الفارسية والتركية والعربية « قرمز » وعن الأخيرة انتقل هذا اللفظ إلى الإيطالية « قرميسينو Carmesino » . وفى القرن الخامس عشر رحل اللفظ إلى ألمانيا فاللغات الأوربية الأخرى فهو فى الفرنسية والألمانية « كرمين أو كرميزين Karmin » وفى الإنجليزية « كرىمزون Crison » أو « كرمين Carmin » واللغات الأخرى .

قناد

٨ - للقند والقندة والقنديد كله عصارة قصب السكر إذا جمد ومنه يتخذ القانيد ، وسويق مقنود ومقند معمول بالقنديد . قال ابن مقبل :

أشاقك ركب ذو بنات ونسوة بكرمان يعتقن السويق المقندا

والقند عسل قصب السكر ، والقنديد الحمر . قال الأصمعى هو مثل الأسفنت وأنشد :

وذكره الأزهري فى الرباعى وقيل القنديد عصير عنب يطبخ ويجعل فيه أفواه من الطيب . هذا بعض ما جاء فى لسان العرب .

ومن العربية انتقل إلى الإيطالية « كنديرى Candy » والفرنسية « كندير Candire » . وفى القرن الثامن عشر انتقل إلى ألمانيا حيث يستخدم فى مثل « كونديتور Konditor » أى قناد

وسائر مشتقاتها . كذلك الحال في مختلف اللغات الأوربية وبخاصة الإنجليزية حيث نجد « كندى Candy » .

مستقة

٩ - المساق فراء طوال الأكمام واحدها مستقة قال أبو عبيدة أصلها بالفارسية (مشته) فعربت قال الشاعر :

إذا لبست مساقها غنى فياويح المساق ما لقينا

فهذا اللفظ العربى الفارسى انتقل فى القرن الثالث عشر إلى الألمانية حيث نجد « Mutze » و « مسه Músce » و « شه Musche » وقد أخذ هذا اللفظ يتطور فى اللهجات الألمانية المختلفة حتى أصبحنا فى القرن الخامس عشر نجد صيغاً أخرى مثل « متسه Mutze » والأخيرة هى الصيغة المستخدمة اليوم لغطاء الرأس .

قطنة

١٠ - شق هذا اللفظ « قطن » طريقه إلى أوربا فى القرن الثالث عشر حيث نجد « قطون Ratun » وهو عبارة عن ثوب من القطن وقد تطور من « قطوين Cotoin » إلى « كيتل Kittel » وفى ألمانيا وسط ألمانيا نجد أيضاً « كيتيل Kietel » .

طاسه

١١ - عن الفارسية « طشت » انتقلت إلى العربية « طاس » ومنها إلى الإيطالية « Tazza » أو « تتسا Tatse » والفرنسية « طاس Tasse » فسائر اللغات فى الإنجليزية « طاس Tass » أى جرعة من الكونياك والألمانية « طاسه Tasse » .

١٢ - راجع رقم ٢

سكر

١٣ - عن العربية انتقل إلى أوربا فى العصور الوسطى واللفظ أصلاً فيما يعتقد من الهند وقد استعارته عنها فى العصور القديمة اللاتينية فنجد فيها « ساخارم Saccharum » ومنها « سخارين

Saccharin « فأصبحنا نجد اليوم اللفظ القديم يدل غالباً على المستخرجات العلمية من أملاح وأحماض ، بينما يستخدم اللفظ العربى للدلالة على النوع العادى المستعمل فى الشرب والطعام .

غرافة

١٤ - الغراف مكىال ضخيم مثل الجراف وعن العربية الأسبانية إلى الفرنسية « كاراف Carafe » والإنجليزية « كاراف Carafe » والإيطالية « كارافا Caraffa » والأسبانية « غرافة Garrafa » .

ليمون

١٥ - ثمار شجرة تعرف بنفس الاسم وهى من أشجار الموالح فارسية الأصل « ليمون » ثم انتقلت إلى العربية . ومنها إلى مختلف اللغات الأوربية حيث نجد : « ليمونادة » أو « ليموناته » عصير الليمون المحلى بالسكر الإيطالية « ليموناته Limonote » ثم عادت هذه الصيغة إلى العربية .

الكحول

١٦ - من الكلمة العربية « كحل » ، وهى المادة المستخدمة لتلوين رمش العين ، ولما كان تحضير هذه المادة يتطلب أحياناً روح الخمور عمم استخدام هذا اللفظ وأطلق على روح الخمر « الكحول » .

وعن العربية انتقل اللفظ إلى كثير من اللغات الأوربية فنجد فى الإنجليزية « الكحول Alcool » والفرنسية « الكول Alcool » والألمانية « الكحول Alkohol » . ولم تقف اللغات الأوربية عند هذا اللفظ بل صاغت منه ألفاظاً أخرى تتحدث عنها المعاجم اللغوية الأجنبية المختلفة .

برقوق

١٧ - فاكهة واللفظ يونانى الأصل « بريكوكا » وفى اللاتينية « بريكوك praecox » أى الذى ينضج مبكراً وانتقلت المادة إلى الأرامية « برقوقيا » فالعربية « برقوق » . وعن العربية انتقل هذا اللفظ فى العصور الوسطى إلى كثير من اللغات الأوربية حيث تجد فى الألمانية « إبرىكوز Apricose » وفى الإنجليزية « إبرىكو Apricot » . وقديماً استخدمت الإنجليزية صيغة « إبرىكوك Apricock » وقد أخذت عن العربية الأسبانية « البرقوق » .

البنان

١٨ - أصبح اليد ؛ وقد أطلق في العربية الأسبانية على الفاكهة المعروفة اليوم عندنا باسم الموز . وإطلاق لفظ بنان عليها يرجع إلى الشبه القوى بين هذه الفاكهة وأصبع اليد . وهناك رأى يقول إن لفظ « بنان » لفظ غاني يطلق على هذه الفاكهة ، ويعتقد أن العرب الأسبانيين أحضروا هذه الفاكهة من غانا . أما لفظ « موز » فهندي وقد انتقل عن طريق العرب الذين جلبوا هذه الفاكهة من الهند قبل أن تكتشف أوروبا الطريق البحري .

شربات

١٩ - من العربية « شرب » ومن ثم انتقلت الكلمة إلى التركية ومنها إلى سائر اللغات الأوربية التي لم تكتف باللفظ ومدلوله الأصلي بل اشتقت منه مفردات أخرى فعن طريق الإيطالية شق اللفظ طريقه إلى الألمانية وأصبحنا نجد فيه اليوم « سيروب Sirup » وفي الإنجليزية « سيروب Sirup (Syrup) » للماء المحلى بالسكر . وقد يمزج ببعض العقاقير الطبية لاستخدامه كدواء . كما نجد في الفرنسية « سيروب Sirop » .

نارنج = أورانج

٢٠ - لفظ « نارنج » فارسي عربي ، ومن ثم انتقل إلى الأسبانية « نارنجا Naringa » والبرتغالية « لارنجا Laranja » أي « أورانجا Orange » وهي البرتقالة المرة . أما الحلوة فقد جاء بها البرتغاليون بعد عام ١٥٠٠ م من جنوب الصين إلى أوروبا ومن هنا ندرك سر تسمية هذه الفاكهة في شمال ألمانيا بلفظ « إيفيل سينه Apfelesine » أي تفاحة الصين . وفي الهولندية « سيناس إيبيل Sinaasappel » والهولنديون هم الذين أحضروها إلى شمال ألمانيا حوالي عام ١٧٠٠ م لذلك مازال شمال ألمانيا يستخدم هذا اللفظ بخلاف الجنوب .

لكن هناك لغات أوربية أخرى أطلقت على هذه الفاكهة لفظ « برتقالو portogallo » نسبة إلى دولة البرتقال . كما نجد نفس اللفظ في الشرق العربي .

الحرشوف

٢١ - من العربية الحرشوف انتقل اللفظ إلى الأسبانية « الحرشوف Alcarchofa » فالإيطالية

القديمة « أرتيشوكو Articiocco » محرفة من « الحرشيفو Alcarcioffo » وفي الإنجليزية « أرتيشوك »
« Artichoke » الألمانية « أرتيشوك Artichok » والفرنسية « أرتيشو Artichaut » .

برد

٢٢ - البردة الثوب الذى يقي الجسم التقلبات الجوية ويحفظ له حرارته الطبيعية ثم جرت العادة بلف شواء الطيور بغلالة من الدهن فيبدو الطير وكأنه يرتدى بردة ، والعيش البارد الهنىء الطيب :

قليلة لحم الناظرين يزينا شباب ومخفوض من العيش بارد

ثم انتقل اللفظ إلى العربية الأسبانية بمختلف معانيه فهو البردة والدرع والسرج ومن ثم انتقل إلى الفرنسية « بردة barde » بمعنى الشواء المغلف بالبردة أعنى الشواء المبرد ، والدرع . وفي الإنجليزية نجد « برد Bard » والألمانية « برده Barde » .

أرز

٢٣ - همزته زائدة وفيه لغات أرز ورز ورتز . وفي الآرامية روزا أو أوروزا أو رزا أو أورز ومنها انتقل اللفظ إلى العربية ومنها إلى مختلف اللغات الأوروبية .

سبانخ

٢٤ - نبات معروف في الفارسية العربية « أسبناخ أو سبانخ » ثم انتقل اللفظ إلى سائر اللغات الأوروبية ففي الإنجليزية « شبيناخ Spinach » أو « سبيناج Spinage » وفي الفرنسية القديمة « أسبيناخ » أو « أسبناج Espinache » والألمانية « شبينات Spinat » .
(راجع ابن البيطار مادة اسفاناخ ويقال الزانخ) .

القرفة

٢٥ - من الحاصلات الزراعية بلحزر الملايو واسمها في لغة هذه الجزر « كجايو = خشب + مانيس = حلو » فلفظ « كايومانيس » معناه الخشب الحلو . ثم انتقل هذا اللفظ إلى الفينيقية « كينامون » ومنها إلى اليونانية « كينامون » فاللاتينية « كيناموم Cinnamum » ومنها إلى الألمانية

القديمة « سينامين Sinamin » ومن ثم أصبحت « زينامين Zinemin » أو « زينمنت Zinment » ثم « زمت Zimt » .

العرق

٢٦ - هو العرق في العربية ومن ثم أطلق على الخمر المستخرج من التمر ثم استخلمه العرب وأطلقوه على كل مسكر ، وقد انتشر هذا اللفظ في مختلف اللغات الأجنبية كما أطلق على كثير من المشروبات الروحية وبخاصة في منغوليا وأمريكا . وفي الهند يطلق بخاصة على المشروبات الكحولية المستخرجة من الأرز أو قصب السكر .
وقد انتقل إلى الإنجليزية حيث نجد « أرك Arrack » أو « أراك Arak » وهو اسم يطلق على أى مسكر وبخاصة ذلك المستخرج من جوز الهند أو الأرز والسكر .

مخا

٢٧ - مخا ميناء يبنى يقع على البحر الأحمر وكان قديماً أشهر ميناء لتصدير البن فأصبح علماً على هذه القهوة الشرقية .

ديوان

٢٨ - كتاب أو مصلحة من مصالح الحكومة أو مقعد .
واللفظ فارسي الأصل ومن ثم انتقل إلى العربية التي تنوعت في استخدامه ومنها انتقل إلى كثير من اللغات الأوروبية .

تسفتشجين Zwetschgen

٢٩ - وهو الدراق الدمشقي prunum damascenum إلا أن اللفظ أقدم في الشام من نزوح العرب إليها فاللفظ غير عربي ولا يعرف أصله ، ومن دمشق انتقل إلى ألمانيا .

Begarmudy بيج أرمودى Bergamotte

٣٠ - لفظ تركى معناه « كثرى البك » ومن ثم أطلق هذا اللفظ المركب على نوع ممتاز من

للكمثرى ، ومن ثم انتقل إلى الإيطالية « برجاموتا Bergamotta » ومن ثم إلى الفرنسية « برجاموت Bergamote » وأخيراً إلى الألمانية « برجاموت بيرنين Bergamotte Birnen » .
٣١ - (انظر ٢٨) .

عثمانى

٣٢ - صفة منخفضة واللفظ نسبة إلى الاسم العربى « عثمان » ومن العربية إلى التركية ومنها إلى كثير من اللغات الأوربية كالإيطالية والفرنسية والألمانية .

قبة

٣٣ - بناء سقف مستدير مقعر معقود بالحجارة أو الآجر ، وقد اختلف القوم حول أصل هذا اللفظ ومعناه فى اللغة العربية وذلك لاشتراك الأسرتين اللغويتين العربية والهندية الأوربية فيه .
ولفظ (قبة) هذا دخيل فى العربية الشمالية وهو سريانى أصله « قوبا » أو « قوبثا » وقد استعارته عنها بعض اللغات السامية الأخرى فهو فى العبرية « قبت » وفى المندعية « قومبا » أو « قومبثا » .

وقد نقل العرب هذا الفن من البناء إلى أسبانيا حيث نجد « القوفن Alkoven » . ولم يقف انتشار هذا الفن عند شبه جزيرة إيبيريا بل سرعان ما نجده ينتشر فى سائر أنحاء أوربا من جديد بعد أن سبق لها أن عرفت عن طريق اليونان . ومع هذا الفن غزا مدلوله اللغات الأوربية . فى اللاتينية « كوبا Cupa » وفى الإيطالية « كوبولا Cupola » والألمانية « كوبل Kuppel » والفرنسية « كوبول Coupole » والإنجليزية « كوبولا Cupola » .

وهل كان يخطر ببالنا أن هذا اللفظ العربى القديم يترك هذا الأثر العظيم فيتعدى ما وضع له ، ويفرض نفسه على كل شىء جمعته به رابطة ما ولو كانت رابطة الشكل فقط فنجده فى « كب Cup » الإنجليزية و « كوب Coupe » الفرنسية و « كوبا Coppa » الإيطالية بمعنى « فنجال » ثم تأتى العربية وتستعير من الإيطالية أو الفرنسية أو منهما معاً لفظ « كبايا » فى المعنى المتداول بيننا ؟

ولم يقف أثر هذا اللفظ عند هذا الحد بل نراه يبسط نفوذه فى اللغة الألمانية فيحتل منطقة واسعة من مناطقها اللغوية فنجد « كوبشن Köppchen » (شن : علامة التصغير) بمعنى فنجال و « كبا Koppe » قمة الجبل و « كبف Kopf » رأس .

شطرنج

٣٤ - لعبة شهيرة يلعبها اثنان عادة . ولفظ شطرنج هندي فهو في السنسكريتية (شطورنجا) أعني أربعة أقسام أى جيش ومنها انتقل إلى الفارسية فالعربية .

في النص الفهلوى : (مادهيجن شطرنج) نقرأ خبراً عن الملك الهندي « ديوسرم » الذي أرسل إلى كسرى أنوشروان هذه اللعبة المكونة من ستة عشر شخصاً من الزمرد ، ومثل هذا العدد من الياقوت ، ولعل أقدم إشارة عربية إلى هذه اللعبة قول ابن المعتز :

وحيطان كشطرنج صفوف فما تنفك تضرب شاه ماتا

ويذكر اليعقوبي في تاريخه (ج ١ . ص ١٠٣ . طبع أوربا) : فاجتمعوا على حكيم من حكمائهم - يقصد حكماء الهند - يقال له « قفلان » ، وكان ذاك حكمة وفطنة ورأى فذكروا ذلك له فقال : أنظروني ثلاثاً ؛ ففعلوا ذلك وخلا مفكراً ثم قال لتلميذ له : أحضر لي نجاراً وخشباً من لونين مختلفين أبيض وأسود : فصور صورة الشطرنج وأمر النجار فنجرها ثم قال له أحضر لي جلدأ مدبوغاً . فأمره أن ينحط فيه أربعة وستين بيتاً ففعل ذلك فنصب ناحية ثم تجاوزا حتى فهماها فأحكماها ثم قال لتلميذه : هذه حرب بلا ذهاب أنفس ، ثم حضره أهل المملكة فأخرجها لهم فلما رأوها علموا أنها حكمة لا يهتدى لها أحد .

شيكيش Scheckig

٣٥ - لفظ منسوب إلى كلمة « شيك = شاه = شطرنج » وهو يعبر عن لوحة الشطرنج المشكلة الألوان ومن ثم أطلق اللفظ على الشخص المتلون كأنه رقعة الشطرنج .

قفنة

٣٦ - « قفة » = سلة

لفظ عربي قديم فهو في الأكادية « قف » بمعنى صندوق أو قفص ثم انتقل إلى اليهودية الآرامية « قوفنا » ومنها إلى العربية .

وقد انتقل هذا اللفظ إلى أوربا عن طريقين طريق شرق أوربا فنجد في اليونانية « كوفينوس Kofinos » ومنها إلى اللاتينية « كوفينوس Cophinus » . وعن طريق أسبانيا حيث العرب بالأندلس

نجد اللفظ العربي الأسباني « قفة Cofe أو Cofa » . والإيطالية « قفه Coffa » . وفي الفرنسية نجد « قف Couffe » .

ولم يقف هذا اللفظ عند هذه اللغات فنجد في الإنجليزية « كوفير Goffer » والألمانية « كوفير Koffer » .

وقد تفتنت كل لغة من هذه اللغات في هذه المادة فصاغت منها مختلف الصيغ التي حفظها لنا معاجمها .

صفي

٣٧ - اسم مدينة مراكشية تقع بين الدار البيضاء وأغادير ، وقد اشتهرت منذ القدم بدباغة جلود الماعز والضأن وإليها تنسب الجلود الجيدة والمعروفة في اللغة الألمانية باسم « صفيان Safian » . وقد انتقل هذا اللفظ إلى كثير من اللغات الأوربية فغير الألمانية « صفيان » نجد الإنجليزية « صفيان Saffian » والروسية « صفيانو Safianu » .

وما يؤيد صحة نسبة هذا الجلد إلى مدينة « صفي » وأنه ليس من اللفظ الفارسي « سختيان » أن الفرنسية تطلق عليه اسم « ماروكين Maroquin » أي مراكشي .
٣٨ - انظر ٣٧ = مراكشي .

جدامس Gamasche

٣٩ - مدينة في طرابلس بالقرب من الحدود الجزائرية وقد اشتهرت بصناعة هذه الوسيلة الواقية للساق .

جلا

٤٠ - يستخدم هذا اللفظ حقيقة أو مجازاً للتعبير عن اللعان ، ومن ثم انتقل عن طريق أسبانيا إلى فرنسا حيث نجد لفظ « جلا Gala » بمعنى احتفال . عيد مأدبة . وليمة . ومن ثم تطور هذا اللفظ إلى معان عديدة منها « جالنت Galant » أي أديب . أنيق . مستقيم . والاسم منها « جالنتري Galanterie » .

وقد تطور هذا اللفظ في اللغة الألمانية حيث نجد « جالان Galant » أي عشيق أو شهم . مهذب .

كذلك الحال في الإنجليزية وغيرها من اللغات الأوربية حيث نجد هذا اللفظ ومشتقاته مستخدمة في سائر المعاني .

بركان Berkan أو Barchent

٤١ - نسيج خشن من شعر الماعز أو صوف الضأن أو وبر الجمال . واللفظ فارسي الأصل وعن العربية انتقل اللفظ إلى مختلف اللغات الأوربية ، وقد يتصل به لفظ « بركال perkal » لهذا النوع من القماش المنتشر اليوم .

قطن

٤٢ - العربية « قطن » .

موصلي Musselin

٤٣ - نسبة إلى مدينة الموصل بالعراق

مخير Mohair

٤٤ - قماش صوف خشن عرف في ألمانيا باسم « مخير mohair » وعن العربية انتقل اللفظ إلى البلاد الصقلية ثم عاد إلى ألمانيا ثانية فكثير من الدول الأوربية حيث نجد « مورا moire » ومهير mohair .

الشف Chiffon

٤٥ - الشف والشف الثوب الرقيق وقيل السر الرقيق يرى ما وراءه وجمعها شفوف .
زاهن الشفوف ينضجن بالمسك وعيش معاتق وحرير
وقد انتقل من العربية إلى كثير من اللغات الأجنبية حيث نجد « شيفون Chiffon » .

زيتوني Satin

٤٦ - انتقلت هذه الكلمة من العرب إلى الأسبان ومنهم إلى الفرنسيين ، حيث نجد لفظ

« ساتين Satin » ومن ثم انتقلت إلى مختلف اللغات الحية . ولفظ « زيتوني » العربي نسبة إلى مدينة صينية كان العرب يجلبون منها الحرير .

تفت

٤٧ – قماش حريري رقيق واللفظ فارسي تركي ومن ثم انتقل إلى العربية ومعناه في الفارسية « النسيج » ثم إلى مختلف اللغات الحية فهو في الألمانية « تفت Taft » وفي الفرنسية « تفتس Taftas » والإنجليزية « تفتا Taff » وغيرها .

أطلس

٤٨ – الأطلس الناعم الملمس .

الدهشقي

٤٩ – نسبة إلى دمشق .

زعفراني Safran

٥٠ – انتقل هذا اللفظ من العربية إلى جنوب إيطاليا ففرنسا وألمانيا ، ومن ثم انتشر في مختلف اللغات الحية ففي الإنجليزية « سفرون affron » ومشتقاته في الإنجليزية وغيرها من اللغات .

ليلا Lila

٥١ – العربية « ليلك » ومنها إلى الأسبانية « ليلك » فالفرنسية « ليلاس Lilas » وهو في الأصل اسم لشجرة هندية ثم استعير اللفظ للتعبير عن اللون .

ترياق . درياق Roge

٥٢ – الترياق دواء مركب واللفظ يوناني الأصل « ترياكة Theriak » ومنها إلى الأرامية « ترياقا » أو « توريقي » أو « تريقي » ومنها إلى العربية . وقد انتقل هذا اللفظ إلى اللغات الأوربية عن طريق العرب .

٥٣ – انظر رقم ١

جنزبيل . زنجبيل

٥٤ - بقلة يقال لها فلفل الماء لأنها حريفة .
واللفظ سنسكريتي «سرنجفيرا Crngavera» ثم استعارته الآرامية «زنجبيل» فالعربية زنجبيل
ثم انتقل اللفظ إلى اللغات الأوربية في الألمانية «انجفير Ingwer» والإنكليزية «جنجير Ginger»
والإنجليزية القديمة «جنجيبير Gingiber» .
وبلاحظ أن صيغة اللفظ في اللاتينية هي «زنجيبير Zingiber» وكذلك اليونانية .

كمون

لفظ عربي قديم فهو في الآشورية «كمون» وفي العبرية «كمون» واليونانية «كان» ومنها إلى
اليونانية «كمينون Kyminon» فسائر اللغات الأوربية .

زعفران

٥٥ - انظر ٥٠ .

كافور

٥٦ - نبت طيب موطنه جزر فورموزا واسم الشجرة في اللاتينية «كفورا Camphora»
وفي الهندية القديمة «كارفورا» ثم وقع إدغام فصارت الكلمة «كفورا» وانتقلت إلى العربية
«كافور» ومنها إلى مختلف اللغات الحية .

بنزين

٥٧ - سائل لوقود السيارات . عربي «لبان جاوى» ثم انتقل إلى اللغات الأوربية «بتزو Benzoc»
ولما جرت العادة قديماً أن يستخرج سائل البترين عن طريق تسخين حامض البترو ،
أطلق العلماء على السائل المستخرج منه «بتزين» وهكذا أصبحنا نجد هذا اللفظ في صيغته
الجديدة في مختلف اللغات العالمية .

قلى Kali

٥٨ - اللفظ العربى الدال على « البوتاس » وقد استعارته معظم اللغات الأجنبية وتصرفت فيه فصاغت منه عدة صيغ .

نطرون

٥٩ - اللفظ مصرى قديم « نتر » وعن المصرية القديمة انتقل اللفظ إلى اليونانية « نطرون Natron » وهو نوع من البورق « راجع مادة بورق » عند ابن البيطار .

صداع Soda

٦٠ - كانت الصودا تستخرج من أعشاب بعض الشواطئ الأسبانية وتستخدم كعلاج لوجع الرأس أى الصداع فسميت الصودا باسم المرض .

بورق Borax

٦١ - لفظ فارسى الأصل « بوريه » واستعاره العرب وأصبح « بورق » وعن العربية انتقل إلى مختلف اللغات الأوروبية . وقد عرض لهذه المادة ابن البيطار فى مادة بورق .

سكرين Saccharin

راجع مادة سكر

عنبر

٦٢ - عربى ويرجح أنه من أفريقيا الشرقية ثم انتقل إلى كثير من اللغات العالمية .

لك

٦٣ - انتقل من الهندية إلى الفارسية ومنها إلى العربية فسائر اللغات الأوروبية Lack .

النيله

٦٤ - مادة زرقاء اللون تستخدم في الصباغة هندية الأصل ومن ثم انتقلت إلى العربية ومنها إلى الأوربية حيث نجد « أنيلين Anilin » .

قز

٦٥ - القز أبريسم وقيل ضرب منه أو ما يسوى منه الأبريسم . واللفظ فارسي الأصل ثم انتقل إلى الآرامية « قز » أى شعر ومنها إلى العربية ومن الأخيرة انتقل إلى مختلف اللغات الأوربية ففي الفرنسية « قز Gaze » أى حجاب . واعتقد القوم خطأ أنه نسبة إلى مدينة غزة والواقع أن هذه المدينة لم تشتهر بصناعته أو الاتجار فيه .

طلق Talkum

٦٦ - دواء إذا طلى به منع حرق النار .

بطن

٦٧ - استعير من بطن الإنسان وأطلق على الملابس المبطنة « بطن » ومن ثم انتقل اللفظ من العربية إلى الألمانية « بطن Watten » ثم استخدم كذلك للدلالة على القطن الطى Watte .

خلنجان

نبت قريب من الزنجبيل وهو صيني الأصل ومن ثم انتقل حوالى عام ٨٧٥ م إلى الجزيرة العربية وقبل القرن الثانى عشر نقله العرب إلى أوربا .

مر

يذكر ابن البيطار في مادة « مر » : صمغ شجرة ومنه تخرج الميعة السائلة وهو مر وبسبب مرارته يقتل الديدان والأجنة ويخرجها ، وهو يجلو العين لذلك يخلط في الأكحال التى تتخذ للقروح .

ثم استعارت اليونانية هذا اللفظ العربي القديم وأصبح « mvrra مرا » ومن ثم انتقل اللفظ العربي في العصور الوسطى إلى كثير من اللغات الأجنبية .
٦٨ — ٦٩ — ابن خرداذبه : المسالك والممالك . ص ١١

سمسار

٧٠ — وسيط وبائع . واللفظ فارسي « سبسار » ثم انتقل إلى الآرامية « سفسرا » ومنها إلى العربية « سمسار » ثم انتقل اللفظ العربي إلى كثير من اللغات الأجنبية Senaal سنسال .
٧١ — راجع رقم ٤١

جبة

٧٢ — هذا الثوب العربي الفصفاض قد استعارته اللغات الأوربية وأطلقته على جبة السيدات المستعملة حتى يومنا هذا . ففي الألمانية نجد « Juppe جبة » وقد استعارتها عن طريق إيطاليا حيث نجد « Guippa جبة » ومن ثم انتقلت إلى مختلف اللغات الحية .

داو

٧٣ — أوداوة لفظ هندي الأصل ثم استعارته الفارسية « داو » ومنها إلى العربية « داو » أو « داوة » وهو عبارة عن سفينة تمخر عباب البحر الأحمر من جدة إلى السويس . وقد عرض لها الجبرتي فذكرها . وفي غير البحر الأحمر نجد هذه السفينة في جنوب اليمن والخليج العربي والمحيط الهندي تعمل لا في نقل البضائع فقط بل استخدمها العرب قديماً في الحروب أيضاً .
وعن العربية انتقل هذا اللفظ إلى الإنجليزية حيث نجد « D (h) ow دو أو داو »
D (h) au .

دنجية

٧٤ — سفينة كثيرة الاستخدام في البصرة .

قربلة

٧٥ — أو قرييلة سفينة خاصة بنقل الخيول وقد تكون أسبانية الأصل وعن طريق العرب انتقل هذا اللفظ إلى كثير من اللغات الأجنبية .

فلوكة

٧٦ - فلوكة أو فلوكة ، اختلفت الآراء حول أصل هذه الكلمة ويرجح أنها العربية « فلك » وقد انتقلت إلى كثير من اللغات الأوربية فهي في الإنجليزية « فلوكة Felucca » والإيطالية « فلوكة feluca » والألمانية « فلوكة Feluke » .

ميزان

٧٧ - من مادة « وزن » في العربية أى حافظ توزيع الثقل للجسم فلفظ « ميزان » عبارة عن الشراع الخلقى في السفينة وهو الذى يحافظ على توزيع ثقلها بالنسبة للريح . وقد انتقل هذا اللفظ في العصور الوسطى إلى الإيطالية حيث نجد « ميزان mezzana » وفي الألمانية « ميزان Besahn » .

الحبل

٧٨ - انتقل هذا اللفظ إلى مختلف اللغات الأوربية في الإنجليزية « كابل Cable » والألمانية Kabel والفرنسية Cable وهلم جرا .

دار الصناعة Arsenal

٧٩ - انتقل اللفظ إلى الإيطالية مرتين مرة عن طريق البندقية حيث نجد « أرسينالا Arsenale » وأخرى بواسطة جنوه حيث نجد « دار صينا Darsena » . كما انتقل إلى مختلف اللغات الأوربية الأخرى في الألمانية « أرسينال Arsenal » والإنجليزية « أرسينال Arsenal » .

أمير البحر

٨٠ - انتقل إلى اللغات الأوربية حيث نجد صيغة « أدميرال Admiral » .

قلقاط

٨١ - ٨٢ - من لفظ « قلف » العربى التركى ومعناه « مقدم » العمال أو الفرقة ، ثم انتقل إلى اليونانية « كالافاتيس Kalafates » أى عامل بالسفينة . ثم يرجع أن صيغة « قلفط » في العربية دخلت من اليونانية بمعنى يعمل في السفن فأصبحنا نجد « قلفاط وقلفاطى » .

عوارية

٨٣ — ما يصيب السفينة في البحر من عوار .
وقد انتقل هذا اللفظ قديماً إلى الإيطالية Avaria ومنها إلى الألمانية Havraia ثم إلى غيرها من لغات .

كبر . كُبَّار . قُبَّار

٨٤ — نوع من التوابل .
وقد انتقل اللفظ من العربية إلى الفرنسية Capre ومنها إلى الألمانية Kaper فغيرها من اللغات .
٨٥ — راجع رقم ١٥ .

ياسمين

٨٦ — فارسية وانتقلت إلى العربية فسائر اللغات الأوربية .

ورد

٨٧ — لا غرابة في أن نجد هذا اللفظ في مختلف اللغات قديمها وحديثها فهذه الزهرة محبة منذ عرفها الإنسان .
وقد عرفت اسمها الأكادية حيث نجد «مردين» «وردن» ثم نجده قسمة بين مجموعتين مختلفتين من اللغات المجموعة السامية الحامية والمجموعة الهندية الأوربية . وقد تصرف كل أسرة من الأسرتين في اللفظ التصرف الذي يتفق وطبيعتها .
فن الأكادية انتقل إلى اليونانية رودون Wrodon فاللاتينية روزا Rosa فسائر اللغات الأوربية .
هذا فيما يتصل بالأسرة الهندية الأوربية . أما لغاتنا السامية فيرجح أن اللفظ انتقل من الأكادية إلى الفارسية القديمة (يرجح عن طريق الآرامية) «ورد» ومن ثم إلى العربية . فن كان يدري أن لفظ «روز Rose» هو : وردة ، وأن هذا اللفظ يصبح في اللغات عامة مصدراً لكثير من الأسماء المركبة أو المشتقة منه .

خيري البر

٨٨ — هي الزهرة المعروفة الآن باسم توليب Tulipe

أسليح

٨٩- شجيرة ذات أزهار جميلة تزهر في الربيع . وقد يطلق عليها أيضاً : بليحاء ، وفاغية ، وهي في اللغات الأوروبية الحديثة Reseda .

فورسيسيا

٩٠- شجيرة تزهر في الربيع من أشجار الزينة واللفظ أفريقي الأصل فورسيس Forayth .

بلد شين

٩١- قماش مزخرف يستخدم في مختلف الأغراض الهامة وتضعه الكنيسة على المذبح ووطنه الأصلي : بغداد ، ويرجح أن هذا اللفظ هو تحريف اللفظ : بغداد الذي حورته الإيطالية إلى «بلد شينو Baldacchino» من الاسم الإيطالي بلد شو Baldacco أي بغداد . وعن طريقها انتقل اللفظ إلى سائر اللغات الأوروبية .

بلوزه Bluse

٩٢- اشتهرت المدينة المصرية القديمة « بلوزيوم » بصناعة نوع من المعاطف المصبوغة بالنيلة وقد ذاع انتشار هذا اللباس حتى استخدمه رجال الحروب الصليبية وارتدوه فوق ملابسهم . واستعارت أوروبا من اللباس اسمه فأصبحنا نجد « بلوزيا pelusia » في لاتينية العصور الوسطى . ثم بلغت الكلمة فرنسا وإنجلترا حيث نجد «بلوز Blouse» . وفي عام ١٨٢٧ انتقل اللفظ من فرنسا إلى ألمانيا معبراً عن ثوب جديد من ثياب النساء ، ولم يقف عند ألمانيا بل انتشر شمالاً حتى بلغ الدنمارك والسويد فأصبحنا نجد « بلوزه Bluse » و « بلوز Blus » .

ومنذ الثورة البلجيكية التي نشبت عام ١٨٣١ أصبح للفظ « بلوزه » عبارة عن لباس العامل الذي أطلق عليه اسم « بلوزنمان Blusenmann » .

جبة

٩٣- من النادر أن نجد لفظاً عربيّاً قام برحلة في العالم قدام هذا اللفظ العربي وهو في كل بلد يتطور حسب الزمان والمكان .

فقد انتقل في العصور الوسطى إلى إيطاليا حيث نجد « Guippa » ومنها انتقل حوالي ١٢٠٠ م إلى شمال ألمانيا فنجد Juppe أو Schope أو Tjoppe ومنها إلى مختلف اللغات وإن كان يغلب على نوع من ملابس النساء المعروف لنا اليوم .

الفهرس

صفحة	
١١ - ٩	مقدمة المؤلف
٢٢ - ١٣	مقدمة المترجم

الكتاب الأول

٥٢ - ٢٣	البهار الیومی
	البهار الیومی - أسماء عربية لمنح عربية - أوربا تقاسی الحرمان لموقفها
	السلبی من التجارة العالمية - البندقية تحطم الحصار - فی مدرسة العرب

الكتاب الثاني

٨٠ - ٥٣	العدد
	التراث الهندي - البابا يستخدم الحساب العربي - تاجر يعلم الأوربيين -
	حرب الأعداد

الكتاب الثالث

١٣٢ - ٨١	السما فوقنا
	الأبناء الثلاثة لموسى الفلكي - الابن الأول الصانع - الابن الثاني
	الفلكي - الابن الثالث الرياضي - الفلك .

الكتاب الرابع

٢٣٥ - ١٣٣	الأيادی الشافية
	الشفاء الإفرنجی العجیب - مستشفيات وأطباء لم يعرف العالم مثلها -

أحد أطباء العالم العظام في مختلف العصور - قيود الماضي - على نهجهم
الكتب تصنع التاريخ - يقظة أوربا - قال ابن سينا - نصب العبقرية
العربية .

الكتاب الخامس

سيوف العقل ٢٣٧ - ٢٧٩
المعجزة العربية - أوربا بين الشك واليقين - شعارات المنتصر - مداد
العلماء خير من دماء الشهداء - الإنقاذ العربى وفائدته التاريخية -
الترجمة حدث ثقافى - الغرام بالكتب - شعب يتوجه إلى المدرسة -
هدية إلى أوربا .

الكتاب السادس

موحد الشرق والغرب ٢٨١ - ٣٣٩
دولة النورمان - توحيد القلوب المتنافرة - سلطان لو كيرا - البناء على
أسس عربية - حديث على الحدود - ميلاد نظرة جديدة للحياة .

الكتاب السابع

الفن العربى الأندلسى ٣٤١ - ٤٠٧
الصيغ الأولى لعبارة « السيدة المحترمة » فى أوربا - العالم كله مسجدى -
الموسيقى ترافق الحياة - زخارف الحياة - شعب من الشعراء - عبد الله
والحبيبة - المسالك فى أوربا .

الخاتمة ٤٠٩ - ٤١٢
تعليقات المترجم ٤١٣ - ٤٣٣

المؤلفة والكتاب



الدكتورة زيجريد هونكه ، مستشرقة ألمانية طائرة الشهرة ، أحبت العرب ، وما زالت ، وصرفت وقتها كله للدفاع عن تراثهم وقضاياهم وهي زوجة الدكتور شولتزا ، المستشرق الألماني الكبير الذي اشتهر أيضاً بصداقته للعرب . وكتابتها « شمس العرب تسطع على الغرب » هو ثمرة سنين طويلة من الدراسة الموضوعية العميقة ، التي تسلط الأضواء على ما للتراث العربي من فضل في نهضة الغرب العلمية والحضارية . وقد كان ظهور هذا الكتاب ، الذي نفخر بتقديمه إلى القراء العرب حدثاً كبيراً في ألمانيا وأوروبا فعلقت عليه مئات الصحف والمجلات ، ونال قسطاً عظيماً من الرواج حتى أعيد طبعه وترجم إلى عدة لغات أجنبية ، كما رحبت به الصحافة العربية ترحيباً بالغاً .

ونحن ، إذ نقدم إلى القراء العرب هذه الدرة الثمينة ، نرجو أن نكون قد أسهمنا في الجهود المباركة التي تصنع الانطلاقة العربية الحديثة ، لكي تعود شمس العرب من جديد فتغمر الشرق والغرب بالدفء والنور والحياة .
والكتاب مزين بمجموعة تاريخية من الصور النادرة تثبت سبق العرب في كل حقل من حقول العلم والثقافة .

Bibliotheca Alexandrina



0480784



دارالمعارف بمصر